القرآن وعلومه في مصر

(٢٠هـ - ٣٥٨هـ)

تأليف

الدكتور

عبد الله خورشيد البري

دار المعارف بمصر

القرآن وعلومه في مصر

(٢٠هـ - ٣٥٨هـ)



الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

تشكل القرون الثلاثة الأولى للهجرة – أو على وجه التحديد الفترة التى تبدأ بدخول العرب مصر سنة ٢٠هـ وتمتد حتى قيام الدولة الفاطمية سنة ٣٥٨هـ – مرحلة تاريخية هامة فى حياة الشعب المصرى وتطور المجتمع المصرى . فنى خلال هذه الفترة غير المصريون لغتهم للمرة الأولى وغيروا دينهم للمرة الثانية . وفى الوقت نفسه دخلت إلى المجتمع عناصر جنسية جديدة أدت إلى إعادة تشكيل تكوينه الطبقى . وفى كلمة اكتمل فى هذه الفترة ميلاد مصر العربية الإسلامية التى ما نزال حتى اليوم قائمة حية فى مصر الحديثة المعاصرة .

وقد عنى بعض الباحثين – غربيين ومصريين – بجمع المادة العلمية الخاصة ببعض جوانب هذه الفترة ودراستها جرياً وراء كشف وفهم عملية التطور التى دارت فى صميم الحياة المصرية حينذاك .

ولما كانت القبائل العربية التى دخلت مصر مع الفتح ، والقبائل التى ظلت تدخلها طوال الفترة المذكورة ، قد لعبت دوراً أساسياً فى توجيه الحياة المصرية وتطويرها ، فقد تناولت هذا الموضوع فى كتاب سابق[1] درست فيه وفود هذه القبائل إلى مصر ، وكثافتها العددية ، ومميزاتها الخاصة ، وتحركاتها فى مدن مصر وريفها ، والشخصيات العامة أو الهامة التى ظهرت منها ، والأدوار التى لعبتها اقتصادياً أو اجتماعياً أو عسكرياً أو سياسياً أو فكرياً أو دينياً أو أدبياً على مسرح الحياة المصرية .

على أن القرآن الكريم هو ، فى الواقع ، أهم ما حمل العرب معهم إلى مصر وغير مصر من البلاد التى دخلوها ، فهو كتاب الثورة الإسلامية الكبرى التى قدر

---

(١) القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة – القاهرة – ١٩٦٧ .

للعرب أن ينشروها خارج بلادهم ، وهو دستور المجتمع الجديد الذى بدأ يتشكل فى البلاد التى نجحت فيها هذه الثورة ، ثم هو روح تلك الحضارة الإسلامية التى ازدهرت بعد أن أصبح الإسلام حركة عالمية أخذت مكانها فى سياق الحركة التاريخية العامة للمجتمع الإنسانى .

أغرانى ذلك بأن أحاول أن أعرف متى دخل القرآن مصر ؟ وعلى أى صورة كان : محفوظاً فى الصدور ، أم مدوناً على الورق وغيره . أم على الصورتين جميعاً ؟ وكيف كان الناس يتعلمون القرآن ؟ ومن كان يعلمهم إياه ؟ وماذا حدث فى مصر عندما كتب عثمان مصحفه ، وأرسل نسخاً منه إلى عواصم الإمبراطورية العربية ، وأمر بإحراق كل ما هنالك من مصاحف سابقة للصحابة والتابعين ؟ وهل كتب المصريون بعد ذلك مصاحف خاصة بهم ، وكيف كتبوها ، وما كان مصيرها ؟

أنتج المجتمع الإسلامى شخصية جديدة أصبحت تعرف باسم « القارئ » لم تقتصر مهمته على مجرد قراءة القرآن وإقرائه — أى حفظه وتحفيظه — بل تجاوزتها إلى قيادة الثورات وممارسة العمل السياسى . فكيف ظهر هذا القارئ فى مصر ؟ وكيف سلك ، وماذا فعل وإلى أين انتهى؟ ثم إن العالم الإسلامى قد اشتهر فيه قراء، وذاعت قراءات. وقامت مدارس لهذه القراءات . فهل ظهرت مدرسة مصرية للقراءة ، ومتى ، وأين . وكيف كانت علاقتها بالمدارس الأخرى ؟ ومن أعلامها ، وما آثارها ؟

كان المسلمون فى حياة النبى نفسه يهتمون بأن يقفوا على المعنى الصحيح لآيات كتابهم المقدس وكلماته . وقد تطورت هذه الرغبة الطبيعية مع الزمن حتى أصبحت علما قائماً بذاته نبغ فيه أعلام وأعلام ، ذلك هو : التفسير . فا كانت البدايات الأولى لهذا العلم فى مصر ؟ وكيف تطور ؟ وهل ظهرت مدارس للتفسير ؟ وما كان منهجها ، ومن كان أعلامها ؟ وكيف كانت علاقتها بمدارس التفسير الأخرى ؟ وماذا بقى من آثارها ؟

كانت نتيجة محاولة الإجابة عن كل هذه التساؤلات هى ذلك الكتاب الذى يسعدنى أن أقدمه اليوم إلى القراء والمهتمين بالدراسات القرآنية فى كل مكان، راجياً أن يلقى ضوءاً على تلك الفترة المبكرة من حياة كتاب العربية الأقدس فى مصر بخاصة، وفى غيرها من بلاد العالم الإسلامى بعامة .

أما القضية الأساسية التى أطمح إلى أن يكون هذا الكتاب وثيقة علمية لإثباتها فهى أن الحماس المخلص الذى تلقى المصريون به القرآن الكريم ، والجهد السخى الذى بذلوه فى تدوينه وقراءته وتفسيره إذ يقومان دليلا على تقبلهم للثورة الجديدة ، واستجابتهم للتطور الجديد ، وتلاؤمهم مع الحركة العالمية الجديدة يقومان فى الوقت نفسه دليلا على تلك السمة العريقة للحياة المصرية وهى : العالمية ؛ هذه السمة التى تتبدى فى أن مصر — منذ أن ابتكرت حضارتها الأصيلة — ظلت تسهم فى كل حركة عالمية ، وتشارك فى كل حضارة إنسانية ، دون أن تختفى لحظة من على مسرح التاريخ .

أما بعد — فلابد لى من أن أختم هذه الكلمة بكلمة شكر وتقدير للأستاذ الجليل الدكتور عبد العزيز الأهوانى أستاذ كرسى الأدب المصرى بكلية الآداب من جامعة القاهرة سابقاً الذى تفضل بتصدير الكتاب ، وكان قد أولاه عطفه وعنايته وهو ما يزال فى دور التكوين .

وكلمة أخرى شاكرة عارفة للسيدة زوجتى التى وجدت فى إخلاصها وذكائها أكبر العون .

ويسعدنى أن أسجل بالشكر الجميل تفضل أخى وأستاذى ؛ الأستاذ أحمد خورشيد ، ببذل علمه وجهده فى مراجعة تجارب هذا الكتاب .

عبد الله خورشيد البرى

القاهرة
يناير ١٩٦٩

تصدير

بقلم الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى

يتعرض الباحثون فى تاريخ الثقافة العربية حين يعرضون لتاريخ هذه الثقافة فى الأقطار التى تعربت بعد الفتح الإسلامى لنوعين من الصعوبات لا يسهل التغلب عليهما حين يتعلق الأمر بالقرون الأولى التى تلت الفتح .

أما الصعوبة الأولى فتتصل بالمادة التاريخية . وأما الصعوبة الثانية فتتصل بتقييم هذه المادة والحكم عليها حضاريًّا .

والأمر فى المادة التاريخية واضح . فمن الطبيعى أن تتجمع هذه المادة حول مركز الدائرة ، وتتضاءل كلما ابتعدنا عن هذا المركز شرقاً وغرباً أو شمالا وجنوباً . ولقد كان مركز الثقافة العربية — دينيًّا ودنيويًّا — يقوم عند ظهور الإسلام فى هذا الجزء الغربى من الجزيرة العربية : مكة والمدينة وما حولهما من قرى وبادية ثم انتقل هذا المركز إلى دمشق فى العصر الأموى وإلى المدن التى استقرت فيها القبائل العربية فى سواد العراق : الكوفة والبصرة . ثم ظهرت بغداد بظهور الدولة العباسية فأصبحت من أكبر المراكز الثقافية فى العالم كله منذ أواخر القرن الثانى إلى منتصف القرن الرابع .

فإذا تجاوزنا هذه المراكز المذكورة إلى غيرها من عواصم الأقطار الإسلامية كالفسطاط والقيروان وقرطبة أو نظائرها شرقاً لم نكد نظفر إلا بالنزر القليل الذى يزداد شيئاً فشيئاً كلما ابتعدنا عن العصور الأولى منحدرين مع سير التاريخ ، وازدياد التعريب ، واكتمال الاستقلال السياسى فى الأقطار لتعدد الدول نتيجة انفتت السلطة المركزية . ومع ذلك فهذه المادة التى تزداد مع الزمن لا تسير متوازنة بحيث يظفر كل جانب من جوانب الثقافة بحصة أو بنصيب من العناية يتكافأ مع الجانب الآخر . ثم إن هذه العناية — مسجلة فى وثائق ونصوص مكتوبة — تظل تحت رحمة القدر خلال العصور التالية فيضيع منها ما يضيع ، ويبقى ما يبقى ، ويتسرب منها إلى مؤلفات المتأخرين ما يتسرب .

ولقد واجه الدكتور عبد الله خورشيد البرى هذه الصعوبة الأولى ، وحاول وهو يؤرخ للقرآن وعلومه فى مصر فى هذه القرون الأولى أن يتغلب على هذه العقبة . وبذل فى سبيل ذلك جهداً عظيما . ومد من آفاق الدراسة والبحث ، فعرض لعلوم القرآن – قراءة وتدويناً وتفسيراً – فى غير مصر من أقطار سبقت إلى هذه العلوم ليلقى بذلك ضوءاً على ما كان يحدث بمصر . وقد وفق الباحث توفيقاً كبيراً فى استخلاص المادة من مصادرها المتفرقة ، وربط ما بينها وبين نظائرها ، متمثلا فى ذلك التطور التاريخى للمجتمع والثقافة والحياة الأدبية ؛ حتى ليبدو للقارئ أحياناً أن الباحث قد تجاوز حدود قطره ، وتوسع فى جولاته خارج الحدود ، وإن وضح العذر .

وهذه الملاحظة تقودنا فعلا إلى الصعوبة الثانية التى يواجهها الباحثون عند تأريخهم للحياة العقلية أو الأدبية فى الأقطار التى تبعد عن المراكز الحضارية الأولى . إن هذا التجاوز أو التوسع الذى أشرنا إليه يدل على وحدة هذه الحضارة الإسلامية العربية وتشابه وقعها أو اتجاه سيرها فى مختلف الأقطار ، كما يدل على التجاوب المستمر الذى لايعترف بالحدود المكانية والحواجز الجغرافية أو السياسية .

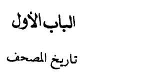
ولكن الباحث مع ذلك يريد أن يتبين طابعاً خاصًّا يتميز به القطر الذى يدرسه عن الأقطار الأخرى ؛ ويود أن يكتشف شخصية مصرية ذات دور محدد فى التطور العام للحضارة الإسلامية العربية ، وخاصة حين يتصل الأمر بقطر – كمصر – له ماض حضارى عريق ، وكان خلال العصور السابقة ملتقى لحضارات عديدة .

ولقد حاول الدكتور عبد الله خورشيد البرى هذه المحاولة ، وهو أمر جدير بالتقدير وله ما يبرره من المنهج العلمى . ولكن الثمار التى اجتناها فى هذا المجال كانت قليلة ، وأعتقد أنها ستظل قليلة ، خاصة حين يتصل الأمر بالعلوم الدينية واللغوية ، أى بالعلوم التى يغلب عليها طابع الرواية والتى يحرص حاملوها من العلماء على مبدأ الاتباع وشرعية الاجتهاد ، فضلا عما هو معروف من أن المراكز الحضارية الكبرى ظلت تمتلك من وسائل المعرفة ؛ ومن النصوص ، ومن التقاء العناصر العلمية ومن سخاء الدولة ، ومن كثرة الطلاب والأساتذة ما لم تمتلكه المراكز الأخرى فى تلك العصور الأولى ، بحيث لم تجد هذه المراكز الأخيرة غضاضة فى أن يكون موقفها من الأولى موقف التلميذ من الأستاذ .

وهذه قضية منهجية تحتاج إلى نقاش طويل وإلى بسط لا يتسع له هذا التصدير.

ولكن ستظل أولى خطوات القضية هي هذا العكوف الجاد الصبور على دراسة الحياة الثقافية فى مختلف أقطار العالم الإسلامى والتأريخ لها بعد جمع المادة، واستكشاف مصادرها، ورصد تفاصيلها؛ ثم الاجتهاد فى تفسيرها وتوضيحها، وتتبع جزئياتها، والمقارنة بينها وبين نظائرها، وصلة بعضها ببعض؛ وهو ما يقدمه لنا اليوم الدكتور عبد الله خورشيد البرى فى بحثه هذا عن القرآن وعلومه فى مصر خلال عصر الإمارة.

١٩٦٩/١/٣١ عبد العزيز الأهوانى



الباب الأول

تاريخ المصحف



١ – المصاحف القديمة

كان القرآن أهم ما حمله معهم الجنود العرب الذين فتحوا مصر سنة ٢٠هـ . وكان من هؤلاء الجنود من يحمله فى صدره كلاماً محفوظاً ، ومنهم من يحمله فى متاعه كتاباً مسجلا. وبالرغم من أن الكتابة لم تكن شيئاً نادراً بين هؤلاء الفاتحين[١] . فليس لنا أن نظن أن القرآن المكتوب – كله أو بعضه – كان مألوفاً . بل علينا أن نقنع فنقدر أن نسبة قليلة من هؤلاء الفاتحين كانت تملك بعض سور الكتاب المقدس مسجلة بالطريقة المألوفة فى جزيرتهم على الرقاع والعسب واللخاف والأكتاف[٢]. أما امتلاك سور الكتاب الكريم كاملة ومدونة على النحو الذى عرف فيما بعد باسم المصحف فلم يكن يتيسر لغير من يجمع بين التفوق الثقافى والتفوق المادى . وتشير الأخبار المتبقية لدينا واحتمالاتها إلى وجود بعض المصاحف المكتوبة فى مصر فيما بين الفتح وظهور مصحف عثمان الرسمى .

(١) مصحف معاذ بن جبل (ت ١٨ هـ) :

نال معاذ بن جبل ثقة النبى وإعجابه قارئاً وفقيهاً ومفتياً وقاضياً[٣]. ومن الثابت – بالرغم من اختلاف الروايات – أنه كان من هذه القلة من الصحابة الأوائل الذين كان لهم فخر جمع القرآن كله على عهد النبى[٤] . وبالرغم من

---

(١) من الكاتبين فى جيش الفتح كان : عبد الله بن سعد بن أبى سرح (البلاذرى : فتوح البلدان : ٥٨٠ ، ٥٨٢) ، عقبة بن عامر (ابن دقماق : الانتصار – ٤ : ١١ ، ابن حجر العسقلانى تهذيب التهذيب – ٧ : ٢٤٣ عن ابن يونس) ، عبد الله بن عمرو بن العاص . (ابن سعد : الطبقات– ج ٢ ق ٢ : ١٢٥) ، غرفة بن الحارث الكندى (ابن حجر : ت . التهذيب – ٨ : ٢٤٥) وردان مولى عمرو (ابن تغرى بردى : النجوم – ١ : ٢٥)

(٢) أبو بكر السجستانى : كتاب المصاحف : ٧ ، ٨

(٣) ابن سعد : الطبقات – ج ٢ ق ٢ : ١٠٧ – ١٠٨ ، ج ٧ ق ٢ : ١١٤

(٤) ابن الجزرى : غاية النهاية : ٢ : ٣٠١ . السيوطى : الإتقان – ١ : ٧٠ – ٧٢ . ووهم السيوطى حين نقل من كتاب القراءات لأبى عبيد القاسم بن سلام أنه هو المكنى أبا حليمة (إتقان ١ : ٧٢) ، فذاك معاذ آخر أقامه عمر يصلى التراويح وتوفى سنة ٦٣ هـ (انظر : النجوم ١ : ١٩١)

اختفاء معاذ المبكر من مسرح الحياة فى طاعون عمواس الذى اجتاح الشام سنة١٨هـ[١] ظلت قراءته الخاصة حية على ألسنة المسلمين الذين أخذوا القرآن عنه ، تزاحم قراءة أُبَيّ وقراءة ابن مسعود ، فى خلافة عثمان[٢]. وقد ذهب معاذ إلى اليمن وحكمها باسم النبي[٣]. ثم انتقل إلى الشام[٤]، ولكنه لم يتجاوز قط حدود الأردن حيث لاقى حتفه المبكر . غير أن رجالا يمنيين ممن كانوا قد قدر لهم أن يكونوا من أهل مصر فيما بعد اتصلوا به فى اليمن ، وتتلمذوا عليه ، وأخذوا القرآن عنه . من هؤلاء الرجال الذين شهدوا الفتح وأقاموا بمصر :

عبد الرحمن بن ملجم المرادى (ت ٤٠هـ) قاتل على بن أبى طالب ، والذى كان الخليفة عمر كلفه رسميًّا إقراء المصريين القرآن ، وأمر له تسهيلا لمهمته بمنزل قريب من المسجد الجامع[٥]. وأبو تميم الجيشانى . عبد الله بن مالك (ت٧٧هـ) القارئ العالم العابد[٦].وليس ثمة ما يمنعنا من أن نتوقع أن كلا من هذين التابعين القارئين المثقفين كان يملك مصحفاً خاصًّا به نسخه عن مصحف أستاذه معاذ .

(ب) مصحف عقبة بن عامر (ت ٥٨ هـ) :

لانكاد ننظر فى أخبار هذا الصحابى القائد الأمير الذى اشترك فى فتح مصر ثم حكمها نيابة وأصالة (٣٥هـ ، ٤٤ — ٤٧ هـ)[٧] حتى نحس أننا إزاء رجل مستنير ذكى يتمتع بمزايا فكرية واضحة . فهو يقرأ ويكتب . وهو فصيح اللسان ويقول الشعر . وهو عالم بالقانون الإسلامى الجديد — الفقه والفرائض — حتى لقد كلفه النبي أن يقضى بين خصمين اختصما إليه . وفى مصر أصبح مفتى البلد[٨].

---

(١) ابن سعد : الطبقات — ج ٧ ق ٢ : ١١٥ (٢) السجستانى : المصاحف :

(٣) ابن سعد : الطبقات — ج ٣ ق ٢ : ١٢١ ، ج ٧ ق ٢ : ١١٤

(٤) المصدر نفسه — ج ٣ ق ٢ : ١٢٣ ، ١٢٥

(٥) المسعودى : مروج الذهب — ٢ : ٤٠ . السمعانى : الأنساب : ١٠٤ أ ، ابن دقماق : الانتصار — ٤ : ٦ . ابن تغرى بردى : النجوم — ١ : ١١٤ ، ١١٩ .

(٦) ابن سعد : الطبقات — ج ٧ ق ٢ : ٢٠٠ . ابن الأثير : أسد الغابة — ٥ : ١٥٢ . ابن حجر : ت . التهذيب — ٥ : ٣٧٩ — ٣٨٢ . السيوطى : حسن المحاضرة — ١ : ١١٨ ، ٢٠٧

(٧) ابن سعد — ج ٧ ق ٢ : ١٩١ ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٩٤ . الكندى : الولاة : ١٣ ، ٣٦ ، ٣٧

(٨) ابن عبد الحكم : فتوح : ٩٥ ، ٢٢٨ ، ٢٩٤ . الكندى : ولاة : ٣٧ . ابن حجر : ت . التهذيب — ٧ : ٢٤٣

ولم يكن أسهل على عقبة من أن يكتب لنفسه ، وبيده ، مصحفاً خاصاً به مثله فى ذلك مثل كثير من الصحابة القادرين الذين كتبوا أو استكتبوا لأنفسهم مصاحف[١]. ونال مصحف عقبة من عناية المصريين . الذين أحبوا صاحبه ورووا عنه فى حياته[٢] ، ثم أصبح لهم فيه اعتقاد عظيم واتخذوا من قبره مزاراً بعد مماته[٣] ، ما حفظ عليه البقاء حتى أوائل القرن الرابع الهجرى فى الأقل عندما رآه رأى العين المؤرخ المصرى ابن يونس (ت٣٤٧ هـ) عند زميله ابن قديد (ت٣١٢هـ). وسجل ابن يونس على هذا المصحف اتسامه بظاهرة عامة فى مصاحف السلف هى الاختلاف فيما بينهما فى ترتيب السور[٤] . فقد كان « على غير تأليف مصحف عثمان » ، أى أن سوره مرتبة ترتيباً خاصاً لعله تاريخى . كما لفتت جودة خط الصحابى الأمير نظر ذلك المؤرخ الدقيق فنص عليها[٥] .

(حـ) مصحف عبد الله بن عمرو بن العاص (ت ٦٥ هـ) :

وفى عبد الله بن عمرو بن العاص نجد أنفسنا أمام شخصية تتمتع بالتفوق الفكرى كذلك . فهو لا يقرأ العربية ويكتبها فحسب . ولكنه يعرف السريانية كذلك، ويقرأ بها كتب أهل الكتاب . وهو يكتب عن النبى ؛ ويصرفه الاجتهاد فى العبادة وتلاوة القرآن عن واجبه نحو نفسه ونحو أهله بالرغم من ثرائه الواسع[٦].

---

(١) كان لكل من عمر ، على ، أبىّ ، ابن مسعود ، ابن عباس ، عبد الله بن الزبير ، عائشة ، حفصة ، أم سلمة مصفحه الخاص به . راجع : أبا عبيد : فضائل القرآن : ٣٧ – ٣٩ ، ٤٣ . السجستانى المصاحف : ٥٠ – ٨٨ . ابن النديم : الفهرست : ٢٦ ، ٢٧ . الدانى : المقنع : ٦٤ ، ١٠٩ . الزركشى : البرهان – ٢ : ٣٧

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح : ٢٨٨ – ٢٩١ . ابن تغرى برد : النجوم – ١ : ١٢٧ . السيطى : حسن – ١ : ٩٢

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم – ١ : ١٢٨ ،

(٤) السيوطى : الإتقان – ١ : ٦٢

(٥) ابن دقماق : الانتصار – ٤ : ١١ . ابن تغرى بردى : النجوم .– ١ : ١٢٧

(٦) ابن سعد : الطبقات – ج ٢ ق ٢ : ١٢٥ ، ج ٧ ق ٢ : ١٨٩ ابن عبد الحكم : فتوح ٩٧ ، ٢٥٤ . ابن عبد ربه : العقد ٢ – ٣٧٥ . أبونعيم : حلية الأولياء – ١ : ٢٨٦ الذهبى : تذكرة الحفاظ – ١ : ٣٦ ابن تغرى بردى : النجوم ١ : ١٧١ . السيوطى : الإتقان ١ : ٧٠

وكان طبيعيًّا جداًّ مع هذا أن يتخذ عبد الله لنفسه ، مثله مثل سائر الصحابة المثقفين ، مصحفاً خاصًّا يسجل فيه ما يتلقاه من القرآن الكريم عن النبي مباشرة . وبالرغم من أن أمر عثمان بإتلاف المصاحف الخاصة بعد نشر مصحفه الرسمى الموحد كان أمراً عامًّا وصريحاً، فقد استطاع بعض هذه المصاحف – ربما لأسباب تتعلق بمكانة صاحب المصحف الاجتماعية – أن يفلت من الدمار ويواصل الاحتفاظ بالبقاء . وكان من هذه المصاحف الناجية مصحف عبد الله بن عمرو ومثله مثل مصحف زميله عقبة . غير أن مصحف عبد الله لم يستمر بمصر ، فقد ظل أبناؤه وحفدته يحفظونه كتراث عائلى ويتناقلونه مع راية النبي السوداء التي كانت مع جدهم الأعلى عمرو بن العاص حتى تهيأ للقارئ الكوفي الشهير أبي بكر بن عياش (ت١٩٣هـ) أن يطلع عليه في الكوفة مع حفيد لعبد الله بن عمرو ، ويقرر أنه يختلف اختلافاً بيناً عن كل من مصحف ابن مسعود والمصحف العثمانى وبالتالى عن المصاحف المستعملة حينذاك أى فى القرن الثانى الهجرى[1] .

(د) مصحف عبد الله بن عباس (ت ٦٨ هـ) :

فى عام غير معلوم من أعوام خلافة عثمان (٢٤ – ٣٥هـ) دخل مصر الصحابى الكبير عبد الله بن عباس الذى لعب أهم الأدوار فى فهم النص القرآنى[2] . وتزعم الرواية أنه كان إلى جانب عمرو بن العاص أمير مصر وهو يحتضر (٤٣هـ) ، وأنه خاطبه خطاباً مؤنساً فى تلك اللحظات الرهيبة[3] . وكان طبيعيًّا أن يروى عنه أهل مصر الأحاديث[4] . وينسب إليه رأى فى السكان الوطنيين (القبط) غير جميل يغلب على الظن أنه متأثر فيه بوجهة النظر الإسرائيلية[5] .

وكان لابن عباس مصحفه الخاص[6] وطبيعى أنه كان يحمله معه فى زيارته مصر .

---

(١) السجستانى : المصاحف : ٨٣ .

(٢) ابن سعد : الطبقات – ج ٢ ق٢ : ١١٩–١٢٤ . ابن الجزرى : غاية – ١ : ٤٢٥–٤٢٦

(٣) المبرد : الكامل – ١ : ٢٦٧ . ابن تغرى بردى : النجوم – ١ : ١١٥ – ١١٦

(٤) السيوطى : حسن – ١ : ٩٠ (٥) ابن تغرى بردى : النجوم – ١ : ٥١

(٦) أبوعبيد : فضائل القرآن : ٣٦ . السجستانى : المصاحف : ١٩ – ٢٠

تلك هي المصاحف التى نستطيع أن نطمئن إلى أنها ظهرت فى مصر منذ الفتح حتى كتابة مصحف عثمان . ومن المسلم أنها مصاحف خاصة كتبها أصحابها لاستعمالهم الشخصى ، وأثبتوا فيها السور والآيات من حيث العدد والترتيب والألفاظ وفق ما أداهم إليه الحفظ والسماع ؛ وطبيعى أن المصريين اعتمدوا على هذه المصاحف وغيرها من أمثالها مما قد يكون ضاعت عنا أخباره ، فكانوا يقرءون منها وينسخون مصاحفهم عنها . ومصر فى هذا لا تشذ عن سائر الأمصار الإسلامية حيث كان الأفراد يتداولون أكثر من مصحف إلا أن يبذ أحد المصاحف غيره فى الذيوع والاستئثار بألسنة الناس نتيجة لقوة شخصية صاحبه وثقة الناس فى علمه ودينه مثلما اتبع أهل الكوفة مصحف ابن مسعود ، وأهل البصرة مصحف أبى موسى الأشعرى الذى كان يعرف باسم « لباب القلوب » . وأهل دمشق وحمص مصحف المقداد ابن الأسود ، وأهل الشام بعامة مصحف أبىّ بن كعب[١] . ولقد كان مما يتمشى تماماً مع منطق الأوضاع فى مصر أن يتبع أهلها مصحف عقبة أو مصحف عبدالله ابن عمرو أو كليهما معاً . وإن كانت الأخبار لاتقدم لنا فى هذه المسألة سوى الصمت .

على أن تعدد المصاحف التى يأخذ عنها المسلمون قرآنهم أدى بصورة حتمية إلى نشوب جدل عنيف ، أوشك أن ينقلب إلى صدام بين الجنود فى الثغور — أى على الحدود[٢] — وإلى تبادل الاتهام بالكفر بين الأفراد والمعلمين والغلمان فى المدن[٣] ، حول حجية قراءة كل منهم . ولم يكن مشروع إصدار مصحف رسمى موحد الذى اضطلع به عثمان سوى رد الفعل السليم من جانب الدولة لقطع الطريق على ذلك العامل الخطر الذى يتهدد كيان الجماعة الإسلامية بالتمزيق

---

(١) الطبرى : جامع البيان – ١ : ٢٠ . السجستانى : المصاحف : ١١ – ١٣ . ابن الأثير : الكامل – ٣ : ٨٦ . أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر – ١ : ٢٦٤ (ط . لاهاى) ، ١ : ١٦٧ (ط . القاهرة) . ابن كثير : البداية والنهاية – ٧ : ٢١٦ . ابن خلدون : العبر – ٢ : ١٣٥ . Ency. Isl. Koran, II, 1069-1070 جفرى : المقدمة العربية لكتاب المصاحف : ٥ ، ٦ . M. H. T. Q. p. 7 حيث يشير جفرى إلى ما لحظه برجستراسر من احتمال أن يكون اسم المقداد بن الأسود مجرد تحريف لاسم معاذ بن جبل

(٢) أبو عبيد : فضائل القرآن : ٣٦ . السجستانى : المصاحف : ١٨ ، ١٩ – ٢٠ ، ٢١

(٣) السجستانى : المصاحف : ١١ – ١٢ ، ١٣ – ١٤ ، ٢١ ، ٢٣

مثلما تمزقت جماعات دينية من قبل بسبب اختلافها على كتابها المقدس[١] .

وإذا كانت أخبار مصر لم تحتفظ ، لعلة أو لأخرى ، بآثار هذا الخلاف الذى هز العالم الإسلامى حينذاك فإن ذلك لا يعنى بالضرورة انعدامه . وأيًّا كان الأمر فإن النقطة التالية التى يفرضها البحث هى ظهور المصحف العثمانى فى مصر .

٢ — مصحف عثمان

(ا) متى كتب ؟

من أهم الأعمال التى حققها عثمان ، إن لم يكن أهم أعماله جميعاً ، أنه كتب صورة موحدة من القرآن ، أرسل منها نسخاً إلى الأمصار الإسلامية ، وأمر بإحراق كل ما هنالك من نسخ أخرى للكتاب الكريم .

فهل جاءت إلى مصر واحدة من هذه النسخ ؟ ومتى .

عندما حاولت الإجابة عن هذا السؤال تصدى لى سؤال آخر لم أستطع أن أتجاهله أو أتجاوزه وهو : متى كتب عثمان مصحفه ؟

مرت عملية جمع القرآن ، التى بدأت فى حياة النبى ، بمراحل مختلفة انتهت بأن شكل عثمان لجنة كتبت نصًّا موحداً للقرآن ، وفقاً للعرضة الأخيرة التى اعتمدها النبى فى آخر أعوام حياته (١١هـ)[٢] . كما التزمت فى تدوين ذلك النص لغة قريش[٣] . أما السور فقد رتبت ترتيباً تنازليًّا من حيث الطول باستثناء سورة الفاتحة[٤] .

فتى قطعت هذه المرحلة التى كانت جمعاً للمسلمين أكثر مما كانت جمعاً للقرآن نفسه[٥] ؟

---

(١) يعبر عن هذا الإحساس ماينسب إلى حذيفة بن اليمان ، القائد العربى ، الذى استصرخ عثمان عندما لمس اختلاف الجنود حول قراءة القرآن أن يدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب كما اختلف اليهود والنصارى . راجع : السجستانى : المصاحف : ١٨ — ٢١

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية : ٧ : ٢١٦ — ابن الجزرى — النشر — ١ : ٧

(٣) المصاحف : ١٩ ، ٢٠

(٤) اليعقوبى : تاريخ — ٢ : ١٤٦ — ابن كثير : فضائل القرآن : ٣٦ — ٣٨

(٥) أمين الخولى : دائرة معارف الشعب : مادة القرآن الكريم — ١ : ٢٢

تسند الرواية إلى حذيفة بن اليمان – صاحب النبي ؛ وصاحب سره ، وفاتح نهاوند[١] – (ت ٣٦هـ)فضل إقدام الخليفة على إنجاز هذه العملية الجليلة . أما الذى حرك حذيفة إلىدرجة الفزع ، وجعله – فيا تصور الرواية – يركب من ميدان القتال – ربما – إلى العاصمة حيث يتجه فور وصوله إلى الخليفة فيصيح به أن يدرك المسلمين قبل أن يختلفوا كما اختلف اليهود والنصارى فهو تلك المجادلات العنيفة التى أوشكت أن تصبح اشتباكا مسلحاً بين الجنود العراقيين والجنود السوريين عندما اجتمعوا فى فتوح أرمينية وأذربيجان فتذاكروا القرآن فتعصب كل فريق لقراءاته متمسكاً بمصحف الصحابى الذى أخذ عنه[٢] .

وهكذا تربط الرواية بين هذه الفتوح وبين كتابة مصحف عثمان ، وتجعل من تاريخها بداية الطريق الطبيعى إلى تحديد تاريخ كتابة المصحف .

على أن من الحق أن استنكار حذيفة اختلاف أهل الأمصار فى القراءة نتيجة لاتباع أهل كل مصر مصحفاً بعينه هو مصحف أعلم الصحابة المقيمين بهذا المصر بالقرآن وأحفظهم له ، واستشعاره ما ينطوى عليه ذلك الاختلاف من خطورة آجلة على وحدة الصف الإسلامى قياساً على ما أصاب أهل الكتاب للسبب نفسه . . . من الحق أن ذلك تم فى وقت مبكر . فقد سجلت الرواية العراقية أن حذيفة طالما كان يجتمع فى الكوفة بعبد الله بن مسعود صاحب المصحف الذى يتبعه أهل الكوفة وأبى موسى الأشعرى صاحب المصحف الذى يتبعه أهل البصرة[٣] . وأنه اعترف يوما لابن مسعود بأنه صاحب الدعوة إلى توحيد القراءات مخافة اختلاف الناس[٤] ؛ وأن الأمر تطور إلى التشاد اللفظى بينهما وتصميم حذيفة على أن يطلب إلى الخليفة توحيد المصاحف عندما هاجمه ابن مسعود مصرحاً – كنتيجة لاعتداده الشديد بعلمه بالقرآن الذى أخذ بضعاً وسبعين سورة منه من فم الرسول مباشرة بحيث لم يعد هناك من هو أعلم به منه – بألا ضرورة لذلك التوحيد[٥] .

---

(١) ابن سعد : الطبقات – ٥ : ٢٨٥ ، ٦ : ٨ – ابن عساكر : تهذيب تاريخ دمشق – ٤ : ٩٣ – ١٠٢ – ابن الأثير : أسد الغابة – ١ : ٣٩١

(٢) سنناقش هذه الرواية تفصيلا بعد قليل .

(٣) كتاب المصاحف : ١٣ ، ١٤

(٤) المصدر نفسه : ١٤

(٥) المصدر نفسه : ١٣ ، ١٤

وسجلت الرواية المدنية هذه الظاهرة العامة نفسها حين تحدثت عن اختلاف الناس بعامة فى القراءة ، واختلاف المعلمين – ثم غلمانهم بالتالى – بخاصة ، اختلافاً بلغ حد تبادل الاتهام بالكفر مما أفزع الخليفة نفسه وجعله يدعو الصحابة إلى أن يجتمعوا فيكتبوا للناس إماما[١] .

ولئن كان اختلاف المسلمين فى قراءة القرآن يثير غضب حذيفة ومخاوفه أيام السلم وهم مجتمعون فى المسجد . إن اختلافهم فى ذلك وهم يواجهون العدو العنيد فى ميدان القتال حيث ترخص الحياة البشرية ويسهل القتل أشد إشعالا لغضبه وإثارة لمخاوفه وهو القائد الذى يعرف قيمة وحدة الصف والمؤمن الذى يدرك حكمة وحدة الجماعة .

فمتى كانت هذه الغزوة فى أرمينية وأذربيجان التى تجلت فيها خطورة اختلاف المسلمين فى القراءة ؟

* * *

من السهل أن نلاحظ أن الرواية التى تحدثت عن فتوح أرمينية ، واشتراك جنود الشام وجنود العراق فيها ، واختلاف الفريقين ، إنما هى روايتان لا رواية واحدة : رواية المحدثين ، ورواية المؤرخين .

أولا : رواية المحدثين :

الأصل فيها ذلك الخبر الذى يرويه زيد بن ثابت (ت٤٥هـ) وأنس بن مالك (ت ما بين ٩١–٩٥هـ) .

ويرتبط الزمن فى هذه الرواية بمعركة من معارك فتوح أرمينية وأذربيجان فى خلافة عثمان (٣٤ – ٣٥هـ) .

ويستتبع ذلك أن يكون المكان بقعة ما فى هذه البلاد .

أما الأشخاص فهم جنود الشام . وجنود العراق ، وحذيفة بن اليمان .

وليس من الشاذ أن يتذاكر الجنود – كما تقول الرواية – القرآن ، فى فترات توقف القتال طبعاً .

وسرعان ما لوحظت الفروق فى القراءة ، فالجنود السوريون يقرءون وفق ما حفظوا

---

(١) المصدر نفسه : ٢١ ، ٢٢

من مصحف أُبَيّ بن كعب ، فى حين قد حفظ العراقيون من مصحف عبد الله ابن مسعود .

وادعى كل فريق أن قراءته هى الأصح ورمى الفريق الآخر بالكفر حتى كاد يكون بينهم فتنة .

ورأى حذيفة فى ذلك تحققاً مفزعاً للمخاوف التى طالما راودته من قبل ، فطلب إلى عثمان ، الذى بادر إلى إجابة طلبه . أن يكتب مصحفاً موحداً للمسلمين .

تظل هذه الرواية تقابلنا طوال القرنين الأول والثانى ومطلع القرن الثالث ، أى منذ حفظها وأذاعها زيد بن ثابت وأنس بن مالك . ثم سجلها أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) فى كتابه « فضائل القرآن »[١] . ثم رواها البخارى (ت ٢٥٦ هـ)فى صحيحه[٢] ، ثم ذكرها الطبرى (ت ٣١٠ هـ) فى مقدمة تفسيره[٣] ، إلى أن أوردها أبو بكر عبد الله بن أبى داود السجستانى (ت٣٢٦هـ) فى كتاب المصاحف[٤] .

وتتسم الرواية فى هذه المرحلة بالعمومية . فهى تقرن دائماً بين أرمينية وأذربيجان متأثرة فيما يبدو بالتقسيم الإدارى الذى يضم أرمينية إلى أذربيجان دائماً[٥] بل إنها لاتعنى بتحديد المدينة التى دارت فيها أو عندها المعركة ، كما تجعل من الممكن إضافة المعركة إلى أى عام من أعوام حكم عثمان .

وتحرص الرواية على تصوير الحال النفسية لحذيفة ، فهو قد « أفزعه اختلافهم فى القرآن » وهو قد سمع من اختلافهم فيه « ماذعره » .وقدم حذيفة — أو « ركب » حتى قدم — على الخليفة « فلم يدخل بيته حتى أتى عثمان بن عفان فقال : « يا أمير المؤمنين أدرك الناس . فقال عثمان : وماذاك ؟ قال : غزوت فرج أرمينية... إلخ » .

ولم يكن الخليفة أقل فزعاً من قائده فبادر إلى كتابة القرآن على النحو الذى تمضى الرواية تحكيه .

---

(١) لوحة ٣٥ — ٣٦ (٢) ٦ : ٣١٥ — ٣١٦
(٣) ١ : ٢٠ ، ٢١ (٤) ص ١٨ — ٢١
(٥) دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) مادة أرمينية — ١ : ٦٥٧ .

هذا من حيث المتن .

أما من حيث السند فقد روى هذا الخبر فى المراجع المختلفة بطرق متعددة كالآتى :

أبو عبيد – فضائل القرآن :

١ – أبو عبيد قال : قال عبد الرحمن : حدثنا إبراهيم بن سعد عن الزهرى عن أنس بن مالك أن. . . . . . (لوحة ٣٦)

٢ – أبو عبيد قال : حدثنى أبو اليمان الحمصى عن شعيب بن أبى حمزة عن ابن شهاب عن ابن السباق أن زيد بن ثابت قال : . . . . (لوحة ٣٦)

٣ – أبو عبيد قال : حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن يونس عن ابن شهاب قال : أخبرنى ابن السباق عن زيد بن ثابت : . . . (لوحة ٣٦)

البخارى – الصحيح :

١ – حدثنا موسى بن إسماعيل: حدثنا إبراهيم بن سعد : حدثنا ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن . . . . (٦ : ٣١٥ – ٣١٦)

الطبرى – جامع البيان :

١ – حدثنى يونس بن عبد الأعلى قال: حدثنا ابن وهب قال: أخبرنى يونس قال : قال ابن شهاب : أخبرنى أنس بن مالك الأنصارى: . . . . (١ : ٢١)

أبو بكر السجستانى – كتاب المصاحف :

١ – حدثنا عبد الله قال : حدثنا محمد بن بشار قال : حدثنا عبد الرحمن قال: حدثنا إبراهيم بن سعد عن الزهرى عن أنس بن مالك أن: .... (ص١٨)

٢ – حدثنا عبد الله قال : حدثنا محمد بن يحيى قال : حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد قال : حدثنى أبى عن ابن شهاب عن أنس بهذا .... (ص ١٩)

٣ – حدثنا عبد الله قال: حدثنا محمد بن عوف قال : حدثنا أبو اليمان قال: أخبرنا شعيب عن الزهرى قال : أخبرنى أنس بن مالك الأنصارى .... (ص ١٩)

٤ – حدثنا عبد الله قال : حدثنا أبو الربيع قال : أخبرنا ابن وهب :

أخبرني يونس عن ابن شهاب : أخبرني أنس بن مالك الأنصاري : . . . .
(ص ٢٠ — ٢١)

إن هذا الخبر هو الخيط الوحيد الذى أبقاه الزمن فى أيدينا دليلا نرجو أن نهتدى به إلى الزمن الصحيح الذى كتب فيه مصحف عثمان . ولذلك يتحتّم علينا أن نبالغ فى الحذر والتردد قبل الاعتراف به ولو أدى ذلك إلى أن نعانى من جديد المشقة التى عاناها السابقون للتأكد من صحته .

بمناقشة رجال هذه الأسانيد التسعة التى روى الخبر عن طريقها — مع اعتبار عدالة أصحاب الكتب الذين انتهت إليهم الرواية التى سجلوها فى كتبهم أمراً مفروغاً منه — وهذا مؤكد — نجد أن خمسة عشر رجلا من مجموعهم البالغ تسعة عشر رجلا من الثقات ، وهم :

زيد بن ثابت (ت ٤٥ هـ) الذى يلمع اسمه مقترناً بتسجيل القرآن منذ عهد النبى حتى أيام عثمان [١] .

أنس بن مالك الأنصارى (ت ما بين ٩١ — ٩٥ هـ) خادم النبى الأمين ، الذى عاصر أحداث القرن الأول بدرجة عالية من الوعى يعبر عنها وصف عمر بن الخطاب إياه بأنه « لبيب كاتب »[٢] .

عبيد بن السباق ، من الطبقة الأولى من تابعى المدينة ، ثقة[٣] .

الزهرى ، محمد بن مسلم بن شهاب (ت ما بين ١٢٣ — ١٢٥ هـ) ، الإمام العلم ، الذى روى عن ويروى عنه عدد ضخم من الثقات التابعين[٤] .

شعيب بن أبى حمزة (ت١٦٢ هـ) ، أبو بشر الحمصى ، الثقة ، الذى جعله اشتغاله بالكتابة للزهرى من أثبت الناس عنه[٥] .

---

(١) أبو عبيد : فضائل القرآن : لوحة ٣٥ — ٣٦ — السجستانى : كتاب المصاحف : ٩ ، ١٤ — ٢٦ . ابن حجر : ت . التهذيب : ٣ : ٣٩٩ .

(٢) ابن حجر : ت . التهذيب — ١ : ٣٧٦ —٣٧٩ — ابن تغرى بردى : النجوم —١ : ٢٢٤

(٣) ابن سعد : الطبقات — ٥ : ١٨٧ . ابن حجر : ت . التهذيب — ٧ : ٦٦

(٤) ابن حجر : ت : التهذيب — ٩ : ٤٤٥ — ٤٥١ . ابن تغرى بردى : النجوم — ١ : ٢٩٤ — ٢٩٥

(٥) ابن سعد : الطبقات — ٧ق٢ : ١٧١— ابن حجر : ت . التهذيب — ٤ :٣٥١ — ٣٥٢ ؛ ٤٩ : ٤٧

الليث بن سعد (ت ١٧٥ هـ) . النبيل . المحدث ، المفتى ، فقيه مصر الجليل وصاحب الكلمة الأولى فيها[١] .

عبد الله بن وهب (ت ١٩٧ هـ) ، الإمام ، الفقيه ، الورع ، الذى كان معاصروه يسمونه « ديوان العلم »[٢] .

عبد الرحمن بن مهدى (ت ١٩٨هـ) . الإمام ، الحافظ ، الذى لم يعرف له الشافعى نظيراً فى الدنيا[٣] .

يعقوب بن إبراهيم بن سعد (ت ٢٠٨ هـ) . الصدوق ، الثقة ، المأمون ، الذى كثرت روايته لحديث الزهرى[٤] .

أبو اليمان الحمصى (ت ٢٢٢ هـ) ، النبيل ، الثقة ، الصدوق ، الذى روى البخارى عنه[٥] .

موسى بن إسماعيل (ت ٢٢٣هـ) ، الذى يكفيه أنه شيخ البخارى[٦] .

محمد بن يحيى الذهلى (ت ما بين ٢٥٢ — ٢٥٨ هـ) الذى تخصص فى حديث الزهرى حتى لم يعد أعلم به منه فى شهادة ابن حنبل ، وحتى كنى الناس جمعه ، بل حتى نسبه بعضهم إلى الزهرى لشهرته برواية حديثه[٧] .

أبو الربيع المصرى ، سليمان بن داود (ت ٢٥٣ هـ) ، الثقة ، الصالح ، الإمام ، الذى قل من رأى أبو داود صاحب السنن فى مثل فضله[٨] .

---

(١) الذهبى : تذكرة الحفاظ — ١ : ٢٠٢ — ٢٠٤ . ابن حجر : ت . التهذيب — ٨ : ٤٥٩ — ٤٦٤ . ابن تغرى بردى : : النجوم — ٢ : ٨٢ .

(٢) الذهبى : تذكرة الحفاظ — ١ : ٢٧٧ — ٢٧٩ . ابن حجر : ت . التهذيب — ٥ : ٧١ — ٧٣

(٣) ابن سعد : الطبقات — ٧ ق ٢ : ٥٠ . ابن حجر : ت . التهذيب — ٦ : ٢٧٩ ، — ١٨١ . ابن تغرى بردى : النجوم — ٢ : ١٥٩ .

(٤) ابن سعد : الطبقات — ٧ ق ٢ : ٨٤ . ابن حجر : ت . التهذيب — ١١ : ٣٨٠ — ٣٨١

(٥) ابن سعد : الطبقات — ٧ ق ٢ : ١٧٤ — ابن حجر : ت . التهذيب — ٢ : ٤٤١ — ٤٤٣

(٦) ابن سعد : الطبقات ٧ ق ٢ : ٥٦ . ابن حجر : ت . التهذيب — ١٠ : ٣٣٣ — ٣٣٥

(٧) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد : — ٣ : ٤١٥ — ٤١٧ . ابن حجر : ت التهذيب — ٩ : ٥١١ — ٥١٦

(٨) ابن فرحون : الديباج : ١١٩ . ابن الجزرى : غاية النهاية — ١ : ٣١٣ . السيوطى حسن المحاضرة — ١ : ١١٧ ، ١٩٠ .

يونس بن عبد الأعلى (ت ٢٦٤ هـ). الإمام ، الورع ، الذى انتهت إليه رياسة العلم بمصر[1] .

محمد بن عوف الطائى (ت ما بين ٢٧٢ — ٢٧٣ هـ)، الثقة ، الصدوق ، العالم بحديث الشام صحيحاً وضعيفاً[2] .

نلحظ كذلك أن زيد بن ثابت ليس له سوى روايتين فقط من الروايات التسع للخبر ، وأن عبيد ابن السباق بنقله عنه إلى الزهرى . فى حين أن الزهرى يرويه مباشرة عن أنس بن مالك فى الروايات السبع الباقية . ولذلك نستطيع أن نعد هذا الخبر من حديث الزهرى .

وقد نقل الخبر عن الزهرى رجال ثلاثة :

يونس بن يزيد الأيلى (ت١٥٩هـ) ثلاث مرات .

شعيب بن أبى حمزة (ت ١٦٢هـ)مرتين .

إبراهيم بن سعد (ت ما بين ١٨٣ — ١٨٤ هـ) أربع مرات .

وبالرغم من أنهم اختلفوا فى يونس بن يزيد اختلافا يهبط به إلى الإنكار كما يرتفع إلى التوثيق ، فإن هناك ميلا عامًّا — وبخاصة عند المصريين — إلى توثيقه حين يروى بالذات عن الزهرى الذى كان ينزل عليه حين يزور أيلة[3] .

وقد مر الكلام على شعيب منذ لحظات .

أما إبراهيم بن سعد، الزهرى أيضاً، فقد شكك صالح جزرة (ت١٩٣هـ)[4] ، بالرغم من أن كبار النقاد يكادون يجمعون على توثيقه ، فى سماعه عن الزهرى، لأنه كان صغيراً ، لا يتجاوز عامه السابع عشر ، حين مات الزهرى . ولكن يقابل هذا أن الحافظ الكبير يحيى بن معين (ت ٢٣٣ هـ) قال فى حديث جمع القرآن

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان — ٢ : ٥٥٣ — ٥٥٥ . السبكى : طبقات الشافعية — ١ : ٢٧٩ — ٢٨١

(٢) ابن حجر : ت . التهذيب — ٩ : ٣٨٣ — ٣٨٤

(٣) السمعانى : الأنساب : ٥٥ أ . ياقوت : معجم البلدان — ١ : ٣٩٢ . الذهبى : تذكرة الحفاظ — ١ : ١٤٦ . ابن حجر : ت . التهذيب — ١١ : ٤٥٠ — ٤٥٢ .

(٤) هو صالح بن عمرو بن محمد، الحافظ البغدادى ، المعروف بجزرة . انظر تاريخ بغداد — ٩ : ٣٢٢ وما بعدها ، النجوم — ٢ : ١٤٣ .

بالذات ، وهو هذا الحديث الذى نعنى به : « ليس أحد حدث به أحسن من إبراهيم بن سعد »[١].

ومثلما اختلف النقاد حول يونس بن يزيد اشتد اختلافهم حول عبد الله بن صالح كاتب الليث (ت ٢٢٣ هـ)[٢]. ومحمد بن بشار : بندار ، الحافظ البصرى (ت ٢٥٢ هـ)[٣].

على أن مما له أهميته أن أربعة ممن اشتركوا فى رواية هذا الحديث عبر القرون قد قويت عنايتهم بحديث الزهرى إلى ما يشبه التخصص ، وهم :

يونس بن يزيد ، شعيب بن أبى حمزة ، يعقوب بن إبراهيم ، محمد بن يحيى .

ننتهى من هذا كله إلى أن الطرق التسع التى وصل منها هذا الخبر تحمل ، فى مجموعها ، على الاطمئنان إليه ، هذا إذا لم تشأ الاكتفاء بالسند الذى رواه به البخارى والذى هو أصحها وأقواها جميعاً .

وقد أسهمت مصر فى تلقى هذا الخبر وحفظه ونقله عبر الأجيال بنصيب كبير ، فثلاثة من طرقه مصرية ، هى على وجه التحديد :

الرواية الثالثة عند أبى عبيد .

رواية الطبرى فى مقدمة تفسيره .

الرواية الرابعة عند أبى بكر السجستانى .

ويتضح من هذه الأسانيد المصرية أن مصر عرفت هذا الخبر من ابن شهاب الزهرى نفسه عن طريق يونس بن يزيد الأيلى فى وقت مبكر لا يتجاوز الربع الأول من القرن الثانى الهجرى ، زمن وفاة ابن شهاب الذى كان يزور أيلة وينزل

---

(١) ابن سعد : الطبقات – ٧ ق ٢ : ٦٨ الخطيب : تاريخ بغداد – ٦ : ٨١ – ٨٥ . ابن حجر : ت . التهذيب – ١٢١ – ١٢٣ .

(٢) ابن سعد : الطبقات – ٧ ق ٢ : ٢٠٥ السمعانى : الأنساب : ٤٦٩ ب : ابن حجر : ت . التهذيب – ١٥ : ٢٥٦ – ٢٥٩ .

(٣) ابن حجر : ت . التهذيب – ٩ : ٧٠ – ٧٣ . ابن تغرى بردى : النجوم – ٢ : ٣٣٦ .

عند يونس ، فسمعه هذا منه وأذاعه بمصر [١] .

وفى كل حال فقد اطمأن المحدثون تماماً إلى هذا الخبر ، وحرصوا على الاستناد إليه عند الحديث عن جمع القرآن استنادهم إلى أمر من البديهيات المسلمة ، حتى إن السخاوى (ت ٦٤٣ هـ) لم يفعل فى كتابه « جمال القراء » أكثر من أن ينقل نقلا غير دقيق الرواية الثالثة من روايات كتاب المصاحف [٢] ليستدل بها على على أن ما رآه حذيفة من الاختلاف – اختلاف الجنود فى قراءة القرآن – كان – « من » الأسباب الباعثة لعثمان على ما فعل فى المصاحف [٣] .

فى حين يرى ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) فى كتابه « فضائل القرآن » أن السبب الوحيد فى كتابة مصحف عثمان كان حذيفة بن اليمان . ولما كان هذا الخبر حينذاك شائعاً ومعروفاً – فى الأوساط العلمية فى الأقل – يكتفى ابن كثير بإيراد ملخص له شديد الإيجاز ، معتدل الأسلوب ، تبدو فيه آثار ثقافته بالعلوم القرآنية [٤] .

وينتبه المحدثون ، بصورة تبدو فجائية ، إلى أنهم يغفلون ، حين يتحدثون عن جمع عثمان القرآن ، العام الذى تم فيه هذا العمل الجليل . وهنا تدخل روايتهم مرحلة جديدة تماماً تتسم فيها بسمة تاريخية تتجلى فى محاولتهم تحديد تاريخ تلك المعركة من معارك فتوح أرمينية التى شهدت ذلك الخلاف بين الشاميين والعراقيين ، متوسلين بذلك إلى تعيين عام كتابة مصحف عثمان .

ودون أن يبذل أى جهد ، أو يذكر أى دليل ، أو يشير إلى أى مصدر حدد ابن الجزرى (ت ٨٣٣ هـ) هذا التأريخ على وجه التقريب فجعله فى « نحو ثلاثين من الهجرة » [٥] .

ولم تسترح دقة ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ) إلى هذه الغفلة التى أدت بصاحبها إلى ذلك الزعم الذى لا مستند له – على حد تعبيره – فراح يستنتج بعملية

---

(١) كان للزهرى مكانة خاصة عند المحدثين المصريين عبر عنها سعيد بن أبى مريم ، المحدث الإخبارى النسابة المصرى ، ت ٢٢٤ هـ ، بقوله : « إن شيوخنا المصريين لهم عناية بحديث الزهرى » . انظر : ابن حجر : ت . التهذيب – ٩ : ٣٦٤ .

(٢) ص ١٩ – ٢٠ من كتاب المصاحف ، ص ٨ من هذا البحث .

(٣) جمال القراء : ٦٤

(٤) فضائل القرآن : ٣٣

(٥) النشر – ١ : ٧

حسابية غريبة تثير من الابتسام مثل ما تثير من العجب أن تلك الغزوة كانت فى أواخر ٢٤ هـ وأوائل ٢٥ هـ ، وأن كتابة مصحف عثمان كانت سنة ٢٥هـ[١] .

ولم يفعل السيوطى (ت ٩١١هـ)أكثر من أن نقل التاريخ الذى استنبطه ابن حجر ، بل إنه أمعن فى الأمانة فنقل تعريضه بابن الجزرى[٢] .

ويختار القسطلانى (ت ٩٢٣هـ)الذى يبدى معرفة بتاريخ غزو أرمينية وأذربيجان ، العام نفسه — ٢٥ هـ — تاريخاً للمعركة التى اجتمع فيها أهل الشام وأهل العراق ، فظهر اختلافهم فى القرآن الذى أدى إلى كتابة مصحف عثمان[٣] .

وسوف يتضح فيما بعد تأثر المحدثين فى الاتجاه برواياتهم هذا الاتجاه التاريخى بالمؤرخين ، واعتمادهم فى تحديد زمن المعركة على أقوالهم[٤] .

وربما كان السبب الذى وجه المحدثين إلى محاولة تحديد زمن كتابة المصحف هو السمة الثانية التى تتسم بها رواياتهم فى هذه المرحلة التى اقتصروا فيها على رواية البخارى للخبر مع شرحها . ولئن كان السيوطى قد اكتفى بذكر رواية البخارى دون أى شرح لها فإن العسقلانى فى كتابه . « فتح البارى »[٥] والقسطلانى فى كتابه « إرشاد السارى »[٦] قد شرحاها شرحاً مستفيضا يعنى بكل التفصيلات . ومن الطبيعى جداً أن يتساءل المرء فى مثل هذا الموقف عن تاريخ كتابة المصحف ، وأن يحاول كشفه إذا لم يتيسر له الاهتداء إليه .

وأيّاً كان الأمر فلعل المؤرخين — الذين ننتقل الآن إلى مناقشة رواياتهم — هم أصحاب الكلمة الطبيعيون فى هذه المسألة .

ثانياً : رواية المؤرخين :

تم فتح أرمينية بعد عدد كبير من المعارك تتابعت هنا وهناك طوال حكم الخليفتين عمر وعثمان . ولكن الغزوة الكبرى التى سقطت فيها أكبر وأهم مدن أرمينية

---

(١) فتح البارى — ٩ : ١٣ — ١٤ (٢) الإتقان — ١ : ٥٩

(٣) إرشاد السارى — ٧ : ٥٣٤

(٤) انظر ص ١٨ من هذا البحث

(٥) ج ٩ : ٨ — ١٧

(٦) ج ٧ : ٥٣٢ — ٥٣٦

الواحدة بعد الأخرى دارت فى عهد عثمان ، وقادها حبيب بن مسلمة الفهرى (ت ٤٢ هـ) على رأس جيوش ضخمة من أهل الشام والجزيرة . يمده ويشاركه سلمان بن ربيعة الباهلى (ت ٣٢هـ) وحذيفة بن اليمان (ت٣٦ هـ) على رأس جيوش من أهل العراق بعامة وأهل الكوفة بخاصة .

ولما كانت رواية المحدثين التى فرغنا من عرضها منذ لحظة قد ذكرت أن الخلاف فى القراءة ظهر بين جنود الشام والعراق وهم يغزون أرمينية فإن علينا أن نبحث فى روايات المؤرخين عن هذه المعركة . أو المعارك ، التى تم فيها اجتماع الفريقين لعلنا نجد ما ينص على . أو يشير إلى . هذا الخلاف فنهتدى به فى تحديد عام كتابة مصحف عثمان .

وبجمع الأخبار الخاصة بهذه المعارك من المراجع الرئيسية ، وترتيبها ترتيباً زمنيًّا ، ودراستها دراسة تحليلية مقارنة نجد أنها تنتسب . ويمكن ردها ، إلى الروايات الأساسية التالية :

رواية أبى مخنف (ت حوالى ١٣٠ هـ) :

بعد أن قاد الوليد بن عقبة ، أمير الكوفة (٢٤-٣٠هـ) ، غزوة ظافرة فى أرمينية سنة ٢٤ هـ ، اشترك فيها قائده سلمان بن ربيعة الباهلى ، دخل حديثة الموصل[١] . ومن هناك سير ، بناء على كتاب من عثمان ، ثمانية آلاف من رجال العراقيين — الكوفيين بالذات — يقودهم سلمان مدداً لحبيب بن مسلمة الفهرى الذى كان يقاتل بأهل الشام فى أرمينية . « ولما اجتمع الشاميون والكوفيون » شنوا الغارات على أرض الروم ، فأصاب الناس ما شاءوا من سبى ، وملئوا أيديهم من المغنم ، وافتتحوا بها حصونا كثيرة »[٢] .

ها قد اجتمع العراقيون والشاميون ، وأغلب الظن أن حذيفة كان من الحاضرين ، ولكن لا اختلاف هناك ولا تنازع ، وإنما هو الاتحاد فى مقابلة العدو ثم التشارك فى الغنيمة .

---

(١) الطبرى : تاريخ - ٥ : ٢٨٠٥ - ٢٨٠٦ . وحديثه الموصل بلدة كانت على دجلة بالجانب الشرقى قرب الزاب الأعلى . (ياقوت - ٢ : ٢٢٢)

(٢) المصدر نفسه - ٥ : ٢٨٠٦ - ٢٨٠٨

رواية سيف (ت ١٨٠ هـ) :

منذ عهد عمر ، وفى سنة ٢٢ هـ على وجه التحديد ، ظهر على مسرح الحوادث فى أرمينية الأبطال الذين ظلوا حتى آخر عهد عثمان يلعبون الأدوار الرئيسية فى تقرير مصير هذه البلاد ، وهم :

عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى ، سلمان بن ربيعة ، حذيفة بن اليمان ، حبيب ابن مسلمة[1] .

ولم يزل عبد الرحمن يتولى مهمة إخضاع الثغور الأرمينية للنفوذ العربى حتى اضطر سنة ٣٠ هـ إلى أن يطلب المدد . فترك حذيفة وسعيد بن العاص أمير الكوفة ، المعركة الدائرة حينذاك فى الرى ، واتجها إليه . . . ووفقاً لتكتيكهم العسكرى المتبع مضى حذيفة فى جيشه الكوفى إلى زميله عبد الرحمن فى الباب ، فى حين توقف سعيد ابن العاص فى أذربيجان يحمى المؤخرة[2] .

وفى سنة ٣٢هـ اشتبك عبد الرحمن ، متجاهلا أوامر الخليفة ، مع الخزر والترك فى بلنجر فى معركة حامية لقى فيها مصرعه وأبيد جيشه الذى أنقذ سلمان فلوله الهاربة[3] .وحل سلمان محل أخيه فى قيادة الجيوش العربية المحاربة هناك والتى أمدها الخليفة سنة ٣٣هـ بجيش شامى يقوده حبيب . ولكن خلافاً لم يلبث أن نشب. لأول مرة فى تاريخ العلاقات السورية العراقية ، بين سلمان وحبيب على الإمارة . وكان من الطبيعى أن يمتد الخلاف إلى الجنود أنفسهم الذين تبادلوا التهديد نثراً وشعراً[4] .

وبالرغم من هذا استطاع حذيفة ، الذى كان يقود أهل الكوفة فى هذا الجيش المشترك ، أن يشتبك مع العدو فى ثلاث معارك كانت أخراها فى نفس عام مصرع عثمان[5] .

وهكذا لاتنص رواية سيف فى أجزائها الثلاثة على اجتماع الجنود الشاميين والعراقيين واختلافهم نصاً صريحاً قاطعاً غير مرة واحدة سنة ٣٣هـ .

---

(١) المصدر نفسه – ٥ : ٢٦٦٣ – ٢٦٦٨ (٢) الطبرى : تاريخ – ٥ : ٢٨٥٦

(٣) المصدر نفسه – ٥ : ٢٦٦٨ – ٢٦٦٩ ، ٢٨٨٩ – ٢٨٩٢

(٤) المصدر نفسه – ٥ : ٢٨٨٩ والهامش رقم F ، ٢٨ ٩٢ – ٢٨٩٤

(٥) المصدر نفسه – ٥ : ٢٨٩٤

رواية الواقدى (ت ٢٠٧ هـ) :

سير معاوية ، والى الشام ، حبيب بن مسلمة لغزو أرمينية . وعند شميساط[١] اضطر حبيب إلى طلب المدد لمواجهة الجيش الكبير الذى اجتمع لملاقاته هناك . واستجاب الوليد بن عقبة ، والى الكوفة ، لأمر عثمان فأعد المدد المطلوب من فرسان ولايته يقودهم سلمان بن ربيعة . ولكن حبيب بن مسلمة ،الذى قدر أن النصر سوف ينسب إلى العراقيين وحدهم ، عدل بموافقة جنوده الشاميين عن انتظار المدد، وفاجأ العدو بهجوم ليلى أحرز به النصر . ولما وصل العراقيون لم يمنعهم انتهاء القتال قبل وصولهم من المطالبة بنصيب من الغنيمة . فلما رفض السوريون « وقع الكلام بينهم فى ذلك حتى جردوا السيوف واقتتلوا ، وغلب أهل الكوفة أهل الشام » فى أول عداوة بينهما . وحذر الشاعر السورى العراقيين مغبة بغيهم ، وأعلن أنهم لايمسكون عنهم إلا مراعاة للخليفة وحبيب بن مسلمة ، ودعاهم إلى الاحتكام إلى الخليفة . فسخر الشاعر العراقى من هذا التهديد ، وأكد أنهم لن يتنازلوا عن نصيبهم فى الغنيمة ، وعير السوريين بأن سيوف العراق هى التى حررتهم من نير هرقل ، ورحب بالاحتكام إلى السيف أو إلى الخليفة . وأفلح حبيب بن مسلمة على كل حال فى أن يقنع العراقيين بالتزام الهدوء حتى أتى رأى الخليفة بأن يتقاسم الفريقان الغنيمة . ونفذ حبيب أمر الخليفة عن طيب خاطر ، وظل مقيما بجيشه حيث هو ، فى حين مضى سلمان يوغل كما أمر الخليفة فى داخل البلاد . وكانت العقيدة التى سيطرت على نفوس سكان البلاد بأن العرب قوم سماويون غير قابلين للموت عاملا كبيراً فى استسلام البيلقان[٢] ، وبرذعة[٣] ، والشروان[٤] ، وشابران[٥] ،

---

(١) هكذا جاءت، وهى خطأ فإن ياقوت يفرق بين سميساط من أعمال الشام وتقع على شاطىء الفرات ولها قلعة فى شق منها يسكنها الأرمن ، وبين شمشاط مدينة بالروم على شاطىء الفرات كذلك فى طرف أرمينية (معجم البلدان – ٣ : ١٥١ – ١٥٢ ، ٢١٩ – ٢٢٠)

(٢) مدينة قرب باب الأبواب بأرمينية . انظر : ياقوت : معجم البلدان : – ١ : ٧٩٧ – ٧٩٨

(٣) عاصمة ولاية أران ، وتقع فى أقصى أذربيجان ، وهى تعريب للأصل الفارسى « برده دار » انظر : ياقوت : ١ – ٥٥٨ ، دائرة المعارف الإسلامية – ١ : ٦٥٧

(٤) مدينة من نواحى باب الأبواب فى الإقليم الواقع بين نهر كر و بحر الخزر . انظر : ياقوت – ٣ : ٢٨٢ ، دائرة المعارف الإسلامية – ١ : ٦٥٧

(٥) مدينة قريبة من شروان . انظر : ياقوت : ٣ : ٢٢٥

ومسقط[١] ، والباب[٢] من مدن أرمينية لسلمان . حتى إذا اكتشف الأعداء بمحض الصدفة أن المسلمين يموتون كما يموت سائر البشر استردوا شجاعتهم واستداروا ليقابلوهم عند بلنجر[٣] فى معركة استشهد فيها سلمان وجنوده العشرة آلاف الذين أصبحت قبورهم هناك تعرف باسم « قبور الشهداء » . وحزن الخليفة لهذه الكارثة العسكرية ، وأمر حبيب بن مسلمة الذى انطلق يستكمل غزو أرمينية حتى فتحها عن آخرها ، فأرسل الخليفة حذيفة بن اليمان ليتولى حكمها فأقام بها حتى عزل بالأشعث بن قيس .

هكذا صور الواقدى فتح أرمينية فى روايته الأساسية التى ذكرها فى كتابه « فتوح الإسلام لبلاد العجم »[٤] .

ولكن جاء فى الملخص الشديد الإيجاز لهذه الرواية ، الذى نقله البلاذرى (ت٢٧٩هـ) عن ابن سعد كاتب الواقدى (ت٢٣٠هـ) ، أن المعركة التى انتصر فيها حبيب على القائد الرومى دارت فى دبيل[٥] .ولكن البلاذرى يصححها —مؤكداً— بقاليقلا[٦] .

أما الطبرى (ت ٣١٠هـ) فإنه يسهّل تلخيصه لهذه الرواية بالتصريح بعدم ثقته فى الزمن الذى وضعه الواقدى للمعركة حين « زعم أن الذى أمد حبيب بن مسلمة بسلمان بن ربيعة كان سعيد بن العاص »[٧] .وفى موضع آخر يذكر الطبرى أن أرمينية فتحت — فى قول الواقدى — سنة ٣١ هـ على يدى حبيب بن مسلمة الفهرى[٨] .

---

(١) رستاق (قرى : القاموس) بساحل الخزر دون البا والأبواب . انظر : ياقوت — ٤ : ٥٢٩

(٢) ويقال له : باب الأبواب ، والباب والأبواب . وهو ممر دربند ، ودربند شروان . على بحر طبرستان . انظر ياقوت — ١ : ٤٣٧ — ٤٣٩ ، دائرة المعارف الإسلامية — ١ : ٥٥٦

(٣) مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب . انظر : ياقوت — ١ : ٧٢٩

(٤) ص ١٣٨ — ١٤٤

(٥) مدينة تتاخم أران ، كانت مقر الحكومة الفارسية لما أدمجت أرمينية كلية فى الإمبراطورية الساسانية ، كما ظلت عاصمة أرمينية الإسلامية طوال أيام الخلافة . انظر : ياقوت : ٢ : ٥٤٩ دائرة المعارف الإسلامية (العربية) — ١ : ٦٥٨ ، (الإنجليزية) I, P. 1085

(٦) فتوح البلدان : ٢٣٥ ، وقاليقلا ثانى مدن أرمينية بعد دبيل وكانت عاصمة أرمينية فى عهد الروم . (انظر : دائرة المعارف الإسلا مية (العربية) ١ : ٦٤٣ ، ٦٥٨٧ (الإنجليزية) II, P. 31

(٧) الطبرى : تاريخ — ٥ : ٢٨٠٨ (٨) المصدر نفسه — ٥ : ٢٨٧١

لعل هذه الروايات الأخرى مذكورة فى كتاب الواقدى الآخر « فتح أرمينية وبلاد ما بين النهرين » الذى ذكر بروكلمان[١] أنه نشروترجم فى جوتنجن عام ١٨٢٧ ثم فى هامبورج عام ١٨٤٧ ، ولكننى لم أطلع عليه إذ ليس فى مكتباتنا منه سوى الترجمة الألمانية .

وأيًّا كان الأمر فإن روايات الواقدى ، على اختلافها من حيث التاريخ ، يؤخذ منها أن السوريين والعراقيين اجتمعوا بعد فراغ حبيب بن مسلمة من قتال الروم . وتنص الرواية الأساسية على اختلافهم على الغنيمة .

رواية البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ) :

استطاع حبيب بن مسلمة بانتصاراته فى بلاد الشام والروم أن يكسب ثقة عمر ثم عثمان من بعده فى كفاءته الحربية . ولذلك اختاره عثمان وكلفه تكليفاً مباشراً فتح أرمينية . وسرعان ما استولى حبيب بجيشه المكون من أهل الشام والجزيرة على قاليقلا العاصمة اليونانية لأرمينية وثانى مدنها أهمية . ومضت شهور استطاع القائد اليونانى فى خلالها أن يعد جيشاً كبيراً لمقاتلة الجيش العربى . فاستغاث حبيب بمعاوية بن أبى سفيان أمير الشام والجزيرة ، وبالخليفة نفسه . وسرعان ما وصل إليه ألفان من أهل الشام والجزيرة « أسكنهم قاليقلا ، وأقطعهم بها القطائع ، وجعلهم مرابطة بها » . أما المدد العراقى الذى سار به سلمان بن ربيعة من الكوفة ، تنفيذاً لأمر عثمان إلى أميرها سعيد بن العاص ، فوصل بعد أن كان حبيب قد كسب المعركة فى هجومه الليلى المفاجئ . وبالرغم من أن الكوفيين لم يرموا سهما واحداً فى المعركة فقد رأوا من حقهم مشاركة الشاميين الغنيمة . ورفض الشاميون . ووصلت المحادثات التى دارت بين قائدى الفريقين إلى حد تبادل الألفاظ العنيفة . أما الجنود فقد تبادلوا التهديد بقتل القائدين . وتولى الشعر عرض الحجج . ولم يحل الأزمة سوى الخليفة الذى قضى بأن الغنيمة « باردة لأهل الشام » ، وأمر سلمان بالتحرك لغزو ولاية أران[٢] . ومضى حبيب يواصل فتح أرمينية ، فاستولى على مدنها

---

(١) تاريخ الأدب العربى – ٣ : ١٨

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان : ٢٣٤ – ٢٣٥

الكبرى – مربالا ، خلاط[١] ، مكس[٢] ، دبيل ، النشوى[٣] ، تفليس[٤] ، ... إلخ – وعقد معها معاهدات الصلح[٥] . فى حين أذعن سلمان لأمر الخليفة ، وفتح جبهة جديدة فى المعركة استولى فيها على مدن ولاية أران – البيلقان ، برذعة ، قبلة[٦] ، الباب ، . . . إلخ – حتى استشهد فى أربعة آلاف من رجاله فى معركة البلنجر فى نفس الوقت الذى فرغ فيه حبيب من غزوته الكبرى . وسار حبيب راجعاً إلى الشام فى حين ولى حذيفة بن اليمان حكم أرمينية ، وظل يحكمها من مدينة برذعة حتى خلفه عليها صلة بن زفر العيسى[٧] .

ويعنينا من هذا كله أن الشاميين والعراقيين اجتمعوا فى موعد لا يمكن أن يكون قبل عام ٣٠ هـ ، واختلفوا فى اجتماعهم هذا اختلافاً عنيفاً على الغنيمة .

* * *

عندما نحاول تقييم هذه الروايات – وهذا طبيعى جداً بقدر ما هو لازم قبل استنباط أى نتيجة منها – نجد البلاذرى يعرف جيداً رواية أبى مخنف التى ذكرها الطبرى مدعمة بوثيقتين هما : كتاب عثمان إلى الوليد بن عقبة أمير الكوفة بإمداد حبيب ، وخطبة الوليد فى أهل الكوفة أن ينتدبوا مع سلمان فى هذا المدد[٨] . ولكن البلاذرى حين أعاد عرضها[٩] ذكر لها تاريخاً محدداً هو سنة ٢٥ هـ . وإذا كان

---

(١) قصبة أرمينية الوسطى ، بلدة عامرة كثيرة الفواكه والخيرات ، بيردها فى الشتاء يضرب المثل . انظر : ياقوت – ٢ : ٤٥٧ – ٤٥٨

(٢) موضع بأرمينية من ناحية البسفرجان ، قرب قاليقلا ، من فتوح حبيب . انظر : ياقوت : معجم البلدان – ٤ : ٦١٣ – ٥١٥

(٣) وهى نقجوان ، وبالأرمينية : نخجوان ، من فتوح حبيب . انظر : ياقوت – ٤ : ٧٨٤ – دائرة المعارف الإسلامية – ١ : ٦٥٦ ، ٦٥٨ .

(٤) مدينة قديمة أزلية ، عاصمة جوزان قرب باب الأبواب ، من فتوح حبيب . انظر : ياقوت – ١ : ٨٥٧ – ٨٥٨

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان : ٢٣٦ – ٢٣٩

(٦) مدينة قديمة قرب الدربند . انظر : ياقوت : ٤ : ٣٢

(٧) البلاذرى : فتوح البلدان : ٢٤٠ – ٤٢١

(٨) الطبرى : تاريخ – ٥ : ٢٨٠٧

(٩) فتوح البلدان : ٢٣٥

أبى مخنف قد أغفل وقوع أى خلاف بين الشاميين والكوفيين مكتفياً بأنهم « شنوا الغارات على أرض الروم ، فأصاب الناس ما شاءوا من سبى ، وملئوا أيديهم من المغنم ، وافتتحوا بها حصوناً كثيرة »[١] ، فإن البلاذرى يضيف إلى ذلك أن سلمان وحبيباً تنازعا الإمارة ، وأن هذا النزاع امتد إلى الجنود حتى هم أهل الشام بقتل القائد العراقى فأنذرهم شاعر العراقيين بقتل حبيب فى مقابل سلمان وإن كان لايمانع فى الاحتكام إلى عثمان[٢] .

وهنا يراودنى سؤال : هل يذكر الطبرى كل الروايات ؟ وإذا فعل فهل يذكرها كاملة ؟

وتبدو رواية أبى مخنف ، فى صيغتها تلك عند البلاذرى . كاملة ومحققة للغرض . فقد اجتمع الجنود العراقيون والشاميون فى معركة من معارك أرمينية ، ثم إنهم قد اختلفوا إلى حد تبادل التهديد بالقتل وإن كان اختلافهم على مسألة عسكرية لا على القراءة التى لا يستبعد الاختلاف عليها فى مثل ذلك الموقف على كل حال . ولكن البلاذرى لايثق فى هذه الرواية ، ويتجاهلها — ولعله يجهل بالفعل — صاحبها معبراً عنه بلفظ « بعضهم » ، ثم ينص نصاً صريحاً على أن روايته هو التى عرضناها منذ لحظات « أثبت » منها[٣] .

ولايعدل عدم ثقة البلاذرى فى رواية أبى مخنف سوى اطمئنان الطبرى إليها اطمئناناً جعله يتخذ منها الرواية الأساسية ، بل الوحيدة ، عندما يتحدث عن «إجلاب الروم على المسلمين واستمداد المسلمين من بالكوفة» فى حوادث سنة ٢٤ هـ[٤] . ولكى يبرئ الطبرى ذمته كمؤرخ من واجبه عرض جميع الأخبار الخاصة بالموضوع الذى يعالجه يعقب على رواية أبى مخنف برواية الواقدى الملخصة التى عرضناها منذ قليل كوجه آخر ضعيف للخبر يقدمه بقوله أو — فى الأصح — بحكمه : « وزعم الواقدى أن . . . » .

وعندما انتبه المحدثون فى القرن التاسع الهجرى إلى ضرورة تحديد تاريخ كتابة

---

(١) الطبرى : تاريخ — ٥ : ٢٨٨٠

(٢ ، ٣) فتوح البلدان : ٢٣٥

(٤) التاريخ — ٥ : ٢٨٠٦

(٥) التاريخ — ٥ : ٢٨٠٨

مصحف عثمان تابع بعضهم الطبرى فى اطمئنانه إلى رواية أبى مخنف ، فبذل ابن حجر العسقلانى جهوداً حسابية للتوفيق بين سنى وفاة النبى ووفاة عمر واستخلاف عثمان والزمن المذكور فى بعض الأحاديث الخاصة بجمع عثمان القرآن وبين عام ٢٤ – ٢٥هـ عام فتح أرمينية فى الرواية المذكورة[١] .

وتابع ابن حجر فى الاطمئنان إلى رواية أبى مخنف ، وبالتالى فى القول بكتابة المصحف عام ٢٥هـ ، السيوطى[٢] والقسطلانى[٣] . ولسنا نستبعد أن تكون مكانة الطبرى الجليلة كمحدث وقارئ ومفسر ومؤرخ عاملا أساسيًّا فى متابعة هؤلاء المحدثين إياه .

بل إن الأديب المصرى المعاصر مصطفى صادق الرافعى (ت ١٩٣٧ م)، وهو ذو نزعة سلفية معروفة ، يسير فى الاتجاه نفسه ، فيأخذ برواية أبى مخنف ، ويمزج بينها وبين رواية المحدثين ليخرج منهما بأن عثمان كتب مصحفه سنة٢٥هـ[٤] .

أما فيما يتعلق برواية سيف فالمعروف أن ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) فى كتابه « الكامل » نقل نقلا يكاد يكون حرفيًّا ، بعد حذف الأسانيد ، الأخبار التى ذكرها الطبرى فى تاريخه والتى تنتهى عند سنة ٣٠٢ هـ . ولكن من الحق أنه حاول فيما يتعلق بأخبار فتوح أرمينية ، وهى أخبار يسودها الخلط والتضارب ، أن ينظمها مستفيداً من روايات أبى مخنف وسيف والواقدى والبلاذرى فى وقت واحد دون أن يخل بمبدأ النقل الحرفى على أى حال . غير أنه عندما نقل فى حوادث سنة ٣٠هـ الخبر الذى ذكر فيه سيف أن حذيفة بن اليمان قاد مدداً عراقيًّا إلى عبد الرحمن ابن ربيعة وهو يحارب معركة الباب سنة ٣٠هـ ، فى حين بقى سعيد بن العاص فى أذربيجان يحمى مؤخرته حتى عاد ، أضاف ابن الأثير زيادة هامة لم يذكر مصدرها هى حديث دار بين حذيفة وسعيد عند التقائهما بعد المعركة ، وفى طريق عودتهما إلى الكوفة ، أفضى فيه حذيفة إلى الأمير بتخوفه مما رأى من اختلاف المسلمين على القرآن اختلافاً جعل أهل كل مدينة من مدن الإقليم الواحد يفضلون قراءتهم ويتمسكون بمصحفهم .

---

(١) فتح البارى : ٩ : ١٣ – ١٤ (٢) الإتقان – ١ :

(٣) إرشاد السارى : ٧ : ٥٣٤

(٤) تاريخ آداب العرب – ٢ : ٢١

وفى مسجد الكوفة ، حيث أذاع حذيفة على المسلمين ما رأى فى ميدان القتال متوقعا أوخم العواقب إذا استفحل هذا الخلاف ، انقسم الرأى العام فريقين . فأقر الصحابة وكثير من التابعين وجهة نظر حذيفة فى حين أنكر عليه أصحاب ابن مسعود مخاوفه . واستاء الأمير من الألفاظ التى وجهها ابن مسعود نفسه إلى حذيفة فقام من المجلس . أما حذيفة فقد سار إلى عثمان يهيب به أن يدرك الأمة . ومما له مغزاه أن ابن الأثير ذكر الموضوع كله تحت عنوان : « ذكر تمرد حذيفة الباب وأمر المصاحف »[1] .

بالرغم من أن هذه الزيادة لاتنص صراحة على اجتماع جيشين أحدهما سورى والثانى عراقى فى هذه المعركة فإن المعلومات الواردة بها صحيحة فى جملتها ، ومن الممكن ردها إلى مصادرها . ولكن غير المؤكد هو حدوث هذا كله عام ٣٠هـ بالذات وفى أثناء غزوة الباب وبعد الانصراف منها . فهل سقط هذا الجزء من رواية سيف عند الطبرى ؟ أم حصل عليه ابن الأثير من مصدر آخر لم يصل إلينا ؟ أم أنه جمع أجزاءه من هنا وهناك ثم وضعه فى هذا المكان من تاريخه بمحض اجتهاده ؟

لانستطيع الانتهاء فى هذا إلى شىء . وأيًّا كان الأمر فإن ابن الأثير بهذا قد جعل الجزء الثانى من رواية سيف رواية جديدة مستقلة تضاف إلى الروايات الأخرى فى تاريخ كتابة مصحف عثمان . وقد أصبح لروايته هذه اعتبارها عند المؤرخين من بعد . فنلحظ بعد قرن من الزمان أن الملك أبا الفدا (ت٧٣٢هـ) لم يذكر منها فى حوادث سنة ٣٠ هـ من مختصره سوى الجزء الخاص بنشوب الخلاف بين أهل الأمصار حول القرآن ، وتمسك أهل كل مصر بمصحفهم ، مع النص الصريح على أن هذا الخلاف بلغ مسامع الخليفة فى السنة المذكورة ، دون التعرض لدور حذيفة فى الموضوع . بل لم يجد الملك المؤرخ ما يستحق التسجيل من حوادث هذه السنة ، إلى جانب ذلك الحدث الهام ، سوى وقوع خاتم النبى من يد عثمان وضياعه إلى الأبد فى بئر أريس[2] .

---

(١) الكامل – ٣ : ٨٥ – ٨٧

(٢) المختصر فى تاريخ البشر – ١ : ٢٦٤ – ٢٦٦ (طبعة لاهاى) ١ : ١٦٧ – ١٦٨ (طبعة القاهرة) وبئر أريس – كأمير – بئر بالمدينة ، ثم بقيا مقابل مسجدها ، مانسبت إلى أريس رجل يهودى من أهل المدينة «معجم البلدان – ١ : ٤٣٠ – القاموس : مادة : الأرس)

فإذا كان ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) أعاد كل ما ذكره ابن الأثير ، حتى العنوان ، ملخصاً تلخيصاً جامعاً . غير أنه ينفرد بذكر أن عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي لقي مصرعه في تلك المعركة[١] .

ومثلما تابع ابن حجر ، من المحدثين ، الطبري وأبا مخنف ، يتابع ابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ) – ولكن في تحفظ – هذه الرواية المجهولة الأصل التي ظهرت كامتداد فجائي للجزء الثاني من رواية سيف عند ابن الأثير ، فيرى أن هذه المعركة . وكتابة المصحف بالتالي : كانت في « نحو ثلاثين من الهجرة »[٢] .

وعندما تحدث جورجي زيدان (ت ١٩١٤ م) عن القرآن : وهو يؤرخ في مطلع القرن الحاضر لآداب اللغة العربية . اعتمد هذه الرواية كما ذكرها ابن الأثير تقريباً ، وحدد سنة ٣٠ هـ تاريخاً لكتابة المصحف[٣] .

وفي الجزء الأخير من روايته يواصل سيف حديثه : الذي لانجده عند غيره من الرواة عن عبد الرحمن بن ربيعة . ويجعل من أخيه سلمان خلفاً له على الباب بعد مصرعه سنة ٣٢ هـ . وينص على وجود حذيفة على رأس الكوفيين هناك . وحبيب هو الذي يأتي – على عكس سائر الروايات – مدداً لسلمان سنة ٣٣ هـ فيختلفان على الإمارة . ثم تصمت الرواية فجأة عن سلمان وحبيب المتنازعين . ولا يبقى على المسرح سوى حذيفة الذي يظل يقاتل حتى يبلغه مقتل الخليفة سنة ٣٥هـ[٤] .

ورواية سيف هذه تتفق من حيث التواريخ مع الرواية الأرمنية التي تجعل الفتح الكامل لأرمينية يبدأ عام ٦٥٣م (٣٢ – ٣٣ هـ) والتي يراها المؤرخون الأوربيون المعاصرون أحق بالثقة من الرواية العربية التي تتخذ من عام ٢٤ – ٢٥هـ (٦٤٥م) تاريخاً لهذا الفتح[٥] . ولذلك أخذ بروكلمان ، المؤرخ الألماني المعاصر (ت١٩٥٦م) ، برواية سيف واعتمد عام ٦٥٣م (٣٢ – ٣٣هـ) زمناً لظهور الخلاف بين الجنود

---

(١) كتاب العبر – ٢ : ١٣٥ – ١٣٦

(٢) النشر – ١ : ٧

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية – ١ : ١٨٧

(٤) الطبري : تاريخ – ٥ : ٢٨٨٩ – ٢٨٩٠ ،

(٥) سترك : دائرة المعارف الإسلامية : مادة أرمينية – ١ :

فى القراءة ولكتابة مصحف عثمان بالتالى[١].

أما رواية الواقدى الأساسية فإنها تتضمن أخباراً يتكون من مجموعها قصة تبدو كاملة وطبيعية جدًّا لفتح أرمينية وتبدأ هذه القصة عام ٢٥ هـ لأنها تقول — مع أبى مخنف — إن الوليد بن عقبة هو الذى سير المدد العراقى إلى أهل الشام. كما تتفق معه فى خطبة الوليد التى دعا فيها أهل الكوفة إلى التطوع فى المدد.

وفى الشعر المتبادل بين السوريين والعراقيين لاتتفق رواية الواقدى مع رواية سيف التى ذكرت بضعة أبيات إلا على بيت واحد. فعندما هدد السوريون بضرب سلمان رد عليهم أوس بن مغراء[٢] — فى رواية سيف — بقوله:

إن تضربوا سلمان نضرب حبيبكم   وإن ترحلوا نحو ابن عفان نرحل[٣]

ويوضح الواقدى الموضوع حين يقول إن الشاعر السورى أنذر العراقيين بقوله فى أبيات كثيرة:

ونقتل سلماناً فلا تعرضوا له   وإن شئتم نرحل جميعاً فترحلوا[٤]

فأجابه الشاعر العراقى فى أبيات كثيرة كذلك:

وإن تقتلوا سلمان نقتل حبيبكم   وإن ترحلوا نحواً لعثمان نرحل[٥]

والواقدى يعيد ذكر ذلك الوهم الميتافيزيقى الذى يروى سيف أنه سيطر على عقول الخزر[٦] فجعلهم يكفون عن منازلة المسلمين فارين من أمامهم لأنهم غير

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية — ١ : ١٣٤

(٢) شاعر مخضرم .. شعراء مضر، شهد الفتوح. وبقى إلى أيام معاوية. مدح النبى بقصيدة طويلة عدد فيها ما كان من بلائهم فى الفتوح، وفخر فيها بقريش. وغلب النابغة الجعدى الحضرى فى الهجاء بالرغم من أنه لا يسمو إلى مستواه الفنى. انظر: ابن سلام: طبقات فحول الشعراء: د ١٠٥، ٤٨٥ — القاموس المحيط: مادة: المغرة — ابن حجر: الإصابة — ١ : ١١٨

(٣) الطبرى: تاريخ — ٥ : ٢٨٩٣

(٤) الواقدى: فتوح الإسلام لبلاد العجم: ١٤٠، البيت السابع

(٥) المصدر نفسه: ١٤١، البيت الرابع

(٦) الخزر شعب لايعرف أصله على التحقيق، كان مقر حكمهم فى سهوب القوقاز الشمالية ثم نقلوه إلى المجرى الأدنى لنهر أتيل (الفولجا) بعد نضالهم الفاشل مع العرب فى بداية القرن الثانى للهجرة (بعد عام ٧٢٠ م).

راجع: دائرة المعارف الإسلامية — الترجمة العربية — م ٤ : ٩٠ وما بعدها، وم ٨ : ٣٠٥ وما بعدها.

قابلين للموت . فلما تبدد هذا الوهم مصادفة استطاعوا أن يتغلبوا على المسلمين فى معركة بلنجر التى قتل فيها سلمان وأبيد الجيش العربى عن آخره فى قول الواقدى . فى حين استطاع سلمان — فى قول سيف — أن ينقذ فلول هذا الجيش لما تولى قيادته بعد مصرع قائده الأصيل أخيه عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى .

وفيما عدا هذه الوجوه من التشابه أو الاختلاف بين رواية الواقدى من جهة وروايتى أبى مخنف وسيف من جهة أخرى يستقل الواقدى بما يروى من أخبار فتح أرمينية .

ومن السهل أن نلحظ اختلاط التاريخ بالقصص فى رواية الواقدى . والشعر الذى تذكره واضح السقم والانتحال وخاصة إذا قورن إلى الأبيات التى يذكرها سيف. ويلفت النظر أن الواقدى لا يتحدث مطلقاً عن عبد الرحمن بن ربيعة الذى أسهب سيف فى الحديث عنه وخلط خلطاً واضحاً بينه وبين أخيه سلمان . على أن أهم ما يلاحظ على رواية الواقدى ما تحاول أن تطبعه فى النفس من نجدة الكوفيين ، وشجاعتهم ، ونبالة مسلكهم ، وصواب رأيهم ، وتفوقهم الحربى ، وبطولتهم التى لاتتخلى عنهم فى انتزاع النصر أو فى استقبال الموت . أما السوريون فيقودهم « رجل اسمه حبيب بن مسلمة » .وهذا الرجل المجهَّل خبير بالحرب ، صاحب مكر ودهاء ومكائد . وهو لم يبكر بمقاتلة الروم قبل وصول العراقيين إلا طمعاً فى الاستئثار بالغنيمة والشهرة . وقد توسل إلى العراقيين ألا يعتدوا على إخوانهم السوريين . وانصاع صاغراً لأمر الخليفة بمقاسمة العراقيين الغنيمة . ودور السوريين فى فتح أرمينية لم يكن أكثر من مجرد استكمال سلسلة الانتصارات الخالدة التى أحرزها سلمان وجنوده العراقيون .

كان الواقدى شيعيًّا[1] ، فهل هو فى هذا النص يقوم بنصيبه فى المعركة الخالدة بين الكوفة ودمشق ، بين العراق والشام ، بين التشيع والسنة ؟

أيًّا كان الأمر فإننا نعثر — لأول مرة — فى رواية الواقدى على تصوير كامل متناسق للحوادث .

أما البلاذرى فإنه يعرض روايته فى ثقة كاملة ،ويرجحها على رواية أبى مخنف

---

(١) بروكلمان : تاريخ الأدب العربى — ٣ : ١٦

ترجيحاً صريحاً حاسماً بقوله : « والخبر الأول أثبت ، حدثنى به عدة من مشايخ أهل قاليقلا ، وكتب إلىّ به العطاف بن سفيان أبو الأصبغ قاضيها[١] .

والواقع أن البلاذرى يستمد اطمئنانه إلى روايته هذه وسائر أخباره عن أرمينية من قوة وحجية المصادر التى استقاها منها والتى نص عليها فى مستهل حديثه عن فتوح أرمينية .قال :

« حدثنى محمد بن إسماعيل من ساكنى برذعة وغيره عن أبى براء عنبسة بن بحر الأرمنى ، وحدثنى محمد بن بشر القالى عن أشياخه ، وبرمك بن عبد الله الدبيلى ، ومحمد بن المخيس الخلاطى ، وغيرهم عن قوم من أهل العلم بأمور أرمينية سقت حديثهم ، ورددت من بعضه على بعض ، قالوا : . . . . . »[٢] .

ومن الواضح أن الرجال الذين تلقى عنهم أخباره من أهل أرمينية الأصليين ، أو هم – فى أقل تقدير – ممن قدمت إقامتهم بأرمينية حتى أصبحوا ينسبون إلى بلادها . ومما له أهميته أنهم ينتمون إلى كبريات المدن الأرمينية التى كانت مسرحاً لمعارك الفتوح فحفرت أحداثها وأهوالها حفراً عميقاً فى ذاكرة السكان وجدانهم يرويها السلف للخلف . وهذا يذكرنا بالروايات المصرية الأصيلة التى تقابلنا عند ابن عبد الحكم أو الكندى .

ويتفق البلاذرى مع سيف فى الزمن العام للرواية الذى تحدده إمارة سعيد بن العاص على الكوفة . ولكنهما يختلفان فى التواريخ الجزئية . والبلاذرى لا يذكر كلمة واحدة عن عبد الرحمن بن ربيعة ، لا فى فتح أرمينية ولا فى غيره من الفتوح التى تملأ كتابه الكبير ، فى حين يجعله سيف يعاصر فتوح أرمينية منذ بدايتها حتى قبيل نهايتها . وفى الخلاف الذى دار بين حبيب وسلمان لا تتفق رواية المؤرخين على غير بيت واحد من الشعر .

وتبدو رواية سيف على أى حال مقصورة وناقصة وغير دقيقة بالنسبة إلى رواية البلاذرى ..

ويختلف الأمر تماماً حين نقارن رواية البلاذرى إلى رواية الواقدى . فكل منهما

(١) فتوح البلدان : ٢٣٥
(٢) المصدر نفسه : ٢٣١

تقدم قصة كاملة متناسقة يأخذ فيها السير العام للحوادث اتجاها واحداً كالآتي :

حبيب يسير لفتح أرمينية — يطلب المدد — يسير إليه المدد الكوفي — يبكر بالمعركة — يقوم بهجوم ليلي مفاجئ — ينتصر — المدد الكوفي يصل بعد النصر — الخلاف على الغنيمة — رأى عثمان — حبيب يواصل فتح أرمينية — سلمان يشترك في الفتح — مصرعه في بلنجر — حذيفة يحكم أرمينية .

وبالرغم من اتفاق الروايتين على هذه الحوادث الرئيسية فهما تختلفان في بعض الجزئيات مثل المكان الذي خاض فيه حبيب معركته الأولى ، وشخص والى الكوفة الذي أرسل المدد ، ورأى عثمان في توزيع الغنيمة .

وليس من الممكن في كل حال إنكار ما تمتاز به رواية البلاذرى من الوضوح ، والدقة وقوة المصدر ، وترتيب الحوادث ترتيباً طبيعيًّا ، والخلو من التناقض والأخبار الخيالية .

* * *

الآن ، وقد فرغنا من عرض روايات المؤرخين ، نجدها تتفق على أمور بعينها هي :

١ — حدوث قتال لفتح أرمينية في عهد عثمان .

٢ — اجتماع جنود العراق وجنود الشام في هذا القتال .

٣ — اختلاف هؤلاء الجنود .

ولكنها تختلف فيما بينها على زمان المعركة ، ومكانها ، وموضوع الخلاف على النحو الآتي :

أبو مخنف (ت حوالى ١٣٠ هـ) :

أرمينية — ٢٥ هـ — خلاف على الإمارة

سيف (ت ١٨٠ هـ) :

الباب وبلنجر — ٣٣ هـ — خلاف على الإمارة

الواقدى (ت ٢٠٧ هـ) :

(أ) سميساط — ٢٤ — ٣٠ هـ — خلاف على الغنيمة[1].

---

(١) رواية الواقدى فى كتابه « فتوح الإسلام لبلاد العجم »

(ب) قاليقلا – ٣٠ – ٣٤ هـ – خلاف على الغنيمة[١]

البلاذرى (ت٢٧٩ هـ) :

قاليقلا – ٣٠ – ٣٤ هـ – خلاف على الغنيمة

ابن الأثير (ت٦٣٠ هـ) :

الباب – ٣٠ هـ – خلاف على القراءة

والسؤال الطبيعى الآن هو :

أى هذه الروايات نختار ؟

إذا تغاضينا عن عدم ثقة الباحثين الأوربيين فى الرواية العربية التى يمثلها أبو مخنف ، فإن نص البلاذرى الصريح على ضعفها يفقدها الكثير من قيمتها .

ومهما كان حظ رواية سيف من الصحة أو عدمها فإن التاريخ الذى تذكره – وهو تاريخ يتفق مع الرواية الأرمنية ولذلك اختاره بروكلمان كما تقدم – لايصلح للمسألة التى نعالجها ، إذ يترتب على الأخذ به أن تكون كتابة المصحف قد تمت بعد وفاة عبد الله بن مسعود (ت٣٢ أو ٣٣ هـ)[٢] الذى من الثابت أنه عارض حركة كتابة المصحف من بدايتها ، وقاوم أمر الخليفة بإحراق المصاحف الخاصة حين دعا أهل الكوفة علناً إلى الاحتفاظ بمصاحفهم رافضاً فى الوقت نفسه – منفذاً ما يدعو الآخرين إليه – تسليم مصحفه الخاص إلى السلطات[٣] .

وبالرغم من أن ابن الأثير يسوق رواية متكاملة ، ويتحدث حديثاً مباشراً عن اختلاف الجنود فى القراءة ، وينتقل بالحوادث من ميدان القتال إلى مسجد الكوفة إلى عاصمة الخلافة ، متفقاً فى هذا مع رواية المحدثين . . بالرغم من هذا كله نجد أنفسنا مضطرين إلى الانصراف عن روايته تلك التى لاتنص على اجتماع أهل الكوفة وأهل الشام فضلا عن أنها تطالعنا بصورة فجائية مقطوعة الصلة بالأصل الذى تنتسب إليه مما يحملنا على الظن بأن ابن الأثير – على طريقته الخاصة فى التوفيق

---

(١) رواية الواقدى عند البلاذرى والطبرى .

(٢) ابن سعد : الطبقات – ٣ ق ١ : ١١٣ – الطبرى : تاريخ – ٥ : ٢٨٩٤ – ابن الأثير – أ : الكامل – ٣ : ١٠٧ – ب : أسد الغابة – ٣ : ٢٦٠ – ابن حجر العسقلانى – أ : الإصابة – ٤ : ١٢٩ – ب : تهذيب التهذيب – ٦ : ٢٨

(٣) ابن سلام : فضائل القرآن : ٣٧ . السجستانى : المصاحف : ١٣ – ١٨

الروايات المختلفة والإفادة منها ، وهى طريقة تقابلنا فى مكان آخر[١] – لم يفعل أكثر من أن حاول محاولة يعوزها الدليل أن يوفق بين رواية المحدثين ورواية المؤرخين .

وأن أوجه الاتفاق القوية بين روايتى الواقدى والبلاذرى ، وماتتسم به رواية البلاذرى من الوضوح والصحة للتاريخى ، إلى جانب مكانة البلاذرى العلمية . . كل ذلك يجعل من الممكن اعتبار رواية البلاذرى النص التاريخى الصحيح الأقرب إلى الكمال لحوادث فتوح أرمينية بحيث لانستطيع الاستغناء بها عن رواية الواقدى فحسب بل عن غيرها من الروايات كذلك ، متخذين منها فى الوقت نفسه مقياساً لحظ تلك الروايات من القوة أو الضعف .

وبما أن رواية البلاذرى لاتعطى – وهذا هو نقصها الوحيد – تواريخ محددة فإن علينا استكمال هذا النقص . وإذا كان سعيد بن العاص أمير الكوفة (٣٠– ٣٤ هـ)هو الذى أرسل المدد العراقى إلى الجيش السورى كما يؤكد البلاذرى وكما يؤخذ من رواية الواقدى ضمناً عنده وتصريحاً عند الطبرى ، وإذا كان حبيب ابن مسلمة قد فرغ من غزوته الكبرى لأرمينية عام ٣١ هـ فى قول الواقدى[٢] وهو قول يتفق مع السير العام للحوادث ، وإذاكان سلمان بن ربيعة قد توفى عام ٣١هـ[٣] مستشهداً فى غزوة البلنجر فى نفس الوقت تقريباً الذى فرغ فيه حبيب من فتح أرمينية ،وإذاكانت المعارك التى خاضها حبيب فى أرمينية لايمكن أن تستغرق أقل من عام هوعام ٣١ هـ على الأكثر مع ملاحظة أنه قضى أشهراً فى قاليقلا بعد فتحها فى أول الغزو . . . . إذا كان كل ذلك كذلك – وليس ثم ما يمنع ذلك – تحتم أن يكون حبيب قد بدأ غزو أرمينية عام ٣٠ هـ ، وأن يكون اجتماع جنود الشام والعراق واختلافهم على الغنيمة قد تم فى العام نفسه . وبما أن المشكلة ظلت قائمة زمنا كان

---

(١) راجع صلح أهل أرمينية وأذربيجان فى الكامل – ٣ : ٦٤ – ٦٦ حيث يجمع ابن الأثير ويوفق بين روايات كل من أبى مخنف وسيف والبلاذرى .

(٢) الطبرى : تاريخ – ٥ : ٢٨٧١

(٣) فى أسد الغابة أنه قتل ببلنجر عام ٢٨ أو ٢٩ أو ٣٠ أو ٣١ هـ . والعام الأخير هوأنسبها لأنه يتفق مع مايرويه ابن سعد (طبقات – ٦ : ٩٠)وابن قتيبة (المعارف : ٢٢١) ، والبلاذرى (فتوح : ٢٤١) وياقوت (معجم البلدان – ١ : ٤٤١ ، ٧٢٠) من استشهاده فى بلنجر فى إمارة سعيد ابن العاص على الكوفة وخلافة عثمان .

جنود الفريقين فى أثنائه يتبادلان العلاقات المختلفة حتى جاء حكم الخليفة ، فقد كانت فرصة كافية لا ليظهر اختلاف الجنود على القراءة فحسب ، بل ليتصل حذيفة ابن اليمان – ولو كتابة كما يقول ابن واضح اليعقوبى (ت بعد ٢٩٢هـ) –[١] بالخليفة وينذره بما هو أخطر من اختلاف المسلمين على الغنيمة الفانية ، اختلافهم على كتابهم المقدس .

أما بعد – فهل لنا أن ننتهى من هذه الرحلة الطويلة إلى أن كتابة المصحف بدأت عام ٣٠هـ ، وأن رواية ابن الأثير حددت زمنا صحيحاً لوقائع غير صحيحة ، وأننا وفقنا إلى تصوير صحيح للمسألة ؟

لا أستطيع أن أقول أكثر من : ربما .

(ب) عدد نسخه :

فرض علينا البحث – عندما تساءلنا عن ظهور المصحف العثمانى فى مصر[٢] – أن نحاول – كخطوة فى الطريق إلى الإجابة عن هذا التساؤل – تحديد العام الذى أمر فيه عثمان بكتابة المصحف الرسمى . والآن وقد أنجزنا هذه الخطوة نجد أنه ماتزال هناك خطوة أخرى على الطريق . فمن الطبيعى جداً أن ينصرف الذهن هنا إلى التفكير فى عدد النسخ التى كتبت من ذلك المصحف الرسمى والجهات التى أرسلت إليها .

عندما تحدث الرجال المعاصرون لهذه العملية الجليلة عنها لم يدر بخلدهم – ربما لأنهم لم يقصدوا إلى التسجيل التاريخى الدقيق – أن يحصوا المصاحف التى كتبت ولا أن يحددوا الجهات التى أرسلت إليها . فكل ما هنالك – فيما يحكى زيد بن ثابت وأنس بن مالك ، ومالك بن أبى عامر (ت ما بين ٧٤–١١٢هـ) جد الإمام مالك بن أنس وأحد الكتاب فى اللجنة التى شكلها عثمان لكتابة المصحف أى كان يملى عليه فيكتب[٣] ، ومصعب بن سعد (ت١٠٣هـ) التابعى الثقة الذى شهد

(١) تاريخ – ٢ : ١٤٧

(٢) انظر ص ٥ من هذا البحث

(٣) السجستانى : المصاحف : ٢١ وهامشها ٢٢ . أمين الخولى : مالك بن أنس : ٣٢ – ٣٣

عثمان وهو يكتب المصحف الرسمى[١] وسجل عدم اعتراض الناس على إحراق المصاحف الخاصة[٢] — أن اللجنة لما فرغت من كتابة المصاحف بعث الخليفة « فى كل أفق » أو « إلى كل جند من أجناد المسلمين » بمصحف منها ؛ أو هو « بعث بها إلى الآفاق » أوفرقها فى الناس » أو قسمها فى الأمصار » [٣].

ويلتزم ابن شهاب الزهرى[٤] ، وبكير بن الأشج (ت١٢٧هـ) الإمام المدنى نزيل مصر[٥]، هذا الاتجاه الإجمالى حتى نهاية الربيع الأول من القرن الثانى .

وبالرغم من أن ابن النديم (ت٣٨٣ هـ) لم يستهدف فى كتابه « الفهرست » أكثر من تسجيل الكتب الأساسية فى تاريخ الفكر الإسلامى والتعريف بها فإنه واصل ذلك الإجمال المبهم بالنسبة إلى هذه المصاحف[٦] .

ومما يلفت النظر حقًّا أن ابن الأثير لم يعن بهذه المسألة عنايته بمسألة تاريخ كتابة المصحف ، بل تركها غامضة [٧] ليتابعه على غموضها أبو الفدا[٨] وابن خلدون[٩] هذه المرة كذلك .

ومن المعنيين بالأمر فى العصر الحديث اكتفى رودول (١٨٦١ م) صاحب الترجمة الإنجليزية للقرآن [١٠] ، ومحرر مادة « قرآن » فى دائرة المعارف البريطانية[١١] ووليم موير (١٨٦١م) مؤلف « حياة محمد »[١٢] ، وأمين الخولى (ت١٩٦٦)[١٣]

---

(١) السجستانى : المصاحف : ٢٣ — ٢٤ . ولكن البيهق فى المدخل وصف حديثه عن عثمان بأنه منقطع أى سقط من إسناده رجل (ابن حجر : ت . التهذيب — ١٠ : ١٦٠)

(٢) المصدر نفسه : ١٢

(٣) ابن سلام : فضائل القرآن : ٣٦ — الطبرى : جامع البيان — ١ : ٢١ — السجستانى : المصاحف : ١٩ — ٢١ ، ٢٤ (٤) السجستانى : المصاحف : ٢٣

(٥) المصدر نفسه : ٢٣ — النووى : تهذيب الأسماء — ١ : ١٢٥ — ابن حجر : ت . التهذيب ١ : ٤٩١ — ٤٩٢ — ابن تغرى بردى — النجوم — ١ : ٣٠٤ — السيوطى حسن — ١ : ١١٩

(٦) الفهرست : ٢٥ (٧) الكامل — ٣ : ٨٦ — ٨٧

(٨) المختصر — ١ : ٢٦٤ (لاهاوى) ، ١ : ١٦٧ (القاهرة)

(٩) كتاب العبر — ٢ : ١٣٦

(١٠) The Koran Rodwell's translation — London 1950.

(١١) Ency. Brit., Koran, Vol. 13, p. 484 (14th edition)

(١٢) Muir — Life of Mohammad — 1861.

ونقل عنه محمد حسين هيكل : حياة محمد — المقدمة ص ٣٦ — الطبعة الثانية ١٩٣٦

(١٣) دائرة معارف الشعب : القرآن الكريم : ٢٤

بالنص على أن نسخاً من المصحف أرسلت إلى المدن الرئيسية فى الإمبراطورية الجديدة .

وفى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى يقابلنا أول وأقدم تحديد لعدد المصاحف التى أمر عثمان بكتابتها عندما يذكر حمزة الزيات، قارئ الكوفة ، وأحد القراء السبعة (ت١٥٦هـ)[١] أنه كتب مصحفه الخاص به نقلا عن النسخة الرسمية التى أرسلها عثمان إلى الكوفة والتى كانت إحدى أربع نسخ أمر بكتابتها . ولا يقول حمزة ، الذى يبدو أنه ذكر هذه النقطة عرضا وهو يتحدث عن مصحفه ، شيئا عن الجهات التى وجهت إليها النسخ الثلاث الباقية[٢] .

وقد سجل أبو عمرو الدانى ، العالم الأندلسى ذو النشاط العظيم والتخصص الدقيق والعلم العميق بالدراسات القرآنية (ت٤٤٤هـ)[٣] ، اطمئنان الأكثرية من العلماء إلى هذا العدد دون أن يوضح ما إذا كانوا يستمدون اطمئنانهم هذا من قول حمزة ومكانته السامية فى شئون القرآن أم يعتمدون على مصادر أخرى . ويكمل الدانى نقص رواية حمزة حين ينص على أن نسخة أرسلت إلى كل من الكوفة والبصرة والشام فى حين استبقيت واحدة بالمدينة[٤] .

وعندما تحدث المؤرخ الأندلسى الكبير ابن بشكول (ت٥٧٨هـ)عن مصحف عثمان بن عفان الذى كان فى جامع قرطبة الأعظم ، ثم أخرجمنها فى شوال٥٥٢هـ وصار إلى بنى عبد المؤمن ، قرر أن هذا المصحف هو أحد المصاحف الأربعة التى بعث بها عثمان إلى الأمصار : مكة ، والبصرة ، والكوفة ، والشام[٥] .

ويضيف المفسر الكبير القرطبى (ت٦٧١هـ) زيادة هامة إلى هذا القول الرباعى حين يذكر أن مصر كان لها نصيب من هذه المصاحف الأمهات مثلها مثل العراق والشام[٦] .

---

(١) أبو عمرو الدانى : التيسير فى القراءات السبع : ٦ – ٩ . ابن الجزرى : غاية النهاية – ١ : ٢٦١–٢٦٣ ، النشر فى القراءات العشر – ١ : ١٦٥ – ١٦٦

(٢) السجستانى : المصاحف : ٢٤

(٣) ترجم له ترجمة وافية دكتور عزت حسن فى المقدمة التى صدر بها كتاب الدانى « المحكم فى نقط المصاحف » ، دمشق ١٩٦٠

(٤) الدانى : المقنع فى الرسم : ١١

(٥) المقرى : نفح الطيب – ٢ : ٩٩ ، ١٣٥ . وهناك أخبار أخرى عن ذلك المصحف ص ٨٦ وحتى ص ١٤٥ .

(٦) الجامع لأحكام القرآن : المقدمة – ١ : ٤٧

فإذا بلغنا عصرنا الحاضر وجدنا بوهل[1] وبروكلمان[2] يلتزمان قول حمزة هذا — أو الدانى فى الأصح — دون أى تغيير . ويذكر حتى الرأى نفسه على أنه رأى الروايات الإسلامية[3] .

ولكننا نعود لنرى أنه فى النصف الأول من القرن الثالث ، أى بعد حمزة بقرن وقبل أبى عمرو الدانى بائنين ، كان أبو حاتم السجستانى ، ثانى تلاميذ الأصمعى فى الشهرة بعد أبى عبيد القاسم بن سلام وصاحب التآليف فى النحو واللغة والقراءات (ت ٢٥٠ هـ)[4] ، يقول فى البصرة — ربما كرأى مضاد للرأى الكوفى — إن عثمان إنما كتب سبعة مصاحف استبقى واحداً منها بالمدينة وأرسل النسخ الباقية إلى مكة ، والشام ، واليمن ، والبحرين ، والبصرة ، والكوفة[5] .

ويبدو أن قول أبى حاتم العالم البصرى اشتبك مع قول حمزة القارئ الكوفى فى خلال قرنين من الزمان فى صراع ظفر فيه القول الكوفى بتأييد أغلبية العلماء ، وسجل أبو عمرو الدانى هذه النتيجة فى القرن الخامس معلنا أن القول الكوفى « أصح ، وعليه الأئمة »[6] .

وبالرغم من هذا رفض ابن عساكر الدمشقى (ت٥٧١هـ)أن يذكر أى قول آخر غير قول أبى حاتم[7] .

بل إن ابن كثير الدمشقى كذلك (ت ٧٧٤هـ) مطمئن إلى قول أبى حاتم اطمئناناً يجعله ينظر بعين الدهشة إلى القرطبى مستغرباً منه أن يرفضه ويصححه بالقول الرباعى[8] .. وإن كان من المهم أن نلحظ أن ابن كثير حين يعالج هذا الموضوع فى مكان آخر يحذف « البحرين » من رواية صديقه أبى حاتم ليضع « مصر » بدلا منها[9] .

---

(١) Buhl, F. ; Koran, Ency. Isl. II, p. 1979.

(٢) تاريخ الأدب العربى — ١ : ١٤٠ (٣) تاريخ العرب : ١٦٩

(٤) ابن الأنبار : نزهة الألبا : ٢٥٤ — بروكلمان : تاريخ الأدب العربى — ٢ : ١٥٩—١٦١

(٥) السجستانى : المصاحف : ٣٤ (٦) المقنع فى الرسم : ١١

(٧) تهذيب تاريخ دمشق . ١ : ٤٤

(٨) فضائل القرآن : ٣٩

(٩) البداية والنهاية — ٧ : ٢١٦

ولا يعدم قول أبي حاتم أنصاراً فى العصر الحديث فإن الرافعى يأخذ به ويصفه بأنه « قول مشهور »[١] .

ومن حقنا أن ندهش حين نرى ابن واضح اليعقوبى المؤرخ (ت بعد ٢٩٢هـ) يعد المصاحف التى أمر عثمان بكتابتها تسعة . ولكن كل ما فى الأمر أنه يذكر نفس مصاحف أبى حاتم السبعة بعد أن يضيف إليها مصحفين آخرين أرسل أحدهما إلى مصر والثانى إلى الجزيرة[٢] .

وبعد ابن واضح بخمسة قرون ونصف تقريبا يأتى ابن الجزرى (ت٨٣٣) صنيعًا مشابهًا ، فيعد مصاحف عثمان ثمانية ، لأنه يضيف إلى مصاحف أبى حاتم المصحف « الإمام »[٣] الذى احتجزه الخليفة لاستعماله الشخصى ، وهو غير المصحف الذى استبقى فى « المدينة » عاصمة الخلافة للاستعمال العام[٤] .

إذا نحن استثنينا هؤلاء الذين رفضوا أن يحددوا لمصاحف عثمان عدداً لم نجد لدينا سوى قولين :

قول حمزة الرباعى ، وقول أبى حاتم السُّباعى . وقد ذكرنا أتباع كل قول على مر القرون . ولكن هناك من وقف من القولين كليهما موقفا سلبيًّا مكتفيا بعرضهما دون تعليق : النووى (ت ٦٧٦هـ)[٥] ، الزركشى (ت ٧٩٤ هـ)[٦] .

ولانقف المسألة عند هذا الحد فإننا نفاجأ بابن حجر العسقلانى فى القرن التاسع الهجرى يضيف إلى القولين السابقين قولا جديداً حين يذكر عن مصاحف عثمان أن « المشهور أنها خمسة » . وإن كان من الحق أن يورد بعد ذلك قول حمزة وقول أبى حاتم . بل إنه ينتبه إلى خبر صحيح لإبراهيم النخعى العالم الكوفى (ت٩٦هـ)[٧] لم ينتبه إليه غيره ويؤخذ منه أن المصاحف كانت أربعة[٨] . ويستشهد ابن حجر

---

(١) تاريخ آداب العرب – ٢ : ٢٠ – ٢١
(٢) تاريخ اليعقوبى – ٢ : ١٤٧
(٣ ، ٤) – النشر – ١ : ٧
(٥) التبيان : ٢٥١ – ٢٥٢
(٦) البرهان – ١ : ٢٤٠
(٧) ابن سعد : الطبقات : ٦ : ١٨٨ – ١٨٩
(٨) السجستانى : المصاحف : ٣٥

على صحة القول الذى يذهب إليه بأن ابن جبير المكى – وكان قبل ابن مجاهد[١] – صنف كتابا فى القراءات فاقتصر على خمسة اختار من كل مصر إماما . وإنما اقتصر على ذلك،لأن المصاحف التى أرسلها عثمان كانت خمسة إلى هذه الأمصار. ثم يعترض على قول أبى حاتم بأن المصحفين اللذين يزيد بهما على مصاحفه ، وهما مصحف اليمن ومصحف البحرين ، لم نسمع لهما خبراً[٢] .

ومثلما تابعه السيوطى والقسطلانى فى التاريخ الذى حدده لكتابة المصحف[٣] عادا فتابعاه أيضًا فى عدد النسخ التى كتبت من هذا المصحف والجهات التى أرسلت إليها[٤] .

ويأخذ المؤرخ المعاصر جورجى زيدان يقول ابن حجر بعد أن يضيف إليه مصحفاً سادساً احتفظ به عثمان لنفسه وهو الذى يسمونه « الإمام »[٥] . وزيدان فى هذا يقف من ابن حجر مثل موقف ابن الجزرى من أبى حاتم .

وبظهور هذا الرأى الخماسى لابن حجر يصبح لدينا أقوال ثلاثة رئيسية لابد من الترجيح بينها .

إن تصور الجو النفسى الذى قامت فيه الجماعة الإسلامية ، ممثلة فى الدولة ، بتسجيل نص رسمى لكتابها المقدس يشكل عاملا أساسيًا فى هذا الترجيح . وقد رأينا ، ونحن نحاول تحديد عام كتابة المصحف ، أن اختلاف المسلمين فى قراءة القرآن الناجم عن تنوع المصاحف التى يعتمدون عليها ويحفظون منها جعل يزداد على الأيام وضوحاً وعمقاً حتى وصل إلى التحزب الصريح فى مسجد الكوفة ، وإلى التكفير العلنى فى مجالس « المدينة » ، وإلى النزاع الخطر فى ميدان القتال . وساد المسلمين لهذا جو من التوتر المشحون بالقلق توقع معه الرجال من ذوى النظر البعيد والمقدرة على استقراء النتائج من خلال المقدمات (حذيفة بن اليمان – الخليفة

---

(١) القارئ الشهير الذى اختار القراءات السبع (ت ٣٢٤ هـ) انظر النديم : الفهرست : ٣١. ابن الجزرى: النشر – ١ : ١١٨ – ١٢٤

(٢) ابن حجر : فتح البارى ٩ : ١٧ ، ٢٦

(٣) انظر ص ١٨ من هذا البحث

(٤) الإتقان – ١ : ٦٠ – رشاد السارى : ٧ : ٥٣٥

(٥) تاريخ آداب اللغة العربية – ١ : ١٨٧

نفسه) أن نعدد أصول النص المقدس لن يلبث حتى يصبح أمراً واقعا مسلما بالتالى إلى انقسام الجماعة الإسلامية على أنفسها كما انقسم أهل الكتاب من قبل . ولذلك لم تدوان الدولة الدينية الناشئة ، وقد أفزعها هذا الاحتمال الرهيب ، عن الشروع فى تسجيل نص موحد للكتاب الكريم .

ولم يعدل حرص اللجنة التى شكلت لهذا الغرض من رجال أربعة ثقات[١] على كفالة أعلى مستوى ممكن من الدقة لمهمتها سوى حرصها على الفراغ من هذه المهمة فى أقصر مدة مستطاعة كسباً للزمن ، وحسما للنزاع ، وقطعاً للطريق على أى إنفجار قد يحدث بسبب هذا الموضوع فى داخل الجماعة . وربما كان التعجيل بإيصال النسخة الخاصة بالكوفة قبل مراجعتها[٢] ، وتغاضى الخليفة عما وجده فى المصحف الرسمى بعامة من لحن تاركاً تقويمه لألسنة العرب[٣] ... ربما كان هذا وذلك من مظاهر تلك العجلة التى أملتها الرغبة فى إزالة التوتر الذى يعانيه وجدان الجماعة . ومما لا يتفق مع العجلة فى اتخاذ هذا الإجراء الوقائى للجماعة كتابة عدد من المصاحف يقرب من العشرة .

وإذا وضعنا فى الاعتبار أن كتابة صورة نهائية من المصحف للمرة الأولى كتابة تتحقق فيها الوحدة اللغوية وترتيب السور ليست بالعمل السهل وخاصة إذا قدرنا صعوبة الكتابة بوجه عام حينذاك ، بالإضافة إلى المستوى العالى من الدقة الذى يجب توفره فى كتابة المصحف من جهة وضخامة حجم النسخ[٤] التى كتبت من

---

(١) المشهور أنهم أربعة ، ولكن بعض الروايات ينزل بهم إلى اثنين (الطبرى . جامع البيان – ١ : ٢٠ . السجستانى : المصاحف : ٢٤) ، فى حين يرتفع بهم بعضها الآخر إلى أثنى عشر رجلا من قريش والأنصار (المصاحف : ٢٥،٢٦) .

(٢) السجستانى : المصاحف : ٣٥ – ابن حجر : فتح البارى – ٩ : ١٧ .

(٣) السجستانى : المصاحف : ٣٢ – ٣٣ .

(٤) كان الاتجاه فى صدر الإسلام بخاصة ، وفى القرون الأولى بعامة ، إلى كتابة المصحف بخط كبير وفى حجم ضخم بالتالى ، إذ كان يعتقد أن تصغيره مناف لما يجب له من التعظيم . وقد ضرب عمر بن الخطاب ، وكان يستحب كتابة المصحف بخط كبير ، رجلا كتب القرآن كله (كذا) فى مصحف بقلم دقيق . (ابن عبيد : فضائل القرآن : ٥٧ – ٥٨) . وكان علىّ لا ينى ينبه كتاب المصاحف إلى توضيح خطوطها وتكبيرها . (ابن عبيد / فضائل القرآن : ٥٧ – ٥٨ – السجستانى : المصحف : ١٣٦) .

وليس أدل على ضخامة المصاحف التى كتبها عثمان بن من مصحف دمشق الأعظم ، وكان أول =

المصحف من جهة أخرى . . . إذا فعلنا هذا صعب علينا الاقتناع بأن عثمان كتب سبعة مصاحف بل ثمانية أو تسعة .

بالرغم من أننا لا نستطيع أن نخرج بفهم معين من الأخبار التى لم تحدد الجهات التى أرسلت إليها المصاحف مكتفية بأن عثمان بعث بها إلى الآفاق أو الأمصار أو الأجناد فمن البديهى الذى يتفق مع الواقع العملى – على ما انتبه إليه بوهل[1] – أن تختص الأقاليم التى ظهر فيها الاختلاف على القرآن – أى العراق والشام – بالمصاحف الجديدة .

هذا من الناحية الموضوعية ، أما من حيث السند فنلاحظ أن الأخبار جميعها تستوى فى أنها تسكت عن ذكر المصدر الذى أخذت عنه عدد المصاحف والجهات التى أرسلت إليها بحيث تبدو المسألة كأنما قد خضعت للاجتهاد المحض والنظر المنطقى إن لم نقل إنها خضعت فى بعض الأحيان للتخمين . ومن القريب فى كل حال أن المعنيين بالأمر ، وفى مقدمتهم القراء ، كانوا ، بالرغم من عدم تعرض الرواية النقلية للموضوع ، على علم بالمصاحف العثمانية الموجودة لعهدهم فى الأمصار . وعلى أساس من هذا العلم المتداول فى بيئتهم الخاصة حدد حمزة الزيات عدد هذه المصاحف وشهد بوجود أحدها فى الكوفة . ولاشك فى أن ترجيح أبى عمرو الدانى الرأى الرباعى اعتمد على أساس إحصائى . فإذا أضفنا جلالة مكانة الزيات ، وتمشى قوله مع طبيعة الموقف والظروف الملابسة لكتابة المصحف ، على ما بينا منذ قليل ، كان لنا كل الحق فى التشكك فى إرسال مصاحف إلى جهات أخرى غير البصرة ، والكوفة ، ودمشق . أما استبقاء نسخة بعاصمة الخلافة فأمر طبيعى تماما . ومن هذا نستطيع أن نقول : إن عثمان وزع مصاحفه توزيعا جغرافيًّا : فنسخة المدينة لشبه الجزيرة ، ونسختا الكوفة والبصرة للمشرق ، ونسخة دمشق للمغرب تاركا للراغبين أن يتصلوا بهذه المصاحف الرئيسية وينسخوا منها مايشاءون . وقد كان

= مصحف رفعه أهل الشام فى معركة صفين (٣٧ هـ) لما استيأسوا ، قد « ربط على خمسة أرماح يحملها خمسة رجال » . (الدينورى : الأخبار الطوال : ١٨٩) ؛ وإذا كان هذا هو نفس المصحف الذى رآه ابن كثير فى جامع دمشق فى القرن الثامن الهجرى ، فقد كان – على ماسجل من وصفه – كتاباً عزيزاً جليلا ، عظيماً ضخماً ، بخط حسن مبين قوى ، بحبر محكم ، فى رق أظنه من جلود الإبل » .

(فضائل القرآن : ٤٩)

(١) Ency, Isl. II. p. 1070 ; Koran

السفر من إقليم إلى إقليم للحصول على نسخة مكتوبة من القرآن معروفاً فى عهد عمر نفسه[١]. ولاشك أن الناس نسخوا عن المصاحف العثمانية نسخاً كثيرة[٢].

• • •

نقف الآن وجهاً لوجه أمام السؤال الأول الأصيل الذى قطعنا كل هذا الشوط سعياً إلى الإجابة عنه ، وهو : هل أرسل عثمان نسخة من مصحفه إلى مصر ؟

لعلنا الآن نقف على أرض ثابتة ونحن نعالج المسألة سواء من جانبها الزمنى الخاص بتاريخ كتابة مصحف عثمان أو من الجانب العددى الخاص بعدد النسخ التى كتبت من هذا المصحف .

أما عن الناحية الأولى فقد رجح لدينا أن عثمان كتب المصحف الرسمى عام ٣٠هـ؛ وسواء تقيدنا بهذا التاريخ عند البحث فى أخبار مصر عن وصول نسخة من هذا المصحف إليها ، أو وسعنا نطاق البحث بحيث يغطى الفترة التى تتناولها كل الروايات ، أى ما بين ٢٥ – ٣٢ هـ ، فإننا لن نجد ، فى حدود ما بين أيدينا من المراجع ، ما يشير صراحة أو ضمنا إلى ظهور هذا المصحف بمصر . ولسنا ننكر أن أهل مصر شغلوا فى هذه الفترة ، التى كان يتأمر عليهم فيها عبد الله بن سعد بن أبى سرح أحد كتاب الوحى الأقدمين[٣] ، بسلسلة من المعارك الحاسمة التى لم تقرر مصير مصر وحدها بل مصير كل ذلك الجزء الغربى من الدولة الإسلامية الناشئة (فتح الإسكندرية الثانى ٢٥هـ – غزوة إفريقية ٢٧هـ – غزوة النوبة ٣١ هـ – معركة ذات الصوارى البحرية ٣٤ هـ)[٤] . ولكننا لا نتوقع فى الوقت نفسه أن يشغل ذلك المصريين عن أن يسجلوا فى أخبارهم نبأ وصول نسخة من مصحف عثمان إلى بلدهم بما هو حدث ذو أهمية اجتماعية وتاريخية فائقة . ومن الطبيعى أن يكون الأمر بإلغاء المصاحف الخاصة وإحلال المصحف الرسمى محلها أهم وأبرز

---

(١) السجستانى : المصاحف : ١٥٧ .

(٢) بروكلمان : تاريخ الأدب العربى – ١ : ١٤٠ .

(٣) ابن سعد : الطبقات – ٧ ق ٢ : ١٩٠ – ابن قتيبة : المعارف : ١٥٣٤ – البلاذرى فتوح البلدان : ٥٨٢ – النجوم – ١ : ٨٢ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ١٧٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ – الكندى : الولاة : ١١ ١٣ – ابن تغرى بردى : النجوم – ١ : ٦٥ – ٦٦ ، ٧٩ – ٨٠ .

حوادث العام جميعاً . ومن السهل أن نتصور هذا الموضوع المتعلق بالقرآن ، — محور حياة الجماعة الإسلامية ، وكتابها الديني المقدس ، ومعجزة نبيها الكبرى — وقد شغل أذهان المسلمين ، وكان حديثهم جميعاً — رجالا ونساء ، عرباً وموالي — في كافة الأمصار ، لاسيما وقد ارتبط في وجدان الناس وأذهانهم ارتباطا لا يسهل فصمه بإلقاء مصاحفهم إلى النار مما شكل ظاهرة عامة ذات صفة تاريخية عبر عنها أنس بن مالك الأنصاري في قوله : « فذاك زمان حرقت المصاحف بالعراق بالنار »[1] .

ولكن الموقف يختلف سنة ٣٥هـ . فقد عاب خصوم عثمان عليه أنه حمل الناس على مصحف[2] واحد، وأصبح توحيده المصحف من أسباب الثورة عليه ، واضطر أن يقف في مسجد العاصمة سنة ٣٥ هـ يفند التهم التي يوجهها الثوار إليه ومن بينها أن القرآن كان كتباً فتركها إلا واحداً[3] .

وفي مصر ظهرت طلائع التمرد على عثمان في غزوة ذات الصواري سنة ٣٤ هـ . وفي العام التالي اضطلعت مصر بأهم الأدوار في الثورة عليه[4]،وتزعم الرواية أن أول تهمة ذكرها الثوار المصريون المجتمعون في الجحفة[5] لعلي بن أبي طالب مبعوث عثمان إليهم هي أن عثمان « محا كتاب الله عز و جل »[6] . بل تذكر رواية أخرى أن هذا الوفد الثائر اجتمع بعثمان نفسه فقالوا له : ادع بالمصحف . فلما أحضره قالوا له : افتح السابعة — وكانوا يسمون سورة يونس السابعة . فقرأها حتى أتى على هذه الآية : « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا . قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون » ؛ فاستوقفوه ليبينوا له أنه قد[7] خالف هذه

---

(١) السجستاني : المصاحف : ١٢، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) طه حسين : عثمان : ١٨١ .

(٣) الطبري : تاريخ : ٦ : ٢٩٥٣ .

(٤) المصدر نفسه — ٦ : ٢٩٤١ — ٣٠٢٥ — الكندي : الولاة : ١٦ — ١٨ — المسعودي : مروج الذهب — ٢ : ٣٥٢ — ٣٥٥ — فلهوان : تاريخ الدولة العربية : ٤٥ — ١٦ ، ٤٩ — ٥٠ — بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية — ١ : ١٣٥ — ١٣٦ .

(٥) الجحفة ، بالضم ثم السكون ، كانت قرية كبيرة ذات منبر ، على ثلاث أو أربع مراحل من مكة في طريق المدينة . ياقوت : م . البلدان — ٢ : ٣٥ .

(٦) السجستاني : المصاحف : ٣٦ (٧) سورة يونس : ٥٩ .

الآية مخالفة صريحة حين حمى الحمى [١] . وهكذا بالنسبة إلى سائر الاتهامات [٢] .

وأيا كان نصيب هذه الأخبار من الصحة — وهو نصيب ضئيل فيما يبدو — فإنها تشير إلى موقف أهل مصر ضد مصحف عثمان الرسمي . وأن إطلاقهم اسم « السابعة » على سورة يونس ، التي تمثل السورة العاشرة في المصاحف العثمانية ، إذا عددنا سورة « الحمد » وجعلنا من « الأنفال » و « التوبة » سورتين مستقلتين ، يدل على أنهم ظلوا متمسكين حتى ذلك الحين بالترتيب القديم للسور الذي تجده عند أبيّ ، وابن مسعود وابن عباس ، حيث تقع سورة يونس «السابعة» دائما بصرف النظر عن اختلافهم في ترتيب السور الست الباقية مع ملاحظة أنهم في ذلك يحافظون على وضعها المأثور بين السور ذات الأهمية الخاصة التي أطلق عليها النبي اسم « السبع الطوال » وكان يرى أنها تعدل التوراة [٣] .

أما من الناحية العددية فقد رجح لدينا قول حمزة الرباعي على الوجه الذي وضحه به أبو عمرو الداني . وبالرغم من أن مصر ليس لها نصيب من المصاحف العثمانية وفق هذا القول ، ولاحتى وفق قول أبي حاتم السباعي ، لأنهما كليهما قد نصا نصًّا صريحا على البلاد التي وزع عليها المصحف ، فنحن لا نستطيع أن نتجاهل هؤلاء الذين ذكروا مصر من بين البلاد التي ظفرت بإحدى النسخ العثمانية .

إن ابن واضح اليعقوبي أكثر قرباً إلى الحوادث من غيره لأنه مؤرخ قديم . وهو حين يتحدث في القرن الثالث الهجري عن جمع عثمان القرآن يكاد ينفرد في كل ما يقول ، ويذكر أموراً لم يذكرها غيره حتى لتبدو وكأنها أسرار خفية لم يتح لغيره من المؤرخين الاطلاع عليها . وبالرغم من هذا بل بسبب هذا لانستطيع

---

(١) الحمى : موضع فيه كلأ يحمى من الناس أن يرعى . وبالرغم من أن الاجتماع العربي تواضع على أن الناس شركاء فيما سقته السماء من الكلأ إذا لم يكن مملوكا ، فإن أفراد الأرستقراطية الجاهلية كانوا يكسرون هذا التقليد الاجتماعي ويحجزون مناطق رعوية لاستعمالهم الخاص . مع مشاركتهم الناس في سائر المراعي . ثم شرع النبي أنه « لاحمى إلا لله ولرسوله » . وبناء على هذا استعمل عمر حق الدولة وخصص مراعي لنعم الزكاة وخيل الجيش . وقد صرحت عائشة بأنهم عتبوا على عثمان « موضع الغمامة المحماة » وقد نفى عثمان هذه التهمة بقوله : « والله الحمى فوالله ماحميته لإبلي ولاغنمي ، وإنما حميته لإبل الصدقة لتسمن وتصلح وتكون أكثر ثمنا للمسلمين » (المصاحف : ٣٦) . راجع : لسان العرب : مادة : حما . (٢) الطبري : تاريخ : ١ : ٢٩٢٣ — ٢٩٢٤ .

(٣) السيوطي : الإتقان ١ : ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ .

قبول أخباره فى هذا الموضوع ومن بينها إرسال مصحف إلى مصر وآخر إلى الجزيرة بالإضافة إلى الجهات السبع التى يقول بها أبو حاتم[١] .

وبالرغم من أن القرطبى على علم بالرأى الرباعى ويفضله على رأى أبى حاتم فإنه ينص على أن الجهات التى أرسلت إليها النسخ الأربع هى : العراق ، والشام ، ومصر[٢] . ويترتب على هذا إما إرسال نسخة واحدة إلى العراق وهو مالم يقل به أحد وإما حرمان العاصمة من نسختها وهو غير معقول .

وبعد ذلك بقرن يتخذ ابن كثير ، فى القرن الثامن الهجرى ، موقفاً غير دقيق . فهو فى كتابه « فضائل القرآن » يلتزم قول أبى حاتم التزاما تامًّا[٣] فإذا عالج الموضوع نفسه ، وهو يعدد مناقب عثمان فى تاريخه « البداية والنهاية » ، أدخل على الجهات ، التى أرسل إليها المصحف ، تعديلا هاما إذ يلغى البحرين ليضع مصر بدلا منها[٤] .

ونقطة الضعف فى جميع هذه الأقوال التى جعلت لمصر نصيباً فى نسخ المصحف العثمانى أنها يعوزها الدليل – النقلى طبعاً – على صحة ما تذهب إليه . ويبدو لى – وإن كنت لا أملك الدليل كذلك – أن الوهم دخل على هؤلاء العلماء الكبار من تصحيف ، ناتج عن سوء الفهم أو سوء النقل ؛ طرأ على العبارات التى تذكر أن عثمان لما كتب مصحفه أرسل منه نسخة إلى كل « مصر » من الأمصار .

ومما يدخل فى نطاق الناحية العددية أن المصاحف التى أرسلها عثمان إلى البلاد كانت خالية من النقط والشكل مثلما كانت مختلفة فيما بينها فى بعض الحروف . وقد هيأ هذا لما كان متفقا من مصاحف الأمصار القديمة مع المصحف الرسمى أن يظل محتفظاً بالبقاء . وكان طبيعيًّا أن يؤدى هذا مع الزمن إلى ظهور اختلافات معينة وثابتة بين مصاحف الأمصار[٥] . وكان هذا من أهم الموضوعات التى عنى ببحثها والتأليف فيها ، علماء القرآن . ومن الطبيعى ألا يعنينا من هذا الموضوع الخطير الآن سوى ما فيه من إشارة أو عدم إشارة إلى مصحف خاص بمصر .

---

(١) ابن واضح : تاريخ : ٢ : ١٤٦ – ١٤٧ .
(٢) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن : المقدمة – ١ :
(٣) ص ٣٩ . (٤) ٧٦ : ٢١٦ .
(٥) آ. جفرى : مقدمة كتاب المصاحف للسجستانى :

تحدث أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) فى كتابه الأساسى « فضائل القرآن » ، من اللوحة رقم ٤٤ إلى اللوحة رقم ٤٦ حديثاً طويلا عن أوجه الخلاف بين مصاحف الأمصار الإسلامية فلم يشر مطلقاً إلى مصحف خاص بمصر ، وإنما قال : « وهذه الحروف التى اختلفت فيها مصاحف أهل الشام وأهل العراق . وقد وافق أهل الحجاز فى بعض وفارقت بعضا» (اللوحة ٤٥) ثم قال بعد سطور كثيرة فصل فيها هذه الخلافات : « وقد ذكرنا ما خالفت فيه مصاحف أهل الحجاز وأهل الشام مصاحف أهل العراق نفسها ... » (اللوحة ٤٥) .

ويفعل أبو بكر السجستانى (ت ٣١٦ هـ) الصنيع نفسه حين يحصى فى باب « اختلاف مصاحف الأمصار التى نسخت من الإمام » ، ص ٣٩ — ٤٩ من كتابه الهام « كتاب المصاحف » ، وجوه الخلاف بين مصاحف كل من المدينة والكوفة والبصرة والشام دون أية إشارة إلى مصحف خاص بمصر . كما أنه عندما يتحدث فيا بين ص ٤٤ — ٤٧ عما يسميه : إمام أهل الحجاز ، وإمام أهل الشام ، وإمام أهل العراق لانجد ذكراً لمصحف اسمه : إمام أهل مصر .

ولما سجل ابن النديم (ت ٣٨٣ هـ) الكتب التى كان قد تم تأليفها حتى القرن الرابع الهجرى فى هذا الموضوع الهام ، موضوع اختلاف المصاحف لم يكن بينها — على ما تدل عليه عناوينها بعامة — ما يتحدث عن أوجه الخلاف بين المصحف المصرى وغيره من مصاحف الأمصار[1] .

وفى المقدمة السريعة لكتابه الشهير « المقنع فى الرسم » قال أبو عمرو الدانى (ت ٤٤٤هـ) يحدد الغاية من كتابه هذا :

« هذا كتاب أذكر فيه إن شاء الله ماسمعته من مشيختى ، ورويته عن أئمتى ، من مرسوم خطوط أهل الأمصار : المدينة ، ومكة ، والكوفة ، والبصرة ، والشام ، وسائر العراق المصطلح عليه قديما ، مختلفاً فيه ، ومتفقاً عليه ، وما انتهى إلى من ذلك وصح لدى منه عن الإمام مصحف عثمان بن عفان رحمه الله ، وعن سائر النسخ التى انتسخت منه الموجهة (كذا) بها إلى الكوفة ، والبصرة ، والشام ، وأجعل جميع ذلك أبوابا ، وأصنفه فصولا . . . . »[2] .

---

(١) الفهرست : ٣٦ . (٢) المقنع : ٢ .

وقد بر أبو عمرو بوعده فتحدث كثيراً عنه ، ورجع كثيراً إلى مصاحف أهل العراق ، ومصاحف أهل المدينة ، ومصاحف الكوفة ، ومصاحف الشام ، ومصاحف أهل المدينة والحجاز ، ومصاحف أهل البصرة دون أن يقع فى خلال ذلك كله أدنى ذكر لمصر .

وكذلك لما تحدث أبو عمرو عما اتفقت على رسمه مصاحف أهل الأمصار من أول القرآن إلى آخره[1] ، وعما اختلفت فيه هذه المصاحف بالإثبات والحذف[2] تحدث عن كتاب مصاحف أهل المدينة والكوفة والبصرة والشام ، بل إنه تحدث عن مصاحف مدينة السلام بغداد ، ولم يذكر شيئاً خاصاً بمصر .

لم يرسل عثمان إذن نسخة من مصحفه إلى مصر . ولكن لم يكن لمصر بدٌ من أن تعرف هذا المصحف عاجلا أو آجلا . فهل تم هذا ؟ وكيف ؟ ومتى ؟

(حـ) المصحف العثمانى فى مصر

قد يمر يوم أو شهر أو عام كامل دون أن يجد الفرد العادى المسلم فى مجتمعنا المعاصر حاجة إلى استعمال المصحف . ولكن الوضع مختلف تماما بالنسبة إلى الأفراد فى المجتمع الإسلامى الجديد الذى كان يتكون وينبثق من خلال الحوادث حينذاك ملتزما تعاليم القرآن فى أسسه المادية، ونظمه الاجتماعية ، وقيمه الأخلاقية . ولا شك فى أن معرفة القرآن لم تكن ضرورة وجدانية روحية فحسب بل كانت مع ذلك — وربما قبل ذلك — ضرورة حيوية للفرد كى يستطيع أن يتكيف تكيفاً ناجحاً مع الشروط الجديدة، للبقاء التى فرضها الدين الجديد المنتصر وسجلها فى كتابه المقدس . .

ومن العسير ، بالنسبة إلى مصر ، أن نتصور أن رجال الحكم — الوالى ، القاضى ، صاحب الشرطة — ، الذين كانت مهمتهم ذات جانب دينى وجانب مدنى على السواء ، لم يعرفوا القرآن فى صورته الرسمية الجديدة ، وبخاصة أن منهم من

(١) المقنع : ٨١ . (٢) المصدر نفسه : ٨٩ .

جاء من المدينة والكوفة؛ (قيس بن سعد ٣٧هـ[١]– محمد بن أبي بكر ٣٧ – ٣٨هـ[٢]) . ومنهم من جاء من دمشق (عمرو بن العاص في ولايته الثانية ٣٨ – ٤٣هـ[٣]– عتبة بن أبي سفيان ٤٣ – ٤٤هـ[٤]) . ولكن مسلمة بن مخلد الأنصارى أمير مصر (٤٧ – ٦٢ هـ) الذى شهد فتحها ولعب دوراً داما فى مقاومة الثائرين على عثمان ، وكان يتعبد ويجيد حفظ القرآن ، يلقى ضوءاً هاما على الموضوع ، إذ قال يوما للحاضرين فى مجلسه : « أخبرونى بآيتين فى القرآن لم يكتبا فى المصحف » فلم يخبروه بالرغم من أن أبا الكنود الأزدى ، سعد بن مالك الزعيم العثمانى الذى شهد فتح مصر[٥] ، كان حاضرا . عند ذلك أخبرهم مسلمة أن الآيتين هما " إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ألا أبشروا أنتم المفلحون . والذين آووهم ونصروهم وجادلوا عنهم القوم الذين غضب الله عليهم أولئك لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون"[٦] . ووجه الأهمية هنا أن إسناد هذا الخبر مصرى خالص . فإذا لحظنا أن مسلمة يطلق كلمة « المصحف » على عمومها أدركنا أنه يتكلم عن مصحف واحد عام مألوف معروف لدى الحاضرين أظنه لا يمكن أن يكون سوى مصحف عثمان .

وكان فى مصر رجال يرؤون القرآن ، بدافع علمى أو دافع تعبدى أو الدافعين معاً ، اهتماما غير عادى (عبد الله بن عمرو بن العاص ت ٦٥ هـ[٧] سليم بن عتر التجيبى ت ٧٥ هـ[٨]) . ومما لا يسهل تسليمه أن تظل البيئة التى ينتمى إليها هؤلاء الرجال بمعزل عن المصحف الجديد .

وإذا كانت العلاقات بين مصر من جهة والعراق والحجاز والشام من جهة أخرى قد تعرضت للاضطراب الذى بلغ حد التوقف أحيانا فيما بين ٣٥ – ٣٨ هـ

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم – ١ : ٩٥ ، ٩٧ .
(٢) المصدر نفسه – ١ : ٨١ ، ١٠٦ – ١٠٧ .
(٣) المصدر نفسه – ١ : ١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٤ . (٤) المصدر نفسه – ١ : ١٢٣ .
(٥) الكندى : الولاة : ١٥ ، ٤٢ – السيوطى : حسن – ١ : ٨٧ .
(٦) أبو عبيد : فضائل القرآن : ٣٩ – السيوطى : الإتقان – ٢ : ٢٥ – ٢٦ . ومن الواضح أن أولى الآيتين فى مدح المهاجرين المكيين ، فى حين تمدح ثانيتهما الأنصار المدنيين .
(٧) الذهبى : تذكرة الحفاظ – ١ : ٣٦ .
(٨) الكندى : القضاة : ٣٠٧ – ٣٠٨ – ابن حجر رفع الإصر – ٢ : ٢٥٢–٢٥٥ .

بسبب حوادث الفتنة الكبرى وذيولها فإن تنقلات الولاة وكبار الموظفين والعلماء والجنود والأفراد التي لم تكن ، فيما عدا هذه الفترة . تنقطع يوما تشكل فرصة واسعة جداً لانتقال نسخ كثيرة من المصحف الجديد إلى مصر .

والأمثلة لهذا الاتصال كثيرة ، ولكن يعنينا منها الحالات التي تكون مظنة لدخول المصحف إلى مصر . ففي آخر إمرة عثمان . مرّ به قوم من أشراف حضرموت يستأذنونه في المصير إلى مصر ، وكان فيهم غلام جَفْر[1] قدر له أن يصبح فيما بعد من كبار الموظفين في مصر وأول حضرمي يلي قضاءها (يونس بن عطية ت ٨٦ هـ)[2] . أليس من المحتمل أن ينتهز هذا الوفد فرصة مرورهم بعاصمة الخلافة ليحملوا في متاعهم مصحفاً ؟

وبعد مقتل علي بالكوفة (٤٠ هـ) تحول إلى مصر التابعي الشهير حنش بن عبد الله الصنعاني (ت ١٠٠ هـ) الذي كان من أهل العلم والعبادة مثلما كان من رجال الدولة والحرب[3] .وكان إذا فرغ من عشائه وحوائجه وأراد الصلاة من الليل أوقد المصباح ، وقرب المصحف وإناء فيه ماء .فكان إذا وجد النعاس استنشق بالماء ، وإذا تعايا[4] في آية نظر في المصحف . ترى أي مصحف كان حنش يستعمل ؟ مصحف عثمان في أغلب الظن إن لم نقل في كل اليقين .

وليس شيء أقرب إلى الاحتمال من أن يكون ابن عباس وتلميذاه عكرمة ومجاهد حملوا معهم نسخهم الخاصة بهم من المصحف الجديد حين زاروا مصر[5] . ولم يكن أسهل على المصريين حينذاك من الاطلاع عليها .

ما إن أصدر عثمان المصحف حتى نشطت حركة نسخ المصاحف ، سواء من

---

(١) جفر الصبى ، واستجفر ، وتجفر إذا انتفخ لحمه وأكل . (القاموس المحيط) .

(٢) الكندى : الولاة : ٥٣ ، القضاة : ٣٢٢ – ٣٢٤ .

(٣) ويقال في نسبته كذلك : السبئي . وفي موطنه الأصلي ومكان وفاته خلاف . ولكن يؤخذ من الأخبار أنه أنفق حياته مابين أفريقية ومصر . انظر : ابن سعد : الطبقات – ٥ : ٣٩١ – ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ١٤٣ – الكندى : الولاة : ٦ ، القضاة : ٣٠٧ ، ٣١٧ – ابن عساكر : تهذيب تاريخ دمشق – ٤ : ٢٧، ٥ : ٧ – ٩ – ياقوت : معجم البلدان (القاهرة) – ٥ : ٣٩١ – ٣٩٣ – ابن تغرى بردى : النجوم – ١ : ١٥٩ وقد ذكر خطأ باسم « جيش » – كست : مقدمة الولاة والقضاة : ٣٦ .

(٤) عى بالأمر وتعايا : لم يهتد لوجه مراده ، أو عجز عنه ولم يطق إحكامه . (القاموس المحيط).

(٥) راجع ص١٦ ، ١٦٧ – ١٦٨ من هذا البحث .

باب التطوع أو بقصد الاحتراف ، نشاطاً كبيراً[١] . وليس أدل على هذا النشاط من أن يرفع جنود معاوية الشاميون — فيما تزعم الرواية — خمسمائة مصحف على رماحهم فى معركة صفين(٣٧هـ)[٢] بعد سبع سنين من صدور المصحف الرسمى ويبدو أن مصر كانت أكثر اعتماداً على دمشق فى الحصول على المصحف الجديد . وقد أشرنا منذ لحظة إلى عمرو بن العاص وعتبة بن أبى سفيان فى اللذين قدما لحكم مصر من دمشق . ومن المصريين أنفسهم كان معاوية بن حديج (ت٥٢ هـ) ، الزعيم الأكبر للعثمانيين فى مصر والذى قاد جميع الحركات التى انتهت بعودة البلاد إلى نطاق النفوذ العثمانى المتمثل فى الحكم الأموى . على صلة دائمة بدمشق ، وكان إذا قدم على معاوية بن أبى سفيان فى العاصمة زينت له الطرق بقباب الريحان تعظيما لشأنه[٣] . فهل نتصور أنه بقى بغير نسخة من المصحف الجديد ؟

وفى عام ٦٤ هـ أفلح عبد الرحمن بن جحدم الفهرى فى أن ينتزع مصر من سلطان الأمويين ويضمها إلى عبد الله بن الزبير الذى أعلن نفسه خليفة فى مكة . ولكن مروان بن الحكم الذى بادر إلى إعلان نفسه خليفة فى دمشق لم يلبث حتى استعاد مصر عام ٦٥ هـ بجيش شامى كبير[٤] كان يشتمل — فيما ترجح — على عدد من المصاحف العثمانية اشتماله على بعض العلماء مثل عبد الرحمن بن غنم الأشعرى (ت ٧٨ هـ) التابعى الجليل الذى فقه عامة التابعين بالشام[٥] . ولكن أهم ما فى الأمر ، من وجهة نظرنا هنا ، أنه دخل مصر فى هذا الجيش عبد العزيز بن مروان الذى أقامه أبوه أميراً على مصر قبل أن يعود راجعاً إلى مقر خلافته فى دمشق[٦] .

---

(١) ذكر أبو عبيد « فى فضائل القرآن » ، والسجستانى فى « المصاحف » ، وابن النديم فى « الفهرست » من أخبار كتابة المصاحف ، وأحكامها ، وآدابها ، وأصولها مايكفى لإعطاء فكرة واضحة عن حركة نسخ المصاحف وتطورها فى خلال القرون الأربعة الأولى .

(٢) صاحب الرواية هو المسعودى : مروج الذهب — ٢ : ٤٠٠ . و تشكك الرافعى : تاريخ آداب العرب — ٢ : هامش ص ٢٣ فى هذه الرواية . ومن الحق أن أبا حنيفة الديثورى : الأخبار الطوال : ١٨٩ لم يحدد عدد هذه المصاحف ، ولكنه قال : « ثم ربطوا المصاحف ، جميع ماكان معهم » ، ولا يستبعد أن يكون مثل هذا العدد من المصاحف فى جيش يضم عددا كبيراً من القراء .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم — ١ : ١٥١ .

(٤) راجع حوادث هذه الحركة الهامة فى الكندى : الولاة : ٤٠ — ٤٥ .

(٥) ابن سعد : الطبقات — ج ٧ ق ٢ : ١٥٢ . ابن حجر : ت . التهذيب — ٦ : ٢٥٠-٢٥١ .

(٦) الكندى : الولاة : ٤٦ — ٤٨ .

وفى سنة ٨٦ هـ توفى فى سفط القدور -- قرية بأسفل مصر -- عبد الله بن الحارث ابن جزء الزبيدى الصحابى الذى كان من أهل الصفة ، ثم شهد فتح مصر واختط بها ؛ ثم كان يجلس يحدث أهلها فى مسجدهم الجامع ، حدثهم بحوالى عشرين حديثاً . والذى يعنيناها هو أن هذا الصحابى الذى عمر دهراً ، حتى لقد كان آخر الصحابة موتاً بمصر ، قد أصابه العمى ربما نتيجة الشيخوخة . ولما كان من عادته أن يقرأ فى المصحف فقد كان بعد أن عمى يستدعى سليمان بن زياد الحضرمى (ت ١١٧هـ) -- أحد الرواة عنه -- ليمسك عليه المصحف وهو يقرأ[١] . وفى ذلك ما يشير إلى أن المثقفين ، أو القادرين ، كانت لهم مصاحفهم الخاصة التى لابد أنها كانت حينذاك عثمانية .

وأيًّا كان الأمر فإن معلوماتنا عن المصحف العثمانى بمصر ما تزال فى جملتها حتى هذه المرحلة معلومات ظنية مأخوذة من الاستنتاج النظرى والترجيح المنطقى أكثر من اعتمادها على الواقع التاريخى . غير أن ظهور عبد العزيز بن مروان يضع حداً لهذا كله ، إذ على يديه يظهر المصحف العثمانى فى مصر ظهوراً تاريخياً بصفة قاطعة .

فكيف كان ذلك ؟

٣ -- مصحف أسماء

كتبت المصاحف العثمانية الأئمة ، التى لم يكن لمصر منها نصيب ، بالخط الكوفى أو الحيرى الذى لم يكن لحروفه نقط تميز ما تشابه منها ، كما لم يكن الشكل الضابط معروفاً بعد[٢] . وكان ذلك مصدر نقص شديد فى المصحف العثمانى ، أدى بالتالى إلى امتلاء النسخ المنقولة عنه بالأخطاء[٣] .

ولما كان توحيد قوى الإمبراطورية من أكبر أهداف عبد الملك بن مروان

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٩٤ ، ١٠٣ ، ٢٥٣ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ . أبونعيم : حلية -- ٢ -- ٦ . الخطيب : ت . بغداد -- ٤ : ١٩٢ -- ١٩٣ . السمعانى : الأنساب : ٣٥٦ أ -- ب . ابن حجر : ت التهذيب -- ٥ : ١٧٨ -- ١٧٩ . السيوطى : حسن -- ١ : ٨٩ .

(٢) أمين الخولى : دائرة معارف الشعب : مادة القرآن الكريم :ص ٢٥ .

(٣) lachère;Le Coran, pp. 71, 78.

(٦٥ – ٨٦هـ)فقد كان من أهم عوامل بلوغ هذا الهدف توحيد اللغة الرسمية بإحلال اللغة العربية محل اللغات الوطنية فى ولايات الخلافة ، وتوحيد المصحف بعرضه عرضاً أفضل وتثبيت النص القرآنى إلى الحد الذى ينزل بالخلافات الشفوية إلى الحد الأدنى[١].

ولعب الحجاج دوراً هامًّا . ليس فى تثبيت النص القرآنى فحسب ، ولكن كذلك فى الانتقال بالكتابة العربية من مرحلة الكتابة الناقصة scriptio defectiva الخالية من النقط والشكل ، إلى مرحلة الكتابة الكاملة scriptio plena التى تستخدم النقط والشكل[٢].

وكما أرسل عثمان نسخاً من مصحفه إلى الأمصار فعل الحجاج الذى لم ينس مصر هذه المرة . غير أن عمله هذا أثار غضب أمير مصر عبد العزيز بن مروان (٦٥ – ٨٦ هـ) ، الذى نظر إلى الأمر من زاوية شخصية ، فرأى فيه مساساً بكبريائه كأخ للخليفة ، أو طعناً فى مقدرته المادية كأمير على ولاية كبيرة ، أو غمزاً لكفاءته العلمية بما هو تابعى شهير موثق[٣] ، وعبر عبد العزيز عن إحساسه هذا فى تساؤله الغاضب المستنكر : « يبعث إلى جند أنا فيه بمصحف ؟ » وكان لابد له من أن يرد على سلوك الحجاج غير اللائق بعمل مناسب ، فأمر بكتابة مصحف خاص به . وأولى عبد العزيز هذا المشروع العناية الجديرة به ، فرصد جائزة ثمينة[٤] لمراجعته بعد الفراغ من كتابته ، وخف أهل الاختصاص ، القراء ، إلى الاشتراك فى هذه المسابقة ، وتداولوا المصحف يراجعونه بحثاً عما قد يكون فيه

---

(١) Ibid, pp. 72, 75.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان (ط . القاهرة : ١٩٤٨) – ١ : ٣٤٤ . لامنس : دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) : مادة الحجاج بن يوسف – مجلد ٧ : ٣١٥ . بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية – ١ : ١٧٧ Blachère, Le Coran, pp. 75-76, 78-79 . أمين الخولى : دائرة معارف الشعب : مادة القرآن الكريم : ٢٦ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة – ١ : أ ١٦ . ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة – ١ : ١٧٢ . ابن حجر : ت . التهذيب – ٦ : ٣٥٦ .

(٤) هى : رأس أحمر – أى : عبد حبشى . انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر . Glossary, p. 40 وثلاثون ديناراً .

من خطأ . واستطاع أحدهم (زرعة بن سهيل الثقفى) – وكان كوفياً[١] – أن يلمح فيه غلطة واحدة هجائية، فى الآية ٢٣ من السورة ٣٨ ، فظفر بجائزة عبد العزيز[٢] .

إن وقوع غلطة واحدة فى هذا المصحف لا يدل فقط على العناية الفائقة التى بذلت فى كتابته بما هو مصحف الأمير ، وإنما يدل مع هذا على قوة ونشاط حركة نسخ المصاحف فى مصر حينذاك . وليس فى هذا ما يستغرب بالقياس إلى عراقة صناعة الكتابة فى مصر ، وتوافر أدواتها ، واكتمال أساليبها منذ أقدم العصور . ولكننا مع هذا نتساءل :

كيف كتب هذا المصحف ؟ هل أملاه القراء الحافظون على النساخ الكاتبين أم نسخه هؤلاء الأخيرون عن مصاحف أخرى ؟ وأية مصاحف هذه التى نسخوا عنها ؟ ثم هل كتبوه على البردى الذى كان استعماله ما زال شائعاً فى مصر حينذاك[٣] ، أم كتب على رق ؟ هل روعى فى كتابته النقط والشكل ؟ هل نص فيه على فواتح السور وخواتمها ؟ هل رسمت فيه حلقات التعشير[٤] ؟ وفى كلمة : هل كتب هذا المصحف وفقاً لتقاليد السلف فى كتابة المصاحف ، أم اصطنعت فيه أحدث تطورات هذه الكتابة ؟

ربما لم نستطع أن نجزم بشىء من هذا . ولكننا نستطيع أن نتوقع أن هذا المصحف كان مطابقاً للمصحف الرسمى أى العثمانى .

---

(١) يحيط به الغموض عند ابن عبد الحكم ؛ فهو ليس سوى « رجل من أهل الحمراء » ، أى من سكان هذا الحى من مدينة الفسطاط الذى خصص منذ اللحظة الأولى لإقامة الروم . انظر : ابن عبدالحكم فتوح مصر : ١٢٩ ، ابن دقماق : الانتصار – ٤ : ٥ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ١١٧ – ١١٨ . ابن حجر العسقلانى : رفع الإصر : ٣١٧ – ٣١٨ .

(٣) يذكر جروهمان فى ص ١١ من المحاضرة الأولى من محاضراته عن الأوراق البردية العربية، (تعريب : توفيق إسكاروس . القاهرة : ١٩٣٠) أن البردى تم تدهوره فى غضون نصف قرن تقريباً بعد إنشاء أول معمل لصناعة الورق فى مصر سنة ١٧٨ هـ ، حين يرجح كاراباتشك (متز : الحضارة الإسلامية – ٢ : ٢٦٨ – ٢٦٩) أن صناعة تجهيز ورق البردى فى مصر للكتابة قد أصبحت منتهية بالإجمال حوالى منتصف القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) وأيا كان الأمر فإن ضعف احتمال ورق البردى يجعلنا نستبعد كتابة هذا المصحف عليه .

(٤) عواشر القرآن : الآى التى يتم بها العشر ، والعاشرة حلقة التعشير من عواشر المصحف (القاموس المحيط) والتعشير : وضع علامة بعد كل عشر آيات من القرآن (الدانى : المحكم : هامش ص ١٤) .

وأيًّا كان الأمر فإن من اللافت أن عبد العزيز لما أخبروه بوقوع غلطة فى المصحف هتف : « مصحفى[1]؟! » فهل يعنى هذا أنه كان مصحفاً خاصًّا أى ملكاً شخصيًّا لعبد العزيز ؟ نعم . فإن عبد العزيز لم يضعه فى المسجد ، وإنما جعله فى داره حيث ظل حتى مات[2] . ومع هذا وضع عبد العزيز نظاما ثابتا لاستعمال مصحفه هذا الخاص استعمالا عاما فى أضيق الحدود . فكان يحتفظ به فى داره طوال الأسبوع حتى إذا كان صباح يوم الجمعة[3] حملوه إلى المسجد الجامع ، وهناك يبدأ صاحب القصص عمله بالقراءة فيه ، ثم يمضى يقص ، فإذا فرغ أعيد المصحف إلى موضعه من دار عبد العزيز . وقد بدأ العمل بهذا النظام بمجرد الفراغ من كتابة المصحف سنة ٧٦ هـ ، وكان أول من قرأ فيه التابعى الثقة عبد الرحمن بن حجيرة الخولانى (ت ٨٣ هـ) قاضى مصر وقاصها وصاحب بيت مالها[4] .

ومن الواضح ما يدل عليه هذا كله من خلو المسجد الجامع من مصحف رسمى من جهة ، وحرص عبد العزيز الشديد على مصحفه من جهة أخرى .

ولما توفى عبد العزيز بعد عشر سنوات من ذلك (٨٦ هـ) عرض مصحفه للبيع فى ميراثه . وكأنما استنكف ابنه أبو بكر أن يقع مصحف أبيه فى حوزة

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ١١٧ .

(٢) المصدر نفسه : ١١٨ . ابن دقماق : الانتصار – ٤ : ٧٣ . المقريزى : الخطط ٢ : ٢٥٤ .

(٣) نشأ عند المسلمين ميل عام إلى تمجيد يوم الجمعة « خير يوم طلعت عليه الشمس » . وتصور أخبار كثيرة أهمية ذلك اليوم الذى وقعت فيه وستقع أهم الحوادث (خلق آدم ، قيام الساعة ، إلخ) . ولذلك استحب فيه التعبد ، ومن ذلك قراءة القرآن . انظر : مالك : الموطأ : الحديث رقم ١٦ من كتاب الجمعة – ١ : ١٠٨ – ١١٠ . ابن حنبل : المسند – ٤ : ٢٣٤٦ ، ١٠ : ٦٥٨٢ ، ١٢ : ٧٠٥٠ . البخارى : الصحيح : ٢ – كتاب الجمعة : أحاديث رقم ١ ، ٦ ، ٥٨ . الطبرى : تاريخ – ١ : ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧ . الغزالى : إحياء – ٣ : ٤٤ . المنذرى : الترغيب والترهيب – ١ : ٤٨٩ – ٤٩٦ ؛ ٢ : ١٢٦ – ١٢٨ . النووى : التبيان : ٢٤٢ . السيوطى : الإتقان – ١ : ١١٠٠ واللآلى – ١ : ٢٥٠ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٢٣٥ : الكندى : قضاة : هامش ص ٣١٥ . ابن دقماق : الانتصار – ٤ : ٧٣ . المقريزى : الخطط – ٢ : ٢٥٤ . ابن حجر : رفع الإصر : ٣١٨ وت . التهذيب – ٦ : ١٦٠ .

رجل آخر فدفع، ألف دينار مقابل الاحتفاظ بملكيته [١] . ولم يزل يجرى على نفس النظام الذى استنه أبوه لاستعمال المصحف طوال عشر سنوات أخر انتهت بوفاته سنة ٩٦ هـ [٢] .

ولم تكن أسماء بنت أبى بكر أقل حرصاً على تراث الأسرة من أبيها ، فقد عادت فاشترت مصحف جدها بسبعمائة دينار [٣] . ويلفت النظر هنا ميل سعر المصحف إلى الهبوط ميلا يمكن رده إلى ازدياد انتشار المصاحف وتقدم فنّ كتابتها ، وإن كان المبلغ فى ذاته غير قليل . ولكن أهم من هذا كله أن أسماء خطت بهذا المصحف خطوة جديدة وهامة عبر عنها المؤرخون بقولهم : إنها « أمكنت منه الناس ، وشهرته » [٤] . ولعل أقرب التفسير لهذا هو أنها أبقت المصحف فى المسجد زمنا أطول ، وسمحت للمختصين — العلماء والقراء — بالقراءة فيه والرجوع إليه والنسخ منه ، بمعنى أنها لم تجعل المصحف مقصوراً على الاستعمال الرسمى الذى يباشره صاحب القصص . وكان طبيعيًّا أن يؤدى هذا إلى أن ينسى الناس — وسرعان ما ينسون — صاحب المصحف الأول . عبد العزيز ، وينسبوه إلى أسماء [٥] .

ولما توفيت أسماء — سنة ١١٨ هـ فى أغلب الظن — لم يكن لأخيها الحكم بن أبى بكر بد من أن يواصل الاحتفاظ بالمصحف الذى اقترن بتاريخ الأسرة المروانية فى مصر وحمل اسم أحد أفرادها . وعاد ثمن المصحف فمال إلى الهبوط هذه المرة كذلك إذ لم يدفع الحكم سوى خمسمائة دينار ثمنا له [٦] ، وهو ما يفسر أيضاً باستمرار تزايد المصاحف وانتشارها . بل إننا إذا قارنا الأمر إلى المستوى الذى بلغته

---

(١) تتضح جسامة هذا المبلغ إذا عرفنا أنه يساوى ١ : ٧ بالنسبة إلى مجموع المال النض أى النقد — الذى تركه عبد العزيز بن مروان حاكم مصر المستقل بماليتها تماماً . (انظر : الكندى : ولاة : ٥٥) ، وإذا عرفنا كذلك أنه يساوى مجموع ما كان يتقاضاه فى عام كامل الرجل الممتاز حقاً عبد الرحمن ابن حجيرة فى مقابل اضطلاعه بالقضاء وبيت المال . ولا تدل جسامة هذا المبلغ على أهمية هذا المصحف الأدبية بقدر ما تدل على امتيازه المادى من حيث الورق وجودة الخط ودقة الكتابة من جهة ، وعدم سهولة كتابة مصحف كبير حينذاك من جهة أخرى .

(٢) المقريزى : الخطط — ٢ : ٢٥٤ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ١١٨ . ابن دقماق : الانتصار — ٤ : ٧٢ حيث يتحدث عن مصحف عبد العزيز هذا تحت عنوان « ذكر مصحف أسماء » المقريزى : الخطط — ٢ : ٢٥٤ .

(٤) انظر الهامش رقم ٣ من السابق .

(٥) ابن دقماق : الانتصار — ٤ : ٧٣ . المقريزى : الخطط — ٢ : ٢٥٤ .

كتابة المصاحف فى المشرق حينذاك ، أى فى القرن الثانى للهجرة[١] ، توقعنا أن كان بمصر فى الوقت نفسه مصاحف على جانب غير قليل من الجمال الفنى والدقة وسهولة الاستعمال . وهكذا تركزت أهمية مصحف أسماء فى قيمته الأدبية والتاريخية أو الأثرية .

ولما كانت أسماء قد دخلت باستعمال المصحف فى مرحلة جديدة زادته اتصالا بالحياة العامة ، فإن أخاها الحكم أوغل فى الطريق نفسه ، فتقبل ما اقترحه عليه صاحب القصص من أن يبقى المصحف فى المسجد بصفة دائمة ويؤجر صاحب القصص على قراءته فيه ثلاثة دنانير كل شهر من مال الأمير الخاص[٢] .

وبانتقال المصحف بصفة نهائية إلى المسجد الجامع أصبح — من الوجهة العملية — أحد الممتلكات العامة بالرغم من أنه ما زال — من الناحة القانونية — ملكا خاصًّا للأمير الحكم . وبعد أن كانت قراءة صاحب القصص فيه ضربا من التطوع التعبدى أو — فى أسوأ تقدير — جزءاً طبيعيًّا من عمله الرسمى ، أصبحت عملا قائما بذاته أو — فى أقل تقدير — عملا إضافيًّا ينبغى أن يتقاضى عليه أجراً خاصًّا . وهكذا جعل استعمال المصحف يتخلى ، نتيجة لتطور الحياة وتعقدها ، عن طابعه الأول البسيط ليتخذ طابعا وظيفيًّا رسميًّا . وفى هذا ما يعكس بطبيعة الحال تحول الناس أنفسهم عن بساطة التعبد الزاهد إلى نفعية التعبد المحترف . ومن الطريف أن القاص صاحب الاقتراح[٣] كان أول المفيدين منه . وأيًّا كان

---

(١) كانت كتابة المصحف بخط واضح ، وإدخال النقط والتخميس والتعشير فيه ، وتطييبه وتحليته بالفضة والذهب أموراً معروفة منذ القرن الأول نفسه ، وكان هناك عادة اتجاه مضاد لجوانب منها . راجع : أبو عبيد : فضائل القرآن : ٥٧ — ٥٨ . السجستانى : المصاحف : ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ — ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥٢ . ابن النديم : الفهرست : ٦ . الدانى : المحكم : ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٦ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٩ .

(٢) ابن عبد الحكم فتوح مصر : ١١٨ . ابن دقاق : الأنصارى — ٤ : ٧٣ . المقريزى : الخطط — ٢ : ٢٥٤ .

(٣) هو توبة ابن نمر الحضرمى ت ١٢٠ هـ ، وكان فاضلا عابدا ، لايملك شيئاً إلا وهبه ووصل به إخوانه ، مثلما ان قاضياً نزيهاً ذا موهبة تنظيمية بارزة تتجلى فى إنشائه ، لأول مرة فى تاريخ المجتمع الإسلامى ، ديوانا للأحباس — وزارة الأوقاف الآن — مثلما تتجلى فى اقتراحه هذا الخاص بالمصحف . راجع : الكندى : القضاة : ٣٤٢ — ٣٤٧ . المعانى : الأنساب : ١ ٦ أ . السيوطى : حسن — ١ : ١١٩ .

الأمر فيغلب على الظن أن الأخذ بهذا النظام تم فى سنة وفاة أسماء[1].

وبالنظر فى وسائل صيانة المصاحف التى كانت مألوفة منذ القرن الأول – وأغلب الظن أن المسلمين نقلوها عن أهل الكتاب – نستطيع أن نطمئن إلى أن هذا المصحف عندما أقر بصفة دائمة فى مسجد مصر الجامع كان فى تخت[2]، وله دفتان[3]، وله عرى وأزرار[4]، وقد وضع على كرسى[5] فى مقدمة المسجد تجاه المحراب الكبير[6] عند المجلس المخصص للوالى[7] يرعاه حراس المسجد[8]، ولا يسمحون باستعماله لغير العلماء والقراء ورجال الدولة كصاحب القصص والقاضى.

ولم يؤد إقرار المصحف فى المسجد الجامع إلى تغيير موعد القراءة فيه ولا مدتها. ولكن طرأ على طريقة استعماله تغيير شكلى له دلالته فى سنة ١٢٠ هـ عندما عدل صاحب القصص – لأول مرة فى تاريخ هذا المصحف – عن الجلوس فى أثناء

---

(١) يلحظ أن أسرة عبد العزيز بن مروان قد تناقلت هذا المصحف بالشراء لا بالتوارث. و ا يعنى أنهم كانوا يأخذون بالرأى الذى يحرم توريث المصحف (السجستانى : المصاحف : ١٦٩، ١٧٣. السيوطى : الإتقان – ٢ : ١٧٢). كما يبدو أنهم كانوا يأخذون برأى ابن عباس (السجستانى : المصاحف : ١٧٣ – ١٧٥) الذى يحل شراء المصحف ويحرم بيعه. ولعلهم كانوا بذلك يبغون الثواب. وقد مرت المسائل المتعلقة بالمصحف مثل : بيعه وشرائه وتوريثه وكتابته . . . بمراحل تدرجت – وفقاً لمطالب الواقع العملى – من الإسراف فى المنع إلى التوسط بين المنع والإباحة إلى الإسراف فى الإباحة. راجع : أبوعبيد : فضائل القرآن : ٥٧ – ٥٨. السجستانى : المصاحف الجزء الرابع، الجزء الخامس. الدانى : المحكم : ٢ – ١٩ الزركشى : البرهان – ١ : ٤٧٦ – ٤٧٩. السيوطى : الإتقان – ٢ : ١٧٠ – ١٧٣

(٢) التخت : وعاء يصان فيه الثياب (القاموس المحيط). والمقصود هنا صندوق يحفظ به المصحف

(٣) دفتا المصحف : ضمامتاه (القاموس المحيط).

(٤) هكذا كان مصحف خالد بن معدان التابعى الشامى العابد الورع ت ١٠٣ هـ. السجستانى : المصاحف : ١٣٥ – ابن تغرى بردى : النجوم – ١ : ٢٥٢.

(٥) كان الضحاك بن مزاحم الهلالى، التابعى الكوفى ت ١٠٥ هـ (ابن الجزرى : غاية ١ : ٣٣٧ لاتتخذوا الحديث كراسى ككراسى المصحف (السجستانى : المصاحف : ١٣٥).

(٦) ابن دقماق : الانتصار – ٤ : ٧٣. المقريزى : الخطط – ٢ : ٢٥٤.

(٧) الكندى : الولاة : ٦٢.

(٨) كان للمسجد سنة ٩٠ هـ شرط يذبون عنه هم حرس المسجد (الكندى : الولاة : ٦٢)،

قراءته منه مؤثراً أن يقرأ قائماً[١] – تقليداً لما كان عند النصارى الأولين[٢] – محدثا بذلك بدعة لم تعهد فى الصدر الأول وإن استحبها قوم لما فيها من التعظيم للمصحف وعدم التهاون به[٣].

ثم لم تلبث الدولة الأموية حتى لفظت أنفاسها الأخيرة فى مصر على أيدى العباسيين فى معركة بوصير (ذى الحجة ١٣٢ هـ) مؤذنة ببدء عملية إبادة رهيبة لكل ما هو أموى[٤]. وحدث أن وقعت عين صالح بن على، قائد الجيش العباسى الفاتح، وهو يسير فى موكبه الظافر فى شوارع الفسطاط، على مسجد عبد الله، فاستحسنه وأعجبه؛ وسأل عنه فقيل: بناه عبد الله بن عبد الملك[٥]. فقال أو بقى لهم أثر حسن مثل هذا؟ لا أرجع من ركوبى (حتى أهدمه)[٦]. فأمر بهدمه[٧].

فكيف فعل العباسيون هذا بمسجد الأمويين؟

إن القرآن يحرص على سلامة أماكن العبادة بعامة[٨]. ويربط بين صيانة المساجد بخاصة وبين الإيمان بالله واليوم الآخر والتدين الكامل[٩]. كما جعل

---

(١) المقريزى : الخطط – ٢ : ٢٥٤ .

(٢) الزركشى : – ١ : ٤٧٦ ، ٤٧٧ . السيوطى : الإتقان – ٢ : ١٧٢ .

(٣) متز : الحضارة الإسلامية – ٢ : ٨٥ .

(٤) راجع تفاصيل هذه العملية فى : الكندى : الولاة : ٩٧ – ١٠٠ .

(٥) حكم مصر بعد عمه عبد العزيز بن مروان (٨٦ – ٩٠ هـ) . وقد كرهه المصريون وهجاه الشعراء لظلمة وعدم نزاهته . انظر الكندى : الولاة : ٥٨ ومابعدها ، والقضاة : ٣٢٧ –٣٢٩ ، ساويرس : سير الآباء البطاركه – ١ : ٣٠٨ – ٣٢١ . ابن تغرى بردى: النجوم – ١ : ٢١٠ – ٢١١ وقد شكا إليه أهل المدينة المقيمون بالفسطاط ما يلقون من الشمس ؛ فبنى لهم هذا المسجد فكانوا يجتمعون فيه . (القضاة : ٤٠٦) .

(٦) هذه الزيادة من عندنا لإكمال النقص فى رواية الكندى .

(٧) الكندى : القضاة : ٤٠٦ . ابن حجر : رفع الإصر : ٣٢٦ .

(٨) « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً » (الحج : ٤٠) .

(٩) « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، ولم يخش إلا الله » (التوبة : ١٨) . قال الزمخشرى : والعمارة تتناول رمّ ما استرم منها ، وقمها ، وتنظيفها ، وتنويرها بالمصابيح ، وتعظيمها ، واعتيادها للعبادة والذكر – ومن الذكر درس العلم ، بل هو أجله وأعظمه – وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا فضلا عن فضول الحديث . (الكشاف – ٢ : ٥٦)

الحديث امتلاك مسجد في الجنة أجراً لمن يبنى مسجداً فى الدنيا [١] . وبالرغم من هذا سجل التاريخ تعرض المساجد لاعتداء المسلمين أنفسهم عليها فى أثناء الحرب التى يجوز فيها كل شيء [٢] ولاشك فى أن الفاتح العباسى لم يعتد على مسجد عبد الله بما هو مكان عبادة وإنما بما هو أثر أموى جميل يخشى أن يكون فى بقائه إحياء لذكر الأمويين وإثارة للحنين إلى عهدهم .

ولافرق هناك ، من حيث الاعتبار الدينى ، بين المسجد والمصحف ، فلكل منهما نفس الأهمية والحرمة . وبالرغم من هذا اتخذ العباسيون من مصحف أسماء موقفاً مخالفاً . فإن الأجر الشهرى الذى كان صاحب القصص يتقاضاه لقاء قراءته فى هذا المصحف كان يؤخذ من كراء اصطبل قرة [٣] .فلما صادر العباسيون ذلك المكان فيما صادروا من ممتلكات الأمويين واجهتهم مشكلة البند الذى يصرفون منه هذا الأجر إذا استمر وضع المصحف على ما هو عليه . فكتبوا إلى بغداد ، العاصمة الجديدة ، بالموضوع كله . ولم يلبثوا حتى جاء أمر الخليفة العباسى الأول ، أبى العباس السفاح (١٣٢ — ١٣٦ هـ) ؛ بإقرار المصحف على حاله فى المسجد وصرف الأجر الشهرى للذى يقرأ فيه من « مال الله تعالى » : أى من الخزانة العامة [٤] .

وهكذا أصبح مصحف أسماء من الناحية الرسمية ، إلى جانب الناحية العملية ، من الممتلكات العامة .

واستجابة الرغبة قد تكون شخصية مبعثها الشغف الذاتى أو ابتغاء الثواب ،

---

(١) البخارى : الصحيح — ١ : ١٩٥ ، كتاب الصلاة ، حديث رقم ١١٠ .

(٢) تعرضت الكعبة نفسها للتخريب مرتين ، الأولى عام ٦٤ هـ والثانية عام ٧٢ هـ ؛ فى أثناء الصراع بين عبد الله بن الزبير وقوات الدولة . انظر : فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية : ١٦٢ — ١٦٣ — ١٩٤

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ١١٧ . واصطبل قرة أرض من الموات ، فى ظاهر مدينة الفسطاط من قبليها ، فيما بين الجبل والنيل ، استنبطها قرة بن شريك أمير مصر (٩٠ — ٩٦ هـ) وأحياها وغرسها قصباً فعرفت باسمه . انظر ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٩٨ ، ١١٧ . ياقوت : معجم البلدان — ١ : ٥٩١ — ٥٩٢ . المقريزى : الخطط — ٢ : ١٥٢ .

(٤) المقريزى :الخطط — ٢ : ٢١٥ .

وقد تكون خارجية مصدرها الجمهور نفسه[١]، تطوع صاحب القصص[٢] فى سنة ١٨٢ هـ ، فخصص يوماً آخر ، هو يوم الاثنين ، للقراءة فى المصحف[٣].

وعاش التقليد الجديد حتى عنّ بعد ذلك بحوالى ستين عاما (٢٤٠ هـ) لصاحب القصص[٤] أن يضيف يوماً ثالثاً لاستعمال المصحف . وكان الخميس هو اليوم المختار هذه المرة[٥].

وكان للمصحف فى خلال ذلك الزمن الطويل مكانه الخاص الثابت فى مقدمة المسجد حيث رآه ، لابد، المؤرخ المصرى يحيى بن عبد الله بن بكير (ت ٢٣١هـ) الذى حفظ أقدم الأخبار الخاصة به[٦].

ونقل ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ) معلومات يحيى بن بكير وسجلها وزاد عليها عندما عرض ذكر المصحف وهو يتحدث عن اصطبل قرة الذى اشتراه الحكم بن أبى بكر بن عبد العزيز بن مروان من الأزد فبناه ، وكان يجرى على الذى يقرأ فى هذا الصحف من كراه فى كل شهر ثلاثة دنانير[٧].

---

(١) ليس هناك مايدل على تدخل الدولة بالتوجيه فى هذا الموضوع .

(٢) هو أبو رجب ، العلاء بن عاصم الخولانى ، إمام جامع عمرو الذى شهد الشافعى بتمام صلاته، وحسنها . راجع : ابن دقماق : الانتصار – ٤ : ٧٣ . المقريزى : الخطط – ٢ : ٢٥٤ . السيوطى : حسن – ٢ : ١٣٦ .

(٣) ابن دقماق : الانتصار – ٤ : ٧٣ . المقريزى : الخطط – ٢ : ٢٥٤ .

(٤) هو الحسن بن الربيع . إمام المسجد الجامع الذى أدخل بعض الإصلاح الدينى مثل ترك البسملة فى السورة وصلاة التراويح خمسا . انظر : الكندى : الولاة: ٢١٠ . ابن دقماق : الانتصار، ٤ : ٧٣ . المقريزى : الخطط – ٢ : ٢٥٤ .

(٥) ابن دقماق : الانتصار – ٤ : ٧٣ . المقريزى : الخطط – ٢ : ٢٥٤ . ويلحظ أن الحديث المروى عن عائشة وأبى هريرة وأسامة بن زيد وجابر يجعل من يومى الاثنين والخميس فرصة أسبوعية متجددة للغفران ، لأن فيهما تفتح أبواب الجنة وتعرض الأعمال فيغفر الله لكل امرئ لايشرك به شيئاً إلا المتشاحنين . (مالك : الموطأ : كتاب حسن الخلق : ٩٠٨ – ٩٠٩، ابن حنبل : المسند – ١٤ : ٧٦٢٨ ، إسناده صحيح . المنذرى الترغيب والترهيب – ٢ : ١٢٤ – ١٢٦ ؛ حديث حسن غريب رواته ثقات و يعد الغزالى فى الإحياء – ٣ : ٤ ، ٤ ، ٤ : ٥٦ هذين اليومين من الأيام الفاضلة التى تتكرر كل أسبوع

(٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ١١٧ .

(٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ١١٧ – ١١٨ .

ولما كانت أخريات القرن الثالث (٢٩٢ هـ) ، واضطر صاحب القصص[١] بسبب من الإصلاحات المعمارية[٢] التى كانت تجرى فى الجامع حينذاك إلى أن يصلى بالناس فى مؤخر المسجد ، أمر أن ينقل المصحف إليه هناك ليقرأ فيه . وبالرغم من أن المسألة شكلية تماماً استنكر القوم انتقال كتاب الله من مكانه التقليدى الذى ظل يشغله أكثر من قرنين إلى واحد من البشر . ولكن صاحب القصص أصر على موقفه محتجاً بحجة تعتمد على النعرة الجنسية وتستند إلى أرستقراطية الدم ، فهو لا يجد غضاضة فى انتقال المصحف إليه بما هو أحد أفراد الأسرة الهاشمية التى أنزل القرآن عليها وأتى إليها[٣] .

واشتد الحماس بصاحب القصص[٤] فى مطلع القرن الرابع الهجرى (٣٠١ هـ) إلى حد أن عزم على القراءة فى المصحف كل أيام الأسبوع . ولاشك فى أن الاستعمال الطويل كان قد نال من المصحف . كما يبدو أنه لم يكن من السهل كتابة مصحف مثله بدلا منه حينذاك[٥] إما بسبب ضعف الإمكانيات المادية لولاة ذلك الوقت، وإما بسبب عدم اهتمامهم . وفطن إلى هذا كله المؤرخ المصرى ابن قديد (ت ٣١٢ هـ)الذى كان على وعى بالقيمة التاريخية لهذا المصحف فكان يحرص على صيانته كأثر[٦] . ولذلك عارض اتجاه صاحب القصص معارضة انتهت بأن ظلت القراءة فى المصحف لمدة ثلاثة أيام فقط[٧] . ولاشك فى أن هذا

---

(١) هو أبو يعلى . حمزة بن إبراهيم بن أيوب ، العباسى الهاشمى ، الذى ترك بغداد إلى مصر حيث حدث ومات آخر سنة ٣٠٩هـ . انظر : الخطيب البغدادى : ت . بغدادى٨ ١-١٨١ . ابن دقماق الانتصار – ٤ : ٧٣ . المقريزى : الخطط – ٢ : ٢٥٤ .

(٢) كان الجامع ينكس ، أى تنزع الحجارة البالية من جدرانه ويستبدل بها أحجار جديدة .

(٣) ابن دقماق : الانتصار– ٤ : ٧٣ . المقريزى : الخطط - ٢ : ٢٥٤ .

(٤) هو أبو بكر ، محمد بن عبد الله بن محمد بن سلم ، الملطى ، النحوى ، المحدث ، إمام الجامع العتيق ، ت ٣٠٣ هـ . انظر : المقريزى . الخطط – ٢ : ٢٥٤ – ٢٥٥ . السيوطى بغية : ٦٠ . وذكر ابن دقماق خطأ – الانتصار– ٤ : ٧٣ – أنه تولى القصص سنة ٣١١ هـ .

(٥) كان ذلك فى أثناء فترة الاضطراب الشديد الذى ساد بعد سقوط الدولة الطولونية نتيجة الصراع بين الخليفة العباسى والقبائل البربرية الفاطمية على مصر . انظر : الكندى : الولاة : ٢٦٧ – ٢٧٣ .

(٦) من مظاهر اهتمام ابن قديد بالآثار احتفاظه بمصحف عقبة بن عامر المكتوب بخط يده . انظر : ابن دقماق : الانتصار– ٤ : ١١ .

(٧) ابن دقماق : الانتصار– ٤ : ٧٣ . المقريزى .: الخطط – ٢ : ٢٥٤ – ٢٥٥ .

كان له أثره الكبير فى صيانة المصحف وإنقاذه من التلف فى فترة سادها الاضطراب السياسى . وعصر يعوزه – ككل – الإحساس بالقيمة التاريخية للأشياء .

واصل مصحف أسماء وجوده بمصر بعد ذلك . ولعله ما يزال باقيا حتى الآن . ولكننا على أية حال نتوقف عن مصاحبته فى رحلته عبر الزمن عند هذا الحد . وإذا كان بعض الأقاليم قد اتخذ مصحف عثمان الذى أرسل إليه مصحفاً إماما ، فإن لنا أن نعد مصحف أسماء هذا ، الذى كتبه عبد العزيز بن مروان فى مصر بعد أن كتب عثمان مصحفه بحوالى نصف قرن ، مصحف مصر الإمام .

٤ – مصاحف عثمانية أخرى

كان الجنود السوريون فى معركة صفين (٣٧ هـ) معهم مصاحف . ويبدو أن حمل الجندى مصحفه معه فى ميدان القتال للقراءة فيه والتبرك به أصبح مع الزمن تقليداً ساعد على شيوعه نشاط حركة نسخ المصاحف[١] . فى أخريات القرن الأول (٩٢ – ٩٣ هـ) ، وبعد الفراغ من فتح الأندلس ، هبت ريح عاصفة على سفن الأسطول الإسلامى المحمل بالغنائم ، وضربت المراكب بعضها بعضاً ، حتى دعا الجنود الله «وتقلدوا المصاحف» ولكن المراكب لم تلبث حتى تكسرت وغرق الجنود ما عدا المصريين : أبا عبد الرحمن الحبلى (ت ١٠٠ هـ بأفريقية[٢]) وحنش بن عبد الله السبىء (ت ١٠٠ هـ) – وكلاهما من التابعين الثقات – لأنهما لم يشتركا – فيما نزعم الرواية – فى أعمال النهب التى قام بها الجنود جميعاً[٣] .

وفى عام ١٦٨ هـ كتب ابن الإسكاف الوراق مصحفاً بتكليف من المدعو أبا النجم طارقا . ولم يحتفظ أبو النجم بالمصحف لاستعماله الشخصى ، وإنما حبسه فى سبيل الله عز وجل بشرط ألا يباع ، ولا يوهب ، ولا يورث ، ولا يملك ،

---

(١) يبدو ذلك متعارضا مع نهى النبى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو خشية أن يناله العدو انظر : السجستانى : المصاحف : ١٨١ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى : ج ٧ ق ٢ : ص ٢٠٠ . السمعانى : الأنساب : ١٥٥ أ . ابن حجر : ت . التهذيب – ٦ : ٨١ – ٨٢ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٢٠٩ .

ولايتلف بوجه تالف حتى يرث الله الأرض ومن عليها . ووضع أبو النجم مصحفه فى الجامع العتيق بفسطاط مصر ليقرأ فيه المسلمون ويدعوا له بالمغفرة والرحمة لعله يظفر بثواب الله فى الدار [الآخرة [١] .

وكان وقف المصاحف على المساجد تقرباً إلى الله ، مثله مثل الهبة ، مصدراً من مصادر حصول جامع عمرو على حاجته المتزايدة من المصاحف [٢] . ولما ولى الحارث بن مسكين قضاء مصر عام ٢٣٧هـ كانت مصاحف هذا الجامع الكبير قد بلغت حداً من التكدس والإهمال وعدم التنظيم اضطر معه إلى كشف أمرها أى فحصها ، والتثبت من صحتها ، وتقدير مدى صلاحيتها ، ثم تقييدها . ولكى يستوثق القاضى من استمرار صيانة هذه المصاحف وما يضاف إليها . ويضمن عدم تعرضها للتلف أو الإهمال من بعد أنشأ وظيفة جديدة يشغلها « أمين » يتبعه إدارياً وماليا ، ويكون مسئولا عن مصاحف الجامع أمامه . وكان هذا الإجراء الهام الذى نلمس فيه الوعى المكتبى أول إجراء من نوعه فى مصر [٣] . واستمر هذا النظام سارياً . وسنلتقى بعد قليل بأبى بكر الخازن أحد هؤلاء الأمناء [٤] .

ولعل استعمال الصناديق فى حفظ المصاحف كان جزءا من هذا الإجراء الإصلاحى [٥] ؛ وأياً كان الأمر فإن حمل الصناديق الملأى بالمصاحف — من جامع عمرو فى أغلب الظن — إلى جامع ابن طولون عند الفراغ من بنائه عام ٢٦٦هـ [٦] كان أحد الإجراءات النهائية الهامة التى اتخذها المهندس النصرانى الذى بناه مثل : تبييض المسجد ، وتخليقه [٧] ، وتعليق القناديل فيه بالسلاسل الحسان الطوال .

---

(١) Moritz, Arabic Palaeography, 18.

(٢) كان ذلك مألوفاً فى أقطار أخرى فقد كتب أبو عمرو الشيبانى ، عالم اللغة الكوفى ت ٢٠٥ هـ ، نيفاً وثمانين مصحفاً بخطه وجعلها فى مسجد الكوفة . انظر : ياقوت : معجم الأدباء : ٦ : ٧٩ .

(٣) الكندى : القضاة : ٤٦٩ . ابن حجر : رفع الإصر — ١ : ١٧٣ . متز : الحضارة الإسلامية — ٢ : ٩٤ .

(٤) انظر ص٧٦ من هذا البحث .

(٥) كانت صناديق المصاحف معروفة فى مساجد العراق الجامعة قبل ذلك التاريخ ؛ فقد أقيم بشر بن غياث المريسى (ت ٢١٨ هـ) على صندوق من صناديق المصاحف عند باب الخدم فى جامع الرصافة عندما جلس القاضى قتيبة بن زياد ليستتيبه من آرائه الخارجة على الدين . انظر : الخطيب : تاريخ بغداد — ١٢ : ٤٦٤ .

(٦) الكندى : الولاة : ٢١٩ . وفى خطط المقريزى — ٢ — ٢٦٦ أن البناء انتهى عام ٢٦٥هـ .

(٧) تخليقه = تمليسه وتليينه أو تطييبه (القاموس المحيط) .

وفرش الحصر فيه[1]. وليس فى ذلك ما يدل على أن المصاحف أصبحت مع الزمن جزءاً أساسيًّا من المسجد فى مصر فحسب ، ولكنه يدل فى الوقت نفسه على وفرة المصاحف حينذاك وفرة لم تكن مقصورة على الدولة ، بل جاوزتها إلى الأفراد . فعندما اشتد بابن طولون مرض الموت عام ٢٧٠ هـ خرج المسلمون بالمصاحف ، واليهود والنصارى بالتوراة والإنجيل ، والمعلمون بالصبيان ، إلى الصحراء . ودعوا له . وأقام المسلمون بالمساجد يختمون القرآن — فى مصاحف المسجد ، أو فى مصاحفهم الخاصة . أو حفظاً عن ظهر قلب — ويدعون له[2].

وكان طبيعيًّا مع ذلك كله أن تشكل المصاحف جانباً هامًّا من الميراث الضخم الذى آل إلى الدولة الفاطمية من سالفتها الإخشيدية عام ٣٥٨ هـ ، فقد كانت خزانة كتب الفاطميين تزخر بالمئات من المصاحف المحلاة بالذهب والفضة والمكتوبة بالخطوط المنسوبة[3]. وغير معقول أن يكون كل هذا العدد الضخم قد نسخ فى بداية عهدهم ، فقد وجد الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١١ هـ) ، بعد حوالى نصف قرن فقط من قيام الدولة الفاطمية ، فائضاً غزيراً من المصاحف مكنه من أن يهدى عام ٤٠٣ هـ إلى الجامع العتيق ١٢٩٨ مصحفاً ما بين ختمات[4] وربعات[5] ، فيها ما هو مكتوب كله بالذهب ، ومكن الناس من القراءة فيها[6] . أما الجامع الطولونى فكان نصيبه ٨١٤ مصحفاً فقط[7] . وكذلك فعل الحاكم مع المساجد الأخرى التى أنشأها[8].

---

(١) المقريزى : الخطط — ٢ : ٢٦٦ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم — ٣ : ١٨ .

(٣) القلقشندى : صبح — ٣ : ٤٧١ — ٤٧٢ . المقريزى : الخطط — ١ : ٤٠٨ . والخط المنسوب هو الخط الموزون ذو القواعد والقوانين ، وينسب إلى إمام من أئمة الخط : انظر سهيلة الجبورى : الخط العربى : ٩٥ وما بعدها .

(٤) ختم فلان القرآن إذا قرأه إلى آخره (لسان العرب) ومازالت الختمة تستعمل فى قرى مصر ، بمعنى المصحف الكامل .

(٥) الربعة = جونة العطار ، وصندوق أجزاء المصحف وهذه مولدة كأنها مأخوذة من الأولى (القاموس المحيط) .

(٦) المقريزى : الخطط ٢ : ٢٥٠ محمود أحمد : جامع عمرو : ١٩ — ٢٠ .

(٧) المقريزى : الخطط — ٢ : ٢٦٧ .

(٨) ابن خلكان : وفيات — ط النهضة — ٤ — ٣٨٢ .

من الممكن أن تقدم هذه الإشارات الخاطفة فكرة واضحة عن السرعة والدرجة اللتين انتشر بهما المصحف العثمانى فى مصر بعد حصولها على مصحفها الإمام ممثلا فى مصحف أسماء . وإن كان من المؤسف حتمًا أن يد البلى والضياع قد أتت على هذه الثروة الفنية فيما عدا بضعة مصاحف .

٥ – المصحف العثمانى المزيف

تركنا مصحف أسماء عند عام ٣٠١ هـ وقد استقر الرأى بصفة نهائية على القراءة فيه ثلاث مرات لاغير فى الأسبوع حرصاً عليه من التلف السريع[١] . ولم يمض وقت طويل حتى قدم مصر رجل عراقى يدعى مسعود بن سعد الهيتى[٢] ، ومعه مصحف يزعم أنه نفس المصحف الذى كان بين يدى عثمان يوم الدار (٣٥ هـ) ، والذى سال عليه دمه الزكى – كان فى المصحف آثار – دماء – والذى استقر به المقام فى خزائن الخليفة العباسى المقتدر (ت ٣٢٠ هـ) حيث استخرجه هو وقدم به إلى مصر ، وبالرغم من أن ابن بنت وليد قاضى مصر حينذاك (٣٢٩ – ٣٣٦ هـ) كان سخيفاً خليعا مذكوراً بالارتشاء[٣] فلا بد أنه تلقى المصحف النادر ، عندما قدمه الهيتى إليه ، بالتقدير والإجلال ، ولكنه لم يلبث ، على أى حال ، حتى أمر أبا بكر محمد بن عبد الله الخازن ، أمين المصاحف والمسئول عنها بالجامع العتيق (ت ربيع الآخر ٣٥٨ هـ)[٤] ، فأخذه وضمه إلى عهدة المسجد بعد أن شهره وجعل عليه خشباً منقوشا . ولم يقف الاهتمام بهذا المصحف عند هذا الحد ، فقد وضع على قدم المساواة مع مصحف أسماء العتيد ، فوضع على كرسى خاص به ، وجعل الإمام يقرأ فيه يوماً وفى مصحف أسماء يوما[٥] .

---

(١) انظر ص ٧١ – ٧٣ من هذا البحث .

(٢) نسبة إلى هيت ، بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار ، فتحت سنة ١٦ هـ ، ونسب إليها قوم من أهل العلم . انظر : ياقوت : معجم البلدان ط : ليبزج – ٤ : ٩٩٧ .

(٣) ابن حجر : رفع الإصر : ٢٧٣ .

(٤) ابن دقماق : الانتصار : – ٤ : ٦٨ . المقريزى : الخطط – ٢ : ٢٥٠ .

(٥) ابن دقماق : الانتصار – ٤ : ٧٤ . المقريزى : الخطط – ٢ : ٢٥٥ .

وقد أودع ابن سعد الهيتى مصحفه جامع عمرو عام ٣٤٧ هـ بمقتضى عبارة سجلها على ظهر هذا المصحف . ومن السهل ملاحظة أوجه الشبه بين عناصر هذه العبارة وبين عناصر وقفية مصحف أبى النجم طارق على الجامع نفسه قبل ذلك بحوالى مائة وستين عاما . فكلتا العبارتين تبدأ بالبسملة وتنتهى بالصلاة والتسليم على النبى وآله ، وتنص على اسم مالك المصحف ، وتتشدد فى التوصية بحفظه إلى أبد الآبدين ، وتصرح بأن الظفر بالثواب هو الهدف من إيداع المصحف الجامع ، وتدعو بالخير لكل من يقرأ فى المصحف ، وتسجل التاريخ الذى تم فيه الإيداع [١].

ويلفت النظر أن ابن سعد لاينص مطلقًا على وجود أية علاقة بين مصحفه هذا وبين عثمان مكتفيا بالتصريح بذلك شفويًا . وقد قوبل زعمه هذا بالتصديق العام. ولكن قوماً — يشكلون عادة القلة الواعية الناقدة — ارتابوا فى الأمر ، ولم يجدوا رواية ابن سعد جديرة بالثقة : وأنكروا أن يكون هذا المصحف مصحف عثمان مستخدمين مقاييس الحكم على الحديث . فكما أن خبر الآحاد لا يصح الأخذ به على إطلاقه فكذلك هذا المصحف نقله لم يصح ولا يثبت بحكاية رجل واحد [٢] . ولما وقعت مصر فى أيدى الشيعة الفاطميين (٣٥٨ هـ) كان قيام مصحف ينسب — ولو زعماً — إلى عثمان بن عفان يمثل تحديًا صريحاً، وتناقضا صارخا مع مذهب الدولة الحاكمة بما هو تجديد دائم وإثارة مستمرة لذكرى الأسلوب الدموى الذى تخلص به الشيعة من آخر المغتصبين لحق على المقدس فى الخلافة . ولذلك كان طبيعيا جداً — إن لم يكن متأخراً جداً — أن يرفع هذا المصحف من مكانه بالمسجد الجامع . بعد عشرين عاماً من قيام الدولة الفاطمية (٣٧٨ هـ) ، ليأخذ طريقه إلى حيث يرقد — فى أغلب الظن — فى صندوق من صناديق المصاحف الكثيرة بالجامع [٣] .

---

(١) قارن : ابن دقماق : الانتصار — ٤ : ٧٤ . المقريزى : الخطط — ٢ : ٢٥٥ .

Mortiz, Ara. Palaco. p. 18.

(٢) يُرَد الحديث الذى ينفرد به الراوى إذا كان بعيداً من درجة الحافظ الضابط المقبول تفرده (انظر : ابن الصلاح : المقدمة ٣٧) . وهو أولى بالرد إذا كان الراوى من المجاهيل كابن سعد الهيتى الذى وصفته الرواية الأصلية للخبر ، رواية القضاعى (ت ٤٥٤ هـ) ، بأنه « رجل من أهل العراق » كما أغفلته كتب التراجم والتواريخ فلايمكن الحكم على عدالته .

(٣) ابن دقماق : الانتصار — ٤ : ٧٤ . المقريزى : الخطط — ٢ : ٢٥٥ .

ولكن هذا المصحف عاد فخرج من ظلمات مخبئه إلى النور وأقيم من جديد فوق كرسي غربي كرسي مصحف أسماء فى صحن الجامع العتيق . ومن المحتمل جداً أن يكون هذا قد تم فى أعقاب زوال الدولة الفاطمية عام ٥٧٦ هـ كواحد من إجراءات التعفية على آثار التشيع وإعادة المعالم السنية إلى الحياة . وقد ظل متربعاً على كرسيه هناك حتى رآه رأى العين المؤرخ المصرى ابن المتوج صاحب كتاب « اتعاظ المتأمل » فى الخطط (ت ٧٣٠ هـ) . كما نص المقريزى (ت ٨٤٥ هـ) نصا صريحا على رؤيته إياه[1] .

ولم يفت ابن المتوج كمؤرخ أن ينقل العبارة التى سجلها ابن سعد المبنى على ظهر مصحفه . وهو يعترف بأن القسم الأخير من العبارة مندرس وأنه قرأه قراءة اجتهادية . ومن المهم ملاحظة أن تاريخ مصحف ابن سعد (٣٤٧ هـ) متأخر عن زمن ولاية القاضى ابن بنت وليد الذى استلمه من ابن سعد وسلمه أبا بكر الخازن . وربما يكون ابن المتوج أخطأ فى قراءة التاريخ بسبب عدم وضوح الكلام الذى وصفه بأنه « يشبه أن يكون . . . » . وابن المتوج القاضى والمؤرخ السنى يميل إلى توثيق هذا المصحف ، ويعلل التشكك فى صحة نسبته بظهور التعصب على عثمان – أى التشيع – بين بعض المصريين ، كما يحاول الدفاع عن صحته بحجة ميتا فيزيقية تتمثل فى المقدرة على اكتناه الغيب – ولو بصورة غامضة – عن طريق فتحه[2] .

على أن ظاهرة تزييف المصحف العثمانى لم تكن وقفاً على مصر ، فقد تفاقم خطب التزوير فى القرن الرابع ، وزادت المصاحف التى تنسب لعثمان زيادة غريبة مما يدل على خفة الناس فى الاعتقاد بصحة نسبها[3] . وكان من الممكن

---

(١) نفس المصدرين . ويلحظ أن أول من تحدث عن هذا المصحف هو المؤرخ المصرى القضاعى فى كتابه المفقود « المختار فى ذكر الخطط والآثار » ، بعد أن فرغ من الحديث عن مصحف أسماء ثم نقل عنه ابن المتوج فى كتابه المفقود كذلك « اتعاظ المتأمل وإيقاظ المتغفل » ونقل ابن دقماق (ت٨٠٩هـ) عن ابن المتوج دون أن يشير إلى أن القضاعى هو صاحب الرواية . فلما كان المقريزى نسب الخبر إلى صاحبه . وتبدأ رواية القضاعى الخاصة بهذا المصحف المزيف من قوله : « وكان قد حضر إلى مصر رجل من أهل العراق . . » ، وينتهى بقوله : « . . . ولايثبت بحكاية رجل واحد » . وما بعدها ذلك من الدفاع عن صحة نسب المصحف ونسخ المكتوب على ظهره فهو لابن المتوج .

(٢) ابن دقماق : الانتصار – ٤ : ٧٤ . المقريزى : الخطط – ٢ : ٢٥٥.

(٣) متز : الحضارة الإسلامية – ٢ : ٩٣ ، ٩٤ .

وجود مثل هذه المصاحف المنسوبة إلى عثمان ، أو وجود بعض صفحات فقط ، فى : أنطروس ، قرطبة ، مراكش ، البصرة ، وفى الشام والحجاز[١] .

ويعلل كازانوفا هذه الظاهرة بأن جمع عثمان للمصحف أسطورة اخترعت فى وقت متأخر لتأييد عملية إصلاح المصحف التى تمت فى عهد الخليفة عبد الملك[٢] .

ولكن بلاشير لا يتابع كازانوفا على هذا الغرض الجرىء الذى تناقضه أخبار ثابتة ، ويقدم افتراضاً أبسط من هذا هو أن المصاحف العثمانية — وكانت قليلة العدد جداً — قد ضوعفت بنسخ تمت كتابتها حتى فى نفس المدن التى كانت هذه المصاحف تستعمل فيها . ثم استبدل بها تدريجياً مصاحف على درجة أعلى من حيث دقة الكتابة أو جودة العرض[٣] .

٦ — المصحف العثمانى فى الأقاليم

اقتصرنا فى حديثنا عن المصحف العثمانى حتى الآن على بيئة بعينها من مصر تلك هى بيئة الفسطاط العاصمة . وبالرغم من أن الجنس يؤرخ بأرقى أفراده . وأن الفسطاط — بما هى العاصمة من جهة ، وبسبب المركزية الشديدة فى الحكم حينذاك من جهة أخرى — لاتصلح لتمثيل تطور الحياة المصرية كلها فحسب ، ولكنها تمثل فى الوقت نفسه هذا التطور فى ذروته ... بالرغم من هذا كله لانستطيع أن نسلم أن الفسطاط هى كل مصر ولا أن مصر هى الفسطاط فقط ، ولاشك فى أنه كان هناك إلى جانب بيئة الفسطاط بيئات أخرى لها حظها الملحوظ من النشاط الاقتصادى والسياسى والعلمى والأدبى مثل بيئة الإسكندرية ، تنيس ، دمياط ، أسوان ، . . . إلخ . وتظل دراسة أى وجه من أوجه نشاط الحياة المصرية ناقصة إذا أغفلت تلك البيئات الأخرى بقدر ما تسمح به المعلومات المتبقية مهما كانت ضئيلة .

---

(١) Blachère, Le Coran, p. 47 note 46 . وانطرطوس مدينة فى سورية على ساحل بحر الشام (البحر الأبيض المتوسط) تجاه جزيرة أرواد ؛ بين طرابلس واللاذقية ، وتسمى اليوم : طرطوس . أنظر : فتوح البلدان للبلاذرى : معجم أماكن الفتوح : ٦٩٠ .

(٢، ٣) Ibid, p. 68 .

إذا طبقنا هذا على المصف العثمانى لم نجد سوى خبر يتيم عن مصحف كان بملكه أبو جرير ربان بن محمد البهنسى . من محدثى القرن الثانى — الثالث ، كان رجلا صالحا . وله بالبهنسا حبس ومصحف كانا موجودين حتى أيام المؤرخ المصرى ابن يونس (ت٣٤٧هـ)[١] ، ومن الراجح جداً ، إن لم يكن من المؤكد ، أنه نفس المصحف الذى عرض موريتز نموذجا منه كمثال لمصحف من مصاحف القرن الثالث ، وأشار إلى أنه كان يرجد من قبل فى البهنسا[٢] .

وليس من الممكن طبعاً أن نفهم من هذا أن المصحف فى الأقاليم كان شيئا نادراً ، فمن المعروف أن العرب لم يقصد بهم المقام فى الفسطاط ، بل إنهم ترددوا على بلاد مصر منذ اللحظة الأولى وأقاموا فيها لفترات قصيرة أول الأمر ، ثم حملتهم ظروف مختلفة سياسية واقتصادية واجتماعية على الإقامة الدائمة هناك[٣] . ومن البديهى أن العرب كانوا فى خلال ذلك كله يحملون معهم قرآنهم لا فى صدورهم الواعية فحسب ولكن فى مصاحفهم المكتوبة كذلك .

والإسلام لم يبق طويلا دين العرب الفاتحين فقط ، بل إنه لم يلبث حتى جعل ينتشر — نتيجة لعوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية وروحية — بين السكان الوطنيين ، حتى انتهى إلى أن يصبح دين الأغلبية الغالبة فى القرن الثالث نفسه ، ومن البديهى أيضا أن هؤلاء المسلمين الجدد كانوا يحرصون على اتخاذ مصاحف يطلعون فيها على تعاليم دينهم الجديد .

وصحب انتشار الإسلام إقامة المساجد الجامعة فى عواصم الكور . هذه المساجد التى يشير إليها ابن دقماق كثيراً ويصفها بأنها « جوامع قديمة » حين يتحدث عن كور الوجه القبلى والوجه البحرى فى كتابه « الانتصار » . ومن البديهى كذلك أن المصاحف كان لها مكانها بنسبة مصحف واحد فى الأقل لكل جامع من هذه الجوامع الإقليمية .

---

(١) السمعانى : الأنساب : ٩٦ ب .

(٢) Moritz, Ara. Palaeo. 39-40.

(٣) انتقال العرب إلى مصر ، وتحركهم بين بلادها ، واحتكاكهم بالمصريين ، ثم ذوبانهم فى الحياة المصرية هو موضوع بحثنا لدرجة الماجستير : القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة .

٧ – المصحف الشيعي

قد يراد بالمصحف الشيعي مصحف خاص بعلي ، كتبه بيده ، ورتب سوره ترتيبا معينا – إما تاريخيًّا حسب النزول ، وإما حسب مجموعات سبع – ، وضمنه زيادات وخلافات عما فى المصحف العثمانى[١] .

وقد يراد به نسخة أو أكثر من المصحف العثمانى المعروف ولكنها المكتوبة بخط على[٢] .

وقد يراد به المصحف الخاص بالإمام محمد الباقر (ت ١١٤ هـ) ، أو ابنه الإمام جعفر الصادق (ت ١٤٨ هـ)[٣] .

بل قد يقصد به مصحف عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) الذى يعتمده الاثنا عشرية[٤] .

ومن القدماء من اعتقد صحة هذا المصحف الشيعي فى صورة ما[٥] ، ومنهم من أنكره فى كل صورة من صوره[٦] . أما المحدثون فينكرون صحته على الإطلاق[٧] ؛ ومن أهمهم جولد تسيهر الذى عالج علاقة الشيعة بالنص القرآنى الرسمى الموجود بأيدينا كما حصل جمعه وكتابته على وجه التحديد بأمر من الخليفة عثمان[٨] ،

---

(١) ابن واضح : تاريخ – ٢ : ١١٣ – ١١٥ . ابن النديم : الفهرست : ٢٨ . جولدتسيهر مذاهب التفسير : ٢٩٦ – ٢٩٩ –. رشيد رضا : هامش ٢ ص ٤٨ : فضائل القرآن : ابن كثير .

(٢) ابن كثير : فضائل القرآن : ٤٧ ٤٨ . ابن بطوطة : رحلة – ١ : ٦٥ . المقريزى : الخطط – ١ : ٤٠٨ . وليم موير : ص ٣٥ من مقدمة حياة محمد (الطبعة الثانية) : محمد حسين هيكل .

(٣) Blachère, Le Coran, note no. 44 et 46.

(٤) القلقشندى : صبح – ١٢ : ٢٢٣ . ويلحظ جولد تسيهر (مذاهب التفسير : ٢٩٥) أن سوء معاملة عثمان لابن مسعود أكسبه ميل عواطف الشيعة إليه . ويروى متز (الحضارة الإسلامية – ١ : ٢٧٤) أن أحد الشيعة قتل لأنه هاجم إحراق الدولة مصحف ابن مسعود سنة ٣٩٨ هـ .

(٥) ابن واضح : تاريخ – ٢ : ١١٣ . ابن النديم : الفهرست : ٢٨ .

(٦) السجستانى : المصاحف : ١٠ . ابن كثير : فضائل القرآن : ٤٧ – ٤٨ .

(٧) مصطفى صادق الرافعى . تاريخ آداب العرب – ٢ : ١٥ – ١٦ . موير : مقدمة حياة محمد : ٣٥–٣٦ . حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية : ٩٢ . فضائل ابن كثير : ص ٤٨ هامش ٢ و ٣ لرشيد رضا .

(٨) مذاهب التفسير : ٢٩٣ .

وما إذا كان لدى الشيعة نص قرآنى صحيح سليم من المآخذ معترف به اعترافاً مطلقاً يضعونه فى مواجهة النص العثمانى[١]. ويقرر جولد تسيهر أن كل ما استطاع الشيعة أن ينتهوا إليه من الشك فى مصحف عثمان والطعن فيه هو افتراض عدم اكتمال هذا المصحف العثمانى[٢]، فهو ليس فى حقيقة الأمر كل القرآن ولكن كل ما اشتمل عليه قرآن[٣].

فهل عرف هذا المصحف الشيعى فى مصر، ومتى، وعلى أى صورة؟

ضمت الثورة على عثمان (٣٥ هـ) عناصر مصرية لاشك فى علويتها (حمام بن عامر اللخمى[٤]، الأكدر بن حمام[٥]- ربيعة بن حبيش الصدفى[٦]). ولما كانت الأغلبية الغالبة من أهل مصر قد أسهمت فى هذه الثورة التى أتت بعلى إلى الخلافة[٧] كان طبيعياً أن يسود الاتجاه العلوى مصر فى حين ينكمش العثمانيون لايتجاوزون حدود خربتا[٨]. وبالرغم من عودة مصر بالقوة إلى دائرة النفوذ الأموى المضاد (٣٨ هـ) فقد ظلت مصر «وكثير من أهلها عاوية»[٩] ولكن ألسنة العلوية انكسفت بعد أن انتصر المروانيون عليهم وعلى شركائهم فى الثورة : الزبيريين والخوارج عام ٦٥ هـ[١٠]. وكان رأس زيد بن على (ت ١٢٢ هـ) أول من وصل إلى مصر من آل البيت[١١] الذين تتابع ظهورهم منذ ذلك التاريخ فى مصر حيث تمتعوا بمكانة أدبية روحية اجتماعية رفيعة : السيدة نفيسة بنت الحسن ٢٠٨ هـ (زعيمة روحية)[١٢]- على بن الحسن بن طباطباظ ٢٧٠ هـ (نقيب)[١٣]- السيدة كلثوم بنت القاسم ظ فى القرن الثالث (زعيمة روحية)[١٤]- الحسن بن طاهر بن يحيى

(١) المصدر نفسه : ٢٩٤ . (٢) المصدر نفسه : ٢٩٦ .
(٣) المصدر نفسه : ٣٠١ . (٤) الكندى : الولاة : ٢٦، ٤٥ .
(٥) المصدر نفسه : ٢٦، ٤٣، ٤٦ . ابن تغرى بردى : النجوم - ١ : ١٦٦ . السيوطى : حسن - ١ : ٧٤، ٧٥ .
(٦) الكندى : الولاة : ١١١، ١١٢ (٧) المصدر نفسه : ١٧ :
(٨) المصدر نفسه : ٢٠ . ابن تغرى بردى : النجوم - ١ : ٩٥، ٩٦، ١٠٧، ١٠٨ .
(٩) المقريزى : الخطط - ٢ : ٣٣٧ . (١٠) المصدر نفسه - ٢ : ٣٣٨ .
(١١) الكندى : الولاة : ٨١ . المقريزى - ٢ : ٤٣٦ .
(١٢) ابن خلكان : وفيات : ٢٢٣ - ٢٢٤ . ابن شاكر : فوات - ٢ : ٦٠٧ - ٦٠٨ . المقريزى - ٢ : ٤٤١ . ابن تغرى بردى : النجوم - ٢ : ١٨٥ - ١٨٦ . السيوطى : حسن - ١ : ٢١٨ . الشعرانى : الطبقات : ١ : ٧٥ .
(١٣) ابن حجر : رفع الإصر، ١٥١، ١٥٢ (١٤) المقريزى - ٢ : ٤٤٢ .

العلوى ، ظ ما بين ٢٨٤ ــ ٣٢٨ هـ ؛ (سيد ، ديبلرماسى) [١] ــ عبيد الله بن على ابن إبراهيم ، ت ٣١٢ هـ ؛ (عالم) [٢] ــ أحمد بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن طباطبا ، ت٣٤٥هـ؛ (نقيب) [٣] ــ عبد الله بن أحمد بن على بن الحسن بن إبراهيم طباطبا ، ت٣٤٨ هـ (سيد) [٤] ــ مسلم بن عبيد الله أبو جعفر ، ظ ما بين ٣٥٥ ــ ٣٥٨ هـ (سيد) عالم [٥]. وابتدأ من أخريات عام ١٤٤ هـ دخل التشيع المصرى معارك دامية ضد الدولة بهدف الوصول إلى الحكم (حركة بنى الحسن ١٤٤ ــ ١٤٥ هـ [٦] ــ فتنة على الرضا ٢٠٢ ــ ٢٠٣ هـ [٧] ــ حركة ابن الحزرى ٢٤٨ هـ [٨] ــ اشتراك ابن الأرقط سنة ٢٥٢ هـ فى ثورة جابر المدلجى [٩] ــ ثورة ابن الصوفى ٢٥٣ــ٢٥٩هـ [١٠] ــ ثورة بغا الأكبر ٢٥٤هـ [١١] ــ ثورة بغا الأصغر ٢٥٥ هـ [١٢]) . وطوال النصف الأول من القرن الرابع تعاون الشيعة المحليون مع الشيعة الفاطميين على إسقاط النظام القائم فى مصر . وقد انتهت الهجمات المتتالية العنيفة التى شنها الشيعة فى الداخل ومن الخارج ، والتى مكنتهم من السيطرة المؤقتة على الفيوم والأشمونين فى مصر الوسطى ، بسقوط مصر فى أيدى الفاطميين عام ٣٥٨ [١٣] .

---

(١) المقريزى : الخطط – ١ : ٣٢٩ . ابن حجر : رفع الإصر : ٢١٥ – ٢١٦ . ابن تغرى بردى : النجوم – ٣ : ٢٥٢ . (٢) الخطيب : ت . بغداد – ١٠ : ٣٤٦ – ٣٤٧ .

(٣) ابن خلكان : وفيات (ط . النهضة) – ١ : ١١١ – ١١٢ .

(٤) المصدر نفسه – ٢ : ٢٦٨ – ٧٢٠ . المقريزى : الخطط – ١ : ٣٣٠ .

(٥) الخطيب : ت . بغداد – ١٢ : ٣٥ . القضاة : ٥٧٦ ، ٥٧٨ ، ٥٨٠ ، ٥٨٤ . ابن تغرى بردى : النجوم – ٤ : ٣ ، ٤ .

(٦) الكندى : الولاة : ١١١–١١٥ ، القضاة : ٣٦٢ . ابن تغرى بردى : النجوم – ٢ : ١–٣ .

(٧) الكندى : الولاة : ١٦٧ – ١٧٠ . ابن تغرى بردى : النجوم – ٢ : ١٧٤ – ١٧٥

(٨) الكندى : الولاة : ٢٠٣ – ٢٠٤ . المقريزى : الخطط – ٢ : ٣٣٩ .

(٩) الكندى : الولاة : ٢٠٦ – ٢٠٨ . المقريزذى : الخطط – ٢ : ٣٣٩ .

(١٠) الكندى : الولاة : ٢١٣ – ٢١٤ . المقريزى : الخطط – ٢ : ٣٣٩ .

(١١) الكندى : الولاة : ٢١١ . المقريزى : الخطط – ٢ : ٣٣٩ .

(١٢) الكندى : الولاة : ٢١٢ : المقريزى : الخطط – ٢ : ٣٣٩ .

(١٣) ابن خلكان : وفيات (ط . النهضة) – ٤ : ١١١ . ابن سعيد ، الاغتباط : ١٥٧ – ١٦١ ، ١٧٦ – ١٧٧ . الكندى : الولاة : ٢٦٨ – ٢٧٠ ، ٢٧٤ – ٢٧٨ ، ٢٨١ – ٢٨٩. المقريزى : الخطط – ١ : ٣٢٧ – ٣٢٩ و ٢ : ٣٣٤ ، ٣٤٠ . ابن تغرى بردى : النجوم – ٣ : ١٧٢ – ١٧٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ – ١٨٧ ، ١٩٦ ، ٢٠٧ ، ٢٥٢ ، ٢٨٧ ، ٣٢٦ ، و٤ : ٣٠ Lane-Poole, His. of Egypt, pp. 80 81, 83, 90. 101

وجدت في مصر إذن ، طوال الفترة التي ندرسها ، بيئة شيعية واضحة ، نشطة إيجابية ، ضمت إلى جانب رجال الحرب والسياسة رجال أدب وعلم وفكر (إياس ابن عامر الغافقي ، ظ ٣٦ – ٥٨ محدث[١] – كثير عزة ، ظ ما بين ٦٥ – ٨٦ هـ شاعر[٢] – عبد الله بن زرير الغافقي ، ت ٨١ هـ ، محدث[٣] – عمرو بن جابر الحضرمي ، ت بعد ١٢٠ هـ محدث[٤] – عبد الله بن لهيعة ، ت ١٧٤ هـ ، محدث[٥] دعبل الخزاعي ، ظ ١٩٨ – ٢٠٠ هـ ، شاعر[٦] – النسائي ، أقام بمصر من ٢٦٤ هـ تقريبا حتى ٣٠٢ هـ ، محدث[٧] محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، ت ٢٦٨ هـ ، فقيه[٨] – يحيى بن عثمان بن صالح ، ت ٢٨٢ هـ مؤرخ[٩] – أبو بكر محمد بن أحمد بن الحداد ، ت ٣٤٤ هـ ، فقيه[١٠].

فهل كان لهذه البيئة الشيعية مصحفها الخاص الذي تنفرد به عن الجماعة ، أو كان لها – في الأقل – وجهة نظر معينة في المصحف ؟

عبد الله بن زرير الغافقي الذي مضت الإشارة إليه منذ لحظة تابعي مصري شهير ، عدوه في الثقات بالرغم من أنه من شيعة علي ، وفد عليه ، وشهد صفين معه ، وروى عنه[١١]. كان لعبد الله هذا موقف مهم مع الخليفة الأموي عبد الملك

---

(١) السمعاني : الأنساب : ٤٠٥ ب . ابن حجر : ت . التهذيب – ١ : ٣٨٩ . السيوطي : حسن – ١ : ٢٠٥ .

(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار – ٢ : ١٤٤ – ١٤٥ . ابن عبد ربه : العقد – ٥ : ٣٢٧ . أبو الفرج : الأغاني ٩ : ٤ . ابن خلكان : وفيات (ط . الميمنية) – ١ : ٤٣٣ . ابن تغرى بردى : النجوم ١ : ٢٥٦ .

(٣) ابن سعد : الطبقات – ج ٧ ق ٢ ص ٢٠٠ . ابن حجر : ت . التهذيب – ٥ : ٢١٧ . السيوطي : حسن ١ : ١٠٥ والإتقان – ١ : ٦٥ .

(٤) ابن حجر : ت . التهذيب – ٨ : ١١ .

(٥) الكندي : القضاة : ٣٦٩ . ابن حجر : رفع الإصر : ٢٩٢ . كست : مقدمة الكندي : ٣٢

(٦) أبو الفرج : الأغاني – ١٨ : ٢٩ . ياقوت : معجم الأدباء – ١١ : ١٠٢ .

(٧) ابن خلكان : وفيات (ط . الميمنية) – ١ : ٢١ . السبكي : طبقات الشافعية – ٢ : ٨٤ ابن تغرى بردى : النجوم – ٣ : ١٨٨ .

(٨) القضاة : ٥٥٦ .

(٩) ابن حجر : ت . التهذيب – ١١ : ٢٥٧ .

(١٠) القضاة : ٥٥٦ .

(١١) انظر الهامش ٣ من هذه الصفحة .

ابن مروان (٦٥ – ٨٦ هـ) ، أو – فيما تذكر الرواية المنسوبة إلى يزيد بن أبي حبيب – مع أخيه عبد العزيز حاكم مصر (ت ٨٦ هـ) ، الذى استنكر إعراضه عن عثمان ، وسخر من إمامه على ، وعيره بأنه أعرابي جاف . فرد الأعرابي الجافى بأنه ليس فقط أعرق من هذا الحاكم فى الدين بل إنه أكثر منه علماً به ، ذلك بأنه يحفظ القرآن من زمن بعيد ويعرف منه مالا يعرف الحاكم المغرور . ولم يكن هذا القرآن المجهول الذى حرك فضول الحاكم سوى « القنوت » الذى تعلمه ابن زرير من علىّ وتعلمه علىّ من النبي[1] .

فهل يعنى هذا أن كان للشيعة وجهة نظر خاصة تجعل القنوت من القرآن ؟ للإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن نتساءل أولا : ما القنوت ؟

اشتد بالنبي الألم لما أصاب المسلمين من أعدائهم[2] ، فجعل يلعنهم فى الصلاة ويدعو عليهم بالجدب والجوع ، فنزل عليه جبريل يقول :

« يا محمد » : إن الله لم يبعثك سباباً ولا لعاناً ، وإنما بعثك رحمة ولم يبعثك عذابا .

(ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون)[3] .

ثم علمه هذا القنوت :

اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ، ونؤمن بك ونخنع لك[4]، ونخلع ونترك من يكفرك . اللهم إياك نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد[5] .

---

(١) ابن حجر : ت . التهذيب – ٥ : ٢١٦ – ٢١٧ . السيوطى : الاتقان – ١ : ٦٥ عن الطبرانى .

(٢) فى غزوة أحد سنة ٣ هـ ، أو بسبب اغتيال سبعين شاباً من القراء فى بئر معونة فى العام نفسه أو بسبب موقف أفراد بأعيانهم أو جماعة من المنافقين .

(٣) هذه هى الآية رقم ١٢٨ من سورة آل عمران . وبالرغم من أن الخبر يوردها كجزء من حديث جبريل العادى فإن سائر المصادر أفردتها بالحديث وفصلت القول فى سبب نزولها . راجع : الواقدى : المغازى : ٢٤٢ ، ٣٢٤١ . ابن هشام : السيرة – ٣ : ٦١ . البخارى : الصحيح – ٢ : ٧٣ ، ٧٤ و ٥ : ٢٢٣ . الطبرى : تفسير – ٣ : ٥٣ – ٥٥ . البيهقى – ٢ : ١٩٧ . الواحدى : أسباب النزول : ٦٩ – ٧٠ . البغوى : معالم التنزيل (على ذيل تفسير ابن كثير) – ٢ : ٢٣٧ ومابعدها. الزمخشرى : الكشاف (ط . بولاق) – ١ : ١٣٩ . الحازمى : الاعتبار ٢٣ ظ . ابن كثير : تفسير – ٢ : ٢٣٧ – ٢٣٩ . السيوطى : أسباب النزول : ٤٢ – ٤٣ .

(٤) الخنوع : الخضوع والذل (القاموس المحيط) .

(٥) حفد : خف فى العمل وأسرع . والحفد : مشى دون الخبب (القاموس المحيط) .

نرجو رحمتك ونخاف عذابك ، إن عذابك الجد بالكافرين ملحق »[١].

وأقرأ النبي القنوت أبي بن كعب[٢] ، كما أقرأه عليًا[٣]. أما على فإنه أقرأه ابن زرير الغافقي[٤] ، وأما أبي فإنه سجله في مصحفه على هيئة سورتين مستقلتين وإن كانتا متتابعتين : سورة الخلع : « اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ، . . . » وسورة الحفد : « اللهم إياك نعبد ، . . . »[٥] وكذلك فعل بهما أبو موسى الأشعري (ت ٤٤هـ) في مصحفه الكبير « لباب القلوب »[٦]. ولكن مصحف أبيّ اشتهر دون مصحف أبي موسى بتضمنه هاتين السورتين كعلامة مميزة له عن سائر المصاحف . فنص ابن سيرين (ت ١١٠ هـ) على أن أبيًّا كتبهما في مصحفه مثلما كتب فاتحة الكتاب والمعوذتين[٧]. وعندما روى أبو جعفر الكوفي تأليف مصحف أبيّ وضع سورتي الخلع والحفد هاتين بعد سورة العصر وقبل سورة الهمزة[٨]. ويذكر محمد بن نصر المروزي صاحب كتاب الوتر (ت ٢٩٤ هـ) بصيغة التمريض أن عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤ هـ) زعم أنه بلغه أنهما سورتان من القرآن في مصحف ابن مسعود[٩]. ومن الخطأ البين وضع اسم ابن مسعود بدلا من أبيّ ،

---

(١) أبوداود : المراسيل : ١٢ – ١٣ . البيهقي : السنن – ٢ : ٢١٠ . الحازمي : الاعتبار : ٢٤ ظ . ويعلق البيهقي على الخبر بأنه مرسل ، ثم يضيف في الخال أنه قد روى عن عمر بن الخطاب صحيحاً موصولا . ويعلق الحازمي كذلك بأن الخبر مرسل أخرجه أبو داود في المراسيل ، ولكنه يرتفع إلى درجة الحسن في المتابعات . وبالرغم من أننا نستطيع الاطمئنان إلى الخبر نلحظ أنه لم ترد أية إشارة إلى هذا القنوت عند تفسير الآية ١٢٨ من آل عمران أو عند الحديث عن سبب نزولها . كما أن صيغ القنوت تختلف فيما بينها اختلافاً خفيفاً باختلاف الروايات .

(٢) الزركشي : البرهان – ٢ : ٣٧ عن كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي الحسين المنادي .

(٣ ، ٤) السيوطي : الإتقان – ١ : ٦٥ عن الطبراني .

(٥) أبوعبيد : فضائل القرآن : ٤٣ . ابن النديم : الفهرست : ٢٧ . الزركشي : البرهان – ٢ : ٣٧ . السيوطي : الإتقان – ١ : ٦٥ .

(٦) Jeffery, MHTQ. p. 210 & The Qur'ān as Scripture, p. 95

وقد يفهم من رواية الإتقان – ١ : ٦٥ أن هاتين السورتين موجودتان كذلك في مصحف ابن عباس

انظر : Ency. Isl., Koran, p. 1071

(٧) أبوعبيد : فضائل القرآن : ٤٣

(٨) السيوطي : الإتقان – ١ : ٦٤ . وفي اسم أبي جعفر خلاف ، وقد روى عن كبار التابعين ، ووثقه أبوداود وابن حيان . (انظر : ابن حجر : ت . التهذيب – ١٢ : ٥٧ – ٥٨) .

(٩) كتاب الوتر : ١٣٥

فالمتواتر أن إثبات هاتين السورتين هو العلامة المميزة لمصحف أبيّ ، في حين يشترك مصحف ابن مسعود مع سائر المصاحف في الخلو منهما إلى جانب تميزه بالخلو من فاتحة الكتاب والمعوذتين[١]. ونص سلمة بن كهيل الحضرمي (ت ١٢٢ هـ) على وجودهما على المعوذتين في مصحف أبي[٢]. أما ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) فاكتفى بأن ذكر أنهما سورتان في مصحف « بعض » الصحابة[٣]. ومن المؤكد أن هذا « البعض » لا يمكن أن يكون سوى أبيّ و — على الأكثر — أبي موسى . فإذا كان ابن إسحاق (ت ١٥١ هـ) قرر أنه قرأ في مصحف أبي بن كعب بالكتاب — أي الخط — الأول العتيق السور الآتية :

بسم الله الرحمن الرحيم : قل هو الله أحد . . . . إلى آخرها .

بسم الله الرحمن الرحيم : قل أعوذ برب الفلق . . . إلى آخرها .

بسم الله الرحمن الرحيم : قل أعوذ برب الناس . . إلى آخرها .

بسم الله الرحمن الرحيم : اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ، ونثنى عليك الخير ولا نكفرك ، ونُخنع[٤] ونترك من يفجرك .

بسم الله الرحمن الرحيم : اللهم إياك نعبد . ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد . نخشى عذابك ، ونرجو رحمتك . إن عذابك بالكفار ملحق .

بسم الله الرحمن الرحيم : اللهم لا ينزع ما تعطى . ولا ينفع ذا الجد منك الجد . سبحانك وغفرانك وحنانيك إله الحق[٥] .

وهكذا يخالف ابن إسحاق أبا جعفر الكرفي إذ يضع سورتي القنوت في آخر مصحف أبيّ . كما أنه — وهذا غريب — يذكر سورة ثالثة لم يشر إليها أحد غيره فيما نعلم . وأكثر غرابة أن ينسب الخبر إلى ابن إسحاق رؤية مصحف أبيّ والقراءة فيه في حين أن محمد بن أبي بن كعب (ت ٦٣ هـ) منذ زمن بعيد للوفد العراقي

---

(١) أبوعبيد : فضائل القرآن : ٤٣ . ابن النديم : الفهرست :

(٢) المروزي : الوتر : ١٣٥ .

(٣) السيوطي : الإتقان — ١ : ٦٥ عن البيهق .

(٤) نخنع : بضم أوله : أي نذل .

(٥) المروزي : الوتر : ١٣٥ .

الذى زاره ابتغاء الاطلاع على مصحف أبيه بأن عثمان قد قبض هذا المصحف[1].

وفى كتابه « الناسخ والمنسوخ » يعلن الإمام المحدث أبو الحسين أحمد بن جعفر المنادى (ت ٣٣٤ ﻫ) بأعلى صوته أنه « لا خلاف بين الماضين والغابرين أنهما – أى سورتى القنوت فى الوتر – مكتوبتان فى المصاحف المنسوبة إلى أبى بن كعب ، وأنه ذكر عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه أقرأه إياهما ، وتسمى (كذا) سورتا (كذا) الخلع والحفد »[2].

وينص ابن النديم (ت ٣٨٣ ﻫ) على أن مصحف أُبىّ الذى يبلغ عدد سوره ١١٦ سورة ، والذى يشتمل على الفاتحة والمعوذتين . فيه صورة الخلع ثلاث آيات ، وفيه الحفد[3] ست آيات « اللهم إياك نعبد » وآخرها : « بالكفار ملحق » . ويحدد ابن النديم مكانهما بأنه بعد التكاثر وقبل اللمز[4] .

وعندما تحدث آرثر جفرى عن مصحف أُبىّ بن كعب ، بما هو أحد المصاحف الأولى القديمة ، ذكر سورتى الخلع والحفد اللتين يتميز بهما ، وأشار إلى عدم أهمية الاختلاف حول مكانهما فى المصحف[5] .

ولكن الجماعة الإسلامية سارت فى طريق النصر بعد ذلك ، ولم يزل أعداؤها يتناقصون بالموت أو بالدخول فى الإسلام حتى اختفوا ؛ فزال الظرف الأصيل الموجب للقنوت ، ونسخت سورتاه من القرآن . غير أن المسلمين كانوا قد ألفوا الابتهال إلى الله به فى الصلاة ، ولم يكن بأس فى المضى فى ترديده لا بما هو قرآن ؛ ولكن بما هو مجرد دعاء محبب يعبر تعبيراً رقيقا عن حاجة الفرد إلى ربه ، وخضوعه له ، وإيمانه به . وهكذا استمر القنوت حيًّا فى صدور المسلمين وعلى ألسنتهم يبتهلون به إلى الله فى صلاة الوتر ، وإن فقد حجيته إلى الأبد كقرآن ، ولم يجد مكاناً فى المصحف الرسمى الذى كتبه عثمان . ولذلك يعد بعض علماء القرآن

---

(١) أبو عبيد : فضائل القرآن : ٣٧ . ولكن الكسائى – وهو أحد القراء السبعة – (ت ١٨٩ ﻫ) يقرر أنه رأى مصحف أبى ، ورأى فيه كلمة « والرجال » من الآية ٢٢٨ من سورة البقرة وقد كتبت : « والرجيل » ، أى الإمالة . (انظر : الدانى : المقنع : ٦٤) .

(٢) الزركشى : البرهان – ٢ : ٣٧ .

(٣) مذكورة خطأ باسم الجيد .

(٤) الفهرست : ٢٧ .

(٥) M.H.T.Q., p. 181.

سورتى القنوت مما رفع رسمه من القرآن ولم يرفع من القلوب حفظه ، ويتخذون منهما مثالاً للضرب الثالث من الناسخ والمنسوخ أى ما نسخت تلاوته دون حكمه ، وإن أنكر قوم هذا الضرب لأن الأخبار فيه أخبار آحاد ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها[١].

وأيًّا كان الأمر فإن مسألة القنوت بعامة ، سواء دعى فيه بهاتين السورتين أو بدعاء آخر ، محل جدل كبير من حيث مشروعيته ، ووقته ، وصيغته ، وحكمه ، وكيفيته[٢]. وطبيعى أن يكون النبى قنت بهاتين السورتين بدلاً من الدعاء الأول العنيف ، ثم استن الصحابة به من بعده . وكان لعمر دور هام فى المحافظة على هذا القنوت ونقله عن النبى إلى المسلمين ، وإن كان يجمع عادة بينه وبين روح الدعاء العنيف القديم ، ففى حين يدعو للمسلمين بالمغفرة والألفة والنصر ، كان يدعو على الكفار باللعن والفرقة والرعب والرجس والعذاب[٣]. وكان أُبىّ بن كعب يوتر بسورتى القنوت كل ليلة[٤]. وقنت علىّ (ت ٤٠ هـ) فى الفجر فقال : « اللهم إنا نستعينك ونستغفرك »[٥]. وفيما بين عامى ٧٤ — ٧٨ هـ صلى أمير خراسان ، أمية ابن عبد الله بن خالد الأموى (ت ٧٨ هـ) ، بالناس هناك — صلاة الوتر لابد — وقرأ بهاتين السورتين[٦] . وكان سعيد بن المسيب ، التابعى المدنى الكبير وأحد القراء القدماء (ت ٩٤ هـ) ، يبدأ فى القنوت فيدعو — كما كان يفعل عمر — على الكفار ، ويدعو للمؤمنين والمؤمنات ، ثم يقرأ السورتين : « اللهم إنا نستعينك » و « اللهم إياك نعبد »[٧]. وكان إبراهيم النخعى ، العابد الكوفى (ت ٩٦ هـ) ،

---

(١) الزركشى : البرهان — ٢ : ٣٧ . السيوطى : الإتقان — ٢ : ٢٤ ، ٢٦ .

(٢) راجع : أبوداود : السنن ، وشرح السبكى عليها — ٨ : ٥٦ — ٥٨ ، ٦٣ — ٦٤ ، ٦٦ ، ٨٢ — ٩٢ ، المروزى : الوتر : ١١١ — ١٣٤ . البيهقى : السنن — ٢ : ١٩٨ — ٢٠٩ . الحاز : الاعتبار : ٢٤ وجه — ٢٦ ظ Ency. Isl., Kunut, p. 111 1119

(٣) أبو داود : السنن ، وشرح السبكى عليها — ٨ : ٦٥ . المروزى : الوتر : ١٣٤—١٣٥ ، البيهقى ، السنن — ٢ : ٢١٠ — ٢١١ .

(٤) المروزى : الوتر : ١٣٥ ، ويلاحظ الخطأ فى وضع اسم ابن مسعود بدلا من أبى . السيوطى : الإتقان — ١ : ٦٥ .

(٥) البيهقى : السنن — ٢ : ٢١١ .

(٦) السيوطى : الإتقان — ١ : ٦٥ عن الطبرانى .

(٧) المروزى : الوتر : ١٣٥ .

يقرأ في الوتر بالسورتين نفسيهما[١]. أما الحسن البصري: إمام أهل البصرة (ت١١٠هـ)، فكان يبدأ في القنوت بالسورتين ثم يدعو على الكفار، ثم يدعو للمؤمنين والمؤمنات[٢]. ولما سأل أحدهم عطاء بن أبي رباح المكي . أحد أعلام التابعين (ت ١١٤ هـ) . عما يقول في القنوت أجابه : « هاتين السورتين اللتين في قراءة أبيّ : اللهم إياك نعبد . . . ، واللهم إنا نستعينك... »[٣] وذكر ابن شهاب الزهري . الإمام المدني (ت ١٢٤ هـ) . أن هذا القنوت يأتي بعد لعن الكفرة والصلاة على النبي والدعاء للمسلمين[٤]. ولم يكن أبو عمرو بن العلاء ، إمام البصرة وقارئها (ت ١٥٤ هـ) . يردد القنوت فحسب ولكن كان له فيه قراءة خاصة ، فكان يقرأ : « إن عذابك بالكفار ملحق » بكسر الحاء[٥] . أما سفيان الثوري . الإمام الكوفي الزاهد (ت ١٦١ هـ) ، فيروى أن الصحابة كانوا يستحبون أن يجعلوا في قنوت الوتر هاتين السورتين : « اللهم إنا نستعينك . . . . » و « اللهم إياك نعبد » . بهذه الكلمات : « اللهم اهدني فيمن هديت . وعافني فيمن عافيت ، وتولني فيمن توليت . وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شر ما قضيت ، إنك تقضي ولا يقضى عليك . لايذل من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت »[٦].

ظل المسلمون إذن متمسكين بالقنوت يرددونه في صلاتهم . ولكن يلفت النظر أن هذه الأخبار تحدثت . في معظمها عن القنوت بما هو « سورتان » « يقرأ » بهما في صلاة الوتر لابما هو مجرد دعاء مأثور يدعى به . وفي ذلك ما يدل دلالة واضحة على أن المسلمين ظلوا ، حتى أواسط القرن الثاني في الأقل ، على وعي شديد . في مختلف البيئات الإسلامية ، بالأصل القرآني للقنوت الذي فقد حجيته كقرآن قبل وفاة النبي . ولسنا نستطيع – حتى إذا سلمنا أن مصحف أبيّ ظل موجوداً حتى أخريات القرن الثاني فيما روى الكسائي الإمام الكبير[٧] – أن نسلم أن المسلمين

---

(١) المصدر نفسه : ١٣٦ .

(٢) المصدر نفسه : ١٣٥ .

(٣) المروز : الوتر : ١٣٥ ، ويلاحظ تقديم سورة الحفد على سورة الخلع على خلاف المشهور .

(٤) المصدر نفسه : ١٣٥ – ١٣٦ .

(٥) البيهقي : السنن – ٢ : ٢١٣ .

(٦) المروز : الوتر : ١٣٦ .

(٧) الداني : المقنع : ٢٤ .

ظلوا حتى ذاك يتلون القنوت على أنه من القرآن . فالمعروف أن مصحف عثمان الإمام لم يكد يصل إلى أيدى المسلمين فى الأمصار حتى قوبل بالتسليم العام[١]. وإذا كان هناك خلاف فهو خلاف على القراءة فى حدود كتابة مصحف عثمان نفسه . وهو هذا الخلاف الذى وضع له حداً الوزيران ابن مقلة وابن عيسى فى سنة ٣٢٢ هـ بمساعدة العلامة ابن مجاهد الذى أجاز قراءات سبعا كانت قد نشأت لخلو مصحف عثمان من النقط والشكل[٢] . كل ما هنالك إذن أنه لما كانت السنة تقليداً أمينا لعمل النبى ، وتنفيذاً حرفيا لقوله . ظل المسلمون ينظرون إلى الوتر ككل . ويحرصون على أدائه على الصورة الأولى له عندما كان القنوت يكون الجزء القرآنى منه . وعندما يتحدث علماء المسلمين عن « سورتى » القنوت و « القراءة » بهما فإنما يتحدثون عن أثر تاريخى ، ويستعملون اصطلاحات تقليدية .

هذه هى قصة القنوت ليس فيها ما يدل على وجود علاقة بين بين التشيع . فليس القول بقرآنيته تعبيراً عن وجهة نظر شيعية خاصة ، بل هى مسألة من مسائل التاريخ العام للقرآن . وليس فى مصحف علىّ ولا فى مصحف جعفر الصادق — إذا صح أنهما يمثلان المصحف الشيعى — ذكر لهذا القنوت رسورتيه[٣] . وأقرب المصاحف إلى الشيعة ، مصحف ابن مسعود ، يتميز بخلوه من هاتين السورتين إلى جانب خلوه من الفاتحة والمعوذتين[٤] . وبالرغم من أن الزيادات السبع والثلاثين ـ التى يزعم بعض الشيعة أنها من أصل المصحف وأنها حذفت منه لأغراض سياسية . أشير فيها مرتين إلى قراءة أبىّ بن كعب لآيتين من آياتهما[٥] ، فهى خالية تماما من أى إشارة إلى القنوت وسورتيه[٦] .

يكفى هذا النفى أى أصل شيعى للقنوت . ومن ثم لا نستطيع أن نفهم من كلام

---

(١) Jeffery, The Qur'ān as Scriptwre, p. 96

(٢) حتى : تاريخ العرب : .

(٣) فى كتابه : MHTQ تحدث جفرى عن مصحف على (ص ١٨٢ — ١٨٤) ، ثم أورد الآيات التى يخالف فيها مصحف عثمان (ص ١٨٥ — ١٩٢) وفعل الأمر نفسه مع مصحف جعفر الصادق فتحدث عنه (ص٣٣٠-٣٣١) ، ثم أورد الآيات التى يخالف فيها مصحف عثمان (ص٣٣٢ — ٣٣٧) .

(٤) انظر هذا البحث ص٥٦ وص٦٠

(٥) The Moslem World, Vol. III, July 1913, no. 3. Shi'ah Additions to the Koran, By : W. St. Clair Tisdall, pp. 236 ,238.

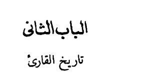
(٦) Ibid, pp. 231-241.

الشيعى المصرى عبد الله بن زرير الغافقى ما يدل على وجود مصحف شيعى خاص فى مصر فى القرن الأول ، ولا حتى على وجهة نظر شيعية معينة بالنسبة إلى القنوت . والمسألة كلها لا تعدو أنه أراد أن يتباهى بمعارماته فى تاريخ القرآن ، وأن يتعالم على ابن مروان ويفخر عليه بما تلقاه من أسرار الدين عن إمامه « أبى تراب » ، وينفى تهمة الأعرابية والجفوة التى أراد هذا الحاكم الأموى المعادى للتشيع أن يلصقها بواحد من الشيعة البارزين فى مصر. ولا شك فى أن ابن زرير كان مغاليا جداً حين ادعى أنه يعلم من القرآن مالا يعلم ابن مروان، فمن الواضح الآن أن قرآنية القنوت كانت حينذاك ، وظلت زمنا طويلا بعد ذلك ، أمراً معروفاً عند المسلمين .

وأيًّا كان الأمر فإنه لما كانت هذه هى الإشارة الوحيدة إلى القرآن والشيعة فى مصر فى الفترة التى ندرسها، بينما لا تقابلنا أول إشارة إلى المصحف الشيعى إلا فى أوائل القرن السادس[1] ، فإن لنا أن نقرر أن المجتمع المصرى لم يعرف هذا المصحف طوال عصر الولاة بالرغم من وجود بيئة شيعية قوية فيه حينذاك .

---

(١) ذلك عندما يذكر المقريزى (الخطط – ١ : ٤٠٨) أن الوزير الفاطمى ، المأمون البطائحى ، أمر سنة ٥١٦ هـ أن يصاغ على المصحف الذى بخط أمير المؤمنين على بن أبى طالب بالجامع العتيق بمصر من فرق الفضة ذهب .



الباب الثانی

تاریخ القارئ



١ ـ شخصية القارئ

فى الجيش العربى الذى فتح مصر سنة ٢٠ هـ كان عدد من الرجال الذين صاروا يعرفون باسم « القراء » لأنهم يحفظون القرآن ويقرؤونه الآخرين أى يعلمونهم إياه . فكان هناك الصحابى الشهير أبو ذر الغفار (ت ٣٢هـ)[١] ، وعبد الرحمن ابن ملجم المرادى (ت ٤٠ هـ) الذى اشتهر بعد اغتياله على بن أبى طالب[٢] ، وأبو أمية عبيد بن مخمر[٣] — وفى رواية أخرى : عبيد بن محمد[٤] ، وفى رواية ثالثة : عبيد بن عمرو[٥] — وعقبة بن عامر الجهنى (ت ٥٨ هـ) الذى حكم مصر فيما بعد[٦] ، وعبد الله بن عمرو بن العاص (ت ٦٥ هـ)[٧] . وهؤلاء جميعاً صحابيون . أما من التابعين القراء فكان هناك أبو تميم الجيشانى عبد الله بن مالك البحصبى (ت ٧٧ هـ)[٨] ، وعبد الرحمن بن جبير العامرى (ت ٩٧ أو ٩٨ هـ)[٩] .

اشترك هؤلاء القراء فى جيش الفتح بمهام رجال قتال ، محاربون ، عملهم الأساسى أن يمتطوا الحصان ، ويمتشقوا الحسام ، ويرموا عن القوس ، ويطعنوا بالرمح ، ويَقتلوا ويُقتلوا ، فيظفروا بالجنة إذا استشهدوا أو بالغنيمة إذا أخطأهم الموت . ويبرز هذا السلوك الحربى — وهو سلوك عملى إيجابى — فى شخصياتهم كأفراد . فقد كان أبو ذر ، قبل الإسلام ، يشتغل ، مثله مثل سائر بنى غفار ، بقطع الطريق . وعرف بأنه كان شجاعاً ، يتفرد وحده بقطع الطريق ، ويغير على الصِّرَم

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٩٤ .
(٢) السمعانى : الأنساب : ١٠٤ :
(٣) المقريزى : الخطط — ٢ : ٣٣٢ عن ابن يونس .
(٤) ابن حجر : الإصابة — ٤ : ٢٠٦ .
(٥) السيوطى : حسن — ١ : ٢ ، .
(٦) ابن سعد : الطبقات — ج ٧ ق ٢ : ١٩١ .
(٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٧٣ ، ٧٤ .
(٨) ابن حجر : ت . التهذيب — ٥ : ٣٨٠ . وفى فتوح مصر لابن عبد الحكم أخبار كثيرة تثبت وجوده بمصر وقت الفتح . انظر : ص ٩٧ ، ١١٤ — ١١٥ ، ١١٧ — ١٧٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ .
(٩) ابن حجر : ت . التهذيب — ٦ : ١٥٥ عن ابن يونس .

أى جماعات الإبل — فى عماية الصبح على ظهر فرسه أو على قدميه كأنه السبع ؛ فيطرق الحى ويأخذ ما أخذ[١] . فلما قذف الله الإسلام فى قلبه وضع هذه المزايا الحربية الهامة فى خدمة الدين الجديد . وظل فارساً ؛ فرسه أحب إليه من ولده وأهله وماله[٢] .

وكان عبد الرحمن بن ملجم فارس قبيلته تدؤل — أحد بطون مراد — المعدود فيهم[٣] .

ولا نعرف عن عبيد بن أمخمر أكثر من اشتراكه فى الفتح .

كان عقبة بن عامر قد شهد فتوح الشام قبل أن يشهد فتح مصر[٤] . وقد عرف بأنه من الرماة أى البارعين فى الرمى بالسهام[٥] . ولعله عنى بهذا الفن الحربى منذ أن سمع النبى على المنبر يفسر « القوة » فى الآية : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة »[٦] بأنها الرمى[٧] . وحتى فى شيخوخته ظل عقبة حريصا على الرمى ؛ يواظب على ممارسته فى الفسطاط حتى لاينطبق عليه قول النبى : « من علم الرمى ثم تركه فليس منا »[٨] . وكان عقبة — ربما حرصاً على مظهره كمحارب — يخضب بالسواد وإن كان يسخر من عدم جدوى محاولة إخفاء المشيب بقوله — وقد كان شاعراً — :

« نغير أعلاها وتأبى أصولها[٩] »

واشترك عقبة فى فتح الإسكندرية الثانى سنة ٢٥ هـ[١٠] . وإذا كان قد ظل مقيما بمصر — وهو ما لانقطع به — فلا بد أنه قد اشترك فى فتوح أفريقية والنوبة التى قادها عبد الله بن سعد بن أبى سرح أمير مصر . وأخفق عقبة فى إحباط الانقلاب

---

(١) ابن سعد : الطبقات — ج ٤ ق ١ : ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ١٤٣ .

(٣) السمعانى : الأنساب : ١٠٤ أ .

(٤) ابن سعد : الطبقات — ج ٧ ق ٢ : ١٩١ .

(٥) ابن حجر : ت . التهذيب — ٧ : ٢٤٣ .

(٦) سورة الأنفال : ٦٠ .

(٧) السيوطى : الإتقان — ٢ : ١٩٥ .

(٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٢٩٢ .

(٩) ابن سعد : الطبقات — ج ٤ ق ٢ : ٦٦ وج ٧ ق ٢ : ١٩١ . الكندى ولاة :

(١٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ١٧٨ .

المسلح الشهير الذى قاده محمد بن أبى حذيفة فى الفسطاط فى شوال ٣٥ هـ [١] . ثم انضم إلى معاوية وحارب معه ضد على فى صفين سنة ٣٧هـ[٢]. وفى ٤٧ هـ أسند معاوية إليه قيادة الأسطول وأمره بالإقلاع من الإسكندرية إلى رودس[٣]. ولسنا ندرى ما إذا كان معاوية قد فعل ذلك جرياً على عادتهم فى تأمير الصحابة دون غيرهم[٤]، أم لأن عقبة كان على علم بشئون القتال فى البحر. وأياً كان الأمر فينسب إلى عقبة أنه أول من نشر الرايات على السفن[٥]. ولما اشترك الشاميون والمصريون فى الهجوم على القسطنطينية سنة ٤٩ هـ كان عقبة هو الذى تولى قيادة المصريين فى هذا الجيش الموحد[٦] .

لم يشترك عبد الله بن عمرو بن العاص فى معارك الفتح فحسب وإنما شغل فيها مركزاً قيادياً كذلك ، فقد كان على مقدمة الجيش العربى فى معركة الكريون التى دارت بين العرب والروم قبل معركة الإسكندرية الأولى (٢٠ هـ) . ويحكى أنه أصابته جراحات كثيرة فى هذه المعركة فالتفت إلى وردان الرومى مولى أبيه — وكان حامل اللواء — فقال له : ياوردان لو تقهقرت قليلا نصيب الروح ! فقال وردان : الروح تريد ؟ الروح أمامك وليس هو خلفك ! وفهم عبد الله لوم العبد اليونانى وتذكيره إياه بنعيم الجنة الذى ينتظر الشهداء فتقدم[٧]. وفى سنة ٢٧هـ اشترك مع ابن أبى سرح فى غزوة أفريقية[٨] . وتذهب أغلب الروايات إلى أنه اشترك فى الفتنة الكبرى بلسانه وسيفه اشتراكاً إيجابياً ، فى جانب معاوية — وبخاصة فى معركة صفين — ضد على[٩] . هذا ، وقد كان عبد الله ضمن القوات المصرية التى هاجمت القسطنطينية عام ٤٩ هـ[١٠] .

---

(١) الكندى : ولاة : ١٤ .

(٢) ابن سعد : الطبقات — ج ٤ ق ٢ : ٦٦ وج ٧ ق ٢ : ١٩١ .

(٣) الطبرى : تاريخ — ٢ : ٨٥ . الكندى : ولاة : ٣٨ .

(٤) السيوطى : حسن — ١ : ٨٣ نقلا عن الإصابة .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم — ١ : ١٢٨ .

(٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٢٦٩ — الطبرى : تاريخ — ٢ : ٨٦ .

(٧) المصدر نفسه : ٧٣ ، ٧٤ .　　(٨) البلاذرى : فتوح البلدان : ٢٦٧ .

(٩) راجع : ابن سعد : الطبقات — ج ٤ ق ٢ : ١٢ ، ج ٧ ق ٢ : ١٨٩ — ١٩٠ . ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٢٦٧ . الطبرى : تاريخ : ١ : ٣٢٥ ، ٣٢٥٣، ٣٢٥٧ . ابن عبد ربه العقد — ٥ : ٢٨٤ . ابن سعيد : المغرب : ٦٣ . (١٠) ابن تغرى بردى : النجوم — ١ : ١٣٥ .

نحن نعلم أن القارئ التابعى أبا تميم الجيشانى اشترك فى فتح طرابلس – وربما فى سائر فتوح إفريقية والنوبة – بعد أن اشترك فى فتح مصر[١] . ولكننا لا نعلم عن زميله عبد الرحمن بن جبير أكثر من اشتراكه فى فتح مصر[٢] .

زار مصر أيام هؤلاء القراء الفاتحين قراء آخرون مشاهير كانت لهم نفس الميول الحربية . فقد شهد عبد الله بن عباس (ظ ما بين ٢٤ – ٣٥ ، ٤٣ هـ/ت ٦٨هـ) فتح المغرب[٣] . فغزا أفريقية مع عبد الله بن سعد سنة ٢٧هـ[٤] ، وكان على ميسرة على يوم صفين سنة ٣٧هـ[٥] ، واشترك فى غزو القسطنطينية سنة ٤٩[٦] . وصرح أبو هريرة (ظ ما بين ٤٧ – ٤٨ هـ/ت ٥٨ هـ) بأنه حصل على ثروته الكبيرة التى حاسبه عليها عمر من مصادر تتفق مع شخصيته كحارب وهى : تربية الخيل ، والعطاء ، وأسهم الغنائم[٧] . أما مجاهد بن جبر (ظ ما بين ٦٠– ٦٢هـ/ت ١٠٤ هـ) فقد اشترك فى غزو رودس سنة ٥٢ هـ . ثم ظل مقيما بها سبع سنين يقرئ الناس القرآن ، وفى خلال ذلك اشترك فى فتح جزيرة أرواد القريبة من القسطنطينية سنة ٥٤هـ[٨] .

وأياً كان الأمر فقد ترتب على اشتغال القارئ بالقتال اعتماده على سيفه بصفة أساسية فى الحصول على قوته . ذلك بأنه كان يخرج من المعارك التى تنتهى بالنصر بنصيب من الغنيمة ولما كانت البلاد التى اشترك فى فتحها بلاداً زاخرة بالكنوز لأنها مهد حضارات عريقة زاهرة فكثيراً ما كان نصيبه فى الغنيمة يبلغ حداً خيالياً . فقد أصاب الفارس – مثلا – فى غزوة أفريقية (٢٧ هـ) ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار[٩] . ولذلك لم يأت العقد الثالث من القرن الأول الهجرى حتى كان المجتمع الإسلامى قد ظهرت فيه طبقة تتكون فى معظمها

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ١٧٢ ، ٢٨٧ .

(٢) ابن حجر : ت . التهذيب – ٦ : ١٥٥

(٣) السيوطى : حسن – ١ : ٩٠ .

(٤) ابن حجر : الإصابة – ٤ : ٩٠ .

(٥) المصدر نفسه – ٤ : ٩ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم – ١ : ١٣٥ .

(٧) البلاذرى : فتوح البلدان : ١٠٠ ، ١٠١ .

(٨) المصدر نفسه : ٢٧٩ . الطبرى : تاريخ – ٢ : ١٦٣ . ياقوت : معجم البلدان – ١ : ٢٢٤ .

(٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ١٨٤ . الكندى . : ولاة : ١٢ .

من الصحابة وتتمتع بثروات هائلة حققتها من غنائم الفتوح مما كان له أبلغ الأثر فى الحوادث السياسية[١] .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن القارئ أصبح ، مثله مثل غيره من المحاربين ، من أهل الديوان عندما قرر عمر سنة ٢٠ هـ تسجيل أسماء المقاتلة فى قوائم خاصة وإجراء مرتبات دائمة لهم ولذرياتهم من بعدهم تعرف باسم العطاء إلى جانب كميات من الغذاء والكساء تعرف باسم الأرزاق[٢] . ويؤخذ من أقدم الأخبار الخاصة بالعطاء أن عمر قسم المسلمين فئات ثلاثا : فئة ممتازة تتقاضى أعلى درجات العطاء وتتكون من أقارب النبى وأزواجه وأهل بدر والمهاجرين والأنصار ، رفئة وسطى تتكون من أفراد يتمتعون بمزايا شخصية مثل المكانة الاجتماعية أو البلاء فى الجهاد أو – وهذا يعنينا – قراءة القرآن ، ثم فئة ثالثة تشمل سائر الناس[٣]. ومع ذلك تذكر إحدى الروايات أن عمر رفض اتخاذ حفظ القرآن أساسا لتقدير العطاء ، وذلك حين فرض سعد بن أبى وقاص وهو على العراق (١٤ – ٢٠ هـ) لمن قرأ القرآن فى ألفين ألفين ، أى جعل مرتب الجندى القارئ ألفى درهم فى العام ، فكتب إليه عمر : « لا تعط على القرآن أحداً »[٤]. يضاف إلى ذلك أن عمر لم ينص على القراء حين كتب إلى عمرو بن العاص بأن يفرض فى شرف العطاء ، أى يعطى أعلى مرتب – وكان مائتى دينار أى ألفى درهم فى العام – لأفراد بأعيانهم يتمتعون بالتفوق فى ناحية ما مثل الإمارة (عمرو بن العاص) ؛ شهود البيعة تحت الشجرة بما هى من علامات السبق فى الإسلام (عبد الرحمن بن عديس البلوى)[٥] . الشجاعة (خارجة بن حذافة العدوى) ، الضيافة (عثمان بن قيس بن أبى العاص) ؛ الصبر على الضيق (عمير بن وهب الجمحى) . البلاء فى الفتوح (يسر بن أبى أرطاة)[٦]. وكان عبد الرحمن بن ملجم قارئا ، وقد كلفه عمر رسمياً

---

(١) راجع : جولد تسيهر : العقيدة والشريعة : ١٣٥ – ١٣٧ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان : ٥٥٠ ، ٥٦٠ ، ٥٦٤ – ٥٦٥ .

(٣) ابن سعد : الطبقات – ج ٣ ق ١ : ٢١٣ – ٢١٤ . البلاذرى: فتوح : ٥٥٠– ٥٥١ .

(٤) البلاذرى : فتوح : ٥٥٨ .

(٥) ابن سعد : الطبقات – ج ٧ ق ٢ : ١٩٠ . ابن عبد الحكم : فتوح : ١٠٧ المسعودى : مروج – ١ : ٤٤٠ . الكندى : الولاة : ١٩ – ٢٠ .

(٦) ابن سعد : الطبقات – ج ٧ق ٢ : ١٩٠ . البلاذرى : فتوح : ٥٥٨ .

تعليم المسلمين القرآن ، ومع ذلك فليس فى أخباره التى تبدو ناقصة وغامضة بصورة ترجع أنها طمست عمداً ما يشير إلى تمييزه أكثر من أن الدولة — إلى جانب خطته مع قبيلته ، وتسهيلا لمهمته — منزلا قريباً من المسجد الجامع حيث كان عليه أن يجلس ليقرئ المسلمين[١]. ويذكر أحد الأخبار أن عمر فرض لسبعة من أهل البصرة ألفين ألفين لما قدموا عليه بعد أن حفظوا القرآن على يدى أمير البصرة أبى موسى الأشعرى (١٧ — ٢٣ هـ)[٢] . والذى نستطيع أن نخرج به من هذا كله هو أن القارئ لم يكن يحصل على العطاء لمجرد كونه قارئا بمعنى أن حفظ القرآن فى ذاته لم يكن يعطى صاحبه الحق فى الحصول على مرتب ثابت من الدولة ؛ وإنما كان فقط يحدد الفئة التى يوضع فيها ، وأياً كان الأمر فالذى لا شك فيه هو أن العطاء كان يشكل مورداً أساسياً ثابتاً لدخل القارئ فى مصر حينذاك يضاف إلى نصيبه من الغنيمة .

وفى بعض الحالات كان للقارئ ثروته الخاصة ، فكان عبد الله بن عمرو — مثلا رجلاً غنياً بحق ، له عبيد وخدم[٣] . واختط فى الفسطاط داراً كبيرة عند المسجد الجامع — أى فى مركز المدينة وأهم أجزائها — وبنى فيها قصراً على تربيع الكعبة الأولى[٤] . وبالرغم من أنه رفض أن يأخذ ساعة احتضار أبيه صندوقاً مملوءاً مالا[٥] ؛ فإنه ورث عنه أموالا عظيمة يكفى أن من بينها بستاناً بالطائف يسمى « الوهط » قدرت قيمته بمليون درهم[٦] . ولولا اضطرار عبد الله إلى أن يكون قريبا من ثروته الطائلة بالحجاز لأقام فى برقة التى كان يرى أنها تمتاز بالسلام والعزلة[٧] . ولحظ التابعى الشامى الكبير عبد الرحمن بن غَنْم الأشعرى (ت ٧٨ هـ) أن عبد الله قد استقر فى مصر ، واتخذ فيها الرباع ، وبنى فيها القصور بالرغم من أنه كان

---

(١) السمعانى : الأنساب : ١٠٤ : ١٠٤ أ . ابن دقماق : الانتصار — ٤ : ٦ .

(٢) ابن سعد : الطبقات — ج ٧ ق ١ : ٨٩ .

(٣) الذهبى : تذكرة الحفاظ — ١ : ٣٦ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح : ٩٧ . (٥) المبرد : الكامل — ١ : ٢٦٧ .

(٦) الذهبى : تذكرة — ١ : ٣٦ . وفى القاموس المحيط ، مادة (وهط) ، أن الوهط بستان ومال كان لعمرو بن العاص بالطائف على ثلاثة أميال من روج — واد بالطائف (القاموس) — كان يعرش على ألف ألف خشبة شراء كل خشبة درهم .

(٧) البلاذرى : فتوح البلدان : ٢٦٤ .

يحدثهم أن مصر أسرع خراباً . ولكن عبد الله سرعان ما بين أنه إنما يقصد ذلك الخراب القديم الذى أنزله بها بختنصر ، أما اليوم فهى أطيب الأرضين ترابا وأبعدها خرابا ، ولن تزال فيها بركة ما دام فى شيء من الأرضين بركة[١] . وإن لنا أن نصدق بعد ذلك كله أن عبد الله كان إذا خرج للحج فى إمرة معاوية لم يخرج وحده بل أخذ معه على نفقته مائة أو ثلثمائة من إخوانه[٢] .

* * *

هذا هو القارئ يمارس أعنف أساليب النشاط العملى بما هو محارب ، ويجد من الاكتفاء الاقتصادى مالا يحتاج معه إلى أحد بل ما يبلغ به درجة الثراء الفعلى . ولكن سلوكه يكشف فى نفس الوقت عن نزعة زهدية واضحة تتمثل فى استعلائه على المال وتحكمه فى مطالبه الشخصية من جهة ، وفى اجتهاده فى العبادة صلاة وصياما وبكاء من جهة أخرى . فمن المعروف أن أبا ذر ، قاطع الطريق السابق ، كان يحمل عداء صريحا للمال بالرغم من أن عطاءه كان أربعة آلاف درهم فى السنة[٣] . وروى المصريون عنه حديثا يحض المسلم على أن يتصدق بما يملك من ذهب ولو كان فى حجم جبل فلا يبقى منه على شيء ولو كان تسع أواق[٤] . ولما اقترحت عليه جاريته أن يدخر شيئا للحاجة أو الضيف أنبأها أن النبى قد أخبره بأن أى مال ، ذهب أوفضة أوكى عليه[٥] ؛فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله[٦] . وقد رفض صداقة أبى موسى الأشعرى لأنه أثرى من الإمارة ، فى حين تقبل صحبة أبى هريرة الذى استعمل فلم يتطاول فى البناء ولم يتخذ زرعا ولا ماشية[٧] . وقد حدد عثمان إقامته فيما بعد بناء على شكوى عامله معاوية الذى اتهمه بأنه « قد

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٣٢ .

(٢) ابن سعد : الطبقات - ج ٤ ق ٢ : ١٢ - أبو نعيم : حلية - ١ : ٢٩١ .

(٣) ابن سعد : الطبقات - ج ٤ ق ١ : ١٦٣ ، ١٦٩ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٢٨٦ .

(٥) أوكى علي: ربط عليه فى وعائه (القاموس) .

(٦) ابن سعد : الطبقات - ج ٤ ق ١ : ١٦٩ .

(٧) نفس المصدر والصفحة . ولايتفق هذا مع مايعرف عن أبى هريرة من أنه أقطع أرضا كانت تعرف باسمه ، وأن عمر عزله عن إمارة البحرين وقاسمه الثروة التى كونها هناك وتتراوح بين عشرة آلاف واثنى عشر ألف درهم ، وأنه أصبح رجلا لينا يلبس الخزوج والديباج والكتان بعدأن كان خادماً أجيراً . انظر : ابن سعد : الطبقات - ج ٤ ق ٢ : ٥٣ ، ٥٨ - ٦٠ والبلاذرى : فتوح البلدان : ١٥ ، ١٠٠ - ١٠١ .

أفسد الناس بالشام » عندما اختلف معه حول تفسير الآية ٣٤ من سورة التوبة التي تنذر من يكنزون المال بالعذاب ، فكان أبو ذر يرى أن العذاب ينال المسلمين وأهل الكتاب على السواء في حين يرى معاوية قصره على رؤساء أهل الكتاب[١].
وهكذا لم يستسلم أبو ذر الصحابي التقشفي لسحر المال الذي انثال مع الفتوح على المسلمين المنتصرين بل أدرك مدى خطورة تكدسه في أيدي أفراد بأعيانهم أو طبقة بعينها على الحياة الاجتماعية فقاومه وتزعم الدعوة نظرياً وعملياً إلى استهلاكه أولا بأول ، ولذلك سوى أحد الأحاديث ، والأرجح أنه متأخر ، في الزهد بينه وبين عيسى بن مريم نفسه[٢]. وكان الصحابي الزاهد يرى بعينه تنافس رفاقه في تكوين الثروات فتنبأ مفاخراً عليهم بأنه سيكون — وفقا لبشارة حديث نبوي — أقربهم مجلساً من النبي يوم القيامة لأنه يخرج من الدنيا كهيئة يوم تركه النبي فيها في حين أنه ما من أحد منهم إلا وقد نشب فيها بشيء[٣].

كان عبدالرحمن بن ملجم من العُبّاد[٤] ، أي من هؤلاء النساك الذين يعكفون على عبادة الله[٥] . وكان في جبهته — مثله مثل سائر القراء « أصحاب الجباه السود »[٦] — أثر السجود[٧] . وابتنى لنفسه في الفسطاط مسجداً خاصاً يتعبد فيه[٨] . ولما هموا بقطع لسانه بعد اغتياله على بن أبي طالب جزع لا لشيء إلا لأنه يكره أن يبقى في الدنيا لا يذكر الله[٩] . ولما رثاه زميله الشاعر الخارجي عمران بن حطان (ت ٨٦ هـ) وصفه بالتقوى ، وعد عمله هذا من الأعمال الصالحة التي يتقرب بها العبد إلى الله . قال :

يا ضربة من تقي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا[١٠]

---

(١) ابن سعد : الطبقات — ج ٤ ق ١ : ١٦٦ . جولد تسيهر : العقيدة والشريعة : ١٣٩ .
(٢) ابن سعد : الطبقات — ج ٤ ق ١ : ١٦٨ . ابن الأثير : أسد الغابة — ٥ : ١٨٧ .
(٣) ابن حجر : الإصابة — ٧ : ٦٢ .
(٤) السمعاني : الأنساب : ١٠٤ أ .
(٥) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة : ١٤٦ .
(٦) الطبري : تاريخ — ١ : ٣٣٢ . فلهوزن : الخوارج والشيعة : ٢٠ حيث يذكرون باسم أصحاب الجباه المعفرة » .
(٧) ابن سعد : الطبقات — ج ٣ ق ١ : ٢٧ . ابن تغرى بردى : النجوم — ١ : ١٢٠ .
(٨) السمعاني : الأنساب : ١٠٤ أ .
(٩) ابن سعد : الطبقات — ج ٣ ق ١ : ٢٦ — ٣٧ . ابن تغرى بردى : النجوم — ١ : ١٢٠ .
(١٠) المسعودي : مروج — ٢ : ٤٣ . ابن تغرى بردى : النجوم — ١ : ٢١٦ — ٢١٧ .

ولى عقبة بن عامر إمرة مصر ، ولابد أنه تقاضى أعلى درجات العطاء بماله من الهجرة والصحبة والسابقة[١] ؛ ولكن سلوكه ظل أقرب إلى الورع ، وغلب التعبد عليه . وهو يعد أصلاً من أهل الصفة الفقراء فقد كان ممن خالطهم . ولما أقطعه معاوية الأرض التى طلبها ليبنى فيها منازل ومساكن ، والتى أصبحت تعرف فيما بعد باسم منية عقبة فى جيزة فسطاط مصر – وهى ميت عقبة حالياً[٢] – أصر عقبة – مخالفاً فى ذلك ناصحيه – على أن تكون أرضا غير مستعملة ولا مملوكة لأحد. وذلك التزاما منه لأحكام العهد بين العرب والقبط الذى ينص فى إحدى مواده على ألا يؤخذ من أرضهم شىء والذى كان عقبة أحد شهوده[٣]. وفى حرص[٤] عقبة على أن يكتب لنفسه مصحفا بيده مظهر آخر لنزعته التعبدية[٥] . ولما خدعه معاوية وعزله عن إمرة مصر فى سنة ٤٧هـ وسيره إلى رودس لم يزد على أن علق فى صبر حليم: « أخلعا وغربة ؟ »[٦]. ولاشك فى أن سارك عقبة الورع التقى بين المصريين – وقد أنفق معهم حوالى ثمانية وثلاثين عاماً (٢٠ – ٥٨ هـ) – هو الذى جعل لهم فيه اعتقادا عظيما – أى حوله إلى شخصية مقدسة عندهم – بعد مماته يزور الخلف عن السلف قبره الذى ليس فى قرافة مصر قبر صحابى مقطوع به إلا هو[٧] .

اجتهد عبد الله بن عمرو فى التعبد اجتهاداً ملحوظاً من أول إسلامه ، فكان من أيام النبى صواما قواما تاليا لكتاب الله[٨] حتى إن أمه شكته إلى النبى بأنه «رجل قد تخلى من الدنيا ، وحرم النوم فلا ينام ، ولا يفطر ، ولا يطعم اللحم ، ولا يؤدى إلى أهله حقهم » ؛ فلامه النبى ونصحه بالاعتدال[٩] . كما نهاه عن أن يختم القرآن فى أقل من ثلاث ، وكان يجد القوة على أن يختمه فى ليلة[١٠] . وكان

---

(١) الكندى : ولاة : ٣٧ . (٢) أبونعيم : حلية – ٢ : ٨ .

(٣) على مبارك : الخطط التوفيقية – ١٦ : ٧٣ . محمد رمزى : القاموس الجغرافى – ج ٢ ق ٢ : ٦٤ . (٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٨٥ – ٨٦ .

(٥) ابن دقماق : الانتصار – ٤ : ١١ عن ابن يونس .

(٦) الكندى : ولاة : ٣٨ . وفى رواية أخرى أنه قال : « ما أنصفنا معاوية . عزلنا وغربنا » (النجوم – ١ : ١٢٨) .

(٧) ابن تغرى بردى ، النجوم – ١ : ١٢٩ .

(٨) الذهبى : تذكرة – ١ : ٣٦ .

(٩) ابن سعد : الطبقات – ج ٤ ق ٢ : ٩ . ابن عبد ربه : العقد – ٢ : ٣٧٥ .

(١٠) ابن سعد: الطبقات – ج ٤ ق ٢ : ١٠ . ابن الجزرى : غاية النهاية – ١ : ٤٣٩ . السيوطى الإتقان – ١ : ٧٥ .

البكاء من أعمال التعبد المحببة إلى عبد الله ، فكان يغلق عليه بابه ويبكي حتى رمصت عيناه ، ولذلك كانت امرأة تدعى أم يعلى بن عطاء تصنع له الكحل يعالج به عينيه[١]. وكان يدعو الآخرين إلى البكاء قائلا : « ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا. فوالذى نفسى بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه »[٢]. فإذا لحظنا أن عبد الله كان على صلة بثقافة أهل الكتاب[٣] كان لنا أن نسلكه فى البكائين أى هؤلاء الزهاد الذين أخذوا « هبة الدموع » عن التصوف المسيحى وراحوا يبكون ندما على ذنوبهم[٤]. وكان نساك أهل البصرة يزورونه[٥]. وبالرغم من أن اشتراك عبد الله فى الفتنة الكبرى قد عرضه للوم الشديد من المصريين مما جعله يستشعر الندم فيما بعد ويقول : « مالى ولصفين ؟ مالى ولقتال المسلمين؟» فقد كان فى الجملة خيرا فاضلا ، يحج ويعتمر ويأتى الشام ثم يرجع إلى مصر[٦] ، يرافقه فى خلال ذلك كله مائة من إخوانه على نفقته !

بقيت لنا إشارات إلى تعبد أبى تميم الجيشانى ، فقد ظل محافظا على أن يركع ركعتين لله حين يسمع أذان المغرب ، مما أدهش زميله التابعى المصرى أبا الخير مرثداً اليزنى (ت ٩٠ هـ) فأخبر عقبة بن عامر الذى اعترف بأنهم كانوا يفعلون ذلك على عهد النبى ولم يصرفهم عنه إلا الشغل[٧]. وأعلن عمرو بن العاص يوما أنه سمع الصحابى أبا بصرة الغفارى يروى أنه سمع النبى يخبر المسلمين أنهم قد زيدوا صلاة الوتر ويأمرهم أن يصلوها ما بين العشاء إلى صلاة الصبح . وفى الحال نهض أبو ذر — وكان ما يزال مقيما بالفسطاط — فأخذ بيد أبى تميم وانطلقا إلى أبى بصرة ، فوجداه جالسا عند أحد أبواب الجامع ، فأكد لهما ما سمع[٨] . وأغلب الظن

---

(١) أبونعيم : حلية : ـ ١ : ٢٩٠ .

(٢) الغزالى : إحياء ـ ١٣ : ٥٧ .

(٣) انظر ص ٣ ، ٧٣ من هذا البحث .

(٤) فيكلسون : فى التصوف الإسلامى : ٤٧ . كارادە فو : دائرة المعارف الإسلامية : مادة : إنجيل ـ مجلد ٢ ص ١٣ . جولد تسهر : العقيدة والشريعة : ١٣٤ .

(٥) ابن سعد : الطبقات : ـ ج ٤ ق ٢ : ١٢ ـ ١٣ .

(٦) ابن سعد : الطبقات ج ٤ ق ٢ : ١٢، ج ٧ ق ٢ : ١٨٩ ـ ١٩٠ ابن سعيد المغرب: الاغتباط : ٦٠ .

(٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٢٨٧ .

(٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٢٩٧ ، ٢٨٤ .

أن الرجلين الورعين قد حرصا على أداء تلك الصلاة منذ ذلك اليوم . ويروى أبو تميم نفسه خبراً عن النبي يحض فيه المسلمين على الاهتمام بصلاة العصر ويعد من يحرص عليها أجراً مضاعفاً[١] . إذا كانت هذه الإشارات تومئ من بعيد إلى تعبد أبي تميم الجيشاني فلا شك فى أن معاصره وزميله فى التعبد[٢] أبا الخير مرثداً كان يرى من اجتهاده فى العبادة ويعرف عنه ما جعله يصفه بأنه « كان أعبد أهل مصر »[٣] .

• • •

إلى جانب نزوع ذلك القارئ المحارب إلى الزهد والتعبد يكشف ساوكه عن نزعة أخرى واضحة إلى العلم . فقد وعى أبو ذر الكثير من حديث النبي ، وكان يتذاكره فى الفسطاط مع أبي تميم الجيشاني[٤] ، كما كان يجلس عند المنبر فى مسجد الفسطاط يحدث به[٥] حتى حفظ المصريون عنه عشرين حديثاً[٦] ذكر بعضها ابن عبد الحكم فى الباب الأخير من كتابه « فتوح مصر » — ص ٢٨٤ وما بعدها — الذى خصصه لتسجيل طائفة من الأحاديث التي رواها أهل مصر عمن دخلها أومر بها من الصحابة . وإذا كان اختلافه مع معاوية على تفسير الآية من سورة التوبة التي سبقت الإشارة إليها ذا مداول اجتماعي فإن له مدلوله العلمي من جهة أخرى . وقرر على بن أبي طالب أن أبا ذر وعى علماً كثيراً كان حريصا عليه[٧] .

وكان عبد الرحمن بن ملجم قد تتلمذ على معاذ بن جبل فى اليمن ، ولم يلبث حتى أصبح من القراء وأهل الفقه[٨] وقد مر بنا أن عمر كلفه تعليم أهل مصر القرآن فى مسجدهم الجامع[٩] .

(١) المصدر نفسه : ١١٤ — ١١٥ ، ٢٨٢ .
(٢) ابن حجر : ت . التهذيب — ١٠ : ٨٢ .
(٣) المصدر نفسه — ٥ : ٣٨٠ .
(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٩٧ ، ٢٨٤ .
(٥) المصدر نفسه : ٢٨٤ .
(٦) السيوطى : حسن — ١ : ١٠١ .
(٧) ابن سعد : الطبقات — ج ٢ ق ٢ : ١١٢ ، ج ٤ ق ١ : ١٧٠ — ١٧١ . ابن الأثير : أسد الغابة — ٥ : ١٨٧ .
(٨) السمعانى : الأنساب : ١٠٤ أ ، ابن دقماق : الانتصار — ٤ : ٦ .
(٩) انظر ص ١٤ من هذا البحث .

ومن القراء الذين أقاموا بمصر إقامة مؤقتة كان عبد الله بن عباس يسمى «البحر» لسعة علمه[١] ، ويلقب « حبر الأمة »[٢] أو « حبر العرب »[٣] ؛ ويتمتع بثقافة متعددة الجوانب[٤] وروى أهل مصر عنه أحاديث[٥] .

أما أبو هريرة الذى وعى كثيراً من حديث النبي[٦] فقد روى المصريون عنه حوالى عشرين حديثاً[٧] من بينها : « مثل الذى يتعلم ولا يعلم كمثل الذى يكنز الكنز ولا ينفق منه[٨] » .

وإلى جانب علم عقبة بن عامر بالقراءة كان عالماً بالفقه ، عالما بالفرائض[٩] . ولما كان قد لازم النبي ملازمة شخصية ، يخدمه ويقود بغلته فى الأسفار[١٠] ، فقد تهيأ له أن يعى الكثير من أقوال النبي وأفعاله . وفطن أهل مصر إلى هذه الميزة لعقبة فنقلوا عنه حوالى مائة حديث[١١] . وأكسب ذلك كله عقبة الجدارة ليكون « مفتى البلد »[١٢] . وأن مصحفه الذى كتبه بيده بخط جيد لشاهد بليغ على مستواه العلمي[١٣] . يضاف إلى ذلك كله أن عقبة كان فصيح اللسان شاعراً[١٤] .

أما عبد الله بن عمرو فهو ألمع قراء ذلك العصر المصريين علمياً ؛ ذلك بأنه استطاع أن يتصل عن طريق السريانية التى كان يعرفها بثقافة أهل الكتاب[١٥] .

---

(١) ابن سعد : الطبقات – ج ٢ ق ٢ : ١٢٠ .

(٢) ابن الجزر : غاية – ١ : ٤٢٥ . جولد تسيهر : مذاهب التفسير :

(٣) ابن حجر : الإصابة – ٤ : ٩٠ .

(٤) ابن سعد : الطبقات – ج ٢ ق ٢ : ١٢٢ ، ١٢٤

(٥) السيوطى – حسن – ١ : ٩٠ .

(٦) ابن سعد : الطبقات – ج ٤ ق ٢ : ٥٤ وما بعدها .

(٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٢٨٠ . ويجعلها السيوطى (حسن – ١ : ١٠٣) ثلاثة وثلاثين حديثاً .

(٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٢٨١ .

(٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٩٥ . الكندى : الولاة : ٣٧ .

(١٠) ابن عبد الحكم : فتوح : ٣٩ . ابن تغرى بردى : النجوم – ١ :

(١١) ابن عبد الحكم : فتوح : ٢٨٧ .

(١٢) المصدر نفسه : ٢٩٤ .

(١٣) ابن دقماق : الانتصار – ٤ : ١١ .

(١٤) الكندى : الولاة : ٣٧ . ابن حجر : ت . التهذيب – ٧ : ٢٤٣ .

(١٥) ابن سعد : الطبقات – ج ٤ ق ٢ : ١١ ؛ ج ٧ ق ٢ : ١٨٩ . الذهبى : تذكرة – ١ : ٣٦ .

وكان يقرأ التوراة مثلما يقرأ القرآن[١] . وفى مصر قرأ كتب دانيال ، وأغلب الظن أنها سفر دانيال أحد أسفار التوراة[٢] . واستأذن النبى فى الكتابة عنه فسجل طائفة من الأحاديث التى سمعها عنه مباشرة فى صحيفة كان يسميها « الصادقة »[٣] . وكانت مكتبته صندوقا له طُخُم (حلق) به قراطيس[٤] . ته قريش عالما ، وكانوا يستشيرونه فى المسائل الغامضة[٥] . واستطاع المصريون أن يحملوا عن هذا الصحابى الطلابة للعلم علما كثيرا[٦] من جملته حوالى مائة حديث[٧] يلفت النظر منها الحديث الذى يقول : « من علم علماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »[٨] . كما رووا مجموعة من أحكام النبى القضائية وأخبار الحوادث المقبلة[٩] . وأن فى ذلك كله ما يجعلنا نوافق على أن عبد الله بن عمرو يعد بحق أحد مؤسسى المدرسة المصرية[١٠] .

كان أبو تميم الجيشانى تلميذ معاذ بن جبل، قد قرأ عليه القرآن فى اليمن[١١] . ثم أصبح من أئمة القراء فى مصر[١٢] ، ومن عباد أهلها وعلمائهم[١٣] .

وقرر ابن لهيعة أن عبد الرحمن بن جبير كان عالما بالفرائض، وكان عبد الله ابن عمرو - ربما بسبب ذلك - به معجباً . كما قرر ابن يونس أنه كان فقيها عالما بالقراءة[١٤] .

---

(١) ابن سعد : الطبقات - ج ١ ق ٢ : ٨٨ . ابن عبد الحكم : فتوح : ٢٥٤ . أبو نعيم : حلية - ١ : ٢٨٦ .

(٢) الطبرى : تاريخ - ٢ : ٣٩٨ - ٣٩٩ .

(٣) ابن سعد : الطبقات - ج ٢ ق ٢ : ١٢٨ ، ج ٧ ق ٢ : ١٨٩ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح : ٢٥٧ .

(٥) الطبرى : تاريخ - ٢ : ٣٩٨ - ٣٩٩ .

(٦) الذهبى : تذكرة - ١ : ٣٦ .

(٧) ابن عبد الحكم : فتوح : ٢٥٤ .

(٨) المصدر نفسه : ٢٥٥ .

(٩، ١٠) المقريزى : الخطط - ٢ : ٣٣٣ . أحمد أمين : فجر الإسلام : ١٩٠ - ١٩١ .

(١١) ابن الأثير : أسد الغابة - ٥ : ١٥٢ . ابن حجر : ت . التهذيب - ٥ : ٣٨٠ . السيوطى : حسن - ١ : ١١٨ .

(١٢) السيوطى : حسن - ١ : ٢٠٧ .

(١٣) المصدر نفسه - ١ : ١١٨ .

(١٤) ابن حجر : ت . التهذيب - ٦ :

٢ – القارئ الثورى

أما بعد – فهذا هو القارئ الذى دخل مصر فى جيش الفتح سنة ٢٠هـ : محارب ، عابد، عالم. وكانت هذه السمات مجتمعة تكسبه شخصية مستقلة يتميز بها عن غيره من زملائه فى الفتح. صحيح أن الكثير من هؤلاء الرجال كانوا محاربين ممتازين، ولعل غير قليل منهم كانوا عباداً مجتهدين ، ولكن القليل جدا منهم كانوا علماء يقرءون ويكتبون ، ويحفظون القرآن ، ويروون الحديث ، ويصدرون الفتوى ، ويتكلمون لغة أجنبية ، ويعرفون التاريخ . ومن هؤلاء القليل كان القراء . ليس هذا فحسب ، بل إن القارئ تميز بجمعه بين هذه الجوانب – وعلى مستوى متفرق – فى شخصيته . فهو محارب ممتاز ، وعابد مجتهد ، وعالم فقيه فى وقت واحد ولما كان القارئ قد قدم مصر بشخصيته مكتملة فقد يكون من المفيد أن نرجع قليلا إلى الوراء لنلقى نظرة سريعة على هذه الشخصية فى بدايتها الأولى .

كان الفرد إذا أسلم وجد الحاجة إلى قدر من القرآن يؤدى به الصلاة المفروضة ويتبين منه شيئا من تعاليم دينه الجديد ، ويكون علامة على إسلامه . وكان النبى نفسه – أو بعض الصحابة مثل أبى بكر[١] وأبى بن كعب[٢] – يتولى إقراء المسلم الجديد هذا القدر المطلوب : سورة الحمد وسورة اقرأ باسم ربك الذى خلق[٣] ، أو سورة مريم[٤] ، أو سورة البقرة[٥] . ولما كان القرآن هو المصدر النظرى الأول للعقيدة والشريعة والسلوك ، فقد كان النبى يحب لكل مسلم أن يعى أكبر قدر منه ، فكان يحضهم على تلاوته ويحبب إليهم حفظه[٦] . غير أن ذلك لم يكن عملا

---

(١) ابن سعد : الطبقات – ٥ : ٣٧٢ .

(٢) المصدر نفسه – ٥ : ٣٧٢ ، ٤٠٦ ، ج ٧ ق ١ : ٢٦ .

(٣) المصدر نفسه – ٥ : ٤١١ .

(٤) المصدر نفسه – ج ٤ ق ١ : ١٧٨ ، ج ٧ ق ٢ : ٩٩ – ٠٠ .

(٥) المصدر نفسه – ج ٧ ق ١ : ٤٨ .

(٦) راجع : البخارى : صحيح : ٦ ، كتاب فضائل القرآن حيث يشبه الحديث رقم ٣٩ ص٣٢٧ من يقرأ القرآن بالأترجة : طعمها طيب وريحها طيب . فى حين يقرر الحديثان ٤٥ ، ٤٦ ص ٣٢٩ أن حفظ القرآن وتلاوته ميزة يحسد عليها صاحبها . كما ينص الحديثان ٤٦ ، ٤٧ ص ٣٢٩ – ٣٣٠ على أن خير المسلمين هو من تعلم القرآن وعلمه . ويعرض السيوطى الموضوع نفسه فى النوع الخامس والثلاثين من الإتقان – ١ : ١٠٤ .

سهلا بسبب طبيعة القرآن المتأبية على الحفظ الدائم من جهة[١]، ومن جهة أخرى بسبب ما يتطلبه ذلك من معرفة القراءة وامتلاك القرآن مكتوبًا أو – فى أقل تقدير – وجود من يقوم بمهمة التحفيظ أو الإقراء[٢]. كما يبدو – من جهة ثالثة – أن استيعاب نصوص القرآن كان يتطلب مستوى ثقافيًا معينا ومرونة لسانية كافية، إذ يروى أن ابن مسعود أقرأ رجلا – لعله كان بدويا ساذجا – : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم »[٣]، فقال الرجل : « طعام اليتيم »، فرد ها عليه فلم يستقم بها لسانه، فقال : أتستطيع أن تقول : « طعام الفاجر ؟ » قال نعم . قال : فافعل فقد كان يتعسر على كثير من العرب التلاوة باللفظ واحد لعدم علمهم بالكتابة والضبط وإتقان الحفاظ[٤]. لذلك كله لانعجب إذا قرر الصحابى أنس بن مالك (ت ٩١هـ) أن الفرد كان يجد – أى يعظم – فى أعين رفاقه إذا قرأ – أى حفظ – البقرة وآل عمران[٥] .

غير أن أفرادا أذكياء يقظين، مرنى التفكير تقدميين، شبانا فى معظمهم، استطاعوا أن يروا الأمور على حقيقتها، ويدركوا أن مرحلة تاريخية قد بدأت، وأن الدين الجديد ليس سوى ثورة شاملة تتناول بالتغيير والتطوير كل شئون الحياة، وأن القرآن هو كتاب هذه الثورة المعبر عنها . فلم يبادروا إلى اعتناق الإسلام – أى الانضمام إلى الثورة – فحسب، بل إلى حفظ القرآن كذلك . بل إن أحدهم – الصبى سلمة الجرمى – قد حفظ كثيرا من القرآن قبل أن يلقى النبى وقبل أن يسلم، حفظه من أفواه الركبان الذين كانوا يمرون بمنازل قبيلته فيذكرون أخبار النبى الذى ظهر فى مكة ويرددون شيئاً من القرآن يقول إنه يوحى إليه[٦] . وتخلى الشاب الوسيم المترف، مصعب بن عمير الهاشمى (ت ٣ هـ) عن طبقته الأرستقراطية فى

---

(١) البخارى : صحيح : ٦ : ٣٣١ – ٣٣٢ ، الأحاديث ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ وفيها يشبه النبى ميل القرآن إلى التسرب من الحافظة بميل الإبل إلى التفلت من العقل .

(٢) كان الأميون يقرأ بعضهم على بعض، أى يقوم كل منهم بدور القارئ فيما يحفظ بالنسبة إلى صاحبه . انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٢٧٢ .

(٣) سورة الدخان : ٤٣ . (٤) السيوطى : الإتقان – ١ : ٤٧ .

(٥) السيوطى : الإتقان – ١ : ٦٦ ، ٢ : ١٧٦ عن مسند أحمد .

(٦) ابن سعد : الطبقات – ج ٧ ق ١ : ٦٣ – ٦٤ .

مكة لينضم إلى الثوار يقاسمهم قسوة النضال، ويدعو إلى الإسلام، ويقرئ الرفاق الجدد القرآن[١] . وقدم عثمان بن أبي العاص على النبي مع وفد قبيلته ثقيف سنة ٩ هـ . ولما كان أصغر الوفد — أو من أصغرهم — سنًّا فقد كانوا يخلفونه على رحالهم يتعاهدها لهم حين يذهبون لمقابلة النبي . فلما رجعوا ظهراً ذات يوم وناموا ذهب الشاب البعيد النظر إلى النبي فأسلم قبلهم سرًّا وكتمهم ذلك . وجعل يتردد على النبي في نفس الموعد يسأله عن الدين ويستقرئه القرآن . فإذا وجده نائماً عمد إلى أبي بكر وإلى أبي بن كعب فسألهما واستقرأهما[٢] . وكان أشجع عبد القيس ، رئيس وفد البحرين إلى النبي ، يحرص على أن يسائل النبي عن الفقه والقرآن ؛ فكان النبي يدنيه منه إذا جلس ،كما كان يأتي أبي بن كعب فيقرأ عليه[٣] . أما فروة ابن مسيك المرادي — وكان رجلا له شرف ، أي أرستقراطيا — فقد انشق على قبيلته وقدم على النبي فأسلم . وكان يحضر مجلس النبي كلما جلس ويتعلم القرآن وفرائض الإسلام وشرائعه . وقال في ذلك الشعر ، فقد كان شاعراً[٤] .

ويبدو أن هناك صلة وثيقة بين أهل الصفة — أولئك الصحابة الفقراء أقاموا بالمسجد إذ لم يكن لهم مساكن ولا عشائر بالمدينة[٥]— وبين حفظ القرآن ، فقد انقطع جماعة من شباب الأنصار إلى النبي ينفقون نهارهم يستعذبون ويحطبون . أي يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد، ويقطعون الحطب فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة — وأغلب الظن أنهم كانوا منهم — والفقراء ، فإذا كان الليل جلسوا في المسجد يقرءون القرآن . ويتدارسون ويتعلمون ، ثم قاموا إلى السواري فأسندوا إليها أعوادهم في صلوات طويلة خاشعة يرتلون فيها ما حفظوا من القرآن[٦] . ويروى

---

(١) المصدر نفسه — ج ٣ ق ١ : ٨١ وما بعدها ، ج ق ٢ : ٢ ، ١٣٦ . ابن حجر : الإصابة — ٣ : ٤٢١ — ٤٢٢ .

(٢) ابن هشام : السيرة — ٢ : ٥٣٧ ، ٥٤٠ . ابن سعد : الطبقات — ٥ : ٢٧٢و ج ٧ ق ١ : ٢٦ . (٣) ابن سعد : الطبقات — ٥ : ٤٠٦ .

(٤) ابن هشام : السيرة — ٢ : ٥٨١ — ٥٨٣ . ابن سعد : الطبقات — ٥ : ٣٨٣ .

(٥) ابن سعد : الطبقات — ج ١ ق ٢ : ١٣ .

(٦) المصدر نفسه — ج ٢ ق ١ : ٣٦ ، ٣٨ . البخاري : صحيح : كتاب المغازي — ٥ : ٢٣٢ . ويلحظ جولد تسيهر في « العقيدة والشريعة » ص ٣٤٣ — ٣٤٤ التشابه بين أعمال هؤلاء القراء الأتقياء وبين أعمال سكان جيمون الذين كلفهم رؤساء بني إسرائيل أن يكونوا محتطبي حطب ومستقي ماء لكل الجماعة ولمذبح الرب . راجع : العهد القديم : سفر يشوع : الإصحاح التاسع ٢١ ، ٢٣ ، ٢٧.

عقبة بن عامر – وهو نموذج جيد لهؤلاء الرجال الملازمين للنبي ، القائمين على خدمته ، المتلقفين لكل ما يصدر عنه من قول وفعل – أنهم كانوا يتعلمون القرآن حينذاك في مسجد المدينة [١].

أطلق المجتمع الإسلامي الناشئ على هؤلاء الرجال اسم « القراء » لأنهم – في رأي ابن خلدون – يقرءون الكتاب وليسوا أميين ، لأن العرب كانوا أمة أمية ، ولأن الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة بما كانوا عربا[٢]. وأبسط من هذا – في رأينا – أن يكونوا استمدوا اسمهم من أنهم « قرءوا » القرآن أي جمعوه أي حفظوه . ونستبعد بناء على ذلك أن سعد بن عبيد الأنصاري ، الشهير بسعد القارئ – أحد من جمعوا القرآن على عهد النبي في رواية الكوفيين واستشهد يوم القادسية سنة ١٦هـ – كان الصحابي الوحيد الذي يسمى القارئ [٣]. يقوى ذلك أن مصعب بن عمير ، أول من أقرأ الأنصار ، كان يسمى المقرئ[٤]. كما أن الصحابي عمير بن عدى الخطمي– أحد أوائل من أسلموا من بني خطمة ، والذي تطوع لقتل الشاعرة المنافقة عصماء بنت مروان – كان يدعى القارئ كذلك[٥]. وإذا كان القراء قد أصبح لهم دار باسمهم في المدينة هي أصلا دار مخرمة بن نوفل ، فإننا نستبعد جدًّا أن يكون عبد الله بن أم مكتوم قد نزل هذه الدار حين قدم المدينة قبل هجرة النبي أو– في رواية أخرى – بعد بدر بيسير [٦] ، فإن إقامة القراء في المسجد مع أهل الصفة حتى غزوة بئر معونة سنة ٤ هـ[٧] على الأقل ينفي وجود تلك الدار في ذلك العهد المبكر .

ويلفت النظر أن هؤلاء المسلمين الذين حرصوا على حفظ القرآن وأمكنهم ذلك لم يصبح لهم كيان متميز ، ولم يحملوا اسما خاصًّا إلا في المدينة . وبالرغم من أن الروايات تختلف في عدد الذين أفلحوا في حفظ القرآن كله على عهد النبي فتنزل

(١) ابن عبدالحكم : فتوح مصر : ٢٩١ .
(٢) ابن خلدون : المقدمة : ٣٧٢ ، ٤٧٧ .
(٣) ابن سعد : الطبقات – ج ٣ ق ٢ : ٣٠ ، ج ٤ ق ٢ : ٨٨ .
(٤) ابن هشام : السيرة – ١ – : ٤٣٤ .
(٥) المصدر نفسه – ٢ : ٦٣٦ – ٦٣٨ .
(٦) ابن سعد : الطبقات – ج ٤ ق ١ : ١٥٠ – ١٥١ .
(٧) المصدر نفسه – ج ١ ق ٢ : ١٣ ، ج ٢ ق ١ : ٣٨ .

بهم إلى أربعة وترتفع إلى عشرين ، فإن معظم من تتكرر أسماؤهم فى هذه الروايات مدنيون أصلا ، ومن أشهرهم ؛ معاذ بن جبل (ت ١٨ هـ) ، أبى بن كعب (ت ٣٠ هـ) ، أبو الدرداء (ت٣٢ هـ) ؛ زيد بن ثابت (ت ٤٥ هـ)[١].
ولا يمكن أن يكون ذلك مصادفة ولامن صنع الروايات على أى حال ، فلا شك فى أن الدين الجديد قد استطاع أن يجد فى بيئة المدينة ذات الثقافة المتأصلة — سواء كانت ثقافة عامة أو دينية — الأفراد المثقفين القادرين على أن يفهموا كتابه المقدس ويحفظوه ويسجلوه . ولسنا نستبعد أن يكون هؤلاء القراء هم الصورة الإسلامية لرجال الدين اليهودى القائمين على حفظ التوراة .

وأيًّا كان الأمر فإن هؤلاء القراء المستنيرين الذين بادروا إلى الانضمام إلى الثورة متخلين فى بعض الحالات عن طبقتهم (مصعب بن عمير — فروة بن مسيك) يعيدون إلى الذهن ما يلحظ فى الثورات الكبرى من ظاهرة تخلى بعض المثقفين عن طبقاتهم وما يربطهم إليها من مصالح ، وانضمامهم إلى الثورات ، ومكابدتهم أحوالها ، وعملهم المخلص على إنجاحها . وذلك بأن المثقف الحقيقى يكرن عادة شخصا تقدميا ، يؤمن بالتطور ، ويعمل له ، ويساعد عليه ، ويضحى من أجله .
وكان الإسلام ثورة تعمل على تغيير المجتمع وتطويره اقتصاديًّا وطبقيًّا وسياسيًّا ودينيًّا طبقاً لأنظمة وعلاقات ومبادئ وعقائد جاءت بها حلا للتناقضات الحادة التى كانت تعتمل فى كيان المجتمع العربى بخاصة والإنسانى بعامة حينذاك[٢] . وكان سهلا على القارئ ، بفضل ثقافته ومرونته العقلية وسعة أفقه ، أن يستجيب لهذه الثورة ، ويهضمها ، ويدرك أنها السبيل السليم إلى إصلاح المجتمع . ولمس النبى فى القراء هذه النزعة التقدمية ، والإخلاص للدين الجديد ، إلى جانب التفوق الثقافى ، فاتخذ منهم طليعة فكرية يدعون للثورة ، ويبشرون بها ، ويقرئون كتابها ، ويلقنون تعاليمها . فكيف قام القراء بهذه المهمة ؟

كان على الفرد إذا أسلم أن يحفظ شيئاً من القرآن ، ويتعلم كيف يصلى ويصوم ويؤدى الزكاة ، ويعرف ماذا يحل له وماذا يحرم عليه . أى أنه كان عليه أن يعدل

---

(١) ابن سعد : الطبقات — ج ٢ ق ٢ : ١٢ ١ — ١١٣ — البخارى : صحيح — ٦ : ٣٢٠— ٣٢٢ . ابن النديم : الفهرست : ٢٧ . السيوطى : الإتقان ١ : ٧٠ — ٧٢ .
(٢) تناولت هذه المسألة فى مدخل كتابنا « القبائل العربية فى مصر » ص ٣٩ — ٤٥ .

سلوكه فى كل من المجال الغذائى والجنسى والفكرى والاجتماعى بحيث يصبح مطابقا للمقاييس التى يحددها الدين الجديد . وكان النبى يتولى بنفسه هذا الجانب الهام من الثورة ، وقد مر بنا كيف كان يقرئ المسلمين الجدد القرآن ويعلمهم الدين[١] . فلما زاد عدد المنضمين إلى الثورة ، أى المسلمين ، وتباعدت أماكنهم ، لم يجد النبى أكفأ من القراء يمثلونه وينوبون عنه فى ممارسة ذلك العمل الخطير الذى لم يكن شيئا آخر سوى إعادة بناء شخصية الفرد العربى وإعادة تخطيط المجتمع العربى فى وقت واحد . فكان عبد الله بن مسعود أول من أفشى القرآن من فى رسول الله[٢].

وكتب أهل المدينة إلى النبى بعد العقبة الأولى أن « ابعث إلينا رجلا يفقهنا فى الدين ويقرئنا القرآن » ، فبعث إليهم مصعب بن عمير الذى كان يأتى المدنيين فى دورهم وقبائلهم فيدعوهم إلى الإسلام ويقرأ عليهم القرآن، فيسلم الرجل والرجلان، حتى ظهر الإسلام وفشا فى دور الأنصار كلها تقريبا . ثم كان مصعب يقرئهم القرآن ويعلمهم . ولما كره الأوس والخزرج أن يؤم بعضهم بعضا كان مصعب يصلى بهم[٣]. وفى أحد الأقوال أن عبد الله بن أم مكتوم ، الصحابى الضرير ، زامل مصعبا فى هذه المهمة[٤].

ومنذ أن خرج المهاجرون الأولون من مكة قبل خروج النبى ظل سالم مولى أبى حذيفة – ذلك المسلم الاصطخرى الذى لم يكن يعرف له نسب – يؤمهم فى الصلاة حتى بلغوا المدينة –وكان فيهم عمر بن الخطاب – لا لشىء إلا لأنه كان أقرأهم أى أكثرهم قرآنا ، فقد كان رابع أربعة أمر النبى المسلمين أن يأخذوا القرآن منهم[٥].

وفى المدينة كان أبى بن كعب ، الذى شهد له النبى بأنه أقرأ أمته والذى كان النبى نفسه يقرأ عليه، خير الصحابة استعداداً لتعريف من يدخلون حديثا فى الإسلام

---

(١) انظر ص ١٠٨ ، ١٠٩ من هذا البحث.
(٢) ابن سعد : الطبقات – ج ٣ ق ١ : ١٠٧.
(٣) ابن هشام : السيرة – ١ : ٤٣٤ – ٤٣٥ ، ابن سعد الطبقات – ج ٣ ق ١ : ٨٣ ، ج ٣ ق ٢ : ٢ ، ١٣٦.
(٤) المصدر نفسه – ج ٤ ق ١ : ١٥١.
(٥) المصدر نفسه – ج ٢ ق ٢ : ١١٠ – ١١١ ، ج ٣ ق ١ : ٦١.

– عن طريق التعليم – بنجوم الوحى القرآن . وقد مر بنا أمثلة لمسلمين جدد تتلمذوا على ذلك القارئ الذى أصبح من أعظم المعلمين مقاما فى أقدم طبقة إسلامية[١] .

وفى سنة ٣ هـ ، بعد غزوة أحد مباشرة : قدم على النبى جماعة من قبائل عضل والقارة فقالوا : « إن فينا إسلاما فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا فى الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام » . فأرسل النبى معهم عشرة أو ستة من أصحابه لابد أنهم كانوا قراء . غير أن رجال القبائل غدروا بهم وقتلوهم عند ماء لهذيل بناحية الحجاز يعرف باسم « الرجيع » . وأشار القرآن إلى ذلك الحادث فى الآيات ٢٠٤ – ٢٠٧ من سورة البقرة[٢] .

وبعد حوالى ثلاثة أشهر (صفر ٤ هـ) تعرض القراء لكارثة مماثلة عند بئر فى الجبال على الطريق من المدينة إلى مكة تعرف باسم بئر معونة . ذلك أن النبى وجه المنذر بن عمرو الأنصارى – وكان يكتب بالعربية قبل الإسلام – على رأس سرية من أربعين أو سبعين قارئا يدعون أهل نجد إلى الإسلام ويقرئونهم القرآن ويعلمونهم السنة ، فباغتهم المشركون عند بئر معونة وذبحوهم جميعا إلا واحدا . ولما كان فقدان مثل ذلك العدد الكبير من المسلمين الممتازين يعد خسارة جسيمة للثورة فقد حزن النبى حزنا شديداً حتى لقد لحظ أصحابه أنه لم يجد على قتلى ما وجد على قتلى بئر معونة . ونظراً لخطورة الحادثة ، وتهدئة للخواطر الثائرة فى المدينة ، أشار إليها القرآن فى آية تقول : « بلغوا قومنا عنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه »[٣] . ثم رفعت هذه الآية أو نسيت وأنزل بدلا منها : « ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » (آل عمران : ١٦٩) . ليس ذلك فحسب بل لقد ظل النبى شهراً كاملا يقنت فى صلاة الصبح على قتلة هؤلاء الشهداء ، فكان ذلك بدء القنوت[٤] .

---

(١) المصدر نفسه – ج ٣ ق ٢ : ٥٩ . جولد تسيهر : مذاهب التفسير : ١٦ – ١٧ . وانظر ص ١١٠ من هذا البحث .

(٢) ابن هشام : السيرة – ٢ : ١٦٩ – ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٥ . ابن سعد : الطبقات – ج ٢ ق : ٣٩ – ٤٠ ، ج ٣ ق ٢ : ٣٣ – ٣٤ .

(٣) ذكرت هذه الآية فى المراجع المختلفة باختلافات طفيفة .

(٤) بالرغم من أن لامنس (دائرة المعارف الإسلامية : مادة بئر معونة – ٤ : ٣٨٦ – ٣٨٧) يؤكد صحة هذه الواقعة تاريخياً استناداً إلى المغازى وإلى المصادر المقارنة فإنه يتشكك فى عدد القراء الذى=

ولما كان القوم يؤمهم أكثرهم قرآنا فقد كان معاذ بن جبل مع النبي ثم يجيء فيؤم قومه . ولما خرج النبي إلى حنين (٨ هـ) خلّفه بمكة يفقه أهلها ويقرئهم القرآن ثقة منه فى علمه واطمئنانا إلى حسن معرفته بالدين . بل إن النبي حين أراد أن يرسل إلى أهل اليمن — وهم قوم ذوو ثقافة دينية قديمة ومستوى فكرى مرتفع — معلماً يعلمهم الدين الجديد وعاملا يحكمهم ويقضى بينهم لم يجد خيراً من معاذ القارئ الشاب العالم . فأرسله إليهم على رأس وفد سنة ٩ هـ مع كتاب يقول فيه لليمنيين إنه قد أرسل إليهم من خير أهله أكثرهم علماً وديناً [١] .

رأينا أن الشاب عثمان بن أبى العاص حين قدم مع وفد ثقيف على النبي سنة ٩هـ أبدى حرصا غير عادى على الإسلام ، فقد سبق زملاءه أعضاء الوفد إلى اعتناق الدين الجديد ثم جعل يبذل جهداً ملحوظا فى حفظ القرآن والوقوف على تعاليم الدين وأحكامه . وأعجب النبي بهذا الشاب المتحمس وأحبه . وشهد أبو بكر له عند النبي بأنه قد رآه من أحرص الوفد على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن . ولما طلب

= تذكرة الروايات ، إذ لم تكن هناك حاجة تتطلب سبعين قارئاً لتحفيظ القرآن ، بل لاشك فى أنه لم يكن فى المدينة حينئذ مثل هذا العدد . وكان النبي فى مثل هذه الأحوال لايرسل سوى قارئ أو اثنين فقط . ويفسر لامنس الحادثة بأنها كانت حملة عسكرية فعلا تتكون من سبعين فارساً من الأنصار أرسلهم النبي ليتدخلوا فى النزاع بين الزعيمين العربيين المتنافسين : أبى براء عامر بن مالك — وكان سيد بنى عامر بن صعصعة — وعامر بن الطفيل الكلابى . فغدر بهم هذا الأخير الذى أصبح محل لعنة الروايات منذ ذلك الوقت . ثم اخترع المحدثون هذه القصة لتغطية تلك الحملة التى خانها التوفيق والتى كانت أشد ماابتلى به النبي بعد أحد ، ولإثبات كثرة عدد القراء وشدة قدميهم وإسباغ القداسة عليهم . ومهما كان الرأى فى نقد لامنس فإنه لاينفى اشتراك القراء فى هذه الحملة ، وهو ما يهمنا من وجهة نظرنا الحالية . غير أننا نلحظ أن ابن هشام — وهو أقدم مصادر الحادثة — لم يتحدث عن فرسان هذه الحملة بما هم قراء ، بل اكتفى بأن وصفهم بأنهم « من خيار المسلمين » . وبالرغم من أن كل المصادر قد تحدثت عن القرآن الذى نزل فيهم ثم نسخ فقد صمت ابن هشام عنه صمتا كاملا . أما الآية ١٦٩ من سورة آل عمران — يذكر لامنس خطأ أنها رقم ١٦٣ — التى ذكر الطبرى فى تاريخه أنها حلت محل الآية المنسوخة أو المنسية ، وذكر فى تفسيره رواية تقول بنزولها فى أهل بئر معونة ، فالصحيح أنها نزلت فى قتلى أحد ، وهو القول المعتمد عند أهل العلم . راجع : ابن هشام : السيرة — ٣ : ١٨٤ — ١٩١ . ابن سعد الطبقات — ج ٢ ق ١ : ٣٦ — ٣٩ ، ج ٣ ق ١ : ٩ ، ج ٣ ق ٢ : ١ ٧ — ٧٢ . البخارى : صحيح كتاب المغازى — ٥ : ٢٢١ ، ٢٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ . الطبرى : تاريخ — ١ : ١٤٤١ — ١٤٤٨ . دائرة المعارف الإسلامية — ٤ : ٣٨٦ — ٣٨٨ .

(١) ابن هشام : السيرة — ٢ : ٥٩٠ . ابن سعد : الطبقات — ج ٢ ق ٢ : ١٠٨ . ج ٣ ق ٢ : ١٢١ — ١٢٣ . ج ٧ ق ٢ : ١١٤ .

شيوخ ثقيف إلى النبي أن يجعل عليهم أميراً لم يتردد فى تأمير عثمان على صغر سنه قائلا : إنه كيس . وقد أخذ من القرآن صدراً . ومنذ تلك اللحظة ظل عثمان يحكم أهل الطائف و—كجزء أصيل من عمله — يصلى بهم ويقرئهم القرآن[١] .

ويعد فروة بن مسيك مثالا آخر للقارئ الذى ولى الحكم . فقد استعمله النبى على مراد وزبيد ومذحج كلها بعد أن قدم عليه سنة ١٠ هـ فأسلم وتعلم القرآن وفرائض الإسلام وشرائعه[٢] .

ويوضح الكتاب الذى كتبه النبى لعمرو بن حزم بتوليته على بنى الحارث بن كعب بنجران سنة ١٠ هـ الواجبات التى كان النبى يكلف عماله القراء إياها . ومن أهمها : تبشير الناس بالخير وأمرهم به — تعليم الناس القرآن وتفقههم فيه — نهى الناس فلا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر — إخبار الناس بالذى لهم والذى عليهم — تبصير الناس بالجنة وبعملها ، وإنذارهم النار وعملها — استئلاف الناس حتى يفقهوا فى الدين — تعليم الناس معالم الحج وسننه وفريضته — تعليم الناس الوضوء والصلاة — أخذ خمس الله من المغانم — . . . [٣] .

هذا هو القارئ إذن . شخص مستنير ، مخلص للدين الجديد ، متحمس له . ولذا عهد إليه النبى بدعوة الناس إلى هذا الدين ، وتحفيظهم كتابه ، وتعليمهم أصوله . كما أسند إليه قيادتهم روحيا فى الصلاة وزمنيا فى الحكم . فهو داعية ، ومعلم ، وإمام ، وحاكم . فإذا أضفنا إلى ذلك أنه كان يقضى بين الناس ويفتيهم (معاذ بن جبل — أبىّ بن كعب — زيد بن ثابت)[٤] تبين لنا أنه يقوم فى المجتمع الإسلامى الناشئ بدور قيادى يتولى فيه توجيه الناس ، وتعديل سلوكهم ، وصياغة تفكيرهم ، وتشكيل قيمهم وفقا لتعاليم الدين الجديد . ويلحظ أن هذا الدور ذو طبيعة فكرية ، وأن صلاحية القارئ للاضطلاع به صلاحية فكرية ترجع إلى معرفته الصحيحة بالدين الجديد وكتابه ، أى معرفته بنظرية الثورة. ومن الواضح

---

(١) ابن هشام : السيرة — ٢ : ٥٣٧ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ . ابن سعد : الطبقات — ج ٥ : ٣٧٢ — ٣٧٣ ج ٧ ق ١ : ٢٦ .

(٢) ابن هشام : السيرة — ٢ : ٥٨٣ . وابن سعد : الطبقات — ٥ : ٣٨٢ .

(٣) ابن هشام : السيرة — ٢ : ٥٩٤ — ٥٩٦ .

(٤) ابن سعد : الطبقات — ج ٢ ق ٢ : ١٠٧ — ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٥ . ووصف النبى معاذ بن جبل بأنه أعلم أمته بالحلال والحرام . أما زيد بن ثابت فهو أعلمهم بالفرائض .

أن وظيفة الحكم لم تسند إليه بما هو أدهى الناس وأقدرهم على سياسة الجماهير ولكن بما هو أعلم الناس بالعقيدة الجديدة وما ينبغى أن يكون بالنسبة إليها. ونظرة إلى المهام التى كان يطلب إليه إنجازها على ما يعرضها كتاب العهد الخاص بعمرو بن حزم تبين أنها مهام تدخل فى اختصاصه كقارئ أكثر جداً مما تدخل فى اختصاصه كحاكم، بحيث نستطيع أن نقرر أن دور القارئ فى هذه المرحلة المبكرة من الثورة الإسلامية كان دراسة نظرية هذه الثورة، وشرحها وتعليمها للآخرين والإشراف على تطبيقها فى بعض الأحيان.

• • •

على أن ذلك لم يكن كل شيء فإن ضرورة تأمين الثورة ضد مؤامرات الرجعية الوثنية التى كانت تزداد على الزمن ضراوة حتمت نقل مركز الثورة أو مقر قيادتها من مكة إلى المدينة حيث كانت قد كسبت أنصاراً جدداً أقوياء أغنياء مستنيرين. وبذلك أفلتت من الحصار الرجعى الذى كان يوشك أن يخنقها، ووجدت مجالا واسعاً للحركة، وكسبت قدرة على الضرب، فلم تلبث حتى أنهت مرحلة المقاومة السلبية لتبدأ الكفاح الإيجابى الذى سرعان ما تحول إلى صراع مسلح. وهنا كان على القارئ أن يحمل السيف فى نفس الوقت الذى ينحنى فيه فوق القرآن، ويخوض الصراع المسلح جنبا إلى جنب مع الصراع الأيديولوجى. فكان لواء رسوله الله الأعظم، لواء المهاجرين، مع مصعب بن عمير يوم بدر (٢ هـ)[١]. وفى معركة أحد (٣ هـ) حمل اللواء كذلك، وظل متشبثا به بالرغم من ضربة بالسيف وطعنة بالرمح حتى قتل وهو يردد: « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا. وسيجزى الله الشاكرين »[٢]. وتأثر النبى لمنظر الشاب الأرستقراطى الذى ضحى بحياته. بعد أن قد ضحى بطبقته، فى سبيل الثورة، وهو صريع على وجهه فى التراب، فوقف يتلو: « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا »[٣]. ثم قال: إن رسول الله يشهد أنكم

---

(١) ابن سعد: الطبقات – ج ٣ ق ١ : ٨٥.
(٢) آل عمران: ١٤٤.
(٣) الأحزاب: ٢٣.

الشهداء عند الله يوم القيامة[١] . ومثلما كان القرآن ميزة لحافظه فى الحياة استمر كذلك عند الموت ، ذلك بأن النبى أمر عند دفن شهداء أحد بتقديم أكثرهم قرآناً[٢] . ومن مشاهير القراء الذين شهدوا المشاهد كلها مع النبى ، أى خاضوا إلى جانبه جميع المعارك المسلحة ضد الرجعية الوثنية ،كان : معاذ بن جبل [٣] ، وسعد ابن عبيد[٤] ، وعبد الله بن مسعود[٥] ، وعبادة بن الصامت[٦] . وكان للقراء أثر حاسم فى تحويل هزيمة حنين المبدئية (٨ هـ) إلى نصر ، فعندما كان المسلمون يفرون منهزمين نادى مناد : « يا أصحاب سورة البقرة » ، فأقبل هؤلاء الذين يحفظونها – أى القراء – بسيوفهم كأنها الشهب ، فهزم الله المشركين[٧] .

خرجت الثورة من هذا الصراع المسلح منتصرة ، قد آمنت بها الجماهير ، وانتشر سلطانها على شبه الجزيرة ، وأعلنت الرجعية الوثنية الأرستقراطية استسلامها . غير أن استسلام الرجعية كان ظاهرياً؛ فالواقع أنها كانت تتحين الفرصة المناسبة لتثب على الثورة وتضربها . وحانت هذه الفرصة عندما مات النبى ، واضطرب المسلمون، وظن أن النظام سينهار باختفاء مؤسسه . فأعلنت الرجعية تمردها ، وخلعت سلطان الثورة ، وأوقفت العمل بقوانينها . غير أن الثورة كانت فى خلال أعوامها الثلاثة والعشرين قد أحدثت تغييراً فعليا فى تفكير الناس ، ودخلت بهم مرحلة تطورية جديدة بحيث لم يكن من السهل ولا من الممكن إرجاع عجلة التاريخ إلى الوراء ، وإيقاف التطور والإبقاء على أسس ومفاهيم المجتمع الوثنى الجاهلى . فلجأت الرجعية إلى خداع الجماهير بتزييف الثورة أى صنع ثورة مضادة ذات طابع دينى مزيف يستهوى الجماهير ويصرفها عن الثورة الحقيقية ، يحقق فى غفلة منها المصالح الرجعية ويبقى عليها ، ووجدت الرجعية العملاء اللازمين للقيام بهذه الحركة التى

---

(١) ابن سعد : الطبقات – ج ٣ ق ١ : ٨٥ – ٨٦ ، السيوطى : الإتقان – ١ : ٣٥ .

(٢) ابن هشام : السيرة – ٢ : ٩٨ ابن سعد : الطبقات ج ٣ ق ١ : : ٧ ، ٨ ج ٣ ق ٢ : ١٠٦ .

(٣) ابن سعد : الطبقات – ج ٣ ق ٢ : ١٢١ ، ج ٧ ق ٢ : ١١٤ .

(٤) المصدر نفسه – ج ٣ ق ٢ : ٣٠ .

(٥) المصدر نفسه – ج ٣ ق ١ : ١٠٨ . ابن حجر : ت . التهذيب – ٦ : ٢٧ .

(٦) ابن سعد : الطبقات – ج ٣ ق ٢ : ٩٤ ، ج ٧ ق ٢ : ١١٣ . ابن حجر : الإصابة – ٢ – : ٢٦٨ .

(٧) ابن هشام : السيرة – ٢ : ٤٤٣ وما بعدها . ابن سعد : الطبقات – ج ٢ ق ١ : ١٠٨ ، ١١٣ .

عرفت باسم « الردة » فى أولئك الأنبياء الكذبة الذين اخترعوا عقائد جديدة ، وابتدعوا قرآناً جديداً ، وبشروا بتعاليم جديدة ، و – فى كلمة – زيفوا إسلاماً جديداً يتمشى فى الظاهر مع روح العصر الجديد الذى بدأ ، ويمتص الطاقة الثورية التى فجرها الإسلام الحقيقى فى الناس ، ويستهدف فى الباطن الإبقاء على الأوضاع القديمة مغلفة بقشرة عصرية . وبادر القائد الجديد الذى انتقلت إليه مسئولية المحافظة على الثورة (أبو بكر) إلى ضرب المؤامرة الرجعية فى معارك ضارية دارت رحاها فى اليمامة ، وديار تميم شمالى الجزيرة ، والبحرين ، وعمان ، وحضرموت ، واليمن[١] ويبدو أن القراء كانوا يحسون بماهم طليعة للثورة أنهم أكبر من غيرهم مسئولية فى المحافظة عليها وينبغى أن يكونوا قدوة محتذاة فى التضحية فى سبيلها ، فاستماتوا فى هذه المعارك التى تعد معركة اليمامة التى دارت سنة ١١ هـ بين بنى حنيفة قبيلة مسيلمة النبى الكاذب ، وبين قوات الثورة نموذجاً لها . فيروى مثلا أن أحد القراء أهاب بزملائه فى هذه المعركة أن يطبقوا العلم على العمل هاتفاً : « يا أهل القرآن : زينوا القرآن بالفعال » ، ثم هجم على الأعداء واستشهد[٢] . وقتل عبدالله بن حفص بن غانم صاحب الراية فأسلموها لقارئ اسمه سالم بن عبد الله . وأدرك سالم أنهم لم يختاروه اعتباطاً فقال لهم : ما أعلمنى لأى شىء أعطيتمونيها ! قلتم : صاحب قرآن وسيثبت كما ثبت صاحبها قبله حتى مات . ولم يحاول الجنود إنكار حقيقة هدفهم بل قالوا : أجل ، فانظر كيف تكون . فقال سالم وهو يدرك المستوى الذى يفرضه عليه كونه من القراء ، والذى ينتظر منه بما هو من القراء ، بئس والله حامل القرآن إن لم أثبت[٣] . ولعل سالماً هذا هو نفس سالم مولى أبى حذيفة الذى تذكر إحدى الروايات أنه التقط الراية عندما وقعت لما قتل حاملها زيد بن الخطاب ؛ فقال له المسلمون : ياسالم إنا نخاف أن نؤتى من قبلك . فقال : بئس حامل القرآن أنا إن أوتيتم من قبلى[٤] . كما تذكر رواية أخرى أنه لما انكشف المسلمون فى هذه المعركة العصيبة قال سالم هذا وقد ثار به الغضب والأنفة : ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله (صلعم) . ثم حفر لنفسه حفرة فى أرض المعركة وقام فيها ومعه راية

---

(١) بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ١ : ٩٩ – ١٠٦ .

(٣ ، ٢) الطبرى : تاريخ – ١ : ١٩٤٥ .

(٤) ابن سعد : الطبقات – ج ٣ ق ١ : ٢٧٤ .

المهاجرين ، ظل يقاتل وهو فى معتقله ذاك حتى استشهد[١] . وأيًّا كان الأمر فيؤخذ من هذه الروايات أن القراء اضطلعوا فى هذه المعركة بتلك المهمة القاسية التى تتطلب الصبر والثبات والاستماتة ، مهمة حمل اللواء . وإذا كانت معركة اليمامة لم تقرر مصاير بنى حنيفة المتمرد ين فحسب بل مصاير العرب على الجملة ، فإن القراء كانوا هم العامل الحاسم فيها . ذلك بأن المسلمين انكشفوا وأشرفوا على الهزيمة وهم يقاتلون قوات الرجعية التى تفوقهم عدداً . وهنا أدرك القراء – وكانوا – حوالى ثلاثة آلاف فيما تزعم الرواية – العار والمصير الرهيب الذى ينتظر المسلمين وثورتهم المجيدة إذا هزموا ، فانسحبوا من بين المسلمين العاديين ، وانضم بعضهم إلى بعض وكونوا ما يشبه أن يكون كتيبة مستقلة منهم ، ثم صدقوا الحملة وقاتلوا قتالا شديداً كانوا يتنادون فى خلاله : « يا أصحاب سورة البقرة » . وكأنما يذكر بعضهم بعضا بمسئوليتهم كقراء . ولم يزل ذلك دأبهم حتى فتح الله عليهم ، وولى جيش الكفر فاراً ، وأتبعتهم السيوف المسلمة فى أقفيتهم قتلا وأسراً . وهكذا كسب القراء تلك المعركة الفاصلة للمسلمين ، وحولوا هزيمتها الموشكة إلى نصر ساحق ، ولكنهم دفعوا الثمن غاليا من مهجهم ، فقد استشهد منهم – فيما تزعم الرواية كذلك ، وهو زعم كالأول مبالغ فيه لاشك – حوالى خمسمائة ولكن الذى لاشك فيه هو أن هذه المعركة التهمت العدد الأكبر من القراء حتى إن عمر هاله الأمر وقرر أنهم لن يلبثوا حتى ينقرضوا إذا سار الموت فيهم بهذا المعدل الرهيب ، فيضيع بالتالى – وهنا الخسارة الحقيقية – القرآن الذى تحفظه صدورهم ، فأسرع إلى أبى بكر يقترح عليه أن يدون القرآن[٢] .

بسحق المؤامرة الرجعية أكملت الثورة انتصارها محليًّا ، وتخلصت من الخطر الداخلى وبسطت سيادتها على شبه الجزيرة حيث تجمعت لأول مرة داخل إطار واحد كل القوى المختلفة المتعارضة المتناقضة التى كانت مبعثرة فى أرجائها لتنشئ المجتمع الإسلامى الجديد . وبالرغم من المتناقضات الداخلية التى ولد بها هذا

(١) المصدر نفسه – ج ٣ ق ١ : ٦١ – ٦٢ .

(٢) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية – ١ : ١٠٣ .

(٣) أبوعبيد : فضائل القرآن : ٣٥ – ٣٦ . السجستانى : المصاحف : ٦ – ٨ . ابن كثير : فضائل القرآن : ٢٤ – ٢٥ .

المجتمع فإنه أصبح بشكل تكوينا ثوريا تقدميا فى عالم ذلك العصر يتناقض بدوره – ككل – تناقضا حاداً مع المجتمعات الرجعية المحيطة به فى فارس : والشام وبيزنطة ، ومصر ، وأفريقية ، والحبشة . ونتيجة لهذه التناقضات الداخلية والخارجية ، وحلاً لها لم تكد الثورة تفرغ من تصفية الرجعية المحلية حتى اشتبكت مع الرجعية الخارجية فى صراع عنيف غطى ربع القرن الثانى تقريبا . وانتهى هذا الصراع الذى عرف باسم « الفتوح » بانتصار الثورة الإسلامية وفرض سيادتها على معظم الأنظمة الرجعية فى الخارج .

كان عمر ، القائد التالى للثورة ، مناضلا قديما ، انضم إلى الثورة أيام الهجرة الأولى إلى الحبشة[1] ، وعاش مراحلها التالية ، وعاصر أحداثها ، وخاض معاركها . وكان عمر يقرأ ويكتب[2] . ويتمتع بتفوق فكرى مكنه أن من ينفذ إلى روح الثورة ، ويدرك اتجاهاتها ، ويبدى الرأى السليم فى شئونها حتى لقد نزل القرآن فى أكثر من مناسبة مطابقا لوجهة نظره ، فكان النبى يقول : «إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به »[3] . واعترف رفاق عمر فى الثورة بتفوقه فى الخبرة بشئونها تفوقا جعل واحداً من كبارهم (عبد الله بن مسعود) يقرر أنهم كانوا يحسبونه قد ذهب بتسعة أعشار العلم[4] . وشهد رجل من أهل المدينة بأن الفقهاء ، أى العلماء بنظرية الثورة ، كانوا عند عمر مثل الصبيان قد استعلى عليهم فى فقهه وعلمه[5] .
وقد قاد عمر بنجاح باهر الجانب الأكبر من صراع الثورة ضد الرجعية الخارجية (١٣ – ٢٣ هـ) وكان عليه فى الوقت نفسه أن يواصل التطبيق العملى للنظرية الثورية الذى باشره النبى نفسه ثم واصله أبو بكر فى خلافته القصيرة التى استغرقها الصراع ضد المؤامرة الرجعية . وجعل عمر أساسا للتطبيق أن يعلم الناس نظرية الثورة ؛ فقد كان يعرف أنه بالرغم من أن الفرد يمكن أن يصبح مسلماً بمجرد إعلانه الشهادتين فإن الإسلام ليس عملا لسانياً مظهرياً ، ولكنه عملية تحول تتم داخل الفرد لإعادة بناء شخصيته عن طريق تخليصه من عاداته السلوكية الرجعية وإكسابه عادات ثورية إسلامية بدلا منها . ولذلك رسم عمر ما يمكن أن يسمى سياسة تعليمية

(١) ابن هشام : السيرة – ١ : ٣٦٤ وما بعدها .
(٢) ابن سعد : الطبقات – ج ٣ ق ١ : ١٩٢ . البلاذرى : ٥٨٠ .
(٣ ، ٤ ، ٥) ابن سعد : الطبقات – ج ٢ ق ٢ : ٩٩ – ١٠٠ .

أصبح تعليم الناس دينهم وسنة نبيهم بمقتضاها من واجبات أولئك الأفراد الممتازين الذين كان يعينهم حكاماً على البلاد المفتوحة[١] فأقر – مقتدياً بالنبى وأبى بكر[٢] – عثمان بن أبى العاص على الطائف واستعمله فى الوقت نفسه على البحرين ولم يكتم سروره عندما علم أن والى البصرة ، أبا موسى الأشعرى (ت ٥٢ هـ) ، يقرئ أهلها القرآن[٣] . ولكن جعل اعتماده الأكبر فى تنفيذ هذه السياسة على أصدقائه القراء . ومن الحق أنه لم يكن هناك أصلح منهم ، فقد كانوا يحملون القرآن ، ويعرفون ناسخه ومنسوخه ، ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالته بما تلقوه من النبى أو ممن سمعه منهم من عليتهم . كما كانوا عارفين بأحكام الشريعة التى هى أوامر الله ومذاهبه ، قد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة ، فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة عن رسول الله ، لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه ومن الحديث الذى هو فى غالب موارده تفسير له وشرح[٤] . وبدأ عمر منذ سنة ١٧ هـ ينفذ القراء إلى أنحاء العالم الإسلامى . وأمرهم أن يجمعوا الناس فى المساجد أيام الجمع ويفقهوهم فى الدين . وقصد الناس هؤلاء القراء ، أقدم المعلمين فى الإسلام ، وجلسوا بين أيديهم فى حلقات أو صفوف يستمعون إليهم ويتتلمذون عليهم[٥] . من هؤلاء المعلمين القدماء كان عمران بن الحصين بن عبيد الذى بعثه عمر إلى البصرة حيث رآه أحدهم فى مسجدها أبيض الرأس واللحية ، مسنداً إلى أسطوانة ، فى حلقة يحدث أهلها[٦] . ولم يكن ابن الحصين هذا بالقارئ الوحيد الذى أرسله عمر إلى البصرة ، فقد أرسل إليها نفراً يفقهون أهلها كان من بينهم عبد الله بن المغفل بن عبدنهم[٧] . وبالرغم من أن عمر كان معجبا بعلم عبد الله بن مسعود ، ويحب أن يستبقيه إلى جانبه فى العاصمة ، فقد آثر به أهل الكوفة وبعثه إليهم مع عمار بن ياسر معلماً ووزيراً[٨] .

---

(١) المصدر نفسه – ج ٣ ق ١ : ٢٤٣ . ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ١٦٧ .

(٢) ابن سعد : الطبقات – ج ٥ : ٣٧٣ ، ج ٧ ق ١ : ٢٦ وقد ذكرت البحرين هناك خطأ على أنها البصرة .

(٣) المصدر نفسه – ج ٢ ق ٢ : ١٠٦ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة : ٣٧٢ ، ٤٧٧ .

(٥) فيليب حتى : تاريخ العرب – ٢ : ٣٢٣ .

(٦) ابن سعد : الطبقات – ج ٧ ق ١ : ٥ .

(٧) المصدر نفسه – ج ٧ ق ١ : ٨ .

(٨) المصدر نفسه – ج ٣ ق ١ : ١١٠ ، ج ٦ : ٣ ، ٤ .

واختص عمر الشام بثلاثة من كبار القراء : معاذ بن جبل ، وأبي الدرداء ، وعبادة بن الصامت . وبالرغم من أن عمر كان قد جزع حين خرج معاذ إلى الشام مجاهدا في خلافة أبي بكر لإخلال ذلك بالمدينة وأهلها في الفقه وما كان يفتيهم به ، حتى لقد كلم أبا بكر أن يحبسه لحاجة الناس إليه ، وبالرغم من ذلك أقر عمر معاذاً بالشام ، وجعل منه المرجع الأول ، إن لم يكن الأوحد ، في الفقه حين خطب بالجابية فقال : « من كان يريد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل »[1].

وكان معاذ يجلس في مسجد حمص ودمشق شاباً أكحل العينين ، براق الثنايا ، فيتحلق الناس حوله — ومنهم من هو أسن منه — ويقبلون عليه ، ويستمعون حديثه ، وإذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه وصدروا عن رأيه[2]. ولكن يبدو أن معظم إقامة معاذ كان بفلسطين حيث توفي بالقصير من أرض الأردن بالغور في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ[3]. أما أبو الدرداء (ت ٣٢هـ) فقد أقام بدمشق، وكان إذا صلى الغداة بجامعها اجتمع الناس للقراءة عليه ، فكان يجعلهم عشرة عشرة ، وعلى كل عشرة عريف ، ويقف هو في المحراب يرمقهم ببصره ، فإذا غلط أحدهم رجع إلى عريفهم ، فإذا غلط عريفهم رجع إلى أبي الدرداء فسأله عن ذلك ، وتزعم إحدى الروايات أنه كان يقرأ عنده القرآن هناك ألف وستمائة ونيف[4].

وأقام عبادة بن الصامت أول الأمر في حمص يفقه أهلها ويعلمهم القرآن ، ثم صار بعد إلى فلسطين حيث مات بالرملة سنة ٣٤هـ[5]. وقد مر بنا من قبل كيف أن عمر كلف عبد الرحمن بن ملجم الجلوس في مسجد مصر الجامع لتعليم أهلها القرآن[6]. وإذا كان عمر قد اهتم بالأمصار حيث استقر الجانب الأكبر من العرب الفاتحين ، وحيث كان السكان الوطنيون يدخلون شيئاً فشيئاً في الدين الجديد ، فإنه لم يغفل البادية حيث كانت الحاجة أمس إلى التعليم والمعلمين ، فأخذ يرسل القراء يعلمون أهلها القرآن ويفقهونهم في الدين . ولما كان عمر جاداً في سياسته التعليمية هذه ، شأنه في كل أعماله ، فقد كان لا يكتفي بإرسال المعلمين ، بل

---

(١) المصدر نفسه — ج ٢ ق ٢ : ١٠٨ . (٢) المصدر نفسه — ج ٣ ق ٢ : ١٢٣ .

(٣) المصدر نفسه — ج ٧ ق ٢ : ١١٥ . ابن الجزرى : غاية — ٢ : ٣٠١ .

(٤) ابن الجزرى : غاية — ١ : ٦٠٦ .

(٥) ابن سعد : الطبقات — ج ٢ ق ٢ : ١١٤ ، ج ٣ ق ٢ : ٩٤ ، ج ٧ ق ٢ : ١١٣ — ١١٤ ، ابن حجر : الإصابة — ٢ : ٢٦٩ .

(٦) انظر ص ١٤ من هذا البحث .

كان يعود فيبعث بمن يمتحن الناس ، فمن وجد لم يحفظ شيئاً من القرآن عاقبه بالضرب [١] .

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان عمر يقدر أن المجتمع العربي ما يزال — بالرغم من الانتصارات الكبيرة التي حققتها الثورة على الرجعية — يمر بمرحلة الانتقال التي يتحول فيها من مجتمع رجعي جاهلي إلى مجتمع إسلامي تقدمي ، وإن ذلك يقتضي كل الحزم واليقظة في التطبيق لأن أي تساهل أوغفلة يفتح الثغرات أمام التسلل الرجعي الذي يهدد بانتكاس الثورة أو — في الأقل — انحرافها — فقبض عمر على الأمور بيد قوية ، وجعل السلطة العليا للقانون . ووقف بالمرصاد لأي انحراف فلا يكاد يطل برأسه حتى يقمعه . وكان يأخذ نفسه وأهل بيته بالحزم والشدة قبل الآخرين ولذلك نجح في أن يقيم دولة ما يزال ينظر إليها حتى اليوم على أنها الدولة الإسلامية النموذجية التي يطمئن فيها المواطن على حياته وكرامته وماله ، ويمارس حرياته المشروعة ، ويتمتع بالعدالة والمساواة . وكان عمر في قمة مجده عندما اغتالته يد أجنبية غادرة لعل الرجعية الخارجية كانت تقف وراءها .

* * *

خلف عثمان عمر على زعامة الثورة ورئاسة الدولة . وعثمان ثائر قديم ، تخلى عن طبقته الاستقراطية وانضم إلى الثورة في وقت مبكر ، ووضع ثروته الطائلة التي كان يحققها من التجارة في خدمة الثورة . ولكن بقدر ما كان أبو بكر وعمر متشددين إلى حد التطرف كان عثمان معتدلا . وإلى شيخوخة عثمان والحياة الناعمة التي ألفها يرجع نفوره من ، أو في الأصح عجزه الذي اعترف به [٢] عن ذلك الأسلوب من الحياة القاسي الخشن الذي فرضه عمر على نفسه . وإن كان ذلك لا يمكن أن يعني أن عثمان كان يقبل التفريط في مبادئ الثورة وأحكامها ، كل ما هنالك أنه لم يكن يلزم نفسه ولا الآخرين المثل الأعلى الذي لا يحلق عنده إلا القلة ، وقنع بالمستوى العادي الذي يسعى عنده الكثرة [٣] . وأساء الناس استعمال اعتدال عثمان ، فانطلق سكان العاصمة — مثلا — يباشرون أعمال اللهو التي وصلت إلى

---

(١) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي — ٤ : ٣٨ .
(٢) الطبري : تاريخ — ١ : ٣٠٣١ — ٣٠٣٢ .
(٣) المصدر نفسه — ١ : ٢٨٦٠ ، ٢٩٤٥ — ٢٩٤٦ .

حد المخالفة التامة لقوانين الثورة مثل شرب الخمر [١] . على أن أهم ما حدث كان التفاف بنى أمية – وهم عشيرة عثمان – حوله حاشية له . ولا بأس بذلك فى ذاته ، فقد كان لعمر حاشيته كذلك . ولكن الأمر يبدو مختلفاً جداً حين نعرف أن حاشية عمر الذين قربهم إليه وجعلهم أصحاب مجالسه ومشورته لم يكونوا سوى القراء [٢] هؤلاء المناضلين العلماء الزهاد . أما بنو أمية فهم أولئك الأرستقراطيون الذين ظلوا حتى اللحظات الأخيرة يتزعمون الرجعية الوثنية ، ويقودون الصراع الدموى ضد الثورة ، ولم يستسلموا إلا حين يئسوا تماماً من هزيمة الثورة . وأصبح واضحاً لهم أن الاستمرار فى المقاومة لا يعنى سوى القضاء على مكانتهم الأدبية ومصالحهم المادية بل على حياتهم ذاتها . ولم يقبع الأمويون ساكتين بل جروا مع ريح العصر . وامتطوا الموجة الجديدة التى كانت توشك أن تبتلعهم وشغلوا بعض مناصب الدولة الجديدة [٣] . ولكن فرصتهم الحقيقية سنحت عندما صعد عثمان إلى الخلافة ، فقد انفتح أمامهم الطريق إلى السيطرة على الدولة ، واستغلالها عن طريق السيطرة على الخليفة نفسه . وسرعان ما ملئوا مناصب الدولة الكبرى بأفراد منهم ومن أتباعهم [٤] . وجعلوا يرددون أفكاراً رجعية مثل فكرة سيادة قريش [٥] . بل لقد تجرأ أحد ولاتهم على ادعاء أن العراق الذى فتحه المسلمون بأسيافهم ورووه بدمائهم ملك خاص لقريش [٦] . ولم يكن من الممكن أن يمر ذلك كله فى هدوء فى المجتمع العربى الذى كان حينذاك مجتمعاً ثوريا يتكون من ثوار مناضلين ومحاربين أشداء قد فتحوا العالم وغيروا وجه التاريخ فقوبل هذا الانحراف الرجعى الخطر الذى انزلق الحكم إليه بمعارضة عنيفة ضمت كبار الصحابة ، وسكان العاصمة ، وأهل الأمصار الذين كانوا يشكلون الجيش العربى ، والطبقات الشعبية التى كانت تتكون من الأعراب أهل المياه ، ونزاع القبائل ، والغوغاء من أهل الأمصار ، والعبيد [٧] .

(١) الطبرى : تاريخ – ١ : ٣٠٢٧ ، ٣٠٢٨ .
(٢) البخارى : الصحيح – ٦ : ١١٧ .
(٣) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية : ٣٢٩ . (٤) المصدر نفسه :
(٥) الطبرى : تاريخ – ١ : ٢٩٠٩ – ٢٩١٢ .
(٦) المصدر نفسه – ١ : ٢٩١٦ .
(٧) ابن سعد : الطبقات – ج ٣ ق ١ : ٤٩ . الطبرى : تاريخ – ١ : ٢٩٥٩ ، ٣٠٨٠ ، ٣٠٨١ ، ٣٠٩٧ – ٣١٠٠ ، ٣١١٤ ، ٣١١٦ ، ٣١٢٩ .

وانتهى الأمر بمصرع عثمان الذى ورطته الرجعية الجديدة معها وسخرته لخدمة أغراضها واشتغلت لحسابها الخاص باسمه ؛ وتنصيب على بن أبى طالب بدلا منه بما هو أبرز من بقى من الثوريين الأوائل الحقيقيين .

عندما استعلن الانحراف الرجعى كان القراء أول من فضحه وهاجمه واحتج عليه فى الكوفة ، فقد وصف معاوية المتمردين الكوفيين الذين سيروا إليه فى الشام سنة ٣٣هـ بأنهم « يتكلمون بألسنة الشياطين وما يملون عليهم ، ويأتون الناس — زعموا — من قبل القرآن فيشبهون على الناس ، . . »[١] . كما ذكر أنه رآهم وهم يشهدون الصلاة ، ويقفون مع قاص الجماعة ، ويقرئ بعضهم بعضاً[٢] .
واجتمع طلائع الثوار بالكوفة سنة ٣٤ هـ ، وتباحثوا فى انحراف عثمان عن الثورة ، فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا إليه رجلا يكلمه ويخبره بأحداثه ، ودخل مندوب الثوار على الخليفة فقال له «فى صراحة وشجاعة : « إن ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا فى أعمالك فوجدوك ركبت أموراً عظاماً . فاتق الله عزوجل ؛ وتب إليه ، وانزع عنها » واستكثر عثمان أن يوجه إليه ذلك الرجل تهمة الانحراف ويطالبه بالرجوع عنه ، فقال يسخر منه بما هو قارئ : انظر إلى هذا فإن الناس يزعمون أنه قارئ ، ثم هو يجيء فيكلمنى فى المحقرات. فوالله ما يدرى أين الله ؟ وأحفظ القارئ أن يسخر منه فى أعز ما يفخر به ، فسأل الخليفة منكراً : أنا لا أدرى أين الله ؟ قال الخليفة يغايظه ويتحداه : نعم ، والله ما تدرى أين الله ؟ فقال القارئ يرد على التحدى ويتوعد فى نفس الوقت : بلى والله ، إنى لأدرى أن الله بالمرصاد لك[٣] .
واتخذ الثوار من القرآن ركيزة هامة يستندون إليها فى الهجوم على عثمان . فأخذوا عليه فى عملية توحيد المصحف أن القرآن كان كتباً فتركها إلا واحداً[٤] .
وفى آخر جمعة شهدها عثمان سنة ٣٥هـ قام إليه رجل من الثوار ثلاث مرات وهو يقول له أقم كتاب الله[٥] . وعندما وقف الثوار يناقشونه وهو محصور فى داره كانوا يأخذون

---

(١) الطبرى : تاريخ — ١ : ٢٩٢٠ .
(٢) الطبرى : تاريخ — ١ : ٢٩٢٥ .
(٣) المصدر نفسه — ١ : ٢٩٣١ — ٢٩٣٢ .
(٤) المصدر نفسه — ١ : ٢٩٥٢ .
(٥) المصدر نفسه — ١ : ٢٩٧٩ .

حججهم من القرآن بما يظهر أنهم يحفظونه ويدرسونه[١]. وأدرك عثمان خطورة اعتماد هؤلاء الثوار على القرآن فى مهاجمته فأشار فى الكتاب الذى أرسله إلى أهل الموسم (الحجاج) يسألهم أن يأخذوا له بالحق ممن نصره (٣٥ هـ) إلى عدم جدينهم فى ذلك[٢] . وفى معركة صفين (٣٧ هـ) صرح أحد القراء من جيش على أن عثمان « إنما قتله أصحاب محمد ، وأبناء أصحابه ، وقراء الناس حين أحدث الأحداث ، وخالف حكم الكتاب »[٣] .

كان النبى قد اتخذ من القراء طليعة فكرية للثورة ، ثم إنهم وقفوا إلى جانب أبى بكر فى عملية سحق الرجعية المحلية . ولما اشتبكت الثورة فى الصراع المسلح الحتمى مع الرجعية الخارجية فى عهد عمر أخذ القراء مكانهم فيه إلى جانب اضطلاعهم بالتعبئة الثورية وإعادة تشكيل السلوك الفردى ثوريا . وهكذا لم يقف القراء الذين كانوا يشكلون فئة المثقفين الثوريين بد ورهم الثورى عند مستوى الفكر النظرى ، بل نزلوا إلى ميدان النضال العملى المسلح . فكانوا مفكرين مناضلين ، ونظريين إيجابيين فى وقت واحد . وقد حدد ماضيهم هذا دورهم أيام عثمان عندما انحرف الحكم عن الثورة أى عندما انحرف التطبيق عن النظرية ، فقد استطاعوا بما هم مثقفون ثوريون على خبرة كافية بنظرية الثورة أن يفطنوا إلى وقوع الانحراف ويقيسوه ويقدروا خطره . وأثار القراء وقادوا فى المجتمع الإسلامى كله ، ضد الحكم ، حواراً أيديولوجيًّا طويلا وجدلا نظريًّا عنيفا . ولما لم يفلح ذلك فى حمل الحكم على العدول عن الاتجاه الخطير الذى قادته إليه وورطته فيه الرجعية الجديدة لم يكن للقراء المناضلين بد من أن يقودوا الجماهير فى هجوم مسلح على الحكم أطاح بعثمان أداة الرجعية الجديدة وجاء بدلا منه بثورى قديم كان يتمتع بمكانة شعبية عالية بسبب صلته بالنبى من جهة ، وماضيه الكفاحى من جهة أخرى ، وصفاته الذاتية من جهة ثالثة ، وذلك هو على بن أبى طالب .

ليس هناك نص صريح على أن محمد بن أبى حذيفة ، قائد الثورة ضد عثمان فى مصر سنة ٣٥ هـ كان هو أورفاقه من القراء . وبالرغم من أن أخبار هؤلاء الثوار ، على أهميتهم ، تبدو ناقصة نقصاً شديداً ، فإن هناك ما يحمل على الظن بأنهم ، كلهم

(١) المصدر نفسه – ١ : ٣٠٢٥ .

(٢) المصدر نفسه – ١ : ٣٠٤٢ ، ٣٠٤٣ . (٣) المصدر نفسه – ١ : ٣٣٢٣ .

أو بعضهم، كانوا كذلك أو كانوا ، فى الأقل ، على صلة وثيقة بالقراء . فكان منهم نفر من أصحاب النبي ، أى من قدماء الثوار ، مثل عبد الرحمن بن عديس البلوى — أحد زعماء الثورة البارزين ، وقائد الجيش المصرى الذى سار إلى المدينة ولعب الدور الرئيسى فى التخلص من عثمان — فقد صحب النبي ، وسمع منه وبايعه تحت الشجرة . وكان أحد فرسان بليّ المعدودين بمصر ، شاعرا ومحدثا لأهل مصر عنه عن النبي حديث واحد ليس لهم عنه غيره ، وهو : « يخرج ناس يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، يقتلهم الله فى جبل لبنان والجليل » . ونستطيع أن نشم من هذا الحديث رائحة الهجوم على أهل الشام أى الأمويين . ويلفت النظر فى ابن عديس أن داره فى الفسطاط كانت إلى جانب دار القارئ الثائر عبد الرحمن ابن ملجم الذى قدر له هو الآخر أن يضع حدًّا لحياة الخليفة التالى ، على[١] وكذلك كان من الصحابة عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعى الذى رأس إحدى فرق جيش الثوار المذكور إلى جانب اشتراكه مع ابن عديس فى القيادة العامة ، والذى استشهد أخوان له فى صفين مع آخرين من قبيلة خزاعة التى كانت تحارب مع على[٢] .

وإذا كان القراء فى الأمصار المختلفة هم الذين حملوا على عثمان ، وتناولوا سياسته بالنقد والتجريح ، وعملوا على إثارة الرأى العام ضده حتى إنه لما قتل وقعت التهمة عليهم وعلى أقدم الصحابة الأحياء[٣] ، فهذا هو عين ما فعله ابن أبى حذيفة ورفاقه فى مصر . فأخذوا على عثمان أنه غير سياسة أبى بكر وعمر ، وأنه استعمل ولاة غير صالحين مثل عبد الله بن سعد بن أبى سرح أمير مصر بخاصة الذى يتحامل على المسلمين وأهل الذمة من المصريين على السواء ويتلاعب بالغنائم ، ثم هو من قبل ذلك كله قد نزل القرآن بكفره وأباح الرسول دمه[٤] .

ووجه الثوار المصريون عناية خاصة نحو القرآن فى حملتهم على عثمان . فأخذوا

---

(١) ابن سعد : الطبقات — ج ٧ ق ٢ : ١٩٩ . ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ١٠٧ — ١٠٨ ، ٣٠٤ . الكندى : ولاة : ١٧ ، ٢٠ . السمعانى : الأنساب : ٩١ ، ١٠٤ ا .
(٢) الطبرى : تاريخ — ١ : ٢٩٨٦ .
(٣) فلهوزن : الخوارج والشيعة : ٢٠ .
(٤) الطبرى : تاريخ — ١ : ٢٩٩٣ — ٢٩٩٤ .

عليه أنه وحد المصحف : فبعد أن كان القرآن كتباً تركها إلا واحداً . ونستطيع أن نسمع فى هذا الاتهام الانعكاس أو ردّ الفعل الذى أحدثته عملية توحيد المصحف فى مصر .

وعندما ما نزل الثوار المصريون بوادى ذى خُشُب بالمدينة وجهوا إنذاراً كتابيّاً إلى عثمان تتجلى فيه روح القراء الحازمة المتمسكة بالدين . افتتح الثوار إنذارهم بتذكير الخليفة بالآية رقم ١١ من سورة الرعد التى تنص على أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ثم نصحوه بأن يعمل على الظفر بالآخرة مثلما ظفر بالدنيا . وأقسموا أنهم لايجرون وراء غاية شخصية فهم يغضبون لله ويرضون له. وأخيراً أكدوا أنهم لن يعدلوا عن الثورة حتى يتضح لهم موقفه الصريح[١] .

ويروى أن عثمان سمح للثوار المصريين بمقابلته فى مكان ما خارج العاصمة حيث دارت بينه وبينهم مناظرة غريبة طلب إليه فيها الثوار أن يتلو السورة السابعة أى سورة يونس ، من المصحف . ثم استوقفوه عند الآية رقم ٥٩ منها واتهموه بمخالفتها فدافع عثمان عن نفسه بعد أن ذكر سبب نزولها. ولم يزالوا به آية بعد آية حتى أعجزوه عن الجواب واضطروه إلى التوبة وكان الذى تولى مناظرته شاب منهم لا يتجاوز الثلاثين[٢] . وهذا اللون من المناقشة الذى يعتمد أساساً على القرآن والعلم به أنسب ما يكون – إذا صحت الرواية – بقوم من القراء .

وكان محمد بن أبى حذيفة مكيّاً قيلى المنهج ، يؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة وأن كل شىء جائز فى الحرب . فكان يقوم بعملية تزييف فريدة فى بابها يزيف فيها الرسائل بل الجمال بل الرجال ليوهم الجماهير أنه تلقى كتبا من أزواج النبى يصفن فيها سوء الأحوال فى المدينة . وكان يدعو المصريين إلى المسجد الجامع للاستماع إلى ما فى هذه الكتب، فيجتمعون اجتماعا ليس فيه تقصير ، ثم يقوم « القارئ » بالكتاب فيقول : إنا لنشكو إلى الله وإليكم ما عمل فى الإسلام وما صنع فى الإسلام[٣] . فإذا وضعنا فى الاعتبار أن معرفة القراءة والكتابة كانت تكاد تكون حينذاك مقصورة على قلة من الأفراد منهم القراء ، كان لنا أن نرجح أن المقصود بالقارئ فى هذا المقام هو قارئ القرآن بخاصة لا مطلق القارئ . كما ينبغى أن نفترض بناء على ما مرّ بنا

---

(١) الطبرى : تاريخ – ١ : ٢٩٨٦ – ٢٩٨٧ .

(٢) الطبرى : تاريخ – ١ : ٢٩٢٣ – ٢٩٢٤ . (٣) الكندى : ولاة : ١٤ – ١٥ .

من شخصية القارئ أنه كان فى هذا الموقف ضحية خديعة ... أبى حذيفة وليس شريكاً فيها .

يروى الطبرى أن على بن أبى طالب بويع بالخلافة لخمس بقين من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ ، ثم خطب أول خطبة له . ولما فرغ من خطبته وهو على المنبر — وفى رواية أخرى : ولما أراد الذهاب إلى بيته — قال المصريون — وفى الرواية الثانية : قالت السبائية :

خذها إليك واحذرن أبا حسن إنا نمر الحرب إمرار الرسن
صونة أقوام كأسداد السفن بمشرفيات كغدران اللبن
ونطعن الملك بلين كالشطن حتى يمرن على غير عـنن

فقال على مجيباً :

إنى عجزت عجزة لا أعتذر سوف أكيس بعدها وأستمر
أرفع من ذيلى ما كنت أجر وأجمع الأمر الشتيت المنتشر
إن لم يشاغبنى العجول المنتصر أو يتركونى والسلاح يبتدر[1]

ويروى الكندى الخبر بطريقة أخرى فيذكر أن الثوار انصرفوا إلى مصر ، فلما دخلوا الفسطاط ارتجز مرتجزهم :

خذها إليك واحذرن أبا حسن إنا نمر الحرب إمرار الرسن
بالسيف كى تخمد نيران الفتن

ولما دخلوا المسجد صاحوا : إنا لسنا قتلة عثمان ، ولكن الله قتله[2] .

إن رواية الطبرى أكثر تمشياً مع منطق الحوادث وإن لم يمتنع أن يكون الثوار كرروا شعرهم فى مصر وفقاً لرواية الكندى عن يزيد بن أبى حبيب . على أن الذى يعنينا فى كل حال هو أن الثوار يوصون عليا — وقد فاز بالخلافة — أن يكون على حذر ، فيتجنب أخطاء سلفه ، وإلا فهم قائمون هنالك يحكمون الأمر والتدبير ، ويعرفون كيف يستخدمون السيوف البيض والرماح اللينة فى التخلص من الحاكم المنحرف . وبنفس التحدى والإيعاد خاطب القراء ، الذين صاروا بعد ذلك خوارج ، علياً فى معركة صفين حين حذرهم خدعة

(١) الطبرى : تاريخ — ١ : ٣٠٧٩ — ٣٠٨٠ . (٢) الكندى : ولاة : ١٨ .

الاحتكام إلى كتاب الله ودعاهم إلى الاستمرار فى القتال حتى النصر الموشك . قالوا له : يا على ، أجب إلى كتاب الله عز وجل إذ دعيت إليه ، وإلا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان . إنه[١] علينا أن نعمل بما فى كتاب الله عز وجل فقبلناه . والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك»[٢] .

• • •

بالرغم من أن مصرع عثمان كان خسارة جسيمة ، بل ضربة عنيفة ، للقوى الرجعية التى سيطرت عليه واستغلت تساهله لتحقيق مصالحها الخاصة ، فإنها لم تستسلم بل صممت على استغلال مصرعه للوصول إلى الحكم نفسه . تبنت هذه القوى قضية مصرع عثمان ، وألقت المسئولية أو — فى الأصح — التهمة فيها على الحكم القائم ، وراحت تطالبه بدم الخليفة المقتول ظلما . ولما كان ميزان القوى فى صالح المعسكر الثورى نتيجة لسيطرته على الحكم وموارد الدولة الواسعة فقد اعتمد المعسكر الرجعى فى الصراع على المناورات السياسية والأساليب المكيافيلية أكثر من اعتماده على المواجهة الصريحة المباشرة . وأفلحت الرجعية آخر الأمر فى أن توقع الشقاق فى قلب المعسكر الثورى ، فانشق القراء على على وأصبحوا يعرفون باسم « الخوارج » وفى سنة ٤٠ هـ لقى على نهايته بيد أحد هؤلاء الخوارج أنفسهم ، القارئ المصرى السابق عبدالرحمن ابن ملجم المرادى[٣] .

بالرغم من الانشقاق الخطير الذى أصاب المعسكر الثورى فقد تجمعت العناصر الثورية (أهل التقوى والورع — القراء — الشيعة — الموالى — الخوارج) معاً لتكوين اليسار الذى أصبح يعارض الحكم الرجعى اليمين ويقاومه . ولئن كان الخوارج قد شكلوا أقصى هذا اليسار فإن القراء احتفظوا بتأثيرهم على الجماهير ونفوذهم فى الحياة العامة[٤] ، وظلوا اللسان المعبر عن سخط المتدينين على الحكومة القائمة[٥] . فوقفوا مع الشيعة عندما ثاروا فى النخيلة سنة ٦٥هـ[٦] . وفى

(١) يبدو أن هنا كلمة ساقطة يشبه أن تكون : عرض .

(٢) الطبرى : تاريخ — ١ : ٣٣٣٠ .

(٣) للاطلاع على تفصيلات هذه الحوادث المثيرة راجع : الطبرى — ١ : ٣٠٨٠ — ٣٤٥٧ .

(٤) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية — ٢ : ٤١ .

(٥) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية : ٦٠ .

(٦) فلهوزن : الخوارج والشيعة : ١٩٤ .

جيش قطرى الخارجي (٧٨هـ)كان هناك – فيما تزعم الرواية – ثمانية آلاف من القراء[١]. أما ثورة ابن الأشعث الكبرى ضد الحجاج(٨٣ هـ) فقد لعب فيها القراء دوراً هاما إذ كانوا أشد الناس حماسا وأقواهم صوتا فى الاشتراك فى الثورة وكانوا فى كل مناسبة كهذه يظهرون فى المقدمة باليد واللسان[٢]. وقد بقى لنا ذكر عدد من مشاهير القراء الذين اشتركوا فى هذه الثورة أو استشهدوا بها مثل : التابعى الكوفى العالم الزاهد عبد الرحمن بن أبى ليلى[٣] ، والتابعى البصرى أبى الجوزاء الربعى[٤] ، والتابعى المدنى عبد الله بن شداد بن الهاد الليثى[٥]. وقد قتل هؤلاء جميعاً فى الثورة سنة ٨٣ هـ . وكان هناك كذلك القارئ القاص البليغ ذرين عبد الله الهمدانى[٦]، والقارئان الكوفيان الكبيران : عامر بن شراحيل الشعبى (ت ١٠٥ هـ)[٧] . وطلحة بن مصرف اليامى (ت١١٢ هـ)[٨]. ولكن لا شك فى أن أهم من اشترك فى هذه الثورة من القراء كان التابعى الكوفى العالم الزاهد الثائر سعيد بن جبير الذى قتله الحجاج سنة٩٤هـ وتظهر وجهة نظر القراء بعامة واليسار بخاصة فى الحكومة القائمة فيما كان يقوله سعيد يوم دير الجماجم لزملائه يحرضهم وهم يحاربون قوات الدولة : « قاتلوهم على جورهم فى الحكم ، وخروجهم من الدين ، وتجبرهم على عباد الله ، وإماتتهم الصلاة ، واستذلالهم المسلمين»[٩] هذا، وقد كان القراء على رأس عامة المؤمنين فى ثورة يزيد بن المهلب فى البصرة سنة ١٠١ – ١٠٢هـ[١٠] .

* * *

ذكرنا فيما سبق عدداً من القرائن يمكن أن تشير إلى وجود رابطة بين ثوار

---

(١) المصدر نفسه : ١٠٦ .
(٢) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية : ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٧٥ .
(٣) ابن سعد : الطبقات – ٦ : ٧٧ . ابن تغرى بردى : النجوم – ١ : ٢٠٦ .
(٤) المصدر نفسه : ج ٧ ق ٦ : ١٦٢ – ١٦٣ .
(٥) المصدر نفسه – ٦ : ٨٦ – ٨٧ . ابن تغرى بردى : النجوم –١ : ١٤٢ ، ٢٠٦ .
(٦) ابن سعد / الطبقات – ٦ : ٢٠٥ .
(٧) المصدر نفسه – ٦ : ١٧٣ ، ١٧٨ .
(٨) المصدر نفسه ٦: ٢١٥ – ٢١٦ .
(٩) المصدر نفسه – ٦ : ١٨٣ – ١٨٦ . ابن تغرى بردى : النجوم – ١ :
(١٠) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية : ٣٠٦ .

سنة ٣٥ هـ وبين القراء[١] . وبالرغم من عدم الإشارة إلى القراء فى الصراع الذى استمر بعد ذلك بين القوى الثورية والقوى الرجعية فى مصر فإن ظروف تلك الفترة والدور القيادى الذى اضطلع به القراء فيها يجعلنا نفترض ضرورة اشتراكهم فى هذا الصراع الذى انتهى على أية حال إلى خروج مصر من قبضة الثوار ووقوعها تحت سيطرة الرجعيين بعد معركة ضارية فى المسناة سنة ٣٨ هـ قاد الرجعيين فيها عمرو بن العاص[٢] .

أخلد اليسار الثورى فى مصر إلى هدوء مؤقت طوال حكم عمرو (٣٨-٤٣هـ) باستثناء محاولة اغتياله الفاشلة (رمضان ٤٠ هـ) التى كانت جزءاً من مؤامرة أكبر دبرت خارج مصر[٣] . ولعل صلة عمرو القديمة بأهل مصر ، وهى صلة القائد بجنده ، وحربة تصرفه فى دخل مصر « بعد عطاء جندها والنفقة على مصلحتها »[٤] ، بالإضافة إلى سعة أفق عمرو وكياسته هى المسئولة عن ذلك الهدوء المؤقت . فإن المعارضة لم تلبث حتى تحركت عندما خلف عمراً على مصر عتبة بن أبى سفيان أخو الخليفة معاوية . ولما كان عتبة خطيبا بليغاً فقد قابل هذه المعارضة بخطب قوية رد فيها كلمة « السيف » وهو يذكر المصريين بمواقفهم الثورية[٥] وقابل عتبة وفد من القراء المصريين ، فيما يروى مولاه سعد القصير الذى كان معه بمصر والذى روى طائفة من أخباره ، ودار بينه وبينهم حوار لا تنقصه الصراحة . اتهم القراء عتبة بأنه حاكم مستبد يخضع الحق للسيف فى حين كان ينبغى أن يفعل العكس . فكذبهم عتبة ، ووصفهم بأنهم حتى لايعرفون الوقت المناسب لاستعمال السيف ، ويخلطون بين المعروف والمنكر ، ولا يدركون أنهم فى مطلع عهد جديد — سياسى طبعا — ونهاية عهد قديم . ثم طالبهم بالإقلاع عن العنف ، فسألوه الأمان وانصرفوا[٦] .

---

(١) انظر ص ١٢٨ — ١٢٩ من هذا البحث .

(٢) راجع : الطبرى : تاريخ — ١ : ٣٣٩٦ — ٣٤١١ ، الكندى : الولاة : ٢٧ — ٣١ .

(٣) راجع : الطبرى : تاريخ — ١ : ٣٤٥٦ — ٣٤٥٧ . الكندى : الولاة : ٣١ — ٣٢ .

(٤) الكندى : ولاة : ٣١ .

(٥) ابن عبد ربه : العقد — ٤ : ١٣٧ — ١٣٩ . القالى : الأمالى — ١ : ٢٤١ . ابن الأثير : أسد الغابة — ٣ : ٣٦١ .

(٦) ابن عبد ربه : العقد — ٣ : ١٦٦ — ١٦٧ .

لما حضرت عتبة الوفاة (ذو الحجة ٤٤ هـ) استخلف على حكم مصر قارئاً مصرياً هو عقبة بن عامر الجهنى الذى لم يلبث الخليفة حتى أقره بصفة دائمة[١]. وبالرغم من أن بعض القراء حاربوا مع معاوية فى صفين[٢]، خارجين بذلك على الموقف الثورى للقراء فلاشك فى أن عقبة لم يختر لحكم مصر بما هو قارئ بل بما هو أحد رجال الدولة. ولعل معاوية قد رأى فى عقبة بالذات عاملا من عوامل تهدئة المصريين والتقرب إليهم، فهو محبوب من المصريين بعامة لمكانته من النبى وتعبده، ومن القراء بخاصة بماهو واحد منهم، ثم هوولى مخلص لنظام الحكم القائم. وبالرغم من أن الحوادث لم تسجل أى اضطراب فى أثناء ولاية عقبة فإن معاوية قد عزله بعد سنتين ونيف بطريقة تحمل مسحة من التآمر بينه وبين مسلمة بن مخلد[٣] ذلك الصحابى الأنصارى القوى الذى كان من كبار العثمانيين بمصر ولعب دوراً أساسياً فى تخليص مصر من قبضة الثوار[٤].

وأخيراً توفى معاوية سنة ٦٠ هـ وخلفه ابنه يزيد. وبالرغم من أن يزيد « كان فاسقاً قليل الدين، مدمن الخمر »[٥] فقد بايعه جميع المصريين إلا واحداً، هو القارئ عبد الله بن عمرو بن العاص الذى كره ذلك مع أنه كان يتوقعه، فأرسل إليه أمير مصر ثلاثة من كبار الشخصيات ليقنعوه بالمبايعة. فهاجمهم عبد الله وحلل شخصية كل منهم تحليلا فاضحا. وصف أولهم، كريب بن أبرهة الأصبحى (ت٧٨ هـ) أحد كبار ممثلى الأرستقراطية العربية اليمينية فى مصر بأنه مدع اسمه أكبر من حقيقته. واتهم ثانيهما، عابس بن سعيد المرادى (ت ٦٨ هـ) صاحب الشرط، بأنه باع آخرته بدنياه أى أنه تخلى عن القيم جريا وراء المنفعة الشخصية عن طريق خدمة الحاكم. أما ثالثهما، سليم بن عتر التجيبى (ت ٧٥ هـ) قاضى مصر وصاحب القصص بها فقال له : « أما أنت يا سليم بن عتر فكنت قاصاً فكان معك ملكان يفتيانك ويذكرانك، ثم صرت قاضيا فمعك شيطانان يزيغانك عن الحق ويفتنانك » ولكن عبد الله كان حينذاك فى أخريات عمره، فقد

---

(١) الكندى: ولاة : ٣٦ و ٣٧ . (٢) الطبرى : تاريخ - ١ : ٣٣١٢ .

(٣) الكندى : ولاة : ٣٧ : ٣٨ .

(٤) الطبرى : تاريخ - ١ : ٣٣٩٨ - ٣٤٠٠ . الكندى : الولاة : ٢١ ، ٢٧ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم - ١ : ١٦٣ .

توفى سنة ٦٥ هـ، كما كان قد عمى[١]، ولذا ضعف قلبه وأسرع إلى المبايعة عندما هدده صاحب الشرط بإحراق داره عليه[٢]، قد تكون هذه القصة التى يرويها أبو قبيل المعافرى (ت ١٢٨هـ) صاحب الملاحم والفتن والذى اختلفوا فى توثيقه[٣]، مجرد قصة، ولكنها تصور رأى القارئ المصرى فى حكم الأمويين الرجعى الذى أفسد الذمم وأكره الناس على ما لايحبون .

ومضى زمن طويل، أكثر من نصف قرن، قبل أن يظهر القراء مرة أخرى على مسرح الحوادث، فقد كان الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ – ١٢٥ هـ) شديد العطف على النصارى[٤] . وحمد له نصارى مصر ذلك، ووصفه مؤرخوهم بأنه كان رجلا خائفا من الله على طريق الإسلام، وكان محبًّا لسائر الناس، ويخلص « الارثدكسيين »[٥] وانتهزوا فرصة العهد المتسامح – وكانت لاتعرض إلا نادراً – ليحلوا ما أمكن من مشكلاتهم ومنها أن نساءهم وأولادهم كانوا فى ذهابهم إلى الكنائس الداخلة بالفسطاط وعودتهم منها لا يأمنون من معترض يعترضهم، وخاصة فى ليالى صوم الأربعين، إذ لم يكن لهم بد من اختراق الأحياء الإسلامية الخالصة . فشكوا ذلك إلى الوليد بن رفاعة، والى مصر حينذاك، وسألوه – كحل للمشكلة – أن يأذن لهم فى إعادة بناء كنيسة أبى مينا الموجودة فى حى الحمراء الذى يقع خارج الفسطاط . وتمشياً مع موقف الخليفة المتسامح من الذميين أذن الوليد لهم . وكان ذلك عام ١١٧ هـ . ولم يكد الخبر يعرف حتى ثارت ثائرة الرأى العام ظناً بأن فى ذلك خروجاً على تعاليم الدين وتساهلا غير مشروع إزاء الأديان المخالفة للدين الرسمى ذى السيادة . واعتقد أحد الخوارج، وهيب اليحصبى، أن من واجبه قتل الوالى الخارج على الدين . فراح يتعقبه فى غدوه ورواحه يتحين فرصة مناسبة لينقض عليه ويفتك به . ولكن حراس الوالى سرعان ما كشفوا أمره . فأخذوه وقتلوه . كان قتل وهيب زيتاً صب على النار المشتعلة، وأحدث رد فعل عنيفا

(١) ابن سعد : الطبقات – ج ٤ ق ٢ : ١١ ، ج ٧ ق ٢ : ١٨٩ .

(٢) الكندى : ولاة ٣٩ ، قضاه : ٣١٠ .

(٣) الذهبى : ميزان الاعتدال – ١ : ٦٢٣ – ٦٢٤ .

(٤) ترتون : أهل الذمة فى الإسلام : ١١٢ .

(٥) ساويرس : سير الآباء البطاركة – ١ : ٣٢٨ .

فى الأوساط اليسارية وبخاصة القراء الذين كانوا ما يزالون يذكرون أن الخوارج يتصلون بهم صلة الفرع بالأصل . تجمع القراء فى جزيرة الفسطاط التى بين الجسرين — جزيرة الروضة حاليا — يتزعمهم شريح بن صفوان التجيبى ، والمحدث ابن شريح الفقيه المشهور (ت ١٥٨) هـ . وأعلنوا الثورة على الأمير الذى قتل زميلهم اليسارى . وخشى الوليد أن تندلع نار الفتنة ويتسع نطاقها ، فبادر بإرسال قوات الدولة إلى القراء الثائرين فى الجزيرة الصغيرة حيث دارت معارك دامت أياماً كانت معونة : امرأة وهيب الشارى . تطوف فى خلالها ليلا على منازل القراء تحرضهم على الطلب بدم زوجها المطلول . ولكن القراء لم يكن لهم قبل بمقاومة قوات الدولة ، فلم يلبثوا حتى كفوا عن المعركة غير المتكافئة وتفرقوا[١].

يختفى القراء من الحياة السياسية فى مصر بعد ذلك إذ لا ترد أية إشارة إلى اشتراكهم فى الحركات الثورية الكثيرة التى لم تزل تتتابع حتى سقوط الدولة الأموية الذى شهدت مصر نفسها الفصل الأخير منه فى أخريات سنة ١٣٢ هـ . وبالرغم من أن الحركات الثورية لم تتوقف فى عهد العباسيين فإن القراء لم يظهروا سوى مرة واحدة عندما اشتد ضيق المصريين بقاضيهم عبد الرحمن العمرى (١٨٥ — ١٩٤ هـ) فخرج نفر من قراء مصر إلى بغداد حيث قابلوا هارون الرشيد وشكوا إليه قاضيهم العابث . ولم يستجب الخليفة إلى شكواهم بالرغم من جديتها بل أمرهم بالانصراف . ويستوقف النظر أن هؤلاء القراء — فيما تصف الرواية — قد « احتسبوا فى خروجهم إلى هارون » وكأن مقابلة الحاكم للشكوى من موظف عام عمل من أعمال الجهاد يحتمل أن يؤدى إلى الاستشهاد[٢] . لقد انسحب القراء من ميدان العمل السياسى ، واقتصروا على ممارسة النشاط العلمى ، وأصبحوا مثلهم مثل القضاة والفقهاء يتمتعون بنفوذ أدبى يستمدونه من صفتهم الدينية . ولذا فإنه عندما خلع أبو العساكر جيش بن خمارويه فى جمادى الآخرة ٢٨٣ هـ كان كل دور القراء هو أنهم أحضروا مع من أحضر من القضاة والفقهاء فتبرأ إليهم الأمير المخلوع من بيعته وحللهم منها وأشهدهم على نفسه بذلك[٣]. وهذا كله يعنى فى

---

(١) الكندى : ولاة : ٧٧ — ٧٨ . ترتون : أهل الذمة فى الإسلام : ٣٩ .
(٢) الكندى : قضاة : ٤١٠ — ٤١١ .
(٣) الكندى : ولاة : ٢ : ٢٤٢ .

بساطة أن القراء فقدوا ثوريتهم ، أى تخلوا عن الدور الثورى الذى لم ينفكوا يقومون به منذ ظهرزا مع الدين الجديد فى الجماعة الإسلامية الجديدة . ذلك بأن أحزاب المعارضة السياسية – ومن أهمها الخوارج والشيعة – قد امتصت القراء تدريجيًّا كقوة ثورية وسلبتهم وظيفتهم السياسية فى المجتمع . كما أن نمو الدولة الإسلامية وازدياد قوتها العسكرية ، واتساع مواردها المالية قد أكسبها القدرة على إخضاع خصومها بالسيف إن لم يفلح المال . وأيا كان الأمر فإن انسحاب القراء من الحياة السياسية واقتصارهم على النشاط العلمى سجل انتهاء مرحلة من مراحل تاريخهم هى مرحلة السيادة حيث كان القارئ يمثل شخصية طليعية فى مجتمعه ، ويقوم بدور ثورى تقدمى ، ويمارس نوعاً من الزعامة الفكرية والسياسية . كما كان ذلك إيذانا ببدء مرحلة جديدة، يمكن أن نصفها بأنها مرحلة احتراف .

٣ – القارئ المحترف

من الحق أن جذور الاحتراف بقراءة القرآن ترجع إلى وقت أقدم من ذلك بكثير، فقد صرح عمر بن الخطاب بأنه كان يحسب أن من قرأ القرآن إنما يريد به الله وماعنده ثم خيل إليه بأخرة أنه قد قرأه أقوام يريدون به الدنيا ويريدون به الناس . ولذلك وعظ عمر الناس فى الخطبة التى ألقى فيها بهذا التصريح قائلا : « ألا فأريدوا الله بأعمالكم ، وأريدوه بقراءتكم [١] ». وتشكك عمر فى أن يكون القارئ الكبير أبى ابن كعب قد تقاضى أجراً من الشاميين الذين جاءوا إلى المدينة يكتبون مصحفاً لهم ، ولكن أبيًّا نفى ذلك بشدة [٢] . ولاحظ عمر على القراء الميل إلى التبطل – استناداً إلى حفظهم القرآن بالطبع – فدعاهم إلى التماس الرزق ونهاهم عن أن يكونوا عالة على الناس [٣] . وتوقع على بن أبى طالب أن يحرم القراء الأجر يوم القيامة لأنهم يتقاضونه فى الدنيا فعلا فى صورة منافع مادية وتقدير أدبى [٤] . على أن المدهش

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ١٦٧ .
(٢) السجستانى : المصاحف : ١٥٧ .
(٣) ابن عبد ربه : العقد – ٦ : ٢٧ .
(٤) الغزالى : إحياء – ١٠ : ١٣٠ .

حقاً أن يرجد فى أواسط القرن الأول من يتسول بالقرآن فى طرقات البصرة[1] . وعبر التابعى الكرفى الناسك زاذان (ت ٨٣ هـ) عن استنكافه ظاهرة الاحتراف بالقرآن فى قوله : « من قرأ القرآن يتأكل به الناس جاء يوم القيامة ووجهه عظم ليس عليه لحم[2] » أما الشاعر ذو الرمة (ت١٠١ هـ) فقد دمغ القراء المحترفين فى قسوة حين قال :

هم اللصوص وهم يدعون قراء[3]

على أن الاحتراف قد بلغ أشده فى القرن الثانى على نحو ما يتبين من أقوال رجال هذا القرن الذين هاجموا القراء المحترفين هجوما عنيفا . فقرر الحسن البصرى (ت ١١٠ هـ) أن من القراء من اتخذ القرآن بضاعة ينقله من مصر إلى مصر يطلب به ماعند الناس[4] . ونهى ميمون بن مهران الزاهد (ت ١١٧ هـ) القراء عن أن يتخذوا القرآن بضاعة يلتمسون بها الربح فى الدنيا[5] . أما الحافظ عبد الله بن المبارك (ت ١٨١ هـ) فقد صرح بأن العاصمة بلهوها وثرائها لاتصلح إلا لنوع بعينه من القراء حين قال :

أيها الناسك الذى لبس الصو	ف ، وأضحى يعد فى العباد
الزم ، الثغر والتعبد فيه	ليس بغداد مسكن الزهاد
إن بغداد للملوك محل	ومناخ للقارئ الصياد[6]

ونبه الفضيلى بن عياض (ت١٨٧ هـ) القراء إلى أنه ينبغى لحامل القرآن أن لايكون له حاجة إلى أحد من الخلق إلى الخلفية فمن دون ، وينبغى أن تكون حوائج الخلق إليه[7] . ومن الخلق الذى يجب أن يتحقق فى القارئ ، فى رأى المحدث الكوفى الزاهد

---

(١) الآجرى : أخلاق حملة القرآن : ١٦ و .
(٢) المصدر نفسه : ٢٠ ظ .
(٣) جولد تسيهر : العقيدة : ٧١ .
(٤) ابن عبد ربه : العقد — ٢ : ٢٤٠ .
(٥) الشعرانى : الطبقات — ١ : ٤٤ — ٤٥ .
(٦) الخطيب البغدادى : ت . بغداد — ١ : ٦ ، ٢١ .
(٧) الآجرى أخلاق حملة القرآن : ١٥ . الشعرانى : الطبقات — ١ : ٧٦ .

عيسى بن يونس السبيعي (ت ١٩١ هـ) ألا يتأكل بالقرآن ، ولا يقضى حوائجه به ، ولا يجالس الأغنياء به ليكرموه[١] .

وفى القرن الثالث يقرر السرى السقطى (ت ٢٥٣ هـ) أن الدنيا سحارة قلوب العباد والقراء تلعب بهم كما يلعب الصبيان بالأكرة[٢] . ووصف الصوفى المصرى ذوالنون (ت ٢٤٥هـ) قراء زمانه بأنهم ــ مثلهم مثل العباد والنساك ــ قد غلب عليهم التهاون بالذنوب ، وأقبلوا على أكل الحرام ، وأنهم عبيد الدنيا لاعلماء الشريعة ، واتخذوا من العلم شبكة يصطادون بها الدنيا[٣] .

ورسم الآجرى (ت ٣٦٠ هـ) صورة للقارئ الذى لايريد الله عز وجل بقراءته ــ أى المحترف ــ فى القرن الرابع . ومن خطوط هذه الصورة أنه اتخذ القرآن بضاعة يتأكل به الأغنياء ، ويستقضى به الحوائج ، ويعظم أبناء الدنيا (الأغنياء) ، ويحقر الفقراء ، إن علم الغنى رفق به طمعا فى دنياه ، وإن علم الفقير زجره وعنفه لأنه لادنيا له ، وإن كان حسن الصوت أحب أن يقرأ للملوك ويصلى بهم طمعا فى دنياهم[٤] . ولا يكتم المقدسى الرحالة (ت ٣٧٨ هـ) عدم محبته للقراء الذين قابلهم فى رحلاته لأنهم لا ينفكون من الطمع وسوء النية[٥] .

وقد سجل احتراف القراء وما اقترن به من عيوب فى صورة أحاديث منسوبة إلى النبي وتتنبأبمجىء قراء يحفظون القرآن حفظا آلياً، يشربونه كما يشرب الماء فهو لا يتجاوز تراقيهم وهم سيسألون به الناس ، ويطلبون به الدنيا ، ويتعجلون أجره ولا يتأجلونه . كما أنهم مسلمون غير صادقين يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية ، أولئك هم وقود النار[٦] .

وأدى الاحتراف بالقراء إلى انحرافات سلوكية خطيرة سجلها عليهم معاصروهم من الزهاد بصفة خاصة مثل : الشعبي (ت ١٠٣ هـ) وشعبة بن الحجاج المحدث

---

(١) الآجرى : أخلاق حملة القرآن : ٧ ظ – ١٠ و .

(٢) الشعرانى : الطبقات – ١ : ٨٢ .

(٣) المصدرنفسه – ١ : ٧٨ .

(٤) متز : الحضارة الإسلامية ١ : ٧٢ .

(٥) الآجرى : أخلاق : ١١ – ١٢ ظ .

(٦) أبوعبيد : فضائل : ٢٣ . ابن سعد : الطبقات – ج ٧ ق ١ : ١٩ . ابن عبد ربه : العقد – ٢ : ٢٣٩ – ٢٤٠ الآجرى : أخلاق : ١٣ ظ – ١٤ ظ ، ١٦و.

البصرى العابد الزاهد (ت ١٦٠ هـ) ، والفضيل بن عياض (ت ١٨٧ هـ) ، وعبد الله بن وهب (ت ١٩٧ هـ) ، وذى النون المصرى (ت ٢٤٥ هـ) ، والآجرى (ت ٣٦٠ هـ) . ومن أبرز هذه الانحرافات الانغماس فى الترف الذى يظهر فى غلظ الرقاب ، ورقة الثياب ، والشره . فى الطعام[١] ، والقراء أصحاب عجب وتكبر وازدراء للعامة ، إن أحبوك مدحوك بما ليس فيك . وإن غضبوا شهدوا عليك زوراً وقبل ذلك منهم . كما أن الغيبة فاكهتهم[٢] . ومنع عبد الله بن وهب شهادة القارئ على القارئ لأنهم أشد الناس تحاسداً وتباغضاً[٣] وغرق القراء فى شهوة بطونهم وفروجهم ، ولبسوا الثياب على قلوب الذئاب[٤] . وأصبح الشيطان يلعب بهم كما يلعب الصبى بالجوز[٥] . وسجل الآجرى على القارئ المعاصر له أنه تائه ، متكبر ، كثير الكلام بغير تمييز ، يعيب كل من لم يحفظ كحفظه ، ليس للخشوع فى قلبه موضع ، كثير الضحك والخوض فيما لا يعنيه ، لا يخشع عند استماع القرآن ولا يبكى ولا يحزن ، أخلاقه فى كثير من أموره أخلاق الجهال الذين لا يعلمون[٦] .

ويتنبأ عدد من الأحاديث بما أصاب سلوك القراء من انحراف فى القرون التالية . فيروى مالك (ت ١٧٩ هـ) حديثاً يتنبأ بخروج قوم « يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، ويمرقون من الدين مروق السهم من الرمية » بالرغم من أن صلاتهم وصيامهم وأعمالهم على درجة عليا من الإتقان[٧] ويروى ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ) حديثاً آخر فى المعنى نفسه[٨] . أما البخارى (ت ٢٥٦ هـ) فيروى ثلاثة أحاديث خاصة بهؤلاء القوم » تتكرر فيها نفس صفاتهم الأساسية ، مع زيادات أخرى تحدد المشرق على أنه الجهة التى يخرجون منها ، والتحليق أو التسبيد — أى إزالة الشعر أو استئصاله —

---

(١) ابن عساكر : ت . دمشق — ٧ : ١٤٢ .
(٢) الشعرانى : الطبقات — ١ : ٧٦ .
(٣) السبكى : طبقات الشافعية — ١ :
(٤) الشعرانى : الطبقات — ١ : ٧٨ .
(٥) المصدر نفسه — ١ : ٦٣ .
(٦) أخلاق : ١١ — ١٢ ظ .
(٧) الموطأ — ١ : ٢٠٤ — ٢٠٥ كتاب القرآن .
(٨) الطبقات — ج ٧ ق ١ : ١٩ .

على أنه سيماهم ، كما تأمر بقتلهم فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة[١]. لكن يلحظ أن هذه الأحاديث لا تتحدث عن هؤلاء الناس بماهم قراء ، فهى إنما تتحدث عن ناس يتظاهرون بالتدين الشديد والحرص التام على الدين وهم فى نفس الوقت يخرجون عليه ويهدمونه . وهم يحفظون القرآن حفظاً جيداً — إلا أنه آلى تماماً — كجزء من تمويه حقيقتهم . كما يلحظ أن مجاميع الحديث تضع هذه الأحاديث عادة فى الأبواب الخاصة بالقرآن مما قد يوهم أن المقصود بها هم القراء أو نوع بعينه منهم . ويروى ابن سلام (ت ٢٢٤ هـ) حديثاً يذكر أن بعض الأفراد سيقبلون على تعلّم القرآن لمجرد التباهى[٢] . ويروى مسلم (ت ٢٦١ هـ) حديثاً آخر ، يسجل الظاهرة نفسها وينذر بأن هذا النوع من القراء سيعاقبون يوم القيامة بأن يسحبوا على وجوههم حتى يلقوا فى النار[٣]. ويروى ابن خزيمة (ت ٣١١ هـ) فى صحيحه الحديث نفسه بعد أن يضيف إليه كيف أن معاوية بكى عندما سمع هذا الحديث بكاء شديداً حتى ظنوا أنه هالك[٤] . ثم يروى الطبرانى (ت ٣٦٠ هـ) حديثا يقرر أن هؤلاء القراء المتباهين بحفظهم . الذين يقولون : من أقرأ منا ؟ من أعلم منا ؟ من أفقه منا ؟ سيكونون وقود النار[٥] . أما ابن حنبل (ت ٢٤١ هـ) فيروى عن طريق عبد الله بن عمرو بن العاص حديثاً يقرر فى صراحة أن القراء يشكلون الجزء الأكبر من منافقى الأمة الإسلامية[٦] . ويروى الحديث نفسه عن طريق عقبة بن عامر أيضاً[٧]. وعند البخارى حديث يشبّه المنافق الذى يقرأ القرآن بالريحانة ريحها طيب وطعمها مر[٨] .

تتفق هذه الانحرافات جميعاً — سواء كانت آلية حفظ القرآن ، أو التباهى به أو النفاق فيه — فى أنها مظاهر متنوعة لسلوك بعينه هو الرياء . ولما كان الرياء

---

(١) الصحيح — ٦ : ٣٣٩ — ٣٤٠ كتاب فضائل القرآن ٩٥ : ٢٨٩ كتاب التوحيد .
(٢) فضائل : ٢٣ .
(٣) المنذرى : الترغيب والترهيب — ١ : ٦١ — ٦٢ .
(٤) المصدر نفسه — ١ : ٦٣ — ٦٤ .
(٥) المصدر نفسه — ١ : ١٢٩ — ١٣٠ .
(٦) سند — ١٠ : ٦٦٣٣ ، ٦٦٣٤ ، ٦٦٣٧ .
(٧) الخطيب — ت . بغداد — ١ : ٣٥٧ .
(٨) الصحيح — ٦ : ٣٤٠ كتاب فضائل القرآن .

بدوره ، انحرافاً سلوكيا خطيرا فقد ذكر حديث يرويه ابن ماجة (ت ٢٧٣ هـ) والترمذي (ت ٢٧٩ هـ) والعقيلي (ت ؟ هـ) أن في جهنم واديًا اسمه « جب الحزن » تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين أو مائة أو أربعمائة مرة ، أعد للقراء المرائين بأعمالهم ، وأن من أبغض القراء إلى الله عز وجل الذين يزورون الأمراء[1] . ولما كان اتصال القراء بالأمراء – أى الحكام – يشكل خطراً على الجماعة بما يؤدى إليه من تواطئهم على الإضرار بالمصلحة العامة . فقد حذر حديث ، يرويه ابن ماجة ، القراء من هذا الاتصال الذى لن يجنوا منه سوى الخطايا مثلما لا يجتنى من القتاد إلا الشوك[2] . وقرر حديث آخر أنه « لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وكنفه مالم تمالئ قراؤها أمراءها[3] » بل نسب إلى الصحابى الجليل عبادة بن الصامت (ت ٣٥ هـ) أنه قال : « حب القارئ الناسك الأمراء نفاق . وحبه الأغنياء رياء »[4] . كما نسب إلى سفيان الثورى (ت ١٦١ هـ) أنه قال : « فى جهنم واد لايسكنه إلا القراء الزوارون للملوك »[5] ، ولعل هذه الكلمة هى أصل الحديث المذكور آنفا فى هذا المعنى .

ويبدو أن رياء القراء كان جزءاً من ظاهرة خلقية عامة إذ كانت التقوى الكاذبة ، والرياء فى الأعمال الدينية بأن يقصد بها كسب إعجاب الناس . أمراً شائعاً منذ وقت بعيد . وكانت الخلقية الإسلامية تعد الرياء نوعا من الشرك يعرف بالشرك الأصغر أو الشرك الخفى لأن الفرد يضع فى أعماله بإزاء التفكير فى الله التفكير فى مراعاة الناس[6] . وإذا كان الأمر فقد استطاع أحد الشعراء أن يصور جسامة انحراف القراء فى أبسط تعبير حين قال :

يا معشر القراء ، يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد[7]

وإن لم يكن ثمة شك فى أن هذا الشاعر قد نظر ملء عينيه فى قوله هذا إلى قول الإنجيل : « أنتم ملح الأرض . ولكن إن فسد الملح فماذا يملح ؟ لا يصلح بعد لشىء إلا لأن يطرح خارجاً ويداس من الناس »[8] .

(١) المنذرى : الترغيب والترهيب – ١ : ٦٦ – ٦٧ . السيوطى : اللآلى المصنوعة – ٢ : ٢٤٥
(٢) المنذرى : الترغيب والترهيب – ١ : ١١٧ .
(٣) الغزالى : إحياء – ٥ : ١٢٧ . (٤ و ٥) المصدرنفسه – ٥ : ١١٣ .
(٦) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة : ٣٢ ، ٥٣ .
(٧) الغزالى : إحياء – ١ : ١٠٢ .
(٨) إنجيل متى : الإصحاح الخامس : ١٣ .

على أنه لابد لنا من أن نقرر أن الأحاديث السابقة تميل فى مجموعها — وهو ما لم يفت رجال الحديث — إلى الضعف سنداً ومتنا . ولكن ذلك لايفقدها بحال قيمتها التاريخية من حيث هى نصوص سجلت فيها الجماعة مظاهر انحراف القراء ، وعبرت بها عن استنكارها ذلك الانحراف ، ووجهت من خلالها اللوم والتحذير إلى القراء .

وبالرغم من غلبة الاحتراف على القارئ بحيث أصبح يشكل مرحلة جديدة فى تاريخه ، فقد حاول بعض القراء أن يستعصوا على الاتجاه الجديد متشبثين بمظاهر المرحلة الثورية السابقة التى ظلت تبدو حيناً وتختفى حينا آخر حتى انتهى بها الأمر إلى الاضمحلال التام . فيتنبأ على بن أبى طالب متفقا مع الحديث أنه بالرغم من أن أناسا سيحفظون القرآن طلبا للنفع المادى ، أو لاستخدامه فى الجدل أو حتى تباهيا فسيظل هناك من يقرؤه لله[1] . واقترح بعضهم على علقمة بن قيس النخعى القارئ الكوفى (ت ٦٢ ﻫ) أن يتصل بالأمراء فيعرفوا له شرفه ، ولكنه رفض خشية أن ينالوا منه[2] أكثر مما ينال منهم . وأرسل بعضهم إلى أبى عبد الرحمن السلمى (ت ٧٤ﻫ) إبلا عظيمة لأنه علم ابنه القرآن فردها قائلا : إنا لا نأخذ على كتاب الله أجراً[3] . وقسم الحسن البصرى قراء زمانه إلى ثلاثة : قارئ محترف يتخذ من القرآن سلعة يتجربها فى البلاد ، وآخر يتقرب به إلى الحكام ويستطيل به على الناس وثالث قرأ القرآن ووضع دواءه على داء قلبه ، فأسهر ليله ، وأظمأ نهاره ، ومنع شهوته ، وتسربل الخشوع ، وارتدى الوقار ، واستشعر الحزن . وبفضل هذا الضرب الأخير من القراء يسقى الله الغيث ، وينفى العدو ، وينزل النصر ، ويدفع البلاء[4] . وظل القارئ الكبير حمزة الزيات (ت ١٥٦ ﻫ) يكره أن يشرب من بيت من يقرأ عليه القرآن الماء[5] . ولم تكن هذه الأقوال والأعمال سوى أصداء فى طريقها إلى التلاشى للمرحلة السابقة . ويكفى أن

(١) أبو عبيد : فضائل ٢٣ . الآجرى : أخلاق : ١٠ ظ .

(٢) ابن سعد : الطبقات – ٦ : ٥٩ .

(٣) المصدرنفسه – ٦ : ١٢٠ .

(٤) ابن عبد ربه : العقد – ٢ : ٢٤٠ . الآجرى : أخلاق

(٥) الآجرى : أخلاق : ٢٠ و .

الحسن البصرى يعترف فى تقسيمه السابق بأن النوع الثالث من القراء أعز من الكبريت الأحمر .

أما القارئ المصرى فى عصر الاحتراف فهو يعتمد — إلى جانب اشتغاله بالقراءة — على ثروته الخاصة فى بعض الحالات . فكان الثراء الواسع مع السخاء المشهور من أبرز سمات الليث بن سعد (ت ١٧٥ هـ)[١] . وكان لأشهب بن عبد العزيز (ت ٢٠٤ هـ) رياسة فى البلد ومال جزيل[٢] . ويروى أن سليمان ابن داود الرشدينى (ت ٢٥٣هـ) قد ورث عن والده عشرة آلاف دينار ففرقها وأصبح كواحد من أصحابه[٣] . ورأى بعضهم محمد بن عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢٦٨ هـ) يركب حماراً قصيراً منتوف الذنب ، وقميصه مرقوع ، ولو شاء أن يلبس أرفع ما يكون لفعل لأنه كان عنده من المال أمر كثير ، ولكنه كان متواضعا[٤] .

وكان القارئ المصرى يتصل بالحاكم وينال جائزته . فقد نال زرعة بن سهيل جائزة عبد العزيز بن مروان لما كشف الغلطة فى مصحفه سنة ٧٦هـ[٥] . ووجه ابن طرلون صلة إلى محمد بن عبد الله بن عبد الحكم لما شرب وتوضأ من سقايته فى المعافر ليقدم للرأى العام الدليل العملى على أن ماءها حلال[٦] . ولما افتتح ابن طرلون مسجده سنة ٢٦٦ هـ ، جلس فيه الربيع سليمان المرادى (ت ٢٧٠ هـ) وأملى الحديث — وهو أول من أملى به — فوصله ابن طرلون بجائزة سنية كيسا فيه ألف دينار[٧] .

واتصل القارئ المصرى بالحاكم عن طريق آخر عندما شغل الوظائف الحكومية . فكان عبد الرحمن بن المصرى (ت ٩٧ جبير أو ٩٨ هـ) مؤذنا[٨] . وكان راشد العبدوى (ت ١١٩ هـ) هو وإخوانه القراء والفقهاء يخلفون الأمراء والقضاة

---

(١) البغدادى : ت . بغداد — ٩٠١٣ — ١٠ . ابن خلكان : وفيات — ١ : ٥٥٤ . الذهبى : تذكرة — ١ : ٢٠٣ — ٢٠٤ . ابن حجر : ت . التهذيب — ٨ : ٤٦٤ . السيوطى : حسن — ١ : ١٢٠ .

(٢) ابن خلكان : وفيات — ١ : ٩٧ .

(٣) ابن فرحون : الديباج : ١١٩ .

(٤) الذهبى : تذكرة — ٢ : ١٢٧ .

(٥) ابن دقماق : الانتصار — ٤ : ٧٢ . ابن حجر : رفع الإصر : ٣١٧ — ٣١٨ .

(٦) ابن خلكان : وفيات — ١ : ٥٧٨ — ٥٧٩ . المقريزى : خطط — ٢ : ٤٥٧ — ٤٥٨ .

(٧) السيوطى : حسن — ١ : ١٤٦ ، ٢ : ١٣٧ .

(٨) ابن حجر : ت . التهذيب — ٦ : ١٥٥ .

فى الجامع العتيق إذا غابوا[١]. وكان قُباث بن رُزين اللخمى (ت ١٥٦ هـ) إمام مسجد مصر[٢]. وولى عبد الرحمن بن ميسرة (ت ١٨٨ هـ) التابوت سنة ١٥٥ هـ[٣] كما كان أحد شهود القاضى العمرى (١٨٠ – ١٩٤ هـ)[٤] . وكتب ورش (ت ١٩٧ هـ) لعبد الملك بن محمد الأنصارى قاضى مصر (١٧٠ – ١٧٤ هـ)[٥]. وجعل القاضى العمرى أشهب بن عبد العزيز على مسائله[٦]، بمعنى أنه عينه رئيساً للأفراد الذين خصصهم للسؤال عن حال الشهود . وكتب داود بن أبى طيبة (ت ٢٢٣ هـ) لابن المنكدر قاضى مصر (٢١٢–٢١٤ هـ)[٧]. وكان الربيع ابن سليمان المرادى مؤذنا بالمسجد الجامع بالفسطاط ويأخذ جارى السلطان على أذانه[٨] . وكان أبو الردّاد المعلم (ت ٢٨٠ هـ) يؤذن فى الجامع العتيق كذلك. ويعلم الصبيان القرآن . فلما أنشىء مقياس النيل الجديد بجزيرة مصر (الروضة حالياً) سنة ٢٤٧ هـ عزل النصارى عنه ، وجمع إليه جميع النظر فى أمره وما يتعلق به ، وأجرى عليه صاحب الخراج سبعة دنانير . فكان أول مسلم يلى مقياس النيل[٩] . وكتب أبوجعفر الطحاوى (ت ٣٢١ هـ) لابن عبدة قاضى مصر (٢٧٧ – ٢٨٣ هـ ، ٢٩٢ هـ) وكان صعلوكاً فأفتاه[١٠] .

وفى أخريات القرن الثانى الهجرى كان للقراء دار خاصة بهم فى الفسطاط وكانت هذه الدار توجد فى مسجد عبد الله، وهو المسجد الذى أنشأه والى مصر الأموى عبد الله بن عبدالملك (٨٦–٩٠هـ) ثم أتلفه العباسيون لما فتحوا مصر سنة ١٣٢هـ ، ثم رممه وجدده قاضى مصر عبد الرحمن العمرى سنة ١٨٨هـ[١١].

---

(١) ابن عساكر : ت . دمشق – ٥ : ٢٩٠ . (٢) ابن حجر : ت. التهذيب – ٨ : ٣٤٣ .

(٣) الكندى : الولاة : ١١٨ .

(٤) ابن حجر : ت التهذيب – ٦ : ٢٨٤ .

(٥) الكندى : القضاة : ٣٨٤ . وهو مذكور هناك خطأ باسم ورش المقبرى ، وصحته : ورش المقرى راجع : ابن حجر : رفع الإصر : ٢٧١ .

(٦) الكندى : القضاة : ٣٩٥ .

(٧) المصدر نفسه : ٤٣٥ ، ٤٣٦ .

(٨) ابن النديم : الفهرست ٢١١ . السبكى طبقات الشافعية – ١ : ٢٦٠ .

(٩) الكندى : الولاة : ٢٠٣ . ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٣٩ .

(١٠) ابن خلكان : وفيات – ١ : ٢٣ .

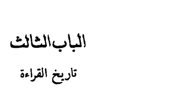
(١١) الكندى : القضاة : ٤٠٦ وما بعدها .

وكان لايزال قائماً أيام سيبويه المصرى (ت ٣٥٨ھ)[١] . وفى هذه الدار كان يسكن قارئ مصر العظيم ورش (ت١٩٧ ھ) ، وفيها كان يقرئ تلاميذه الذين اشتهر منهم أبو يعقوب الأزرق (ت ٢٤٠ھ) الذى خلفه فى القراءة والإقراء بمصر[٢] .

---

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى : ٣٠ ، ٣٦ ، ٤٦ .

(٢) ابن الجزرى : غاية – ٢ : ٤٠٢ . النشر – ١ : ١١٣ .



الباب الثالث

تاريخ القراءة



١ – القراءة الحرة

يذكر ابن عبد الحكم [١] أن شرحبيل بن حسنة هو ممن دخل مصر من أصحاب رسول الله (صلعم) فرووا عنه حكاية عن رأيه . ولم يروعنه غيرهم . ولهم عنه حديث، وهو : ابن وهب عن يحيى بن أيوب عن جعفر بن ربيعة عن على بن رباح عن شرحبيل بن حسنة أنه قرأ فى الجمعة : « بالذين كفروا وصدوا عن سبيل الله » . حدثناه عمرو بن سواد .

وهكذا يكون المؤرخ المصرى قد احتفظ لواحد من الصحابة بقراءة خاصة ، ذات سند مصرى خالص : للآية ١٦٧ من سورة النساء : « إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيداً » ، أو – وهو الأقرب – الآية ٨٨ من سورة النحل : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون » . وقبل أن نمضى فى مناقشة القراءة يلفت نظرنا أن شرحبيل – وهو صحابى فعلا ، وكان يكتب للنبى [٢] – لا يمكن أن يكون دخل مصر ، كما ظن ابن عبد الحكم ثم ابن تغرى بردى [٣] فيما بعد لسبب بسيط جداً هو أنه توفى فى الأردن التى فتحها بسيفه فى طاعون عمواس سنة ١٨ ﻫ مع غيره من كبار القادة والصحابة [٤] ، فى حين أن مصر فتحت كما هو معلوم سنة ٢٠ ﻫ .

كيف جاء هذا الخبر إذن ؟ إن الذى شهد فتح مصر ودخلها ليس شرحبيل بن حسنة ولكن ابناه : ربيعة، وعبد الرحمن . وقد اختطا بمصر ، وولى ربيعة المكس بها [٥] ، وترك كل منهما فيها عقبا . فكان هناك عمران بن عبد الرحمن الذى ولى شرط مصر وقضاءها (٨٦ – ٨٩ ﻫ) [٦] ، وجعفر بن ربيعة الذى دار بينه وبين القاسم بن عبيد الله بن الحبحاب صاحب خراج مصر (١٠٥ – ١٢٤ ﻫ) حوار حول

---

(١) فتوح مصر : ٣١٣ ، ٣١٤ .
(٢) البلاذرى : فتوح : ٥٨٢ .
(٣) النجوم – ١ : ٥٠ .
(٤) ابن سعد : الطبقات – ج ٧ ق ٢ : ١١٨ . البلاذرى : فتوح : ١٦٥ – ١٦٦ .
(٥) ابن عبد الحكم : فتوح : ١٠٩ . ابن تغرى بردى : النجوم – ١ : ٢١ .
(٦) الكندى : القضاة : ٣٢٦ – ٣٣٠ .

نسبهم الذى ظل محل خلاف[١] . ولعل يزيد بن شر حبيل بن حسنة الذى كان أحد أشراف مصر الذين هجاهم الشاعر أبو المصعب البلوى (٣٨-٥٣ هـ) فى قصيدة له كان يعجب بها معاوية ويستنشدها كل من يقدم عليه من أهل مصر[٢] . نقول لعل يزيد هذا دخل مصر كذلك عند الفتح مع أخويه ، وهكذا يصبح من المحتمل أن يكون التابعى المصرى على بن رباح (ت ١١٤ هـ) قد روى هذه القراءة عن واحد من أولاد شرحبيل هؤلاء ؛ ولكن سقط اسمه وأصبح الخبر منقطعاً . كما يتضح كيف أن شرجبيل قرأ هذه الآية « فى الجمعة » ؛ أى وهو يؤم الناس قائداً وأميراً فى صلاة الجمعة فى الأردن التى كان يحكمها ، غير أننا لا نستطيع قبول هذا الاحتمال بسهولة إذ لا ذكر لأحد من أولاد شرجبيل فى شيوخ على بن رباح[٣] .

يبدو أن ابن عبد الحكم هو المصدر الوحيد لهذه القراءة ؛ إذ ليس هناك إشارة إليها فى المصاحف القديمة التى جمع آرثر جفرى ما تبقى منها مبعثرا فى كتب التفسير والحديث والقراءات واللغة والنحو والأدب والتاريخ ، وأضافه إلى كتاب المصاحف لابن أبى داود السجستانى بعنوان Materiala for the history of the text of the Qur'an The Qld Codices ولم نجد أكثر من أن بعضهم قرأ : «وصدوا» فى آية سورة النساء بضم الصاد[٤] . وإذا افترضنا صحة ظهور هذه القراءة فى مصر فإنها لن تكون أكثر من لهجة خاصة تقلب الألف ياء كان يتكلم ، وبالتالى يقرأ ، بها ذلك الصحابى الكبير .

يروى الطبرى فى تاريخه أن أبا ذر (ت٣٢هـ)قام بالشام وجعل يقول : يا معشر الأغنياء وأسوا الفقراء « بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » . فهل لنا أن نأخذ ، كما فعل ناشر الطبرى[٦] ، هذه العبارة الأخيرة على أنها الآيتان ٣٤، ٣٥

---

(١) المصدر نفسه : ٣٢٧ . وانظر كذلك : البلاذرى : فتوح : ١٢٨، ٥٨٢؛ ابن الأثير : أسد - ٢ : ٣٩٠-٣٩١ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح : ١٢٣-١٢٤ .

(٣) ابن حجر : ت . التهذيب - ٧ : ٣١٨ .

(٤) ابن خالويه : مختصر فى شواذ القرآن : ٣٠ .

(٥) ١ : ٢٨٥٩ .

(٦) المصدر نفسه - ١ : هامش ص ٢٨٥٩ .

من سورة التوبة ، أو — بتعبير أدق — قراءة أبى ذر الخاصة لهاتين الآيتين : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بهاجباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » ، ونكون بالتالى إزاء ما يشير إلى احتمال مصحف خاص لأبى ذر من هذه المصاحف القديمة التى ألف بعض الصحابة المثقفين أن يكتبوها لأنفسهم فى حياة النبى ذاته ليسجلوا فيها ما يتلقون عنه من القرآن الكريم ؟

توقف الطبرى فى تفسيره وقفة غير قصيرة عند الآية ٣٤ ليذكر الخلاف الذى نشب بين أبى ذر ومعاوية حول تفسيرها وتعيين المقصود بالعذاب فيها ، وفى خلال ذلك تذكر الروايات المختلفة الآية على لسان أبى ذر بالقراءة المتواترة[١] . غير أن خبرين من الأخبار يذكران عند تفسير الآية ٣٥ أن أباذر كان يردد فى حركته تلك : « بشر الكنازين — أو أصحاب الكنوز — بكيٍّ فى الجباه ، وكى فى الجنوب وكى فى الظهور حتى يلتقى الحر فى أجوافهم »[٢] ولكن القرطبى يذكر[٣] أن النبى فسر العذاب الأليم المذكور فى الآية ٣٤ بقوله : « بشّر الكنازين بكى فى ظهورهم يخرج من جنوبهم ، وبكى من قبل أقفائهم يخرج من جباههم» الحديث . ثم يذكر أن أبا ذر روى هذا الحديث الذى أخرجه مسلم هكذا : « بشر الكنازين برَضْف[٤] يحمى عليه فى نار جهنم فيوضع على حلمة ثدى أحدهم حتى يخرج من نُغْض كتفيه[٥] ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه فيتزلزل » الحديث . وهكذا يبدو أن أبا ذر لم يكن فى حركته تلك يردد هاتين الآيتين من سورة التوبة حرفيا فحسب ، وإنما كان — رغبة فى إحداث تأثير أعمق — بشرح ما تتضمنان من صور الوعيد .

يقال إن عبيد بن مخمر المعافرى ، الصحابى الذى شهد الفتح ، هو أول

---

(١) الطبرى : جامع البيان — ١٠ : ٨٦ .

(٢) المصدر نفسه — ١٠ : ٨٧ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن — ٨ : ١٢٨ .

(٤) الرضف : الحجارة المحماة يوغر بها اللبن . ورضفه يرضفة : كواه بها . (القاموس المحيط) .

(٥) النغض : غرضوف الكف ، أوحيث يجىء ويذهب منه كالناغض فيهما . والغرضوف ، الغضروف . (القاموس المحيط) .

من أقرأ أو قرأ القرآن بمصر[١] . ولكن يبدو أكثر وضوحاً وأقرب إلى اليقين أن عبد الرحمن بن ملجم المرادى (ت ٤٠ هـ) هو أول من فعل هذا . بل لقد فعله بتكليف رسمى[٢] . ولما كان ابن ملجم قد تتلمذ على القارئ الصحابى النابغة معاذ ابن جبل (ت ١٨ هـ)[٣] حين ذهب إلى اليمن سنة ٩ هـ قبل النبى ليتولى حكمها ويعلم أهلها الدين الجديد ويقرئهم كتابه[٤] ، فلا بد أن ابن ملجم كان يقرئ المصريين بقراءة أستاذه معاذ . وهناك أمثلة متفرقة لقراءة معاذ هذه فى المصاحف القديمة[٥] ، وعند السجستانى[٦] ، والحاكم النيسابورى[٧] والكرمانى[٨] وإذا كان ابن ملجم قد خرج من مصر مبكراً لتجرفه التيارات السياسية العنيفة التى انتهت به إلى أن يتطوع لاغتيال علىّ سنة ٤٠ هـ[٩] فمن المحتمل أن تكون قراءة معاذ قد واصلت البقاء فى مصر على يدى تلميذ آخر له هو التابعى العابد والإمام المجتهد أبو تميم الجيشانى (ت ٧٧ هـ) الذى قرأ القرآن عليه فى اليمن كذلك[١٠] .

على أن إقامة معاذ لم تطل فى اليمن فقد عاد من هناك ثم خرج إلى الشام ليشترك فى فتوحها فى عهد أبى بكر[١١] . وطالما رآه المسلمون فى مسجد حمص ودمشق رجلا طوالا ، أبيض ، حسن الثغر ، براق الثنايا ، أكحل العينين عظيمهما ، مجموع الحاجبين ، جعداً ، قططا[١٢] ، يتحلق الناس حوله — وفى

---

(١) المقريزى الخطط : ١ : ٣٣٣ . السيوطى : حسن — ١ : ٩٢ .
(٢ و٣) السمعانى : الأنساب : ١٠٤ أ . ابن دقماق : الانتصار — ٤ : ٦ .
(٤) ابن سعد : الطبقات — ج ٣ ق ٢ : ١٢١ — ١٢٢ ، ج ٧ ق ٢ : ١١٤ .
(٥) Jeffery, MHTQ., pp. 351, 354.
(٦) المصاحف : ٩٣ .
(٧) المستدرك — ٢ : ٢٣٨ ، ٢٤٧ .
(٨) الكرمانى : شواذ القراءة : ٣٨ ، ٤٧ ، ١٣٣ وغيرها .
(٩) ابن سعد : الطبقات — ج ٣ ق ١ : ٢٣ .
(١٠) ابن الأثير : أسد — ٥ : ١٥٢ . ابن حجر : ت التهذيب — ٥ : ٣٨ . السيوطى : حسن — ١ : ١١٨ .
(١١) ابن سعد : الطبقات — ج ٢ ق ٢ : ١٠٨ ، ج ٧ ق ٢ : ١١٤ .
(١٢) القطط : القصير الجعد من الشعر (القاموس المحيط) .

القوم من هو أسن منه – ويقبلون عليه ، ويستمعون حديثه ، وإذا اختلفوا فى شىء أسندوه إليه وصدروا عن رأيه[١] . وفى سنة ٦٥ هـ دخل مصر قادماً من الشام مع مروان بن الحكم التابعى الشامى الكبير عبد الرحمن بن غنم الأشعرى (ت ٧٨ هـ) الذى لقى معاذا ، وروى عنه ، ولازمه إلى أن مات[٢] . وليس مصادفة أن قراءة معاذ التى أوردها الحاكم النيسابورى من رواية عبد الرحمن بن غنم. ولسنا نستبعد أن يكون هذا التابعى قد روى شيئاً من قراءة صديقه وأستاذه معاذ فى مصر حين زارها .

ولعل قراءة معاذ قد امتد بها البقاء فى مصر على يدى القارئ المصرى الفقيه جُعْثُل بن عاهان الرعينى (ت١١٥ هـ) تلميذ أبى تميم والذى بعثه عمر بن عبد العزيز إلى المغرب ليقرئهم القرآن[٣] .

كان لعمرو بن العاص فاتح مصر (ت ٤٣ هـ)اهتمامات ثقافية واضحة ، إذ كانت الفصاحة إحدى سماته البارزة[٤] ، وكان شاعراً محسناً[٥] ، بل كان واحداً من كتاب النبى الذين أربوا على الثلاثين[٦] . وقد صحب النبى ووعى عنه كثيراً من أحاديثه التى حدث منها أهل مصر بأكثر من عشرين[٧] . ويؤخذ من أحد الأخبار أن النبى أقرأه وعلمه ما فى القرآن من سجدات[٨] . وقد وردت الرواية عنه فى حروف القرآن[٩] . وذهب قوم إليه يوم الجمعة ليعرض مصحفه على مصاحفهم ، فلما حضرت الجمعة أمر لهم بماء فاغتسلوا ثم تطيبوا وراحوا[١٠] .

ينسب إلى عمرو أن ما اختلف مع عبد الله بن عباس حول قراءة الآية٨٦ من سورة الكهف : « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة »

---

(١) ابن سعد : الطبقات – ج ٣ ق ٢ : ١٢٣ ، ٢٥ اوج ٧ ق ٢ : ١١٤ .

(٢) المصدر نفسه – ج ٧ ق ٢ : ١٥٢ . ابن حجر : ت . التهذيب – ج ٦ :

(٣) ابن حجر : ت . التهذيب – ٢ : ٧٩ . السيوطى : حسن – ١ : ١١٩ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم – ١ : ٦٤ .

(٥) المصدر نفسه – ١ : ٧٢ .

(٦) القلقشندى : صبح – ١ : ٩٢ .

(٧) ابن عبد الحكم : فتوح : ٢٤٨ .

(٨) المصدر نفسه : ٩٧ ، ٢٤٩ . أبو داود : المنهل – ٨ : ١٩ .

(٩) ابن الجزرى : غاية – ١ : ٦٠١ .

(١٠) السجستانى : المصاحف : ١٥٦ .

الآية : فقرأها ابن عباس : « فى عين حمئة » ، بمعنى أنها تغرب فى عين ماء ذات حمأة ، والحمأة الطين الأسود . وقرأها عمرو : « فى عين حامية » ، بمعنى أنها تغرب فى عين ماء حارة . فلما احتكما إلى اليهودى السابق كعب الأحبار (ت ٣٢ هـ) أفتى فى صالح ابن عباس مستنداً إلى التوراة[١] .

باستعراض القراء الذين قرءوا بكل من هاتين القراءتين يتضح لأول وهلة أن الأمصار ومدارس القراءة بالتالى ، يميل كل منهما ميلا واضحا إلى قراءة منهما ، ولعل أبى بن كعب هو أقدم من قرأ بالقراءة الأولى : « حمئة » وعنه تلقاها تلميذه ابن عباس الذى أصبحت هذه القراءة تعرف به وتنسب إليه ، وتابع قراء مكة (مجاهد ت١٠٣هـ – عكرمة ت١٠٥هـ – ابن كثير ت١٢٠ هـ – حميد بن قيس الأعرج ت ١٣٠ هـ) أستاذهم ابن عباس على هذه القراءة . وحذا بعض قراء المدينة (شيبة بن نصاح ت ١٣٠ هـ – نافع ت ١٦٩ هـ) حذو زملائهم المكيين ، فيما عدا جماعة مثل ابن عمر (ت ٧٣ هـ) . وآثر أهل البصرة الأخذ بقراءة أهل الحرمين فاتبعوها (قتادة ت ١١٧ هـ – أبو عمرو بن العلاء ت ١٥٤ هـ – يعقوب الحضرمى ت ٢٠٥ – أبو حاتم السجستانى ت ٢٥٥ هـ) فيما عدا قلة قليلة مثل الحسن البصرى (ت ١١٠ هـ). فى حين قل ميل قراء الكوفة إليها ، فقرأ بها هناك قليلون (عبد الرحمن بن أبى ليلىت ٨٣ هـ حفص ت ١٢٨هـ ابن جبير الأنطاكى ت ٢٥٨ هـ) .

أما أقدم من قرأ بالقراءة الثانية فهو ابن مسعود (ت ٣٦ هـ). ولما كان هو مؤسس مدرسة الكوفة فقد تابعه تلاميذها على تفضيل قراءة : « حامئة » : زيد بن على ت ١٠٢ هـ – طلحة بن مصرف ت١١٢ – عاصم ت ١٢٧ – حمزة ١٥٦هـ – الكسائى ت ١٨٩ هـ، ولعل الحسن البصرى هو أبرز من أخذ بهذه القراءة من أهل البصرة . ومال أهل الشام إلى تلك القراءة ، فقرأ بها معاوية ت ٦٠ هـ ، ثم ابن عامر ت ١١٨ هـ . وحمل عمرو بن العاص ، وابنه عبد الله (ت ٦٥هـ)هذه القراءة إلى مصر من المدينة حيث كان جماعة من قرائها يقرءون بها .

وتتفق هذه النتائج مع ما قرره الطبرى من أن قراءة « حمئة » هى قراءة بعض

---

(١) الترمذى : صحيح – ١١ : ٥٥ – ٥٦ . الطبرى : جامع البيان – ١٦ – ١٠ .

قراء المدينة والبصرة ، فى حين أن القراءة الأخرى : « حامية » قرأها جماعة من قراء المدينة وعامة قراء الكوفة[١] .

والخلاف بين القراءتين يسير جداً على كل حال حتى لقد يمكن الجمع بينهما. قال أبو حاتم السجستانى (ت ٢٥٥ هـ) : وقد يمكن أن تكون « حامية » مهموزة بمعنى : ذات حمأة ، فتكون القراءتان بمعنى واحد . يعنى أنه سهلت الهمزة بإبدالها ياء لكسرة ما قبلها[٢] . والطبرى(ت ٣١٠ هـ)– وهو من علماء القراءات[٣] يعرّف بالقراءتين كلتيهما ، ويقرر أنهما قراءتان مستفيضتان فى قراءة الأمصار ، ولكل واحدة منهما وجه صحيح ومعنى مفهوم ، وكلا وجهيه غير مفسد أحدهما صاحبه . وذلك أنه جائز أن تكون الشمس تغرب فى عين حارة ذات حمأة وطين ، فيكون القارئ : « فى عين حامية » واصفها بصفتها التى هى لها وهى الحرارة ، ويكون القارئ : « فى عين حمئة » واصفها بصفتها التى هى بها وهى أنها ذات حمأة وطين[٤] . وفى شرحه لصحيح الترمذى يقرر الإمام أبو بكر بن العربى (ت ٥٤٣ هـ) أن القراءتين قد قرئ بهما ، وليس بينهما تناقض ، فإن السخانة لاتنافى الحمأة فى الوجود وقد شاهدنا ذلك فى الحامات[٥] . وكلاهما محتمل[٦] . وينبه الفخر الرازى (ت ٦٠٦ هـ)[٧] وأبو حيان الأندلسى (ت٧٤٥هـ) الذى يبدو أنه ينقل عنه : إلى أنه لاتنافى بين الحمئة والحامية ، فجائز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعاً[٨] .

---

(١) الترمذى : صحيح – ١١ : ٥٥ . ٦٠ . الطبرى . جامع البيان – ١٦ : ٩ – ١٠ . الحاكم المستدرك – ٢ : ٢٣٧ – ٢٣٨ ، ٢٤٤ . الدانى : التيسير : ١٤٥ . الكرمانى : شواذ : ١٤٤ . الفخر الرازى . مفاتيح الغيب – ٥ : ٥٠٥ . القرطبى : الجامع : ١١ : ٤٩ . أبو حيان : البحر المحيط – ٦ : ١٥٩ . ابن الجزرى : تقريب النشر : ١٣٨ . غاية – ١ : ٤٣٧ .
Jeffery : MHTQ ., pp. 57, 144, 258

(٢) أبو حيان : البحر المحيط – ٦ : ١٥٩ .

(٣) ابن النديم : الفهرست : ٢٣٤ – ٢٣٥ . ياقوت : معجم الأدباء – ١٨ : ٤٥ . جولدتسيهر : مذاهب التفسير : ١١٠ .

(٤) جامع البيان – ١٦ : ١٠

(٥) الأرجح أنها : الحمّات، جمع حَمّة وهى كل عين فيها ماء حار ينبع يستشفى بها الأعلاء (القاموس المحيط) .

(٦) الترمذى : صحيح : الشرح – ١١ : ٥٥ – ٥٦ .

(٧) مفاتيح الغيب – ٥ : ٥٠٥ .

(٨) البحر المحيط – ٦ : ١٥٩ .

والذى يعنينا على أى حال هو أن الرواية لا تكتفى بأن تنسب هذا الخلاف إلى ابن عباس وعمرو بن العاص فقط[١] ، بل إنها تعود فتجمع فيه بين ابن عباس ومعاوية[٢]. ثم تعود مرة ثالثة فتجمع فيه بين ابن عباس ومعاوية وتشرك معهما عبد الله بن عمر[٣] ، والأصح أنه عبد الله بن عمرو كما سيتضح فيما بعد . وتتفق الرواية فى صورها الثلاث على الاحتكام آخر الأمر إلى كعب الأحبار . ويتخذ الترمذى (ت٢٧٩ هـ)من ذلك وسيلة إلى التشكك فى صحة الخبر إذ لو كانت عند ابن عباس رواية عن النبى بقراءته « حمئة » لاستغنى بروايته ولم يحتج إلى كعب[٤]. ويرفض ابن العربى الاعتماد على قول كعب الأحبار فى الموضوع لأن ذلك منقول من التوراة المبدلة ولا يحتاج إليه : فلا يعول عليه[٥]. ويفسر جولد تسيهر القول بالاحتكام إلى كعب الأحبار بأنه من الافتراضات الساذجة التى ظهرت فى الزمن المتأخر لتنسب إلى المسلمين الأول الرجوع إلى المصادر اليهودية لفهم المدارك الدينية العامة الواردة فى القرآن وفى أقوال الرسول[٦] .

إذا كان عمرو قد اختلف ، فيما تزعم الرواية ، مع ابن عباس حول تلك القراءة فإنه يتفق معه فى قراءة أخرى خاصة بالآية ٤١ من سورة فصلت: « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا : لولا فصلت آياته ؛ أأعجمى وعربى ؟ قل : هو للذين آمنوا هدىً وشفاء . والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى . أولئك ينادون من مكان بعيد » . فإن عمراً يقرؤها : « وهو عليهم عَمٍ »[٧] . وذكر عن ابن عباس أنه قرأها على هذا النحو ، أى بكسر الميم على وجه النعتَ للقرآن[٨] .

لا ينفرد عمرو وابن عباس بهذه القراءة ، بل يشترك معهما معاوية هذه المرة

---

(١) الترمذى : صحيح – ١١ : ٥٥ – ٥٦ . الطبرى : جامع البيان – ١٦ : ١٠

(٢) الطبرى : جامع البيان – ١٦ : ٩ – ١٠ .

(٣) الرازى : مفاتيح الغيب – ٥ : ٥٠٥ .

(٤) الترمذى : صحيح – ١١ : ٥٦ .

(٥) المصدر نفسه : الشارح – ١١ : ٥٦ .

(٦) مذاهب التفسير : ٨٨

(٧) النحاس : إعراب القرآن : ٢٢٧ . الكرمانى : شواذ القراءة : ٢١٥ . القرطبى : الجامع – ١٥ : ٣٦٩ . أبو حيان : البحر المحيط – ٧ : ٥٠٣ .

(٨) الطبرى : جامع البيان – ٢٤ : ٨١ . النحاس : إعراب القرآن : ٢٢٧ . ابن خالويه : مختصر : ١٣٣ . الكرمانى : شواذ : ٢١٥ . الرازى : مفاتيح الغيب – ٧ : ٢٥٥ . القرطبى : الجامع – ١٥ : ٣٩ . أبو حيان : البحر – ٧ : ٥٠٣ . Jeffery, MHTQ., p. 229

أيضا ، وعبد الله بن الزبير (ت ٧٣ هـ) ، وعبد الله بن عمر (ت ٧٣ هـ) ، وعبد الرحمن ابن هرمز الأعرج (ت ١١٧هـ بالإسكندرية) ، وسليمان بن قتّة (ت) تلميذ ابن عباس[١] .

وبالرغم من مكانة هؤلاء الرجال تعرضت هذه القراءة للمناقشة . فعبر يعقوب القارئ (ت ٢٠٥هـ) عن عدم ارتياحه إليها – على محله من الضبط – بقوله إنه لا يدرى ما إذا كانوا نونوا أى قرءوا : « وهو عليهم عمٍ » أم فتحوا الياء على أنه فعل ماض فقرءوا : « وهو عليهم عَمِىَ »[٢] . واختار أبو عُبيد (ت ٢٢٤هـ) قراءة الجمهور : « وهو عليهم عمى » بفتح الميم ، لأن « عمًى » مصدر كقوله : « هدى » و « شفاء » . ولو كان المذكور أنه هاد ، وشاف لكان الكسر فى « عمٍ » أجود ، فيكون نعتا مثلهما[٣] . ويبدى أبو حاتم (ت ٢٥٥هـ) نفس ما يبدى يعقوب من عدم اطمئنان[٤] . ويذكر الطبرى أن قراء الأمصار قرأت : « وهو عليهم عمى » بفتح الميم ، وينص فى صراحة على أن الصواب عنده ما عليه هؤلاء القراء[٥] . والطبرى فى ذلك أمين لمذهبه فى الاختيار ، فهو يختار دائما جانب الجماعة[٦] . أما العالم المصرى أبو جعفر النحاس (ت٣٣٨ هـ) فإنه يعرض قراءة : « وهو عليهم عمٍ » عن طريق روايتين : الأولى لسليمان بن قتة عن ابن عباس . والثانية لعمرو بن دينار (ت ١٢٦ هـ) عن ابن عباس كذلك ، ثم يطبق عليها المقاييس المتفق عليها للحكم على القراءة ، فيجد أولا أنها مخالفة لخط المصحف . وبالرغم من أن الإسناد يبدو صحيحاً فإن الإجماع مقدم عليه . على أن الإسناد ليس صحيحاً تماما ، ذلك بأن عمرو بن دينار لم ينص فى روايته على السماع من ابن عباس مما يفتح الباب أمام احتمال أن يكون حديثه مرسلا . أما سليمان بن قتة صاحب الرواية الأخرى فهو ليس نظير عمرو بن دينار . فإذا انتقلنا إلى الجانب اللغوى النحوى وجدنا أن المعنى بعمًى ههنا أشبه ، لأنه قال – جل وعز – قبل : « هو للذين آمنوا هدى وشفاء » . فالأشبه بهذا : عمًى[٧] .

---

(١) النحاس : إعراب القرآن : ٢٢٧ . الكرمانى : شواذ : ٢١٥ . القرطبى : الجامع ١٥ : ٣٦٩ أبو حيان : البحر – ٧ : ٥٠٣ . Jeffery, MHTQ., pp. 205, 229

(٢) النحاس : إعراب القرآن : ٢٢٧ . أبو حيان : البحر – ٧ : ٥٠٣ .

(٣) الرازى : مفاتيح الغيب – ٧ : ٢٥٥ . القرطبى : الجامع – ١٥ : ٣٦٩ .

(٤) أبو حيان : البحر – ٧ : ٥٠٣ . (٥) جامع البيان – ٢٤ : ٨١ .

(٦) جولد تسيهر : مذاهب التفسير : ١١٠ – ١١١ . (٧) إعراب القرآن : ٢٢٧ .

وأيًّا كان الأمر فإن هاتين القراءتين المنسوبتين إلى عمرو بن العاص تؤيد أن ما روى عنه من أنه قد وردت عنه الرواية فى حروف القرآن ، ولا يبعد أن له قراءات أخرى بل لا يبعد أن كان له – وهو الصحابى الذكى المثقف – مصحف خاص ويشتمل على قراءته كما سمعها من النبى ، وأن المصريين سمعوا قراءته هذه ، وهو يؤمهم – بما هو قائدهم وأميرهم – فى مصر . على أن ذلك لايعنى بالضرورة أنه كان من القراء[١] .

انضم عقبة بن عامر (ت ٥٨ هـ) إلى الإسلام مبكراً ، ولزم النبى لزوما وثيقاً فكان يقوم بخدمته الخاصة ، ويحجبه ، وفى الأسفار يقود بغلته الشهباء[٢] . وهو فى خلال ذلك مفتوح العين ، مرهف الأذن ، حاضر الذهن ، يرى إلى النبى ، ويسمع منه ، ويحفظ عنه . وكان يحمل اهتماماً خاصًّا بالقرآن ، فهو يسأل النبى أن يقرئه إياه[٣] ، ويجلس فى المسجد يتعلمه مع غيره من الرجال[٤] . ويسأل النبى فيه[٥] ويعى ما يجيبه به . وكان طبيعيًّا مع هذا كله لا أن يجمع عقبة القرآن فحسب بل أن يصبح واسع العلم به مثلما هو واسع العلم بشئون الدين عامة[٦] .

كان عقبة من أصحاب المصاحف القديمة . وظل مصحفه الخاص الذى كتبه لنفسه بخط جيد محفوظا فى مصر حتى القرن الرابع الهجرى على الأقل[٧] . وطبيعى أن هذا المصحف ، الذى كان مثله مثل سائر المصاحف القديمة « على غير تأليف مصحف عثمان » ، كان يتضمن قراءة عقبة التى لابد أنه قرأ بها فى مصر ، والتى بقى لنا منها مثال فى رواية مصرية خالصة التقطها عالم القرآن العراقى أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) عندما زار مصر سنة ٢١٣ هـ[٨] . يقول عقبة وفقاً لهذه

---

(١) يعده ابن الجزرى (غاية – ١ : ٦٠١) من القراء . ولكن يلحظ أنه أرخ لوفاته بعام ٥٨ هـ فى حين لم يترجم لعقبة بن عامر الذى توفى هذا العام . فهل يكون عقبة هو المترجم له أصلا ؟

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح : ٣٩ . أبو داود : المنهل – ٨ : ١١٦ . الكندى / الولاة : ٣٧ . ابن حجر : ت . التهذيب – ٧ : ٢٤٣ . ابن تغرى بردى : النجوم ١ : ١٢٨ .

(٣) أبوعبيد : فضائل: ٣٣ – ٣٤ .

(٤) المصدرنفسه : ٤ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح : ٢٨٩ (٥) المصدر نفسه : ٢٩٤

(٦) انظر ص ١٤ من هذا البحث .

(٨) ابن حجر: ت. التهذيب – ٨ : ٣١٥ .

الرواية إنه رأى النبي وهو يقرأ الآية فى خاتمة النور – « ألا إن لله ما فى السموات والأرض ، قد يعلم ما أنتم عليه ، ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا . والله بكل شيء عليم » – وهو جاعل أصابعه تحت عينيه يقول: « بكل شيء بصير »[١]. لم تشر المصادر إلى هذه القراءة ، غير أن ذلك لاينفي صحتها . ولذلك ينبغي أن تأخذ مكانها هى ومصحف عقبة بين المصاحف القديمة التى جمع جفرى ما تبقى منها .

تصور الرواية عقبة يهتم بالمعوذتين ويلح على التنبيه إلى أهميتهما إلحاحاً . فهو يروى عن النبي أنه قال : « أنزلت علىّ الليلة آيات لم ير مثلهن : قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس »[٢] وأفضى إليه النبي بأن هاتين السورتين هما خير سورتين قرئتا[٣] ، كما أنهما أفضل ما تعوذ به المتعوذون[٤] وأمر النبي ألا تأتى عليه ليلة إلا قرأهما فيها مع سورة « قل هو الله أحد » لأن الله ما أنزل فى التوراة ولا فى الزبور ولا فى الإنجيل ولا فى الفرقان مثلهن[٥]. كما أمره أن يقرأ بالمعوذات دبر كل صلاة[٦] وسأل عقبة النبي مرة أن يقرئه من سورة هود أو سورة يوسف فقال له : « لن تقرأ أبلغ عند الله من : قل أعوذ برب الفلق »[٧] ويذكر عقبة أن النبي كان يصلى بهما مثلما يتعوذ بهما[٨].

كان ابن مسعود لا يثبت الفاتحة ولا المعوذتين فى مصحفه إذ لم يكن يرى فيها سوى مجرد زيادات خاصة بالطقوس الدينية[٩]. فهل نحن هنا إزاء رد فعل لمقاومة هذا الاتجاه ؟

فى الآية ١٨٩ من سورة الأعراف : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة

---

(١) أبوعبيد : فضائل : ٤١ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٤ . مسلم : صحيح – ٦ : ٩٦ . السيوطى : الإتقان – ١ : ٢٢ عن المصاحف لابن أشته .

(٣) أبوداود : المنهل – ٨ : ١١٦ .

(٤) المصدر نفسه – ٨ : ١١٦ – ١١٧ . السيوطى : الإتقان – ٢ : ١٥٥ .

(٥) ابن عساكر : ت . دمشق – ٣ : ٥٨ – ٥٩ . السيوطى: الإتقان – ٢ : ١٥٥ .

(٦) ابن عبد الحكم : فتوح: ٢٩٠ .

(٧) أبوعبيد : فضائل : ٣٣ – ٣٤ – ابن عبد الحكم : فتوح : ٢٩٤ . الحاكم : المستدرك ٢ : ٥٤٠ .

(٨) أبوداود : المنهل – ٨ : ١١٦ – ١١٧ .

(٩) أبوعبيد : فضائل : ٤٣ . ابن النديم : الفهرست : ٢٦ . السيوطى الإتقان – ١ : ٦ ، ٦٤٥ ، ٧٩ . Jeffery, MHTQ., p. 21

وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً فرت به ، فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين » يقرأ عبد الله بن عمرو بن العاص (ت ٦٥ هـ) الحرف « فرت به » هكذا : « فادت به »[١].

وقد تعددت القراءات فى هذا الحرف ، فقرأ الجمهور : « فمرت به » بتشديد الراء ، أى مضت به واستمرت إلى وقت ميلاده من غير إخداج ولا إزلاق ، وقيل : هذا على القلب ، أى : فمر بها أى : استمر بها[٢]. فى حين قرأه بتخفيف الراء — من المرية ، أى فشكت فيما أصابها هل هو حمل أو مرض أو نحو ذلك — ابن عباس (ت ٦٨هـ) — فيما ذكر أبو بكر النقاش ٣٥١ — من مكة ، ويحيى ابن يعمر (ت قبل ٩٠ هـ) وأبو العالية الرياحى (ت ٩٠ هـ) تلميذاه البصريان ، وأيوب التميمى الدمشقى (ت ١٩٨ هـ) ، وقيل أيضا : معناه : استمرت به ؛ ولكنهم كرهوا التضعيف فخففوه نحو : « وقرن » (الأحزاب : ٣٣) فيمن فتح من القراء[٣] وقرأه « فمارت به » — بألف وتخفيف الراء ، من مار يمور ، إذا ذهب وجاء وتصرف ، كما تقول : مارت الريح مورا ، ومنه سمى الطريق : موراً للذهاب والمجيء عليه ، ومنه : المور : التراب لذلك — عبد الله بن عمرو بن العاص ؛ وعبد الله بن عمر (ت ٧٣ هـ)من المدينة ، وعاصم الجحدرى (ت ١٢٨ هـ) من البصرة[٤] وعند الزمخشرى[٥] أن هذه القراءة من المرية كقوله : أفتمارونه ، وأفتمرونه . ومعناه : فوقع فى نفسها ظن الحمل فارتابت به .

وقرأ سعد بن أبى وقاص (ت ٥١ هـ) : فاستمرت به[٦]. وبها أيضاً قرأ ابن

---

(١) ابن جنى : المحتسب : ١٣١ . أبو حيان : البحر المحيط - ٤ : ٤٣٩ . ومن المحتمل أن يكون هو المذكور باسم : ابن أبى عمار عند ابن خالويه : مختصر : ٤٨ - ٤٩ والمذكور بخط ملتبس عند الكرمانى : شواذ : ٩٣ .

(٢) الزمخشرى : الكشاف - ١ : ٢٩٢ . أبو حيان : البحر المحيط - ٤ : ٤٣٩ .

(٣) ابن خالويه : مختصر : ٤٨ . الكرمانى : شواذ : ٩٢ - ٩٣ . الزمخشرى : الكشاف -١ : ٢٩٢ . الرازى : مفاتيح الغيب - ٤ : ٣٣١ . القرطبى - الجامع - ٧ : ٣٣٨ . أبو حيان : البحر المحيط - ٤ : ٤٣٩ .

(٤) ابن جنى : المحتسب : ١٣١ . الكرمانى : شواذ : ٩٣ . القرطبى : الجامع - ٧ : ٣٣٧ - ٣٣٨ . أبو حيان : البحر المحيط - ٤ : ٤٣٩ .

(٥) الكشاف - ١ : ٢٩٢

(٦) أبو حيان : البحر المحيط - ٤ : ٤٣٩ . Jeffery, MHTQ., p. 199

عباس ، والأرجح أنها قراءته الحقيقية[١] . كما قرأ بها الضحاك البغدادى أحد تلاميذ مدرسة عاصم[٢] . وقرأ أبىّ : « فاستمارت به » وكذلك قرأه أبو عمر الجرمى النحوى البصرى المشهور (ت ٢٢٥ هـ) تلميذ سيبويه فى القرآن . والظاهر — يقول أبو حيان — رجوعه إلى المرية ، بنى منها : استفعل كما بنى منها : فاعل فى قولك : ماريت[٣] . أما ابن مسعود فتفرد بقراءة : « فاستمرت بحملها»[٤] . ومن الواضح أنها قراءة تفسيرية .

قصة الخلاف حول قراءة الآية ٨٦ من سورة الكهف تروى بصورة أكثر حيوية تضم معاوية ويحل فيها عبد الله بن عمرو محل عمرو بن العاص . كان الجميع — معاوية ، وابن عمرو ، وابن عباس — عند معاوية فى قصره بالشام على ما يبدو . فقرأ معاوية — ربما فى صلاة — « تغرب فى عين حامية » . فاعتراض ابن عباس — بما هو عالم بالقرآن — قائلا : ما نقرؤها إلا « حمئة » . فالتفت معاوية إلى عبدالله ابن عمرو — وهو عالم بالقرآن كذلك يسأله : كيف تقرؤها ؟ فأجاب : كما قرأتها يا أمير المؤمنين — وفى رواية أخرى : فأنا مع أمير المؤمنين — وأغضب ابن عباس أن يتهم — وهو من بيت النبوة الهاشمى — بالجهل بالقرآن فهتف محتجاً : فى بيتى نزل القرآن ، وحسما للخلاف أرسل معاوية إلى اليهودى السابق كعب الأحبار — وكان قد أسلم فى خلافة عمر ، وخرج إلى الشام ، وأصبح من علماء التابعين به ، وسكن حمص حتى مات سنة ٣٢هـ[٥] يقول له : أين تجد الشمس تغرب فى التوراة ؟ فأجاب : أما العربية فأنتم أعلم بها . وأما أنا فأجد الشمس فى التوراة تغرب فى ماء وطين . فوافق ابن عباس[٦] .

---

(١) ابن خالويه : مختصر : ٤٩ . الكرمانى : شواذ : ٩٣ . الزمخشرى : الكشاف — ١ : ٢٩٢ أبو حيان : البحر المحيط — ٤ : ٤٣٩ . Jeffer'y, MHTQ., p. 199.

(٢) أبو حيان : البحر المحيط — ٤ : ٤٣٩ . Jeffer y, MHTQ., p.199

(٣) أبو حيان : البحر المحيط — ٤ : ٤٣٩ . Jeffer y, MHTQ., p., 133

(٤) أبو حيان : البحر المحيط — ٤ : ٤٣٩ .

(٥) ابن سعد : الطبقات — ج ٧ ق ٢ : ١٥٦ .

(٦) القرطبى : الجامع — ١١ : ٤٩ . ابن الجزرى : غاية — ٢ : ٣٠٣ . ويذكر الطبرى فى تفسيره — ١٦ : ٩ — ١٠ — الخبر نفسه بدون عبد الله بن عمرو .

وتقوية لقراءة ابن عباس: « فى عين حمئة » تضيف الرواية شعراً لتبّع اليمانى قُدّ على القرآن نفسه:

قد كان ذو القرنين قبلى مسلما   ملكا تدين له الملوك وتسجد
بلغ المغارب والمشارق يبتغى   أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها   فى عين ذى خلُب وثأط حرمد

(الخُلُب: الطين. والثَّأط الحَمْأة. والحَرْمَد: الأسود)[1].

ولم تعدم قراءة معاوية وابن عمرو « فى عين حامية » التقوية فيما ينسب إلى أبى ذر من أنه كان ردف رسول الله وهو على حمار. فرأى الشمس حين غربت فقال: «يا أبا ذر، أين تغرب هذه؟» فقال أبو ذر: الله ورسوله أعلم. قال: « فإنها تغرب فى عين حامية غير مهموزة[2] ». بل ينسب إلى عبد الله بن عمرو نفسه أنه قال إن رسول الله نظر إلى الشمس حين غابت فقال: فى نار الله الحامية. فى نار الله الحامية. لولا ما يزعها من أمر الله لأحرقت ما على الأرض[3].

فإذا أضفنا أن عبد الله بن عمرو يخاطب معاوية فى هذه الرواية التى لايمكن أن تذهب إلى أكبر من عام ٣٢ هـ بقوله: يا أمير المؤمنين، فى حين أن المعروف أن معاوية لم يتخلف على المسلمين إلا فى عام الجماعة سنة ٤١ هـ اتضح أن هذا الخلاف بين ابن عباس من جهة وعمرو بن العاص أو معاوية أو عبد الله بن عمرو من جهة أخرى هو خلاف مزعوم، وأن هذه الروايات جميعاً لا يقصد بها سوى تصوير الخلاف العلمى بين مدارس القراءات. فإذا وضعنا فى الاعتبار أيضاً أن معاوية هو رأس البيت الأموى كما أن ابن عباس هو جد العباسيين أمكن أن نجد فى هذه الروايات من ناحية أخرى صدى الصراع السياسى بين البيتين الحاكمين الكبيرين. وإن كان ذلك لاينفى بالطبع صحة القراءتين فى ذاتهما.

فى الآية ٥٠ من سورة المؤمنون: « وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة

---

(١) القرطبى. الجامع – ١١ : ٤٩. أبو حيان: البحر – ٦ : ١٥٩.

(٢) الحاكم: المستدرك – ٢ : ٢٤٤. ويعلق الحاكم على الحديث بأنه صحيح الإسناد ولم يخرجه الشيخان.

(٣) الطبرى: جامع البيان – ١٦ : ١٠. والحديث مروى عن مولى لعبد الله بن عمرو. القرطبى: الجامع – ١١ : ٤٩.

ذات قرار ومعين » يقرأ عبد الله بن عمرو « ربَاوة » بالفتح والألف[١]. وهكذا قرأها أيضاً أبو عبد الرحمن السلمي مقرئ الكوفة (ت ٧٤هـ)، وأبو جعفر يزيد ابن القعقاع المدني أحد القراء العشرة (ت ١٣٠) هـ[٢]. كما قرأها كذلك الفرزدق الشاعر (ت ١١٠هـ)[٣]. وقد يتبادر إلى الذهن أن الشاعر الذى استشهد القرطبي[٤] بقوله :

من منزلى فى روضة بربَاوة بين النخيل إلى بقيع الغرقد

هو الفرزدق. غير أن مراجعة الديوان[٥] لاتؤيد ذلك . قال الفراء (ت ٢٠٧هـ)[٦] والأخفش (ت ٢٢١هـ)[٧] . ويقال : برباوة وبرباوة .

أما فى الآية ١٣ من سورة الجاثية : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه؛ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » فإن عبد الله يقرأ «جميعاً مِنَّةً» بكسر الميم وتشديد النون وتنوين الهاء منصوبا على المصدر؛ أى تفضلا وكرما[٨]. ويشترك مع عبد الله فى هذه القراءة ابن عباس (ت ٦٨ هـ) وعبيد بن عمير المكى (ت ٧٤ هـ)، عاصم الجحدري البصرى (ت ١٢٨ هـ)، ومسلمة بن محارب القارئ الكوفى[٩]. وقرأها آخرون: « جميعاً مَنُّهُ على» إضافة المن إلى هاء الكناية[١٠]. قال القرطبي : وقراءة الجماعة ظاهرة[١١].

لأبى بكر النيسابورى (ت ٣٨١ هـ)، إمام عصره فى القراءات وصاحب المؤلفات الكثيرة فى القرآن ، كتاب بعنوان : « كتاب قراءة عبد الله بن عمرو»[١٢].

---

(١) الكرمانى : شواذ : ١٦٧ . ويلحظ أنه مذكور باسم : عبد الله بن العاص .

(٢) الكرمانى ، شواذ . ١٦٧ . القرطبي : الجامع - ٣ : ٣١٦ . أبو حيان : البحر المحيط - ٢ : ٣١٢ .

(٣) ابن خالويه : مختصر : ٩٨ .

(٤) الجامع - ٣ :٣١٦ .

(٥) قافية الدال : ج ص : ١٥٣ - ٢١٨ .

(٦) القرطبي : الجامع - ٣ : ٣١٦ .

(٧) النحاس : إعراب القرآن : ٣٠ .

(٨) الكرمانى : شواذ : ٢٢١ .

(٩و١٠) ابن خالويه : مختصر : ١٣٨ . ابن جنى : المحتسب: ٢٩٣ . القرطبي الجامع - ١٦ : ١٦٠ . الكرمانى : شواذ ٢٢١ .

(١١) الجامع - ١٦ : ١٦٠ .

(١٢) ياقوت : معجم الأدباء - ٣ : ١٣ .

ولما كان عبد الله بن عمرو بن العاص لم يحقق من التخصص كقارئ ما يتجاوز بأثره حدود بيئته وعصره فالأرجح أن المقصود هنا هو أحد ثلاثة من هؤلاء القراء المتخصصين الذين يحملون الاسم نفسه (عبد الله بن عمرو) وظهروا فى الكوفة والبصرة وبغداد[١] . هذا إذا لم يكن الاسم محرفاً أصلا عن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

يرى جفرى[٢] أن مصحف عبد الله بن عمرو قد ترك أثراً قليلا ، أو هو لم يترك أثراً على الإطلاق ، فى المرحلة التالية من تاريخ النص القرآنى . كما يشك شكاً كبيراً فى أن يكون قد بقى لنا ووصل إلينا أية قراءة صحيحة منه . ونحن نفضل ، بالرغم من إمكان ذلك ، أن تضاف تلك القراءات القليلة التى عثرنا عليها إلى مصحف عبد الله فى انتظار كشف المزيد .

دخل عبد الله بن عباس (ت ٦٨هـ) مصر فى خلافة عثمان (٢٤–٣٥ هـ)[٣] واشترك مع الجيش المصرى فى غزو إفريقية سنة ٢٧ هـ[٤] . وتزعم رواية أنه كان فى مصر أيضاً إلى جانب عمرو بن العاص لحظة احتضاره (رمضان ٤٣ هـ)[٥] . ولما كان ابن عباس يتمتع حينذاك بشهرة فائقة فى العلم بالقرآن[٦] فالأقرب أن قد حرص المصريون على أن يجلسوا إليه ، ويسمعوا منه ويقرءوا عليه .

أخذ المصريون القرآن إذن عن أكثر من صحابى ، فقرءوه بأكثر من قراءة ، واعتمدوا فيه على أكثر من مصحف . وهم فى ذلك مثلهم مثل زملائهم فى سائر الأمصار الإسلامية فى تلك المرحلة الأولى من مراحل قراءة القرآن التى تعرف باسم مرحلة القراءة الحرة أو المصاحف القديمة[٧] .

---

(١) راجع : ابن الجزرى : غاية – ١ : ٤٣٨ – ٤٣٩ .

(٢) MHTQ. ,p. 230.

(٣) السيوطى : حسن – ١ : ٩٠ .

(٤) ابن حجر : الإصابة – ٤ : ٩٠ عن ابن يونس .

(٥) المبرد : الكامل – ١ : ٢٦٧ . ابن تغرى بردى : النجوم – ١ : ١١٥ – ١١٦ .

(٦) ابن سعد : الطبقات – ج ٢ ق ٢ : ١٢٠ – ١٢٤ . ابن الجزرى : غاية – ١ : ٤٢٦ . جولد تسيهر : مذاهب : ٨٣ – ٨٥ .

(٧) جفرى : المقدمة العربية لكتاب المصاحف : ٩ .

على أن الصحابة الذين أخذ المصريون القرآن عنهم لم يستووا من حيث مدة إقامتهم بينهم . ولامدى اتصالهم بهم ، وبالتالى تأثيرهم فيهم . ولذلك لم يكن لقراءاتهم ... أو مصاحفهم – بالتالى تأثير متساو . ويبدو واضحاً جداً مما سبق أن الصحابيين عقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو كانا أوثق الصحابة القراء صلة بالمصريين ، وأكثرهم اندماجاً فيهم ، واختلاطا بهم ، فلا يبعد أن المصريين اعتمدوا على مصحفيهما ، أو مصحف أحدهما . فاتخذوه مصحفا إماما يقرءون وفقاً له ، وينسخرن مصاحفهم عنه مثلما اعتمد زملاؤهم فى الأمصار الأخرى على مصاحف بعينها من مصاحف الصحابة المقيمين بينهم[١] .

وإذا لم يكن بد من ترجيح مصحف بعينه ، فلعل المصريين لم يكونوا يستطيعون أن يعتمدوا على مصحف عقبة كثيراً لأن إقامته بينهم فيما بين الفتح وصدور مصحف عثمان الرسمى كانت إقامة متقطعة بسبب انشغاله فى الفتوح . وهو لم يُقم بمصر إقامة ثابتة إلا بعد معركة صفين (٣٧ هـ) عند ماتحول إليها وبنى فيها مساكن جديدة ظلت تحمل اسمه[٢] . هذا ، فى حين أقام عبد الله بمصر منذ اللحظة الأولى ، واتخذ فيها الرباع ، وبنى القصور ، واتخذ الموالى والأحباب ، واتصل بالمصريين اتصالا وثيقاً يحدثهم ويعلمهم ويفتيهم[٣] . فكان بذلك الصحابى الذى يستطيعون أن يعتمدوا عليه بصفة ثابتة فى الشئون القرآنية ويتخذوا من مصحفه إماما لهم ، مثلما كان هو نفسه الصحابى الذى اتبع أهل مصر فى الأكثر فتاواه[٤] .

• • •

---

(١) انظر ص ١٦ من هذا البحث .

(٢) ابن سعد : الطبقات – ج ٧ ق ٢ : ١٩١ . ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٨٥ – ٨٦ . وانظر ص ١٠٣ من هذا البحث .

(٣) ابن سعد : الطبقات – ج ٤ ق ٢ : ١٢ ، ابن عبد الحكم فتوح : ٣٢ ، ٩٧ ، ٢٥٤ . أبونعيم : حلية – ١ : ٢٩١ .

(٤) المقريزى : خطط – ٢ : ٣٣٢ .

٢ ـ نشأة المدرسة المصرية

عندما صدر مصحف عثمان سنة ٣٠ هـ كان على المسلمين أن يلتزموه . فيقرءوا وفقاً له ، وينسخوا مصاحفهم عنه ، غير أن هذا المصحف الجديد المرجد كان مجرداً أى خاليا من علامات الإعجام والضبط ، مما ترك الباب مفتوحاً أمام قراءة كثيرة جداً من الكلمات بأكثر من وجه . وهنا كان للقارئ أن يختار هذا الوجه أو ذاك فيقرأ به . على أن القراء حرصوا على أن يكون الوجه الذى يختارون متمشياً مع رسم مصحف عثمان من جهة، سليماً لغوياً ونحوياً من جهة أخرى ؛ ويستند إلى رواية صحيحة ترجع إلى النبى من جهة ثالثة . وكان طبيعياً أن يتجهوا باختيارهم إلى إلى القراءات التى تتحقق فيها هذه الشروط من بين تلك القراءات التى حفظتها عن مصاحف الصحابة القديمة عندما كان اعتمادهم عليها وحدها فى أقاليمهم فى مرحلة القراءة الحرة . ولم تكن هذه العملية سوى المرحلة الثانية للقراءة : مرحلة الاختيار التى ظلت ممتدة حتى القرن الرابع الهجرى ، والتى نشأت عن ممارستها وتطورت مدارس القراءة فى الأمصار أو البيئات الإسلامية المختلفة[1] .

إن القراء من أصحاب أو ممثلى المصاحف القديمة الذين دخلوا مصر كانوا . إذ يقرئون المصريين ، أى يعلمونهم القرآن . يضعون فى الوقت نفسه أسس المدرسة المصرية فى القراءة ، ويشكلون طابعها ، ويحددون اتجاهها . يستوى فى ذلك من أقام منهم إقامة مؤقتة : (أبو ذر ، ابن ملجم ، ابن عباس) ومن أقام إقامة دائمة : (عقبة ، عبد الله بن عمرو ، أبو تميم الجيشانى) . وقد خلف هؤلاء القراء الرواد تلاميذ واصلوا مع من ظل يقدم عليهم من الخارج الاضطلاع بمهمة قراءة القرآن وإقرائه فى مصر أى مهمة تنمية المدرسة المصرية وتطويرها .

تتلمذ التابعى المصرى أبو الخير مرثد اليزنى (ت ٩٠ هـ) فى الحديث والفقه على عدة من الأساتذة المصريين منهم : عقبة بن عامر ؛ وعبد الله بن عمرو . ويبدو

---

(١) راجع : جولد تسيهر: مذاهب التفسير : ٨ – ٩ ، ١٣ ، ٤٨ – ٥٦ . جفرى المقدمة العربية لكتاب المصاحف : ٧ – ٨ و 98 - 97 Blachère: Le Coran, 106-116 TheQur'ān as Scripture,

أنه كان شديد الإعجاب بأستاذه عقبة ؛ فقد كان يلازمه كظله فلا يفارقه[١].
ويبدو أنه أخذ عن أساتذته القرآن والقراءة كذلك ، فهناك ما يشير إلى أنه كان يمارس — إلى جانب القضاء والإفتاء[٢]— الإقراء أيضا . يروى تلميذه الفقيه المصرى يزيد بن أبي حبيب (ت ١٢٨ هـ) ، الذى لعله قرأ القرآن عليه كمقدمة لدراسة الفقه ، أنه أقرأه « نرضاها » — بالنون — فى الآية ١٤٤ من سورة البقرة : « فلنولينك قبلة ترضاها »[٣] . وبالرغم من عدم إشارة المصادر إلى هذه القراءة فلا مانع من النظر إليها بما هى مثال للقراءة المصرية حينذاك . ومن الواضح أنها توافق العربية ورسم المصحف . ولابد أن أبا الخير كان يعتمد فيها على سند صحيح .

تتلمذ التابعى المصرى الآخر عبد الرحمن بن جبير (ت ٩٧ هـ) على أساتذة مصريين كذلك منهم : عقبة وعبد الله بن عمرو . ويروى ابن لهيعة (ت ١٧٤ هـ) أن عبد الله بن عمرو كان به معجبا . وحق لعبد الله أن يعجب بتلميذه النجيب ذاك الذى تفوق فى أكثر من ناحية فكان فقيها ، وكان عالماً بالفرائض (المواريث) ، بل كان مؤذناً ، ثم إنه كان — وهو ما يعنينا — عالما بالقراءة فيما يقرر ابن يونس[٤] .

وكان العالم المصرى ، ذو الأصل المدنى عمرو بن الحارث (ت ١٤٨ هـ) مولى الأنصار ، أشبه ما يكون بدائرة معارف . فإلى كونه فقيهاً مفتياً أديباً فصيحاً كان قارئاً ، وكان يخرج من منزله فيجد الناس صفوفا يسألونه عن القرآن مثلما يسألونه عن الحديث والفقه والشعر والعربية والحساب[٥] .

ولم يكن قُبَاث بن رُزَين (ت ١٥٦ هـ) التلميذ المصرى لعكرمة (ت ١٠٥ هـ) وعلى بن رباح (ت ١١٤ هـ) يؤم الناس فى مسجد مصر الجامع فحسب ، بل كان — فيما يقرر ابن يونس — يقرئهم القرآن فيه كذلك[٦] .

قامت منذ اللحظة الأولى صلات بين المدرسة المصرية الناشئة وبين المدارس الأخرى التى كانت فى دور التكوين كذلك ، ففى أواسط القرن الأول (حوالى

(١ و ٢) السمعانى : الأنساب : ٥٩٩ ب . الذهبى : تذكرة — ١ : ٦٣ . المقريزى : الخطط — ٢ : ٢٥٤ . ابن حجر : ت . التهذيب — ١٠ : ٨٢ . السيوطى : حسن — ١ : ١١٨ .
(٣) المقريزى : الخطط — ٢ : ٢٤٧ . (٤) ابن حجر : ت التهذيب — ١٥٤ — ١٥٥ .
(٥) الكندى : الولاة : ٨٤ . الذهبى : تذكرة — ١ : ١٦٥ . ابن حجر : ت . التهذيب — ٨ : ١٤ — ١٦ . (٦) ابن حجر : ت . التهذيب — ٨ : ٣٤٣ .

٦٠–٦٢ هـ) زار مصر ، وحدث أهلها . وسمع منهم القارئ التابعي الشهير مجاهد المكي (ت ١٠٣هـ) تلميذ ابن عباس . ويعد مجاهد من قدماء قراء مدرسة مكة . وهو يقترن بنشأتها مثلما يقترن براحد من أقدم قرائها هو عبيد بن عمير (ت ٧٤ هـ) الذي ربما كان مصحفه أساس المدرسة المكية فى رواية النص القرآنى . وكان لمجاهد اختيار خاص فى القراءة لم يعلمه لرؤساء المدرسة المكية الذين جاءوا بعده فقط ، ولكن علمه كذلك لكبار قراء الكوفة والبصرة[١] . وبقى من قراءة مجاهد قدر غير قليل جمعه وسجله السجستانى[٢] . والكرمانى[٣] . وجفرى[٤] . ومن الطريف أن مجاهداً لما زار مصر صلى خلف أميرها مسلمة بن مخلد (ت ٦٢ هـ) ، فقرأ مسلمة سورة البقرة ، وأنصت مجاهد فى انتباه شديد ليرى كيف يقرأ الأمير . وأجاد مسلمة القراءة فشهد مجاهد له بأنه « ما ترك ألفا ولا واواً »[٥] .

وفى الفترة نفسها تقريباً (حوالى ٥٨ هـ) زار مصر التابعي الشهير أيضاً مولى ابن عباس وتلميذه . عكرمة (ت ١٠٥ هـ) الذى يعد فى قدماء القراء المكيين ، ويقترن مصحفه فيما يحتمل بأوائل الرواية المكية للنص القرآنى . وإن كان من المحتمل أيضاً أن مصحفه هذا كان – نتيجة لرحلاته الواسعة فى طلب المعرفة – مصحفاً انتخابياً أو انتقائياً . فقد كان هذا سمة مميزة للمدرسة المكية القديمة[٦] . وبقى من قراءة عكرمة كذلك قدر غير قليل جمعه وسجله السجستانى[٧] . والكرمانى[٨] ، وجفرى[٩] وفى حين قد كتب المصريون عن مجاهد[١٠] لم يكتبوا عن عكرمة وربما لأنه

---

(١) ابن سعد : الطبقات – ٥ : ٣٤٣ – ٣٤٤ . ابن الجزرى : غاية – ٢ : ٤١ – ٤٢
ابن تغرى بردى : النجوم – ١ : ١٣٣ . الداودى : طبقات المفسرين : ٣١٢ ظ .
Jeffery, MHTQ., pp. 236, 276.

(٢) المصاحف : ٨٩

(٣) شواذ القراءة : ٢١ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ وغيرها .

(٤) MHTQ., pp. 276-284.

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم – ١ : ١٣٥ .

(٦) ابن سعد : الطبقات – ٥ : ٢١٢ وما بعدها . ياقوت . معجم الأدباء – ١٢ : ١٨٣ .
ابن خلكان : وفيات : ١ : ٤٠٢ . – ٤٠٣ . ابن الجزرى : غاية – ١ : ٥١٥ . ابن حجر : ت .
التهذيب – ٧ : ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ . Jeffery, MHTQ., p. 268.

(٧) المصاحف : ٨٩ .

(٨) شواذ القراءة : ٤٥ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٨٦ ، وغيرها .

(٩) MHTQ., pp. 268-275.

(١٠) الداودى : : طبقات المفسرين : ٣١٢ ظ .

كان يدين بمذهب الخوارج[١] .

وبما أن القارئ المصرى قباث بن رزين قد تتلمذ على عكرمة[٢] فمن المحتمل أن يكون قد أسهم فى وصل ما بين المدرستين المصرية والمكية .

لما كتب عبد العزيز بن مروان مصحفه سنة ٧٦ هـ دعا القراء إلى مراجعته. وتذهب الرواية إلى أن قارئاً كوفيّاً يدعى زرعة بن سهل الثقفى ، وهو حفيد لصحابى ، وكان موجوداً بالفسطاط حينذاك ، استطاع لما ركز اهتمامه على الرسم أن يكشف فى هذا المصحف غلطة هجائية جعلته يفوز بجائزة الأمير[٣]. وربما كان هناك صلة بين ذلك القارئ الثقفى وبين ما كان يذيع فى العالم الإسلامى حينذاك من أن الكتاب الثقفيين يتمتعون دون غيرهم بالقدرة على ضبط النص القرآنى ضبطا صحيحا حتى إن عثمان نفسه قال لما رأى ما فى مصحفه من لحن : « لو كان الملمى من هذيل — القبيلة المجاورة لثقيف — والكاتب من ثقيف لم يوجد هذا »[٤]. وأيا كان الأمر فقد يكون هنا ما يشير إلى وجود قراء كوفيين فى مصر يمثلون مدرسة الكوفة التى أسسها الصحابى القارئ الكبير عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) على أساس من مصحفه وقراءته ، ويشتهرون بالمهارة فى معرفة النص القرآنى .

كان عمر قد بعث عبد الرحمن بن غنم الأشعرى (ت٧٨هـ) إلى الشام يفقه الناس ، فأقام هناك، ولَقِىَ معاذ بن جبل الذى اشتهر مصحفه بين أهل حمص ودمشق فكان يسأله فى القراءات ولازمه حتى مات ، كما روى عن أبى الدرداء (ت ٣٢ هـ) مقرئ أهل الشام ومؤسس المدرسة الشامية فى القراءة . ولما فتح مروان بن الحكم مصر سنة ٦٥هـ دخلها فى حاشيته[٥]. ولا يبعد أنه قد تحدث بشىء من قراءة المدرسة الشامية فى خلال

(١) ابن سعد : الطبقات — ٥ : ٢١٦ . وياقوت : معجم الأدب — ١٢ : ١٨٢ ، ١٨٤ . ابن خلكان : وفيات — ١ : ٤٠٢ . الذهبى : تذكرة — ١ : ٨٤ . ابن الجزرى : غاية — ١ : ٥١٥ . ابن حجر : ت . التهذيب ٧ : ٢٦٦ — ٢٦٧ . وإن كان جماعة من كبار المحدثين (ت التهذيب ٧/ ٢٧٠) وجولد تسيهر (مذاهب التفسير : ٩٦) يميلون إلى تبرئته من الانتماء إلى الخوارج .

(٢) ابن حجر : ت . التهذيب — ٨ : ٣٤٣ .

(٣) انظر ص ٦٤ من هذا البحث . ويبدو أن هذا القارئ كان يقيم فى حى الحمراء بالذات من الفسطاط فإن ابن عبد الحكم (فتوح : ١١٧) يذكره على أنه « رجل من أهل الحمراء » .

(٤) السجستانى : المصاحف : ٣٣ . Blachère-Le Coran, pp. 75-76

(٥) ابن سعد : الطبقات — ج ٧ ق ٢ : ١٥٢ . ابن حجر : ت . التهذيب — ٦ : ٢٥٠ — ٢٥١ . ابن الجزرى : غاية — ١ : ٦٠٦ — ٦٠٧ . وانظر ص ٥٨ من هذا البحث .

الشهرين اللذين أنفقهما مروان فى مصر[١].

راشد بن أبى سكَيْنة العبدرى ،مولى بنى عبد الدار (ت ١١٩ هـ) رجل شامى اشتغل بالعلم فروى الحديث عن ثلاثة من الصحابة الشاميين الكبار : أبى الدرداء ، معاوية (ت ٦٠ هـ) ، وواثلة بن الأسقع (ت ٨٥ هـ). وبالرغم من أن أكثر المحدثين يعدونه من الشاميين فإن البخارى يقرر أن حديثه فى المصريين، ومثلما عنى راشد بالحديث عنى بالقرآن الذى تهيأت له فرصة طيبة ليتعلمه على يدى اثنين من كبار الأساتذة فيه، أولهما: أبو الدرداء أحد الذين جمعوا القرآن حفظا على عهد النبى بلا خلاف، والذى كان يحول جامع دمشق بعد صلاة الغداة من كل يوم إلى مدرسة كبرى يقرئ فيها المسلمين القرآن يساعد، العرفاء[٢]. وثانيهما واثلة بن الأسقع ، أحد أهل الصفة، أخذ القراءة عن النبى، وكان آخر الصحابة موتا بدمشق[٣]. وقد أجاد راشد حفظ القرآن حقًّا ، فقد عرضه على كل من هذين الصحابيين القارئين ثلاث مرات فلم يردا عليه شيئاً . انتقل راشد ــ وأغلب الظن أنه نفس راشد بن سعد المذكور فيمن عرض القرآن على أبى الدرداء ــ من الشام إلى مصر فسكنها . ولما كان راشد قارئاً فقد انضم إلى أقرانه من القراء المصريين. ولابد أنهم كانوا يتمتعون بكفاءات عالية أقنعت الأمراء والقضاة بأن يستخلفوهم فى الجامع العتيق إذا غابوا . ولابد أن راشداً نفسه كان يتمتع بما أهله ليلى خراج مصر[٤]. وعلى أى حال فإن لنا أن نعده من ممثلى المدرسة الشامية فى مصر حينذاك . وقد بقى لنا نموذج لقراءته بالنسبة إلى الآية ٥٧ من سورة الأنعام : « إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين » ، فقد كان يقرؤها : « يقضى الحق وهو خير الفاصلين »[٥].

قرأ بعضهم هذه الآية، أو ــ فى الأصح ــ هذا الجزء من الآية، بالضاد ، وقرأه آخرون بالصاد. أما الأولون فقرءوا هكذا : « يقضى بالحق » أو « يقضى ــ أو يقض ــ الحق »من القضاء أى الحكم والفصل ،بمعنى أن الله يقضى القضاء الحق. وهى قراءة أبى بن كعب، وعبد الله بن مسعود ، وعلى بن أبى طالب. وأما الآخرون فقرءوا:

---

(١) الكندى : الولاة : ٤٨ .

(٢) ابن الجزرى : غاية ــ ١ : ٦٠٦ ــ ٦٠٧ .

(٣) ابن الجزرى : ـ. ــ ٢ : ٣٥٨ . ابن حجر : ت . التهذيب ــ ١١ : ١٠١ :

(٤ و ٥) ابن عساكر : ت . دمشق ــ ٥ : ٢٩٠ .

« يقص » : من القصص، بمعنى أن الله يقص القصص الحق. وهى قراءة ابن عباس. والذى يبدو أن هذه كانت قراءاتهم فى مصاحفهم القديمة فلما كتب عثمان مصحفه جاء فيه هذا الحرف هكذا: « يقص » بغير إعجام وبغير ياء. فكان على القراء أن يختاروا فى قراءته. فاختار أهل الكوفة والبصرة والشام قراءة الضاد. غير أن بعض قراء الكوفة (علقمة النخعى ت ٦٢ هـ – سعيد بن جبير ت ٩٤ – يحيى بن وثاب ت ١٠٣ هـ – طلحة بن مصرف ت ١١٢ هـ – الأعمش ت ١٤٨ هـ) ظلوا متمسكين بقراءة ابن مسعود الأولى : « يقضى بالحق » . فى حين استطاع الباقون منهم ومن قراء البصرة والشام (أبو عبد الرحمن السلمى ت ٧٤ هـ – عبد الله بن عامر ت ١١٨ هـ – أبو عمرو بن العلاء ت ١٥٤ هـ – حمزة ١٥٦ هـ – الكسائى ت ١٨٩ هـ – يعقوب الحضرمى ت ٢٠٥ هـ)أن يوفقوا بين قراءة الضاد وبين رسم المصحف العثمانى ، فقرءوا : « يقض الحق » بغير ياء وبغير باء ، وعلل سقوط الياء خطأ بسقوطها لفظاً لالتقاء الساكنين ، وهو نفس ما حدث فى سورة القمر : القمر : « فما تغن النذر » وفى سورة العلق : ١٧ : « سندع الزبانية » . أما مثل هذه الياء فكثيرا ما يحذف. ولم تعدم هذه القراءة من يقرأ بها فى الأمصار الأخرى ، فقد قرأ بها سعيد بن المسيب ت ٩٤ هـ فى المدينة أما ما يروى من أن ابن عباس وتلميذه مجاهداً قرءا بها فهو موضع شك كبير ، ذلك بأن قراءة الصاد – وهى قراءة ابن عباس ، وتتفق تماما مع رسم مصحف عثمان – قد سادت فى الحجاز . فقرأ بها فى مكة : مجاهد ت١٠٣ هـ ، ابن كثير ت ١٢٠ هـ – الأعرج ت١٣٠هـ[١] . وقرأ بها فى المدينة : أبو جعفر يزيد بن القعقاع ت ١٣٠ هـ، وتلميذه نافع ت١٦٩هـ . وشذ عن قراء الكوفة عاصم ت ١٢٧ هـ فقرأ بها[٢] .

وتتفق هذه النتائج بوجه عام مع ما قرره الطبرى[٣] من أن قراءة الضاد هى قراءة

---

(١) هذا إذا كان حميد بن قيس قارئ مكة . ولكن يحتمل بنفس القوة أنه القارئ المدنى عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ت ١١٧ هـ .

(٢) الطبرى : جامع البيان – ٧ : ١٣٥ – ١٣٦ . الدانى : التيسير : ١٠٣ . الكرمانى : شواذ : ٧٦ . الفخر الرازى : مفاتيح الغيب – ٤ : ٥٤ . القرطبى : الجامع – ٦ : ٤٣٩ . أبو حيان : البحر المحيط – ٤ : ١٤٣ . ابن الجزرى : تقريب النشر : ١١٠ .
Jeffery, MHTQ., pp. 41, 13o, 186, 198, 266, 317 .

(٣) جامع البيان – ٧ : ١٣٥ – ١٣٦ .

جماعة من قراء الكوفة والبصرة ، فى حين قرأ عامة قراء الحجاز والمدينة وبعض قراء أهل الكوفة والبصرة بالصاد . غير أننا نلحظ أن قراء العراق والشام يتفقون بوجه عام ، فى حين يكاد قراء الحجاز ينفردون بقراءتهم . ويعلل ذلك بالتقارب الشديد بين مصحف ابن مسعود الذى اعتمد عليه أهل العراق فى البداية ومصحف أبى بن كعب الذى اعتمد عليه أهل الشام . أما أهل الحجاز فكان اعتمادهم فى الأغلب على مصحف ابن عباس .

وأيا كان الأمر فقد دارت مناقشات غير قليلة حول القراءتين المذكورتين . فيحتج أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) لقراءة الضاد بقوله تعالى فى ختام الآية : « وهو خير الفاصلين » . فالفصل يكون فى القضاء لا فى القصص[1] . وقد حكى أنه سئل : أهو « يقص الحق » أو « يقضى الحق » ؟ فقال : لو كان « يقص » لقال : وهو خير القاصين . أقرأ أحد بهذا ؟ وحيث قال : « وهو خير الفاصلين » فإنما يكون الفصل فى القضاء[2] . وقراءة الضاد هذه أولى القراءتين بالصواب عند الطبرى للسبب نفسه وهو أن الفصل بين المختلفين إنما يكون بالقضاء لا بالقصص[3] . ويضيف أنصار القراءة بالضاد أن قبلها : « إن الحكم إلا لله » وبعدها : « وهو خير الفاصلين » . هذا إلى أن دخول الباء فى قراءة ابن مسعود : « يقضى بالحق » يؤكد معنى القضاء[4] . غير أن النحوى البصرى أبا إسحاق الزجاج (ت ٣١١ هـ) يذكر أن « يقض الحق » يجوز أن يكون بمعنى : يصنع الحق ، لأن كل شىء صنعه الله فهو حق . ويستشهد بقول الهذلى (ت بعد ٢٦ هـ) :

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبّع

أى : صنعهما داود[5] . ويشترك النحوى المصرى أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ) مع الزجاج فى هذا ، فيرى أنه لايلزم أن يكون « يقضى » بمعنى القضاء فقط ، لأن معناه أيضا : يأتى ، ويصنع[6] .

(١) الفخر الرازى : مفاتيح الغيب — ٤ : ٤ .
(٢) أبو حيان : البحر المحيط — ٤ : ١٤٣ .
(٣) جامع البيان — ٧ : ١٣٦ .
(٤) القرطبى : الجامع — ٦ : ٤٣٩ .
(٥) الفخر الرازى : مفاتيح الغيب — ٤ : ٥٤ .
(٦) القرطبى : الجامع — ٦ : ٤٣٩ .

أما قراءة الصاد فقد استشهد لها ابن عباس بقول القرآن نفسه : « نحن نقص عليك أحسن القصص » (يوسف : ٣٠)[١] . من قص الحديث . فيكون المعنى أن كل ما أنبأ الله به وأمر به فهو من أقاصيص الحق[٢] . وقد يكون من قص الأثر أى اتبعه . فيكون المعنى أن الله يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره[٣] . ويرد النحوى البغدادى أبو على الفارسى (ت ٣٧٧ ﻫ) بأن قراءة الصاد تتفق تماما مع قوله : « وهو خير الفاصلين » . ذلك بأن القصص ههنا بمعنى القول . وقد جاء الفصل فى القول . قال تعالى : « إنه لقول فصل » (الطارق ١٣) ؛ وقال : « أحكمت آياته ثم فصلت » (هود : ١) . وقال : « نفصل الآيات » (الأنعام : ٥٥ — الأعراف : ٣٢؛ ١٧٤ — التوبة : ١١— يونس : ٢٤— الروم : ٢٨) . فلا يلزم من ذكر « الفاصلين » أن يكون معينا ليقضى[٤] . وحين يحتج بعض أنصار قراءة الصاد بأنه لو كان من القضاء للزمت الباء فيه كما أتت قراءة ابن مسعود يرد أبو جعفر النحاس بأن هذا الاحتجاج لايلزم لأن مثل هذه الباء تحذف كثيراً[٥] .

وأخيراً فقد ينبغى أن نضيف أن القارئين بالصاد والضاد جميعاً قرءوا : « وهو خير الفاصلين » ما عدا ابن مسعود الذى تفرد بقراءة : « وهو أسرع الفاصلين »[٦] وأيا كان الأمر فإن راشد بن أبى سكنة إذ كان يقرأ « يقضى الحق » إنما كان تلميذاً أميناً لمدرسته الشامية التى كان يمثلها فى مصر .

هذا ولعل القارئ المصرى عبد الرحمن بن جبير (ت ٩٧ ﻫ) قد وصل ما بين مدرسته المصرية ومدرسة الشام عندما روى عن زعيم تلك المدرسة أبى الدرداء ، وعن التابعى الشامى عمرو بن غيلان بن سلمة الثقفى[٧] .

فى تاريخ نرجح أنه أواخر القرن الأول وأوائل الثانى الهجريين قدم مصر قارئ من قراء المدينة هو أبو طعمة الأموى ، مولى عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١ ﻫ) .

---

(١) الطبرى : جامع البيان — ٧ : ١٣٥ .

(٢) الفخر الرازى : مفاتيح الغيب — ٤ : ٥٤ . أبو حيان : البحر المحيط — ٤ : ١٤٣ .

(٣) الزمخشرى : الكشاف — ١ : ٢٤١ .

(٤) الرازى : مفاتيح الغيب — ٤ : ٥٤ . (٥) القرطبى : الجامع — ٦ : ٤٣٩ .

(٦) الطبرى : جامع البيان — ٧ : ١٣٥ أبو حيان : البحر المحيط — ٤ : ١٤٣ .
Jeffery, MHTQ., P. 41.

(٧) ابن حجر : ت . التهذيب — ٦ : ١٥٤ و ٨ : ٨٨ — ٨٩ .

روى أبو طعمة عن مولاه الذى بقيت لنا أمثلة قليلة من قراءته[١] : كما روى عن عبد الله بن عمر (ت ٧٣ هـ) الذى كان قارئاً كذلك[٢] . سكن أبو طعمة مصر ، وحدث أهلها ، وأصبح ثقة بها ، وأقرأهم القرآن ، ووردت عنه الرواية فى حروفه[٣]. وكان ممن سمعه بمصر عبد الله بن لهيعة (ت ١٧٤ هـ) الذى أصبح فيما بعد من محدثى مصر ومؤرخيها وفقهائها[٤]. ويلفت النظر أن ابن لهيعة يذكر أن أبا طعمة هذا كان أول من أقرأ أهل مصر[٥]. ولنا الخبر على عمومه غير صحيح تاريخيا ، فإن عبد الرحمن بن ملجم — إن لم يكن عبيد بن مخمر — هو أحق القراء بهذه الأولوية فى مصر ، فلعل ابن لهيعة يقصد أن أبا طعمة هو أول أستاذ من أساتذة مدرسة المدينة يأتى إلى مصر ويقيم بها ويقرئ أهلها القرآن . بل كأننا بابن لهيعة فى خلعه الأولوية على أبى طعمة بلا قيد ولا شرط يقصد أن الإقراء المنظم إنما بدأ فى مصر على يدى هذا الأستاذ. ويبدو أن أبا طعمة شغل بالفعل مكاناً هاما فى القراءة بمصر ، فإن أبا حاتم (ت ٢٥٥ هـ) حين يتحدث عنه يصفه بأنه « قارئ مصر »[٦] أى القارئ الأول أو شيخ القراء بها . ويبدو مدهشا مع هذا كله أنهم لم يعنوا بحفظ اسمه كاملا ، فلسنا نعرف عدا كنيته سوى أن اسمه « هلال »[٧] كما لم يعنوا بتسجيل تاريخ دخوله مصر ولا تاريخ وفاته .

يقول ابن لهيعة إنه سمع أبا طعمة يقرأ الآية ٧٦ من سورة الرحمن : « متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان » هكذا : « متكئين على رفارف خضر وعباقرى حسان » وقد التقط أبو عبد القاسم بن سلام هذه الرواية من المصريين — ربما حين زار مصر سنة ٢١٣ هـ[٨] — وسجلها فى كتابه : فضائل القرآن[٩] ، وكتابه الآخر :

---

(١) راجع : ابن جنى : المحتسب : ١٦٧ ، ٢١٩ ، ٢٦٦ . الكرمانى: شواذ : ١٤ — ١٥ ، ١٢١ ، ١٦٩ ، ٢٠٠ ، ٢١٧ .

(٢) ابن الجزرى : غاية — ١ : ٤٣٧ .

(٣) المصدر نفسه — ٢ : ٣٥٦ — ٣٥٧ . ابن حجر : ت . التهذيب — ١٢ : ١٣٧ .

(٤) ابن حجر : ت . التهذيب — ٥ : ٣٧٣ — ٣٧٩ .

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح : ٢٦٤ .

(٦) ابن حجر : ت . التهذيب — ١٢ : ١٣٧ .

(٧) ابن الجزرى : غاية ٢٣ — ٣٥٦ . ابن حجر : ت . التهذيب — ١٢ : ١٣٧ .

(٨) ابن حجر : ت . التهذيب — ٨ : ٣١٥ .

(٩) لوحة ٤٢ .

القراءات[٢]. غير أن هذه القراءة كانت معروفة من قبل وعلى نطاق واسع فى غير مصر وعن غير طريق أبى طعمة .

قرأ بهذه القراءة من المدينة — بعد النبى — عثمان (ت ٣٥ هـ) ، وأبو طعمة ومن مكة ابن محيصن (ت ١٢٣ هـ) ، وتلميذه شبل بن عباد (ت حوالى ١٦٠ هـ). ومن الشام أبو حيوة شريح بن يزيد الحضرمى الحمصى (ت ٢٠٣ هـ) وقرأ بها من الكوفة طلحة بن مصرف (ت ١١٢ هـ) ، وزهير القرقبى النحوى المعاصر لعاصم (ت ١٢٧ هـ) . أما من البصرة فقد قرأ بها الصحابى أبو بكرة الثقفى (ت ٥١ هـ) ، وتلميذه نصر بن عاصم (ت ٩٠ هـ) الحسن البصرى (ت ١١٠ هـ) ، وعاصم الجحدرى (ت ١٢٨ هـ) تلميذ نصر بن عاصم والحسن ، ومالك بن دينار (ت ١٣١ هـ) الذى روى الحروف عن نصر بن عاصم ، والنحوى الشهير قطرب (ت ٢٠٦ هـ) ، ونصر بن على الجهضمى (ت ٢٥٠ هـ) الذى روى القراءة سماعا من غير عرض عن شبل المكى ، وأبو حاتم السجستانى (ت ٢٥٥ هـ) . وقرأ بها فى بغداد ابن مقسم العطار ت ٣٥٤ هـ[٢]. وبالرغم من أن هؤلاء القراء ينتمون فى مجموعهم إلى المراكز الإسلامية الكبرى فإن الجزء الأكبر منهم ينتمى إلى البصرة بالذات مما يدل على انتشار هذه القراءة بها أكثر من غيرها .

لم يتعرض أحد لهذه القراءة من حيث الرسم إذ من الواضح أن الرسم يحتملها . أما من ناحية اللغة والنحو فقد دار نقاش طويل بين علماء القراءات والنحو والتفسير حول الحروف : رفارف ، وخضر ، وعباقرى .

قرأ أصحاب هذه القراءة الحرف « رفارف » بالإجراء أى التنوين أو الصرف حينا ، وقرءوه بغير الإجراء أى بعدم التنوين أو المنع من الصرف أحيانا كثيرة . ولعل زهيراً القرقبي هو أشهر من عرف بالجمع بين القراءتين[٣]. ولا يجد الطبرى[٤]

---

(١) ابن الجزرى : غاية — ٢ : ٣٥٧ . ويلحظ أنه يقرأ هنا « رفاريف » بدلا من « رفارف »

(٢) أبو عبيد : فضائل القرآن : ٤٢ . الطبرى : جامع البيان — ٢٧ : ٩٥ . النحاس : إعراب القرآن : ٢٧٠ . ابن خالويه : مختصر : ١٥٠ . ابن جنى : المحتسب : ٣١١ . الحاكم : المستدرك — ٢ : ٢٥٠ . الزمخشرى : الكشاف — ٢ : ١٧١ الكرمانى : شواذ : ٢٣٦ . القرطبى : الجامع — ١٧ : ١٩١— ١٩٢ . أبو حيان : البحر المحيط — ٨ : ١٩٩ . السيوطى : الإتقان — ١ : ٧٧ .

(٣) الطبرى : جامع البيان — ٢٧ : ٩٥ . ابن جنى : المحتسب : ٣١١ . الكرمانى : شواذ : ٢٣٦ . أبو حيان : البحر المحيط — ٨ : ١٩٩ .

(٤) جامع البيان — ٢٧ : ٩٥ .

بأساً فى قراءة هذا الحرف ممنوعاً من الصرف؛ فإنها قد تحتمل وجه الصواب . ويصرح أبو القاسم الهذلى (ت ٤٦٥ هـ) فى كتابه الكامل بأنه يختار هذا الحرف لقوله بعده : خضر [١] .

أما الحرف « خضر » فقد قرأه كثير من أصحاب هذه القراءة بضم الضاد، وإن كان عبد الرحمن بن هرمل الأعرج (ت ١١٧ هـ) هو الذى اشتهر من بينهم بذلك [٢] . وينص ابن جنى [٣] ، والقرطبى [٤] . وصاحب اللوامح الذى ينقل عنه أبو حيان [٥] بأن ضم الضاد من « خضر » لغة قليلة لا تأتى إلا فى الشعر كما قال طرفة (ت ٥٥٢ م) :

أيها الفتيان فى مجلسنا   جردوا منها وراداً وشُقُر [٦]

وقال آخر :

وما انتميت إلى خور ولا كُسف   ولا لئام غداة الروع أوزاع

فشقر جمع أشقر ، وكسف جمع أكسف [٧] .

ولم تكن هذه هى القراءة الوحيدة لذلك الحرف فقد قرأه النحوى أبو محمد المروزى (ت) [٨] وغيره « خضار » [٩] .

أما الحرف الثالث « عباقرى » فقرأه قليلون بغير ياء [١٠] . أما الأكثرون فقرءوه بالياء ، غير أنهم اختلفوا فيما إذا كانت ياء نسب أم أصلية ، كما اختلفوا فيما إذا كانت الكلمة نفسها مفرداً أو جمعا ، تنزن أولا تنون ؛ بكسر القاف أو بفتحها .

---

(١) انظر : أبوحيان : البحر المحيط — ٨ : ١٩٩ .

(٢) ابن خالويه : مختصر : ١٥٠ . ابن جنى : المحتسب : ٣١١ . الكرمانى : شواذ : ٢٣٦ . أبوحيان : البحر المحيط — ٨ : ١٩٩ . Jeffery, M.H.T. Q., P. 168.

(٣) المحتسب : ٣١١ .

(٤) الجامع — ١٧ . ١٩٣ .

(٥) البحر المحيط — ٨ : .

(٦) الورد من الخيل : الكيت والأشقر . ج : وُرْد ، وراد ، أوراد . القاموس المحيط .

(٧) فى القاموس المحيط : كاسف البال . سيء الحال ، كاسف الوجه : عابس .

(٨) ابن خالويه : مختصر : ١٥٠ .

(٩) الرازى : مفاتيح الغيب — ٨ : ٣٧

(١٠) المصدر نفسه — ٨ : ٣٧ . القرطبى : الجامع — ١٧ : ١٩٣

قرأ زهير الفرقبي : « عباقريَّ » بفتح القاف والياء على أن اسم الموضع عباقر . ورد المفسر الأندلسي ابن عطية (ت ٥٤٦ هـ) على هذا بأن الصحيح فى اسم الموضع عبقر [١] . كما قرأ زهير الحرف نفسه بالجمع مصروفا وغير مصروف . وعلق الطبرى بأن هذا لا وجه له فى الصواب عند أهل العربية، لأن ألف الجمع لا يكون بعدها أربعة أحرف ولا ثلاثة صحاح [٢].

وروى قطرب « عباقِريّ » بكسر القاف غير مصروف . وصرح بأنه ليس بمنسوب بل هو مثل : كرسى وكراسى ، وبُختى وبخاتى [٣] . أى أن ياءه أصلية وليست ياء نسب .

ويلحظ أبو عبيد القاسم بن سلام أن المحدثين يروون « عباقرى » — مثله مثل « رفارف » — بالإجراء ، أى بالصرف . وهو يصرح بأنه لا يستطيع أن يحكم ما إذا كان ذلك منهم عن نقل أو عن رأى . غير أن ما يعرفه هو يرجب منع الصرف [٤] . ويصف أبو جعفر النحاس هذا الزعم من أبى عبيد بأنه خلط بين عند جميع النحويين ؛ لأنهم قد أجمعوا جميعاً أنه يقال : رجل مد ائنيٌّ بالصرف، وإنما توهم أبو عبيد أنه جمع . وليس فى كلام العرب جمع بعد ألفه أربعة أحرف . ويمضى أبوجعفر ليوضح كيف أنه لا يمكن أن تكون «عباقرى» جمعاً فيقول : لا اختلاف بينهم أنك لو جمعت عبقراً لقلت : عباقر ، ويجوز — على بعد — : عباقير . ويجوز : عباقرة . فأما عباقرى فى الجمع فمحال ؛ والعلة فى امتناع جواز عباقرى أنه لا يخلو من أن يكون منسوبا إلى عبقر فيقال : عبقرى ، أو يكون منسوباً إلى عباقير فيرد إلى الواحد فيقال أيضاً : عبقرى : كما شرط النحويون جميعاً فى النسب إلى الجمع أنك تنسب إلى واحده ، فتقول فى النسب إلى المساجد مسجدى ، وإلى العلوم: علمى ، وإلى الفرايض : فرضى . فإن قال قائل : فما يمنع أن يكون عباقر اسم موضع ثم ينسب إليه كما تقول: معافرى ؟ قيل له : إن كتاب الله جل وعزلا يحمل على مالا يعرف ويترك حجة الإجماع [٥].

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط — ٨ : ١٩٩ . (٢) جامع البيان — ٢٧ : ٩٥ .

(٣) ابن جنى : المحتسب : ٣١١ . القرطبى : الجامع — ١٧ : ١٩٣ . والبخت بضم الباء — : الأول الخراسانية كالبختية : الجمع : بخاتىّ وبخاتِى وبخات (القاموس المحيط) .

(٤) فضائل القرآن : ٤٢ . (٥) إعراب القرآن : ٢٧٠ .

وذهب أبو حاتم السجستانى إلى ما ذهب إليه القرقبى فروى « عباقرى » بفتح القاف غير مصروف . وقد صرح الزمخشرى (ت ٥٢٨ هـ) فيا بعد بأن هذا لاوجه لصحته[١]. غير أن أبا حاتم نفسه يبدو غير مطمئن إلى هذه القراءة فهو يرجح أن يكون « عباقر » بكسر القاف – لا بفتحها – على ما تتكلم به العرب . بل إنه يرى أنه يكون أصح وأشبه بكلام العرب لو كان « عباقِرى » بكسر القاف والصرف كالنسب إلى مداين مداينى[٢].

ويتخذ الطبرى من صرف كلمتى « رفارف » و « عباقرى » دليلا على عدم صحة القراءة التى تصرفهما ؛ إذ لو كانت صحيحة لوجب أن تكون الكلمتان غير مجرأتين . هذا إلى أنه لا وجه فى الصواب عند أهل العربية لكلمة « عباقرى » بالجمع[٣] .

وقد عبر أبو جعفر النحاس عن رأيه بوضوح كاف فى رده على أبى عبيد الذى أثبت فيه نحويا استحالة ورود كلمة « عباقرى » فى لغة العرب[٤].

ويعلق ابن جنى (ت ٣٩٠ هـ)[٥]على هذه القراءة بأن ترك صرف «عباقرى» شاذ فى القياس . ولكن لا يستنكر شذوذه فى القياس مع استمراره فى الاستعمال. نعم . وإذا كان قد جاء عنهم : عنكبوت وعناكَبِيتُ وتَخربوت وتخاريبت[٦] كان « عباقرى » أسهل منه من حيث كان فيه حرف مشدد يكاد يجرى مجرى الحرف الواحد . ومع ذلك أنه – كما ذكرنا منذ قليل عن قطرب – فى آخر الكلمة كياء فى : بخاتى وزرابى[٧]. وليس لنا . أن نتلقى قراءة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلا بقبولها والاعتراف لها .

ويرى الفخر الرازى (ت ٦٠٦ هـ)[٨] أن من قرأ : « عباقرى » فقد جعل

---

(١) الكشاف – ٢ : ٣٧١.
(٢) ابن جنى : المحتسب : ٣١١.
(٣) جامع البيان – ٢٧ : ٩٥ .
(٤) إعراب القرآن : ٢٧٠ .
(٥) المحتسب : ٣١١ .
(٦) التخربوت : الخيار الفارهة من النوق (القاموس المحيط) .
(٧) الزرابى : النمارق والبسط ، أو كل مابسط واتكئ عليه . الواحد: زربى (القاموس المحيط) .
(٨) مفاتيح الغيب – ٨ : ٣٧ :

اسم ذلك الموضع : عباقر . فإن زعم أنه جمعه فقد وهم . وإن جمع العبقرى ثم نسب فقد التزم تكلفا خلاف ما تكلف الأدباء التزامه ، فإنهم فى الجمع إذا نسبوا ردوه إلى الواحد . وهذا القارئ تكلف فى الواحد ورده إلى الجمع ثم نسبه لأن عندالعرب ليس فى الوجود بلاد كلها عبقر حتى تجمع ويقال : عباقر . فهذا تكلف الجمع فيما لا جمع له ، ثم نسب إلى ذلك الجمع . والأدباء تكره الجمع فيما ينسب لئلا يجمعوا بين الجمع والنسبة .

ويورد القرطبى (ت ٦٧١ هـ)[1] نفس حجة الرازى حين يذكر أن بعضهم قرأ : « عباقرى » وهو خطأ لأن المنسوب لايجمع على نسبته .

وهى نفس حجة الذهبى (ت ٧٤٨هـ) عندما ذكر فى « تلخيص المستدرك »[2] أن « عباقرى » على الجمع ، وهو غلط بالأصول النحوية لأن المنسوب لا يجمع على نسبته كما فى الصراح .

وعند صاحب اللوامح الذى يروى له أبو حيان الأندلسى[3] يجوز منع « عباقرى» من الصرف بالمجاورة ، أى لمجاورته آخر ممنوعا من الصرف هو « رفارف » أما فيما عدا ذلك فلا يمكن منع ياءى النسب من الصرف إلا لضرورة الشعر .

الحرف « عباقرى » بغير ياء مخالف لرسم المصحف . واستعمال « عباقرى » بالياء مع فتح القاف خطأ تماما . أما « عباقرى » بكسر القاف ، والجمع ، والتنوين أو عدمه فقد أثبتت الجمهرة — وعلى رأسها النحوى المصرى أبو جعفر النحاس — خطأه لغويًّا ونحويا .فى حين مال قليلون (قطرب ، أبو حاتم ، ابن جنى) إلى التساهل فى قبوله مستندين إلى علل غير قوية . وهكذا تفقد هذه القراءة — بالرغم من مطابقتها رسم المصحف العثمانى — شرطًا هاما من شروط السلامة والقبول لدى قراء العامة وهو الصحة اللغوية والنحوية .

أما من ناحية الإسناد فإن أبا عبيد بعد أن يذكر أن هذا الحرف يروى مرفوعا عن عاصم الجحدرى عن أبى بكرة عن النبى يصرح بعدم اطمئنانه قائلا : « فلا

---

(١) الجامع — ١٧ : ١٩٢ — ١٩٣ .

(٢) على هامش المستدرك للحاكم النيسابورى — ٢ : ٢٥٠ .

(٣) البحر المحيط — ٨ : ١٩٩ .

أدرى أمحفوظ هو أم لا »[١] . ويذكر الطبرى فى صراحة كافية أن قراءة « رفارف وعباقرى » بالألف والإجراء ذكرها عن النبى « خبر غير محفوظ ولا صحيح السند»[٢] ويقرر أبو جعفر النحاس أن هذه القراءة التى قرأ بها عاصم الجحدرى ، والتى رواها بعضهم عن عاصم عن أبى بكرة عن النبى « إسنادها ليس بالصحيح »[٣] . ولكن الحاكم النيسابورى يذكر هذه القراءة[٤] مروية عن عاصم الجحدرى عن عن أبى بكرة عن النبى مقرراً أن « هذا حديث صحيح الإسناد . ولم يخرجاه »[٥] أى الشيخان . غير أن الذهبى يعقب على تصحيح الحاكم هذا بقوله : « قلت : منقطع . وعاصم لم يدرك أبا بكرة[٦] . ويسير السيوطى وراء الحاكم فى الأخذ بصحة سند هذه القراءة[٧] .

يبدو السند غير صحيح إذن . إلا أننا نلحظ أنه يؤخذ من الرواية أن الصحابى أبا بكرة الثقفى ، الذى انتقل إلى البصرة وأقام بها واستطاع هو وأولاده أن يبلغوا فيها مكانة عالية[٨] ، هو الذى نقل هذه القراءة إلى البصرة وعنه أخذها أهلها . كما يؤخذ منها أيضاً أن عاصما الجحدرى هو الذى نشرها بالبصرة عندما جعل يقرأ ويقرئ بها هناك . والذهبى على حق كامل حين يقرر أن الحديث الذى ينسب إلى الجحدرى أنه أخذ هذه القراءة عن أبى بكرة حديث منقطع . لأن عاصما الذى ترفى عام ١٢٨ ﻫ لا يمكن أن يكون قد أدرك أبا بكرة الذى توفى عام ٥١ ﻫ . ومعنى ذلك أن ثمة حلقة مفقودة بينهما . فإذا عرفنا أن عاصما قد قرأ على نصر بن عاصم وروى حروفًا عن أبى بكر – ويغلب جداً أنه أبو بكرة عن النبى[٩] . وعرفنا فى الوقت نفسه أن نصر بن عاصم هذا (ت ٩٠ ﻫ) النحوى البصرى الذى

---

(١) فضائل القرآن : ٤٢ .
(٢) جامع البيان – ٢٧ : ٩٥ .
(٣) إعراب القرآن : ٢٧٠ .
(٤) يلحظ أنها مذكورة بصيغة الإفراد : « رفرف وعبقرى » .
(٥) المستدرك – ٢ : ٢٥٠ .
(٦) تلخيص المستدرك – على هامشه – ٢ : ٢٥٠ .
(٧) الإتقان – ١ : ٧٧ .
(٨) ابن سعد : الطبقات – ٧ : ٨ – ٩ . ابن الأثير : أسد – ٥ : ٣٨ ، ١ .
(٩) ابن الجزرى : غاية – ١ : ٣٤٩ .

يقال إنه أول من نقط المصاحف وخمسها وعشرها ، قد سمع من أبي بكرة[١] .. إذا عرفنا هذا وذاك أصبح من المحتمل جداً أن يكون نصر بن عاصم هو الحلقة المفقودة . ويكون هو الذى تلقى تلك القراءة عن أستاذه أبي بكرة ولقنها تلميذه الجحدرى . غير أننا لا نستطيع مع ذلك أن نتجاهل ما يوصف به عاصم من أن فى قراءته مناكير ولا يثبت سندها[٢] .

وأياً كان الأمر فإننا ننتهى إلى نتيجة بعينها : تلك هى أن قراءة « رفارف وعباقرى » التى سمع أبو طعمة يقرأ بها فى مصر فى أخريات القرن الأول وأوائل القرن الثانى الهجريين قراءة تتفق مع رسم المصحف . ولكنها غير صحيحة لغوياً ولا نحويا . أما سندها فقد يصح وقد لا يصح . فإذا أخذنا بصحة السند لزم أن نعدها قراءة آحاد وهو ما فعله السيوطى[٣] حين ضرب بها مع غيرها مثلا لقراءة الآحاد وهى ما صح سنده وخالف الرسم أو العربية ، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور . أما إذا أخذنا بعدم صحة السند فيلزم أن نعدها شاذة لأن الشاذة القراءة هى ما لم يصح سنده[٤] .

ومما له دلالته القوية أن بعض أصحاب هذه القراءة هم من القراء الذين عرف عنهم الميل إلى المخالفة عن قراءة الجمهور . وقد أشرنا منذ لحظة ما وجه إلى قراءة عاصم الجحدرى من طعن . أما ابن محيصن (ت ١٢٣ هـ) الذى قرأ بهذه القراءة فى مكة فهو قارئ ثقة ، وكان ممن تجرد للقراءة وقام بها هناك ، كما كان أعلم قراء مكة بالعربية ، أى النحو — وأقواهم عليها . ولكن يبدو أن تمكنه هذا من النحو هو الذى زين له أن يختار فى القراءة على مذهب العربية اختيارا خرج به عن إجماع أهل بلده ، فرغب الناس عن قراءته وأجمعوا على قراءة معاصره ابن كثير (ت١٢٠هـ) وقد درس ابن الجزرى (ت ٨٣٣ هـ) قراءة ابن محيصن فسجل تقديره إياها قائلا إنه لولا ما فيها من مخالفة المصحف لألحقت بالقراءات المشهورة[٥] . ويوصف أبو حيوة (ت ٢٠٣ هـ) مقرئ الشام ، والذى أقرأ بهذه القراءة هناك ، بأنه « صاحب القراءة الشاذة »[٦] . أما ابن مقسم العطار (ت ٣٥٤ هـ) الذى أقرأ بها فى بغداد

---

(١) المصدر نفسه — ٢ : ٣٣٦ .   (٢) المصدر نفسه — ١ : ٣٤٩ .
(٣ و ٤) الإتقان — ١ : ٧٧ .
(٥) ابن الجزرى : غاية — ٢ : ١٦٧ .
(٦) المصدر نفسه — ١ : ٣٢٥ .

فقد كان أعرف أهل زمانه بالقراءات مشهورها وغريبها وشاذها . وكان من رأيه أن كل قراءة توافق خط المصحف فالقراءة بها جائزة وإن لم يكن لها مادة . وقد عمد إلى حروف من القرآن فخالف فيها الإجماع ، فقرأها وأقرأها على وجوه ذكر أنهـا تجوز فى اللغة العربية ، حتى لقد رفع أمره للسلطان ، ونوظر فى هذه الحروف ، ووقف للضرب[1].

يقرر الطبرى[2] أن القراء فى جميع الأمصار على قراءة تلك الآية من سورة الرحمن : « على رفرف خضر وعبقرى حسان » بغير ألف فى كلا الحرفين . غير أن ما عرضناه من تاريخ تلك القراءة هو فى حقيقته صورة للصراع بين اتجاهين ظلا يتنازعان القراءة حتى القرن الرابع الهجرى : أحدهما — وهو الأغلب — هو الاتجاه الذى يلتزم رسم مصحف عثمان ، ويتقيد بقواعد العربية وأصولها ، ويحرص على صحة سند القراءة . والثانى — وكان محدوداً على أى حال — هو الاتجاه الذى لا يتقيد بغير قواعد العربية وأصولها ، فيجيز عدم التقيد بمصحف عثمان ما دام سند القراءة صحيحاً (ابن شنبوذ ت ٣٢٨ هـ)[3]، أو عدم التقيد بالسند ما دامت القراءة توافق خط هذا المصحف (ابن مقسم ت ٣٥٤ هـ)[4].

قرأ أبو طعمة كلمة « إبراهيم » من الآية ١٢٤ من سورة البقرة : « وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن » الآية : إبراهيم بفتح الهاء غير مشبع[5] . ولعله كان يقرؤها هكذا معظم المواضع التسعة والستين[6] التى وردت فى القرآن الكريم . ويروى أبو حيان[7] أن فى هذا الحرف ست لغات أكثرها تداولاً واشتهاراً هى : « إبراهيم » بالألف والياء ، والتى هى فى نفس الوقت قراءة الجمهور[8].

(١) الذهبى : طبقات القراء — ١ : ٩٥ — ٩٦ . ابن الجزرى : غاية — ٢ : ١٢٤ — ١٢٥ .

(٢) جامع البيان — ٢٧ : ٩٥ .

(٣) الخطيب : ت . بغداد — ١ : ٢٨٠ . الذهبى : طبقات القراء — ١ : ٨٥ . ابن الجزرى : غاية — : ٥٤ ، النشر — ١ : ١٢٢ .

(٤) الذهبى : طبقات القراء — ١ : ٩٥ — ٩٦ . ابن الجزرى : غاية — ٢ — : ١٢٤ .

(٥) الكرمانى : شواذ : ٣١ .

(٦) راجع : محمد فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس .

(٧) أبو حيان : البحر المحيط — ١ : ٣٧٢ .

(٨) الدانى : التيسير : ٧٧ . الراز ٤ : مفاتيح الغيب — ١ : ٤٧٥ . أبو حيان : البحر المحيط — ٤١ : ٣٧٤ . ابن الجزرى : تقريب النشر : ٩٤ .

ومن هذه اللغات : « إبراهام » بألفين. وقد قرأ بها عبد الله بن الزبير (ت٧٣هـ) فى المدينة[١] ، وأبو موسى الأشعرى (ت ٤٤ هـ)فى البصرة[٢] ، والمفضل الضبى (ت فى حدود ١٧٠هـ)فى الكوفة[٣]. أما فى الشام فقد قرأ بها ابن عامر (ت١١٨)[٤] ورواها عنه راوياه : ابن ذكوان (ت ٢٤١ هـ)[٥]، وهشام (ت ٢٤٥ هـ)[٦]. ولعل فى ذلك ما يوحى بأنها القراءة المفضلة عند أهل الشام خاصة . وقد يفسر ذلك بمجاورتهم واحتكاكهم بأصحاب اللغة العبرية الذين ينطقونها كذلك[٧]. وإبراهام هى أشهر القراءات الشاذة إذا قورنت إليها قراءة « إبراهِم » — بألف وحذف الياء وكسر الهاء — التى قرأ بها أبو بكرة (ت ٥١ هـ) فى البصرة[٨]، وقراءة إبراهُم — بألف وفتح الهاء غير مشبع — التى قرأ بها أبو طعمة .

وأخيراً فمن المحتمل جداً أن يكون لأبى طعمة قراءات شاذة أخرى كان يقرأ بها وحملها معه إلى مصر. غير أن فى المثالين اللذين عرضناهما ما يكفى للإشارة إلى اهتمامه بهذا الضرب من القراءات .

بكير بن عبد الله بن الأشج (ت ١٢٧ هـ) تابعى مدنى ، اتفقوا على جلالته وتوثيقه وعلمه ، وما ذكره مالك إلا قال : « كان من العلماء » خرج . بكير هذا إلى مصر فى زمن قديم لا نستطيع تحديده ، نزلها وأقام بها . وأصبح من أئمتها المجتهدين وثقات أهلها وقرائهم . وتتلمذ عليه جماعة من الكبار منهم : يزيد بن أبى حبيب (ت ١٢٨هـ)، عمرو بن الحارث (ت١٤٨هـ) والليث بن سعد (ت١٧٥)[٩]. وإذا كان بكير قد نقل شيئاً من قراءة المدرسة المدنية إلى مصر — وأغلب الظن أن قد فعل — فإنه يكون طبيعياً جداً .

• • •

(١ و٢) أبوحيان : البحر المحيط — ١ : ٣٧٤ . Jeffery., M.T.Q., PP. 211, 227

(٣) أبوحيان : البحر المحيط — ١ : ٣٧٤ .

(٤) الفخر الرازى — ١ : ٤٧٥ . أبوحيان : البحر المحيط — ١ : ٣٧٤ .

(٥) الدانى : التيسير : ٧٧ . ابن الجزرى : تقريب النشر : ٩٤ .

(٦) الدانى : التيسير : ٧٦ — ٧٧ .

(٧) ولفنسون : تاريخ اللغات السامية : ٢١٠ .

(٨) أبوحيان : البحر المحيط — ١ : ٣٧٤ .

(٩) النووى : تهذيب الأسماء — ١ : ١٢٥ . ابن حجر : ت . التهذيب . — ١ : ٤٩١ — ٤٩٢ ابن تغرى بردى : النجوم — ١ : ٣٠٤ . السيوطى : حسن — ١ : ١١٩ .

٣ – نافع وتلاميذه

قامت إذن منذ بدء مرحلة الاختيار صلات فعلية بين المدرسة المصرية الناشئة وبين مدارس القراءة الأخرى فى الشام والحجاز والعراق حيث كان رجال ممتاز : قد وجهوا عنايتهم إلى قراءة القرآن واختيار طرق معينة لقراءة حروف مصحف عثمان المجرد . من هؤلاء كان شاب مدنى ، أصبهانى الأصل ، صبيح الوجه بالرغم من سواده الشديد، حسن الخلق، فيه دعابة. قرأ هذا الشاب الذى ولد عام ٧٠ هـ القرآن ودرسه على كبار القراء من تابعى أهل المدينة مثل : عبد الرحمن بن هرمز الأعرج (ت ١١٧ هـ) ، يزيد بن رومان (ت ١٢٠ هـ) ، يزيد بن القعقاع (ت١٣٠ هـ) ، شيبة بن نصاح (ت ١٣٠ هـ) ، ومسلم بن جندب (ت١٣٠هـ) ولم يكد نافع – وكان هذا اسمه – يبلغ الثلاثين – أو الأربعين على الأكثر – من عمره حتى كان قد أجاد دراسة القرآن إلى درجة استطاع معها أن يختار لنفسه قراءة خاصة ذات خصائص معينة . واستمع الناس إلى قراءة نافع الجديدة فأعجبوا بها ، وصاروا إليها ، وتمسكوا بها ، وأقبلوا عليها يتعلمونها ويروونها . ولم يمض زمن طويل حتى احتلت قراءة نافع مركز الصدارة فى المدينة وانتهت رياسة القراء هناك إليه . وأصبح إمامهم بها . وتجاوزت شهرة نافع المدينة وطارت إلى آفاق العالم الإسلامى ، فتقاطر الناس يتلقون عنه حتى وفاته عام ١٦٩هـ[1].

فى نفس الوقت تقريبا كان هناك شاب مصرى من أهل قلقشندة[2] ، يقال إنه أصبهانى الأصل كذلك ، ثرى واسع الثراء ، محب للعلم ، يدعى الليث بن سعد (٩٤ – ١٧٥) قد نبغ فى سن مبكرة فى الفقه ، ولم يلبث حتى أصبح من أعظم

---

(١) الدانى : التيسير : ٨ . ابن خلكان : وفيات – نهضة – ٢ : ١٥١ . الذهبى : طبقات القراء : ٣١ – ٣٢ . ابن الجزرى : غاية – ٢ : ٣٣٠ – ٣٣٤ ، والنشر – : ١١١ – ١١٢ .

(٢) من قرى مركز طوخ من محافظة القليوبية . وهى من البلاد القديمة . ويحرف اسمها أحياناً إلى قرقشند . انظر : على مبارك : الخطط التوفيقية – ١٤ : ١٠٨ . محمد رمزى : القاموس الجغرافى – ج ١ ق ٢ ١ : ٤٦ .

الشخصيات المصرية علما ومكانة ونفوذاً . خرج الليث يؤدى فريضة الحج سنة ١١٣هـ، وهو بعد فى العشرين من عمره . فوجد إمام الناس فى القراءة بالمدينة هو نافع . والأقرب أنه بادر حينذاك فأخذ القرآن عرضاً عليه . وأصبح منذ ذلك الحين يقرأ بقراءة أهل المدينة ويحسن القرآن والنحو[١].

روى أحدهم أن الليث صلى بهم المغرب بعد عودتهم من الإسكندرية فقرأ الآية ١٥ من سورة الشمس هكذا : « فلا تخاف عقباها » . ويعلق الراوية أنها كذلك فى مصاحف أهل المدينة الذين يقرأون : هذا — أى القراءة الأخرى: « ولايخاف عقباها » — غلط من الكاتب عند أهل العراق[٢].

يذكر ابن خالويه القراءة[٣] الآتية للنبى فى هذه الآية : « ولم يخف عقبيها » أى باستعمال الواو . ولم النافية الجازمة . وإمالة الألف فى عقباها . غير أن سائر المصادر تبين بوضوح أن القراء فى الأمصار المختلفة قد اتخذوا من هذه الآية مرقفين مختلفين طوال القرون الثلاثة الأولى . فقرأها أهل الحجاز — باستثناء جد الإمام مالك الذى كان معاصراً لكتابة مصحف عثمان؛ وكتبها فى مصحفه « ولا يخاف عقباها»[٤] بالفاء ، أى هكذا : « فلا يخاف عقباها »[٥] وكذلك هى عند أبى بن كعب[٦] ونافع[٧] . واتفق أهل الشام على قراءتها بالفاء مع أهل الحجاز ، فقرأها كذلك قارئهم الكبير ابن عامر (ت ١١٨ هـ)[٨] . أما أهل العراق فقد قرأها عامتهم

---

(١) الخطيب : ت. بغداد — ٣:١٣ — ١٤. الذهبي : تذكرة —١ : ٢٠٢—٢٠٤. ابن الجزرى غاية — ٢ : ٣٤ ، ٢٣٣ . ابن حجر : ت . التهذيب— ٨ : ٤٥٩—٤٦٣ . مقدمة كشف الولاة : ٤ ، ٢٩ — ٣١ .

(٢) الخطيب : ت . بغداد — ١٣ :

(٣) مختصر : ١٧٤ .

(٤) القرطبى : الجامع — ٢٠ : ٨٠ .

(٥) أبوعبيد : فضائل : ٤٥ . الطبرى : جامع — ٣٠ : ١٣٨ . السجستانى : المصاحف : ٤٠ — ٤٧ . الدانى : المقنع : ١١٦ .

(٦) السجستانى : المصاحف : ٤٣ . أبو حيان : البحر المحيط — ٨ : ٤٨٢ . Jeffer y, M.H.T.Q., p. 178.

(٧) الدانى : التيسير / ٢٢٣ . القرطبى الجامع — ٢٠: ٨٠ . أبوحيان : البحر المحيط — ٨ : ٤٨٢ Jeffery, M.H.T.Q., p. 178.

(٨) أبوعبيد . فضائل : ٤٥ . الطبرى : جامع ٣٠ : ١٣٨ . السجستانى : المصاحف : ٤٣ ، ٤٧ . الدانى : التيسير : ٢٢٣ . القرطبى : الجامع — ٢٠ : ٨٠ .

بالواو[١]. وزعم الفراء الكوفى (ت ٢٠٧ هـ) – وهو زعم أثار ثائرة أبى جعفر النحاس – أن الواو أجود[٢] واختاره البصريان أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) وأبو حاتم السجستانى (ت ٢٥٠ هـ) اتباعاً لمصحفهم[٣]. فإذا كان القرن الرابع ظهرت الدعوة إلى التوفيق بين الطرفين، والاعتراف بصحة القراءتين، فيقرر الطبرى العالم البغدادى (ت٣١٠ هـ) أن الصواب من القول فى ذلك أنهما قراءتان معروفتان غير مختلفتى المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب[٤]. ويعترف النحوى الكرفى نفطويه (ت ٣٢٣ هـ) اعترافاً ضمنيا بصحة القراءتين حين يبين كيف يستقيم معنى الآية بكل منهما[٥]. ويقرر العالم المصرى أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ) أن القراءتين جميعاً نقلهما الجماعة عن الجماعة فهما بمنزلة آيتين لأن معناهما مختلف[٦].

قد يبدو بعد هذا أن القراءة التى قرأ بها الليث فى صلاة المغرب هى قراءة أهل المدينة وأهل الشام لاشك. غير أنه يلفت النظر أن الليث قرأ: «يخاف» فيما تذكر الرواية بالتاء وليس بالياء. ولما كان المعنى يبدو غير مستقيم – أو بعيداً فى الأقل – وفقاً لهذه القراءة، فقد يتبادر إلى الذهن أن فى الأمر خطأ مطبعياً قلب الياء تاء. ولكن يدعو إلى التريث فى قبول هذا التعليل أن القاسم بن سلام يذكرها[٧] بالتاء أيضاً عند كل من أهل المدينة وأهل العراق وهو يذكر حروف القرآن التى اختلفوا فيها. من الممكن تعليل هذه القراءة – إذا صحت – بأن الفعل مبنى للمجهول. غير أن انتشار التصحيف فى النسخة المصورة التى نعتمد عليها من كتاب «فضائل القرآن» يفتح الباب أمام احتمال أن هذه التاء مجرد تصحيف.

يروى الليث عن أبى الدرداء أن النبى كان يقرأ الآية ٣٩ من سورة الرعد:

---

(١) المصادر السابقة نفسها ماعدا: السجستانى: المصاحف ٤٠، ٤٤، ٤٧. النحاس، إعراب القرآن: ٣٣٤.

(٢) النحاس: إعراب القرآن: ٣٣٤.

(٣) القرطبى: الجامع – ٢٠: ٨٠.

(٤) جامع البيان – ٣٠: ١٣٨.

(٥) النحاس: إعراب القرآن: ٣٣٤.

(٦) نفس المصدر والصفحة.

(٧) فضائل: ٤٥.

« يمحو الله ما يشاء ويثبت » بتخفيف « يثبت »[١]. وقد خففها من السبعة : ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو . فى حين شدد الباقون : ابن عامر ، وحمزة ، ونافع ، والكسائى . والتشديد قراءة ابن عباس ، واختيار أبى عبيد وأبى حاتم لكثرة من قرأ بها ، لقوله : « يثبت الله الذين آمنوا » (إبراهيم : ٢٧)[٢] . وأن يروى الليث هذه القراءة لا يعنى بالضرورة أنه كان يقرأ بها .

وبالرغم من أن الليث أخذ القرآن على واحد من القراء السبعة (نافع) فقد كان على علم بالمصاحف القديمة وقراءاتها . فهو يروى أن الآية ٢٣٨ من سورة البقرة « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » جاءت فى مصحف كل من زوجى النبى : حفصة (ت ٤٥ هـ) وعائشة (ت ٥٨ هـ) بزيادة : «وصلاة العصر »[٣] والمصاحف القديمة تؤيد ذلك[٤] ، بل تشهد بأنها وردت على هذا النحو أيضا فى مصحف كل من : أبى[٥] ، وأم سلمة زوج النبى (ت ٥٩ هـ)[٦] وابن عباس[٧] ، وعبيد بن عمير القارئ المكى (ت ٧٤ هـ)[٨] . وقد أنكر علماء المسلمين القدامى كون هذه الزيادة قرآنا وقالوا : وإنما ذلك كالتفسير من النبى[٩] . وبعدها جرلد تسيهر[١٠] من الزيادات التفسيرية حيث يستعان أحيانا على إزالة غموض فى النص بإضافة تمييز أدق يحدد المعنى المبهم دفعا لاضطراب التأويل . ويشبه السيوطى[١١] هذه الزيادات بالمدرج من الحديث .

---

(١) الحاكم المستدرك - ٢ : ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٢) الدانى التيسير : ١٣٤ . القرطبى : الجامع - ١٩ : ٣٢٩ . الرازى : مفاتيح الغيب . ٥ : ٢٠٧ - ٢٠٨ . أبوحيان : البحر المحيط - ٥ : ٣٩٩ .

(٣) الطبرى : جامع البيان - ٢ : ٣٤٩ . أبوحيان : البحر المحيط .- ٢ : ٤٠٢ .

(٤) Jeffery, M.H.T.Q., pp.214, 232

(٥) Ibid, p. 122, . أبوحيان : البحر المحيط - ٢ : ٤٠٢ .

(٦) Ibid, p. 235.

(٧) Ilytd, p. 196. أبوحيان : البحر المحيط - ٢ : ٤٠٢ .

(٨) أبو حيان : البحر المحيط - ٢ : ٤٠٢ . Jeffer'y, MHTQ., p. 237

(٩) النحاس : إعراب القرآن : ٧ . القرطبى : الجامع - ٣ : ٢١٣ .

(١٠) مذاهب التفسير : ١٥ - ١٦ ، ٢٤ - ٢٥ .

(١١) الإتقان - ١ : ٧٧ .

إذا كان الليث ، فيما يبدو ، هو أول من تتلمذ من مصر على نافع فى القراءة فإنه قطعا لم يكن آخرهم . بل لعله هو الذى فتح الباب إليه ، وشجع زملاءه المصريين على التلمذ عليه . فقد سافر أبو دحية المصرى ، معلى بن دحية بن قيس إلى المدينة مزوداً بكتاب إلى نافع أغلب الظن أنه يوصيه فيه بزميله الجديد . ولعل أبا دحية كان يعتقد أن نافعا يقتصر فى القراءة على حرفه فلا يقرئ من يتتلمذ عليه إلا به ولكنه فوجئ إذ وجده يقرئ النـــاس بجميع القراءات — وفى هذا ما يدل على تمكن نافع من جهة أخرى — فهتف بالأستاذ مستفسراً ومفكراً فى آن : يا أبا رويم ، ؟ ما هذا ؟ فأجابه العالم الورع المتواضع : سبحان الله ! أحرم ثواب القرآن ؟ أنا أقرئ الناس بجميع القراءات حتى إذا كان من يطلب حرفى أقرأته به . وأياًّ كان الأمر فقد أخذ أبو دحية القراءة عرضا عن نافع ، ورجع إلى مصر ، وأصبح من مشاهير الرواة بها وأستاذاً لعدد ممن تفوقوا فى القراءة من بعد ، وهم : عبد الصمد بن عبد الرحمن (ت ٢٣١ هـ)[١] ، عبد القوى بن كمونة وهو من جلة أصحابه[٢] ، وأبو مسعود المدنى[٣] . وروى عنه الحروف أبو يعقوب الأزرق (ت حوالى ٢٤٠ هـ)[٤] ، وهشام ابن عمار السلمى (ت ٢٤٥هـ) إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقريهم ومحدثهم ومفتيهم[٥] . كما روى عنه القراءة عرضا يونس بن عبد الأعلى (ت ٢٦٤ هـ)[٦] . وجدير بالذكر أن الأزرق ويونس قد قررا : أن ابن دحية لم يختلف عن قارئ مصر العظيم ورش (ت١٩٧ هـ) فى شىء من الحروف أو القراءة[٧] .

وقبل أن ينتصف القرن الثانى الهجرى ، وفى حياة نافع نفسه ، بدأ المصريون يعلمون قراءته ويتعلمونها فى مصر نفسها . وكان أول من جلس للإقراء بها فى مصر

---

(١) ابن الجزرى : غاية — ١ : ٣٨٩ ، ٢ : ٣٠٤ .

(٢) المصدرنفسه — ١ : ٤٠٠ ، ٢ : ٤ .

(٣) ابن الجزرى : غاية — ٢ : ٣٠٤ ، ٣٢٦ .

(٤) المصدرنفسه — ٢ : ٣٠٤ ، ٤٠٢ .

(٥) المصدرنفسه — ٢ : ٣٠٤ ، ٣٥٤ .

(٦) الذهبى : طبقات : ٦١ . ابن الجزرى : ... — ٢ : ٢٠٤ ، ٤٠٦ .

(٧) ابن الجزر : غاية — ٢ : ٤٠٣ . ويفهم من استعمال هذين المصطلحين أن القراءة تعنى الأصول العامة للأداء ، فى حين يقصد بالحروف طريقة أداء كلمات مفردة بأعيانها .

عبد الرحمن بن ميسرة مولى حضرموت (ت ١٨٨ هـ) الفقيه العفيف الشريف وأحد كبار الموظفين بها [١].

كان نافع ممن عنى من القراء الأوائل بمعرفة الوقف والابتداء فى القرآن [٢]، أى معرفة المواضع من الآيات التى يحسن أن يقف القارئ فيها ثم يبتدئ بما يبعدها . ومذهبه فى ذلك يرجه عام هو مراعاة تجانسهما –أى الوقف والابتداء – بحسب المعنى [٣] . وقد ألف فى ذلك الموضوع كتابا بعنوان « التمام » أو « وقف التمام » [٤]. وبالرغم من أن حاجى خليفة [٥] لم يشر إلى هذا الكتاب فالذى يبدو أنه أقدم ما ألف من نوعه . ثم ظهر من بعده كتاب وقف التمام للنحوى البصرى الأخفش الأوسط (ت ٢١٥) [٦]؛ ثم كتاب الوقف والابتداء لابن كيسان النحوى (ت ٢٩٩ هـ) [٧] . . إلخ . ولأهمية هذا الموضوع بالنسبة إلى القارئ لم يكتف القارئ المصرى سقلاب بن شيبة (ت ١٩١ هـ) عندما رحل إلى نافع، بأن يأخذ القرآن عرضا عليه ، بل حرص على أن يروى عنه كتابه هذا كذلك . كما يحكى سقلاب عن نافع أنه علمه أن يبين النون عند هذه الأحرف : الحاء والخاء والعين والغين ، والألف والهاء . وهى حروف الحلق الستة التى أجمع القراء على إظهار النون الساكنة والتنوين عندها [٨]. وفى مصر استطاع سقلاب أن يجد لنفسه مكانا بارزاً إلى جانب القارئ الكبير ورش . فجلس التلاميذ إليه ، وقرءوا عليه . وكان منهم : محمد بن عبد الرحمن أبو بكر المقرى [٩] ، وأبو يعقوب الأزرق ، ويونس

---

(١) الكندى : الولاة : ١١٨ . المقريزى : الخطط – ٢ : ٣٣٢ . ابن حجر : ت . التهذيب – ٦ : ٢٤٨ .

(٢) السيوطى : الإتقان – ١ : ١٣ .

(٣) ابن الجزرى : النشر – ١ : ٢٢٧ . السيوطى : الإتقان – ١ : ٨٧ .

(٤) ابن النديم : الفهرست : ٣٦ . ابن الجزرى : غاية – ١ : ٣٠٨ .

(٥) كشف الظنون – ٢ : ١٣١٧ – ١٣٢٣ .

(٦) ياقوت : م . الأدباء – ١١ : ٢٣٠ .

(٧) ياقوت : م . الأدباء – ١٧ : ١٣٩ .

(٨) الدانى : التيسير : ٤٥ .

(٩) ابن الجزرى : – غاية – ٢ : ١٦٩ .

ابن عبد الأعلى[١]. ويشهد الأزرق لسقلاب بنفس ما شهد به لابن دحية من الاتفاق التام مع ورش فى سائر الحروف[٢].

سافر الشاب المصرى عبـــد الله بن وهب (١٢٥ – ١٩٧ هـ) إلى المدينة سنة ١٤٨ هـ ليتتلمذ على فقيهها الأكبر مالك (ت ١٧٩ هـ) ، فامتدت الإقامة به هناك عشرين عاما[٣] لاشك فى أنه اتصل فى أثنائها بنافع وأخذ القراءة عليه عرضا[٤]. وبالرغم من أن الحديث والفقه هما تخصص ابن وهب الأصيل فإنه لما عاد إلى مصر أقرأ رجالا كان منهم يونس بن عبد الأعلى[٥].

وتدل الشواهد على أن ابن وهب كان . عندما يروى تفسير المفسر المدنى عبد الرحمن بن زيد (ت ١٨٢ هـ)، يروى فى الوقت نفسه قراءة أهل المدينة التى وصفها أستاذه مالك بأنها « سنة[٦] فهو يروى تفسير : « ما ننسخ من آية أو ننسها » (البقرة : ١٠٦) طبقاً لقراءة أهل المدينة – « ننسها » بغير همز مع ضم النون وكسر السين ، بمعنى : نمحها – التى هى فى نفس الوقت قراءة السبعة ما عدا ابن كثير وأبا عمرو ، واختارها أبو عبيد وأبو حاتم . وذلك فى مقابل القراءة الأخرى « ننسأها » بالهمزة مع فتح النون والسين ، بمعنى : نؤخرها – التى هى قراءة جماعة من الصحابة والتابعين ، وقراءة ابن كثير وأبى عمرو من السبعة[٧].

كما يروى ابن وهب تفسير : « . . فلما تبين له قال : أعلم أن الله على كل شىء قدير » (البقرة : ٢٥٩) وفقا لقراءة أهل المدينة كذلك ، أى بهمز ألف « أعلم » وقطعها ورفع الميم على وجه الخبر عن نفسه للمتكلم به . وهى قراءة الأكثر من القراء وذلك فى مقابل القراءة الأخرى : « قال : اعلم » على معنى الأمر ،

---

(١) الذهبى : طبقات : ٤٩ . ابن الجزرى : غاية – ١ : ٣٠٨ – ٣٠٩ . السيوطى : حسن ١ : ٢٠٧ .

(٢) ابن الجزرى : غاية – ٢ : ٣٠٤ .

(٣) ابن خلكان : وفيات – ١ : ٢٤٩ . ابن فرحون : الديباج : ١٣٢ .

(٤ و ٥) ابن الجزرى – غاية – ١ : ٤٦٣ .

(٦) ابن الجزرى : النشر – ١ : ١١٢ ، غاية – ٢ : ٣٣٢ . الرازى : مفاتيح الغيب – ١ : ٤٤٢ .

(٧) الطبرى : جامع البيان – ١ : ٠ : التيسير : ٧٦ . القرطبى الجامع – ٢ : ٦١ . أبو حيان : البحر المحيط – ١ :

بوصل الألف من « اعلم » وجزم الميم منها ، وهى قراءة حمزة والكسائى من السبعة ، وعامة قراء أهل الكوفة[١].

تعددت أقوال القراء حول بعض حروف الآية ٢٨٢ من السورة نفسها : « . . فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ... » . فقرأها عامة أهل الحجاز والمدينة وبعض أهل العراق بفتح الألف من « أن » ونصب « تضل » و « تذكر » وقرأها آخرون كذلك ولكن بتسكين الذال من « تذكر » وتخفيف كافها . ويروى ابن وهب فى هذا المقام قول ابن زيد : « كلاهما لغة . وهما سواء . ونحن نقرأ : فتذكر »[٢].

وكان ابن وهب على علم بالمصاحف القديمة ، فهو يروى أن عمر كان يقرأ : « فامضوا » بدلا من « فاسعوا » فى الآية ٩ من سورة الجمعة : « يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون »[٣]. وهى كذلك قراءة : أُبَىّ ، ابن مسعود ، على ، ابن عباس ، عبد الله بن الزبير ، طلحة بن مصرف ، ابن شهاب الزهرى ، وعند ابن جنى وأبى حيان الأندلسى أن هذه القراءة ينبغى أن تحمل على أنها تفسير للقراءة العامة : « فاسعوا »[٤].

فى سنة (١٥٥ هـ) شد الرحال إلى قارئ المدينة رجل مصرى فى الخامسة والأربعين يدعى عثمان بن سعيد (١١٠ — ١٩٧ هـ) ، كان قد بدأ متأخراً فى حفظ القرآن ودراسته وتعلم النحو . وربما كان حسن صوته هو الذى أغراه بالعدول عن الاشتغال ببيع الرءوس فقد كان رآسا — إلى الاشتغال بالقراءة . ويبدو أنه أصاب فى عمله

---

(١) الطبرى : جامع البيان — ٣ : ٣١ — ٣٢ . الدانى: التيسير: ٨٢ . الرازى : مفاتيح الغيب — ٢ : ٣٣١ . القرطبى : الجامع — ٣ : ٢٩٦ — ٢٩٧ . أبو حيان : البحر المحيط — ٢ : ٢٩٧ .

(٢) الطبرى : جامع البيان — ٣ : ٨٢ — ٨٣ . النحاس : إعراب القرآن : ٣١ . الدانى : التيسير : ٨٥ . القرطبى : الجامع — ٣ : ٣٩٧ — ٣٩٨ . أبو حيان : البحر المحيط — ٢ : ٤٣٨ — ٣٤٩ —.

(٣) الطبرى : جامع البيان — ٢٨ : ٦٥ . الزركشى : البرهان — ١ : ٢٢٢ .

(٤) ابن خالويه : مختصر : ١٥٦ . ابن جنى : المحتسب : ٣١٧ . الكرمانى : شواذ : ٢٤٣ . القرطبى : الجامع — ١٨ : ١٠٢ . أبو حيان : البحر المحيط — ٨ : ٢٦٨ .

Jeffery, M.H.T.Q., PP. 101, 170, 191, 206, 221, 229, 265.

هذا الجديد نجاحاً جعله يقرر أن يذهب إلى مدينة الرسول ليتتلمذ على قارئها الشهير فيتلقى عنه مباشرة أصول القراءة ، ويستكمل على أحسن وجه أداته كقارئ . وبالرغم من تزاحم الطلاب حول المعلم الكبير استطاع الطالب المصرى الجاد أن يشق الزحام إليه ، ويجلس بين يديه ، ويقرأ عليه فى زمن قصير جداً نسبيًّا عدة ختمات بصوت القرى الذى كان يملأ مسجد الرسول ، ويستحوذ على إعجاب الحضور . ولم تكن قراءة نافع هى الشىء الوحيد الذى عاد به الطالب الكهل من رحلته إلى المدينة . فقد عاد أيضاً بلقبه الجديد الذى أطلقه -فيما يقال- أستاذه عليه ، فأصبح لا يعرف منذ ذلك الحين إلا به ، وهو : ورش[1] .

بالرغم من أن أشهب بن عبد العزيز العامرى (١٤٠ – ٢٠٤ هـ) لعب دوره فى مصر كفقيه مالكى أخذ الفقه عن مالك نفسه -وكان من أصحابه الكبار- ثم عن الأساتذة المدنيين والمصريين ، وشهد معاصره الشافعى (ت ٢٠٤ هـ) بأنه لم ير -أو بأن مصر لم تخرج- أفقه منه لولا طيش فيه ، وانتهت إليه رياسة المذهب المالكى فى مصر بعد موت سلفه عبد الرحمن بن القاسم سنة ١٩١هـ . . بالرغم من ذلك لابد لنا من الإشارة إلى أشهب فى معرض الحديث عن المصريين الذين تتلمذوا على نافع فى القراءة . ذلك بأن أشهب اتصل بنافع فى تاريخ لا يمكن أن يعدو سنة ١٦٩ هـ (تاريخ وفاة نافع ، ولم يكن أشهب قد بلغ الثلاثين بعد حينذاك) ليقرأ عليه عندما كان يسافر إلى المدينة ليتلقى الفقه على أيدى أساتذتها وعلى رأسهم مالك . وبالرغم من أن اللقاء تم بالفعل بين القارئ الشيخ والطالب الشاب فإن أشهب لم يتح له أن يأخذ القراءة عن نافع عرضا . بل يبدو أن نافعاً رفض أن يقرئه – ربما بسبب طيشه الذى أشار إليه الشافعى – فقد قال له : « إن كنت تريد تعلم الصبيان فأت سليمان بن مسلم » . وسليمان هذا هو سليمان بن مسلم بن جمّاز (ت بعد ١٧٠ هـ) القارئ المدنى الجليل الضابط ، زميل نافع وتلميذه فى نفس الوقت ، فقد عرض القرآن على الأستاذين المدنيين الكبيرين اللذين هما أستاذا نافع كذلك – أبى جعفر يزيد بن القعقاع ، وشيبة بن نصاح (توفى كلا هما

---

(١) الدانى: التيسير : ٤ . ياقوت: معجم الأدباء – ١٢ : ١١٦ – ١٢١ . الذهبى : طبقات: ٤٧ – ٤٨ . ابن الجزرى : غاية – ١ : ٥٠٢ – ٥٠٣ والنشر – ١ : ١١١ – ١١٢ . ابن تغرى بردى : النجوم – ٢ : ١٥٥ – ١٥٦ . السيوطى : حسن – ١ : ٢٠٧ .

سنة ١٣٠ هـ) —ثم عرضه على نافع . ويعلق الدانى بأن مقرأة سليمان بن مسلم هذا كانت الهمز وإتمام المدات مثل مقرأة أهل الأندلس . فإذا لم يكن نافع — وقد كانت فيه دعابة — يسخر من الطالب الشاب فلعله ينصحه بطلب القراءة الأيسر . وأيًّا كان الأمر فإن أشهب أصر على تعلم قراءة نافع . ولكنه رواها سماعا . فهل أخذها عن ابن جماز ؟ لا نستطيع أن نحكم[1].

فى نفس العام الذى توفى فيه أشهب الفقيه (٢٠٤ هـ) توفى قارئ مصرى آخر أبو عباد عبيد بن ميمون . ومن الحق أن أبا عباد هذا ليس مصرى الأصل بل هو مدنى ، أخذ القراءة بالمدينة عن نافع عرضا ، ثم تحول إلى مصر فنزلها وظل بها حتى مات . ولعله كان يشتغل ببيع التبن فهو يلقب بالتبان[2].

كان الفقيه المصرى المالكى أبو يحيى زكريا بن يحيى بن إبراهيم بن عبد الله يلقب بالوقّار لسكونه وثباته . وقد قرأ القرآن على نافع عرضا . ولما كان قد مات سنة ٢٥٤ هـ كان لنا أن نتوقع أنه آخر من تتلمذ مباشرة على القارئ المدنى الكبير من المصريين[3].

هؤلاء هم الرجال الذين شدوا الرحال من مصر إلى نافع فى المدينة فتتلمذوا عليه ، وأخذوا القراءة عنه ، ثم عادوا يقرءون بها ويقرئون . وعن طريق هؤلاء الرجال انتقلت القراءة المدنية إلى مصر . أوبتعبير أدق— سادت المدرسة المدنية للقراءة فى مصر . ولكن لماذا كان نافع بالذات ، والمدينة دون غيرها ؟

لقد شهد القرن الثانى كل هؤلاء الأفراد الممتازين الذين مهروا فى حفظ القرآن وبرعوا فى قراءته ، ونبغوا فى دراسته ، وتألقوا فى المجتمعات الإسلامية — فى مكة والمدينة ودمشق والكوفة والبصرة — علماء كباراً بالقرآن تشد إليهم الرحال من كافة الأقطار . وأصبح هؤلاء القراء العظام الذين تراوح عددهم ما بين السبعة والأربعة عشر أئمة يتناقل الناس مذاهبهم فى القراءة جيلا بعد جيل .

---

(١) السمعانى : الأنساب : ٣٧٨ ب . ابن خلكان : وفيات — ١ : ٩٧ . ابن فرحين : الديباج : ٩٨ — ٩٩ . ابن دقماق : الانتصار — ٤ : ٢٣ . ابن الجزرى • غاية - ١ : ٣١٥ و ٢ : ٢٩٦ — ٢٩٧ . السيوطى : حسن — ١ : ١٢٢ .

(٢) ابن الجزرى : غاية — ١ : ٤٩٧ .

(٣) السمعانى : الأنساب : ٥٨٥ . ابن فرحون : الديباج : ١١٨ .

ولقد نجد فى بعد الشقة شيئاً من العذر للمصريين فى عدم الذهاب إلى العراق حيث نبغ : الحسن البصرى ، عاصم ، الأعمش ، أبو عمرو بن العلاء ، حمزة ، والكسائى ، وحينذاك لم يكن أمامهم سوى الشام حيث نبغ عبد الله بن عامر . والحجاز حيث نبغ : ابن كثير وابن محيصن فى مكة ، وأبو جعفر ونافع فى المدينة . ويكاد الشام والحجاز يستويان من حيث المسافة بينهما وبين مصر ، ومن حيث إلف المصريين إياهما وترددهم عليهما . غير أن الحجاز يفوق الشام من حيث إنه مهد الرسالة وموطن النبوة من جهة ، وكعبة الحج من جهة أخرى حتى لقد يمكن أن يمر العام دون أن يذهب أحد من المصريين إلى الشام فى حين لايمكن أن يمر العام دون أن يذهب مئات منهم إلى الحجاز لأداء فريضة الحج . وكانت المدينة بالذات قد أصبحت العاصمة الثقافية للمسلمين منذ انتقال الخلافة عنها إلى دمشق، إلى جانب كونها عاصمتهم الروحية منذ أيام النبى . وكان المعتقد أن أهل المدينة يحتفظون عن طريق التقليد والتلقين بأقرب صور الدين إلى الأصل . لذلك كله كان طبيعياً جداً أن يرى المصريون فى قراءة المدنيين أقرب القراءات إلى الأصل . وأن يتجهوا إلى أخذ كتابهم المقدس عن ذلك القارئ الذى نبغ فى مدينة الرسول وفاق غيره فى تلك المرحلة التى كانت تسعى إلى حصر قراءة المصحف العثمانى فى طرق بعينها .

على أن المصريين لم ينفردوا بهذه النظرة إلى قراءة المدينة : فقد قال مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ): قراءة أهل المدينة سنة . قيل له : قراءة نافع ؟ قال : نعم . ولما سأل عبد الله أباه أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ)عن أحب القراءة إليه أجاب : قراءة أهل المدينة . قال : فإن لم تكن ؟ قال : قراءة عاصم[1].

واتخذ المصريون الموقف نفسه بالنسبة إلى الحديث والفقه . فقد سجل المحدث المصرى سعيد بن أبى مريم (ت ٢٢٤ هـ) اهتمام علماء الحديث المصريين الأوائل بحديث المحدث المدنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى (ت ١٢٤ هـ) فقال : إن شيوخنا المصريين لهم عناية بحديث الزهرى[2]. ولم يكد مذهب مالك يظهر فى المدينة حتى بادر المصريون إلى السفر لتعلمه . وكان أول من أدخل علم مالك

---

(١) الذهبى : طبقات : ٣١ . ابن الجزرى : النشر – ١ : ١١٢، غاية – ٢ : ٣٣١ – ٣٣٢ .

(٢) ابن حجر : ت التهذيب – ٩ : ٣٦٤ .

مصرهما الفقيهان المصريان : عثمان بن الحكم الجذامى[١] . وعبد الرحيم بن خالد بن يزيد الجمحى[٢] (ترفى كلاهما فى ١٦٣ هـ) .

٤ ـ قراءة ورش

لم يكن ورش من هؤلاء التلاميذ الذين ينحصر كل تفوقهم فى مجرد حفظ ما يتلقون عن الأستاذ حفظا دقيقاً ثم أدائه أداء آليًّا بلا زيادة أو نقصان . فقد استطاع ورش بعد أن اكتملت شخصيته العلمية نتيجة لتعمقه الدراسات النحوية واللغوية أن يجرى على القراءة التى تلقاها كاملة عن أستاذه نافع عملية اختيار أو انتخاب انتّهت به إلى أن يخالف أستاذه فى بعض الأصول العامة للأداء وفى قراءة بعض الحروف المنتشرة فى القرآن . ويخرج بقراءة ذات طابع خاص يميزها عن غيرها من القراءات . وتحمل اسم ورش .

أما من حيث الأصول العامة للأداء فقد أثر عن ورش صيغ مختلفة للتعوذ عند القراءة منها : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ــ أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم ــ أعوذ بالله العظيم السميع العليم من الشيطان الرجيم[٣].

ويختار ورش السكت بين السورتين من غير قطع ؛ أى عدم البسملة عند الفراغ من قراءة سورة والبدء فى قراءة أخرى[٤].

وإذا كانت الهمزتان المتلاصقتان فى كلمة واحدة مفتوحتين نحو « أأنذرتهم ــ أأنتم أعلم ــ أأسجد » فإن ورشا يبدل الثانية منهما ألفا[٥]. واشتهر عنه فى الأداء دون النص أنه إذا اتفقت الهمزتان من كلمتين بالكسر نحو : « هؤلاء إن كنتم ــ من النساء إلا » جعل الثانية منهما كالياء الساكنة . أما إذا اتفقتا بالفتح

---

(١) المصدرنفسه ــ ٧ : ١١١ .

(٢) المقريزى : الخطط ــ٣٣٤ . ٢ :

(٣) ابن الجزرى : النشر ــ ١ : ٢٤٩ ــ ٢٥٠ .

(٤) الدانى : التيسير : ١٧ ــ ١٨ . المتولى : فتح المعطى : ٦ .

(٥) الدانى : التيسير ٣ . المتولى : فتح المعطى : ١٤ .

نحو : « جاء أجلهم – شاء أنشره » وشبهه فإنه يجعل الثانية كالمدة . فإذا اتفقتا بالضم – وقد تحقق ذلك فى موضع واحد فقط فى الآية ٣٢ من سورة الأحقاف : « أولياء أولئك » – جعل الثانية كالراو الساكنة[1] . ويسهل ورش الهمزة المفردة سواء سكنت أو تحركت إذا كانت فى موضع الفاء من الفعل . فالساكنة نحو : « يأخذ – يأكل – يؤمن – يؤثرون » وشبهه . والمتحركة نحو : يؤده إليك – مؤجلا – المؤلفة يؤخرهم – لاتؤاخذنا » وشبهه . مع بعض الاستثناءات فى كلتا الحالتين[2]. ويسهل ورش أيضاً الهمزة من: « بئس – بئسما – البئر – الذئب – لئلا » فى جميع القرآن[3]. ويلقى ورش حركة الهمزة على الساكن قبلها فيتحرك بحركتها وتسقط هى من اللفظ ، وذلك إذا كان الساكن غير حرف مد ولين ، وكان آخر الكلمة والهمز أول كلمة أخرى ، نحو : « من نبى إلا ، من شىء إذا كانوا – الأرض ، الآزفة – من آمن ، من إستبرق » وشبهه[4].

ويظهر ورش الذال من « إذا عند ستة أحرف هى : الجيم ، الزاى ، السين ، الصاد ، التاء ، الدال ، نحو فإذ جعلنا – إذ زين – إذ سمعتموه – إذ صرفنا[4] – إذ تبرأ – إذ دخلوا »[5] . وهو يدغم الدال من « قد » فى الضاد والظاء فقط نحو : « فقد ضل – فقد ظلم » ، ويظهرها مع الجيم والذال والشين نحو : « لقد جاءكم – لقد ذرأنا – قد شغفها» . كما يظهرها مع حروف الصفير وهى : الزاى ، والسين والصاد نحو : «لقد زينا – لقد سمع لقد صرفنا[6]» . ويدغم ورش تاء التأنيث المتصلة بالفعل عند الظاء فقط نحو : « كانت ظالمة » ، فى حين يظهرها مع باقى الحروف ، وهى الجيم والتاء نحو : « نضجت جلودهم – كذبت ثمود » ، وحروف الصفير : الزاى والسين والصاد نحو: « خبت زدناهم – أنزلت سورة – حصرت صدورهم»[7] ويظهر ورش لام « هل » و« بل » عند ثمانية أحرف هى : التاء ، والثاء ، الزاى ،

(١) الدانى : التيسير : ٣٣ . المتولى : فتح المعطى : ١٥ .
(٢و٣) الدانى : التيسير : ٣٤ – ٣٥ . المتولى : فتح المعطى : ١٨ .
(٤) الدانى: التيسير : ٣٥ – ٣٦ . المتولى : فتح المعطى : ١٨ – ٢٠ .
(٥) الدانى : التيسير : ٤١ – ٤٢ .
(٦) الدانى : التيسير : ٤٢ . المتولى : فتح المعطى : ٢٠ .
(٧) الدانى : التيسير : ٤٢ – ٤٣ . المتولى : فتح المعطى : ٢٠

السين ، الضاد ، الطاء ، الظاء ، الذال نحو : هل تعلم — هل ثُوِّب — بل زُين ، بل سولت — بل ضلوا — بل طبع — بل ظننتم — هل ندلكم » وشبهه[١] . كما يظهر : « يلهث ذلك » ، « يابنى اركب معنا » ؛ « ويعذب من يشاء »[٢] . ويتفق ورش مع الآخرين فى إدغام النون الساكنة والتنوين فى اللام والراء بغير غنة ، وإدغامهما فى الميم والنون بغنة . كما يتفق معهم على إظهار حرفى الباء والواو عند حروف الحلق الستة وهى : الهمزة ، والهاء ، والعين ، والحاء ، والغين[٣] .

وهناك أنواع بعينها من الكلمات قللها ورش أى أمالها إمالة صغرى أو قرأها بين بين ، منها : ما كان من الأسماء والأفعال ذوات الياء . فالأسماء نحو : « موسى — الموتى — طوبى — كسالى . والأفعال نحو : « أبى — سعى — فسوى — يخشى » . ومنها : « أنى » التى بمعنى كيف نحو : « أنى شئتم — أنى لك » ، ومتى ، وبلى ، وعسى حيث وقع ماعدا كلمات هى : حتى ، لدى ، على ، إلى ؛ ما زكى فإنهن مفتوحات بإجماع . فى حين لا يقلل ورش ذوات الواو من الأسماء والأفعال . فالأسماء نحو : « الصفا — سنا برقه — شفا جرف — أبا أحد » والأفعال نحو : « خلا — دعا — بدا — دنا »[٤] . لكنه يقلل كل ألف بعد راء مجرورة هى لام الفعل نحو : « على أنصارهم — آثارهم — النار — القهار »[٥] ، وفتحة الكاف من « الكافرين » و « كافرين » إذا كان بعد الراء ياء حيث وقع[٦] .

ولورش مذهبه الخاص فى الراءات فهو يميل فتحة الراء قليلا بين اللفظين — أى يرققها — إذا وليها من قبلها كسرة لازمة نحو : « الآخرة — باسرة — المعصرات — طهّرا — ساحران — مدبراً » وشبهه . أو إذا وليها ساكن قبله كسرة ، أى إذا حال بين الراء وبين الكسرة ساكن نحو : « الشِّعر — سدرة — ذو مرة — لعبرة » وشبهه . أو إذا وليت الراء الياء سواء انفتح ما قبلها أو انكسر نحو : « الخيرات —

(١) الدانى : التيسير : ٤٢ . المتولى : فتح المعطى : ٢٠ — ٢١ .
(٢) الدانى : التيسير : ٤٤ — ٤٥ . المتولى : فتح المعطى : ٢١ .
(٣) الدانى : التيسير : ٤٥ .
(٤) الدانى : التيسير : ٤٦ — ٤٧ . المتولى : فتح المعطى : ٢٣ .
(٥) الدانى : التيسير : ٥١ . المتولى : فتح المعطى : ٢٧ .
(٦) الدانى : التيسير : ٥٢ . المتولى : فتح المعطى : ٢٧ .

حيران – المغيرات – الفقير – خبيرا – طيرا »[1]. غير أنه لم يلتزم هذه القواعد بالنسبة إلى كلمات بعينها فخم الراء فيها مثل : « الصراط – إعراضاً – مدراراً – إبراهيم – امرءا – وزرا – يسرون – منذر – قدير – خير – ذكر » فقد أخلص فى ذلك كله الفتح أو الضم أو الكسر[2] . ولا خلاف عنه فى إخلاص فتحة الراء ، أى تفخيمها ، إذا كانت الكسرة غير لازمة ، نحو : « برسول – لرسول – برشيد – لربك – لرقيك »[3].

ولورش مذهبه الخاص فى اللامات كذلك . فهو يغلظ اللام إذا تحركت بالفتح ، ووليها من قبلها صاد أو طاء أو ظاء . فالصاد نحو قوله : « الصلاة – مصلى – فيصلب – فصلى » وشبهه : والطاء نحو : « الطلاق – معطلة – بطل » وشبهه . الظاء نحو : « وإذا أظلم – يظلمون – بظلام »[4].

والياءات نوعان : ياءات الإضافة . وياءات الزوائد .

ففيما يتعلق بالنوع الأول فتح ورش كل ياء متكلم إذا كان بعدها همز قطع سواء كان مفتوحاً : « أنى أعلم » ، أو مكسوراً « منى إنك » . أو مضموما : « إنى أعيذها » . واستثنى من ذلك مواضع فأسكنها[5].

وفتح ياء المتكلم أيضاً إذا كان بعدها همز وصل مصحوبا بلام التعريف نحو : « عهدى الظالمين – ربى الذى – آتانى الكتاب – عبادى الصالحون »[6] .

كما فتح هذه الياء إذا جاء بعدها همز وصل غير مصحوب باللام – أى ألف مفردة – فى أربعة مواضع : « لنفسى اذهب » (طه ٤١ – ٤٢) ، « ذكرى اذهبا » (طه ٤٢ – ٤٣) ، « قومى اتخذوا » (الفرقان : ٣٠) ، «بعدى اسمه» (الصف : ٦)[7].

---

(١) الدانى : التيسير : ٥٥ .

(٢) الدانى : التيسير : ٥٥ – ٥٦ .والمتولى : فتح المعطى : ٣١ – ٣٢ .

(٣) الدانى : التيسير : ٥٦ .

(٤) الدانى : التيسير : ٥٨ . المتولى : فتح المعطى : ٣٤ .

(٥) الدانى : التيسير : ٦٤ – ٦٦ المتولى : فتح المعطى : ٣٥ .

(٦) الدانى: التيسير : ٦٦ – ٦٧ . المتولى : فتح المعطى : ٣٥ .

(٧) الدانى : التيسير : ٦٧ . المتولى : فتح المعطى : ٣٥ – ٣٦ .

فإذا جاء بعد هذه الياء حرف آخر من حروف المعجم فتحها ورش فى أحد عشر موضعا من القرآن[١] .

أما ياءات الزوائد – وسميت كذلك لأنها زائدة على خط المصحف – أو الياءات المحذوفات من الرسم فجملتها إحدى وستون ياء لاغير[٢] أثبت ورش منها سبعاً وأربعين فى حالة الوصل دون الوقف نحو :

« التلاق – التناد – تقبل دعاء – يدع الداع – بالواد – أكرمن – أهانن – . . . »[٣].

كان ذلك عرضا سريعا للخطوط الكبرى لأصول طريقة ورش فى الأداء يكفى لتكوين فكرة عامة عنها .

أما من حيث قراءته للحروف فهو – مثلا – « يقرأ » الصراط « و » صراط « بالصاد الخالصة فى جميع القرآن[٤] . وهى قراءة نافع[٥] . وقد قرأها آخرون بالسين ، أو بالزاى ، أو بين الصاد والزاى . وهى كلها لغات للعرب . فعامة العرب يجعلونها سينا . والزاى لغة لعذرة ؛ وكعب ، وبنى القين وإشمامها زايا لغة قيس يقربها بعضهم بين الصاد والزاى . أما الصاد الخالصة فهى الفصحى ، وهو لغة قريش ، وبها قرأ الجمهور ، وبها كتبت فى الإمام[٦] .

ويقرأ ورش – مثله مثل نافع أيضاً – : « يبصط » (البقرة : ٢٤٥) ، « بصطة » (الأعراف : ٦٩) بالصاد فيهما[٧]. وقد استطاع قطرب (ت ٢٠٦هـ) أن يخرج من ملاحظة الظواهر النحوية بإمكان قلب السين صاداً إذا كان بعدها فى نفس الكلمة طاء أو قاف أو حاء أو عين[٨]. وينبه النحوى المصرى أبو جعفر النحاس إلى جواز تطبيق هذه الظاهرة عن الحرفين المذكورين[٩].

---

(١) الدانى : التيسير : ٦٨ . المتولى : فتح المعطى : ٣٦ .

(٢) يذكر المتولى : فتح : ٣٧ – نقلا عن حرز الأمانى الشاطبى (ت ٥٩٠ هـ) أنها ثنتان وستون ياء .

(٣) الدانى التيسير : ٦٩ ومابعدها . المتولى : فتح المعطى : ٣٧ .

(٤) المتولى : فتح المعطى : ٣٨ .

(٥) الدانى : التيسير : ١٩ . ابن الجزرى : تقريب النشر : ٧ .

(٦) النحاس : إعراب القرآن : ٣ . القرطبى : الجامع – ١ : ١٢٨ . أبو حيان : البحر المحيط – ١ : ٢٥ .

(٧) الدانى : التيسير : ٨١ . المتولى : فتح المعطى : ٤٤ .

(٨) النحاس : إعراب القرآن : ٣ .

(٩) المصدر نفسه : ٢٨ ، ٨١ .

ويقرأ ورش : «النبيء – النبيئين – النبيئون – الأنبئاء – النبوءة » بالهمز ويمد قبله مدًّا مشبعاً[١]. وهو فى ذلك يتبع الأصل لأنه من أنبأ عن الله فهو بنيءٌ عنه إنباء[٢]. ومن المهم أن نلحظ أن هذه القراءة – وهى نفس قراءة نافع فيما عدا موضعين لم يهمز فيهما نافع[٣] – تماثل كلمة « نبىء » العبرية[٤].

وكذلك قرأ ورش : « والصابئين » (البقرة : ٦٢ – الحج : ١٧) و«الصابئون» (المائدة : ٦٩) فحذف الهمزة فى الثلاثة مع ضم الباء فى « الصابئون » . وهى قراءة نافع أيضاً فقد همز الجمهور إلا[٥] .

وقرأ ورش : « عسِيتم » (البقرة : ٢٤٦ – محمد : ٢٢) بكسر السين[٦]. وهى نفس قراءة نافع التى تفرد بها عن القراء السبعة والعشرة، وإن شاركه إياها الحسن البصرى (ت ١١٠ هـ)وطلحة بن مصرف القاريُّ الكوفى (ت ١١٢ هـ)[٧]. وقد ثار جدل غير قليل حول هذه القراءة . فطعن فيها أبو عبيد (ت ٢٢٤ هـ) قائلا : لو جاز ذلك لجاز : عسِي ربكم[٨] ، أى بكسر السين . واحتج أبو حاتم السجستانى (ت ٢٥٥ هـ) بنفس حجة أبى عبيد على ذأنه لا وجه لعسِيتم (بكسر السين) إذ لوكان كذا لقرئت : فعسِى الله ؛ (بكسر السين)[٩].

ولكن تصدى للدفاع عن هذه القراءة ، وإثبات صحتها لغويا ونحويًّا، عدد غير قليل من علماء النحو والقراءات . فرد أبو جعفر النحاس حجة أبى حاتم

---

(١) المتولى : فتح المعطى : ٣٩ .

(٢) الطبرى : جامع البيان – ١ : ٢٥١ .

(٣) الدانى : التيسير : ٧٣ . القرطبى : الجامع – ١ – : ٣٦٧ . أبوحيان : البحر المحيط – ١ : ٢٣٧ . ابن الجزرى : تقريب النشر : ٣٤ .

(٤) ولفنسون : تاريخ اللغات السامية : ٢٠٩ .

(٥) الدانى : التيسير : ٧٤ . الرازى : مفاتيح الغيب – ١ : ٣٦٨ . القرطبى : الجامع – ١ : ٣٧٠ . أبوحيان : البحر المحيط : ٣٤١ . ابن الجزرى : تقريب النشر : ٣٢ –. المتولى : فتح المعطى : ٣٩ .

(٦) المتولى : فتح المعطى : ٤٤ .

(٧) النحاس : إعراب القرآن : ٢٨ . الدانى : التيسير : ٨١ . الرازى : مفاتيح الغيب – ٢ : ٢٩٢ . القرطبى : الجامع – ٣ : ٢٤٤ . أبوحيان : البحرالمحيط – ٢ : ٢٥٥ . ابن الجزرى : تقريب النشر : ٩٧ .

(٨) الرازى : مفاتيح الغيب – ٢ : ٢٩٢ .

(٩) النحاس : إعراب القرآن : ٢٨ . القرطبى : الجامع – ٣ : ٢٤٤ .

بما حكى عن يعقوب بن السكيت (ت ٢٤٣ هـ) وغيره من أن « عسيت » (بكسر السين) لغة وإن كانت ردية . فإذا قال : « عسى الله – بالفتح – ثم قال « فهل عسِيتم » – بالكسر – استعمل اللغتين جميعاً . غير أن أبا جعفر يقرر بوضوح أنه ينبغي للقارئ أن يقرأ بأفصح اللغتين وهي فتح السين[1].

ويقرر أبو على الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) أن فتح السين هو الأكثر ، وهو المشهور . غير أن الكسر يستمد صحته من قول العرب : هو عسٍ بذلك ، مثل : حرٍ وشجٍ . وقد جاء : فعَل وفعِل في نحو نعَم ونعِم ، وكذلك عسَيت وعسِيت . فإن أسند الفعل إلى ظاهر فقياس « عسِيتم » أن يقال : عسى زيد ، مثل : رضى زيد . فإن قيل فهو القياس . وإن لم يقل فسائغ أن يؤخذ باللغتين فتستعمل إحداهما في موضع الأخرى كما فُعل ذلك بغيره[2] . وهكذا يحكم هذا القارئ البصرى بصحة تلك القراءة لغويًّا ونحويًّا سواء من حيث السماع أو من حيث القياس .

ويردد القارئ الأندلسي مكي بن أبي طالب القرطبي (ت ٤٣٧ هـ) نفس رأى أبي على لأن ورود « عسٍ » في اسم الفاعل يدل على كسر السين في الماضي ، غير أن الفتح هو اللغة الفاشية[3] .

ويرى الفخر الرازى (ت ٦٠٦ هـ) أن ما حكاه النحوى ابن الأعرابى (ت ٢٣١ هـ) من أن العرب يقولون : « هو عسِىّ بكذا » يقوى قراءة « عسِيتم » بكسر السين التي انفرد بها نافع في حين أن اللغة المشهورة فتحها ، ألا ترى أن عسىّ بكذا مثل : حرىّ وشحيح ؟ ثم يذكر الفخر أن أصحاب نافع علّلوا قراءته من وجهين : الأول أن الياء إذا سكنت وانفتح ما قبلها حصل في التلفظ بها نوع كلفة ومشقة ، وليست الياء من « عسى » كذلك لأنها – وإن كانت في الكتابة ياء – إلا أنها في اللفظ مدة . وهي خفيفة فلا تحتاج إلى خفة أخرى . والجواب الثاني : هب أن القياس يقتضي جواز : عسى ربكم ، إلا أنا ذكرنا أنهما لغتان ، فله أن يأخذ باللغتين فيستعمل إحداهما في موضع والأخرى في موضع آخر[4] .

---

(١) إعراب القرآن : ٢٨ .
(٢) القرطبي : الجامع – ٤ : ٢٤٤ . أبو حيان : البحر المحيط – :
(٣) القرطبي : الجامع – ٣ : ٢٤٤ .
(٤) مفاتيح الغيب – ٢ : ٢٩٢ .

ويصف أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ) اعتراض أبي عبيد على قراءة نافع هذه بأنه جهل من أبي عبيد بهذه اللغة . كما يورد أبو حيان وجهة نظر أبي على الفارسي التي مرت والتي يجيز فيها إسناد « عَسِي » إلى الظاهر قياساً ، فيعترض عليها بأن المحفوظ عن العرب أنه لا تكسر السين إلا مع تاء المتكلم والمخاطب ونون الإناث ، نحو : عسيتُ ، وعسيتَ ، وعسين . وذلك على سبيل الجواز لا الوجوب. ويفتح فيما سوى ذلك على سبيل الوجوب . ولا يسوغ الكسر نحو : عسى زيد . والزيدان عسيا ، والزيدون عسوا ، والهندان عسيا . وعساك ، وعساني ، وعساه . ويستشهد أبوحيان على ذلك بما قاله القارئ المصرى أبو بكر الإدفوى(ت٣٨٨ هـ) وغيره أن أهل الحجاز يكسرون السين من « عسى » مع المضمر خاصة . وإذا قيل: عسى زيد ، فليس إلا الفتح . أما المضمر – يقول أبو حيان – فينبغي أن يقيد بما ذكرناه[١].

وهكذا تصح هذه القراءة التي انفرد بها نافع وتابعه عليها تلميذه المصرى ورش .

فى الآية ٢٦٥ من سورة البقرة : « . . . كمثل جنة بربوة . . . » ؛ والآية ٥٠ من سورة المؤمنون : « . . . وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » قرأ ورش « ربوة » بضم الراء[٢]. وقد قرئ هذا الحرف بفتح الراء ، وضمها ، وكسرها . فقرأ بالكسر ابن عباس (ت٦٨) والقارئ الكوفى أبو إسحاق السبيعى (ت١٣٢هـ) ويبدو أن هذه القراءة محدودة الاستعمال جداً ، بل إن الطبرى يرفضها لأنها غير جائزة ، فى حين يجيز القراءة بواحدة من القراءتين الأخريين لأن قراءة الناس فى أمصارهم بإحداهما . ومع هذا يبدو أن الإقبال على القراءة بالفتح – ويقال إنها لغة تميم – كان قليلا ، فقد قرأ بها بعض أهل الشام مثل ابن عامر (ت ١١٨ هـ) ، وبعض أهل الكوفة مثل عاصم (ت ١٢٧ هـ) . وقرأ بها من البصرة الحسن(ت١١٠هـ) أما القراء بالضم – وهى لغة قريش – فكانت قراءة الأغلبية ، إذ قرأ بها عامة أهل المدينة والحجاز والعراق ، وباقى القراء العشرة ومن بينهم نافع . وصرح الأخفش (ت ٢٢١ هـ)بأنه يختار « رُبوة » بالضم لأن جمعها الرُّبا . كما اعترف الطبرى

(١) البحر المحيط – ٢ : ٢٥٥ .

(٢) المتولى : فتح المعطى : ٤٥ .

بأنه لقراءتها بضم الراء أشد إيثاراً منه بفتحها لأنها أشهر اللغتين فى العرب[١] . وهكذا يكون ورش قد تابع أستاذه فى اختيار القراءة الأفصح والأكثر استعمالا .

ويقرأ ورش : « زكرياء » بالهمز حيث وقع[٢] . وهى قراءة نافع ومعظم العشرة[٣] . وهم فى ذلك يتبعون أهل الحجاز الذين – فيما يقول الفراء ت ٢٠٧ هـ – يمدون « زكرياء » ويقصرونه[٤] .

وفى الآية ١٦١ من سورة آل عمران : وما كان لنبى أن يغل قرأ ورش « يُغَلّ » بضم الياء وفتح الغين مبنيًّا للمجهول[٥] بمعنى أن يخان أو يخوَّن . وهى قراءة معظم قراء أهل المدينة والكوفة ، فقد قرأ بها : ابن مسعود . ابن عامر . أبو جعفر : وحمزة ونافع والكسائى ، ويعقوب وخلف ، وخالف ابن عباس عن أهل المدينة فقرأ يَغُل بفتح الياء وضم الغين مبنيًّا للمعلوم ، بمعنى : يخوّن كما خالف سعيد بن جبير (ت ٩٤هـ) عن أهل الكوفة مؤثرا قراءة أستاذه ابن عباس الذى ذكرت له قراءة ابن مسعود فقال : كان النبى يقصدون قتله فكيف لا ينسبونه إلى الخيانة ؟ وكان يونس بن حبيب النحوى البصرى (ت ١٨١هـ) يختار هذه القراءة ويقول : ليس فى الكلام : « ما كان لك أن تُضرَب بضم التاء » . ويختار أبو عبيد القراءة نفسها لأن « الغلول من المغنم خاصة . ولا نراه من الخيانة ولا من الحقد » وكذلك يفعل ابن السكيت إذ « لم نسمع فى المغنم إلا : غل غلولا » . وهذه القراءة هى أولى القراءتين بالصواب عند الطبرى بمعنى : ما الغلول من صفات الأنبياء ، ولا يكون نبيًّا من غل[٦] .

ويعد جولد تسيهير[٧] قراءة البناء للمجهول من التعبيرات التنزيهية التى وجدت الباعث

---

(١) الطبرى ، جامع البيان – ٣ : ٤٨ . النحاس : إعراب القرآن : ٣٠ . ابن خالويه : مختصر : ٩٨ . الدانى : التيسير : ٨٣ . الرازى : مفاتيح الغيب – ٢ : ٣٤٢ . القرطبى : الجامع – ٣ : ٣١٦ . أبو حيان : البحر المحيط – ٢ : ٣١٢ . ابن الجزرى : تقريب النشر : ٩٨ .

(٢) المتولى : فتح المعطى : ٤٦ .

(٣) الدانى : التيسير : ٨٧ . ابن الجزرى : تقريب النشر : ١٠١ .

(٤) القرطبى : الجامع – ٤ : ٧٠ .

(٥) المتولى : فتح المعطى : ٤٩ .

(٦) الطبرى : جامع البيان – ٤ : ١٠٢ – ١٠٤ . الرازى : مفاتيح الغيب – ٣ : ٨٤ – ٨٥ . القرطبى : الجامع – ٤ : ٢٥٥ . أبو حيان : البحر المحيط – ٣ : ١٠١ . ابن الجزرى : تقريب النشر : ١٠٢ .

(٧) مذاهب التفسير : ٣١ – ٣٢ ، ٤٠ .

إليها فى الخشية من السماح باستعمال عبارات متصلة بالله ورسوله تبدو غير لائقة أو غير متفقة مع وجهة النظر إلى وجوب تعظيم الله ورسوله . وفى هذا الجانب المتورع وقف ورش .

وقرأ ورش : « مدخلا كريماً » (النساء : ٣١) و « مدخلا يرضونه » (الحج : ٥٩) بفتح الميم من « مدخلا »[1] وهى قراءة المدنيين : أبى جعفر ونافع . وأهل المدينة عامة . أما الباقون وبخاصة أبو عمرو بن العلاء البصرى (ت ١٥٤ هـ) والكوفيون فيضمون الميم[2] .

وقرأ ورش : « من يرتدد » (المائدة : ٥٤) بدالين : مكسورة فمجزومة[3] . وهى قراءة أهل المدينة (نافع) وأهل الشام (ابن عامر) . وكذلك كتبوها فى مصاحفهم . ويشهد أبو عبيد بأنه كذا رآها فى الإمام . والفك ، أو إظهار التضعيف أو عدم الإدغام ، هو لغة الحجاز ، وهو الأصل فى قول النحوى البصرى الزجاج (ت ٣١١هـ) لأن الثانى من المضاعف إذا سكن ظهر التضعيف نحو قوله : « إن يمسسكم قرح » (آل عمران : ١٤٠) . ويجوز فى اللغة : إن يمسكم ، ويرى أبو جعفر النحاس أن « يرتدد » أحسن لأن الحرف الثانى قد سكن . أما باقى العشرة ، وأهل العراق فقد قرءوا هذا الحرف بالإدغام ، أى بدال واحدة مع تحريكها إلى الفتح . وهذا الإدغام أو التشديد هو لغة تميم . وقد اختير لأنه أخف فيما يقول النحاس . وبالرغم من أن الطبرى يصرح بأن كلتا اللغتين فصيحة مشهورة فى العرف فهو يختار القراءة على ما هو به فى مصاحفهم (أى العراقيين) ومصاحف أهل المشرق بدال واحدة مشددة بترك إظهار التضعيف وبفتح الدال[4] . وطبيعى جداً على أى حال أن يستعمل أهل المدينة فى قراءتهم لغة الحجاز . ولطالما اتبع

---

(١) المتولى : فتح المعطى : ٥١ .

(٢) الدانى : التيسير : ٩٥ . القرطبى : الجامع — ٥ : ١٦١ . ابن الجزرى : تقريب النشر : ١٠٥ .

(٣) المتولى : فتح المعطى : ٥٣

(٤) أبو عبيد : فضائل : ٤٥ . الطبرى : جامع البيان — ٦ : ١٨٥ . النحاس : إعراب القرآن : ٦٤ . ابن جنى : المحتسب : ٦٥ . الدانى : المقنع : ١١٠ . الرازى مفاتيح الغيب — ٣ — ٤١٣ . القرطبى : الجامع — ٦ : ٢١٩ . أبو حيان : البحر المحيط — ٣ : ٥١١ . ابن الجزرى : تقريب النشر : ١٠٧ .

الشاميين أهل المدينة . أما استعمال أهل العراق والمشرق لغة تميم فلعله أن يفسر بنزول تميم البصرة وخراسان (القطر الشمالي الشرقي من فارس) مع غيرهم من قبائل عرب الشمال القيسية الذين نزلوا في سورية الشمالية وفي الجزيرة والعراق[١].

في الآية ١٢٢ من سورة الأنعام : « أو من كان ميتا فأحييناه » ، والآية ٣٣ من سورة يس : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها » والآية ١٢ من سورة الحجرات « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا » قرأ ورش « ميتا » و « الميتة » بتشديد الياء مكسورة[٢]. وقد أخذ ورش قراءة هذه الحروف الثلاثة عن أستاذه نافع الذي أخذها بدوره عن أستاذه أبي جعفر . وقد ورد الحرف هذا في ثلاثة وعشرين موضعا في القرآن . وأخذ بهذه القراءة المدنية في بعض هذه المواضع غير قليل من القراء في الكوفة (حمزة ، الكسائي ، حفص ت حوالي ١٩٠ هـ) ، والبصرة (يعقوب الحضرمي ت ٢٠٥ هـ رويس ٢٣٨ هـ) ، وفي بغداد (خلف ت ٢٢٩ هـ) . وقد حمل هؤلاء قراءة التشديد على الأصل . هذا وقرأ آخرون مثل : ابن عامر (الشام) ، ابن كثير (مكة) عاصم (الكوفة) وأبي عمرو بن العلاء (البصرة) هذا الحرف بتخفيف الياء ، واشترك معهم بعض أصحاب قراءة التشديد في بعض المواضع . وقال أهل اللغة : إن « الميْت » مخففاً تخفيف « ميِّت » ومعناهما واحد ثقل أو خفف . و إذا كان أصحاب التشديد قد اختاروا القراءة به لأنه الأصل والأصل أولى فإن أصحاب التخفيف إنما قرءوا به طلبا للخفة . والصواب من القول في ذلك عند الطبري أن التخفيف والتشديد في ياء « الميتة » لغتان معروفتان في القراءة وفي كلام العرب ، فبأيهما قرأ ذلك القارئ فمصيب لأنه لا اختلاف في معنيهما[٣].

وورش — مثله مثل ابن كثير ، أبي جعفر ، حمزة ، نافع ، الكسائي ، خلف — بكسر الحاء من « حصاده » (الأنعام : ١٤١) ، في حين يفتحها باقي العشرة : ابن عامر ، عاصم ، والبصريان : « أبو عمرو ويعقوب . وهما لغتان مشهورتان . ومثله : الصَّرام والصِّرام، الجَذاذ والجِذاذ ، القطاف والقِطاف . وقد

---

(١) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ٦٦ . بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية — ١ : ١٥٦ . حتي : تاريخ العرب : ٣٥٠ .

(٢) المتولي : فتح المعطي : ٥٦ .

(٣) الطبري : جامع البيان — ٢ : ٥٠ . النحاس : إعراب القرآن : ٧٥ . الداني : التيسير ١٠٦ . الرازي : مفاتيح الغيب — ٤ : ١٣٨ . ابن الجزري : تقريب النشر : ٩٥.

قال الفراء إن الكسر للحجاز . والفتح لنجد وتميم[١] .

روى ورش ، وهو يعلّم تلميذه أبا الأزهر عبد الصمد بن عبد الرحمن (ت ٢٣١ هـ) ، عن نافع أن كلمة « محياى » من الآية ١٦٢ من سورة الأنعام : « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين » واقفة الياء أى ساكنها . غير أن ورشاً أمر تلميذه أن يفتح هذه الياء مثلها مثل : « مثواى » (يوسف : ٢٣) وزعم أنه أقيس فى النحو . وكذلك فعل المعلم المصرى مع تلميذه يونس بن عبد الأعلى (ت ٢٦٤ هـ) إذ روى له عن نافع كذلك : « ومحياى » موقوفة الياء و « مماتى » منتصبة الياء . ثم قال ورش له : وأحب إلىّ أن تنصب « محياى » وتوقف « مماتى »[٢] . هذا ويروى القارئ المصرى أبو العباس الحمراوى ، الفضل بن يعقوب ، عن أستاذه ، عبد الصمد بن عبد الرحمن عن ورش أنه قال : كان نافع يقرأ أولا « محياى » ساكنة الياء ثم رجع إلى تحريكها بالنصب[٣] .

صحيح أن نافعاً قرأ هذا الحرف ساكن الياء[٤] . ولابد أنه أخذه عن أستاذه[٥] المدنى أبى جعفر الذى كان يقرؤه كذلك[٥] . غير أنهما كليهما إنما يتبعان فى ذلك أهل المدينة الذين كانوا يقرءون « ومحياى » بإسكان الياء فى الإدراج[٦] . أى القراءة السريعة[٧] . وقد روى عن عاصم الكوفى (ت ١٢٧ هـ) أنه قرأ هذا الحرف بسكون ياء المتكلم أيضاً[٨] . وورش يخالف أستاذه فى هذا ، ويرى أن فتح تلك الياء هو الصحيح نحوياً .

لم يجز أحد من النحويين إسكان هذه الياء لأنه جمع بين ساكنين وليس فى

---

(١) النحاس : إعراب القرآن ٧٦ . الدانى : التيسير : ١٠٧ . القرطبى : الجامع – ٧ : ١٠٤ . أبو حيان : البحر المحيط – ٢ : ٢٣٤ . ابن الجزرى : تقريب النشر : ١١٢ . المتولى : فتح المعطى : ٥٧ .

(٢) الدانى : التيسير : ١٠٨ – ١٠٩ .

(٣) ابن الجزرى : غاية – ٢ : ١٢ .

(٤) الدانى : التيسير : ١٠٨ . ابن الجزرى : تقريب النشر : ١١٤ .

(٥) ابن الجزرى : تقريب النشر : ١١٤ .

(٦) النحاس : إعراب القرآن : ٧٧ .

(٧) السيوطى : الإتقان – ١ : ١٠٠ .

(٨) أبو حيان : البحر المحيط – ٤ : ٢٦٢ .

الثانى إدغام . غير أن واحداً خرج عليهم وأجازه ، ذلك النحوى البصرى يونس ابن حبيب (ت ١٨٢ هـ) . وهو يبرر رأيه بأن قبل الياء هنا ألفا ، والمدة التى فى الألف تقوم مقام الحركة . ومن هذا الضرب إجازته : اضربان زيداً[١] ويحتال أبو جعفر النحاس لمن يحرص على قراءة أهل المدينة ويريد فى الوقت نفسه السلامة من اللحن ، فينصحه بأن يقف على «محياى» فيكون غير لاحن عند جميع النحويين[٢].
ويقرر أبو على الفارسى (ت ٣٧٧ هـ) أن هذه القراءة شاذة فى القياس لأنها جمعت بين ساكنين ، وشاذة فى الاستعمال . غير أنه يرى أن لها وجهاً فى العربية هو قول العرب الذى سُمع منهم : التقت حلقتا البطان ، ولفلان بِثْنا المال[٣]. أما عالم القراءات العظيم أبو عمرو الدانى (ت ٤٤٤ هـ) — وقد تلقى قراءة ورش بمصر — فينكر خبر الحمراوى إذ لم يروه عن [عبد الصمد عن ورش غيره وخالفته الجماعة] عنه[٤]. وهو يرى فى نفس الوقت أن قول ورش يدل على أنه كان يروى عن نافع الإسكان ويختار من عند نفسه الفتح[٥]. ويصرح الفخر الرازى بأن إسكان الياء فى «محياى» شاذ غير مستعمل لأن فيه جمعاً بين ساكنين لا يلتقيان على هذا الحد فى نثر ولا نظم . ولكنه يضيف أن منهم من قال إنه لغة لبعضهم[٦]. ويذكر أبو حيان الأندلسى أن ما روى عن نافع من سكون ياء المتكلم فى «محياى» هو جمع بين ساكنين أجرى الوصل فيه مجرى الوقف . ثم يصرح بأن الأحسن فى العربية الفتح[٧].

ويروى القارئ الشامى أبو خليد الدمشقى ، تلميذ نافع[٨] : أن أستاذه قرأ — وهذا يبدو غريباً — : «ومحياى» بكسر الياء[٩].

(١ و ٢) النحاس : إعراب القرآن : ٧٧.
(٣) أبو حيان : البحر المحيط — ٤ : ٢٦٢ . والبطان هو حزام بطن البعير (القاموس المحيط) .
(٤) ابن الجزرى : غاية — ٢ : ١٢ .
(٥) الدانى : التيسير : ١٠٩ .
(٦) الرازى : مفاتيح الغيب — ٤ : ١٧٤ .
(٧) أبو حيان : البحر المحيط — ٤ : ٢٦٢ .
(٨) ابن الجزرى : غاية — ١ : ٤٩٨ .
(٩) الكرمانى : شواذ : ٨٤ . أبو حيان : البحر المحيط — ٤ : ٢٦٢ ، وهو مذكور هناك خطأ باسم أبى خالد .

وقد يكون من المفيد أن نضيف أن عبد الله بن أبى إسحاق (ت ١١٧ هـ) ، وعاصما الجحدرى (ت ١٢٨) وتلميذ هما عيسى بن عمر الثقفى (ت ١٤٩) — وقد يلفت النظر أنهم جميعاً بصريون — قرءوا هذا الحرف هكذا : « محيّ » « أى من غير ألف وبتشديد الياء الثانية . وهكذا أيضاً قرأ ابن أبى إسحاق وعاصم: « فمن تبع هدىّ » (البقرة : ٣٨) ، وقرأ ابن أبى إسحاق : « هذا تأويل رؤيّ» (يوسف : ١٠٠) . وهذه لغة فاشية فى هذيل وغيرهم : أن يقلبوا الألف من آخر المقصور إذا أضيف إلى ياء المتكلم ياء . وينشد اللغويون فى هذا المقام قول أبى ذؤيب الهذلى (ت بعد ٢٦ هـ) :

سبقوا هوىّ وأعنقوا لهواهم فتُخرِّموا ولكل جنب مصرع

(أعنقوا : أسرعوا . من العنق وهو السير الفسيح . الزمخشرى : أساس البلاغة — ٢ : ١٤٤) وأيّاً كان الأمر فإن أبا جعفر النحاس لايكتم إعجابه بهذه القراءة ، بل يقول : وهذا وجه جيد فى العربية لما كانت الياء تغير ما قبلها بالكسر ، ولم يجز فى الألف كسر ، صير بغيرها ؟ قلبها إلى الياء[١] .

وأيا كان الأمر فإن هذا الحرف من سورة الأنعام ذو أهمية خاصة لأنه نموذج جيد للحالات التى خالف فيها ورش عن أستاذه نافع واستقل بقراءته الخاصة . واتفاق آراء علماء النحو مع قراء ورش دليل على تمكنه فى علم النحو من جهة، ومصداق من جهة أخرى لقول تلميذه أبى يعقوب الأزرق (ت فى حدود ٢٤٠) إنه لم يتخذ لنفسه مقرأه الخاص الذى يحمل اسمه إلا بعد أن تعمق فى النحو[٢] .

وقرأ ورش : « ضعفا » فى الآية ٦٦ من سورة الأنفال ، وفى المواضع الثلاثة من الآية ٥٤ من سورة الروم بضم الضاد[٣] . وقد اختلفت القراء فى قراءة هذا الحرف، فقرأته بفتح الضاد قلة مثل الكوفيين عاصم وحمزة ، وخلف البغدادى . . فى حين قرأته الكثرة الغالبة بضم الضاد فى كل الأمصار تقريباً ، فقرأه أهل المدينة عامة

---

(١) النحاس : إعراب القرآن : ٩ ، ٧٧ . خالويه : مختصر : ٦٥ . ابن جنى : المحتسب: ٢٦ . الكرمانى: شواذ: ٨٤ . القرطبى: الجامع — ٧ : ١٥٣ . أبوحيان : البحر المحيط — ٤ : ٢٦٢ .

(٢) ابن الجزرى : غاية — ٢ : ٤٠٢ .

(٣) المتولى : فتح المعطى : ٦١ .

ومنهم : ابن عمر (ت ٧٣ هـ) الذى قال إنه قرأ على النبي : « من ضَعف » أى بفتح الضاد – فقال له : « من ضُعف » – أى بضمها – والأعرج ابن هرمز (ت ١١٧ هـ) وابن القعقاع وتلميذه نافع الذى تلقاه ورش عنه بدوره . ومن مكة قرأه ابن كثير . وربما كان الأعرج المذكور فى المدنيين هو حميد بن قيس المكى (ت ١٣٠ هـ) . وتابع أهل الشام أهل الحجاز كعادتهم فقرأ هذا الحرف بالضم أيضاً قارئهم ابن عامر . أما فى البصرة فكانت هذه القراءة أكثر ما تكون انتشاراً فقرأ بها : الحسن، قتادة (ت ١١٧ هـ) ، ابن أبى إسحاق ، عيسى بن عمر الثقفى ، أبو عمرو بن العلاء ، يعقوب الحضرمى (ت ٢٠٥ هـ) . كما اختارها هناك أبو عبيد ، وأبو حاتم . وفى الكوفة قرأ بها الكسائى ، وحفص « ت حوالى ١٩٠هـ» الذى صرح بأنه لم يخالف أستاذه عاصماً فى شىء من القرآن إلا فى هذا الحرف[1] .

يؤخذ من كلام ابن عمر أن النبي كأنما صوّب له قراءة الفتح بالضم[2] . وذكر أبو عمرو بن العلاء أن ضم الضاد لغة أهل الحجاز فى حين أن فتحها لغة تميم ؛ أما التفريق بينهما فلا يصح ، أعنى فى المعنى[3] . وبرر أبو عبيد اختياره قراءة الضم بكثرة من قرأ بها من جهة ، وأنها قراءة النبي ومن اتبعه عليها من جهة أخرى . ويستعظم أبو جعفر النحاس هذا الكلام من أبى عبيد بالرغم من أنه يقرر أن المعلوم عنه أنه لم يقصد إلا إلى خير . واعتراض أبى جعفر ينصب على قول أبي عبيد : « من اتبعه » فهذا إنما يقال ممن يجوز أن يخالف . غير أن أبا جعفر إلى جانب هذا يطعن فى إسناد الحديث قائلا : إنه « ليس بذاك »[4] . ويعلن الطبرى فى صراحة كافية أن « ضعفاً» بفتح الضاد وضمها لأنهما القراءتان المعروفتان ، وهما لغتان مشهورتان فى كلام العرب فصيحتان ، بمعنى واحد ، فبأيتهما قرأ القارئ فهو مصيب الصواب[5] . وذهب الثعلبى النيسابورى (ت ٤٢٧ هـ) المقرئ المفسر وصاحب كتاب « العرائس » فى قصص الأنبياء إلى أن الضعف – بفتح الضاد – فى العقل والرأى ، والضعف – بالضم – فى الجسم . يعقب المفسر الأندلسى ابن عطية

---

(١) النحاس : إعراب القرآن : ٩٠ ، ١٨٣ . الدانى : التيسير : ١١٧ . الرازى : مفاتيح الغيب – ٤ : ٣٨٣ . أبو حيان : البحر المحيط – ٤ : ٥١٧ – ٥١٨ . ابن الجزرى : تقريب النشر : ١١٩ .

(٢) النحاس : إعراب القرآن : ١٨٣ .

(٣) المصدر نفسه : ٩٠ . أبو حيان : البحر المحيط – ٤ : ٥١٨ .

(٤) النحاس : إعراب القرآن : ٩٠ . (٥) جامع البيان – ١٠ : ٣٠ .

(ت ٥٤٦ هـ) على ذلك بقوله : وهذا قول ترده القراءة[١] . أما الفخر الرازى فقد قرر أن الضَّعف والضُّعف لغتان صحيحتان كالمَكث والمُكث[٢] .

وقد ينبغى أن نشير إلى قراءة ثالثة لهذا الحرف تكاد تتوارى إلى جانب القراءتين السابقتين . فقد حكى النقاش (ت ٣٥١ هـ) عن ابن عباس أنه قرأ هذا الحرف « ضعفاء » جمع ضعيف[٣] . وبالرغم من أن أبا جعفر المدنى قد قرأ « ضُعفاء » بالضم مثله مثل أهل المدينة فقد روى عنه أنه قرأ هذا الحرف بفتح العين والمد وبهمز مفتوحة أى أنه قرأ « ضعفاء » جمع ضعيف . كما يقال : كريم وكرماء ، وظريف وظرفاء[٤] . ويصرح الطبرى بأن هذه القراءة عن قراءة القراء شاذة ، وإن كان لها فى الصحة مخرج ، فلا أحب لقارئ القراءة بها[٥] .

وأيًّا كان الأمر فإن ورشا باختياره قراءة هذا الحرف بالضم إنما يتبع القراءة المدنية والتى هى فى نفس الوقت الأكثر انتشاراً .

فى الآية ٣٧ من سورة التوبة : « إنما النسىء زيادة فى الكفر » الآية ، قرأ ورش « النسىّ » على وزن الندىّ أى بإبدال الهمزة وإدغام الياء الأولى فى الثانية مع التشديد . وورش يروى هذه القراءة عن أستاذه نافع الذى كان أستاذه أبو جعفر يقرأ بها أيضاً . كما كان ابن شهاب الزهرى (ت ١٢٤) ممن قرأ بها من أهل المدينة . وروى عن ابن كثير المكى أنه كذلك سهل الهمزة فى هذا الحرف بإبدالها ياء وأدغم الياء فيها كما فعلوا فى : نبىء وخطيئة فقالوا : نبىّ ، وخطية بالإبدال والإدغام . ومن مكة أيضا قرأ بهذه القراءة حميد بن قيس . ومن البصرة قرأ بها أبو الأشهب العطاردى (ت ١٦٥ هـ)[٦] . ومن الكوفة جعفر بن محمد بن سليمان الخشكى

(١) البحر المحيط - ٤ : ٥١٨ . والثعلبى مذكور هناك خطأ باسم الثعالبى . وهذا غير ممكن لأن المفسر الذى يحمل هذا اللقب ، وهو صاحب تفسير «الجواهر الحسان» متأخر عن ابن عطية ، وأخذ فى تفسيره عنه ، وتوفى عام ٨٧٦ هـ . راجع : محمد حسين الذهبى : التفسير والمفسرون - ١ : ٢٢٧ ، ٢٤٧ .

(٢) مفاتيح الغيب - ٤ : ٣٨٣ .

(٣) أبو حيان : البحر المحيط - ٤ : ٥١٨ .

(٤) النحاس : إعراب القرآن : ٩٠ أبو حيان : البحر المحيط - ٤ : ٥١٨ . ابن الجزرى : تقريب النشر : ١١٩ .

(٥) جامع البيان - ١٠ : ٣٠ .

(٦) هو مذكور باسم الأشهب ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

(ت بضع عشرة ومائتين) . وكذلك قرأ بها القارئ الشهير أحمد بن يزيد الحلوانى (ت بعد ٢٥٠) .وكان حمزة (ت ١٥٦ هـ) وهشام السلمى الدمشقى (ت ٢٤٥ هـ) – أحد راويتى ابن عامر – يقرءان هذا الحرف بمثل قراءة ورش هذه فى حالة الوقف فقط[1].

وبالرغم من كثرة هؤلاء القراء نسبيًّا فإن الجمهور – أو أكثر الأمة – كانوا على القراءة المستفيضة وهى : النسيء ، أى بالهمز والمد . وهو اسم وضع موضع المصدر الحقيقى فى رأى الأزهرى (ت ٣٧٠ هـ) ، تقول : أنسأت الشيء . إنساء ونسيئاً . أو هو – فى رأى الجوهرى (ت ٣٩٣ هـ) – فعيل بمعنى مفعول . فنسيء بمعنى : منسوء ، أى مؤخر . ثم يحول منسوء إلى نسيء، كما يحول مقتول إلى قتيل، وأيًّا كان الأمر فقد قرأ بهذه القراءة العشرة مثل : ابن عامر فى الشام ، وأبى عمرو بن العلاء فى البصرة وعاصم والكسائى فى الكوفة . ويشير الطبرى إلى قراءة النسيّ بترك الهمز وترك المد التى كان بعض القراء يقرؤها . أما الصواب من القراءة عنده فالهمزة على تقدير فعيل لأنها القراءة المستفيضة فى قراءة الأمصار التى لايجوز خلافها فيما أجمعت عليه . ويبدى الطبرى ملاحظة هامة ترد على نافع قراءته – فيما يرى القرطبى – حين يقرر أن ترك الهمز لا يكون إلا من النسيان كما قال تعالى فى الآية ٦٧ من سورة التوبة :

« نسوا الله فنسيهم »[2].

غير أن الأمر لم يقف عند هذا الحد فقد قرأ بعض القراء هذا الحرف بصورة ثالثة هى : « النَّسْء » ، أى بإسكان السين وبغير مدة . ويلفت النظر أن ابن كثير قارئ مكة تنسب إليه هذه القراءة مثلما نسبت إليه قراءة : « النسيّ » ، غير أن أبا حاتم (ت ٢٥٥ هـ) ذكر .أن ابن كثير قرأ هذا الحرف بإسكان السين . كما يقرر أبو جعفر النحاس فى وضوح كاف أن المعروف من قراءة ابن كثير : « إنما النَّسْء زيادة فى الكفر » على وزن : فَعْل . ومن مكة أيضاً قرأ

(١) النحاس : إعراب القرآن : ٩٢ . ابن جنى : المحتسب : ١٣٨ . الدانى : التيسير : ١١٨ – أبو حيان : البحر المحيط – ٥ : ٣٩ . ابن الجزرى : تقريب النشر : ٣٤ المتولى : فتح المعطى : ٦١ .

(٢) الطبرى : جامع البيان – ١٠ : ٩١ . النحاس : إعراب القرآن : ٩٢ . الدانى : التيسير : ١١٨ . القرطبى : الجامع – ٨ : ١٣٦ – ١٣٧ . أبو حيان : البحر المحيط – ٥ : ٣٩ .

بهذه القراءة شبل بن عباد (ت حوالى ١٦٠ هـ) . وفى البصرة قرأ بها أبو الأشهب العطاردى الذى ذكرنا أنه كان يقرأ « النسىّ » كذلك .

أما فى الكوفة فقد قرأ بهذه القراءة التابعى الشهير أبو عبد الرحمن السلمى (ت ٧٤ هـ) وطلحة بن مصرف (ت ١١٢ هـ)[1] .

ولابد لنا من ذكر قراءة رابعة لهذا الحرف. فقد قرأه مجاهد المكى (ت ١٠٣هـ) « النَّسُوء » على وزن فعول — بفتح الفاء — وهو التأخير . كما رويت هذه القراءة عن القارئين الكوفيين صاحبي القراءة السابقة : السلمى ، وطلحة[1] .

لايلفت النظر تعدد قراءات هذا الحرف فحسب بل تداخلها كذلك . فالقراءة الواحدة يقرأ بها أكثر من قارئ فى أكثر من مصر . بل إن القارئ الواحد ليقرأ بأكثر من قراءة منها . بالرغم من ذلك يمكن أن نلحظ بصفة عامة أن قراءة « النسىء » كانت أكثر ما تكون انتشاراً فى الشام والعراق. وعرفت قراءة « النسىّ » فى الحجاز بوجه عام ولكنها كانت القراءة المفضلة لدى أهل المدينة بوجه خاص . أما أهل مكة فيبدو أنهم ، كانوا يميلون — مثلهم مثل بعض أهل العراق — إلى قراءة « النسىء » و « النسوء » ويلحظ كذلك أن القراءات الثلاث الأول تتفق مع رسم مصحف عثمان ، فى حين تخرج القراءة الرابعة — « النسوء » — عليه . وذلك يجعلنا نفترض أن تلك القراءات الثلاث ليست سوى « اختيار » أصحابها فى نطاق رسم المصحف العثمانى . أما القراءة الرابعة فهى ترجع إلى أحد المصاحف القديمة السابقة على مصحف عثمان . وإذا حاولنا إرجاع كل اختيار إلى صاحبه بدا لنا مما توحى به الأخبار أن أبا جعفر المدنى هو صاحب قراءة « النسىّ » . فى حين أن ابن كثير هو صاحب قراءة : « النسء » ولا محل طبعاً للبحث عمن اختار قراءة « النسىء » بما هى القراءة العامة المتداولة منذ البداية . ولما كان أبو عبد الرحمن السلمى — أقدم من تنسب إليه الأخبار قراءة : « النسوء » — قد أخذ القراءة عرضاً عن : أُبَى ابن كعب وعبد الله بن مسعود ، عثمان ، على ، زيد بن ثابت[3]

---

(١) النحاس : إعراب القرآن : ٨٢ . أبو حيان : البحر المحيط — ٥ : ٣٩ — ٤٠ .
Jefferey, M.H.T.Q., pp. 256, 279.

(٢) أبو حيان : البحر المحيط — ٥ : ٤٠ . Jefferey, M.H.T.Q., p. 279.

(٣) ابن الجزرى : : غاية النهاية — ١ :

وكلهم من أصحاب المصاحف القديمة – فلعله قد أخذ هذه القراءة عن مصحف بعضهم .

وأيًّا كان الأمر فإن ورشاً فى اختياره قراءة « النسىّ » إنما يتبع قراءة أبى جعفر الذى كان يبدل الهمزة المفردة المتحركة ياء ويدغمها فى الياء الساكنة التى تجيء قبلها[1] .

وقرأ ورش بضم الراء كلمة « قربة » فى الآية من سورة التوبة : « ألا إنها قربة لهم ، سيدخلهم الله فى رحمته » . وحكى عن أبى جعفر أنه قرأها كذلك . أما سائر القراء فى سائر الأمصار فقد قرءوها بسكون الواء . والضم هو الأصل . أما السكون فللتخفيف مثل : كُتْب ، ورسْل[2] . وهكذا يكون ورش اختار فى قراءة هذا الحرف الأصل الذى هو فى نفس الوقت القراءة المدنية فيما يبدو .

أشرنا من قبل[3] إلى أن ورشا كان يلقى حركة الهمزة على الساكن قبلها أى ينقلها إليه ، فيتحرك الساكن بحركة الهمزة وتسقط هى من اللفظ . وهو نوع من تخفيف الهمز المفرد اختص به ورش من طريقيه : أبى يعقوب الأزرق (ت حوالى ٢٤٠ هـ) ، وأبى بكر الأصبهانى (ت ٢٩٦ هـ) . وذلك إذا كان الساكن غير حرف مد ولين ، وكان آخر كلمة والهمز أول كلمة أخرى ، وسواء كان ذلك الساكن تنوينا أو لام تعريف أو حرفا من سائر حروف المعجم . ومن أمثلة النوع الثالث فاتحة سورة العنكبوت : « الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » . فقد ذكر ابن جنى (ت ٣٩٢ هـ) أن ورشا قرأها هكذا : « ألف لام ميم حسب» بفتح الميم من غير همز بعدها . ثم علق على هذه القراءة التى يعدها شاذة فى إسهاب فقال :

هذا على تخفيف همزة « أحسب » حذفها وألقى حركتها على الميم فانفتحت ، وفيه ضعف . وذلك أن حروف التهجى مبنية على الوقف فى حال الوصل كقراءة الجماعة : « ميمْ أحسب الناس » . وإذا كانت فى الإدراج ساكنة لم يلق

---

(١) ابن الجزرى : تقريب النشر : ٣٤ .

(٢) الدانى : التيسير : ١١٩ . القرطبى الجامع ٨ : ٢٣٥ ، ابن الجزرى : تقريب النشر : ٩٢ . المتولى : فتح المعطى : ٦١ – ٦٢ .

(٣) انظر ص . ١٩٦ من هذا البحث .

بها إلقاء الحركة عليها . وذلك أن إلقاء الحركة فى نحو هذا إنما يكون لما من عادته أن يحرك فى الوصل لالتقاء الساكنين . وأنت تقول : « ميم» فتجمع بين الساكنين وهما الياء والميم . فإذا كان الساكنان يجتمعان فى الوصل ضعف إلقاء حركة الهمزة عليها[1] . وليس كذلك قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون » (المؤمنون : ١) لأن « قد » مما يحرك لالتقاء الساكنين نحو : قد انقطع ، وقد استخرج . وكما حرك لالتقاء الساكنين فكذلك حرك لإلقاء حركة الهمزة عليه . فإن قلت : قد تقول : « ألف لام ميم الله » فتحرك الميم من آخر « ميم » لسكونها وسكون اللام من بعدها ، فهلا جاز على ذلك إلقاء حركة الهمزة عليها ؟ قيل : أصل حركة التقاء الساكنين إنما هو فى المتصل نحو : أين ، وكيف ، ومنذ ، وسوف ، وأمس ، وهؤلاء ثم شبه المنفصل فى ذلك بالمتصل ، وميم ، ونون ، وقاف مما يجتمع فيه الساكنان فى الوصل . فعليه العمل لا على ما يحرك فى الوصل من المنفصل لالتقاء الساكنين . إلا أن له أن يقول : شبهتُ سكونا بسكون فحركتُ ميم « ميم » بإلقاء حركة الهمزة كما حركت دال : « قدَ فْلح » كذلك[2] .

يعد ابن جنى قراءة ورش هذه من الشواذ . وبالرغم من ذلك فإنها والقراءة السابقة لها — (قربة) بضم الراء — تعدان من تلك النماذج القليلة التى تستمد أهميتها من أن ورشا استقل فيها — أو على الأقل يكاد أن يستقل — بقراءته الخاصة التى اختارها بناء على وجهة نظر نحوية أو لغوية معينة .

أما بعد — فنخلص من هذا كله بأن قراءة ورش التى رسمنا خطوطها الكبرى وعرضنا نماذج لها هى قراءة حجازية بوجه عام ، مدنية بوجه خاص ، نافعية بوجه أخص . وأيا كان الأمر فقد انتهت إلى ورش رياسة الإقراء بمصر فى زمانه لم ينازعه فيها منازع ، بل أصبح شيخ القراء المحققين ، وإمام أهل الأداء المرتلين[3] . ولم يبلغ ورش هذه المنزلة لمجرد أنه تعمق فى النحو وأحكمه حتى أصبح بصيراً بالعربية ماهراً فيها مع معرفته بالتجويد[4] . ولا لأنه أصبح ثقة حجة

(١) فى الأصل — عليها . (٢) المحتسب : ٢٤٦ .

(٣) الذهبى : طبقات القراء: ٤٧ — . ابن الجزرى : غاية — ١ : ٥٠٢ ، النشر — ١ : ١١٢ .

(٤) الذهبى : طبقات : ٤٧ . ابن الجزرى : غاية — ٢ : ٤٠٢ ، النشر — ١ : ١١٢ . ابن تغرى بردى : النجوم — ٢ : ١٥٥ . السيوطى : حسن — ١ : ٢٠٧ .

(٥) الذهبى : طبقات : ٤٧ .

فى القراءة[٥] . ولا لأنه كان – فيما يصف تلميذه يونس بن عبد الأعلى – « جيد القراءة ، حسن الصوت . إذا قرأ يهمز ويمد ويشدد ويبين الإعراب ، لايمله سامعه »[١] .ولا لأن قاضى مصر عبد الملك بن محمد الأنصارى (١٧٠ – ١٧٤هـ) استكتبه[٢] معترفا بفضله وعلمه . لم يفق ورش القراء المعاصرين له بمصر ويتزعمهم بسبب من ذلك كله فحسب ،وإنما – إلى جانب ذلك وبعده –لأنه يمثل بدء مرحلة تاريخية فى تطور القراءة بمصر . ذلك بأنه – فيما يقرر تلميذه أبو يعقوب الأزرق – لما تعمق فى النحو وأحكمه اتخذ لنفسه مقرأ يسمى : مقرأ ورش خالف فيه نافعا[٣] . وقد يكون فى نجاح قراءة ورش بين المصريين ما يدل على اتفاقها مع مزاجهم اللغوى وتناغمها مع ذوقهم الفنى . وعلى أى حال لم يكن ظهور ورش فى حقيقته سوى ظهور المدرسة المصرية ذاتها للقراءة . ولئن كانت هذه المدرسة قد بدأت تابعة لمدرسة المدينة فإنها قد استطاعت أن تجد نفسها ، وتستقل بشخصيتها على يدى ذلك القارئ الذى ليس محض مصادفة أنه قبطى أى مصرى الأصل[٤] .

ولم يلبث التلاميذ حتى أقبلوا على ورش من الداخل ومن الخارج . وكان ورش يقرئ تلاميذه فى داره بمسجد عبد الله فى الفسطاط . فإذا خرج للرباط بالإسكندرية لم ينقطع عن إقرائهم هناك[٥] . وحتى أخريات القرن الرابع كان ما يزال بالفسطاط مسجد يحمل اسم ورش لعله كان يقرئ فيه كذلك[٦] . وتخرج

---

(١) ابن الجزرى : غاية – ١ : ٥٠٣ ، النشر – ١ : ١١٢ .

(٢) الكندى : القضاة : ٣٨٤ . ابن حجر : رفع الإصر : ٣٧١ ويلاحظ أنه مذكور فى الكندى باسم : ورش المقبرى : والصواب : المقرى .

(٣) الذهبى : طبقات : ٤٧ . ابن الجزرى: غاية – ١ : ٥٠٢ ، ٥٠٣ و ٢ : ٤٠٢.

(٤) الذهبى : طبقات : ٤٧ . ابن الجزرى : غاية ١ : ٥٠٢ ، النشر – ١ : ١١١ . ابن تغرى بردى : النجوم – ٢ : ١٥٥ . السيوطى : حسن – ١ : ٢٠٧ . وينفرد ياقوت – معجم الأدباء – ١٢ : ١١٦ – بنسبته إلى قفط من صعيد مصر . كما يذكر هو والذهبى وابن تغرى بردى أن أصله من القيروان ، وقيل من إفريقية . ويكاد الإجماع ينعقد على أنه مولى قريش . والاسم الطويل الذى تذكره هذه المصادر له مشكوك فيه لأنه يكاد يرجع بآبائه المسلمين إلى ماقبل الفتوح . وأقدم الروايات فى ذلك وأقربها إلى الصحة توجد عند الدانى الذى يذكر – التيسير : ٤ – فى بساطة تامة أنه عثمان بن سعيد المصرى ويكنى أبا سعيد .

(٥) ابن: الجزرى : غاية – ٢ : ٤٠٢ ، النشر – ١ : ١١٣ .

(٦) ياقوت معجم : الأدباء – ٧ : ١٧٠ .

على ورش عدد من الرجال أصبحوا فيما بعد من كبار القراء ، وعلى أكتافهم قامت مدرسة ورش أو — فى الأصح — المدرسة المصرية فى القراءة . ثم تخرج على تلاميذ ورش أنفسهم تلاميذ آخرون تلقوا قراءة ورش وحفظوها ونقلوها بدورهم إلى غيرهم فى داخل مصر وخارجها . وعلينا الآن أن نواصل السير حتى أخريات القرن الرابع مع هؤلاء الرجال الذين يكونون فى مجموعهم مدرسة ورش فى مصر .

٥ — مدرسة ورش

فى تاريخ لايمكن أن يتجاوز عام ١٩٧ هـ هاجر من المدينة إلى مصر ليقيم فيها بصفة نهائية القارئ المدنى المعروف أبو مسعود الأسود . وما إن وصل حتى أخذ القراءة عن معلى بن دحية وورش . غير أنه كان قارئا ناضجاً من تلاميذ نافع . فجلس فى جامع عمرو يقرئ الناس بقراءة نافع فقط ، وكان لا يقرئ بغيرها . ولما كان المصريون قد مالوا إلى قراءة ورش فقد كان طبيعيًّا أن يختلف أبو مسعود معهم كثيرا فيما سجل عليه تلميذه محمد بن عبد الرحيم الأصبهانى (ظ أواسط القرن الثالث) الذى وصف أيضاً قراءة أستاذه هذا الأسود اللون فقال : إنه كان يمد مدًّا طويلا ، وكانت له سكتات تشبه الإخفاء فى مثل : « أولئك » . فإنه كان يقول : « أولا» ثم يسكت ، ثم يقول : « ئك »[1] .

استكتب عيسى بن المنكدر قاضى مصر (٢١٢ — ٢١٤ هـ) رجلين مصريين : أحدهما هو الزاهد العابد الصدوق أبو الأسود النضر بن عبد الجبار المرادى مولاهم (ت ٢١٩ هـ)[2] . وثانيهما القارئ داود بن أبى طيبة مولى عمر بن الخطاب (ت ٢٢٣ هـ) . ولسبب لعله يتعلق بسلوك داود لم يرض أبو الأسود زمالته ، فقال للقاضى : لا أكتب أو تنحى عنك داود . ولكن يبدو أن داود كان ماهراً فى الشئون القانونية إذ أن ابن المنكدر لم ينحه لأنه كان محتاجاً إليه ، فانصرف أبو الأسود . وكان داود — ويبدو أنه مصرى الأصل — نحويًّا أيضاً ، وقد قرأ على ورش وأصبح من جلة أصحابه . ووصف بأنه ماهر محقق . وروى عنه القراءة كثيرون أشهرهم :

---

(١) ابن الجزرى : غاية — ٢ : ٣٢٦ ، النشر — ١ : ١١١ .

(٢) الكندى : القضاة : ٤٣٥ — ٤٣٦ . السمعانى : الأنساب : ١٠٤ أ — ابن حجر : ت . التهذيب — ١٠ : ٤٤٠ — ٤٤١ . السيوطى : حسن — ١ : ١١٥ .

مواس بن سهل . وابنه عبد الرحمن بن داود (ت ٢٧٣ هـ) . ولعل داود هو أول المصريين تأليفاً فى علم القراءة ، فله كتاب اللامات . والمفهوم أن هذا الكتاب يعالج أساسا مواضع تغليظ اللام وترقيقها فى القرآن . والأقرب أن داود اتبع فيه مذهب أستاذه ورش[1] . ويعد هذا الكتاب مبكراً كذلك بالنسبة إلى التأليف فى موضوعه فى غير مصر . فللنحوى البصرى أبى زيد الأنصارى (ت ٢١٥هـ) كتاب بالعنوان نفسه لعله أقدم ما ألف فى اللامات[2] . ولابن كيسان النحوى البصرى الكوفى (ت ٢٩٩ هـ) كتاب آخر[3] . وثمة كتاب ثالث للنحوى الكوفى ابن الأنبارى (ت ٣٢٧ هـ)[4] . ويلقى ضوءاً على مسائل هذا الموضوع « كتاب اللامات » للنحوى الكبير أبى القاسم الزجاجى (ت ٣٧٧ هـ) الذى توجد مخطوطة مصورة منه فى معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة . فهو مختصر فى ذكر اللامات ، ومواقعها من كلام العرب وكتاب الله ، وتصرفها ، والاحتجاج لذلك ، وذكر ما بين العلماء من الخلاف فى شأنها[5] . وأيا كان الأمر فإنه يضاف إلى داود خبر يعبر عادة عن أمل الجماهير فى مصير سعيد لإحدى الشخصيات المحببة إليها ، وإن كان يتضمن هنا إلى ذلك نوعا من تمجيد القراء والحض على الاشتغال بالإقراء . فقد روى أحدهم أنه رآه بعد موته فى النوم فسأله : إلام صرت ؟ فقال : رحمنى الله بتعليم القرآن[6] .

للفقيه المصرى الكبير عبد الرحمن بن القاسم العتقى (ت ١٩١ هـ) ولد يدعى عبد الصمد ويكنى أبا الأزهر (ت ٢٣١ هـ) ، صحب مالكاً كأبيه ، ولكنه وجه عنايته إلى القرآن ، فتتلمذ على أبى دحية ، ثم تتلمذ على ورش فأخذ القراءة عنه عرضا ، وجود القرآن عليه ، وكتب عنه نسخة أى — فيما نظن — دوّن قراءته عنه . وأصبح أبو الأزهر أستاذاً كبيراً فى مدرسة ورش ، متصدراً ، ثقة . وتتلمذ عليه

---

(١) راجع : الدانى : التيسير : ٥٨ والمتولى : فتح المعطى : ٣٤ — ٣٥ .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء — ١١ : ٢١٦ .

(٣) المصدر نفسه — ١٧ : ١٣٩ .

(٤) ياقوت : معجم الأدباء — ١٨ : ٣١٢ — ٣١٣ .

(٥) فؤاد سيد : فهرس المخطوطات المصورة المعهد — ١ : ١٣ .

(٦) الكندى : القضاة : ٤٣٥ ، ٤٣٦ . ابن النديم : الفهرست : ٣٥ . الذهبى : طبقات القراء : ٥٧ . ابن الجزرى : غاية — ١ : ٢٧٩ — ٢٨٠ . السيوطى : حسن — ١ : ٢٠٧ .

كثيرون من بينهم الأنطاكيان : إبراهيم بن الوليد[١] ، وعبد الجبار بن محمد المعلم[٢] ، والأندلسيان: إبراهيم بن محمد بن بازى (ت ٢٧٤ هـ)[٣] ، ومحمد بن وضاح القرطبى (ت ٢٨٦ هـ)[٤] . أما من المصريين فقد تتلمذ عليه كثيرون أصبح من أشهرهم فيما بعد : إسماعيل بن عبد الله النحاس (ت ٢٨٠ هـ)[٥] ، وبكر بن سهل الدمياطى (ت ٢٨٩ هـ)[٦] . ولعل أبا الأزهر هو أول قارئ مصرى يبحث فى القراءة المقارنة ، فقد جمع كتابا فى قراءة نافع وحمزة يبدو أن عنوانه كان : « الاختلاف بين نافع وحمزة » سجل فيه – كما هو واضح من عنوانه – الفروق بين قراءة نافع وقراءة حمزة.[٧].

كان يوسف بن عمرو بن يسار المدنى ، أبو يعقوب الأزرق (ت فى حدود ٢٤٠ هـ) واحداً من العلماء المدنيين الذين واصلوا النزوح من المدينة إلى مصر ليتخذوا منها وطنا ثانيا . وبالرغم من أنه عرض على سقلاب وابن دحية فإن تلمذته الحقيقية إنما كانت على ورش وهو كان يعلم أن ورشا لما تعمق فى النحو وأحكمه اتخذ لنفسه مقرأ يسمى : مقرأ ورش غير أنه لم يكن يريد أن يأخذ عن ورش قراءته الخاصة ، وإنما كان يريد أن يأخذ عنه قراءة نافع . ولذلك قال له لما جاء ليقرأ عليه : يا أبا سعيد ، إنى أحب أن تقرئنى مقرأ نافع خالصاً وتدعنى مما استحسنت لنفسك . ونزل أبو يعقوب مع ورش فى الدار التى كان يسكنها فى مسجد عبدالله ، ولزمه مدة طويلة ، فقد قرأ عليه عشرين ختمة من حدر وتحقيق . أما التحقيق – وهو إحدى كيفيات القراءة – فهو إعطاء كل حرف حقه من إشباع المد ، وتحقيق الهمزة ، وإتمام الحركات ، واعتماد الإظهار والتشديدات ، وبيان الحروف وتفكيكها وإخراج بعضها من بعض بالسكت والترتيل والتؤدة ، وملاحظة الجائز

---

(١) ابن الجزرى : غاية – ١ : ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه – ١ : ٣٥٨ . ولعله مصرى الأصل فهو قد « سكن أنطاكية » .

(٣) هذه سنة وفاته عند ابن فرحون : الديباج : ٨٤. وهى عند ابن الجزرى – غاية – ١ : ٢٣ – سنة ٢٩٤ هـ .

(٤) ابن فرحون : الديباج : ٢٤٠ . ابن الجزرى : غاية – ٢ : ٢٧٥ .

(٥) الذهبى : طبقات القراء : ٧٢ . ابن الجزرى : غاية – ١ : ١٦٠ .

(٦) ابن الجزرى : غاية – ١ : ١٧٨ .

(٧) السمعانى : الأنساب : ٣٨٣ ب . الذهبى : طبقات القراء : ٥٧ . ابن الجزرى : غاية – ١ : ٢٣ ، ٣٨٩ و٢ : : ٢٧٥ . السيوطى : حسن – ١ : ٢٠٧ .

من الوقوف بلا قصر ولا اختلاس ولا إسكان محرك ولا إدغامه . وهو يكون لرياضة الألسن وتقويم الألفاظ . ويستحب الأخذ به على المتعلمين من غير أن يتجاوز فيه إلى حد الإفراط بتوليد الحروف من الحركات ، وتكرير الراءات ، وتحريك السواكن ، وتطنين النونات بالمبالغة فى الغنات كما قال حمزة لبعض من سمعه يبالغ فى ذلك : أما علمت أن ما فوق البياض برص ، وما فوق الجعودة قطط . وما فوق القراءة ليس بقراءة ؟ وكذا يحترز من الفصل بين حروف الكلمة كمن يقف على التاء من « نستعين » وقفة لطيفة مدعيا أنه يرتل . وهذا النوع من القراءة مذهب حمزة وورش . وقد أخرج فيه الدانى حديثا فى كتاب « التجويد » مسلسلا إلى أبى بن كعب أنه قرأ على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — التحقيق . وقال إنه غريب[1] مستقيم الإسناد[2] . أما الحدر — وهو كيفية أخرى للقراءة — فهو إدراج القراءة ، وسرعتها ، وتخفيفها بالقصر ، والتسكين ، والاختلاس ، والبدل ، والإدغام الكبير ، وتخفيف الهمزة ، ونحو ذلك مما صحت به الرواية ، مع مراعاة إقامة الإعراب ، وتقويم اللفظ ، وتمكين الحروف بدون بتر حروف المد ، واختلاس أكثر الحركات وذهاب صوت الغنة ، والتفريط إلى غاية لا تصح بها القراءة ولا توصف بها التلاوة . وهذا النوع مذهب ابن كثير ، وأبى جعفر ، ومن قصر المنفصل كأبى عمرو ويعقوب[3] . ومن الطريف أن أبا يعقوب كان يقرأ التحقيق على ورش فى أثناء إقامتهما بالفسطاط ، وأما حين يخرجان للرباط بالإسكندرية فكان يقرأ عليه الحدر . وهذا طبيعى ويتفق مع ما يتطلبه التحقيق من الأناة والاستقرار ، فى حين أن الرباط وما يقتضيه من حركة ونشاط يناسبه الحدر .

وأيا كان الأمر فقد أتقن أبو يعقوب الأداء عن ورش ، وأصبح قارئا ثقة محققاً ضابطا ، وجلس للإقراء . ويقول الحافظ الذهبى إن أبا يعقوب انفرد عن ورش بتغليظ اللامات وترقيق الراءات ، أى أنه الوحيد من تلامذته الذى روى ذلك عنه . غير أن ابن الجزرى ينفى ذلك قائلا إن أبا يعقوب لم ينفرد به عن ورش

---

(١) الغريب ما تفرد به واحد قد يكون ثقة وقد يكون ضعيفاً . والغرابة قد تكون فى المتن أوفى بعضه ، وقد تكون فى الإسناد . راجع : ابن كثير : اختصار علوم الحديث : ١٩٩ .

(٢) السيوطى : الإتقان — ١ : ٩٩ — ١٠٠ .

(٣) السيوطى : الإتقان — ١ : ١٠٠ .

فقد رواه عن ورش تلميذه الآخر يونس بن عبد الأعلى كذلك . ومن بين تلاميذ ورش كان أبو يعقوب – دون غيره – من الكفاءة بحيث استطاع أن يشغل الفراغ الذى خلفه موت الأستاذ الكبير : ويخلفه على رئاسة الإقراء بمصر . وتتلمذ على أبى يعقوب وروى عنه جماعة من كبار التلاميذ كلهم من المصريين . ولمكانة أبى يعقوب فى القراءة اعتمد أهل مصر والمغرب على قراءته اعتماداً امتد حتى مطلع القرن الخامس الهجرى على الأقل ليسجل القارئ الجرجانى الرحالة أبو الفضل الخزاعى (ت ٤٠٨ هـ) فى قوله : أدركت أهل مصر والمغرب على رواية أبى يعقوب عن ورش لا يعرفون غيرها[١] .

وحفظ أبو عمرو الدانى مثالا لقراءة أبى يعقوب حين ذكر أن أهل الأداء من مشيخة المصريين الآخذين برواية أبى يعقوب عن ورش يزيدون فى تمكين حرف المد زيادة متوسطة على مقدار التحقيق إذا أتت الهمزة قبل حرف المد سواء كانت محققة ، أو ألقى حركتها على ساكن قبلها ، أو أبدلت نحو قوله : « ءادم – ءازر – ولقد ءاتينا – للإيمان – يستهزءون » وشبهه . واستثنوا من ذلك : «إسرائيل» حيث وقع فلم يزيدوا فى تمكين الياء فيه . وأجمعوا على ترك الزيادة إذا سكن ما قبل الهمزة وكان الساكن غير حرف مد ولين نحو : « مسئولا – مذءوما – القرءان » . وكذلك إن كانت الهمزة مجلبة للابتداء نحو : « اؤتمن – ائت بقرءان – ائذن لى » . والباقون لا يزيدون فى إشباع حرف المد فيما تقدم[٢] .

وعلى عبدالصمد بن عبد الرحمن وأبى يعقوب الأزرق هذين تتلمذ محمد بن سعيد أبو عبد الله الأنماطى المصرى ، وأصبح من كبار أصحابهما ، ومن جلة المصريين ، ومن شخصيات مدرسة ورش البارزة[٣] .

فى سنة ١٧٠ هـ ولد بمصر لجندى من أهل طبرستان ولد قدر له أن يصبح فيما بعد من الشخصيات العلمية الهامة فى مصر . ذلك هو أحمد بن صالح (ت ٢٤٨ هـ) الذى جمع بين التفوق فى الحديث والفقه والنحو والقراءات والكلام، والذى أجمع العلماء على توثيقه والثناء عليه فيما عدا ما عرف عنه من الكبر وشراسة

(١) الذهبى : طبقات القراء : ٥٧ . ابن الجزرى : غاية – ٢ : ٤٠٢ ، النشر – ١ : ١٠٩، ١١٣ . السيوطى : حسن – ١ : ٢٠٧ .

(٢) التيسير : ٣١ .

(٣) الذهبى : طبقات القراء : ٨٠ . ابن الجزرى : غاية – ٢ : ١٤٦ . السيوطى : حسن – ١ : ٢٠٨ .

الحلق ، ويعنينا هنا أنه أخذ قراءة نافع عن عدد من كبار القراء منهم ، بل أبلههم : ورش. ومثلما تتلمذ التلاميذ على ابن صالح فى الحديث تتلمذوا عليه فى القراءة ، فقدأصبح من القراء . وبلغ من تمكنه فى القراءة أن وضع كتاباً فى قراءة نافع سمعه منه تلميذه البغدادى الحسن بن على الأشنانى (ت ٢٧٨ هـ)[1] .

كان الزهد والتعبد من أبرز صفات الفقية المصرى سليمان بن داود بن حماد الرشدينى (ت ٢٥٣ هـ) الذى ورث عن والده عشرة آلاف دينار لم تفلح فى إغرائه بالانصراف إلى اللهو ، بل فرقها وأصبح كواحد من أصحابه الزهاد الذين تحرروا من سلطان المال . قال أبو داود صاحب السنن (ت ٢٧٥ هـ)عنه : قلّ من رأيت فى فضله مثله . وقد عنى هذا الفقيه الزاهد بدراسة القرآن، فقرأ على ورش عرضا . وأصبح من أجله قراء مصر وعبادهم ، وتتلمذ عليه فى القراءة التلاميذ؛ ويدل على تمكن سليمان من القراءة أنه جمع كتابا فى « الحروف » سمعه منه تلميذه البغدادى محمد بن حماد بن ماهان[2] .

انتهت إلى يونس بن عبد الأعلى (١٧٠ — ٢٦٤ هـ) رياسة العلم وعلم الإسناد فى الكتاب والسنة بمصر حيث أصبح إماما للمصريين فى الحديث والفقه . وشهد له أستاذه الشافعى بأنه لم ير بمصر أعقل منه . وبلغ من فضله وعدالته أن أقام يشهد عند الحكام ستين سنة ، كما صار كبير الشهود بمصر . وكان كثير الورع ، متين الدين ، صالحا ، عابداً ، فقيراً ، شديد التقشف فاستحق أن يوصف بأنه ركن من أركان الإسلام . إلى جانب هذا كله — وهو غير قليل حقًّا — اشتغل ذلك العالم الجليل بالقراءة ، فأخذ قراءة نافع عرضا عن تلامذته بمصر : على بن دحية ، وسقلاب بن شيبة — وقد ذكرنا ذلك من قبل — وورش. وتفوق يونس فى القراءة مثلما تفوّق فى غيرها . وتصدّر للإقراء فأقبل التلاميذ

---

(١) الخطيب : ت . بغداد — ٤ : ١٩٥ وما بعدها . الذهبى : طبقات القراء : ٥٩ — ٦٠ ، تذكرة — ٢ : ٧٩ . السبكى : طبقات الشافعية — ١ : ١٨٦ — ١٨٧ . ابن فرحون :الديباج ، ٣١ . ابن الجزرى : غاية — ١ : ٦٢ ، ٢٢٥ . ابن حجر : ت . التهذيب — ١ : ٣٩ وما بعدها . ابن تغرى بردى : النجوم — ٢ : ٣٢٨ — ٣٢٩ . السيوطى : حسن — ١ : ١٢٢ — ١٢٣ .

(٢) الذهبى : طبقات القراء : ٥٩ . ابن فرحون : الديباج : ١١٩ . ابن الجزرى : غاية — ١ : ٣١٣ ، ٢ : ١٣٥ . السيوطى : حسن — ١ : ١١٧ ، ١٩٠ .

عليه من الشرق والغرب يقرءون عليه مثلما يأخذون عنه سائر العلوم . وتخرج فى القراءة على يونس ، الذى كان آخر من أخذ القراءة عرضا عن ورش من المصريين، عدد غير قليل من كبار التلاميذ يكفى أن كان من بينهم محمد بن جرير الطبرى نفسه (ت ٣١٠ هـ)[1] .

تتلمذ أبو القاسم عبد الرحمن بن داود بن أبى طَيْبَة (ت ٢٧٣ هـ) على أبيه فأخذ القراءة عنه عرضا ، وأصبح مقرئاً ناقلا مشهوراً فى مدرسة ورش، وأقبل عليه التلاميذ من الداخل والخارج . وبالرغم من أن الجامع ظل منذ البداية المكان الطبيعى الذى يمارس فيه القارئ مهمته إذ يجلس فيه لإقراء الناس، فقد خرج عبد الرحمن— لسبب مجهول — على هذا الوضع الشائع فكان يقرئ تلاميذه فى داره بالفسطاط وفى أماكن أخرى غير داره إلا فى المسجد الجامع فإنه لم يكن يقرئ فيه . ولم يكن ذلك هو كل ما تميز به عبد الرحمن؛ فقد كان شديد الأناة فى تعليم تلاميذه، يقرئ أحدهم خمس آيات كل يوم فى العادة، ولا يزيد على عشر آيات بحال[2]. ولعله كان يفعل هذا استنانا بالصحابة الذين كانوا— فيما روى مقرئ الكوفة التابعى أبو عبد الرحمن السلمى (ت ٧٤ هـ)[3]— يتعلمون القرآن عشر آيات عشر آيات، ولا يجاوزون العشر إلى العشر الأُخَر حتى يعلموا ما فيهن .

لما أراد أبو الحسن النحاس، إسماعيل بن عبد الله التجيبى المصرى (ت سنة بضع وثمانين ومائتين) ، أن يتعلم قراءة ورش تتلمذ على كبار الأساتذة المتخصصين فيها من أصحاب ورش نفسه . فقرأ على عبد القوى بن كمونة ختمتين، وعلى عبد الصمد بن عبد الرحمن إلى سورة طه. وعلى أبى يعقوب الأزرق سبع عشرة ختمة جود فيها القرآن عليه . وأتقن النحاس مقرأ ورش، وحرره ، وأصبح به بصيراً . وانتهى به الأمر إلى أن أصبح أستاذاً فى مدرسة ورش، ومصدراً هاماً من

---

(١) الكندى : القضاة : ٤٧٠ — ٤٧١ . ابن خلكان : وفيات — ٦ : ٢٤٧ وما بعدها . الذهبى : طبقات القراء : ٦١ ، تذكرة — ٢ : ١٠٨ . السبكى : طبقات الشافعية — ١ : ٢٧٩ — ٢٨١ . ابن الجزرى : غاية — ٢ : ٤٠٦ — ٤٠٧ . . ابن حجر : ت . التهذيب — ١١ : ٤٤٠ — ٤٤١ . السيوطى : حسن — ١ : ١٢٤ ، ٢٠٧ .

(٢) ابن الجزرى : غاية — ١ : ٣٦٨ .

(٣) ابن سعد : الطبقات — ٦ : ١١٩ . ابن الجزرى : غاية — ١ : ٤١٣ .

مصادر قراءتها فهو طريق إلى أبى يعقوب إلى ورش نفسه . ولم يجلس أبو الحسن لإقراء التلاميذ الذين أقبلوا عليه فى جامع عمرو فحسب ، بل كان يقرئهم كذلك — وهذا جديد — بمكتبه ، إذ يبدو أن الإقراء كان قد بلغ حينذاك درجة الاحتراف الكامل بحيث أصبح للقارئ مكان خاص يمارس فيه حرفته. وقد كف بأخرة بصر هذا القارئ المحقق الجليل ، الضابط النبيل الذى أصبح شيخ مصر ومقريها [١] .

ألف زهير بن محمد بن أحمد ، المعروف بشعرانه ، كتاب « الراءات واللامات » على مذهب ورش من طريق الأزرق ، بمعنى أنه سجل فى هذا الكتاب طريقة ورش فى تغليظ اللامات وترقيق الراءات رواية عن شيخه الأزرق[٢] . وإذا كان زهير هذا (القرن الثالث الهجرى) من قراء مصر فإنه يأتى بعد داود بن أبى طيبة فى معالجة هذا الموضوع [٣] .

ثم انتقلت مشيخة الإقراء فى مصر إلى المحدث الثقة ، الإمام المتصدر أبى بكر عبد الله بن مالك التجيبى المصرى (ت ٣٠٧هـ) الذى تتلمذ على أبى يعقوب الأزرق ، وأخذ قراءة ورش عرضا وسماعاً ، وأصبح — مثله مثل إسماعيل النحاس — طريقاً إليه إلى ورش . وفى خلال الدهر الطويل الذى عمره أبو بكر انتهت إليه الإمامة فى قراءة ورش التى اقتصر عليها — وكان لايحسن غيرها — وتتلمذ عليه فيها كثيرون من مصر ومن خارجها[٤] .

وأصبح من أئمة مدرسة ورش بمصر كذلك أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن محمد بن هلال الأزدى المصرى (ت ٣١٠ هـ)الذى قرأ على أبيه — وكان تلميذ ابن وهب ومقرئا متصدراً (ت ٢٥٦ هـ)[٥]— وعلى إسماعيل النحاس كما سمع الحروف من بكر بن سهل الدمياطى (ت ٢٨٩ هـ) صاحب عبد الصمد وأحد أئمة

---

(١) الذهبى : طبقات القراء : ٧٢ — ٧٣ . ابن الجزرى : غاية — ١ : ١٦٥ ، النشر — ١ : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٤ . السيوطى : حسن — ١ : ٢٠٨ .

(٢) ابن الجزرى : غاية — ١ : ٢٩٥ .

(٣) انظر ٢١٦ من هذا البحث .

(٤) الذهبى : طبقات القراء : ٧٣ . ابن الجزرى : " — ١ : ٤٤٥ ، النشر — ١ : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٤ . السيوطى : حسن — ١ : ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٥) ابن الجزرى — ١ : ٤٥٢ .

مدرسة ورش. ولما كان ابن هلال أستاذاً كبيراً محققا ضابطاً فقد تصدر للإقراء وتتلمذ عليه كثيرون[١] .

كان ممن تتلمذ على ابن هلال فأخذ القراءة عنه عرضاً النحوى الضابط ، والمقرئ الجليل ، أبو غانم المصرى المظفر أحمد بن حمدان (ت ٣٣٣ هـ) الذى قرر أبو عمرو الدانى أنه أجل أصحاب ابن هلال وأضبطهم للقراءة[٢]

نزل الإمام الحرانى أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن منير ، المعروف بابن أبى الأصبغ (ت ٣٣٩ هـ). مصر وسكنها . وكان فقيها مشهوراً ، بصيراً بمذهب مالك ، ثقة ، راوية للحديث ، إماما ، عالما ، فصيحاً . ولاشك فى أن هذه الكفاءات المتنوعة هى التى أهلته لتولى الإمامة بجامع مصر . والذى يعنينا هو أن ذلك الرجل الجليل تتلمذ فى القراءة على ابن هلال لما نزل مصر . ولم يلبث حتى أصبح من أساتذة مدرسة ورش الذين يقصدهم التلاميذ[٣] .

وروى أحمد بن أسامة التجيبى المصرى (ت ٣٥٦)قراءة ورش عن أبيه عن يونس بن عبد الأعلى ، كما قرأ على إسماعيل النحاس . وانتهى به الأمر إلى أن أصبح عارفاً بقراءة ورش ، قيما بها ، يتلقاها عنه التلاميذ[٤] .

إبراهيم بن محمد بن مروان (ت سنة بضع وستين وثلثمائة)مقرئٌ شامى الأصل ، ولكنه نزل مصر فأصبح مصرى الدار . وقد أخذ قراءة ورش لما جاء مصر عن أبى بكر التجيبى . ولم يلبث هو الآخر حتى أصبح ضابطا ماهراً عالما بها، عالى الإسناد فيها ، يأخذها عنه التلاميذ[٥] .

أخذ أبو القاسم المصرى عبيد بن السمان (ت حول ٣٨٠) قراءة نافع عرضاً عن أبيه عن يونس بن عبد الأعلى عن ورش عنه . وكان شيخاً صالحا تميـ بأنه

---

(١) الذهبى : طبقات القراء : ٨٣ – ٨٤ . ابن الجزرى : غاية – ١ : ٧٤ – ٧٥ . السيوطى : حسن – ١ : ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٢) ابن الجزرى : [illegible] – ٢ : ٣٠١ . السيوطى : حسن – ١ : ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، بغية : ٣٩٣ .

(٣) ابن فرحون : الديباج : ٢١٦ . [illegible] : طبقات القراء : ٩٤ . ابن الجزرى : غاية – ٢ : ٦٨ . السيوطى حسن – ١ : ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٤) الذهبى : طبقات القراء : ٩٣ . ابن الجزرى : غاية – ١ : ٣٨ .

(٥) الذهبى : طبقات القراء : ١٠١ . ابن الجزرى : غاية – ١ : ٢٦ .

كان يأخذ أخذاً شديداً على مذهب المتقدمين من أصحاب ورش فيما يقرر الداني . ويفسر ابن الجزري هذا « الأخذ الشديد » بالمد المفرط على الهمز قبل حرف المد وبعده ، والتحقيق البالغ . وروى القراءة عن ابن السمان جماعة من المصريين وغيرهم[1] .

تتلمذ أبو عدي المصري، عبد العزيز بن علي بن محمد بن إسحاق بن الفرج ، ويعرف بابن الإمام (ت ٣٨١ هـ) على أبي بكر التجيبي وأحمد بن هلال . وكان شيخاً ورعاً صدوقاً ، ومقرئاً محدثاً متصدراً ضابطا . وقد تفرق في قراءة ورش، وأصبح شيخ القراء ومسندهم بمصر ، وقرأ عليه أئمة القراء[2] .

قرأ الإمام أبو حفص المصري ، عمر بن محمد بن عراك (ت ٣٨٨ هـ)، على عدد من كبار الأساتذة وسمع الحروف منهم . ويبدو أنه يوصف بالإمام لأنه كان إمام جامع مصر . والذي يعنينا على أي حال هو أنه أصبح أستاذاً في قراءة ورش . وكان يقول – وهو مالا نجد له تفسيراً معينا – : أنا كنت السبب في تأليف أبي جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ) كتاب اللامات[3] .

ولعل تاجر الخشب الصعيدي أبا بكر الإدفوي المصري ، محمد بن علي بن أحمد (ت ٣٨٨ هـ) ، هو آخر أساتذة مدرسة ورش العظام في القرن الرابع . فقد ترك مدينته الأصلية إدفو إلى مصر – أي الفسطاط – فسكنها وهناك قرأ على أساتذة كبار من أهمهم عالم القرآن العظيم أبو جعفر النحاس الذي لزمه وحمل عنه كتبه ، ولم يلبث الإدفوي حتى برع في علوم القرآن، وأصبح سيد أهل عصره بمصر ، وانفرد بالإمامة في قراءة نافع راوية ورش . وقرأ عليه الأجلاء . واعتاد على مجلسه الرؤساء والفضلاء ، مع سعة علمه ، وبراعة فهمه ، وصدق لهجته ، وتمكنه من علم العربية ، وبصره بالمعاني[4] .

هؤلاء هم أهم الرجال الذين تلقوا قراءة ورش وحفظوها ، وحملوها عبر الأجيال

---

(١) ابن الجزري : غاية – ١ : ٤٩٥ .

(٢) المصدر نفسه – ١ : ٣٩٤ – ٣٩٥ .

(٣) الذهبي : طبقات القراء : ١١١ . ابن الجزري : غاية – ١ : ٥٩٧ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان – ١ : ١٥٦ . القفطي : إنباه الرواة – ٣ : ١٨٦ – ١٨٨ . الذهبي : طبقات القراء : ١١١ . ابن الجزري : غاية – ٢ : ١٩٨ . السيوطي : بغية : ٨١ .

فى مصر ونقلوها . ويبدو واضحاً أن أغلبيتهم الغالبة تنتمى إلى أصول مصرية .
وحتى القلة التى وفدت من الخارج (أبو مسعود الأسود ، أبو يعقوب الأزرق ،
ابن أبى الأصبغ الحرانى ، إبراهيم بن محمد بن مروان . قد أقامت فى مصر إقامة
دائمة وأصبحت تنسب إليها . وهذا على كل حال طبيعى بالنسبة إلى قراءة صاحبها
من أهل مصر نفسها . وهؤلاء الرجال فى مجموعهم أساتذة كبار ، ثقات فضلاء ،
متفوقون فى كثير من فروع العلم وبخاصة الفقه والحديث واللغة والنحو . وهم
لم يكتفوا بمجرد حفظ قراءة أستاذهم وضبطها ونقلها شفوياً بل ألفوا فيها ليحفظوها
وينقلوها كتابة (داود بن أبى طيبة ، عبد الصمد بن عبد الرحمن ، أحمد بن
صالح ، سليمان بن داود ، زهير شعرانة) وأخيراً فلا شك فى أنه إلى نشاط
واجتهاد وذكاء هؤلاء الرجال الذين تتابعت سلسلتهم طوال القرنين الثالث والرابع
الهجريين دون أن تنقطع لحظة واحدة يرجع الفضل فى استمرار قراءة ورش ،
واحتفاظها بالبقاء ، وازدهارها ، وانتشارها ، ونجاحها من مثل مصير مذهب الفقيه
المصرى الكبير الليث بن سعد (ت ١٧٥ ﻫ) الذى قالوا عنه إنه فقيه ضيعه أصحابه
إذ لم يكتبوا عنه ولا دونوا المسائل عنه بالرغم من أنه كان إماما عظيما وفقيها كبيراً
يوازى ، إن لم يبز ، مالكا نفسه فقيه المدينة (ت ١٧٩ ﻫ)[1] . على أنه لا يمكن
إغفال أن ذلك كله لم يكن يتهيأ له أن يتحقق لولا أن مصر قد نضجت مع الزمن
شخصيتها العلمية ، وتكونت فيها بيئة علمية صالحة لإنتاج أفراد لهم القدرة على الاعتماد
على أنفسهم فى ممارسة العمل العلمى . وهكذا يكون ورش ومدرسته مظهراً هاماً
لتجاوز مصر مرحلة التبعية والتقليد إلى مرحلة الاستقلال والأصالة فى ممارسة تلك
الثقافة الجديدة التى حملها إليها الإسلام .

• • •

(١) ابن خلكان : وفيات – نهضة – ٣ : ٢٨٠ . الذهبى : تذكرة – ١ : ٢٠٣ –
٢٠٤ .

٦ ــ قراءة ورش خارج مصر

لم يكن هؤلاء هم كل الرجال الذين استهوتهم قراءة ورش فاشتغلوا بها وحفظوها، ولاكانت مصر البلد الوحيد الذى ازدهرت فيه ؛ أو على الأقل عُرفت ؛ هذه القراءة . ذلك بأن رجالا كثيرين آخرين من غير مصر ، بل ومن مصر نفسها ، قد حملوا قراءة ورش إلى حيث عرفت ، بل ازدهرت ، فى أمصار إسلامية أخرى شرقا وغربا .

فقد أخذ المقرئ المكى أبو محمد القاسم بن محمد بن عامر القيس قراءة ورش عن يونس بن عبد الأعلى . ومن الطريف أن القارئ المصرى حمدان بن عون الخولانى (ت حوالى ٣٤٠ ﻫ) عاد فقرأ عليه بمكة فى المسجد الحرام[١] .

وإذا كانت هذه تكاد تكون هى الحالة الوحيدة لانتقال قراءة ورش إلى الحجاز فإن الأمر يختلف بالنسبة إلى العراق . فقد قرأ على يونس أبو بكر الجوارى الواسطى أحمد بن محمد بن عمر بن زيد[٢] . ومن الكرفة قرأ أبو محمد الضبى الأسدى مضر بن محمد ، شيخ أئمة القراءة البغداديين : ابن مجاهد ت ٣٢٤ ﻫ ، وابن شنبوذ ت ٣٢٨ ﻫ ، وابن مقسم العطار ت ٣٥٤ﻫ ، على عبد الرحمن بن داود بن أبى طيبة[٣] . ومن حلوان قرأ المقرئ الحاذق أبو نصر الحلوانى الموصلى سلامة بن الحسين بن على (ت سنة ٢ أو ٢٨٣ ﻫ بدمشق) على القارئين المصريين إسماعيل النحاس وابن هلال[٤] .

أما بغداد فقد استأثرت ــ وهذا طبيعى بالنسبة إلى عاصمة ــ بالعدد الأكبر من القراء الذين حملوا قراءة ورش إليها . ولعل أول هؤلاء القراء كان أبا بكر الأصبهانى محمد بن عبد الرحيم بن إبراهيم بن شبيب الذى أخذ قراءة ورش أول ما أخذها عن مواطنه محمد بن عيسى بن رزين (ت ٢٥٣ﻫ) الذى كان قد أخذها

---

(١) ابن الجزرى : غاية ٢ : ٢٤ .
(٢) المصدر نفسه ١ : ١٢٥ - ١٢٦ .
(٣) المصدر نفسه ٢ : ٢٩٩ - ٣٠٠ .
(٤) المصدر نفسه ١ : ٣٠٩ - ٣١٠ .

بدوره عن الشيوخ المصريين . ويبدو أن القارئ الشاب أعجب بهذه القراءة فصمم على أن يذهب إلى مصر ليأخذها عن أصحابها الأصليين مثلما فعل أستاذه ابن رزين. فتزود بثمانين ألفا — من الدنانير طبعاً — وشد الرحال إلى مصر . غير أنه مر فى طريقه بالمصيصة — ذلك الثغر الشامى بين أنطاكية وبلاد الروم حيث كان الصالحون قديما يفضلون الرباط[1] — فوجد هنالك واحداً من أصحاب ورش المصريين ، هو عامر بن سُعَيد الحرسى (ت حوالى ٢٥٠ هـ) ، يقرئ — إلى جانب اشتراكه فى جهاد الروم — فى مسجد المصيصة الجامع منذ زمن بعيد ويقول : قرأت على ورش . فعاج أبو بكر عليه ، وجلس إليه ، وختم عليه ختمتين ؛ فلما شرع فى الثالثة مات عامر الذى كان فى أخريات عمره المديد . وواصل أبو بكر رحلته حتى بلغ مصر فوجد أبا مسعود الأسود صاحب ورش يقرئ فى المسجد الجامع ؛ فقرأ عليه بقراءة نافع — وكان أبو مسعود لايقرئ بغيرها — ختمات ، وقد ذكرنا من قبل[2] أن أبا بكر سجل على هذا الأستاذ كثرة خلافه لزملائه المصريين وشيئا من صفة قراءته . واتجه الطالب المتعطش إلى العلم إلى أبى الربيع سليمان الرشدينى (ت ٢٥٣ هـ) صاحب ورش فسأله : إلى من تسند قراءتك فقال : إلى ورش . فقرأ عليه إحدى وثلاثين ختمة . وحدث أن سار جماعة إلى يونس بن عبد الأعلى — وأبو بكر ،الذى لا شك فى أنه كان حريصا على القراءة عليه،حاضرهم— فسألوه أن يقرئهم القرآن على قراءة نافع . غير أن يونس امتنع لسبب مجهول وقال : أحضروا موّاساً ليقرأ فاستمعوا قراءته وهى لكم إجازة . ومواس هذا هو مواس بن سهل المعافرى المصرى ، ابن اخت أبى الربيع الرشدينى ؛ أخذ القراءة عرضاً عن داود بن أبى طيبة ويونس ، وكان ثقة ضابطًا مشهوراً فى مشيخة المصريين ، لم يكن فى طبقته مثله[3]. فقرأ مواس القرآن على أستاذه يونس من أوله إلى آخره فى أيام كثيرة وهؤلاء الرجال ، ومن بينهم الطالب الأصبهانى ، يسمعون . وهكذا سمع أبو بكر القراءة على يونس ولم يأخذها عنه عرضا . ومثلما قرأ أبو بكر على أصحاب ورش قرأ على أصحاب أصحابه من مثل : عبد الرحمن بن داود بن

---

(١) ياقوت : معجم البلدان — ٤ : ٥٥٨ .

(٢) انظر ص ٢١٦ من هذا البحث .

(٣) ابن الجزرى : غاية — ٢ : ١٦

أبي طيبة (ت ٢٧٤ هـ) وأبي الأشعث الجيزى ، والحسين بن والجنيد المكفوف ، والفضل بن يعقوب الحمراوى . ولما بلغ عدد الختمات التي ختمها أبو بكر على كل هؤلاء الأساتذة ثمانين ختمة كانت دنانيره الثمانين ألفا قد فرغت — كل ختمة بألف دينار — ولكنه كان فى نفس الوقت قد حذق حرف نافع . فرحل إلى العراق ونزل بغداد حيث جلس يقرئ الناس قراءة ورش . فكان أول من أدخلها العراق ،وصاحبها عند العراقيين . وعنه أخذوها حتى صاروا لا يعرفون رواية ورش من غير طريقه ، ولذلك نسبت إليه دون ذكر أحد من شيوخه . وقد انفردت طريقته عن الأزرق بعدم الترقيق فى الراءات والتغليظ فى اللامات ، والإمالة ، والمد الطويل ، وما انفرد به الأزرق من ذلك حتى إنه يقصر المنفصل مطلقا . وجنى أبو بكر ثمرة اجتهاده وإخلاصه وبذله فى طلب العلم فأصبح شيخ القراء فى زمانه ، وإمام عصره فى قراءة نافع رواية ورش عنه ، لم ينازعه فى ذلك أحد من نظرائه — فيما قرر أبو عمرو الدانى الذى بالغ فى تعظيمه — مع الثقة والضبط والعدالة . ولم يزل أبو بكر يقرئ الناس بقراءة ورش فى بغداد حتى وافاه أجله عام ٢٩٦هـ[1] .

فى أواسط القرن الثالث دخل الفسطاط ، كجزء من برنامج رحلته الطويلة فى طلب العلم ، محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ — ٣١٠ هـ) . ثم عاد إلى الشام ثم رجع إلى مصر . وفيما بين هذا وذاك كانت إقامة الطبرى فى مصر خصبة حافلة ، إذ لم يبق أحد من أهل العلم إلا لقيه وامتحنه فى العلم الذى يتحقق به ، حتى لقد اضطر — فيما تزعم الرواية — إلى أن يحفظ العروض فى ليلة واحدة ليجيب رجلا سأله فيه . وكان بمصر وقت دخوله إليها أبو الحسن على بن سراج المصرى (ت ٣٠٨ هـ) — وكان متأدبا فاضلا فى معناه — وكان من دخل الفسطاط من أهل العلم إذا ورد لقيه وتعرض له — فلقى أبا جعفر ، فوجده ، فاضلا فى كل مايذاكره به من العلم ، ويجيب فى كل ما يسأله عنه . ولقى الطبرى الفقيه الشافعى إبراهيم المزنى (ت ٢٦٤ هـ) وتكلما فى أشياء منها الكلام فى الإجماع . وسئل ابن جرير أن يرد على مالك فى شيء فرد عليه وكان الكلام فيه لابن عبد الحكم. بل لقد ظهر

---

(١) الذهبي : طبقات القراء : ٦١ ، ٧٣ — ٧٤ . ابن الجزرى : غاية — ١ : ٣١٣ ، ٣٤٩ — ٣٥٠ ، ٢ : ١٦٩ — ١٧٠ ، ٣١٦ ، ٣٢٦ والنشر — ١ : ١١٠ — ١١١ . ١١٣ — ١١٤ .

أنه بارع فى الشعر فجلس بناء على طلب أهل مصر عند بيت المال فى جامع عمرو يملى شعر الطرماح (ت ١٠٥ هـ) حفظا بغريبه ، وكان من يقوم به مفقوداً فى البلد . وهكذا بان فضل ابن جرير عندما ورد إلى مصر فى القرآن والفقه والحديث واللغة والنحو والشعر . على أن ابن جرير قد أخذ من المصريين مثلما أعطاهم ، وتتلمذ عليهم فى نفس الوقت الذى وقف منهم موقف الأستاذ فقد أكثر عنهم الكتابة من علوم مالك وابن وهب والشافعى الذى أخذ فقهه عن الربيع بن سليمان . كما أنه – وهو ما يعنينا آخر الأمر – تتلمذ فى القراءة على يونس بن عبد الأعلى فسمع منه حرف نافع رواية ورش عنه . وهكذا أصبحت عند ابن جرير رواية ورش ، وكان يقصد فيها لما رجع إلى بغداد . وقد حرص أبو بكر بن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) – مع موضعه فى نفسه وعند أبى جعفر – على أن يسمع منه هذه القراءة منفرداً ، فأبى إلا أن يسمعها مع الناس كرها من أبى جعفر أن يخص أحداً بشىء من العلم . وكان فى أخلاقه ذلك . ولا شك فى أن ابن جرير قد أفاد من ذلك فى كتابه الكبير فى القراءات الذى يعرف باسم « الجامع » أو « الفصل بين القراءة » . والذى فصل فيه أسماء القراء بالمدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام وغيرها . وذكر فيه جميع القراءات من المشهور والشواذ ، كما ذكر وجه كل قراءة وتأويلها والدلالة على ما ذهب إليه كل قارئ لها . ثم اختياره هو من كل هذه القراءات قراءة يرى أنها الصواب ولم يخرج بها عن المشهور [1] .

وجاء إلى مصر الشيخ المقرئ أبو جعفر الدباغ البغدادى ، محمد بن حماد ابن

---

(١) ابن النديم : الفهرست : ٢٣٤ – ٢٣٥ . ياقوت : معجم الأدباء – ١٨ : ٤٠ – ٦٨. الذهبى : طبقات القراء : ٨١ – ٨٢ . ابن الجزرى : غاية – ٢ : ١٠٦ – ١٠٨ . ا اودى : طبقات المفسرين : ٢٣٠ – ٢٣٣ . ويلحظ فيما يتعلق بتاريخ دخول ابن جرير مصر أن ياقوت يذكر – ١٨ : ٥٢ . – أن ذلك كان عام ٢٥٣ هـ . ثم يعود فيروى – ١٨ : ٥٥ – عن الطبرى نفسه أنه ورد مصر سنة ٢٥٦ هـ . ولما كان ابن جرير قد دخل مصر مرتين فيما يذكر ياقوت نفسه – ١٨ : ٥٢ – فقد يتبادر إلى الذهن أننا إزاء تاريخ كل من هاتين المرتين لولا أن الخبر الذى يرد فيه التاريخ المتأخر يؤخذ منه أنه يتحدث عن ابن جرير أول مقدمه لمصر فهو يصور عدم معرفته لهجة أهل مصر . هذا وينقل الداودى ٢٣٠ ظ – عن ابن يونس أن ابن جرير قدم مصر قديماً سنة ٢٦٣ هـ وكتب بها ورجع إلى بغداد . وواضح أن أقدم هذه التواريخ الثلاثة يمكن أن يصحف إلى التاريخين الآخرين ، مما قد يوحى بأنه هو الصحيح . بحيث يكون ابن جرير قد دخل الفسطاط سنة ٢٥٣ هـ ثم عاد إلى الشام ورجع إلى مصر فى العام نفسه .

ما هان ، شيخ ابن مجاهد ، فروى الحروف سماعا عن أبى الربيع سليمان الرشدينى . كما سمع منه كتابه الذى جمعه فى الحروف[1] .

ومن الطريف أن القارئ البغدادى ابن شنبوذ (ت ٣٢٨ هـ) الذى أثار ضجة كبرى عندما دعا إلى جواز القراءة بما يخالف رسم مصحف عثمان مما يروى عن ابن مسعود وأبى بن كعب وغيرهما مما كان يقرأ به قبل جمع هذا المصحف . . نقول إن من الطريف أن هذا القارئ المتمرد قد جاء إلى مصر وأخذ القراءة عن أحمد بن أبى حماد الشطوى (ظ ٢٣٠ هـ) ، بكر بن سهل الدمياطى (ت ٢٨٩هـ) ،وأحمد ابن عبد الله بن هلال (ت ٣١٠ هـ) . وجميعهم من أساتذة مدرسة ورش فى مصر[2] .

كان المقرئ البغدادى أبو بكر النقاش (ت ٣٥١ هـ) عالما بالقرآن ، وقد ألف كتباً كثيرة فى أسماء القراء وقراءاتهم وفى القراءات السبع . وقد جمع مادة كتبه فى خلال رحلاته الكثيرة شرقاً وغرباً . وكانت مصر من البلاد التى زارها النقاش وتتلمذ على أساتذتها فسمع منهم وكتب عنهم . فأخذ القراءة عرضا عن إسماعيل النحاس . على أن ذلك لم يكن طريقه الوحيد إلى قراءة ورش فقد أخذها كذلك عن أبى بكر الأصبهانى[3] .

وعن الفضل بن يعقوب الحمراوى صاحب عبد الصمد . والحسن بن على صاحب مواس بن سهل روى القراءة شيخ ابن مجاهد : أبو جعفر الأرزنانى الأصبهانى ثم البغدادى محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن يزيد[4] .

وهكذا نستطيع أن نقرر أن قراءة ورش ظهرت بوضوح فى العراق منذ أواسط القرن الثالث وطوال القرن الرابع . على أن العراق لم يكن آخر ما استطاعت هذه القراءة أن تبلغه شرقا ، فقد واصلت التقدم فى اتجاه المشرق حتى بلغت أصبهان على يدى أبى عبد الله التيمى الأصبهانى محمد بن عيسى بن إبراهيم بن رزين (ت٢٥٣هـ)

(١) ابن الجزرى : غاية — ٢ : ١٣٥ .

(٢) الخطيب : ت . بغداد — ١ : ٢٨٠ — ٢٨١ . الذهبى : طبقات القراء : ٨٤ — ٨٥ . ابن الجزرى : غاية — ٢ : ٥٢ — ٥٤ .

(٣) الخطيب : ت . بغداد — ٢ : ٢٠١ . ابن خلكان — نهضة — ٣ : ٤٢٥ . الذهبى : طبقات القراء : ٩١ . ابن الجزرى : غاية — ٢ : ١١٩ — ١٢٠ .

(٤) ابن الجزرى : غاية — ٢ : ١٦٦ .

الذى سبقت الإشارة إليه منذ قليل ، والذى كان إماما فى النحو ، أستاذاً فى القراءات له فيها عدة كتب ، والذى قرر أبو نعيم الأصبهانى (ت ٤٣٠ هـ) أنه لايعلم أحداً أعلم منه فى وقته فى القراءات والذى يعنينا على أى حال هو أن داود بن أبى طيبة ويونس بن عبد الأعلى من بين الأساتذة الكثيرين الذين أخذ ابن رزين القراءة عنهم عرضاً وسماعاً[1] .

وعرفت قراءة ورش طريقها إلى الشام عندما قدم من أنطاكية إلى مصر إبراهيم بن الوليد الأنطاكى فروى القراءة عرضاً عن عبد الصمد (ت ٢٣١ هـ) عن ورش[2] . وعن "عبد الصمد أيضاً أخذ القراءة عرضا وسماعا عبد الجبار بن محمد المعلم الذى « سكن أنطاكية » وروى عنه إبراهيم بن عبد الرازق (ت ٣٣٩ هـ) وأحمد بن يعقوب (ت ٣٤٠ هـ) الأنطاكيان[3] . وفى وصف عبد الجبار هذا بأنه «سكن» أنطاكية ما يجعلنا نرجح – اعتماداً على ما هو معروف من مصطلحات المراجع القديمة – أنه ليس أنطاكى الأصل . فلعله مصرى هاجر إلى هناك – ربما مع إبراهيم بن الوليد – حاملاً معه قراءة ورش التى حملها ابن الوليد كذلك إلى هناك .

مثلما عرفت قراءة ورش طريقها إلى آسيا شرقاً عرفته فى إفريقية غربا . ولعل ذلك أول ما كان عندما جاء إلى مصر عبد الرحمن بن أحمد القيروانى وروى القراءة عن داود بن أبى طيبة[4] على أن قراءة ورش لم تنتقل إلى القيروان بصورة فعلية إلا على يدى القارئ الأندلسى الأصل محمد بن عمر بن خيرون ، أبى عبد الله المعافرى الأندلسى ثم القروى (ت ٣٠٦ هـ) . كان ابن خيرون رجلا صالحاً ، فاضلا ، كريم الأخلاق ، ثقة مأمونا . جاء مصر حيث تتلمذ على إسماعيل النحاس وعبيد بن محمد المؤذن المصرى المعروف برجّال (ت ٢٨٤ هـ) تلميذ داود بن أبى طيبة ، ومحمد بن سعيد الأنماطى المصرى تلميذ عبد الصمد والأزرق ، وأبى بكر بن سيف التجيبى ؛ فأخذ عنهم جميعاً قراءة ورش وحذقها. ولم يعد ابن خيرون إلى الأندلس

---

(١) المصدر نفسه – ٢ : ٢٢٣ – ٢٢٤ .

(٢) المصدر نفسه – ١ : ٢٨ .

(٣) ابن الجزرى : ". " – ١ : ٣٥٨ .

(٤) المصدر نفسه – ١ : ٣٦٤

بل ذهب إلى القيروان فاستوطنها ، وجلس يقرئ بها فى مسجد كان ينسب إليه .
وكان حرف نافع معروفاً هناك ولكن فى أضيق نطاق إذا لم يكن يقرأ به فى ذلك الوقت إلا خواص الناس فقد كان الغالب على قراءتهم حرف حمزة . غير أن ابن خيرون كان يأخذ أخذاً شديداً على مذهب المشيخة من أصحاب ورش، وألف كتاب « الابتداء والتمام » وكتاب « الألفات واللامات » ، فاجتمع عليه الناس، ورحل إليه القراء من الآفاق ، وروى القراءة عنه عامة أهل القيروان وسائر المغرب ، وأصبح شيخ القراء فى القيروان بعامة وإماماً فى قراءة نافع من رواية ورش عنه بخاصة. وقد ظل أثر هذا القارئ الكبير باقيا فى قراء القيروان حتى أيام ابن الجزرى (ت ٨٣٣ هـ)[1] .

ومن إفريقية كذلك جاء المقرئ الحاذق عبد الحكم بن إبراهيم أبو الفضل القروى (من أهل القرن الرابع) ، فروى رواية ورش عن : محمد بن سعيد الأنماطى ، أبى بكر التجيبى — ولم تثبت قراءته عليه فيما يذكر الدانى — ، وأحمد ابن هلال . كما أخذ رواية ورش عن مواطنه ابن خيرون . وبالرغم من أن عبدالحكم قيروانى الأصل فقد نزل بجاية — تلك المدينة الساحلية بين إفريقية والمغرب[2]— حيث أصبح إماما فى رواية ورش[3] .

ومضت قراءة ورش قدماً نحو الغرب لتعبر بحر الزقاق إلى القارة الأوربية على يدى أبى عبد الله الأندلسى القرطبى محمد بن وضاح بن بديع[4] (ت ٢٨٦ هـ) الذى زار مصر للمرة الثانية فى أخريات الثلث الأول من القرن الثالث، فروى القراءة عن عبد الصمد بن عبد الرحمن عن ورش وكتب عنه نسخة ، وروى عنه عدد القرآن على عدد المدنى الأول أى عدد آيات القرآن طبقاً للمرة الأولى التى عدها فيها القارئان المدنيان القديمان : أبو جعفر يزيد بن القعقاع وشيبة بن نصاح[5]. ولما كان تلميذهما نافع قد سجل هذا العدد فى كتاب بعنوان : « عدد المدنى الأول »[6] فلا يبعد أن ما رواه ابن وضاح هو رواية نافع المذكورة فى هذا الكتاب . ومن

(١) الذهبى : طبقات القراء : ٨٧ . ابن الجزرى : غاية - ٢ : ٢١٧ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان - ١ : ٤٩٥ - ٤٩٦ .
(٣) ابن الجزرى : غاية - ١ : ٣٥٩ - ٣٦٠ .
(٤) هو : ابن بزيع - بالزاى - عند ابن الجزرى : غاية .
(٥) السيوطى : الإتقان - ١ : ٦٧ . (٦) ابن النديم : الفهرست :

الحق أن قراءة نافع كانت معروفة فى الأندلس من قبل ، منذ أن أدخلها إليه هى وموطأ مالك الإمام الأندلسى الغاز بن قيس (ت ١٩٩ هـ) بعد أن أخذهما عنهما فى المدينة[١] . بل لقد اتصل الأندلسيون بقراءة ورش نفسها قبل ذلك بزمن غير قصير عندما جاء النحوى الأندلسى محمد بن عبد الله القرطبى — وكان عالما بالقرآن . بصيراً بالعربية ، ذا حظ من الزهد — إلى مصر وتتلمذ على ورش نفسه وأخذ القراءة عنه عرضاً . وبلغ من جلالة هذا القارئ أن استأدبه أمير الأندلس الحكم بن هشام (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) لبنيه[٢] . غير أن ابن وضاح كان يتمتع بنفوذ علمى ضخم بين مواطنيه ، فلم يكد يرجع إليهم برواية ورش حتّى اعتمدوا عليها ، ودونوها عنه ، وتخلوا عن الرواية القديمة رواية الغاز بن قيس[٣] .

وفى نفس الوقت تقريبا — أخريات الثلث الأول من القرن الثالث — دخل مصر عالم أندلسى آخر هو إبراهيم بن محمد بن بازى أبو إسحاق بن القزاز القرطبى (ت ٢٩٤ هـ)[٤] ، فتتلمذ على عبد الصمد نفس أستاذ ابن وضاح[٥] . وفى أواسط القرن نفسه كان فى مصر قارئ أندلسى آخر هو أبو القاسم مُطَرِّف بن عبد الرحمن بن الفرج الذى عرض على عبد الرحمن بن داود بن أبى طيبة ومواس ابن سهل ، وسمع الحروف من يونس بن عبد الأعلى . وأجاد مطرف قراءة ورش حتّى لقد وصفه أبو عمرو الدانى بأنه من أهل الضبط والإتقان والمعرفة بقراءة نافع رواية ورش عنه . كما قال إن له كتابا حسنا فى « الأداء » يدل على صدقه[٦] .

وفى الثمانينات من نفس القرن كان بمصر المقرئ الأندلسى المتصدر الضابط زكريا ابن يحيى الذى عرض على عدد من كبار أساتذة مدرسة ورش مثل : مواس بن سهل ، حبيب بن إسحاق ، وبكر بن سهل . وأصبح أبو يحيى ممثلا قويًّا لهذه المدرسة فى الأندلس حيث لم يكن بعد الغاز بن قيس — فيما يقرر الدانى — أضبط منه لقراءة نافع ولا أعرف بألفاظ المصريين من أصحاب عثمان بن سعيد (ورش)[٧] .

---

(١) ابن الجزرى : غاية — ٢ : ٢ .

(٢) ابن الجزرى : ° ـ — ٢ : ١٨٩ —. السيوطى : بغية :

(٣) ابن فرحون : الديباج : ٢٣٩ — ٢٤١ . ابن الجزرى : ° ـ

(٤) يذكر ابن فرحون : الديباج : ٨٤ أنه توفى عام ٢٧٤ هـ .

(٥) ابن فرحون : الديباج : ٨٤ . ابن الجزرى : غاية — ١ : ٢٣ .

(٦) ابن الجزرى : غاية — ٢ : ٣٠٠ .

(٧) ابن الجزرى : °

وشهد القرن الرابع عدداً من القراء البارزين الذين واصلوا قراءة ورش إلى الأندلس . فقد سمع المقرئ المصدر عبد الكبير بن محمد الجزرى الأندلسى (ت ٣٦٠ هـ) من القارئ المصرى أبى غانم المظفر بن أحمد (ت ٣٣٣هـ) أحد أساتذة مدرسة ورش ، ومن غيره من كبار القراء المصريين . ولما عاد إلى الأندلس تصدر للإقراء بقرطبة بجامع الزهراء حيث ظل يقرئ إلى أن ترفى[1]. أما القارئ أبو محمد القضاعى عبد الله بن محمد الأندلسى المعروف بمقرون (٢٩٠-٣٧٨ هـ) فلم يدخل مصر ليأخذ قراءة ورش، ولكنه أخذها عن أبى الفضل عبد الحكم بن إبراهيم ، صاحب أبى بكر بن سيف التجيبى فى بجاية عندما نزلها بعد الثلثمائة وعرض عليه فيها . ثم انتقل القضاعى إلى وهران على ساحل المغرب ، ومنها عبر بحر الزقاق إلى مالقة على ساحل الأندلس المقابل . ولايبعد أنه أقرأ بقراءة ورش فى هاتين المدينتين . ثم أمره الحكم أمير الأندلس - الذى لا بد أنه سمع به - بالتوجه إلى قرطبة ، فقدمها فى سنة ٣٤٧ هـ وجلس على باب مسجدها الجامع يقرئ الناس حتى وفاته بحرف نافع من رواية ورش وكان ينحو فيه مذهب القرويين والمصريين[2]. وفى سنة ٣٣٠ هـ دخل مصر القارئ الأنطاكى الإمام الحاذق ، المسند ، الثقة ، المشهور بالفضل والعلم ، والضبط وصدق اللهجة أبو الحسن التميمى على بن محمد بن إسماعيل (٢٩٩ - ٣٧٧ هـ) . وإذا كان من المحتمل أنه جلس إلى تلاميذ إسماعيل النحاس بمصر فإن من المؤكد أنه تصدر للإقراء بها فقد كان رأساً فى القراءات لايتقدمه أحد فى معرفتها فى وقته . ولم يزل أبو الحسن يقرئ إلى أن رجه المستنصر بالله (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) الحكم أمير الأندلس السابق ذكره قاصداً إلى مصر . وكتب معه أن يجهز إليه مقرياً يقرئ الناس بالأندلس . فرجه إليه بأبى الحسن . فقدم الأندلس مع أمه ، ودخل قرطبة فى شعبان ٣٥٢ هـ ، ليصبح مقرئ الأندلس وشيخها ومسندها . ولم يكن أبو الحسن عارفا بقراءة ورش فحسب بل كان له فيها كتاب رواه عنه تلميذه محمد بن عبدالله

---

(١) المصدر نفسه - ١ : ٤٠٠ .

(٢) الذهبى : طبقات القراء : ١٠٦ . ابن الجزرى - ١ : ٣٦٠ ، ٤٥٦ . ويذكر الذهبى أن مقرونا دخل قرطبة فى حدود سنة ٣٥٠ هـ ، ولكن يبدو أن التاريخ الذى أثبتناه عن ابن الجزرى هو الأصح .

ابن الصناع القرطبي (ت ٤٤٨ هـ)[١] .

على أن الأندلس لم تكن البلد الوحيد من أوربا الذى عرفت قراءة ورش طريقها إليه ، فقد استطاعت أن تعبر البحر الأبيض المتوسط إلى جزيرة صقلية على يدى المقرئ المتصدر أبي عبد الله النحوى محمد بن خراسان (٢٩٠-٣٨٦) هـ الذى أخذ القراء بمصر عرضا عن أبي غانم المظفر بن أحمد بن حمدان (ت ٣٣٣ هـ) ، وسكن صقلية ، وأقرأ بها[٢] .

وأخيراً فهكذا تكون قراءة ورش لم تنجح وتزدهر فى أرض مصر وحدها ؛ وإنما كان لها من الحيوية والصلاحية ما مكنها من أن تنمو وتزدهر فى تلك البيئات الأخرى التى فرغنا من تتبعها فيها . على أن من الإنصاف أن نقرر أنها لم تنم بنسبة واحدة فى كل تلك البيئات. فهى لا تكاد تظهر فى الحجاز-ربما لأنه هو الأصل الذى صدرت عنه - فى حين قد تهيأ لها قدر غير قليل من الانتعاش فى المشرق بعامة والعراق بخاصة . وفى الشام لم تستطع أن تضع قدمها إلا فى أقصى الشمال فى الثغور . أما المغاربة فكان ترحيبهم بقراءة ورش حاراً ، وحرصهم عليها واضحاً، وبخاصة أهل الأندلس الذين اتصلوا بها منذ اللحظات الأولى . ويلفت النظر أن كل القراء الأندلسيين الذين ذكرناهم ممن أخذوا بقراءة ورش كانوا - فيما عدا مطرف بن عبد الرحمن- إما من قرطبة أصلا وإما نسبوا إليها لأنهم رحلوا إليها وأقاموا بها . وهذا طبيعى جداً بالنسبة إليها بما هى العاصمة الأندلسية الكبرى التى شهدت أروع أمجاد الحضارة الإسلامية . وقد حدث مثل ذلك بالنسبة إلى بغداد فى المشرق . ولكن يبدو أن الصلة بين مصر وبين الأندلس بخاصة والمغرب بعامة كانت قوية جداً بحيث إن المغاربة كانوا يعتمدون على المصريين فى شئون الدين والثقافة والعلم ، ويستغنون بهم عن المشارقة والرحلة إليهم . وفى نفس الوقت كان المصريون يجدون فى المغرب حقلا جديداً لاستثمار نشاطهم حافلا بفرص النجاح التى يشتد التزاحم عليها فى مصر . وكان أبو بكر محمد بن عبد الله المعافرى المصرى (ت سنة بضع وخمسين وثلثمائة) مقرئا مجوداً ، معروفا ، قيما برواية ورش . وكان يأخذ أخذاً

---

(١) الذهبى : طبقات القراء : ١٠٧ . ابن الجزرى : غاية - ١ : ٥٦٤ - ٥٦٥ ، ٢ : ١٨٩ .

(٢) ابن الجزرى : غاية - ٢ : ١٣٦

شديداً . ويبدو أن الرحلة إلى الأندلس بحثاً عن الشهرة – أوعن مزيد – منها كانت تداعب أحلامه ، إذ كان يقول لتلميذه الأندلسي خلف بن إبراهيم بن خاقان الذى قرأ عليه خمس عشرة ختمة : « لو أنى توجهت إلى بلدكم – يعنى الأندلس – كنت أصلح بها » . وكان التلميذ الخبير بمستوى القراءة فى بلاده العارف بقدر أستاذه المصرى يجيبه : « تكون رئيساً جليلا »[1] .

٧ – مدارس أخرى

بالرغم من أن قراءة ورش ازدهرت فى مصر ، وأصبحت تكون المدرسة المصرية فى القراءة ، واستطاعت أن تتخطى حدود مصر شرقاً وغرباً فإنها لم تستقل بالميدان استقلالا تامًّا ، إذ ظلت المدارس الأخرى وقراءاتها تجد دائماً من يهتم بها ويمثلها فى مصر سواء من المصريين أو من غيرهم .

المدرسة المكية :

ففى سنة ١٩٨ هـ دخل مصر قادماً من مكة الإمام الشافعى (١٥٠ – ٢٠٤ هـ)، الذى كان له عناية فائقة بالقرآن ، فكان يختم فى كل يوم ختمة ، أما فى رمضان فقد كان يختم فى اليوم ختمتين . وبلغ من جمال قراءته وحسن صوته بالقرآن أن كان أهل مصر يجتمعون إليه فيقرأ عليهم ، يتساقطون بين يديه ويعجون بالبكاء . وكان الشافعى – فيما قرر المبرد ت ٢٨٦ هـ – من أعرف الناس بالقراءات . ولما كان قد قضى طفولته وشبابه فى مكة فقد قرأ القرآن على مقرئها الكبير ابن قسطنطين (ت ١٧٠ هـ) . ولذلك كان يرى أن التكبير من سورة الضحى إلى آخر القرآن – وهى قراءة المكيين – من السنة . وجلس الشافعى فى مصر للإقراء الذى كان أول عمل يقوم به فى المسجد بعد أن يصلى الصبح[2] .

---

(١) الذهبي : طبقات القراء : ١٠١ . ابن الجزرى : غاية – ٢ : ١٨٨ – ١٨٩ . السيوطى : حسن – ١ : ٢٠٧ ، ٢٠٩ .

(٢) الخطيب : ت بغداد – ٢ : ٦٢ ، ٦٤ ، ٩٦ . ياقوت : م . الأدباء – ١٧ : ٣٠٤ ، ٣١٢ ، ٣١٩ . السبكى : طبقات الشافعية – ١ : ٢٤٨ . ابن فرحون : الديباج : ٢٢٧ – ٢٢٨ . ابن الجزرى : غاية – ١ : ١٦٦ ، ٢ : ٩٥ ، والنشر – ١ : ٣٩٧ . ابن حجر : ت . التهذيب – ٩ : ٢٩ . السيوطى : الإتقان – ١ : ١١٠ . الشعرانى : الطبقات الكبرى – ١ : ٥٦ .

وقرأ الشافعى بعض الحروف قراءة خاصة من أمثلتها أنه قرأ : « ذلك أدنى ألا تعولوا » (النساء ؛ ٣ :) « ذلك أدنى ألا تعيلوا » . أى تفتقروا ، من العيلة ، وهى لغة حمير[١] . وفى الآية ١١٥ من السورة نفسها : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين » قرأ الشافعى — مثله مثل القارئ المكى عبيد بن عمير ت ٧٤ هـ — : « ويبتغ غير » بالغين المعجمة[٢] . وفى الآية ١٥٦ من سورة الأعراف : « قال عذابى أصيب به من أشاء » يتفق الشافعى مع القراء البصريين : الحسن ت ١١٠ هـ ، وعمرو بن عبيد ت ١٤٤ هـ . وكرداب تلميذ رويس فى قراءة «من أساء» بالسين المهملة على الماضى[٣] . وفى الآية ١٧ من سورة التوبة : « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله » . والآية ١٨ من السورة نفسها : «إنما يعمر مساجد الله» يتفق الشافعى مع القارئين المكيين مجاهد (ت ١٠٣) وابن محيصن (ت ١٢٣ هـ) ، والقارئ البصرى عاصم الجحدرى (ت ١٢٨ هـ) فى قراءة « مسجد » بالواحد فيهما[٤] . وفى الآية ٣٠ من سورة يوسف : « قد شغفها حبًّا » قرأ الشافعى — مثله مثل مجاهد ، والمدنيين : عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ت ١١٧ هـ وابن شهاب الزهرى ت ١٢٤ هـ — « شعفها » بالعين غير المعجمة موجهين معنى الكلام إلى أن الحب قد عم امرأة العزيز لأنه إذا كان هو الذى يحبها فيقال : « شغفها » بالغين المعجمة . وبالرغم من ذلك يستصوب الطبرى القراءة بالغين المعجمة لإجماع الحجة من القراء عليه[٥] . وفى الآية الأولى من سورة ص اختار الشافعى قراءة « صاد » بكسر الدال . وهى قراءة البصريين : الحسن ، وعبد الله بن أبى إسحاق ١١٧ هـ أو ١٢٩ هـ ، وأبى السمال . وكان أبو السمال يقرأ بكسر الآخر : يس ، حم ، قاف ، نون . وبالجر قرأ « نون » أيضاً الأعمش الكوفى ت ١٤٨ هـ . وحجة ابن أبى إسحاق فى كسر « صاد » — ولعلها حجة الآخرين كذلك — اجتماع الساكنين ، يجعل ذلك بمنزلة الأداة كقول

---

(١) الكرمانى : شواذ : ٥٧ .

(٢) المصدر نفسه : ٦٤ .

(٣) ابن خالويه : مختصر : ٤٦ .الكرمانى : شواذ : ٩٠ .

(٤) الكرمانى : شواذ : ٩٨ — ٩٩ .

(٥) الطبرى : جامع البيان — ١٢ : ١١ — ١١٩ . الكرمانى : شواذ : ١١٧ .

العرب : تركته حاثِ باثِ[١] ، وخاز باز[٢] ، يخفضان من أجل أن الذى يلى آخر الحروف ألف . فيخفضون مع الألف وينصبون مع غيرها فيقولون : حيثَ بيثَ ، ولأجعلنك فى حيصَ بيصَ إذا ضيق عليه . وبالرغم من ذلك فإن الصواب من القراءة فى ذلك عند الطبرى هو السكون فى كل ذلك . لأن ذلك القراءة التى جاءت بها قراء الأمصار مستفيضة فيهم ، وأنها حروف هجاء لأسماء المسميات فيعرب إعراب الأسماء والأدوات والأصوات ، فيسلك بهن مسالكهن[٣] .

وروى عن الشافعى قراءته تلميذه الأثير محمد بن عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢٨٦ هـ) الذى حمل عنه مذهبه فى الفقه كذلك ثم خرج عنه إلى المذهب المالكى عندما غلبه البويطى (ت ٢٣١ هـ) على خلافة الشافعى فى رياسة المذهب بمصر[٤] . وروى القراءة عن ابن عبد الحكم مصريان هما : أحمد بن مسعود الزبيرى[٥] ، ومحمد بن أحمد بن حمدان[٦] . وبغداديان هما : محمد بن جرير الطبرى[٧] ، ومحمد بن سليمان بن محبوب[٨] . وواصل التلميذان المصريان حمل القراءة فرواها أحمد بن الحسن بن شاذان البغدادى عن الزبيرى[٩] . أما ابن حمدان فقد رواها عنه عبد الباقى بن عين الغزال[١٠] .

وهكذا كانت قراءة ابن قسطنطين التى حملها الشافعى معه هى الممثل الوحيد للمدرسة المكية فى مصر . وقد احتفظت ببقائها منذ أخريات القرن الثانى حتى أواخر القرن الثالث . وهو عمر غير طويل لا يكاد يبلغ القرن . هذا إلى أنها انتشرت

---

(١) أى مختلط الأمر . وهما مبنيان على الكسر . لسان العرب : حوث .

(٢) اسمان جعلا واحداً وبنيا على الكسر ، وسمى به الذباب ، وقيل : نبت ، وقيل : ورم . لسان العرب : خوز .

(٣) الطبرى : جامع البيان – ٢٣ : ٧٥ . ابن خالويه : مختصر : ١٢٤ ، ١٢٩ . الكرمانى : شواذ : ٢٠٧ .

(٤) ابن خلكان : وفيات – ميمنية – ١ : ٥٧٨ . السبكى : طبقات الشافعية – ١ : ٢٢٣ – ٢٢٤ . ابن فرحون : الديباج : ٢٣١ – ٢٣٢ . ابن الجزرى : غاية – ٢ : ١٧٩ .

(٥) ابن الجزرى : غاية – ١ : ١٣٨ ، ٢ : ١٧٩ .

(٦) المصدر نفسه – ٢ : ٦١ ، ١٧٩ .

(٧) المصدر نفسه – ٢ : ١٧٨ .

(٨) المصدر نفسه – ٢ : ١٧٩ .

(٩) ابن الجزرى : غاية – ١ : ٤٦ ، ١٣٨ .

(١٠) المصدر نفسه : ٣٥٧ ، ٢ : ٦١ .

فى نطاق ضيق فلم يحملها عن الشافعى سوى تلميذه ابن عبد الحكم ، فقد ركز الناس عنايتهم على أخذ الفقه ، وليس القراءة ، عن الفقيه الكبير .

المدرسة المدنية :

مثل مدرسة المدينة فى مصر عدد غير قليل من القراء كان أبرزهم ورش الذى لم يلبث حتى أقام المدرسة-المصرية على أسس هذه المدرسة المدنية التى رفع نافع لواءها. وقد جارى ورشا فى شهرته ، كتلميذ لنافع وطريق إليه ، تلميذ نافع الآخر وربيبه قالون (١٢٠ — ٢٢٠ هـ) الذى استطاع تلامذته أن يجعلوا من قراءته ممثلا آخر لمدرسة المدينة فى مصر .ولعل أول هؤلاء التلاميذ كان نفس تلميذ ورش أحمد بن صالح الطبرى (ت ٢٤٨ هـ) الذى كان له عن كل منهما رواية . وينبغى أن نضيف هنا أن ابن صالح لم يقنع من أساتذة مدرسة المدينة بالقراءة على ورش وقالون فقد قرأ كذلك على قارئين آخرين من تلاميذ نافع هما إسماعيل بن أبى أو يس (ت ٢٢٧ هـ) وأخوه عبد الحميد (ت ٢٣٠ هـ) ابنا أخت الإمام مالك[١]. وهكذا مثل ابن صالح مدرسة المدينة تمثيلا قويًّا بما جمع من شتى اتجاهاتها : وعن ابن صالح أخذ القارئ المصرى أحمد بن محمد بن الحجاج الرشدينى (ت ٢٩١هـ) قراءة قالون ليأخذها عنه بدوره أبو عبد الله محمد بن زغبة المصرى[٢].

ونزل مصر ليقيم بها نهائيًّا قارئ مدنى من تلاميذ قالون هو أبو موسى عبدالله ابن عيسى المعروف بطيارة (١٩٥ — ٢٨٧ هـ) الذى أخذ القراءة عرضا وسماعا عن قالون ، وتفرد عنه برواية « لكنا هو الله ربى » فى الآية ٣٨ من سورة الكهف بإثبات الألف وصلا كابن عامر[٣]. وقد دار حول هذه الآية جدل كثير حافل بالروايات المتناقضة فيما يتعلق بإثبات الألف « لكنا » أو حذفها[٤].

---

(١) الذهبى : طبقات القراء : ٥٩ . ابن فرحون : الديباج : ٣١ . ابن الجزرى : ١ : ٦٢ . السيوطى : حسن — ١ : ١٢٢ .

(٢) ابن الجزرى: غاية — ١ : ١٠٩، ٢ : ١٤١ . (٣) المصدر نفسه — ١ : ٤٤٠ .

(٤) النحاس : إعراب القرآن : ١٣١ . ابن خالويه : مختصر : ٨٠ . ابن جنى : المحتسب ١٨٨ . الدانى : التيسير : ١٤٣ . الكرمانى : شواذ : ١٤١ . الفخر الرازى : مفاتيح — ٥ : ٤٨٢ . القرطبى : الجامع — ١٠ : ٤٤٠ — ٤٠٥ . أبو حيان : البحر — ٦ : ١٢٧ — ١٢٨ . ابن الجزرى : تقريب النشر : ١٣٧ .

وأجمل الطبرى المسألة فى أن القراء كلهم يذهبون إلى إثبات الألف فى الوقف . أما فى الوصل فيذهب عامة قراء أهل العراق إلى حذفها . فى حين يذهب جماعة من أهل الحجاز إلى إثباتها فى الوصل والوقف[١] . وجاءت هذه الآية فى مصحف أبىّ وابن مسعود : « لكن أنا هو الله ربى[٢] » . ويرى الكسائى (ت ١٨٩ هـ) ، والفراء (ت ٢٠٧ هـ) ، والمازنى (ت ٢٤٩ هـ)أن الأصل فى « لكنا» هو : لكن أنا ، فألقيت حركة الهمزة على نون لكن ، وحذفت الهمزة ، وأدغمت النون فى النون . فالوقوف عليها : لكنّا ، وهى ألف أنا لبيان الحركة[٣] . ويذكر أبو عبيد (ت ٢٢٤ هـ)الرأى نفسه مضيفاً أن الكسائى أنشدهم :

لِهِنّكَ من عبسية لوسيمة　　على هنوات كاذب من يقولها

أراد : لله إنك ، فأسقط إحدى اللامين من « الله » وحذف الألف من « إنك » . وقال آخر فجاء به على الأصل :

وترمينى بالطرف أى : أنت مذنب　　وتقلينى ، لكن إياك لا أقلى

أى : لكن أنا[٤] . وزعم أبو حاتم (ت ٢٥٠ هـ)أن إثبات الألف فى الإدراج لحن . قال : ومثله من قرأ : « كتابيه » فأثبت الهاء فى الإدراج . ورد أبو إسحاق الزجاج (ت ٣١١ هـ)على ذلك بأن إثبات الألف فى « لكنا هو الله ربى » فى الإدراج جيد لأنه قد حذفت الألف من أنا فجاءوا بها عوضا[٥] . ويردد ابن جنى (ت ٣٩٢ هـ) رأى الكسائى ومن تبعه فى أن الأصل فى « لكنا » هو قراءة أبىّ : « لكن أنا » ، فخففت همزة « أنا » بأن حذفت ، وألقيت حركتها على ما قبلها . . . إلخ[٦] . ويروى أبو حيان الأندلسى (ت ٧٤٥ هـ)[٧]أن إثبات الألف فى «لكنا» فى الوصل جاء على لغة بنى تميم الذين يثبتونها فيه فى الكلام. فى حين يثبتها غيرهم فى

---

(١) جامع البيان — ١٥ : ١٦٢ .

(٢) ابن خالويه : مختصر : ٨٠ . ابن جنى : المحتسب : ١٨٨ . الكرمانى : شواذ : ١٤١ . Jeffery, M.H.T.Q., p. 142.

(٣) النحاس : إعراب القرآن : ١٣١ .

(٤) القرطبى : الجامع — ١٠ : ٤٠٥ .

(٥) النحاس : إعراب القرآن : ١٣١ .

(٦) المحتسب : ١٨٩ .

(٧) البحر المحيط — ٦ : ١٢٨ .

الاضطرار . وأيّاً كان الأمر فإن الطبرى يقرر أن إثبات ألف « أنا » — وإن كان مما ينطق به فى ضرورة الشعر كما قال الشاعر :

أنا سيف العشـيرة فاعرفـونى   حميــداً قد تذريت السناما

فأثبت الألف فى « أنا » — ليس بالفصيح من الكلام . وبناء على ذلك فالقراءة الصحيحة عنده هى قراءة العراقيين التى تحذف الألف من « لكن » فى الوصل وتثبتها فى الوقف[1].

عن عبد الله بن عيسى طيارة هذا روى الحروف بمصر الشيخ المقرئ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف بن شاهين البغدادى[2] . وفى زمن لا يمكن أن يتجاوز عام ٢٨٧ هـ قدم مصر وسكنها بصفة نهائية الإمام الحرانى محمد بن أحمد بن أبى الأصبغ ، وكان فقيها مشهوراً ، بصيراً بمذهب مالك ، ثقة ، راوية للحديث ، عالماً ، فصيحاً ، تولى إمامة جامع مصر . والذى يعنينا هو أن ذلك الرجل الممتاز قد جلس إلى عبد الله بن عيسى فسمع حرف نافع منه عن قالون . كما جلس إليه هو التلاميذ حتى توفى عام ٣٣٩ هـ[3].

لم يكن ابن صالح وعبد الله بن عيسى هما كل تلاميذ قالون بمصر ؛ فقد قدم مصر وسكنها بصفة نهائية كذلك القاضى المكى أبو بكر العمرى ، حفيد عمر بن الخطاب ، عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز (ت ٢٩٣ هـ) ؛ وكان قد روى الحروف سماعا عن قالون عن نافع وله عنه نسخة . ولعل هذا القاضى هو عبيد الله بن محمد العمرى الذى ولى قضاء مصر فى عهد خمارويه (٢٧٠ — ٢٨٢ هـ)[4] ؛ غير أن الذى يعنينا هو أنه جلس للإقراء فى مصر فسمعه محمد بن عبد الرحمن ابن محمد بن زيد أبو جعفر الأرزنانى الأصبهانى ثم البغدادى[5]. كما روى الحروف عنه إبراهيم بن عبد الرزاق العجلى الأنطاكى ت ٣٣٩هـ[6] .

حمل قراءة قالون إلى مصر إذن ثلاثة من تلاميذه المباشرين لتظل ظاهرة بها

---

(١) جامع البيان — ١٥ : ١٦٢ .   (٢) ابن الجزرى : غاية — ٢ : ٨٧ .

(٣) الذهبى : طبقات القراء : ٩٤ . ابن فرحون : الديباج : ٣١٦ . ابن الجزرى : ١ : ٤٤٠ ، ٢ : ٦٨ . السيوطى : حسن — ١ : ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٤) انظر : الكندى : القضاة : ٥١٩ .   (٥) ابن الجزرى : غاية — ٢ : ١٦٦ .

(٦) المصدرنفسه — ١ : ٤٩٢ .

منذ أواسط القرن الثالث حتى أواسط الرابع . وهو عمر قصير على أى حال . ولاشك فى أن المصريين قد استغنوا عنها بقراءة ورش كمثلة للمدرسة المدنية عرفوها وألفوها من قبل بزمن غير قصير .

مدرسة البصرة : ،

روى أبو زكريا يحيى بن سلام البصرى (ت ٢٠٠ هـ)الحروف عن أصحاب الحسن البصرى . وكان إلى جانب ذلك ثقة ثبتاً . ذا علم بالكتاب والسنة ، ومعرفة باللغة والعربية . وقد نزل المغرب وسكن إفريقية دهراً . فلما مر بمصر سمع منه العالم المصرى عبدالله بن وهب (ت١٩٧ هـ) ومثله من الأئمة. فإذا كانوا قد سمعوا منه — فيما سمعوا — الحروف فإنه يكون أول من مثل مدرسة البصرة فى القراءة بمصر [١] .

للقارئ البصرى الكبير أبى عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) تلاميذ كثيرون كان منهم : عبد الوارث (ت١٧٩ — ١٨٠ هـ)، وشجاع (ت ١٩٠ هـ)، ويحيى ابن المبارك اليزيدى (ت ٢٠٢هـ). وقد أصبح هؤلاء التلاميذ أساتذة كباراً يرأسون مدارس تناقلت بدورها قراءة الأستاذ الأكبر أبى عمرو . ومن الحق أن أحداً من هؤلاء لم يقدم مصر . غير أن تلاميذ كثيرين من مدارسهم جاءوا إليها يحملون معهم قراءة أبى عمرو . ولعل أول هؤلاء كان محمد بن يحيى بن المبارك القارئ اللغوى الأديب الشاعر الذى تتلمذ فى القراءة على أبيه اليزيدى . ولما كان محمد على صلة وثيقة بخلفاء بغداد — إذ كان يؤدب أولادهم — فقد حرص المعتصم على أن يستصحبه إلى مصر حين خرج إليها — وهو أمير بعد — فى جيش كبير من أتراكه فى شعبان ٢١٤ هـ لإخماد ثورات أهل الحرف العنيفة . وأدركت محمداً منيته فى مصر قبل أن يغادرها المعتصم أول عام ٢١٥ هـ . ولذا فإن من المشكوك فيه أن يكون محمد قد ترك أثراً من قراءته البصرية فى مصر فى تلك الفترة القصيرة التى قضاها بها[٢].

---

(١) ابن الجزرى : غاية — ٢ : ٣٧٣ . الداودى: طبقات المفسرين : ٢٣٨ — ٢٣٨ ظ .

(٢) الكندى : الولاة: ١٨٨ — ١٨٩ . ابن النديم : الفهرست : ٥٠ . ويلحظ أنه ذكر خطأ أن المعتصم خرج إلى المبيضة بمصر . الخطيب: ت . بغداد — ٣: ٤١٢ — ٤١٣ . ابن الأنبارى : نزهة : ٢٠٥ — ٢٠٦ . القفطى : إنباه — ٣ : ٢٣٦ — ٢٣٧ . ابن الجزرى : غاية — ٢ : ٢٧٧ . السيوطى : بغية : ٤١٤ — ٤١٥ .

أقام الإمام الكبير النسائي (ت ٣٠٣ هـ) في مصر منذ أواسط القرن الثالث حتى عام ٣٠٢ هـ . وقد أسهم في نقل قراءة البصريين إلى مصر إذ كان قد روى الحروف عن السوسي (ت ٢٦١ هـ)تلميذ يحيى اليزيدي . فرواها عنه المقرئ المشهور الحسن بن رشيق المصري الذي نقلها بدوره إلى القارئين :خلف بن إبراهيم المصري (ت ٤٠٢ هـ) ، وعبد الجبار الطرسوسي (ت ٤٢٠ هـ)[١] .

كان المقرئ المصدر المشهور الحاذق عبيد الله بن إبراهيم بن مهدى البغدادى (ت ٣٠٧ هـ) يعرف بالعَمْرى – بفتح العين – لأنه كان مخصوصاً بمعرفة قراءة أبي عمرو بن العلاء ، أخذها عرضا عن محمد بن غالب صاحب شجاع ؛ ورواها سماعا عن محمد بن شجاع البلخى عن اليزيدى ، وله فيها تصنيف حسن معلل . وقد نزل العمرى مصر ، وأصبح ينسب إليها ، وأقرأ بها فكان من تلامذته النحوى المصرى العباس بن أحمد الأزدى أستاذ أبي بكر الإدفوى . وعمر بن عراك (ت كلاهما في ٢٨٨ هـ) في القراءة[٢].

ومن تلاميذ اليزيدى كذلك كان القارئ المصرى أبو الصقر أحمد بن إسحق الباوردى الذى روى القراءة عن أبي العباس محمود بن محمد بن المفضل ، الرافقى الأنطاكى ، المعروف بالأديب ، صاحب السوسى الذى سمع منه الحروف بأنطاكية سنة ٣١٣ هـ وأخذ القراءة عرضا عنه مراراً[٣].

أما عبد الوارث (ت ١٧٩ – ١٨٠ هـ) فقد ظهر من تلامذته بمصر المقرئ المتصدر المشهور يموت بن المزرع (ت ٣٠٤ هـ) ابن أخت الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) وكان يموت – إلى جانب القراءة – أديباً نحوياً ، راوية إخبارياً ، محدثا حافظا ثقة . وكان كثير التردد على مصر ، قدمها مرات آخرها سنة ٣٠٣ هـ ، ثم خرج منها سنة ٣٠٤ هـ وسار إلى دمشق فمات بها . وتتلمذ في القراءة على يموت كثيرون كان من بينهم أبو بكر بن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) نفسه . أما بالنسبة إلى مصر فقد عرض

---

(١) ابن خلكان : وفيات – الميمنية – ١ : ٢١ . ابن الجزرى : غاية – ١ : ٢١٢ – ٢١٣ .
(٢) ابن الجزرى : غاية – ١ : ٤٨٤ .
(٣) ابن الجزرى : غاية – ١ : ٣٩ ، ٢ : ١

عليه عبد الله بن الحسين السامرى البغدادى نزيل مصر (ت ٣٨٦)[١].

أما شجاع (ت ١٩٠ هـ) فقد أشرنا منذ سطور إلى أن عبيد الله بن إبراهيم المعروف بالعمرى قد أخذ قراءة أبى عمرو عرضا عن محمد بن غالب صاحبه ، أى صاحب شجاع . ولما كان شجاع ، مثله مثل اليزيدى الذى روى عبيد الله قراءة أبى عمرو سماعا عنه . تلميذاً مباشراً لأبى عمرو فإن عبيد الله يكون قد مثل قراءة هذا الإمام البصرى فى مصر عن طريقين[٢].

ذكرنا منذ لحظة أن يموت بن المزرع روى قراءة أبى عمرو بمصر عن طريق عبد الوارث . ونضيف هنا أنه من المحتمل أن يكون يموت قد نقل إلى مصر قراءة أستاذ كبير آخر من كبار أساتذة البصرة هو يعقوب الحضرمى أحد العشرة (ت ٢٠٥هـ) ، فهو قد عرض على أبى حاتم السجستانى ، تلميذ يعقوب ، وأكثر روايته عنه[٣].

وهكذا تكون مدرسة البصرة قد مثلت فى مصر عن طريق تلاميذ ثلاثة من كبار أساتذتها هم : الحسن البصرى ، وأبو عمرو بن العلاء ، ويعقوب الحضرمى . على أن ذلك لم يكن كل شيء فقبل سنة ٢٤٧ هـ جاء إلى مصر رجل صالح فقيه محدث من البصرة يدعى أبا الرداد عبد الله بن عبد السلام ولى الأذان بالجامع العتيق . ولما بنى المتوكل المقياس الجديد سنة ٢٤٧ هـ بجزيرة مصر (الروضة حالياً) ، وأمر بعزل النصارى عنه ، جمع إلى أبى الرداد جميع النظر فى أمره وما يتعلق به مقابل سبعة دنانير فى كل شهر . ولم يزل أبو الرداد يلى هذا العمل حتى توفى عام ٢٧٩هـ ليظل باقيا فى ذريته من بعده . والذى يعنينا هو أن أبا الرداد هذا كان يعلم الصبيان القرآن ولذلك يعرف أيضاً بالمعلم . وأغلب الظن أنه أقرأ صبية الفسطاط وفقاً لقراءة مدرسة البصرة[٤] .

---

(١) ابن الأنبارى : نزهة : ٣٠٤ — ٣٠٥ . ياقوت : م . الأدباء — ١٦ : ٧٤، ٢٠ : ٥٧ — ٥٨ . ابن خلكان : وفيات — ميمنيه — ٢ : ٣٤٤ — ٣٤٥ — . ابن الجزرى : غاية ٢ : ٣٩٣ . ابن تغرى بردى : النجوم — ٣ : ١٩١ .

(٢) ابن الجزى : غاية — ١ : ٣٢٤ ، ٤٨٤ .

(٣) ابن الجزرى : غاية — ٢ : ٣٩٢ .

(٤) الكندى : الولاة : ٢٠٣ . ابن خلكان : وفيات — ميمنية — ١ : ٣٣٩ . ابن حجر : رفع الإصر : ١٤٤ — ١٤٥ . ابن تغرى بردى : النجوم — ٢ : ٣١٠ — ٣١١ . ويروى ابن خلكان أنه قيل إنه توفى سنة ٢٦٦ . ويذكر ابن حجر أن وفاته كانت فى ٢٨٦ هـ .

ويعد أبو الحسن علي بن جعفر البغدادى الذى سكن مصر ، والذى رآه سيبويه المصرى (ت ٢٥٨ هـ) يوم جمعة فى مسجد الفسطاط الجامع فأعجب بما يبدو عليه من صلاح ووقار ، من ممثلى مدرسة البصرة بمصر فى القرن الرابع . فهو قد روى القراءة عن أحمد بن القاسم بن نصر صاحب بشر بن هلال الذى روى القراءة عن بكار بن عبد الله بن يحيى البصرى تلميذ أبان بن يزيد البصرى تلميذ قتادة تلميذ أبى العالية ، هذا وقد روى القراءة عن أبى الحسن الحافظ الكبير الإمام محمد بن إسحاق بن مندة (ت ٣٩٥ هـ) عندما مر بمصر فى رحلته طلباً للعلم[1].

وأيًّا كان الأمر فإن قراءة أبى عمرو بن العلاء هى التى كان لها الحظ الأكبر فى تمثيل مدرسة البصرة بمصر حيث ظهرت فى أخريات القرن الثانى لتظل ظاهرة طوال القرن الثالث والنصف الأول — على الأقل — من الرابع .

مدرسة الكوفة :

اشتهر من قراء الكوفة عاصم (ت ١٢٧ هـ) وحمزة (ت ١٥٦ هـ) والكسائى (ت ١٨٩ هـ) الذين عدوا فيما بعد من القراء السبعة . وقد ظهر فى مصر قراء ينتمون إلى مدارسهم ويمثلونها . ولعل أقدم الكوفيين ظهوراً بمصر فى هذه المرحلة هو أبو الحسن على بن يزيد بن كيسة أضبط أصحاب سُليم بن عيسى الكوفى (ت ١٨٨ هـ) تلميذ حمزة . وقد نزل ابن كيسة مصر وأقام بها حتى توفى سنة ٢٠٢ هـ[2]. وتتلمذ عليه نفر من تلاميذ ورش . فعرض عليه داود بن أبى طيبة (ت ٢٢٣ هـ) وروى عنه حرف حمزة[3] . ورآه أبو الأزهر المتقى عبد الصمد بن عبد الرحمن (ت ٢٣١ هـ) يقرئ ، ولكنه روى حرف حمزة عن ابن أبى طيبة عنه . ويبدو أن أبا الأزهر أجاد قراءة حمزة إجادته قراءة نافع ، فقد جمع فى هاتين القراءتين كتابا بلغ من جودته أن حرص على سماعه منه — كما ذكرنا من قبل — تلميذاه الأندلسيان ابن بازى وابن وضاح[4]. ولم يأخذ يونس بن عبد الأعلى (ت ٢٦٤ هـ) القراءة فحسب

---

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى : ٥٢ . ابن الجزرى : غاية – ١ : ٥٢٩ ، ٢ : ٩٨ – ٩٩ . (٢) ابن الجزرى : غاية – ١ : ٥٨٤ .

(٣) الذهبى : طبقات القراء : ٥٧ . ابن الجزرى : غاية – ١ :

(٤) ابن الجزرى : غاية – ٢٣١ ، ٣٨٩ و ٢ : ٢٧٥ .

عن ابن كيسة ؛ بل تعلم عليه رسم المصحف كذلك ؛ فهو يروى أن ابن كيسةقال له إن « عن ما نهوا عنه » (الأعراف : ١٦٦) تكتب « عن » حدها و « ما » وحدها ، وكذلك فى « إن ما توعدون » (الأنعام : ١٣٤). الذاريات : ٥ . المرسلات: ٧) تكتب « إن » وحدها و « ما » وحدها، وليس فى القرآن غيرها[1] .

وجدير بالذكر أن ابن جرير الطبرى أخذ قراءة حمزة للمرة الثانية —وكان قد أخذها فى العراق من قبل على سليمان بن عبد الرحمن الطمحى الكوفى ت ٢٥٢هـ — عن يونس عن ابن كيسة عن سليم عنه لما دخل مصر سنة ٢٥٣ هـ فى نفس الوقت الذى أخذ فيه عنه قراءة ورش عن نافع على ما بينا من قبل[2]. وكذلك أخذ قراءة حمزة عن يونس أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن الذى يغلب على الظن أنه مصرى ؛ والذى روى الحروف عنه أحمد بن يعقوب بن التائب الأنطاكى ت ٣٤٠ هـ[3] .

أما عاصم (ت ١٢٧ هـ) فلعل أول من مثل قراءته فى مصر هو أحمد بن صالح (ت ٢٤٨ هـ) الذى كان فى نفس الوقت من رجال مدرسة ورش ، فقد روى حرف عاصم عن حَرَمىّ بن عمارة البصرى عن أبان بن يزيد البصرى العطار (ت بعد ١٦٠ هـ) عنه[4]. ولما كان أبو جعفر الرشدينى أحمد بن محمد بن الحجاج (ت ٢٩١ هـ) قد قرأ على أحمد بن صالح فلعله قد سمع منه قراءة حمزة[5]. على أن من الحق أن قراءة عاصم قد مثلت أقوى ما تكون فى مصر عن طريق تلميذه أبى بكر بن عياش (ت ١٩٤ هـ)الذى ظهر بعض تلاميذه فى مصر. ولعل أهم تلاميذ ابن عياش كان أبا سعيد يحيى بن سليمان الجعفى الكوفى (ت٢٣٧ هـ) شيخ البخارى الذى انتقل إلى مصر فسكنها نهائياً . وكان قد روى القراءة عن ابن عياش وله عنه نسخة ، فرواها عنه فى مصر تلميذه أبو الزنباع

---

(١) الدانى : المقنع : ٦٧ . ابن خلكان : وفيات – نهضة – ٦ : ٢٤٧ . ابن الجزرى : غاية – ٢ : ٤٠٦ .

(٢) ياقوت: م. الأدباء – ١٨ : ٦٦ – ٦٧ .

(٣) ابن الجزرى : غاية – ٢ : ١٦٩ .

(٤) الذهبى طبقات القراء : ٥٩ . ابن الجزرى : غاية – ١ : ٦٢ .

(٥) ابن الجزرى : غاية – ١ : ١٠٩ .

روح بن الفرج الفقيه المالكى المصرى (ت ٢٨٢ هـ)[١]. وعن أبى الزنباع روى الحروف محمد بن أحمد بن الهيثم التميمى الذى يعرف بفروجة ، والذى ترك مصر إلى بغداد فنزلها حيث روى الحروف عنه ابن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ)[٢]. ومن تلاميذ الجعفى أيضاً كان أبو جعفر الرشدينى ، فقد سمع منه الحروف[٣] . وهذا يقوى أنه إنما قرأ على ابن صالح حرف عاصم . وعن الرشدينى روى حرف عاصم المقرئ الفقيه المتكلم أبو الحسن الفارسى أحمد بن بهزاذ (ت٣٤٤ هـ) الذى نزل مصر وسكنها[٤]. وممن روى حرف عاصم من طريق ابن عياش عبد الله بن أحمد البزاز البغدادى نزيل مصر الذى روى حروف الأعشى الكوفى (ت فى حدود المائتين) عن أبى بكر سماعا من غير عرض عن الحسن بن داود النقار (ت قبل ٣٥٠هـ)[٥] . وعن البزاز روى القراءة فارس بن أحمد الحمصى الضرير نزيل مصر (ت ٤٠١هـ)[٦].

أما الكسائى (ت ١٨٩ هـ) فقد روى الثقة العارف المعدل عبد الله بن أحمد ابن ذى زوية الدمشقى ، نزيل مصر ، (ت قبل ٣٤٠ هـ) ، حروفه عن جعفر بن محمد النصيبى عن الدورى عنه[٧]. وكذلك كان عبد الله بن أحمد البزاز ممن رووا قراءة الكسائى بمصر ، فقد رواها عن إسماعيل بن شعيب النهاوندى عن قتيبة عنه[٨].

وهكذا ظلت مدرسة الكوفة ظاهرة فى مصر بوضوح طوال القرنين الثالث والرابع . وكان لقراءة عاصم الحظ الأكبر فى تمثيلها .

مدرسة بغداد :

يلفت النظر فيما مر من مدارس القراءة التى ظهرت بمصر أن بعض القراء المصريين لم يقتصروا على قراءة بعينها ، فقد جمع بعضهم بين قراءة ورش وقراءة حمزة : (محمد بن عبد الرحمن ، داود بن أبى طيبة ، عبد الصمد بن عبد الرحمن ،

---

(١) ابن الجزرى: غاية — ٢ : ٢٧٣ . ابن حجر : ت . التهذيب — ١١ : ٢٢٧ .
(٢) الخطيب : ت . بغداد — ١ : ٣٧٠ . ابن الجزرى: غاية — ٢ : ٩٠ .
(٣) ابن الجزرى : غاية — ١ : ١٠٩ .
(٤) ابن أبى الوفاء : الجواهر المضية — ١ : ٦٧ — ٦٨ . ابن الجزرى : غاية — ١ : ٤١ .
(٥) ابن الجزرى : غاية — ١ : ٤٠٧ . (٦) المصدر نفسه — ٢ : ٥ — ٦ .
(٧) المصدر نفسه — ١ : ٤٠٦ . (٨) المصدر نفسه — ١ : ٤٠٧ .

يونس بن عبد الأعلى) . وجمع آخرون بين قراءة ورش وقراءة عاصم : (أحمد بن صالح) . فى حين جمع غير هؤلاء وهؤلاء بين قراءة ورش وقراءة المكيين : (عبد الباقى بن عين الغزال) .

ويبدو أن ميل القارئ إلى الجمع بين قراءة إقليمه وقراءة إقليم آخر أو أكثر كان اتجاها قد بدأ يسود منذ القرن الثالث الهجرى نتيجة لتنقل القراء بين البلاد الإسلامية ، واتصالهم بعضهم ببعض . وتبادلهم الجلوس إلى الشيوخ مما لفتهم إلى الاهتمام بالقراءات المختلفة وجمعها ودراستها . فلم يقتصر أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) على شيوخه البصريين وإنما أخذ القراءة كذلك عن شيوخ من مكة ومن المدينة[١]. وكان هارون بن موسى الأعور (ت ١٧٠ – ١٨٠ هـ) أول من سمع بالبصرة وجوه القراءات المختلفة ، وبحث فيها بحث نقد وتمحيص ، وتلمس وجوه النظر التى علت بها ، وتتبع الشاذ منها ، وفحص طرق الإسناد التى تعتمد عليها غرائب القراءات فحصاً دقيقاً[٢].

وأخذ الكسائى القراءة عن حمزة الزيات وقرأ عليه القرآن أربع مرات ، ثم دخل البصرة وأخذ عن الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) . ثم اختار لنفسه قراءة حملت عنه وعرفت به ، ، واستوطن بغداد[٣] . وكان نصير بن يوسف البغدادى (ت ٢٤٠ هـ) عالما بمعنى القراءات ونحوها ولغتها[٤] . ورحل أبو عمرو الدورى البغدادى (ت ٢٤٠ هـ) فى طلب القراءات . وهو أول من جمعها . وقد قرأ بسائر الحروف السبعة وبالشواذ ، وسمع من ذلك شيئاً كثيراً . وقد رويت القراءات العشر عن طريقه[٥] . وإذا كان الدورى هو أول من جمع القراءات فإن أبا حاتم السجستانى البصرى (ت ٢٥٥ هـ) هو أول من صنف فيها ، فله كتاب القراءات الكبير[٦]. وتوالى بعد أبى حاتم التأليف فى هذا الموضوع فصنف إسماعيل بن إسحاق الأزدى البغدادى (ت ٢٨٢ هـ) شيخ ابن مجاهد كتابا فى

---

(١) الدانى : التيسير : ٨ . ابن الجزرى : غاية ١ : ٢٨٨ ، النشر – ١ – ١٣٣.

(٢) ابن الجزرى غاية ٢ : ٣٤٨ . جولد تسيهر : 'اهب التفسير : ٥٥ : – ٥٦ .

(٣) ابن حجر : ت . التهذيب – ٧ : ١٣ .

(٤) ابن الجزرى : غاية : ٢–٢٤١ .

(٥) المصدر نفسه – ١ : ٢٥٥ والنشر – ١ : ١٣٢ .

(٦) ابن الجزرى : غاية – ١ : ٣٢٠ . بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ٢ : ١٦١.

القراءات جمع فيه قراءة عشرين إماما[١] . ولثعلب ، النحوى البغدادى ت ٢٩١ هـ ، كتاب فى القراءات كذلك[٢] . كما صنف هارون الأخفش الدمشقى (ت ٢٩٢ هـ) كتبا كثيرة فى القراءات إلى جانب مؤلفاته فى النحو[٣] . وقد تحدثنا فيما مر[٤] عن الكتاب الكبير الذى ألفه ابن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ) فى القراءات . فلما كان ابن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) درس القراءات كلها ، واختار منها القراءات السبع المشهورة ، وألف كتابا فى كل منها إلى جانب كتاب آخر فى قراءة النبى وكتابين أحدهما بعنوان: كتاب القراءات الكبير ، والآخر بعنوان : كتاب القراءات الصغير[٥].

من الواضح أن معظم هؤلاء القراء وأهمهم ببغداد يدل مما يدل على أن الاتجاه إلى جمع القراءات ودراستها والاختيار من بينها ظهر كأقوى ما يكون فى بغداد. والعاصمة دائماً هى المصب الذى تتلاقى فيه كل التيارات وتتفاعل جميع الاتجاهات. ويلفت النظر أن الدراسات النحوية العربية عرفت هذه الظاهرة فى نفس الوقت تقريبا . فمنذ القرن الثالث الهجرى أخذت المدرستان المتنافستان فى البصرة والكوفة تتقاربان وتندمجان إحداهما فى الأخرى باطراد. وسرعان ما غدت بغداد ، حاضرة الخلافة اللامعة ، مركزاً للحياة العقلية كافة ، وحجبت غيرها من مدن الأقاليم وراء ظلالها. ومنذ القرن الرابع أخذت مدرسة بغداد النحوية تحاول التوفيق بين مدرسة البصرة النظرية التى كانت تعنى بملاحظة الظواهر النحوية وتؤثر التعمق فى النكات والدقائق النحوية ، وبين مدرسة الكوفة العملية التى كانت تعنى بجمع اللغات والنصوص متجهة إلى واقع الاستعمال اللغوى وفروق اللغة وتعبيرات أهل البادية فى أشعار الجاهلية ونحوها وما يتطلبه سبر أغوار ذلك من تتبع واستقراء عمليين[٦].

علينا الآن أن نتتبع فى مصر الاتجاه إلى الجمع بين القراءات— وقد أشرنا إلى

---

(١) ابن الجزرى : غاية — ١ : ١٦٢ .
(٢) المصدر نفسه ١ : ١٤٨ .
(٣) المصدر نفسه ٢ : ٣٤٧ — ٣٠٤٨ .
(٤) انظر ص ٢٣٠ من هذا البحث .
(٥) ابن النديم : الفهرست : ٣١ . ابن الجزرى : غاية — ١ : ١٣٩ .
(٦) بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ١٢٥ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٢١ .

بوادره فيها منذ قليل — ودراستها والاختيار بينها . ولما كانت مدرسة بغداد قد ظهرت نتيجة لممارسة هذا الاتجاه الذى ظل السمة المميزة لها فإننا نفعل أكثر من تتبع مدرسة بغداد — مثلها مثل المدارس السابقة عليها — فى مصر .

ربما كان أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) أول من مثل مدرسة بغداد فى مصر عندما قدمها سنة ٢١٣ هـ مع الإمام الحافظ يحيى بن معين (ت ٢٣٣ هـ). وقد تتلمذ أبو عبيد فى القراءة على أساتذة من البصرة والكوفة وبغداد ودمشق والمدينة. وله فى علوم القرآن مؤلفات منها كتاب جيد فى القراءات ليس لأحد من الكوفيين قبله مثله. ولم يقتصر أبو عبيد فى القراءات على الدراسة النظرية فقد كان له اختيار فى القراءة وافق فيه العربية والأثر . ومن المهم أنه كتب فى مصر وحكى عنه[1].

روى أبو الحسن البغدادى محمد بن محمد بن عبد الله بن النفاح الحروف عن القارئ البغدادى الكبير أبى عمرو الدورى سنة ٢٤٤ هـ ، ويقال إنه عرض عليه . ثم سافر إلى الشام فكتب بها . ثم دخل مصر حوالى سنة ٢٥٠ هـ فاستوطنها، وظل بها حتى مات سنة ٣١٤ هـ بعد أن روى القراءة عنه عدد من المصريين[2].

فى سنة ٢٩٣ هـ دخل مصر ليلى قضاءها الفقيه الشافعى البغدادى ابن حربويه على بن الحسين بن حرب (ت ٣١٩ هـ) الذى وصفه المؤرخ ابن يونس (ت٣٤٩هـ) بأنه «كان شيئاً عجباً، ما رأينا مثله قبله ولا بعده » . كما شهد له المؤرخ المصرى الآخر ابن زولاق (ت٣٨٧ هـ) والفقيه المصرى منصور بن إسماعيل (ت٣٠٦ هـ) بأنه عالم القراءات. ولم يحبس ابن حربويه نفسه داخل عمله القضائى بل اتصل بالمصريين اتصالا علمياً وثيقاً، فكان له فى كل عشية مجلس يذاكر فيه رجلا من أهل العلم ويخلو به. وليس مايمنع من أن القراءات كان لها مكانها فى تلك المذاكرات التى ظل القاضى البغدادى يمارسها حتى صرف عن القضاء بناء على رغبته فى آخر ٣١١ هـ[3].

---

(١) ابن النديم: الفهرست: ٧١ . الخطيب : تاريخ بغداد ١٢ : ٤٠٤ — ٤٠٥ . الذهبى . طبقات القراء : ٥٢ — ٥٣ . ابن الجزرى : غاية — ٢ : ١٧ — ١٨ .

(٢) الخطيب : ت . بغداد ٣ : ٢١٤ . الذهبى : طبقات القراء : ٧٦ . ابن الجزرى : غاية — ٢ : ٢٤٢ ، ٢٥٨ .

(٣) الخطيب : ت . بغداد — ١١ : ٣٩٥ — ٣٩٨ . السبكى : طبقات الشافعية — ٢ : ٣٠١— ٣٠٣ . ابن حجر : ت . التهذيب — ٧ : ٣ ورفع الإصر : ٢٨٩ وما بعدها .

فى سنة ٣٠٤ هـ قدم مصر أبو عبد الله الديباجى التسترى محمد بن سعيد بن عبد الرحمن تلميذ القارئ البغدادى بن زهير بن حرب (ت٢٧٩هـ). وكان التسترى من أهل الورع ، ثقة ، مأمونا . وقد حدث بمصر وأقرأ بها حتى توفى عام ٣٢٠ هـ[1] .

بالرغم من أن عبيدالله بن إبراهيم العمرى البغدادى نزيل مصر (ت٣٠٧هـ) كان متخصصاً فى قراءة أبى عمرو وعد من ممثلى مدرسة البصرة بمصر ، فإن له أن يعد من ممثلى مدرسة بغداد بها كذلك لأنه قد روى عن القارئين البغداديين : ابن شنبوذ ت ٣٢٨ هـ ، وأبى الحسين بن المنادى ت ٣٣٦ هـ[2].

كان أبو بكر الرازى أحمد بن محمد بن شبيب الذى نزل مصر وترفى بها عام ٣١٢ هـ شيخاً كبيراً ، مقرئا متصدراً مشهوراً ، مشاراً إليه بالضبط والتحقيق والإتقان والحذق . ويعنينا هنا أنه أخذ القراءة التى مارسها فى مصر عن شيوخ من مدارس البصرة والكوفة ومكة والمدينة وبغداد[3].

كان أبو الحسن على بن بشر الأنطاكى ، الذى أقام بمصر وأقرأ بها منذ دخلها عام ٣٣٨ هـ حتى خرج منها إلى الأندلس عام ٣٥٢ هـ ، قد تتلمذ على عدد من الأساتذة البغداديين ، وأصبح إماما حاذقاً ، مسنداً ثقة ضابطا ، قد أجاد القراءات كلها حتى أصبح رأسا فيها لايتقدمه أحد فى معرفتها فى وقته[4].

نزل مصر وأقام بها المقرئ الإمام أبو الفتح البغدادى أحمد بن عبد العزيز بن بَدْهَن الذى تتلمذ على كبار البغداديين ، وحذق ومهر ، وطال عمره واشتهر . وظل ابن بَدْهَن يقرئ بمصر حتى توفى بها عام ٣٥٩هـ[5] .

محمد بن عبد الله بن أشْتَه ، أبو بكر الأصبهانى ، أستاذ كبير ، وإمام شهير ، ونحوى محقق ثقة ، عالم بالعربية ، بصير بالمعانى ، صاحب سنة ، حسن التصنيف .

---

(١) ابن الجزرى : غاية - ٢ : ١٤٤ . وذكر اسم شيخه أحمد بن زهير خطأ ، والصحيح ما أثبتناه .

(٢) المصدر نفسه - ١ : ٤٨٤ .

(٣) الذهبى : طبقات القراء ٨٢-٨٣ . ابن الجزرى : غاية - ١ : ١٣٢ والنشر - ١ : ١٧٤ - ١٧٥ ، ١٧٩ . السيوطى : حسن - ١ : ٢٠٨ .

(٤) الذهبى : طبقات : ١٠٧ . ابن الجزرى : غاية - ١ : ٥٦٤ - ٥٦٥ ، ٤٩٩ .

(٥) الخطيب : ت . بغداد - ٤ : ٢٥٧ . الذهبى : طبقات القراء : ٩٨ . ابن الجزرى : غاية - ١ : ٦٨ . السيوطى : حسن - ١ : ٢٠٨ .

وهو صاحب كتاب المصاحف الذى يقف على قدم المساواة مع كتاب ابن أبى داود السجستانى (ت ٣١٦ هـ) والذى ما يزال مفقوداً حتى الآن فيما عدا نقول متفرقة منه سجلها السيوطى فى كتاب الإتقان. والذى يعنينا هو أن أشته قد قرأ على كبار أساتذة بغداد ، وصنف فى القراءات ، وله كتاب اسمه « المفيد » فى القراءات الشاذة . ثم إنه قدم مصر ، وسكنها ، وأقرأ بها حتى توفى عام ٣٦٠ هـ[١].

وفى عام ٣٧٠ هـ توفى بمصر القارئ البغدادى الماهر المكثر أبو الفتح ابراهيم بن على ابن إبراهيم سيبخت الذى كان قد نزل مصر من قبل[٢].

أخذ المقرئ محمد بن الحسن بن على بن طاهر الأنطاكى القراءة عرضا وسماعا عن إبراهيم ابن عبد الرزاق الأنطاكى (ت ٣٣٩ هـ). وأصبح من أعلام القرآن . ثم قدم مصر فأقرأ بها ، وسمعوا عليه كتابه فى القراءات الثمانية ، وقبل سنة ٣٨٠ هـ خرج من مصر عائداً إلى الشام فمات فى الطريق[٣] .

كان المقرى عبد الباقى بن الحسن بن أحمد بن السقا ، الخراسانى الأصل ، الدمشقى المولد ، أحد الحذاق ، خيّراً فاضلا ، ثقة مأمونا ، إماما فى القراءات ، عالما بالعربية ، بصيراً بالمعانى ، وقد سافر إلى الأمصار ، ومن بينها بغداد ، فى طلب القراءات . فلما حصل الروايات ورجع إلى دمشق يقرئ بها حصل بينه وبين شيوخها اختلاف ، فتعصب له قوم وتعصب آخرون عليه حتى تطاول بعضهم إلى بعض . فخرج إلى مصر ، وجلس للإقراء بها فقامت له بها رئاسة عظيمة ، إذ عرف المصريون قدره ، واعترفوا له بفضله[٤] .

وفى سنة ٣٨٦ هـ توفى غزوان بن القاسم نزيل مصر الذى كان قد أخذ القراءة عرضاً عن شيوخ العراق ومصر ، وكان مقرئاً حاذقا ، محرراً ماهراً ضابطا ، شديد الأخذ ، واسع الرواية ، حافظا للحروف[٥].

---

(١) الذهبى : طبقات القراء: ١٠٠ . ابن الجزرى : غـ — ٢ : ١٨٤ . السيوطى : بغية ٥٩ .
(٢) ابن الجزرى : غاية — ١ : ١٩ .
(٣) الذهبى : طبقات القراء : ١٠٨ . ابن الجزرى : غاية — ٢ : ١١٨ .
(٤) الذهبى : طبقات القراء : ١١٢ . ابن الجزرى : غاية — ١ : ٣٥٦ — ٣٥٧ .
(٥) الذهبى : طبقات القراء . ١٠٤ . ابن الجزرى : غـ — ٢ : ٣ .

وفى العام نفسه توفى عبد الله بن الحسين بن حسنون المقرئ البغدادى اللغوى ، المشهور الضابط الثقة المأمون ، الذى أخذ القراءة عن مجموعة من كبار الأساتذة . ثم نزل مصر وسكنها ، وأقرأ بها ، وأصبح مسند القراء بها فى وقته . وقال بعضهم إنه قرأ عليه بمصر ختمات كثيرة بروايات عدة . غير أن أيام ابن حسنون طالت فاختل حفظه ، ولحقه الوهم ، وقل من ضبط عنده ممن قرأ عليه فى أخريات أيامه[1] .

عبد المنعم بن عبيد الله بن غلبون ، أبو الطيب الحلبى ، أستاذ ماهر ، كبير كامل ، محرر ضابط ، ثقة خير ، صالح دين ، مقرئ محقق ، ذو عفاف ونسك ، وفضل وحسن تصنيف روى ابن غلبون هذا القراءة عرضا وسماعاً عن عدد كبير من الأساتذة الكبار . ثم انتقل إلى مصر فسكنها . « وألف كتاب الإرشاد فى السبع . وكان الوزير الإخشيدى جعفر بن الفضل (ت ٣٩١ هـ) معجباً به ، وكان يحضر عنده المجلس مع العلماء إذ كان ابن الفضل عالماً محباً للعلماء . وأقرأ ابن غلبون بمصر حتى مات بها سنة ٣٨٩ هـ[2] .

وكان محمد بن أحمد بن على بن حسين ، أبو مسلم الكاتب ، مسنداً عالى السند ، روى القراءات عن ابن مجاهد ومحمد بن أحمد بن قطن القارئين البغداديين الكبيرين ، ثم نزل مصر وأقرأ بها حتى مات فيها سنة ٣٩٩ هـ[3] .

أولئك كانوا أهم ، إن لم يكونوا كل ، القراء الذين مثلوا مدرسة بغداد فى مصر . ويلحظ أنهم جميعاً — فيما عدا القاسم بن سلام وعلى بن بشر الأنطاكى — قد تمصروا إذ سكنوا مصر ، وأقاموا بها نهائياً ، وأصبحوا ينسبون إليها . ولكنهم ظلوا فى نفس الوقت يرفعون لواء مدرسة بغداد التى تظهر ساطعة فى مصر طوال القرنين الثالث والرابع لتجذب إليها نفراً من القراء المصريين أخلص بعضهم نفسه لها إخلاصاً ، وزاوج بعضهم الآخر بينها وبين مدرسة ورش المحلية . فمثلما روى القارئ المصرى عمر بن الليث الخولانى قراءة ورش عن الأستاذ المصرى أحمد بن

---

(١) الخطيب : ت : . بغداد ٩ : ٤٤٢ — ٤٤٣ . الذهبى : طبقات القراء : ١٠٢ — ١٠٣ . ابن الجزرى : غاية — ١ : ٤١٥ ، ٤٢٧ .

(٢) ابن خلكان : وفيات — نهضة — ١ : ٣٠٦ . الذهبى : طبقات القراء : ١١١ — ١١٢ . ابن الجزرى : غاية — ١ : ٤٧٠ — ٤٧١ .

(٣) الذهبى : طبقات القراء : ١١٣ . ابن الجزرى : غاية — ١ :

هلال (ت ٣١٠ هـ) سمع الحروف من يعقوب بن صالح عن علي بن عبد العزيز البغوى (ت ٢٨٧ هـ) أجل أصحاب القاسم بن سلام[١] . وتتلمذ العباس بن أحمد الأزدى المصرى على أحمد بن شبيب الرازى (ت ٣١٢ هـ) تلميذ الفضل بن شاذان (ت حوالى ٢٩٠هـ) الذى قرأ على وروى عن كثير بن مختلفين[٢] . وروى الفقيه المصرى الكبير ، رئيس الأحناف بمصر ، أبو جعفر الطحاوى (ت ٣٢١هـ) القراءة عن موسى بن عيسى عن خلف البغدادى ت ٢٢٩ هـ[٣] . ثم رواها عن الطحاوى تلميذه هشام بن محمد بن قرة المصرى[٤] . وأخذ أبو القاسم المصرى عبيد الله بن محمد القراءة عن ابن مجاهد[٥] ومن ابن مجاهد أيضًا سمع الحروف القارئ المصرى المظفر بن حمدان (ت ٣٣٣ هـ) الذى لم يشأ أن يقتصر على قراءة ورش ، والذى بلغ من معرفته بالقراءات أن ألف كتابًا فى اختلاف السبعة[٦] . ورحل العالم المصرى العظيم أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ) إلى بغداد فسمع كبار أساتذتها ، ثم رجع إلى مصر فقرأ على أساتذتها كذلك ومن بينهم قراءة ورش[٧] . ويوصف سيبويه المصرى (ت ٣٥٨ هـ) بأنه كان يحفظ القرآن ، ويعلم كثيرًا من معانيه وقراءاته وغريبه وإعرابه وأحكامه . ومن المحتمل — إذا صح ذلك — أن يكون قد قرأ على أبى جعفر الطحاوى وعلى الإمام النسائى الذى عاش بمصر منذ عام ٢٦٤ هـ على الأكثر حتى ٣٠٢ هـ وكان قد روى القراءة عن أساتذة ينتمون إلى مدارس مكة والبصرة والكوفة[٨] . ومثلما عنى أبو عدى المصرى عبد العزيز بن على بن أحمد المعروف بابن الإمام (ت ٣٨١ هـ) ، بقراءة ورش روى الحروف عن تلاميذ القاسم بن سلام[٩] .

---

(١) ابن الجزرى : غاية — ١ : ٥٩٥ — ٥٩٦ .
(٢) المصدر نفسه — ١ : ٣٥٢ ، ٢ : ١٠ . (٣) المصدر نفسه — ١ : ١١٦ .
(٤) المصدر نفسه — ٢ : ٣٥٦ . (٥) المصدر نفسه — ١ : ٤٩٣ .
(٦) المصدر نفسه — ٢ : ٣٠١ . السيوطى : حسن — ١ : ٢٠٨ .
(٧) ابن الأنبارى : ‍ ‍ : ٣٦٣ — ٣٦٤ . القفطى : إنباه — ١ : ١٠١ وما بعدها . ابن خلكان : وفيات — نهضة — ١ : ٨٢–٨٣ . السيوطى: بغية : ١٥٧ . الداودى: طبقات المفسرين : ٢٩ — ٣٠ .
(٨) ابن زولاق : أخبار سيبويه : ١٧ — ١٨ . ياقوت : معجم الأدباء — ١٩ : ٦١ . ابن الجزرى : غاية — ١ : ٦١ . السيوطى : بغية : ١٠٨ .
(٩) الذهبى : طبقات القراء : ١٠٨ . ابن الجزرى : ‍ ‍ — ١ : ٣٩٤ .

أما بعد – فها قد آن لنا أن نصل إلى آخر المطاف الذى بدأناه مع القراءة والقراء فى مصر منذ أن دخلها القرآن مع العرب الفاتحين . وقد رأينا كيف كان القراء الأول يقرأ كل منهم قراءته الخاصة وفق مصحفه الخاص . فلما وحد عثمان المصحف كان عليهم أن يدعوا هذه القراءة الحرة إلى النص الموحد . غير أن هذا النص كان بحكم خلوه من الشكل والإعجام يتيح الفرصة لاختلاف القراءة فى نطاق رسمه . وهنا دخلت القراءة مرحلة الاختيار التى أفضت إلى نشوء مدارس القراءة فى الأمصار . واتصلت مصر بهذه المدارس : أواتصلت هى بمصر ، اتصالا تفاوت قوة وضعفاً ولكنه كان أقوى ماكان بالنسبة إلى مدرسة المدينة التى لم تلبث حتى تفوقت على سائر المدارس فى مصر . غير أن تفاعل هذه المدارس قد أدى بدوره إلى نتيجة هامة هى ظهور المدرسة المصرية نفسها كنتيجة طبيعية للاختيار بين المدارس المتصارعة . وبالرغم من أن المدرسة المصرية انبثقت عن مدرسة المدينة ، أوكانت مجرد امتداد لها ، فإنها لم تلبث حتى استقلت بذاتها ، واستكملت مقوماتها على يد القراء المصريين النشطين بتزعمهم ورش . وبلغت هذه المدرسة من النضج والحيوية حداً جعلها تغزو البيئات الأخرى منتشرة شرقاً وغرباًفى أرجاء العالم الإسلامى حيث أصبحت قراءة ورش خير سفير لمصر ؛ غير أن هذا لم يكن كل شىء إذن بالرغم من أن مصر قد صدرت قراءتها إلى الخارج فإنها لم تتردد فى استقبال القراءات الأخرى ؛ بل كانت من رحابة الصدر بحيث استطاعت قراءات مدارس الحجاز والعراق أن تجد لنفسها مكاناً على ألسنة أصحابها الأصليين أو ألسنة المصريين أنفسهم . غير أنه لكى يكتمل تتبعنا للقراءة فى مصر يبقى علينا أن نبحث فى نشاط القراء فى غير الفسطاط ، فإن كل ماسبق يتعلق فى الواقع ببيئة الفسطاط التى كانت ، بما هى العاصمة ، تمثل أكبر مركز للنشاط الثقافى بما فيه القراءات ، فى مصر .

٨ – القراءة فى الأقاليم

فى تاريخ غير معروف خرج إلى الإسكندرية مرابطاً – لأنه كان يعتقد أنها خير سواحل المسلمين رباطاً – التابعى المدنى الجليل عبد الرحمن بن هرمز الأعرج الذى تصوره الرواية شخصية علمية لها وزنها . فهو عالم بالعربية ، بل

إنه أول من وضع العربية بالمدينة على الأقل[1] . وهو عالم بأنساب العرب أو أنساب قريش على الأقل أيضاً . وهو أحد من برز فى السنة . وكان معظم روايته عن أبى هريرة . وهو فى الجملة وافر العلم مع الثقة والأمانة . أما فيما يتعلق بالقرآن فهو قد أخذ القراءة عرضا عن الصحابيين الكبيرين : أبى هريرة ت ٥٨ هـ وابن عباس ت ٦٨ هـ . وعن التابعى المدنى عبد الله بن عباس (ت بعد ٧٠ هـ) أقرأ أهل المدينة . وكان يكتب المصاحف . وأصبح أحد شيوخ نافع الذى روى القراءة عنه عرضا . وقد ظل ابن هرمز يحتفظ بذكرى الأيام المجيدة السالفة عندما كان القارئ يقرأ سورة البقرة فى رمضان فى ثمان ركعات فإذا قام بها فى اثنتى عشرة ركعة رأى الناس أنه قد خفف . وقد سجل الكرمانى فى شواذه عدداً كبيراً جداً من قراءته . غير أنه يذكره مرة باسم ابن هرمز ومرة بلقبه الأعرج مما يؤدى إلى الخلط بينه وبين القارئ المكى حميد بن قيس (ت ١٣٠ هـ) الذى كان يحمل نفس اللقب . وأيّاً كان الأمر فإن ابن هرمز قد ظل مقيماً بالإسكندرية حتى توفى بها سنة ١١٧ هـ . وقد حدث عنه عبد الله بن لهيعة (ت ١٧٤ هـ) . ولكن لابد أنه على أقل تقدير قد نقل شيئاً من القراءة المدنية إلى الإسكندرية[2] .

كان أبو سلامة الإسكندرانى زياد بن يونس بن سعد الحضرمى (ت ٢١١ هـ) محدثاً ثقة ، ثبتاً ، مستقيم الحديث . يكفى أن يونس بن عبد الأعلى تلميذ له . وكان شديد الاجتهاد فى طلب العلم حتى سموه : «سوسة العلم» . والذى يعنينا هو أنه قرأ القرآن على نافع مثلما روى عنه . وبالرغم مما يبدو من أن الحديث هو هدف ابن سلامة الأول فليس يبعد أنه روى شيئاً من قراءة نافع بالإسكندرية[3] .

يقال إن القاسم بن كثير بن النعمان الإسكندرانى (ت قريباً من ٢٢٠ هـ) كان من أهل العراق أصلا ثم سكن الإسكندرية ، غير أن المؤرخ المصرى

---

(١) وصفه تلميذه نافع بأنه لم يكن عالماً بالعربية . ويقرر صاحب نزهة الألباء أن مازعمه قوم من أنه أول من وضع النحو ليس بصحيح .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان . ابن الأنبارى : نزهة : ١٣ ، ١٨ - ١٩ . الذهبى : طبقات القراء : ١٩ . ابن الجزرى : غاية - ١ : ٣٨١ . ابن حجر : ت . التهذيب - ٦ : ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٣) ابن حجر : ت . التهذيب - ٣ : ٣٨٩ .

ابن يونس يرى أنه مصرى . وأيًّا كان الأمر فهو محدث صالح ثقة ، أقام بالإسكندرية وولى قضاءها . ويعنينا أن أبا عمرو الدانى ذكر أنه كان من متصدرى القراء بمصر . وربما كان فى القول بأنه من أهل العراق مايعطينا الحق فى افتراض أنه قرأ بقراءتهم[١] .

كان أبو على الإسكندرانى محمد بن القاسم بن يزيد مقرئًا مجتهداً ، سافر إلى الشام سنة ٢٤٠هـ فأخذ القراءة عن مقرئها الكبير عبد الله بن ذكوان الدمشقى (ت ٢٤٢ هـ) . ولما جاء الحسن بن سعيد الفارسى المطوعى (ت ٣٧١ هـ) إلى مصر يتتلمذ على أساتذتها فى القراءة سافر إلى أبى على فى الإسكندرية سنة ٢٩٨هـ وروى القراءة عنه عرضا . ويلحظ أن هذا القارئ السكندرى مثال نادر لتتلمذ المصريين على أساتذة الشام[٢] .

وفى سنة ٣٤٥ هـ توفى أبو القاسم البلوى الإسكندرى عبد الرحمن بن عمر ابن عثمان الذى وصفه الدانى بأنه مقرئ متصدر[٣] .

ليست الإسكندرية سوى ثغر من ثغور مصر ، ولذلك نتتبع القراءة فى الثغور .

كان حبيب بن إسحق القرشى الدمياطى قارئاً مصدراً ، قرأ على عبد الصمد وداود عن ورش ، وقرأ عليه أبو يحيى زكريا بن يحيى الأندلسى[٤] . ولكن لا شك فى أن أشهر من أنجبت دمياط من القراء هو الإمام بكر بن سهل (١٩٦–٢٨٩هـ) الذى سمع بدمشق وبيروت ومصر ، وقرأ على عبد الصمد صاحب ورش وكان من كبار أصحابه ، وروى القراءة عنه كثيرون منهم : أحمد بن هلال ، وابن شنبوذ[٥] .

شطا بليدة يسكنها القبط ، على ثلاثة أميال خارج دمياط على ضفة البحر الملح . وبها وبدمياط يعمل الثوب الرفيع الذى يبلغ ألف درهم ولا ذهب فيه ،

---

(١) ابن حجر : ت : التهذيب – ٨ : ٣٣٠ – ٣٣١ .
(٢) ابن الجزرى : غاية – ٢ : ٢٣٢ .
(٣) المصدر نفسه – ١ : ٣٧٥ .
(٤) المصدر نفسه : غاية – ١ : ٢٠٢ .
(٥) ياقوت : معجم البلدان – ٢ : ٦٠٢ . ابن الجزرى : غاية – ١ : ١٧٨ .

وهى الثياب الشطوية[١] . وشطا شديدة الصلة بدمياط حتى إن أحدهم ينسب إليها وإلى دمياط فى نفس الوقت . خرج من شطا هذه قراء كان منهم أحمد بن أبى حماد تلميذ ابن أبى طيبة وأستاذ ابن شنبوذ[٢] . وتتلمذ عليه ابنه أبو بكر فى قراءة ورش ، ثم روى حرف حمزة عن ابن أبى طيبة عن على بن كيسة عن سليم عنه . وقد تتلمذ على أبى بكر بن أحمد بن أبى حماد هذا القارئ البغدادى الشهير أبو بكر النقاش ت ٣٥١ هـ[٣] .

أما تنيس — وكانت مدينة كبيرة على إحدى جزر بحيرة المنزلة ، وفيها آثار كثيرة للأوائل ، وكان أهلها مياسير أصحاب ثراء ، وأكثرهم حاكة يصنعون ثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا[٤] — فقد خرج منها أبو بكر أحمد ابن محمد بن جابر الذى روى القراءة عن ابن بدر النفاح البغدادى نزيل مصر (ت ٣١٤ هـ) ، وتتلمذ عليه فارس بن أحمد الحمصى الضرير الذى نزل مصر كذلك (ت ٤٠١ هـ)[٥] .

أما أيلة على الزاوية الشمالية الشرقية من خليج العقبة — وقد كانت مدينة جليلة القدر ، بها التجارة الكثيرة ، ومساجد عديدة ، وأهلها أخلاط من الناس يكثر فيهم اليهود[٦] . — فقد روى منها أبو يزيد خالد بن نزار القراءة عن نافع فيما قال ابن مجاهد[٧] .

وظهر من أسوان ، آخر ثغور الجنوب ، أحمد بن عثمان بن عبد الله ، المقرئ الضابط ، العارف بحرف أبى عمرو . وقد قرأ على أحمد بن عبيد الله بن عبد الواحد البصرى بالبصرة . وقرأ عليه الحسن بن سعيد المطوى وغيره[٨] .

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم : ١٢٠ . ياقوت : معجم البلدان — ٣ : ٢٨٨ . وهى شطا الحالية مركز فارسكور محافظة دمياط . محمد رمزى : القاموس الجغرافى — ق ٢ ج ١ : ٢٤٣ .

(٢) ابن الجزرى : غاية — ١ : ٥١ .

(٣) ابن الجزرى : غاية — ٢ : ٦١ — ٦٢ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان — ١ : ٨٨٢ وما بعدها . المقريزى : الخطط — ١ : ١٧٧ .

(٥) ابن الجزرى : غاية — ١ : ١٠٩ .

(٦) المقريزى : الخطط — ١ : ١٨٤ .

(٧) ابن الجزرى : غاية — ١ : ٢٦٩ .

(٨) المصدر نفسه — ١ : ٨٠ — ٨١ .

فإذا انتقلنا إلى أسفل الأرض – أى الدلتا – وجدنا أن قرية الحرس – إحدى قرى شرقى مصر[١]، وكان منها أهل الحرس الذين شغلوا الرأى العام فى مصر بقضيتهم ما بين عامى ١٨٥ و ١٩٦[٢] – قد خرج منها القارئ الخير الفاضل عامر بن سُعيد – بالتصغير . ويقال أيضًا بالراء – الحرسى – بالمهملات – الذى أخذ القراءة عرضًا عن ورش . ثم خرج من مصر إلى ثغر المصيصة مرابطًا ، فأقام سبعين عاما من عمره الذى تجاوز المائة يغزو الروم من ناحية ويقرئ المسلمين بقراءة ورش من ناحية أخرى حتى أدركته الوفاة حوالى عام ٢٥٠ هـ[٣] .

وقد أشرنا من قبل[٤] إلى أن القارئ العراقى محمد بن عبد الرحيم الأصبهانى (ت ٢٩٦ هـ) قد عاج عليه بالمصيصة وختم عليه مرتين وهو فى طريقه إلى مصر . وأيًّا كان الأمر فإن ابن سعيد أحد الذين نقلوا قراءة ورش من مصر إلى الشام .

وإلى الحوف ينسب أبو محمد الظهراوى عبد الله بن عبد الرحمن الذى روى القراءة عرضًا عن أبى بكر بن سيف التجيبى صاحب ورش (ت ٣٠٧ هـ)[٥] . وربما كان يحيى بن مطير الظهراوى الذى روى القراءة عرضًا عن محمد بن سلمة العثمانى تلميذ يونس بن عبد الأعلى[٦] من المنطقة نفسها . فإن ابن أخيه المقرئ الضابط المشهور قُسيم بن أحمد بن مطير (ت ٣٩٨ هـ) . وهو فى نفس الوقت سبط عبد الله بن عبد الرحمن السابق ذكره – كان من ساكنى أبى البيس التى أصبح يقال لها فيما بعد بلبيس . وقد أخذ قسيم القراءة عن جده لأمه عبد الله هذا . ووصفه أبو عمرو الدانى (٣٧١ – ٤٤٤ هـ) بأنه كان خيراً فاضلاً . ضابطًا لرواية ورش يقصد فيها وتؤخذ عنه . ويفهم من عبارة الدانى أنه لم يقابله عندما كان بمصر سنة ٣٩٧ هـ ، فهو يذكر أنه سمع القارئ الحمصى الضرير نزيل

---

(١) السمعانى : الأنساب : ١٦٣ أ . ياقوت : معجم البلدان – ٢ : ٢٣٩ – ٢٤٠ .

(٢) حللنا هذه القضية ودور لأدب فيها فى مقال بعنوان : الأدب المصرى فى معركة طبقية – مجلة الأدب : يونيو ١٩٦٥ .

(٣) الذهبى : طبقات القراء : ٦١ . ابن الجزرى : غاية – ١ : ٣٤٩ – ٣٥٠ ؛ والنشر – ١ : ١١٠ – ١١١ .

(٤) انظر ص ٢٢٨ من هذا البحث .

(٥) ابن الجزرى : غاية – ١ : ٤٢٨ .

(٦) المصدر نفسه – ٢ : ٣٧٩ .

مصر فارس بن أحمد (ت ٤٠١ هـ) يثنى عليه ، وأنه كان يقرئ بموضعه — أى بلبيس — حينذاك[١] .

ثم نذهب إلى الصعيد .

ينسب إلى الجيزة القارئ المصرى أبو الأشعث الذى أخذ القراءة عرضًا عن داود بن أبى طيبة (ت ٢٢٣ هـ) . وروى القراءة عنه كثيرون يكفى أن كان من بينهم عامر بن سعيد الحرسى ومحمد بن عبد الرحيم الأصبهانى[٢] . وينسب إلى الجيزة كذلك أبو داود — أو أبو عبيد الله — الأزدى محمد بن الربيع بن سليمان (ت ٣٢٤ هـ) تلميذ يونس فى القراءة . والذى كان إلى جانب اشتغاله بالقراءة إمامًا بجامع مصر . بل إنه اشتغل بالتأليف فترجم لقضاة مصر فى كتاب بعنوان : « أخبار قضاة مصر » كما ألف كتابًا عن أصحاب النبى الذين دخلوا مصر وهو الكتاب الذى أخذه السيوطى فهذبه واختصره وأضاف إليه وسماه : « در السحابة فيمن نزل مصر عن الصحابة » . ومن أبى داود الأزدى روى القراءة أبو العباس المطوعى البصرى (ت ٣٧١ هـ) وغيره[٣] .

فى سنة ١١٧ هـ ثار القراء على أمير مصر الوليد بن رفاعة وحاربوه فى جزيرة الروضة عندما سمح للنصارى بابتناء كنيسة أبى مينا بالحمراء[٤] . وقد قتل فيمن قتل فى تلك الفتنة المحدث أبو زرعة بلال التجيبى الذى كان ينزل البرنيل[٥] من كورة الشرقية بمصر[٦] . ويقوى جدًّا أن أبا زرعة هذا كان أحد هؤلاء القراء الثائرين .

وينسب إلى أهناسيا القارئ الضابط المعروف أبو عبد الله الطائى محمد بن إبراهيم الذى أخذ القراءة عرضًا عن أعلام أساتذة مدرسة ورش : يونس ، إسماعيل النحاس ، أبى بكر ابن سيف التجيبى . ومواس بن سهل . ثم سافر

---

(١) المصدر نفسه — ٢ : ٢٧ .

(٢) المصدر نفسه — ١ : ١٧٣ .

(٣) الكندى : القضاة : هامش ص ٣٨٧ ، ومقدمة كست : ٢٠ . ابن الجزرى : غاية — ١ : ٤١٨ — ٤١٩ ، ٤٨٧ و ٢ : ١٤٠ ، ٤٠٦ . ويلحظ أن هناك خلطا بين اسمه وكنيته .

(٤) الكندى : الولاة : ٧٧ — ٨٧ .

(٥) الأرجح أنها قرية البرنيل — بالياء التحتية الموحدة — الحالية ، شرق الواسطى محافظة بنى سويف.

(٦) السمعانى : الأنساب : ٧٦ — ٧٧ أ . ياقوت : معجم البلدان — ١ : ٥٩٥ .

الطائى إلى بغداد فنزلها وأقرأ بها . وهناك روى القراءة عنه عرضاً القارئ البصرى أحمد بن نصر الشذائى (ت ٣٧٠ هـ) والقارئ البغدادى على بن الحسين الغضائرى (كان حياً سنة ٣٧٨ هـ)[١] . وهكذا كان هذا القارئ الأهناسى أحد الذين نقلوا قراءة ورش إلى بغداد .

وممن ينسب إلى الصعيد بعامة دون تحديد بلد بعينه من بلاده الفقيه أبو جعفر محمد بن سعيد بن الخليل ، من شيوخ المصريين : قديم الموت ، وقد قرأ على أبى عون محمد بن عمرو الواسطى (ت قبل ٢٧٠ هـ) تلميذ قالون المدنى (ت قبل ٢٢٠ هـ) والدورى البغدادى (ت ٢٤٦ هـ) وقنبل المكى (ت ٢٩١ هـ) . ووصف أبا جعفر بالفقه تلميذه أبو العباس المطوعى قائلا إنه قرأ عليه بصعيد مصر[٢] .

وينسب إلى الصعيد كذلك محمد بن على بن عبد الله الخطيب (ت ٣٠٧هـ) المقرئ المقبول الذى روى القراءة عن أساتذة ينتمون إلى مدارس مختلفة هم : داود بن أبى طيبة (ت ٢٢٣ هـ) من مدرسة ورش ، أبو جعفر الشمونى الكوفى (كان حيا سنة ٢٤٠ هـ) ، البزى راوية ابن كثير المكى (ت ٢٤٠هـ) ، الحلوانى الإمام الضابط المتقن خصوصاً فى قالون وهشام (ت ٢٥٠ هـ) ، وإسماعيل ابن إسحاق الأزدى القاضى البغدادى (ت ٢٨٢ هـ) . هذا وقد روى المطوعى القراءة عنه عرضاً[٣] .

هذا هو كل ماتبقى ، أوكل ما استطعنا أن نعثر عليه ، من آثار القراء الذين ظهروا فى أقاليم مصر خارج العاصمة . وما فى هذه الآثار من قلة شديدة يعطينا الحق فى أن نفترض أن قراء الأقاليم قد تعرضوا للإهمال الشديد الذى أدى بآثارهم إلى الضياع ، إذ يبدو أن العناية كانت – على ماهى عليه حتى الآن – مقصورة على من يلمع فى سماء العاصمة . على أن من الممكن إلى جانب ذلك أن نتوقع أن يكون لضعف مستوى النشاط العلمى فى الأقاليم دخل فى قلة هذه الآثار أساساً .

كما أن من المحتمل جداً أن القراء الذين كانوا ينبغون فى الأقاليم كانوا يسارعون فيشدون الرحال إلى العاصمة جريا وراء الأضواء فيسقطون من حساب أقاليمهم

---

(١) ابن الجزرى : غاية – ٢ : ٤٨ – ٤٩ .
(٢) المصدر نفسه – ١٢ : ١٤٣ – ١٤٤ .
(٣) المصدر نفسه – ٢ : ٢١٣ – ٢١٤ .

ويضافون إلى رصيد العاصمة . وبالرغم من ذلك كله فإن فى التتف القليلة المتبقية التى استطاعت لسبب أو لآخر أن تفلت من يد الضياع مايكفى حقًّا لإلقاء الضوء على الاتجاهات الكبرى لسير القراءة فى مصر خارج العاصمة .

فمن أصحاب المصاحف القديمة الذين كان لهم قراءتهم الخاصة ظهر ابن هرمز بالإسكندرية .

ولما ظهر نافع فى المدينة وهرع إليه المصريون يتتلمذون عليه ، ويأخذون عنه قراءته الجديدة ، كان ممن ذهب إليه من الأقاليم : زياد بن يونس السكندرى وخالد ابن نزار الأيلى .

فلما نشأت المدرسة المصرية بزعامة ورش ، ودخل المصريون فيها أفواجاً حتى سادت سائر المدارس ؛ لم تشذ الأقاليم عن المرحلة التاريخية فقد رأينا كل قراء دمياط ، وشطا ، والحرس ، والحوف ، والجيزة ، وأهناسيا الذين بقى لنا شىء من ذكرهم ينتمون إلى مدرسة ورش .

على أننا قد رأينا بوضوح كذلك كيف كانت مصر من المرونة ورحابة الصدر بحيث أفسحت للمدارس الأخرى مكاناً لديها . وفى الأقاليم مثّل محمد ابن السكندرى مدرسة الشام ، ومثل أحمد بن عثمان بن عبد الله الأسوانى مدرسة البصرة . وقد افترضنا أن يكون القاسم بن كثير السكندرى من تلاميذ مدارس العراق .

فلما كانت مرحلة الجمع بين القراءات التى تزعمتها بغداد وجدنا محمد بن أحمد الشطوى يجمع بين قراءتى ورش وحمزة . أما أحمد بن محمد بن جابر التنيسى ، ومحمد بن سعيد بن الخليل ، ومحمد بن على بن عبد الله الخطيب الصعيديان فهم تلاميذ صرحاء لمدرسة بغداد .

والنتيجة الواضحة لهذا كله هى أن القراءة فى الأقاليم اتخذت نفس المسار الذى اتخذته فى العاصمة ومرت بنفس المراحل التى مرت بها هناك ، كما أن مدرسة ورش كانت المدرسة الغالبة عليها .



الباب الرابع

تاريخ التفسير



١ – المفسرون الأوائل

(أ) روايات متفرقة :

مثلما كان طبيعياً أن يجد الفرد المسلم الحاجة إلى حفظ القرآن – كله أو شيء منه – بما هو الكتاب الذى يتضمن أسس سلوكه الفردى والاجتماعى – وهى تلك الحاجة التى أدت إلى خلق ذلك العضو الذى أصبح يعرف فى المجتمع الإسلامى الجديد باسم : القارئ – كان طبيعياً كذلك أن يجد هذا المسلم الحاجة إلى فهم هذا القرآن ، وهى تلك الحاجة التى أدت إلى خلق عضو آخر فى المجتمع الإسلامى النامى أصبح يعرف باسم : المفسر .

والذى يبدو – وهو طبيعى تماماً – أن الفرد كان – حين يجد الحاجة إلى فهم شىء ما من القرآن – يتجه إلى من يعتقد أنه يملك القدرة على إشباع حاجته . فالآية ٦٤ من سورة يونس تصف أولياء الله بأنهم : « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » . وقد أراد رجل من أهل مصر أن يعرف مضمون هذه الصفة، فتوجه إلى الصحابى الشامى العالم أبى الدرداء (ت ٣٢ هـ) يسأله . فهتف الصحابى قائلا : ماسألنى عنها أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم ذكر أنه سأل النبى عنها فقال له : ما سألنى عنها أحد غيرك منذ أنزلت. ثم قال النبى مفسراً: فهى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له[1] .

وربما كان عمرو بن العاص يتحدث بشىء مما سمع من النبى فى التفسير . فقد روى عنه التابعى المدنى سعيد بن المسيب (ت ٩٤ هـ) تفسيراً سمعه من النبى للآية ٣٩ من سورة آل عمران التى تصف نبى الله يحيى بن زكريا بأنه كان « حصورا »[2] .

وعن الصحابى أبى أيوب الأنصارى (ت ٥١ هـ) يروى التابعى المصرى الثقة أبو عمران التجيبى أسلم بن يزيد خبراً طويلاً سمعه منه فى أسباب نزول

(١) الترمذى : الجامع – ١١ : ٢٧٠ – ٢٧١ . الطبرى : جامع البيان – ١١ : ٩٣ – ٩٧.
(٢) الحاكم : المستدرك – ٢ : ٣٧٣ .

الآيات ٥ ، ٧ ، ١٢ ، ١٧ ، ٦٨ من سورة الأنفال الخاصة بغزوة بدر (٢ هـ) . وفى أثناء ذلك يفسر الشوكة بأنها الشر . وغير الشوكة بالعير فى الآية السابعة : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم . وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين »[١] .

وفى غزوة القسطنطينية التى اشترك فيها أهل مصر وأهل الشام ضد البيزنطيين (٤٩ هـ) خرج رجل من صفوف المسلمين فحمل على الروم حتى دخل فيهم ثم عاد فخرج إلى المسلمين ، فصاح الناس : سبحان الله ! ألقى بيده إلى التهلكة . فقام أبو أيوب الأنصارى - فيما يحدث أبو عمران التجيبى وكان ممن شهد الغزوة - فقال : أيها الناس : إنكم لتأولون هذه الآية على هذا التأويل ، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار . إنه لما أعزالله دينه ، وكثر ناصريه ، قلنا فيما بيننا ، بعضنا لبعض سراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أموالنا قد ضاعت ، فلو أنا أقمنا فيها فأصلحنا ماضاع منها ! فأنزل الله عزوجل فى كتابه يرد علينا ماهممنا به : « وأنفقوا فى سبيل الله ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة » (البقرة : ١٩٥) . فكانت التهلكة أن نقيم فى الأموال ونصلحها . فأمرنا بالغزو[٢] .

ويروى التابعى المصرى الثقة عبد الرحمن بن حجيرة الخولانى (ت ٨٣ هـ) قاضى مصر وقاصّها وصاحب بيت مالها[٣] . عن أبى هريرة أن النبى قال فى تفسير الآية ٣٧ من سورة النور « رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله » إنهم هم الذين « يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » (المزمل : ٢٠)[٤] .

وحدث التابعى المصرى الثقة على بن رباح اللخمى (ت ١١٤ هـ) أن عمر ابن الخطاب قال لرجل أن يتلو الآية ٢٢٨ من سورة البقرة: « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن أن يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن ، إن كن

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح : ٢٦٨ - ٢٦٩ . الطبرى : جامع البيان - ٩ : ١٢٦ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح : ٢٦٩ - ٢٧٠ . الترمذى : الجامع : ٩٥ - ٩٧ . الطبرى : جامع البيان - ٢ : ١١٩ . الحاكم : المستدرك - ٢ : ٢٧٥ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح : ٢٣٥ . الكندى : القضاة : ٣١٤ وما بعدها . ابن حجر : ت . التهذيب : ٦ : ١٦٠ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح : ٢٨١ .

يؤمن بالله واليوم الآخر » الآية ، فتلاها الرجل . فقال عمر : إن فلانة ممن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن . وكانت طلقت وهى حبلى فكتمت حتى وضعت[١] وفى رواية أخرى أن هذه المرأة من قريش وأنها كانت تحت عمر بن الخطاب نفسه ، فطلقها تطليقة أو تطليقتين وكانت حبلى . فلما أحست بالولاد أغلقت الباب حتى وضعت[٢]

كما يروى على بن رباح أنه سمع عتبة بن النُّدَّر . الصحابى الذى شهد فتح مصر ونزلها (ت ٨٤هـ)[٣] . يحدث أن رسول الله قال فى تفسير الآية ٢٧ من سورة القصص : « على أن تأجرنى ثمانى حجج » : إن موسى عليه السلام أجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه[٤] .

وفى تفسير الآية ٢٩ من السورة نفسها : « فلما قضى موسى الأجل » يروى ابن رباح عن الصحابى نفسه أن النبى سئل : أى الأجلين قضى موسى ؟ فأجاب : أوفاهما وأبرهما[٥] .

ويروى ابن رباح أن النبى سأل أباه رباح بن قصيربوا : ماولد لك ؟ قال : يارسول الله : ماعسى أن يولد لى ؟ إما غلام وإما جارية . قال : فمن يشبه ؟ قال : يارسول الله : من عسى أن يشبه ؟ إما أباه وإما أمه . فقال النبى عندها : مه . لا تقولن هكذا . إن النطفة إذا استقرت فى الرحم أحضر الله كل نسب بينها وبين آدم . أما قرأت هذه الآية فى كتاب الله : « فى أى صورة ماشاء ركبك » (الانفطار : ٨) قال : سلكك ؟[٦] .

تشير هذه الأخبار إلى أن التفسير كان فى تلك المرحلة الأولى من حياته أحاديث متناثرة ، وروايات متفرقة تروى فى مناسبة ما ، كأن يسأل أحدهم عن معنى إحدى الآيات . على أن ذلك لم يمنع وجود أفراد يتمتعون بمستوى ثقافى مرتفع ، لم

(١) الطبرى : جامع البيان – ٢ : ٢٧١ .
(٢) ابن أبى حاتم : تفسير – ١ : ١٦٢ و .
(٣) ابن حجر : الاصابة – ٤ : ٢١٧ .
(٤) ابن ابى حاتم : تفسير – ٧ : ٤٦٤ .
(٥) ابن عبد الحكم : فتوح : ٣٠٤ . ابن أبى حاتم : تفسير – ٧ : ٦٨
(٦) الطبرى : جامع البيان – ٣٠ : ٥٦ .

يتوقفوا عند مجرد رواية ماعلق بذهنهم من معنى هذه الآية أوتلك مما سمعوه من النبى أو أحد الصحابة ، ولكنهم اتجهوا اتجاهاً راعياً مقصوداً إلى دراسة القرآن وفهمه بحيث يعرفون ماذا قال النبى عن هذه الآية من الآيات ، وما معنى هذه الكلمة أو تلك من كلماتها ، وماذا يراد على وجه الإجمال بها ، وما الملابسات التى أحاطت بتنزيلها ؛ ومن الأشخاص أو المكان أو الحادثة المقصودة فيها .

* * *

(ب) عقبة بن عامر (ت ٥٨ هـ) :

لما كان عقبة بن عامر أمير مصر قد صحب النبى صحبة طويلة وثيقة استمع إليه كثيراً فى خلالها فقد كان طبيعياً أن يعى عنه شيئاً فى معنى القرآن . فهو يروى أنه رأى النبى وهو يقرئ هذه الآية : « والله بصير بالعباد » (آل عمران : ١٥) ويقول : بكل شىء بصير [١] . كما يروى أن النبى فسر « القوة » المذكورة فى الآية ٦٠ من سورة الأنفال : « وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل » بأنها الرمى [٢] . وأنه قال إن الآية ٤٤ من سورة الأنعام : « فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » إنما تعبر عن استدراج الله العصاة [٣] .

وكان عقبة كما ذكرنا فيما مضى [٤] رجلا عربياً ، فصيحاً ، بليغاً ، شاعراً ، قارئاً ، كاتباً . أى أنه كان صحابياً مثقفاً مستنيراً واعياً . فإذا انتبهنا إلى أنه فى صحبته الطويلة الوثيقة للنبى قد عاصر نزول القرآن ؛ وعاين ملابسات هذا النزول عن كثب ، اتضح كيف تهيأت له الفرصة لاليعرف المراد بآيات الكتاب الكريم فحسب بل ليملك القدرة كذلك على تفسير هذه الآيات . فهو يفسر الأواه فى الآية ١١٤ من سورة التوبة : « إن إبراهيم لأواه حليم » بأنه الكثير الذكر لله [٥] .

---

(١) ابن أبى حاتم : تفسير - ١ : ٢٤١ ظ .

(٢) ابن حنبل : مسند - ٤ : ١٥٦ - ١٥٧ . الترمذى : الجامع - ١١ : ٢١٣ - ٢١٥ . الطبرى : جامع البيان - ١٠ : ٢١ ، السيوطى : الإتقان - ٢ : ١٩٥ .

(٣) ابن حنبل : مسند - ٤ : ١٤٥ . ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٢٩٢ . الطبرى : جامع البيان - ٧ : ١٢٤ .

(٤) انظر ص ١٤ ، ١٠٧ من هذا البحث . (٥) الطبرى : جامع البيان - ١١ : ٣٦ .

يؤكد هذا أنه قال لرجل يقال : ذو البجادين إنه أواه ، وذلك أنه رجل كان يكثر ذكر الله بالقرآن والدعاء ويرفع صوته[١] .

وفى تفسير الآية ١٠٤ من سورة الأنبياء : « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ، كما بدأنا أول خلق نعيده . وعداً علينا إنا كنا فاعلين » قال : يجمع الناس فى صعيد واحد ، ينفذهم البصر ، ويسمعهم الداعى ، حفاة عراة كما خلقوا أول يوم[٢] .

وسأله مرة تلميذه التابعى المصرى أبو الخير مرثد اليزنى (ت ٩٠ هـ) الذى تفقه عليه وروى عنه ، وكان لايفارقه[٣] . . سأله عن الآية ٢٣ من سورة المعارج « الذين هم على صلاتهم دائمون » فقال : هم الذين إذاصلوا لم يلتفتوا خلفهم ولا عن أيمانهم ولا عن شمائلهم[٤] .

على أن عقبة لم يكن يجد حرجاً فى الامتناع عن التفسير إذا كان لا يعلم على نحو ماحدث عندما سأله رجل — فيما يروى تلميذه أبو الخير — عن الكلالة (النساء : ١٢ ، ١٧٦) فقال : ألا تعجبون من هذا ؟ يسألنى عن الكلالة وما أعضل بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شىء ما أعضلت بهم الكلالة[٥] .

° ° °

(حـ) عبد الله بن عمرو بن العاص (ت ٦٥ هـ) :

ولكن لعل عبد الله بن عمرو بن العاص كان أكثر الصحابة المصريين اهتماماً بدراسة القرآن والوقوف على تفسيره بالرغم من أنه شهد النبى يوما وقد احمر وجهه غضباً ، وهو يصيح بنفر من صحابته قد ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم : « مهلا ياقوم ، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم : باختلافهم

---

(١) المصدر نفسه — ١١ : ٣٧ — ٣٨ .
(٢) المصدر نفسه — ١٧ : ٨٠ .
(٣) السمعانى : الأنساب : ٥٥٩ ب . ابن حجر : ت . التهذيب — ١٠ : ٨٢ . السيوطى : حسن — ١ : ١١٨ .
(٤) الطبرى : جامع البيان — ٢٩ : ٥٠ .
(٥) المصدر نفسه — ٦ : ٣٠ .

على أنبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض . إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً بل يصدق بعضه بعضاً . فما عرفتم منه فاعملوا به : وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه »[١] . بالرغم مما قد يوحى به هذا من التنفير من التفسير بذل عبد الله نشاطاً ملموساً فى تفهم الكتاب الكريم جعله يأتى بعد ابن عباس مباشرة فى الصحابة المفسرين ؛ وإن كان ممن ليس لهم تصنيف[٢] . ومن الواضح أن طبيعة المرحلة لم تكن تسمح بأن يكون لعبد الله مثل هذا التصنيف بالرغم من أنه كان يجيد الكتابة ؛ بل كان يكتب عن النبى نفسه بتصريح خاص منه[٣].

وَأيّاً كان الأمر فقد كان عبد الله بن عمرو موضع الثقة فى المعرفة بكتاب الله. فكان الناس فى جامع دمشق يحتكمون إليه إذا اختلفوا فى التفسير[٤] . وتصوره إحدى الروايات جالساً إلى جنب معاوية (ت ٦٠ هـ) على السرير – سرير الخلافة طبعاً – يفسر القرآن[٥] . وجلس ثلاثة من المسلمين إلى مروان بن الحكم (ت ٦٥ هـ) فسمعوه يحدث عن آيات يوم القيامة المشار إليها فى الآية ١٥٨ من سورة الأنعام : « يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً » أن أولها خروجاً الدجال ، فانصرفوا إلى عبد الله فحدثوه بذلك يتأكدون من صحته[٦] . ولم يكن من النادر أن يسأله بعضهم عن معانى أشياء بعينها فى القرآن مثل : يأجوج ومأجوج[٧] (الأنبياء : ٩٦) ، والبضع (الروم : ٤)[٨] ، وتبع (ق : ١٤)[٩] .

وليس من الممكن أن نتجاهل ميل الروايات إلى إدخال عبد الله بن عمرو المدرسة الشامية للتفسير ، بل إنها تجعل منه رمزاً لهذه المدرسة حين تقفه وجهاً لوجه

---

(١) ابن سلام : فضائل : لوحة ٤٩ . ابن حنبل : مسند – ٢ : ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٩٢ .
(٢) الزركشى : البرهان – ٢ : ١٥٧ . حاجى خليفة : كشف الظنون – ١ : ٤٢٩ .
(٣) ابن حنبل : مسند – ٢ : ١٦٢ ، ١٩٢ .
(٤) الطبرى : جامع البيان – ٩ : ٨٣ .
(٥) المصدر نفسه – ٦ : ١٦٨ ، ١٦٩ .
(٦) المصدر نفسه – ٨ : ٧٢ – ٧٣ .
(٧) المصدر نفسه – ١٧ : ٧٠ .
(٨) المصدر نفسه – ٢١ : ٦٠ .
(٩) المصدر نفسه – ٢٦ : ٩٨ .

مع ابن عباس الذى سأله : أى آية فى كتاب الله أرجى لهذه الأمة ؟ فقال عبد الله بن عمرو : « ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم » (الزمر : ٥٣) حتى ختم الآية ، فقال ابن عباس : أما إن كنت تقول إنها ، وإن أرجى منها لهذه الأمة ، قول إبراهيم عليه السلام : « رب أرنى كيف تحيى الموتى . قال : أولم تؤمن ؟ قال : بلى . ولكن ليطمئن قلبى » (البقرة : ٢٦٠)[١] . هذا لما فى الصدور من وسوسة الشيطان . فرضى الله تعالى من إبراهيم بقوله : « أو لم تؤمن ؟ قال : بلى »[٢] وقد ذكرنا من قبل[٣] كيف يمكن أن نجد فى مثل هذه الروايات صدى للنزاع السياسى بين الأمويين والعباسيين .

فى صحبته للنبى وعى عبد الله عنه — مثله مثل عقبة — شيئاً من التفسير . فهو يروى أن أعرابياً سأل النبى عن « الصور » فأجابه بأنه قرن ينفخ فيه[٤] . وفى تفسير الآية ٣١ من سورة النساء : « إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً » يروى عبد الله أن النبى أجاب أعرابياً سأله عن معنى الكبائر بأنها : الشرك بالله ، ثم عقوق الوالدين ، ثم اليمين الغموس[٥] . وحدث أن تلا عبد الله الآيتين ١٢ — ١٣ من سورة القلم : « مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم » ثم قال إنه سمع النبى يقول : « أهل النار كل جَعْظَرِىّ جَوّاظ ، مستكبر جماع . وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون »[٦] .

ويروى عبد الله أن رجلا سأل على بن أبى طالب عن السواد الذى فى القمر فأجابه على بأن الله يقول : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » (الإسراء : ١٢) . فكأن السواد الذى فى القمر هو آية الليل التى

---

(١) المصدر نفسه — ٢ : ٣٤ .

(٢) الزركشى : البرهان : — ١ : ٤٤٧ — ٤٤٨ .

(٣) انظر ص ١٦٢ من هذا البحث .

(٤) ابن حنبل : مسند — ٢ : ١٦٢ . الطبرى : جامع البيان — ١٦ : ٢٤ و ٣٠ : ٦ . الحاكم : المستدرك — ٢ : ٥٠٦ .

(٥) الترمذى : صحيح — ١١ : ١٥٣ — ١٥٥ . الطبرى : جامع البيان — ٥ : ٢٨ .

(٦) الحاكم : المستدرك — ٢ : ٤٩٩ . والجعظرى : الفظ الغليظ ، أو الأكول الغليظ ، والقصير المنتفخ بماليس عنده (القاموس المحيط) . والجواظ — كشداد — الضخم المختال ، والكثير الكلام فى الجلبة والشر ، والجموع المنوع ، والصياح ، والضجور (القاموس المحيط) ..

محيث[1] . وربما كانت هذه الرواية مثالا لروايات أخرى فى التفسير رواها عبد الله عن عليّ .

كان عبد الله بن عمرو يعرف اللغة السريانية لغة العلم والثقافة فى وقته ، فقد شهد شريك بن خليفة التابعى الثقة أنه رآه يقرأ بالسريانية [2] . وقد استطاع عبد الله أن ينفذ عن طريق هذه اللغة إلى الثقافات الدينية الأخرى ويستوعب منها ما يجعل قريشا تعده عالمًا [3] وعرف ذلك عن عبد الله ، واشتهر به . وسجل له كجزء من شخصيته . قال له عبد الله بن الزبير (ت ٧٣ هـ) يخاطبه وكأنه يعدد مزاياه : « فإنك قد قرأت الكتب وصحبت الرسول »[4] . ويقرر الطبرى فى تفسيره[5] أنه « كان يقرأ الكتب » . وفى تاريخه[6] يذكر أنه – أى عبد الله – قرأ كتب دانيال بمصر قبل سنة ٦١ هـ . ويذكر الذهبى[7] أن عبد الله كان أصاب جملة من كتب أهل الكتاب . وأدمن النظر فيها . ورأى فيها عجائب . كما يرجع السيوطى[8] أن ماورد عن عبد الله متعلقًا بالقصص وأخبار الفتن والآخرة قد أخذه عن أهل الكتاب . والذى يبدو واضحًا هو أن التوراة كانت أهم هذه الكتب التى قرأها عبد الله . وتناقل الرواة أنه كان يقرأ التوراة والفرقان[9] . وتصوغ إحدى الروايات هذا الامتياز فى صورة نبوءة تنبأ بها النبى عندما قص عليه عبد الله أنه رأى نفسه فى النوم فى إحدى أصابعه عسل وفى الأخرى سمن فكأنه يلعقهما . فقال له النبى إن عشتَ قرأتَ الكتابين التوراة والفرقان[10] . وقد وجد المتكلم البغدادى المتهم بالزندقة بشر بن غياث المريسى (ت ٢١٨ هـ)[11] فى اتصال عبد الله بدراسات أهل الكتاب ثغرة هامة ينفذ منها

---

(١) الطبرى : تاريخ – ١ : ٧٥ . وجامع البيان – ١٥ : ٣٨ .
(٢) ابن سعد : الطبقات – ج ٧ ق ٢ : ١٨٩ وج ٤ : ١١ .
(٣) الطبرى : تاريخ – ٢ : ٣٩٩ .
(٤) بن حنبل : مسند – ٢ : ٢١٩ .
(٥) ٨ : ٧٣ . (٦) ٢ : ٣٩٩ .
(٧) تذكرة – ١ : ٣٦ . (٨) الإتقان – ٢ : ١٨٩ .
(٩) ابن حنبل : مسند – ٢٢ : ٢٢٢ . ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٢٥٤ . أبونعيم : حلية – ١ : ٢٨٦ . (١٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ٥٤ ب .
(١١) الخطيب : ت . بغداد – ٧ : ٦٣ وما بعدها .

إلى شخصية ذلك الصحابى الجليل الذى كان له دور رئيسى فى وضع أسس الفكر الإسلامى حديثًا وفقهًا وتفسيراً . فقد ادعى عليه فزعم أنه أصاب يوم اليرموك (١٥ هـ) زاملتين[١] من كتب أهل الكتاب . وكان يرويهما للناس عن النبى . وكان يقال له : لاتحدثنا عن الزاملتين[٢] . وقد سلّم الإمام الدارمى (ت ٢٨٠هـ) الجزء الأول من هذا الخبر – وهو يتفق مع ماذكرنا عن الذهبى منذ لحظة من أن عبد الله أصاب جملة من كتب أهل الكتاب – ولكنه ينكر الجزء الأخير[٣] . وأيًّا كان الأمر فلم يكن بد من ، بل كان طبيعيًّا ، أن تصبح هذه الكتب والشروح مصدراً من مصادر عبد الله بن عمرو فى التفسير . ونكتفى بالإشارة على سبيل المثال إلى أنه رجع إلى أهل الكتاب فى تفسير أحد مبهمات القرآن وهو مدة « بضع » السنين التى ذكرت الآية الرابعة من سورة الروم أن البيزنطيين المسيحيين سينتصرون بعده على أعدائهم الفرس الوثنيين فقال إنهم زعموا أنه تسع أو سبع[٤] . فى الآية ١٥٧ من سورة الأعراف : « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل » ، والآية ٦ من سورة الصف : « ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » – على سبيل المثال – يؤكد القرآن أن النبى مذكور فى التوراة والإنجيل اللذين بشرا بظهوره . ولما كان عبد الله ابن عمرو حجة فى المعرفة بهذين الكتابين فقد حرص التابعى عطاء بن يسار الهلالى (ت ١٠٣ هـ) على أن يطلب إليه أن يخبره عن صفة النبى فى التوراة . قال عبدالله أجل . والله إنه موصوف فى التوراة : بصفته فى القرآن : « يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً » . وهى فى التوراه « يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأميين . أنت عبدى ورسولى . سميتك المتوكل . ليس بفظ ولاغليظ ، ولا صخاب بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر . ولن أقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله . فيفتح به أعيناً

---

(١) الزاملة التى يحمل عليها من الإبل وغيرها (القاموس المحيط) . أى أنه استولى على ما زنته حمل ناقتين من كتب أهل الكتاب .

(٢ و٣) رد الإمام الدارمى على بشر المريسى : ١٣٦ .

(٤) الطبرى : جامع البيان – ٢١ : ١٦ .

عميًا ، وآذانًا صمًّا ، وقلوبًا غلفًا بأن يقولوا : لاإله إلا الله »[1] . وتضيف بعض المصادر [2] أن عطاء بن يسار – حرصًا منه على التثبت – وجه السؤال نفسه إلى كعب الأحبار فما اختلفا حرفًا ، إلا أن كعبًا قال بلغته : « قلوبًا غلوفيًا ، وآذانًا صموميا ، وأعينا عموميا » . وفى رواية أخرى : « أعينا عموما ، وآذانًا صموما ، وقلوبًا غلوفا » .

كعقبة كان عبد الله بن عمرو يملك من الوسائل مايعطيه القدرة على الاعتماد على نفسه فى فهم الكتاب الكريم ، فهو قد صحب النبى صحبة طويلة وثيقة ، وكان ذا نزعة علمية واضحة[3] ، بل إنه كان أديبًا تنسب إليه الرواية شيئًا من الشعر [4] . وبناء على تفكيره الذاتى يستطيع أن يجد فى الآية ٢٩ من سورة المائدة : « إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار . وذلك جزاء الظالمين » أن ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة ، العذاب عليه شطر عذابهم . كما كان يقول : أشقى الناس رجلا لابن آدم الذى قتل أخاه . ماسفك دم فى الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة إلا لحق به منه شىء . وذلك أنه أول من سن القتل [5] . وفى الآية ٤٥ من السورة نفسها : « فمن تصدق به فهو كفارة له » يفسر كون التنازل عن القصاص كفارة للمجنى عليه بأنه يهدم عنه من ذنوبه مثل ماتصدق به [6] . وهو يحدد العلامة التى لايجدى بعد ظهورها الإيمان ، والتى تشير إليها الآية ١٥٨ من سورة الأنعام : « يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أوكسبت فى إيمانها خيراً » بأنها طلوع الشمس من مغربها [7] . ويروى المفسر الكبير مجاهد (ت ١٠٣ هـ) عن عبد الله بن عمرو الكيفية التى أخذ بها الله ذرية بنى آدم من ظهورهم ، وفقًا للآية ١٧٢ من سورة

---

(١) ابن سعد : الطبقات – ج ٤ ق ٢ : ٨٨ . والنص نفسه مذكور فى : البخارى : صحيح – ٦ : ٢٤١ والطبرى : جامع البيان – ٩ : ٥٧ مع اختلافات يسيرة .

(٢) الطبرى : جامع البيان– ٩ : ٥٧ .

(٣) انظر ص ١٤ ، ١٠٨ من هذا البحث .

(٤) ابن عبدربه : العقد – ٥ : ٢٨٤ . ابن سعيد : المغرب : ٦٣ .

(٥) الطبرى : جامع البيان – ٦ : ١٢٥ .

(٦) المصدر نفسه – ٦ : ١٦٨ – ١٦٩ .

(٧) المصدر نفسه – ٨ : ٧٤ – ٧٥ .

الأعراف : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا . أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » بأنه أخذهم كما يأخذ المشط من الرأس[1] . ويحدد عبد الله الشخص المبهم الذى « آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه » (الأعراف : ١٧٥ — ١٧٦) بأنه أمية بن أبى الصلت الثقفى أحد المتحنفين[2] . وكان عبد الله يتوسع إلى أبعد حد فى تفسير الإلحاد المذكور فى الآية ٢٥ من سورة الحج : « ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » فيدخل فيه كل ما كان منهياً عنه من الفعل حتى قول القائل : لا والله ، بلى والله[3] . أما اللمم المذكور فى الآية ٣٢ من سورة النجم : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم » فهو فى رأيه ما دون الشرك[4] . وكان يرى أنه لم تنزل على أهل النار آية أشد من الآية ٣٠ من سورة النبأ : « فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً » . لأنها تقرر أنهم فى مزيد من العذاب أبداً[5] .

(د) عبد الله بن عباس (ت ٦٨ هـ) :

عبد الله بن عباس الذى مسح النبى على ناصيته وقال : اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب[6] ، والذى شهد له عبد الله بن عمرو بن العاص بأنه أعلمهم بما مضى — أى بأخبار الأمم الماضية — وأفقههم فيما نزل مما لم يأت فيه شيء — أى لم يتحدث فيه النبى بشيء —[7] ، والذى كان يسمى البحر من كثرة علمه[8] ، وكان يسمى أيضاً — على وجه التفضيل ترجمان القرآن[9] ، والذى يستحق أن يعد بحق الأب الأول لتفسير القرآن[10] . . . ابن عباس هذا دخل مصر مرتين ، وكان لأهلها

---

(١) المصدر نفسه — ٩ : ٧٧ .
(٢) الطبرى : جامع البيان — ٩ : ٨٣
(٣) المصدر نفسه — ١٧ : ١٠٥
(٤) المصدر نفسه — ٢٧ : ٤٠
(٥) المصدر نفسه — ٣٠ : ١٢
(٦) ابن سعد : الطبقات — ج ٢ ق ٢ : ١١٩
(٧) المصدر نفسه — ج ٢ ق ٢ : ١٢٤
(٨) المصدر نفسه — ج ٢ ق ٢ : ١٢٠
(٩) جولد تسيهر : مذاهب : ٨٣
(١٠) المصدر نفسه : ٨٩

عنه أحاديث[١] . وقد كان طبيعيًّا جدًّا ، بل بديهيًّا تمامًا أن ينتهز المصريون فرصة وجود العالم الكبير بينهم فيسألوه فى معانى القرآن ويتلقوا إجابته . غير أنا لم نجد رواية مصرية مباشرة عن ابن عباس فى التفسير .

ونحب أن نذكر هنا أنه مهما قيل فى نصيب ما يروى عن ابن عباس وينسب إليه من التفسير من الصحة فالذى يبدو واضحا هو أن ابن عباس يمثل المسلم الذى وجد اهتمامًا خاصًّا بالكتاب المقدس يدفعه إلى أن يقف على معانيه ، ويتفهم آياته . ويدمن النظر فيه بحيث ينتهى إلى أن يحصل خبرة عميقة به . ويصطنع منهجًا خاصًّا فى معالجته بما يجعل منه مرجعًا يعتمد عليه ويرجع إليه فى فهم النص المقدس . وهكذا يسجل ابن عباس ميلاد المفسر المسلم ذى الشخصية المتميزة الذى يضع حدًّا لتلك المرحلة التى كانت تعتمد على المحاولات الجزئية ، والأحاديث المتفرقة ، والروايات المتناثرة ، ويؤذن ببدء مرحلة التفسير المنظم المقصود لذاته . وبذلك يكون ابن عباس « الأب الأول للتفسير » كما دعاه جولد تسيهر بحق .

٭ ٭ ٭

تتلمذ على ابن عباس رجال كثيرون استهواهم الاشتغال بهذا العمل العظيم : تفسير الكتاب الكريم . ولكن نبغ من هؤلاء التلاميذ . وبرز على من سواهم ، اثنان : مجاهد ، وعكرمة .

(ﻫ) مجاهد (ت ١٠٣ ﻫ) :

أوثق تلاميذ ابن عباس فى التفسير[٢] . قرأ القرآن على أستاذه ثلاث عرضات — وفى بعض الروايات : ثلاثين — كان يقف فى أثنائها عند كل آية يسأله فيم نزلت وكيف كانت[٣] . وبالرغم من أنه روى كتاب أستاذه فى التفسير[٤] فقد كان له

---

(١) المبرد : الكامل — ١ : ٢٦٧ . ابن تغرى بردى : النجوم — ١ : ١١٥ — ١١٦ السيوطى : حسن — ١ : ٩٠ . وانظر ص ١٤ ، ١٦٤ من هذا البحث .

(٢) جولد تسيهر : مذاهب : ١٢٩ .

(٣) الذهبى : ميزان الاعتدال — ٣ : . ابن الجذرى : [illegible] — ٢ : ٤٢ . ت . التهذيب — ١٠ : ٤٣ .

(٤) ابن النديم : الفهرست : ٣٣ .

تفسير خاص به يعترف الثقات القدماء بأنه أصح وجوه التفسير[١] ، حتى لقد اعتمد عليه الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) والبخاري (ت ٢٥٦ هـ) وغيرهما من أهل العلم[٢]. وقال النووي (ت ٦٧٦ هـ) : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به[٣] .

دخل مجاهد مصر في أواسط القرن الأول (٦٠ — ٦٢ هـ) . وأخذ عن أهلها وأعطى . فتتلمذ على شيوخها من مثل : عبد الله بن عمرو ، ومسلمة بن مخلد (ت ٦٢ هـ) . كما كتب المصريون عنه[٤]. ولدينا رواية للمحدث المصري الثقة جعفر بن ربيعة الكندي (ت ١٣٦ هـ)[٥] عن مجاهد في تفسير الآية ١٣٨ من سورة البقرة : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة». قال مجاهد : الصبغة الفطرة[٦]

وتعد هذه الرواية التي قد يكون هناك غيرها نموذجاً لرواية المصريين مباشرة عن ذلك المفسر الكبير ؛ وإن كان يبدو أنها كانت محدودة جداً ؛ غير أن تفسير مجاهد قد عرف طريقه إلى مصر فيما بعد عندما سجل العالم المصري عبد الله بن وهب (ت ١٩٧ هـ) بعض رواياته في تفسيره الذي ستتناوله فيما بعد[٧]. هذا عدا روايات أخرى قليلة ترجع إلى القرن الثالث[٨] .

(و) عكرمة (ت ١٠٥ هـ) :

تلقى التفسير على يدى سيده عبد الله بن عباس الذي كان يبدي اهتماما خاصاً بتعاليم القرآن والسنن[٩]. وقد استطاع ذلك العبد الذكي أن يحقق امتيازاً لا شك

(١) السيوطي : الإتقان — ٢ : ١٨٩ . حاجي خليفة : كشف — ١ : ٤٥٨ . جولد تسيهر : مذاهب : ١٢٩ .

(٢ و٣) السيوطي : الإتقان — ٢ : ١٨٩ .

(٤) الداودي : طبقات : ٣١٢ ، ٣١٣ ظ .

(٥) ابن سعد : الطبقات — ج ٧ ق ٢ : ٢٠٢ . ابن حجر : ت . التهذيب — ٢ : ٩٠ . السيوطي : حسن — ١ : ١١٠ .

(٦) الطبري : جامع البيان — ١ : ٤٤٥ .

(٧) المصدر نفسه — ٢٨ : ٦١ ، ٦٢ ، و٣٠ : ٤٨ ، ١٢٧ .

(٨) المصدر نفسه — ١٩ : ٥٩ و٣٠ : ٢٩ .

(٩) ابن سعد : الطبقات — ٥ : ٢١٢ .

فيه فى التفسير بعامة والتفسير على مذهب ابن عباس بخاصة[١]، حتى لقد كان الحسن البصرى ، إمام البصرة وعالمها (ت ١١٠ ﻫ) . يمتنع عن التفسير والفتيا طالما عكرمة مقيم بها[٢]. وكان لعكرمة تفسيره الذى اعتمد فيه على ابن عباس بصفة أساسية ، فهو يقول : كل شيء أحدثكم فى القرآن فهو عن ابن عباس[٣].

دخل عكرمة مصر فى أواسط القرن الأول أيضًا ، ربما وهو فى طريقه إلى المغرب[٤]. وروى عن عقبة وعبد الله بن عمرو كما روى عنه يزيد بن أبى حبيب[٥]. وبالرغم من أن يحيى بن أيوب الغافقى، فقيه أهل مصر ومفتيهم (ت ١٦٨ ﻫ)[٦]، صرح بأن المصريين لم يكتبوا عن عكرمة حين سأله شيخه ابن جريج (ت ١٤٩ ﻫ) عن ذلك[٧] فقد احتفظ الطبرى[٨] بخبر يذكر فيه المحدث المصرى شرحبيل بن شريك المعافرى[٩] أنه سمع عكرمة مولى ابن عباس يقول فى تفسير الآية ٩٧ من سورة آل عمران : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » السبيل الصحة .

ويروى القارئ المصرى قُباث بن رُزين اللخمى (ت ١٥٦ ﻫ) أنه سمع عكرمة يقول : سمعت ابن عباس يقول : كل « سلطان » فى القرآن فهى : حجة . أكان للهدهد سلطان ؟ وذلك فى تفسير الآية ٢١ من سورة النمل : « أو ليأتينى بسلطان مبين »[١٠] .

ويروى محمد بن إسحاق عن شيخ من أهل مصر قدم — إلى بغداد فيما يبدو

---

(١) ابن الجزرى : غاية — ١ : ٥١٥ . ابن حجر : ت . التهذيب — ٧ : ٢٧١ . الداودى : طبقات : ١٦٢ ظ . جولد تسيهر : اهب : ٩٤ .

(٢) ابن حجر : ت . التهذيب — ٧ : ٢٦٦ . الداودى : طبقات : ١٦٢ ظ .

(٣) ابن النديم : الفهرست : ٣٤، ٣٨ . السيوطى : الإتقان — ٢ : ١٨٩ . حاجى خليفة : كشف — ١ : ٤٥٣ .

(٤) ابن حجر : ت . التهذيب — ٧ : ٢٦٧ .

(٥) المصدر نفسه — ٧ : ٢٦٣ — ٢٦٤

(٦) الذهبى : تذكرة — ١ : ٢٠٥ — ٢٠٦

(٧) ابن حجر : ت . التهذيب — ٧ : ٢٦٦

(٨) جامع البيان — ٤ : ١٣

(٩) ابن أبى حاتم : الجرح والتعديل — م ٢ ق ١ : ٣٤٠ — ٣٤١ . الذهبى : ميزان — ٢ : ٢٦٧.

(١٠) ابن أبى حاتم : تفسير — ٧ : ٣٦٠ .

– منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة مباشرة تفسيراً للآيات ٩٠ – ٩٣ من سورة الإسراء : « وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجُر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجِّر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء – كما زعمت – علينا كِسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف . أو ترقى فى السماء، ولن نؤمن لرقيِّك حتى تنزِّل علينا كتاباً نقرؤه . قل : سبحان ربى ! هل كنت إلا بشراً رسولا ؟» [١]، وتفسير آخر للآيتين ١ – ٢ من سورة الكهف : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيِّماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسناً »[٢].

ربما كانت هذه الروايات جزءاً من روايات أخرى فى التفسير حملها المصريون عن عكرمة مباشرة ، وإن كان يغلب أنهم قاطعوا تفسيره لأنه كان يرى رأى الخوارج [٣] .

ولكن يبدو أن المتحدث المصرى الصدوق سعد بن عبد الله بن عبد الحكم الذى حدث بمصر ومكة [٤] كان يحمل اهتماماً خاصاً نحو تفسير عكرمة فرواه – كله أو بعضه – لا نستطيع أن نحكم – عن المحدث العدنى حفص بن عمر الملقب بالفرخ ، والذى يميل معظم النقاد إلى تضعيفه [٥] ، والذى يرويه بدوره عن المحدث العدنى الآخر الحكم بن أبان (ت ١٥٤ هـ) سيد أهل اليمن فى الزهد والعبادة والصلاح[٦] الذى يرويه بدوره عن عكرمة مباشرة . وبهذا السند نقل الطبرى[٧] عدداً من الروايات تنتهى إلى عكرمة نفسه . غير أن جزءاً غير صغير من تفسير عكرمة هذا قد حفظه لنا المحدث الناقد الكبير عبد الرحمن بن

(١) الطبرى : جامع البيان – ١٥ : ١٠ – ١١١

(٢) المصدر نفسه – ١٥ : ١٢٧ – ١٢٨

(٣) نعالج هذه المسألة عند الحديث عن مصادر تفسير ابن وهب .

(٤) ابن أبى حاتم : الجرح والتعديل – م ٢ ق ١ : ٩٢

(٥) المصدر نفسه : م ١ ق٢ : ١٨٢ . الذهبى : ميزان الاعتدال – ١ : ٥٦٠ – ٥٦١ . ابن حجر : التهذيب – ٢ : ٤١٠ – ٤١١ .

(٦) ابن سعد : الطبقات – ٥ : ٣٩٧ . الذهبى : ميزان الاعتدال – ١ : ٥٦٩ – ٥٧٠ . ابن حجر : ت . التهذيب – ٢ : ٤٢٣ .

(٧) جامع البيان – ١ : ٢٣٨ و ٨ : ١٠٢ و ١٨ : ٩٦ و ٢٠ : ١٦ و ٢٢ : ٣٨ و ٢٤ : ٦٠، ٧٣ و ٢٦ : ٣٦ ، ٦٧ و ٣٠ : ١٦ ، ٢٥، ٩٩ .

أبي حاتم الرازى (ت ٣٢٧ هـ) في تفسيره الذى نقل فيه عن طريق حفص بن عمر والحكم بن أبان نفسيهما جانباً هاماً من أقوال عكرمة فى التفسير[١]. وأيا كان الأمر فإن تفسير عكرمة يكون ، بناء على هذا ، لم يعرف بصورة فعلية فى مصر إلا فى القرن الثالث .

ز – حنش بن عبد الله الصنعانى (ت ١٠٠ هـ) :

تابعى كبير ثقة . روى عن ابن عباس ، وروى المصريون عنه . ويبدو أنه كان موضع ثقة الناس علميًّا فكانوا يسألونه فيما لا يعلمون[٢] . وقد سئل مرة عن معنى آية ففسرها بشاهد حى . سأله بعضهم عن قول الله عز وجل : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون » (الذاريات : ١٧) فقال : هذه والله صفة أبى عبد الله الحبلى وسليم بن عتر[٣] . والذى يعنينا هنا هو أنه روى عن ابن عباس شيئًا من قوله فى التفسير رواه المصريون بدورهم عنه . من ذلك أن ابن عباس ذهب فى تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن » إلى أن هذه الكلمات عشر : ستة فى الإنسان ، وأربعة فى المشاعر . فالتى فى الإنسان : حلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، وتقليم الأظافر ، وقص الشارب ، والغسل يوم الجمعة . وأربعة فى المشاعر : الطواف ، والسعى بين الصفا والمروة ، ورمى الجمار ، والإفاضة[٤] . كما يروى عنه سبب نزول وتفسير النبى للآية ٢٢٣ من السورة نفسها : « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم »[٥] . وفى تفسير الآية ٢٦٠ من السورة نفسها كذلك : « فخذ أربعة من الطير » يروى حنش عن ابن عباس أن هذه الطيور الأربعة كانت : الغرنوق ، والطاووس ، والديك ، والحمامة[٦] .

---

(١) جـ ١ : ١٨ و ، ٣٢ و ، ٣٨ و ، ٣٨ ظ ، ٥٢ و ، ٥٤ ظ ، ١٠٦ و ، ١٠٦ ظ ١١٤ و ، ١١٨ ظ ، ١٢٨ و ، ١٣٩ و ، ١٩٣ و ، ١٩٧ و ، ٢٠١ ظ ، ٢٠٣ ظ ، ٢٠٥ و ، ٢٠٧ و ، ٢٢٢ و ، ٢٢٤ ظ ، ٢٤٦ و . جـ ٧ : ١٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٥٣ ، ٢٠٥ ، ٣٢٦ . وذلك على سبيل المثال .

(٢) الكندى : القضاة : ٣١٣

(٣) المصدر نفسه : ٣٠٧ . وربما كان المقصود بالحبلى المذكور أبا عبد الرحمن عبد الله ابن يزيد التابعى المصرى الثقة ت ١٠٠ هـ (ابن حجر : ت . التهذيب – ٦ : ٨١ – ٨٢) . أما سليم بن عتر فهو قاضى مصر وقاصها ت ٧٥ هـ (الكندى : القضاة : ٣٠٣ – ٣٠٤ ، ٣٠٧ – ٣١١

(٤) الطبرى : جامع البيان – ١ : ٤١٥

(٥) المصدر نفسه : ٢٢٥ – ٢٣٦

(٦) ابن أبى حاتم تفسير – ١ : ٢٠٢ .

وهكذا تكون مدرسة ابن عباس المكية فى التفسير قد ظهرت فى مصر منذ وقت جد مبكر ، ولكنها لم تكد تترك أثراً فى حركة التفسير بها .

وأيًّا كان الأمر فإن هذه الأعمال التى غطت القرن الأول اشتركت جميعها فى تأصيل حركة التفسير بمصر ، وتنظيمها ، وتوجيهها ، وبالتالى تمهيد الطريق لقيام المدرسة المصرية فى التفسير .

٢ – المدرسة المصرية

ا – عطاء بن دينار الهذلى (ت ١٢٦ هـ) :

طلب الخليفة عبد الملك بن مروان (ت ٨٦ هـ) من التابعى الكوفى الزاهد سعيد بن جبير الذى وصف بأنه كان أعلم التابعين بالتفسير[١]، فكانوا يسألونه عنه[٢] ، ويقرءونه عليه[٣] ، ويأخذونه عنه[٤] ، والذى ضرب الحجاج بن يوسف عنقه عام ٩٤ هـ لأنه اشترك فى ثورة ابن الأشعث (٨٣ هـ) وحرض القراء على الاشتراك فيها[٥] . تقول الرواية إن عبد الملك طلب من هذا العالم الثائر الذى رفع راية العصيان ضده فيما بعد أن يكتب له تفسيراً للقرآن . ففعل . ولأمر ما وضع هذا التفسير فى الديوان حتى عثر عليه تابعى مصرى ثقة ، من سكان الحمراء أحد أحياء الفسطاط . هو عطاء بن دينار الهذلى (ت ١٢٦هـ) ، فأخذه فأرسله عن سعيد بن جبير[٦] .

يصف القارئ المصرى الكبير أحمد بن صالح (ت ٢٤٨ هـ) عطاء بن دينار بأنه من ثقات المصريين ، ثم يضيف قائلا : وتفسيره فيما يروى عن سعيد بن جبير

---

(١) السيوطى : الإتقان : – ٢ : ١٨٩ . ابن العماد : شذرات الذهب – ١ : ١٠٨

(٢) ابن سعد : الطبقات – ٦ : ١٨٣

(٣) المصدرنفسه – ٦ : ١٨٦

(٤) المصدر نفسة ٦ : ٢١٠

(٥) المصدر نفسه – ٦ : ١٧٨ – ١٨٦ . ابن تغرى بردى : النجوم – ١ : ٢٢٨ . ابن العماد : شذرات – ١ : ١٠٨ – ١٠٩ . وانظر ص ٩٣ من هذا البحث .

(٦) السمعانى : الأنساب : ٢٠٨ أ . الذهبى : ميزان – ٣ : ٦٩ – ٧٠ . ابن حجر : ت التهذيب – ٧ : ١٩٨ – ١٩٩ .

(صحيفة) ؛ وليست له دلالة – أو وليس فيها ما يدل – على أنه سمع من سعيد بن جبير[١] ، كما يصفه الأمام أبو حاتم الرازى (ت ٢٧٧ هـ) الذى زار مصر حوالى سنة ٢١٥ هـ بأنه صالح الحديث إلا أن التفسير أخذه من الديوان ؛ وجده فى الديوان فأخذه فأرسله عن سعيد بن جبير[٢] .

واضح أن هذين العالمين الكبيرين يحسنان الرأى فى ابن دينار ، ولكنهما يأخذان على تفسيره أن نقله لم يتم عن طريق السماع المباشر ؛ وإنما تم عن طريق النقل الكتابى وهو ما يعرف فى مصطلح الحديث بالوجادة ؛ أى أخذ العلم من « صحيفة » من غير سماع ولا إجازة ولا مناولة . وقد منع من العمل بالوجادة كثير من الفقهاء والمحدثين ، أو أكثرهم ، فيما حكاه بعضهم . ونقل عن الشافعى وطائفة من أصحابه جواز العمل بها . وقطع بعض المحققين من أصحابه فى الأصول بوجوب العمل بها عند حصول الثقة به[٣] . ولما كان عطاء بن دينار ثقة – وثقة أحمد (ت ٢٤٢ هـ) ، وأبو داود (ت ٢٧٥ هـ) ؛ وابن يونس (ت ٣٤٧ هـ) . وذكره ابن حبان (ت ٣٥٤ هـ) فى الثقات . وقال النسائى (ت ٣٠٣ هـ) : ليس به بأس[٤] – فإن لنا أن نتوقع أنه لم يكن ليروى هذا التفسير ما لم يكن متأكداً من أنه تفسير ابن جبير فعلا . يقوى هذا أن الخليلى (ت ٤٤٦ هـ) صاحب « الإرشاد فى علماء البلاد » أشار إلى هذا التفسير بما يوثقه فقال : وتفسير عطاء بن دينار يكتب ويحتج به[٥] .

لم يسجل الطبرى فى تفسيره سوى روايات قليلة جداً من هذا التفسير لا تصلح لإعطاء فكرة ذات قيمة عنه[٦] . غير أننا لحسن الحظ نجد منها قدراً وافراً فى الجزء الأول والجزء السابع اللذين بقيا لنا من تفسير الحافظ الناقد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى (ت ٣٢٧ هـ) صاحب كتاب الجرح والتعديل ، والذى زار مصر مرتين : الأولى سنة ٢٥٥ هـ مع والده ، والثانية بنفسه سنة ٢٦٢ هـ[٧] .

(١ و ٢) الذهبى : ميزان – ٣ : ٧٠ . ابن حجر : ت . التهذيب – ٧ : ١٩٨ – ١٩٩ .
(٣) ابن كثير : الباعث الحثيث : ١٤٧ – ١٤٩ . وتعليق أحمد محمد شاكر : ١٤٩ – ١٥٢
(٤) الذهبى : ميزان – ٣ : ٧٠ . ابن حجر : ت التهذيب – ٧ : ١٨٩ – ١٩٩ .
(٥) السيوطى : الإتقان – ٢ : ١٨٨ .
(٦) جامع البيان – ١ : ٤٨ – ٤٩ و ٢ : ٣٢ و ٧ : ١١٠ و ٩ : ١٦٠ و ٢١ : ٥٥ و ٢٥ : ١٦
(٧) الذهبى : تذكرة – ٣ : ٤٦ ، ٤٧ .

وعلينا الآن أن نحاول التعرف على تفسير عطاء – أو ، فى الأصح ، ابن جبير – فى حدود ما يسمح به ما نقله منه ابن أبى حاتم .

• • •

الإسناد الرئيسى السائد الذى يروى ابن أبى حاتم عن طريقه هذا التفسير هو :
ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة : حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير : حدثنا ابن لهيعة : حدثنى عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير : . . . . .

وهذا الإسناد يعنى فى وضوح أن عطاء جلس يحدث بهذا التفسير فى مصر بعد أن حصل عليه فسمعه منه – فيمن سمع – المحدث المصرى الشهير عبد الله بن لهيعة (ت ١٧٤ هـ) . ثم مضى ابن لهيعة يحدث به بدوره فسمعه منه – فيمن سمع كذلك – المحدث المصرى الآخر يحيى بن عبد الله بن بكير (ت ٢٣١ هـ) . وفى سنة ٢٢٨ هـ قدم مصر الإمام الربانى ، المتقن : الحافظ ، المكثر ، الصادق أبو زرعة الرازى عبيد الله بن عبد الكريم (ت ٢٦٤ هـ) . وكان ابن بكير أحد – وربما أهم – من جلس إليه العالم الشاب القادم من الرى من الشيوخ المصريين[١]. وفى خلال جلوسه إليه ، وسماعه منه ، أخذ عنه – فيما أخذ – التفسير موضوع البحث . فلما التقى ابن أبى حاتم بأستاذه ومواطنه وابن خالة والده أبى زرعة ، وتتلمذ عليه ، سمع منه ، – فيما سمع – هذا التفسير ليسجله فى التفسير الذى ألفه عندما سأله جماعة من إخوانه إخراج تفسير القرآن مختصراً . . . . فتحرى إخراجه بأصح الأخبار إسناداً وأشبعها متناً[٢].

غير أن ابن بكير لم يكن المحدث الوحيد الذى سمع ذلك التفسير من ابن لهيعة ليصل عن طريقه آخر الأمر إلى ابن أبى حاتم . فلقد سمعه من ابن لهيعة أيضاً : الحافظ المروزى عبد الله بن المبارك (ت ١٨١ هـ) الذى رحل سنة ١٤١ هـ فلقى التابعين وأكثر الترحال فى طلب العلم ودخل مصر فيما دخل من البلاد[٣].

---

(١) الخطيب : ت . بغداد – ١٠ : ٣٢٦ ، ٣٢٨ – ٣٢٩ –. الذهبى : تذكرة – ٢ : ١٢٤
(٢) ابن أبى حاتم : تفسير : ١ : ١ ظ . الذهبى . تذكرة – ٢ : ١٢٤ و ٣ : ٤٦ – ٤٧
(٣) ابن سعد : الطبقات – ج ٧ ق ٢ : ١٠٤ – ١٠٥ . الذهبى : تذكرة – ١ –: ٢٥٣ .
وراجع : الطبرى : جامع البيان – ٢١ : ٥٥ ، وابن أبى حاتم : تفسير – ١ : ٢٣ و ، ٩٩ و ، ١٨٨ و .

كما سمعه المحدثان المصريان : أبو الأسود النضر بن عبد الجبار (ت ٣١٩ هـ)[١] وسعيد بن أبي مريم (ت ٢٢٤ هـ)[٢] . وسمعه أبو هارون البكاء[٣] .

بل إن ابن لهيعة نفسه لم يكن الوحيد الذى سمع تفسير عطاء : فقد سمعه منه ورواه عنه كذلك : الفقيه المصرى حيوة بن شريح التجيبى (ت ١٥٨ هـ)[٤] ، والمحدث المصرى سعيد بن أبي أيوب (ت ١٦١ هـ)[٥] .

حصل ابن أبي حاتم إذن على تفسير ابن جبير من أكثر من طريق ، وإن ظل الطريق الأول هو الطريق الرئيسى دائماً . والذى يؤخذ من هذا على أى حال هو أن عطاء ابن دينار ما إن أحضر هذا التفسير إلى مصر حتى تناقله عنه المحدثون الذين كانوا – باستثناء واحد أو اثنين – من المصريين جميعا . وإذا كان الفضل يرجع إلى ابن أبي حاتم فى تسجيل هذا التفسير وصيانته من الضياع فإنه يرجع فى الدرجة الأولى إلى العلماء المصريين الذين حفظوه وتناقلوه حتى وصل إلى ابن أبي حاتم نفسه .

وأياً كان الأمر فإن الخطوة الطبيعية التالية هى النظر فى منهج هذا التفسير .

* * *

أول ما يلفت فى تفسير ابن جبير أنه تفسير شخصى . فهو لا يعتمد فيه على غير فهمه الخاص إلا فى حالات شديدة الندرة كما فعل فى تفسير الآية ٦٨ من سورة الفرقان : « ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق » إذ قال : يعنى : نفس المؤمن . ثم استشهد بالحديث الذى يقول النبى فيه : إنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله . فإذا قالوها حرمت دماؤهم إلا بحقها وحسابهم على الله . قالوا : يا نبى الله : وما حقها ؟ قال : النفس بالنفس ، والثيب الزانية ، والمرتد عن الإسلام ، والتارك لدينه بعد إيمانه المفارق للجماعة[٦] .

(١) ابن أبي حاتم : تفسير – ١ : ٩٨ و

(٢) المصدر نفسه – ١ : ٣١ و ، ٣٦ و ، ٤٦ و

(٣) المصدر نفسه – ١ : ٧ ظ

(٤) المصدر نفسه – ١ : ٧٦ ظ

(٥) الطبرى : جامع البيان – ٧ : ١١٠ و ٩ : ١٦٠ و ٢٥ : ١٦ . ابن أبي حاتم : تفسير ٧ : ٢٠٣ .

(٦) ابن أبي حاتم : تفسير – ٧ : ٢١٩ – ٢٢٠

وإذ يفعل ابن جبير ذلك يتوخى البساطة التامة والوضوح الشديد فى تفسير الألفاظ والآيات . فلا ذكر لوجوه القراءات ، ولا استشهاد بالاستعمالات اللغوية ، ولا مناقشات لفظية . ولا خلافات نحوية . ولا مجادلات كلامية ، ولا نكات بلاغية . وإنما مجرد إعطاء المعنى اللغوى للمفردات . فمن أمثلة ذلك فى :

سورة البقرة :

— « هدى للمتقين » (٢) : تبيان للمتقين[١] .

— « ذلك خير لكم » (٥٤) : أفضل[٢] .

— « فجعلناها نكالا لما بين يديها » (٦٦) : من بين يديها . من بحضرتها يومئذ من الناس[٣] .

— « تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان » (٨٥) : بالإثم يعنى : المعصية[٤] .

— « وما تقدموا لأنفسكم من خير » (١١٠) يعنى : ما عملوا من الأعمال من الخير فى الدنيا[٥] .

— « مثابة للناس » (١٢٥) يقول : مجتمعاً للناس[٦] .

— « لها ما كسبت » (١٣٤) يعنى : ما عملت من خير أو شر[٧] .

— « وآتى المال » يعنى : أعطى المال « على حبه » يعنى : على حبه المال « ذوى القربى » يعنى : قرابته « والسائلين . وفى الرقاب » يعنى : فكاك الرقاب « وأقام الصلاة » يعنى : وأتم الصلاة المكتوبة «وآتى الزكاة » يعنى : الزكاة المفروضة « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » يعنى : فيما بينهم وبين الناس (١٧٧)[٨] .

---

(١) المصدر نفسه – ١ : ٥ ظ

(٢) المصدر نفسه – ١ : ٣٦ ظ

(٣) المصدر نفسه – ١ : ٤٦ و

(٤) المصدر – ١ : ٥٨ و

(٥) المصدر نفسه – ١ : ٧٦ و

(٦) المصدر نفسه – ١ : ٨٣ ظ – ٨٤ و

(٧) ابن ابى حاتم : تفسير – ١ : ٩٠ و

(٨) المصدر نفسه – ١ : ١١٠ ظ – ١١١ و

— « فله عذاب أليم » (١٧٨) يعنى : وجيع[1] .

— « يمحق الله الربا » (٢٧٦) يعنى : يضمحل « ويربى الصدقات » يعنى : يضاعف الصدقات[2] .

سورة آل عمران :

— « هن أم الكتاب » (٧) يقول : أصل الكتاب . وإنما سماهن أم الكتاب لأنهن مكتوبات فى جميع الكتب[3] .

— « الصابرين» يقول : على أمر الله « والصادقين » قال : فى إيمانهم ، « والقانتين » يعنى : المطيعين لله فيما أمرهم « والمنفقين » يعنى : من أموالهم فى حق الله « والمستغفرين بالأسحار » يعنى : المصلين بالأسحار (آية : ١٧)[4] .

سورة المؤمنون :

— « وكنا قوماً ضالين » (١٠٦) يقول : جاهلين[5] .

سورة النور :

— « لا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله » (٢) يعنى : فى حكم الله الذى حكم على الزانى[6] .

— « إن الذين جاءوا بالإفك » يعنى : بالكذب « عصبة منكم » يعنى : عبد الله ابن أبىّ المنافق ، وحسان بن ثابت ، ومِسْطَحَ بن أثاثَة ، وحَمْنَة بنت جحش . « لا تحسبوه شرًّا لكم » يقول لعائشة وصفوان : لا تحسبوا الذى قيل لكم من الكذب شرًّا لكم « بل هو خير لكم » : لكنكم تجزون على ذلك « لكل امرئ منهم » يعنى : من خاض فى أمر عائشة « ما اكتسب من الإثم » يعنى : على قدر ما

---

(١) المصدر نفسه — ١ : ١١٣ ظ
(٢) المصدر نفسه — ١ : ٢١٦ ظ
(٣) المصدر نفسه — ١ : ٢٣٣ ظ
(٤) المصدر نفسه — ١ : ٢٤٢ و
(٥) المصدر نفسه — ٧ : ٢
(٦) المصدر نفسه — ٧ : ١٤

خاض فيه من أمرها . » والذى تولى كبره » يعنى : عُظْمة . يعنى : الذى تولى تلك الخطيئة بنفسه : وهو أعظمهم إثماً عند الله عز وجل . هم المؤاخذون به . فإذا كانت خطيئة من المسلمين فمن شهد وكره فهو الغائب . ومن غاب ورضى فهو مثل الشاهد (آية : ١١)[١].

سورة الفرقان :

— « وكان الكافر على ربه ظهيراً » (٥٥) يقول : عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك[٢] .

— « قل ما أسألكم عليه من أجر » (٥٧) يقول : لا أسألكم على ما جئتكم به أجراً[٣] .

— « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » (٦٣) يعنى : السفهاء من الكفار[٤].

— « واجعلنا للمتقين » يعنى : الذين يتقون الشرك » إماما » يعنى : اجعلنا أئمة فى الخير نعبدك ربنا . فأخبر بثوابهم (آية : ٧٤)[٥] .

سورة النمل :

— « نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى » يقول : أتعرف السرير » أم تكون من الذين لا يهتدون » يقول : أم تكون من الذين لا يعرفون . (آية : ٤١)[٦].

سورة القصص :

— « وجد عليه أمة من الناس (٢٣) يقول : قوماً[٧].

— « قالت : إن أبى يدعوك ليجزيك أجرما سقيت لنا » (٢٥) : ليطعمك[٨].

---

(١) ابن أبى حاتم : تفسير – ٧ : ٤٥ – ٤٦
(٢) المصدر نفسه – ٧ : ٢٠٢
(٣) المصدر نفسه ٧ : ٢٠٣
(٤) المصدر نفسه – ٧ : ٢١٢
(٥) المصدر نفسه – ٧ : ٢٣٢
(٦) المصدر نفسه – ٧ : ٣٨٧
(٧) المصدر نفسه – ٧ : ٤٥٨
(٨) المصدر نفسه – ٦ : ٤٦١

— « ويدرءون بالحسنة السيئة » (٥٤) يعنى : يردون معروفاً على من يسيء إليهم[1] .

وفى الآيات التى تتسم بشيء من الصعوبة مثل الآيات الفقهية ، أو آيات الأحكام ، لا تفارق ابن جبير نزعته إلى البساطة والوضوح . فيقول مثلا فى تفسير الآيات ١٨٠ — ١٨٢ من سورة البقرة والتى تتحدث عن الوصية :

« الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقًّا على المتقين » يقول : تلك الوصية حق على المتقين . « فمن بدله » يقول : الأوصياء . يقول : من بدل وصية الميت « بعدما سمعه » يعنى : من بعد ما سمع من الميت فلم يمض وصيته إذا كان عدلا « فإنما إثمه » يعنى : إثم ذلك « على الذين يبدلونه » يعنى : الوصى . وبرئ منه الميت ، « إن الله سميع عليم » يعنى « الوصية للميت عليم بها . « فمن خاف » يقول : فمن علم « من موص » يعنى : من الميت . « أو إثماً » يعنى : أو خطأً فلم يعدل . . « إن الله غفور رحيم » يعنى : للوصى حين أصلح بين الورثـ . « رحيم » يعنى : رحيما به خبيراً به حيث رخص له فى خلاف جور وصية الميت[2] .

وفى آيات الطلاق يفسر ابن جبير الآية ٢٣٣ من السورة نفسها كالآتى :

« والوالدات يرضعن أولادهن » : وهو الرجل يطلق امرأته وله منها ولد ، فهى أحق بولدها من غيرها ، فهن يرضعن أولادهن .

« لمن أراد أن يتم الرضاعة » يعنى : يكمل الرضاعة .

« وعلى المولود له » يعنى : الأب الذى له وُلِدَ .

« رزقهن » يعنى : رزق الأم .

« لا تكلف نفس إلا وسعها » يقول : لا يكلف الله نفساً فى نفقة المراضع إلا ما أطاقت .

---

(١) المصدر نفسه — ٧ : ٨٧؛

(٢) ابن أبى حاتم : تفسير — ١ : ١١٤ ظ — ١١٦ و . ويلحظ أن الأجزاء الناقصة هنا وفيما يأتى قد ترجع إلى ابن جبير ، كما قد ترجع — إلى ابن أبى حاتم .

« لا تضار والدة بولدها » يقول : لا يحمل الرجل امرأته على أن يضارها فينتزع لدها منها وهى لا تريد ذلك .

« ولا مولود له بولده » يعنى : الرجل . يقول : يحمل المرأة إذا طلقها زوجها أن تضاره فتلقى إليه ولده مضارة له .

« فإن أرادا فصالا » يعنى : الأبوين . فإن أرادا أن يفصلا الولد عن اللبن دون الحولين .

« فلا جناح عليكم » يعنى : لا حرج على الإنسان أن يسترضع لولده ظئراً ويسلم لها أجرها ، ولا كسوة لها ولا رزق — فذلك له .

« فلاجناح عليكم إذا سلمتم لأمر الله » يعنى : فى أجر المراضع .

« ما أتيتم بالمعروف » يقول : ما أعطيتم الظئر من فضل على أجرها .

« واتقوا الله . واعلموا أن الله بما تعملون بصير » : « واتقوا الله » يعنى : لا تعصوه . ثم حذرهم فقال : « إن الله بما تعملون بصير » يعنى : بما ذكر عليم[1] .

وفى الآيتين ٢٨٢ — ٢٨٣ — آيتى الدين — من السورة نفسها مثال آخر للتفسير الفقهى عند ابن جبير :

« وليكتب بينكم » بين البائع والمشترى « كاتب بالعدل » يعنى : يعدل بينهما فى كتابه ، لا يزاد على المطلوب ولا ينقص من حق الطالب . « ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله » الكتابة وترك غيره . . . « وليملل الذى عليه الحق » يعنى : المطلوب . يقول : ليمل ما عليه من الحق على الكاتب من حق المطلوب . . . « ولا يبخس منه شيئاً » يقول: لاينقص من حق الطالب شيئاً . «فإن كان الذى عليه الحق » يعنى : المطلوب « سفيهاً » : السفيه : الجاهل بالإملاء ، « أو ضعيفاً » يعنى : عاجزاً أو أخرس أو رجلا به حمق ، « أو لا يستطيع » يعنى : لا يحسن « أن يمل هو » قال : أن يمل ما عليه « فليملل وليه بالعدل » : فليملل ولى الحق حقه بالعدل ، يعنى : الطالب ، ولا يزيد شيئاً . « واستشهدوا » يعنى : على حقكم « شهيدين من رجالكم » يعنى : مسلمين أحراراً ... ... « أن تضل إحداهما » يقول : أن تنسى إحدى المرأتين الشهادة « فتذكر إحداهما الأخرى » يعنى :

(١) ابن أبى حاتم : تفسير – ١ : ١٦٧ ظ – ١٧٠ ظ .

تذكرها التى حفظت شهادتها .... « ولا تسأموا » يقول : لا تملوا « أن تكتبوه صغيراً أوكبيراً إلى أجله » يعنى : أن تكتبوا قليل الحق وكثيره إلى أجله لأن الكتاب أحصى للأجل والمال . « ذلكم » يعنى : الكتاب « أقسط عند الله » يقول : أعدل عند الله . « وأقوم » يعنى : وأصوب للشهادة . « وأدنى ألا ترتابوا » يقول : وأجدر ألا تشكوا فى الحق والأجل والشهادة إذا كان مكتوباً . ثم استثنى فقال : « إلا أن تكون تجارة حاضرة » يعنى : يداً بيد « تديرونها بينكم » قال : ليس فيها أجل « فليس عليكم جناح » يعنى : حرج « ألا تكتبوها » يعنى التجارة الحاضرة . « وأشهدوا إذا تبايعتم » يعنى : أشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل أو لم يكن . فأشهدوا على حقكم على كل حال . . « وإن تفعلوا » يعنى : إن تضاروا الكاتب أو الشاهد وما نهيتم عنه « فإنه فسوق بكم » . « واتقوا الله » : ولا تعصوه فيهما ... « والله بكل شىء عليم » يعنى : من أعمالكم . « وإن كنتم على سفرولم تجدوا كاتباً» يعنى : لم تقدروا على كتابة الدين فى السفر « فرهان مقبوضة » يقول : فليرتهن الذى له الحق من المطلوب . « فإن أمن بعضكم بعضاً » يقول : فإن كان الذى عليه الحق أميناً عند صاحب الحق فلم يرتهن لثقته وحسن ظنه « فليؤد الذى اؤتمن أمانته » يقول : ليؤد الحق الذى عليه إلى صاحبه . « وليتق الله ربه » . « ولا تكتموا الشهادة » يعنى : عند الحكام . يقول من أشهد على حق فليقمها على وجهها كيف كانت . « ومن يكتمها » يعنى : الشهادة ، ولا يشهد بها إذا دعى لها « فإنه آثم قلبه » . « والله بما تعملون عليم » يعنى : من كتمان الشهادة وإقامتها عليهم [١] .

• • •

يفسر ابن جبير القرآن إذن وفقاً لفهمه الذاتى المستمد من المعنى اللغوى المباشر فى أبسط صورة وأوضحها . وقد هيأ له هذا أن يعبر عن وجهة نظر خاصة لعله يتفرد بها . وتفسيره الآيات الآتية من سورة البقرة مثال لذلك :

— « فلا خوف عليهم » يعنى : فى الآخرة « ولا هم يحزنون » يعنى : لا يحزنون للموت (آية : ٣٨)[٢] .

---

(١) ابن أبى حاتم : تفسير – ١ : ٢١٩ ظ – ٢٢٥ ظ
(٢) المصدر نفسه ١ – : ٢٩ ظ

— « ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً » (٤١) : إن آياته كتابه الذى أنزل إليهم . وإن الثمن القليل هو الدنيا وشهواتها[١].

— « وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان» (٥٣) : علم الكتاب وتبيانه وحكمته[٢].

— « من أسلم وجهه لله » (١١٢) : من أخلص دينه[٣].

— « فاذكرونى أذكركم » (١٥٢) يقول : اذكرونى بطاعتى أذكركم بمغفرتى أو برحمتى[٤] .

— « فيهما إثم كبير » (٢١٩) : لأن فى شرب الخمر والقمار ترك الصلات وترك ذكر الله[٥].

ويدخل فى هذا الاتجاه تلك المعانى الثابتة التى تدور فى تفسير ابن جبير دون أن تتغير بما يدل فى وضوح على أنها مفاهيم معينة انتهى إليها هو وارتضاها . وأصبح معروفاً بها . وأصبحت معروفة به . حتى ليمكن القول بأن ابن جبير كان له قاموسه القرآنى الخاص الذى نقدم فيما يلى أمثلة منه :

— هدى : تبيان[٦].

— مؤمنين : مصدقين[٧] .

— يؤمن بالله : يصدق بتوحيد الله[٨].

— خالدون : لا يموتون[٩].

— بكل شىء عليم : من أعمالكم عليم[١٠].

— الرحيم : رحيم بهم بعد التوبة[١١].

---

(١) المصدر نفسه — ١ : ٣١ و (٢) المصدر نفسه — ١ : ٣٦

(٣) المصدر نفسه — ١ : ٧٦ ظ

(٤) المصدر نفسه — ١ : ٩٨ و — ٩٨ ظ

(٥) المصدر نفسه — ١ : ١٥٢ و

(٦) ابن أبي حاتم : تفسير — ١ : ٥ ظ — ٧ : ٤١٦

(٧) المصدر نفسه — ١ : ٩ و ، ١٨٦ و ، ٢١٧ و — ٧ : ١٦ ، ٢٦ — ٢٧ ، ٥١ ، ٢٤٠ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٣٣٦ ، ٤٤٤ .

(٨) المصدر نفسه — ١ : ١٩٥ ظ — ١٩٦ و ، ٢٠٥ و — ٧ : ٣ ، ١٥ ، ٤٩٧

(٩) المصدر نفسه — ١ : ١٨ ظ ، ٢١٦ و — ٧ : ٢٣٤

(١٠) المصدر نفسه — ١ : ٢٢ و — ٧ : ١٥٤

(١١) المصدر نفسه — ١ : ٢٩ و ، ١٢٦ و — ٧ : ٣١ ، ١٥٠ ، ٢٤٠ ، ٣٤٦ ، ٤٥٢ .

- فلا خوف عليهم : فى الآخرة ، ولا هم يحزنون : لا يحزنون للموت[١] .
- آياتنا ، آياتك ، آيات الله ، آياتى ، آياته : القرآن[٢] .
- الصبر : اعتراف العبد لله بما أصاب منه ؛ واحتسابه عند الله ، ورجاء ثوابه . وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر[٣] .
- لعلكم : لكى[٤] .
- فباءوا بغضب : استوجبوا سخطاً[٥] .
- فلولا : هلا[٦] .
- وما الله بغافل عما تعملون ، والله بما تعملون عليم : بما يكون عليم[٧] .
- فريقا ، فريق : طائفة[٨] .
- عليم : عالم بها[٩] .
- ماكسبت : ما عملت من خير أو شر[١٠] .
- فى سبيل الله : طاعة الله[١١] .
- الصابرين : على أمر الله[١٢] .
- جناح : حرج[١٣] .
- كتب عليكم : فرض عليكم[١٤] .
- كذلك : هكذا[١٥] .

---

(١) المصدر نفسه – ١ : ٢٩ ظ ؛ ٧٦ ظ – ٧٧ و

(٢) المصدر نفسه – ١ : ٢٩ ظ، ٨٨ ظ ؛ ١٩٠ و – ٧ : ٢٢ ، ٧٩ ، ٤٤

(٣) المصدر نفسه : – ١ : ٣٣ و ، ٩٩ . ١٨٨ و

(٤) المصدر نفسه – ١ : ٣٦ و – ٧ : ١٢ ، ١٢٧ ، ٢٣٧ ، ٣٩٥

(٥) المصدر نفسه – ١ : ٤٢ ظ ، ٦٢ و

(٦) المصدر نفسه – ١ : ٤٥ و – ٧ : ٤٧ ، ٤٩

(٧) المصدر نفسه – ١ : ٥١ و ، ٦٤ ظ – ٧ : ٨٠

(٨) المصدر نفسه – ١ : ٦٠ ظ ، ١٢٣ ظ ، ٢٤٥ و – ٧ : ٣ ، ١١٦

(٩) ابن أبي حاتم : تفسير – ١ : ٨٧ ظ ؛ ١٨٤ و

(١٠) المصدر نفسه – ١ : ٩٠ و ، ٢١٩ و

(١١) المصدر نفسه – ١ : ٩٩ و ، ١٨١ و ، ١٨٢ ظ ، ٢٠٣ و ، ٢٣٨ ظ

(١٢) المصدر نفسه – ١ : ٩٩ ظ ، ٢٤١ ظ – ٧ : ٥ ، ٢٣٣

(١٣) المصدر نفسه – ١ : ١٠١ و ، ١٧٠ و – ٧ : ٨٠

(١٤) المصدر نفسه – ١ : ١١٦ و ، ١٤٨ و ، ١٨٣ و

(١٥) المصدر نفسه – ١ : ١٢٣ و ، ٢٠٧ ظ – ٧ : ٣١٩

- الكريم : الحسن[١] .
- فاسقين : عاصين[٢] .
- المبين : البين[٣] .

• • •

يبدو أن ابن جبير كان يعنى بالوقوف على أسباب النزول كعامل هام فى معرفة ما تدل عليه الآيات فهو يذكر عند تفسير « الحر بالحر » من آية القصاص (البقرة : ١٧٨) أن حيين من العرب اقتتلوا فى الجاهلية قبل الإسلام بقليل ، فكان بينهم قتل وجراحات ، حتى قتلوا العبيد والنساء . فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا. فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر فى العدة والأموال . فحلفوا ألا يرضوا حتى يقتلوا بالعبد منا الحر منهم ، وبالمرأة منا الرجل منهم . فنزل فيهم « الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى »[٤].

وفى تفسير الآية ١٨٨ من السورة نفسها : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » يقول ابن جبير :

يعنى : بالظلم . وذلك أن امرأ القيس بن عابس وعبدان بن أسرع الحضرمى اختصما فى أرض ، وأراد امرؤ القيس أن يحلف ، ففيه نزلت : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل »[٥].

كما يقول فى تفسير الآية ٢١٦ من السورة نفسها : « كتب عليكم القتال » : وذلك أن الله تبارك وتعالى أمر النبى عليه السلام والمؤمنين بمكة بالتوحيد، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن يكفوا أيديهم عن القتال . فلما هاجر إلى المدينة نزلت سائر الفرائض ، وأذن لهم فى القتال ، فنزلت : « كتب عليكم القتال » يعنى : فرض عليكم . وأذن لهم بعد ما كان نهاهم عنه[٦].

---

(١) المصدر نفسه – ٧ : ٩ ، ٢٦١
(٢) المصدر نفسه – ٧ : ٣٠ ، ٣٤٩ ، ٤٧٤
(٣) المصدر نفسه – ٧ : ٤٨ –٤٩ ٤١٦ ، ٥٢٣
(٤) المصدر نفسه – ١ : ١١٢ و
(٥) ابن أبى حاتم : تفسير – ١ : ١٢٣ و – ظ
(٦) المصدر نفسه – ١ : ١٤٨ و

ويقول فى تفسير الآية ٢٣٤ من السورة نفسها : « فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف » :

أنزلت هذه الآية فى النساء اللاتى يتوفى عنهن أزواجهن . يقول : ليس عليهن جناح بعد العدة فيما تزين وتصنعن فى طلب الأزواج[١] .

ويتوقف ابن جبير عند تفسير الآية ١١ من سورة النور : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم » ليقول :

وذلك أن النبي عليه السلام انطلق غازياً . وانطُلق معه بعائشة بنت أبى بكر زوج النبي عليه السلام . ومع النبي عليه السلام يومئذ رفيق يقال له : صفوان بن المعطل . من بنى سليم . وكان إذا سار النبي عليه السلام ليلا مكث صفوان فى مكانه حتى يصبح . فإن سقط من المسلمين شىء من متاعهم حمله إلى المعسكر .

ويمضى ابن جبير فيذكر القصة المعروفة فى إيجاز شديد حتى يقول :

فقذفها عبد الله بن أبىّ المنافق ، وحسان بن ثابت . ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش الأسدىّ . فقال عبد الله بن أبىّ المنافق : ما برئت عائشة من صفوان وما برئْ صفوان منها . وخاض الناس فى ذلك . وقال بعضهم : قد كان كذا وكذا . وقال بعضهم : كذا . وعرض بالقوم . وبعضهم أعجبه ذلك . فنزلت ثمانى عشرة آية[٢] متواليات بتكذيب من قذف عائشة وببراءتها . ويؤدب فيها المؤمنين . فنزلت : « إن الذين جاءوا بالإفك »[٣]

وفى تفسير الآية ٦١ من سورة النور : « ليس على الأعمى حرج » يقول :

وذلك لما أنزلت هذه الآية : يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » (النساء : ٢٩) قالت الأنصار : ما بالمدينة مال أعز من الطعام . كانوا يتحرجون أن يأكلوا مع الأعمى ، يقولون : إنه لا يبصر موضع الطعام . وكانوا يتحرجون الأكل مع الأعرج يقولون : الصحيح يسبقه إلى المكان ولا يستطيع أن يزاحم . ويتحرجون الأكل مع المريض . يقولون : لا يستطيع أن يأكل مثل

---

(١) المصدر نفسه - ١ : ١٧٨ و

(٢) فى الأصل : ثمانية عشر آية

(٣) ابن أبى حاتم ، تفسر - ٧ : ٤٤ - ٤٥

الصحيح . وكانوا يتحرجون أن يأكلوا فى بيوت أقربائهم . فنزلت : « ليس على الأعمى حرج » يعنى : فى الأكل مع الأعمى حرج [١] .

تقول الآيات ٦٨ – ٧٠ من سورة الفرقان :

« والذين لا يدعون مع الله إلها آخر . ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق . ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا . فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات . وكان الله غفوراً رحيماً » .

يقول سعيد بن جبير : نزلت هذه الآية (٦٨) فى كفار مكة . فلما هاجر النبى عليه السلام إلى المدينة كتب وحشى غلام المطعم بن عدى بن نوفل إلى النبى عليه السلام بالمدينة : إنى قد أشركت . زنيت وقتلت – وكان قتل حمزة بن عبد المطلب يوم أحد – قال : هل لى من توبة ؟ فنزلت فيه . فاستثنى « إلا من تاب » يعنى : من الشرك [٢] .

بعد أن أورد ابن جبير سبب نزول الآية ١٧٨ من سورة البقرة [٣] ذكر أنها قد نسختها الآية : ٤٥ من سورة المائدة : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس » وليس هناك ما يجعلنا نستبعد أن يكون ابن جبير قد تعرض للنسخ فى مواضع أخرى من تفسيره الكامل .

وقد نشتم رائحة القصص من تفسيره الآية ٢٤ من سورة الفرقان : « أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرًّا وأحسن مقيلا » إذ يقول :

يفرغ الله من حساب الناس نصف النهار . فيقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار . فيقول الله يومئذ : « أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرًّا وأحسن مقيلا » [٤] .

ربما كان فى تفسير ابن جبير الكامل شىء غير هذا من الرجوع إلى القصص .

---

(١) المصدر نفسه – ٧ : ١٣٩

(٢) المصدر نفسه – ٧ : ٢٢١

(٣) أنظر ص ٢٣٢ من هذا البحث

(٤) ابن أبى حاتم : التفسير ٧ : ١٧٣

ولكنه إن كان فهو – فيما نرجح – قليل جداً . إذ يلفت النظر أنه فى تفسيره هذا الذى يرويه عنه عطاء لا أثر للإسرائيليات ، وذلك طبعاً فى نطاق الروايات الواردة فى الجزء الأول والسابع من تفسير ابن حاتم . يقوى عندنا ما نذهب إليه أننا نستطيع أن نجد فيما يرويه ابن أبى حاتم عن ابن جبير عن ابن عباس من تفسيره أو حتّى فيما يرويه عن ابن جبير نفسه ولكن من غير طريق عطاء بن دينار ، قدراً ، ولكنه قليل جداً جداً، من الإسرائيليات [1] فهل يعنى ذلك أن ابن جبير كان يتجنب هذه الاتجاهات فى تفسيره ؟

أما بعد – فقد ذهبت الرواية إلى أن ابن جبير كتب تفسيره هذا ليستعمله الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان بناء على طلبه . ومن الحق أننا ما زلنا يشدنا ما يتميز به هذا التفسير من بساطة ووضوح ، وسهولة وقرب تناول . ونحن لا ننكر أن التفسير بعامة كان لا يزال فى ذلك الوقت – القرن الأول للهجرة – محتفظاً ببساطة البداية ، بعيداً عما تطرق إليه فيما بعد من مسائل أخرى نحوية . أو خاصة بالقراءة . أو كلامية . أو بلاغية ، إلخ . غير أن شخصية ابن جبير الثورية وكفاحه المسلح – كقارئ – ضد الحكم الأموى يجعلنا نفترض فى تحفظ شديد أن هذا العالم الثائر كان – وهو يضع تفسيره هذا – ينظر إلى هدف بعينه ، ذلك هو أن يجعل منه تفسيراً ميسراً . مبسطاً ، قريباً من عامة الناس ذوى الثقافة المحدودة أو حتّى الذين لا ثقافة لهم على الإطلاق . وفى كلمة أراد ابن جبير لتفسيره أن يكون تفسيراً شعبيًّا . ولا تناقض فى ذلك مع القول – إن صح – بأنه إنما وضعه بناء على أمر الخليفة . فما كان لدى ذلك العاهل المثقل بأعباء الحكم طاقة إلا للرجوع إلى مثل هذا التفسير القريب .

وأيًّا كان الأمر فإن لتفسير ابن جبير هذا أهمية خاصة وكبيرة بالنسبة إلى حركة التفسير فى مصر إذ أنه أول تفسير كامل منظم مدون نعلم أنه يظهر بها . ولا شك فى أنه قد سد فراغاً حقيقيًّا ، وأشبع حاجة فعلية عند المصريين الذين لم يكن لديهم من التفسير حتّى ذلك الحين سوى أقوال متفرقة قال بها المفسرون ، وروايات

---

(١) المصدر نفسه : - ٧ : ٢٤٤ ، ٢٤٥ ؛ ٣٥٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ؛ ٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٣ .

متناثرة تناقلها المحدثون . ولا أدل على احتفال المصريين بهذا التفسير من حرصهم على تناقله عبر الزمن منذ أن ظهر بينهم فى أوائل القرن الثانى على الأكثر حتى القرن الثالث عندما حمله الرواة — الذين كان أبو زرعة الرازى من أهمهم — إلى ابن أبى حاتم الذى يرجع إليه الفضل فى حفظه من الضياع عندما سجله — كله أو الجزء الأكبر منه — فى تفسيره الهام الذى لم يبق لنا منه بكل أسف سوى جزأين[١] .

ب — عبيد بن سُوَيَّة الأنصارى (ت ١٣٥ هـ) :

لم يكن عطاء بن دينار المفسر الوحيد فى مصر فى وقته — وإن كان يبدو أنه كان أهم المفسرين وأشهرهم — فقد كان من أهل مصر رجل صالح . فاضل . ثقة يدعى عبيد بن سوية الأنصارى (ت ١٣٥ هـ)[٢] . قد روى عن السيدة الصحابية سبيعة الأسلمية [٣] ، وعن قاضى مصر وقاصها وصاحب بيت مالها عبد الرحمن بن حجيرة الخولانى (ت ٨٣ هـ) . وفى كلمات ثلاث يقرر المؤرخ المصرى الثقة ابن يونس (ت ٣٤٧ هـ) ببساطة شديدة أن ابن سوية هذا « كان يفسر القرآن » [٤] . وبالرغم مما توحى به هذه العبارة من أن ابن سوية كان يشتغل بتفسير القرآن فى مصر معروفاً به فإنا لم نقابل له — وهذا غريب حقاً — شيئاً فى ذلك . بل إنا لا نستطيع أن نقرر ما إذا كان تفسيره قد دون أم لا . وعلى أى حال فنحن هنا إزاء مفسر مصرى مبكر قد أهمل ، أو ضاع . تفسيره بكل أسف .

حـ — عبد الله بن وهب (١٢٥ — ١٩٧ هـ) :

كان هناك شاب مصرى ، مخلص متحمس ، شديد الرغبة فى تحصيل العلوم الدينية الرئيسية : الحديث ، والفقه ، والقراءة ، والتفسير . ولما كانت المدينة

---

(١) هما الجزء الأول ، ويقع فى ٢٤٧ ورقة — أى ٤٩٤ صفحة — ويشتمل على تفسير سورة الفاتحة ، وسورة البقرة ، وسورة آل عمران حتى الآية ٣٨ . والجزء السابع ، ويقع فى ٥٧٥ صفحة تضم تفسير بقية سورة المؤمنون ، سورة النور ، سورة الشعراء ، سورة النمل ، سورة القصص ، سورة العنكبوت . وهما محفوظان فى دار الكتب المصريه تحت رقم ١٥ تفسير — خط .

(٢) فى اسمه وكنيته خلاف .

(٣) يذكرها ابن سعد فى « تسمية غرائب نساء العرب المسلمات المهاجرات المبايعات » : الطبقات — ٨ : ٢١٠

(٤) ابن حجر : ت . التهذيب — ٧ : ٦٧ — ٦٨ .

ما تزال العاصمة الروحية والفكرية للعالم الإسلامى حينذاك ، فقد شد عبد الله ابن وهب – وكان هذا اسمه – إليها الرحال عام ١٤٨ هـ وهو لا يزال فى ربيعه الثالث والعشرين . الحماس ملء صدره . والحيوية ملء عروقه . وتشتعل روحه بالشوق المقدس إلى المعرفة . هذا وفى المدينة رجال تضرب إليهم أكباد الإبل . وتقطع فى سبيلهم المفاوز . من مثل : نافع شيخ القراء فى زمانه (ت ١٦٩ هـ) . ومالك إمام المدينة وعالمها ومفتيها (ت ١٧٩ هـ) . وعبد الرحمن بن زيد المفسر الكبير (ت ١٨٢ هـ) [1] . كما كان لا يزال فيها أكثر من عشرين رجلا من أصحاب ابن شهاب الزهرى حافظ أهل زمانه (ت ١٢٤ هـ) [2] . ولم يكن عبد الله فى عجلة من أمره ، ولا سمح للحنين المصرى بأن يعجل بعودته إلى أرض النيل فجلس إلى هؤلاء الجلة من الشيوخ فأطال الجلوس . واستمع فأحسن الاستماع حتى ليقال إنه بقى بالمدينة حتى وفاة أستاذه مالك (١٧٩ هـ) الذى دامت صحبته إياه عشرين عاما [3] . على أن الطالب المصرى الجاد لم يقتصر على الشيوخ المدنيين فقد تتلمذ كذلك على علماء مكة والعراق من مثل : ابن جريج (ت ١٤٩هـ) ، وسفيان الثورى (ت ١٦١هـ) . وسفيان بن عيينة (ت١٩٨هـ)[4] هذا بالإضافة إلى شيوخ المصريين من مثل : عمرو ابن الحارث (ت ١٤٨ هـ) . وحيوة بن شريح (ت ١٥٨ هـ) . وابن لهيعة (ت ١٧٤ هـ) ، والليث بن سعد (ت ١٧٥ هـ) [5] . وكان حصاد ذلك الطلب الدائب الذى أنفق فيه ابن وهب زهرة شبابه مائة ألف حديث رواها عن نحو أربعمائة شيخ من المصريين والحجازيين والعراقيين [6] . ومهما كان فى هذه الأرقام من مبالغة واضحة فالذى لا شك فيه هو أن الأمر انتهى بابن وهب إلى أن أصبح من أبرز الشخصيات العلمية فى العالم الإسلامى . وصفه أستاذه مالك بأنه « عالم »[7] . بل بأنه «إمام»[8] .

---

(١) ابن النديم الفهرست : ٢٢٥ . ابن حجر : ت . التهذيب – ٦ : ١٧٧ وما بعدها .

(٢) ابن خلكان : وفيات – ١ : ٢٤٩ . ابن تغرى بردى : النجوم – ١ : ٢٩٤

(٣) ابن خلكان : وفيات – ١ : ٢٤٩ . ابن فرحون : الديباج : ١٣٢ .

(٤ و ٥) ابن حجر : ت . التهذيب – ٦ : ٧١

(٦) الذهبى : تذكرة – ١ : ٢٧٨ . ابن فرحون : الديباج : ١٣٢ . ابن حجر : ت . التهذيب – ٦ : ٧٢ . السيوطى : حسن – ١ : ١٢١ .

(٧) ابن خلكان : وفيات – ١ : ٢٤٩ . الذهبى : تذكرة – ١ : ١٧٩

(٨) ابن خلكان : وفيات – ١ : ٢٤٩

وفى كتبه إليه كان يخاطبه بلقب « المفتى » أو « مفتى أهل مصر » . لم يكن يفعل هذا مع غيره[١] . وألف مواطنوه أن يسموه « ديوان العلم »[٢] . ولما بلغ ابن عيينة نعيه (١٩٧ هـ) قال : إنا لله وإنا إليه راجعون : أصيب به المسلمون عامة . وأصبت به خاصة[٣] . ولا عجب فإليه يرجع الفضل فى حفظ علم أهل الحجاز ومصر . فقد كتب حديثهم . وعنى بجميع ما رووا حتى أصبح حديثهم يدور على روايته[٤] .

كان طبيعيًّا . مع ذلك التحصيل الطويل الغزير . أن يتجه ابن وهب إلى الإنتاج العلمى . وهو يعد ممن جمع وصنف[٥] . بل إنه يعد بين أوائل من صنف ليس فى مصر فحسب بل فى العالم الإسلامى كله مثله مثل مالك بن أنس وسفيان ابن عيينة[٦] وله تصانيف كثيرة[٧] . ومصنفات فى الفقه معروفة[٨] . وأيًّا كان الأمر فقد ألف ابن وهب تآليف كثيرة حسنة عظيمة المنفعة منها : سماعه من مالك : ثلاثون كتابا . موطؤه الكبير . جامعه الكبير وكتاب الأهوال وبعضهم يضيفه إلى الجامع . كتاب تفسير الموطأ . كتاب البيعة . كتاب لاهام ولاصفر وكتاب المناسك . كتاب المغازى . وكتاب الردة[٩] . يغلب أن كان له كتاب فى التاريخ[١٠] .

ولما كان ابن وهب — مثله مثل المصنفين الأوائل — مطمح نظره فى التدوين ضبط معاقد القرآن والحديث ومعانيهما[١١] فقد حرص على أن يؤلف تفسيراً للقرآن

---

(١) ابن خلكان — ١ : ٢٤٩ . الذهبى : تذكرة — ١ : ٢٧٩ . السيوطى : حسن — ١ : ١٢١
(٢) الذهبى : تذكرة — ١ : ٢٧٩ . ابن حجر : ت . التهذيب — ٦ : ٧٣
(٣) الذهبى : تذكرة — ١ : ٢٧٩
(٤) السمعانى : الأنساب : ٤٣٤ ب . ابن حجر : ت . التهذيب — ٦ : ٧٢
(٥) السمعانى : الأنساب : ٤٣٤ ب .
(٦) حاجى خليفة : كشف — ١ : ٣٤
(٧) السيوطى : حسن — ١ : ١٢١
(٨) ابن خلكان : وفيات (ط . النهضة) — ٢ : ٢٤١
(٩) ابن فرحون : الديباج : ١٣٣
(١٠) كست : مقدمة الولاة والقضاة : ٢٨
(١١) حاجى خليفة : كشف — ١ : ٣٤

الكريم أشار صاحب كشف الظنون إليه مرتين[١]. وقد ضاع هذا التفسير فى صورته المستقلة ، غير أننا نستطيع لحسن الحظ استخراجه استخراجا يكاد يكون كاملا من تفسير الطبرى الذى ندين له بصيانة كثير من التفاسير القديمة من الضياع ، حين عنى بتسجيل الكثير من رواياتها ، مثل تفسير : مجاهد (ت ١٠٣ هـ) . عكرمة (ت ١٠٥ هـ) ، الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٥ هـ) . عطية العوفى (ت ١١١ هـ) ، عطاء بن أبى رباح (ت ١١٤ هـ) . قتادة (ت ١١٧ هـ) . محمد بن كعب القرظى (ت ١١٧ هـ) . السدى (ت ١٢٧ هـ) ، وعبد الرحمن ابن زيد (ت ١٨٢ هـ) .

والسؤال الآن هو : ترى كيف كان ذلك التفسير الذى ألفه ابن وهب ؟

بالنظر فى روايات ابن وهب التى حفظها الطبرى فى تفسيره يتضح للوهلة الأولى أنها ترجع إلى مصادر تنتمى إلى أهم المراكز الإسلامية . فهو يروى أولا عن النبى[٢] . ثم يروى من أهل المدينة عن : أبى بكر (ت ١٢ هـ)[٣] ، كعب الأحبار (ت ٣٢ هـ)[٤]. عبادة بن الصامت (ت ٣٥ هـ)[٥] ، على ابن أبى طالب (ت ٤٠ هـ)[٦] ، زيد بن ثابت (ت ٤٥ هـ)[٧] ، سعد ابن أبى وقاص (ت ٥٥ هـ)[٨] . عائشة (ت ٥٨ هـ)[٩] ، أبى هريرة

---

(١) ١ : ٤٤٠ و٢ : ٣٥٠

(٢) الطبرى : جامع البيان – ١ : ٣٦ ، ٤٢ و١٢ : ٥٣ و١٤ : ٤٠ – ٤١ و١٦ : ٨٦ : و٢١ : '

(٣) المصدر نفسه – ١٠ : ٩٦

(٤) المصدر نفسه – ١ : ٤٦ و٥ : ٦٠ ، ٦٤ – ٦٥

(٥) المصدر نفسه – ٢٩ : ٥٠

(٦) المصدر نفسه – ٢ : ٧١ ، ١٢٦ و١٦ : ٢٦ ، ٢٧ و٢٦ : ١١٦ ، ١١٧

(٧) المصدر نفسه – ٢ : ٢٦٧

(٨) المصدر نفسه – ٦ : ٦١

(٩) المصدر نفسه – ٢ : ٣١ ، ١٧١ ، ٢٤٥ ، ٢٦١ و٤ : ١٥٥ و٥ : ٦٩ ، ١٩٧ و١٨ : ٩٤ و٢١ : ١٠١ و٢٧ : ٢٧ و٢٩ : ١٣ و٣٠ : ١٦١ – ١٦٢ . وانظر كذلك : مسلم : صحيح – ١٨ : ١٥٤

(ت ٥٨ هـ)[1] ، عبد الله بن عمر (ت ٧٤ هـ)[2] ، عرباض بن سارية السلمى (ت ٧٥ هـ)[3] ، جابر بن عبد الله الأنصارى (ت ٧٨ هـ)[4] ، أنس بن مالك (ت ٩٣ هـ)[5] ، سعيد بن المسيب (ت ٩٤ هـ)[6] ، عطاء بن يسار (ت ١٠٣ هـ)[7] ، أبى الشعثاء جابر بن زيد (ت ١٠٣ هـ)[8] . ومحمد بن كعب القرظى (ت ١١٧ هـ)[9] . ابن شهاب الزهرى (ت ١٢٤ هـ)[10] . وزيد بن أسلم (ت ١٣٦ هـ)[11] . يحيى بن سعيد الأنصارى (ت ١٤٣ هـ)[12] . مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ)[13] ، وعبد الرحمن بن زيد (ت ١٨٢ هـ)[14] .

---

(١) الطبرى : جامع البيان : - ٢٣ : ٦٦ ، ٩٦ - ٩٧ و ٢٥ : ٩٢ و ٢٦ : ٤٢ و ٢٧ : ١٠٥ و ٢٨ : ٦٣ و ٢٩ : ١٠٧ ، ١٣٩ .

(٢) المصدر نفسه - ٢ : ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ٢٦٧ ، ٥ : ٦٧ و ٦ : ١٥٦ و ١٤ : ٣٤ و ١٨ : ١٣٣ و ٢١ : ٥٦ ، ٨٠ و ٢٤ : ١٧ و ٢٨ : ٨٦

(٣) المصدر نفسه - ٢٨ : ٥٧

(٤) المصدر نفسه - ٢٩ : ٩٠ و ٣٠ : ١٤٤

(٥) المصدر نفسه - ٦ : ١٥٦ و ٢٢ : ٢٧ و ٢٣ : ٦٤ ، ١٠٧ - ١٠٨ و ٢٧ : ٣٠ : ٣٩ ، ٢٠٧ - ٢٠٨

(٦) المصدر نفسه - ٧ : ١٥ و ١٥ : ٢٣ ، ٤٩ ، ٥١ و ١٨ : ١٢٦ و ٢٠ : ٥٩ و ٢٦ : ١٥ و ٢٩ : ١٧

(٧) المصدر نفسه - ١٥ : ٥٢ و ١٦ : ٣٠ و ٢٧ : ١٢٧ و ٢٩ : ١١٣

(٨) المصدر نفسه - ٣٠ : ٤٨

(٩) الطبرى : جامع البيان - ٢ : ١١٧ ، ١٥٦ ، ١٥٩ و ٦ : ١٨٢ ، ١٨٤ و ٨ : ٧٥ و ١٠ : ٦٨ و ١٢ : ١١٣ و ١٤ : ٧٠ و ١٥ : ١٢٦ ، ١٦٦ و ١٧ : ١٠ ، ١٢٠ و ٢٣ : ١٥ و ٢٤ : ١١ ، ٤٦ و ٢٧ : ٤٣ ، ٥٥ و ٢٩ : ١٤٦ و ٣٠ : ١١١ ، ٢١١ ، ٢٢٦ .

(١٠) المصدر نفسه - ٣ : ٥٥ - ٥٦ و ٤ : : ٨ ، ٥٨ ، ١٥٥ و ٥ : ١٠٠ و ٧ : ٢٣ و ٩ : ١١٥ و ١٢ : ٥٣ ، ١١١ و ١٧ : ١٣٣ و ١٨ : ٩٤ ، ١٢٤ ، ١٢٦ و ٢١ : ١٠١ و ٢٢ : ٢٧ ، ٢٨ - ٢٩ و ٢٣ : ٥٢ ، ١٠٧ - ١٠٨ و ٢٥ : ٩٢ و ٣٠ : ٣٩ ، ١٦١ - ١٦٢ . وانظر كذلك : مسلم : صحيح - ١٨ : ١٥٤ والنسائى : سنن - ١ : ٣٤٥ .

(١١) الطبرى : جامع البيان - ١ : ٣٠١ ، ٣٠٣ و ٣ : ١٢ و ٤ : ١٧٤ و ٧ : ٦٨ و ١٨ : ٩٩ ، ١٠٦ ، ١١١ ، و ١٩ : ٢٢ ، ٧٩ و ٢٤ : ١٠ و ٢٦ : ١٠١ - ١٠٢ و ٢٧ : ٣٨ ، ١٢٧ و ٢٩ : ١٠٧ ، ١١٣ و ٣٠ : ١٦

(١٢) المصدر نفسه - ٧ : ١١

(١٣) المصدر نفسه - ٢ : ١٠٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٧٧ ، و ٦ : ٤٧ و ١٨ : ٩٩

(١٤) سجل الطبرى لابن وهب عن ابن زيد روايات لاحصر لها فى التفسير تكاد تشمل القرآن كله.

ويروى من أهل مكة عن : ابن عباس (ت ٦٨ هـ)[١] ، عبد الله ابن الزبير (ت٧٣هـ)[٢] ، عبيد بن عمير (ت ٧٧ هـ)[٣] ومجاهد (ت١٠٣ هـ)[٤] عطاء بن أبى رباح (ت ١١٤ هـ)[٥] . وعمرو بن دينار (ت ١٢٦ هـ) .[٦]

وهنا لا يمكن أن يفوتنا اختفاء عكرمة من مدرسة ابن عباس المكية التى أخذ عنها ابن وهب . وهو أمر مقصود لا شك . ذلك بأن عكرمة ، بالرغم من امتيازه كمفسر ، قد تكلم الناس فيه . ولكن لرأيه لا لروايته . فهو قد اتهم بأنه كان يرى رأى الخوارج اتهاما يكاد يرقى إلى مستوى الإجماع مع اختلاف فرعى فيما إذا كان من أتباع نجدة بن عامر (ت ٦٩ هـ) أو من أتباع عبد الله بن الصفار وينسب إليه أنه المسئول عن إدخال مذهب الخوارج إلى المغرب موطنه الأصلى . وأنه مر بمصر وهو فى طريقه إلى المغرب فتلبث بها قليلا ثم واصل المسير . والذى يعنينا فى هذا المقام هو أن انتحال عكرمة رأى الخوارج كان له أثر بالغ السوء فى نظرة مالك إليه فيما بعد . فقد أعرض عنه ، ولم يذكره ، ولم يره ثقة . ورأى ألا يقبل أحد حديثه ، بل أمر ألا يؤخذ عنه[٧] . لذلك كله يبدو طبيعيًّا جدًّا أن يقاطع ابن وهب – وهو تلميذ مالك البارز فى مصر – روايات عكرمة فى التفسير .

ثم نواصل الحديث عن مصادر ابن وهب فى تفسيره لنجد أنه روى من أهل

---

(١) الطبرى : جامع البيان – ١ : ١٩١ ، ١٩٢ و ٢ : ١٢٦ ، ٢٢٩ ، ٣٤٠ و ٤ : ١٩٢ و ٥ : ١٦ ، ١٤٨ و ٧ : ١٤٢ و ٩ : ١١٥ و ١١ : ٤٠ و ١٢ : ١١١ و ١٤ : ٣٨ ١٦ : ١٠ و ١٧ : ١٤٢ ، ١٤٣ و ٢٣ : ٥٣ و ٢٦ و ٢٦ : ١٢٥ و ٢٧ : ٦٥ و ٢٨ : ١٠٤ و ٣٠ : ١٧٦ – ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩

(٢) المصدر نفسه – ٣٠ : ١٠٧ ، ١١٠

(٣) المصدر نفسه – ١١ : ٢٨

(٤) المصدر نفسه – ١ : ٤٢٩ و ٢ : ٣٣ ، ٢٧٠ و ٧ : ١٠٤ و ١٧ : ٢٥ و ٢٨ : ٦١ ، ٦٢ و ٣٠ : ٤٨ ، ١٢٧ .

(٥) المصدر نفسه – ٢ : ٧١ و ٥ : ٨٢ ، ٨٧ و ٧ : ١٢ ، ١٧ و ١٨ : ١٠٠ و ٢١ : ٧٨

(٦) المصدر نفسه – ٣ : ٢٤٧ .

(٧) ابن سعد : الطبقات – ٥ : ٢١٦ . ياقوت : م . الأدباء – ١٢ : ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٦ . ابن خلكان : وفيات (ط . الميمنية) – ١ : ٤٠٢ . الذهبى : تذكرة – ١ : ٨٣ ، ٨٤ . ابن الجزرى : غاية – ١ : ٥١٥ . ابن حجر : ت . التهذيب – ٧ : ٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩

الكوفة عن : ابن مسعود (ت ٣٢ ه)[١] ، علقمة (ت ٦١ ه) ،[٢] سعيد ابن جبير (ت ٩٤ ه)[٣] ، الشعبي عامر بن شراحيل (ت ١٠٤ ه)[٤] ، وسفيان الثوري (ت ١٦١ ه)[٥]

وروى من البصريين عن : قتادة (ت ١١٧ ه) .[٦]

وروى من الشاميين عن : أبي الدرداء (ت ٣٢ ه)[٧] ؛ وعلي بن أبي طلحة (ت ١٤٣ ه)[٨] .

أما مصر فقد روى من أهلها عن : سهل بن سعد الغطيفي (ظ ٢٠ ه على الأرجح)[٩] ، أبي عمران التجيبي أسلم بن يزيد (ظ ٥١ ه)[١٠] ، سلامان ابن عامر الشعباني (ظ ٥٤ ه)[١١] ، عقبة بن عامر (ت ٥٨ ه)[١٢] ، عبد الله ابن عمرو ابن العاص (ت ٦٥ ه)[١٣] ، عبد الرحمن بن حجيرة (ت ٨٣ ه)[١٤] أبي عبد الرحمن الحبلي (ت ١٠٠ ه)[١٥] ، عطاء بن دينار (ت ١٢٦ ه)[١٦]

---

(١) الطبري : جامع البيان – ٤ : ٣٦ و ٥ : ١٥ و ٧ : ١٩ و ٨ ٤٧ و ١١ : ٣٤ – ٣٥ و ١٥ : ١٠٦ و ٢١ : ٣٩ و ٢٦ : ٢١ ، ٨٦

(٢) المصدر نفسه – ٢٨ : ٨٠

(٣) المصدر نفسه – ٢٨ : ١٠٩ و ٣٠ : ٢١٢

(٤) المصدر نفسه – ٨ : ١٣٧ – ١٣٨

(٥) المصدر نفسه – ٢ : ١٧٥

(٦) المصدر نفسه – ١٢ : ١١١ و ١٤ :

(٧) المصدر نفسه – ٦ : ٦٦

(٨) المصدر نفسه – ٧ : ١١

(٩) المصدر نفسه : ٢١ : ٦٧ و ٢٦ : ٩٨

(١٠) المصدر نفسه – ٢ : ١١٨ – ١١٩

(١١) المصدر نفسه – ١٧ : ١٣٦

(١٢) المصدر نفسه – ١٩ : ٥٠

(١٣) الطبري : جامع البيان ٦ : ١٠٨ ، ١٣٤ ، ١٦٩ و ١١ : ٩٦ و ١٣ : ١٥١ – ١٥٢ و ١٤ : ١٠٨ و ٢٥ : ٧ و ٢٧ : ٤٠ و ٣٠ : ١٧٥ .

(١٤) المصدر نفسه – ٢٥ : ٧

(١٥) المصدر نفسه – ٢٢ : ٥٠ و ٣٠ : ٢٢٥

(١٦) المصدر نفسه – ٧ : ١١٠ و ١٦ : ١٦٠ و ٢٥ : ١٦

أبي السمح دراج (ت ١٢٦ هـ)[١] . يزيد بن أبي حبيب (ت ١٢٨ هـ)[٢]، عبيدالله بن أبي جعفر (ت١٣٦ هـ)[٣] وعمرو بن الحارث (ت ١٤٨ هـ)[٤] .

إعتماداً على هذه الإحصاءات التي لا تزعم لها الحصر ولا الشمول . وإن كنا نطمئن تماما إلى أنها تمثل الإتجاهات السائدة تمثيلا حقيقيا . يمكن القول بأن ابن وهب قد جمع في تفسيره بين مدارس التفسير في الحجاز والعراق والشام ومصر . غير أن اعتماد ابن وهب على هذه المدارس جميعها لا يعني أنه اتخذ منها موقفا واحدا ، ولا أنه أولاها كلها عناية متماثلة . فمن الواضح جداً أن اعتماده على مدرستي العراق والشام قليل . في حين يرجع — وهذا طبيعي تماماً — إلى عدد لا بأس به من رجال المدرسة المصرية . أما اعتماده الأساسي فعلى مدرسة الحجاز وعلى مدرسة المدينة منها بوجه خاص . غير أنه من الواضح أيضا أن ابن وهب لم يتخذ موقفاً واحداً إزاء شيوخ هذه المدرسة المدنية . ذلك بأنه يعتمد في الجزء الأكبر من رواياته المدنية : بل في الجزء الأكبر من رواياته في كل تفسيره — حوالي ٩٠ ٪ — على واحد بعينه من شيوخ مدرسة المدينة ذلك هو عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) المفسر المدني . صاحب كتاب الناسخ والمنسوخ وكتاب التفسير[٥] . والأستاذ المباشر لابن وهب[٦] .

بفحص روايات ابن وهب عن ابن زيد يبدو واضحاً كل الوضوح أنه قصد ذلك المفسر قصداً ، وجلس إليه بهدف محدد هو أن يأخذ عنه التفسير . مثلما جلس إلى مالك ليأخذ عنه الفقه وإلى نافع ليأخذ عنه القراءة . تشهد بذلك أسانيد الروايات في وضوح كاف . فكثيراً ما ينص ابن وهب على أنه سأل ابن زيد عن كذا وكذا من قول الله[٧] . وقد يورد ابن وهب نص السؤال الذي وجهه إلى ابن زيد

---

(١) المصدر نفسه — ١٣ : ١٠١ و ١٥ : ١٥٧ — ١٦٧ ، ١٧٣ و ١٦ : ١٦٥ و ١٨ : ٨٤ و ٢٣ : ١١٤ و ٢٧ : ١٠٦ و ٢٩ : ٤٥ و ٩٧ و ٣٠ : ١٥١

(٢) المصدر نفسه — ٦ : ١٤١ و ١٩ : ٢٤

(٣) المصدر نفسه — ١٢ : ١١٢ و ١٣ : ٣١ : ٣١ و ٢٤ : ٦٨

(٤) المصدر نفسه — ١٠ : ٩٦ و ١٦ : ٧٢ ، ٨٤ و ١٩ : ٥ و ٢٢ : ٤٠ و ٢٦ : ١٠٠ ٣٠ : ١٩٣ .

(٥) ابن النديم : الفهرست : ٢٢٥ والداودي : طبقات المفسرين : ١١١ ظ

(٦) ابن حجر : ت . التهذيب ٦ : ١٧٨ .

(٧) الطبري : جامع البيان ١ : ٦٧ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٢٠٩ ، ٢٢٦ ، ٢٣٧ ، ٢٥٩ ، ٣٢٧ و ٢ : ٥١ و ٦ : ٦٦ و ٣٠ : ١٥٣ — ١٥٤ .

وجواب هذا الأخير عنه ، فيقول : قلت له – يعنى ابن زيد – : « الفروج » (ق : ٦) الشيء المتفرج بعضه من بعض ؟ قال : نعم[١] . ويقول : قلت لابن زيد : « البهيج » (ق : ٧) الحسن المنظر ؟ قال : نعم[٢] . وقد يكن السائل غير ابن وهب ولكن ابن وهب يسمح كما حدث فى تفسير « الأكمام » (الرحمن : ١١) إذ قيل لابن زيد : هو الطلع ؟ قال : نعم ، وهو فى كم حتى ينفتق عنه (٣) . وكما حدث فى تفسير « الفلق » (الفلق : ١) اذ قيل له : فلق[٣] الصبح ؟ قال : نعم . وقرأ : « فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً » (الأنعام : ٩٦)[٤] . قد يتدخل ابن وهب فى تفسير أستاذه مبدياً رأيه فى صورة تساؤل كما حدث عندما كان ابن زيد يفسر الآية ٦١ من سورة البقرة : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة » قائلا : هؤلاء يهود بنى إسرائيل . فقال ابن وهب له : هم قبط مصر ؟ قال ابن زيد – ربما فى شيء من الضيق – : وما لقبط مصر وهذا ؟ لا والله ما هم هم ، ولكنهم اليهود يهود بنى إسرائيل[٥] وقد ينص ابن وهب على أن ابن زيد حدثه مع آخرين[٦] . كما ينص على أنه حدثه هو[٧] ؛ أو قال له هو[٨] . وغير مرة يذكر ابن وهب أنه سمع ابن زيد يقول ...[٩] .

يكفى هذا ليثبت أن ابن وهب أخذ عن ابن زيد تفسيره كله فى أثناء إقامته الطويلة جداً بالمدينة . ولما كان ابن وهب قد اعتمد على تفسير ابن زيد بصفة أساسية فإن ذلك التفسير قد أصبح يمثل صلب تفسير ابن وهب ، ويشكل عموده الفقرى ، بحيث نستطيع أن نقرر أن دراسة تفسير ابن وهب لن تكون شيئا آخر سوى دراسة تفسير ابن زيد ، أو أننا إذا أردنا أن ندرس تفسير ابن وهب فلا مفر لنا من دراسة تفسير ابن زيد الذى حفظه لنا ابن وهب فى تفسيره ثم حفظ

(١ ، ٢) المصدر نفسه – ٢٦ : ٩٥

(٣) المصدر نفسه – ٢٧ : ٧٥

(٤) المصدر نفسه – ٣٥ : ٢٢٦ . وهى قراءة أهل المدينة وغيرهم ماعدا الكوفيين . انظر : (ص ٣٣٤ من هذا البحث)

(٥) المصدر نفسه – ١ : ٢٥٠

(٦) المصدر نفسه – ١ : ٦٤ ، ١١٠

(٧) المصدر نفسه – ١ : ١١١ ، ١٢٠

(٨) المصدر نفسه – ١ : ٢٤٦

(٩) المصدر نفسه – ٢٧ : ٩٨ و ٣٠ : ١٤ ، ٢٣ .

الطبرى كليهما فى تفسيره الكبير جامع البيان . وهكذا تتقرر الخطوة التالية فى البحث وهى أن نحاول التعرف على تفسير ابن زيد .

يثير التساؤل أن عبد الله بن وهب الإمام الجليل ، والعالم الكبير ، والمحدث الثقة ، والفقيه العظيم ، والمسلم الورع قد جلس يأخذ التفسير عن عبد الرحمن بن زيد الذى كاد ينعقد الإجماع على ضعفه وعدم الاعتماد عليه كمحدث . فقد حكم عليه بالضعف ، بل الضعف الشديد . كبار رجال الرواية والحديث مثل : ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ) ، ابن المدينى (ت ٢٣٤ هـ) . ابن حنبل (ت ٢٤١ هـ) ، أبى زرعة (ت ٢٦٤ هـ) ، النسائى (ت ٣٠٣ هـ) ، الطحاوى (ت ٣٢١ هـ) ، ابن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ) ، السيوطى (ت ٩١١ هـ) ، والداودى (ت ٩٤٥ هـ) ووصف بأنه كان لا يدرى ما يقول . ويقلب الأخبار وهو لا يعلم ، ويروى الأحاديث المنكرة والموضوعة . ذكر الشافعي ساخراً مرة أن ابن زيد يحدث عن أبيه عن نوح . وذكر مرة أخرى أنه حدث عن أبيه عن جده أن رسول الله عليه السلام قال إن سفينة نوح طافت بالبيت وصلت خلف المقام ركعتين . وفى الجملة كان ابن زيد رجلا صالحا فى نفسه ، صناعته العبادة والتقشف ، غير أنه ليس من أحلاس الحديث . إلا أن من الحق كذلك أن ابن ماجه (ت ٢٧٣ هـ) والترمذى (ت ٢٧٩ هـ) أخرجا له . كما ذكر ابن عدى (ت ٣٦٠ هـ) أن ابن زيد له أحاديث حسان ، وأنه ممن احتمله الناس وصدقه بعضهم ، وأنه ممن يكتب حديثه[١] .

وأيًّا كان الأمر فلا بد لنا الآن من أن نبحث منهج ابن زيد فى التفسير .

لعل أقرب مصدر أخذ عنه ابن زيد التفسير هو أبوه نفسه زيد بن أسلم (ت ١٣٦ هـ) الذى كان رجلا صالحا ، ثقة ، عالما بتفسير القرآن . وبالرغم من أن ابن عيينة (ت ١٩٨ هـ) لم يطمئن تماما إلى حفظه لأنه كان فيه شيء ،

---

(١) راجع : ابن سعد : الطبقات - ٥ : ٣٠٦ . البخارى : كتاب الضعفاء الصغير : ٢٢ النسائى : كتاب الضعفاء : ١٩ . ابن حجر : ت . التهذيب - ٦ : ١٧٨ - ١٧٩ . السيوطى : اللآلى - ١ : ١٥٣ . الداودى : طبقات : ١١١ ظ . وقد سجلوا على ابن وهب أنه كان يسىء الأخذ أو يتساهل فيه تساهلا شديداً ، وأنه روى عن الضعفاء راجع : الذهبى : ميزان - ٢ : ط ٥٢٣ . ابن فرحون : الديباج : ١٣٢ ، ١٣٢ .

كما ذكر ابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ) فى مقدمة « التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد » ما يدل على أنه كان يدلس . . . بالرغم من ذلك وثق زيد بن أسلم عدد من كبار النقاد مثل : ابن سعد ، ابن حنبل ، أبى حاتم (ت ٢٧٧ هـ) ، وأبى زرعة . وتقديراً لعلمه كان على بن الحسين (ت ٩٩ هـ) يتخطى مجالس قومه أشراف قريش ويجلس إلى زيد عبد عمر بن الخطاب (فقد كان مولاه) قائلا لمن يلومه على ذلك : إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه فى دينه . ولعل أهم ما وجه إلى زيد من نقد هو « أنه يفسر برأيه القرآن ويكثر منه »[1] . ويبدو أن تفسيره قد ظل يتناقل حتى دون فى نسخة رآها ابن النديم[2] . كما أشار حاجى خليفة إلى هذا التفسير[3] .

روى عبد الرحمن – مثله مثل أخويه الآخرين : أسامة وعبد الله – عن أبيه العالم الكبير[4] . وكثيرا ما كان يشير إلى أبيه وهو يلقى التفسير فيقول : « قال أبى : . . . »[5] ، أو : كان أبى يقول : [6] ، أو : حدثنى أبى . . . [7] ؛ أو كان أبى يحدثنا هذا الحديث كله[8] ، أو . كان أبى وغيره من مشيختنا يقولون هذا ويتلونه علينا[9] . أو : قال رجل لأبى : . . . فقال : . . . [10] ، أو : ولم يكن أبى ينظر فيه إذا سئل عنه[11] .

ومن الممكن أن تشير الروايات القليلة التى سجلها الطبرى لزيد بن أسلم إلى شىء من منهجه فى التفسير . فهو لكى يوضح نسبة السموات السبع إلى الكرسى عند تفسير الآية ٢٥٥ من سورة البقرة : « وسع كرسيه السموات والأرض » يروى أن النبى قال : ما السموات السبع فى الكرسى إلا كدراهم سبعة ألقيت فى ترس .

---

(١) ابن حجر : ت . التهذيب – ٣ : ٣٩٥ – ٣٩٧ (٢) الفهرست : ٣٣

(٣) كشف الظنون – ١ : ٤٤٨

(٤) ابن حجرت . التهذيب – ٣ : ٣٩٥ و ٦ : ١٧٧

(٥) الطبرى : جامع البيان : – ١ : ٦٧ و ١٥ : ٦٦

(٦) المصدر نفسه – ٢ : ٣٢٢ ، ٣٢٤ و ٣ : ٤٣ و ٤ : ٥٩ و ٦ : ٥٤ ١٣١ و ١٥ : ٦١ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٢٠ : ٧٣ و : ١٦

(٧) المصدر نفسه – ١ : ٣٠٢ و ٣ : ٧ (٨) المصدر نفسه – ١٩ : ٩٨ ، ١٠٥

(٩) المصدر نفسه – ٢ : ١٠٤ (١٠) المصدر نفسه – ١٩ : ٧٩

(١١) المصدر نفسه – ٣٠ : ١٧٨

ولكي يزيد الأمر وضوحا أراد أن يبين نسبة الكرسي نفسه إلى العرش فروى عن أبي ذر أنه قال : سمعت رسول الله عليه السلام يقول : ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهرى فلاة من الأرض[١] .

وفي حين لا نكاد نجد مثالا آخر لهذا التفسير بالمأثور عند زيد — وهو ما قد يدل على اعتماده عليه — نجد أمثلة كثيرة لاعتماده على الاجتهاد والتفكير الذاتي في التفسير أي ما يسمى بالتفسير بالرأي . فهو يفسر : « الضالين » (الفاتحة : ٧) بأنهم النصارى[٢] . وفي رأيه أن فواتح السور مثل : « الم ذلك الكتاب » (البقرة : ١ و « الم تنزيل » (السجدة : ١) و « المر تلك » (الرعد : ١) إنما هي أسماء السور[٣] وهو يفسر الخير في الآية ٣٣ من سورة النور : « فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً » قائلا : الخير القوة على ذلك[٤] . ويحكي زيد — في قصة يعبر بها عن مدى اعتماده على نفسه في التفسير — أنه التمس تفسير هذه الآية : « الذين يمشون على الأرض هوناً » (الفرقان : ٦٣) فلم يجدها عند أحد . قال : فأتيت في النوم فقيل لي : هم الذين لا يريدون يفسدون في الأرض[٥] .

ولم يكن يحدث قليلا أن يفسر زيد القرآن بالرجوع إلى الاستعمال القرآني نفسه . فهو يفسر الآية ٤٥ من سورة الإسراء : « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً » فيقول : لا يفقهونه . ثم يوضح ذلك بقراءة الآية التالية من السورة نفسها : « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً » قائلا : فهم لا يخلص ذلك إليهم[٦] . ومن هذا الصنيع الذي هو في نفس الوقت تفسير للقرآن بالقرآن نفسه أن رجلا قال له : يا أبا أسامة : أرأيت قول الله جل ثناؤه : « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون » (الشعراء : ٢٢٤— ٢٢٦) .

---

(١) المصدر نفسه — ٣ : ٧ — ٨ .
(٢) الطبرى : جامع البيان — ١ :
(٣) المصدر نفسه — ١ : ٦٧ .
(٤) المصدر نفسه — ١٨ : ٩٩ .
(٥) المصدر نفسه — ١٩ : ٢٢ .
(٦) المصدر نفسه — ١٥ : ٦٦ . ويلحظ أن الآية ٤٦ وردت في الطبرى : « قلوبهم في أكنة وفي آذانهم وقر » .

فقال له زيد : إنما هذا لشعراء المشركين وليس شعراء المؤمنين . ألا ترى أنه يقول : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » إلى آخره : (الشعراء : ٢٧٧) . وأحس السائل بالارتياح فقال : فرجت عني يا أبا أسامة فرج الله عنك[١] . وسأله آخر عن قول الله : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد . ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » (ق : ١٩ –٢١) فقال له : من يراد بهذا ؟ قال زيد : رسول الله (ص) . فتساءل الرجل منكراً : رسول الله ؟ فقال زيد : وما تنكر ؟ قال الله عز وجل : «ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالا فهدى » (الضحى : ٧ – ٨) . وكأنما لم يطمئن الرجل إلى تفسير زيد فذهب إلى العالم المدنى الفقيه المحدث صالح بن كيسان (ت ١٤٤ هـ)[٢] يسأله التفسير الصحيح ويخبره بما قال زيد . وما إن علم ابن كيسان بتفسير زيد حتى صاح غاضباً : وما علم زيد ؟ والله ما سن عالية ، ولا لسان فصيح ، ولا معرفة بكلام العرب . إنما يراد بهذا الكافر [٣] . ولا يقل عن هذا التفسير غرابة تفسيره الروح بالقرآن فى الآية ٣٨ من سورة النبأ : « يوم يقوم الروح والملائكة صفًا » مستدلا بالآية ٥٢ من سورة الشورى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا . ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان »[٤] . فمن الواضح فى كلتا الحالين عدم الارتباط بين الآيات موضوع التفسير والآيات المستشهد بها .

وقد يكتفى زيد بايراد المعنى اللغوى فيفسره : « دلوك الشمس » (٧٨ : الإسراء) بأنه حين تريد الشمس تغرب إلى أن يغسق الليل . قال : هى المغرب حين يغسق الليل[٥] وتدلك الشمس للغروب . ويفسر « غسق الليل» فى الآية نفسها بأنه ظلمة الليل[٦] . كما يفسر « قسورة » (٥١ : المدثر) بأنه الأسد[٧] .

وفى تفسير الآية ٣٥ من سورة النور – آية النور – يتجه زيد اتجاها مجازيا حين يفسر نور الله الذى تحدث عنه الآية بأنه القرآن . ومثله الذى ضرب له[٨] .

---

(١) المصدر نفسه – ١٩ : ٦٧ . (٢) ابن تغرى بردى : النجوم – ١ : ٣٥٣ .

(٣) الطبرى : جامع البيان – ٢٦ : ١٠٢ . (٤) المصدر نفسه – ٣٠ : ١٦ .

(٥) المصدر نفسه – ١٥ : ٩١ . (٦) المصدر نفسه – ١٥ : ٩٣ .

(٧) المصدر نفسه – ٢٩ : ١٠٧ . (٨) المصدر نفسه – ١٨ : ١٠٦ .

ويهتم زيد ببيان سبب النزول ، فهو يذكر مثلا أن النبى قال لليهود : أنشدكم الله بالتوراة التى أنزلها الله على موسى يوم طور سيناء : من أهل النار الذين أنزلهم الله فى التوراة ؟ قالوا : إن ربهم غضب عليهم غضبة . فتمكث فى النار أربعين ليلة ، ثم نخرج فتخلفوننا فيها . فقال رسول الله (ص) : كذبتم . والله لا نخلفكم فيها أبداً . فنزل القرآن تصديقاً بقول النبى وتكذيباً لهم : « وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة . قل : أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ، أم تقولون على الله مالا تعلمون ؟ بلى . من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (البقرة : ٨٠ — ٨١)[١] .

وقد يسجل زيد معلومات تاريخية هامة تتعلق بموضوع الآية التى يفسرها ، فقد شرح طريقة تضعيف الربا فى الجاهلية الذى تنهى عنه الآية ١٣٠ من سورة آل عمران : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » ، فقال : إنما كان الربا فى الجاهلية فى التضعيف وفى السن . يكون للرجل فضل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول له : تقضينى أو تزيدنى . فإن كان عنده شىء قضى ، وإلا حوله إلى السن التى فوق ذلك : إن كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون فى السنة الثانية ، ثم حقة ، ثم جذعة ، ثم رباعيا . ثم هكذا إلى فوق[٢] وفى العين يأتيه فإن لم يكن عنده أضعفه فى العام القابل . فإن لم يكن عنده أضعفه أيضا ، فتكون مائة فيجعلها إلى قابل مائتين . فان لم يكن عنده جعلها أربعمائة . يضعفها له كل سنة أو يقضيه . قال : فهذا قوله : « لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة »[٣] .

ومن أمثلة التفسير الفقهى عند زيد أنه كان يقول : كل شىء كان دون أن يعزما عقدة النكاح فهو ما قال الله تعالى ذكره : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء » (البقرة : ٢٣٥)[٤] . وفى تفسير الآية ٣٢ من سورة المائدة :

---

(١) المصدر نفسه — ١ : ٣٠٣ .

(٢) ابن اللبون ولد الناقة إذا كان فى العام الثانى واستكمله ، أو إذا دخل فى الثالث . وهى ابنة لبون . والفصيل إذا ألقحت أمه ابن مخاض ، والأنثى بنت مخاض ، أو مادخل فى السنة الثانية . والحق بالكسر — من الإبل الداخلة فى الرابعة . وتقول للإبل فى الخامسة أجذع . والرباع ذات الخف فى السابعة « القاموس المحيط » .

(٣) الطبرى : جامع البيان — ٤ : ٥٩ .

(٤) المصدر نفسه — ٢ : ٣٢٢ .

« من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا » كأن يقول : « يجب عليه من القتل مثل لو أنه قتل الناس جميعا »[1] .

ويبدو أن زيداً كان يجد متعة خاصة فى تفسير قصص القرآن ، فإن ابنه عبد الرحمن يذكر أنه كان يحدثهم حديث سليمان وبلقيس[2] . ومن حديثه عن الهدية التى أرسلتها والتى أشارت إليها الآية ٣٥ من سورة النمل : « وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون » إنها كان فيها وصائف ووصفاء يختلفون فى ثيابهم ليميز — أى سليمان — الغلمان من الجوارى . قال : فدعا بماء فجعل الجوارى يتوضأن من المرفق إلى أسفل ، وجعل الغلمان يتوضأون من المرفق إلى فوق[3] كما كان زيد يذكر أن قارون خرج فى سبعين ألفا عليهم المعصفرات تفسيراً للزينة التى تشير إليها الآية ٧٩ من سورة القصص : « فخرج على قومه فى زينته »[4] .

وبالرغم من ذلك كان من القرآن ما يمتنع زيد عن تفسيره . فكان يرفض تفسير الآيتين ١ ، ٢ من سورة العاديات : « والعاديات ضبحاً . فالموريات قدحاً» وما شاكلها ، ويقول : هو قسم أقسم الله به[5] .

وأيًّا كان الأمر فإن الذى يعنينا هو أن عبد الرحمن بن زيد تأثر بأبيه فى التفسير تأثراً واضحاً ، وعندما جلس للتفسير اصطنع منهجه وترسم خطاه . وإذا كان قد عيب على زيد بن أسلم أنه « يفسر برأيه القرآن ويكثر منه »[6] فإننا لا نكاد نجد لابنه عبد الرحمن من التفسير بالمأثور سوى ذلك الحديث الذى يرويه عن أبيه الذى يرويه بدوره عن النبى فى تفسير الآية ٢٥٥ من سورة البقرة : « وسع كرسيه السموات والأرض »[7] . وقد أشرنا منذ قليل إلى المواضع التى ذكر فيها أنه قد سمع التفسير عن أبيه[8] . وفيما عدا ذلك يعتمد عبد الرحمن — فيما تشهد مئات الروايات

---

(١) المصدر نفسه — ٦ : ١٣١ .

(٢) المصدر نفسه — ١٩ : ١٠٥ .

(٣) الطبرى : جامع البيان — ١٩ :

(٤) المصدر نفسه — ٢٠ : ٧٣ .

(٥) المصدر نفسه — ٣٠ : ١٧٨ .

(٦) انظر ص ٣٠٩ من هذا البحث .

(٧) الطبرى : جامع البيان — ٣ : ٧ — ٨ .

(٨) انظر ص ٣٠٩ من هذا البحث .

التى سجلها له الطبرى عن طريق ابن وهب – على تفكيره الذاتى واجتهاده الشخصى فى فهم النص المقدس . بمعنى أنه – كأبيه – يفسر برأيه القرآن . فكيف قام ابن زيد بهذا العمل الكبير ؟

° ° °

اعتماداً على الفهم الخاص المستند إلى المنطق السليم والمعرفة بالدين نرى ابن زيد يذهب فى تفسير سورة الفاتحة إلى أن « الصراط المستقيم » هو الإسلام[١] و « الذين أنعمت عليهم » هم النبى ومن معه[٢] . و « المغضوب عليهم » هم اليهود[٣] . و « الضالين » هم النصارى[٤] . وهو يرى أن المنافقين يريدون أصحاب النبى عندما قالوا : « أنؤمن كما آمن السفهاء » (البقرة : ١٣)[٥] . وأن الأنداد التى تذكرها الآية ٢٢ من السورة نفسها : « فلاتجعلوا لله أنداداً » هى الآلهة التى جعلوها معه وجعلوا لها مثل ماجعلوا له[٦] . وفى رأيه أن الطهارة التى توصف بها أزواج المؤمنين فى الجنة فى الآية ٢٥ من سورة البقرة : « ولهم فيها أزواج مطهرة » هى عدم الحيض ، ذلك بأن أزواج الدنيا ليست بمطهرة . ألا تراهن يدمين ويتركن الصلاة والصيام ؟ [٧] . والأسماء التى علمها الله آدم كلها – البقرة : ٣١ – هى أسماء ذريته أجمعين[٨]

وقد يميل ابن زيد إلى شيء من التفصيل فى التفسير . فيقول فى تفسير الآية ٢١٣ من سورة البقرة : « فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » : فهدى الله الذين آمنوا للإسلام . واختلفوا فى الصلاة فمنهم من يصلى إلى المشرق ، ومنهم من يصلى إلى بيت المقدس ، فهدانا للقبلة . واختلفوا فى الصيام فمنهم من يصوم بعض يوم وبعضهم بعض ليلة ، وهدانا الله له .

---

(١) الطبرى : جامع البيان – ١ : ٥٨ .
(٢) المصدر نفسه – ١ : ٥٩ .
(٣) المصدر نفسه – ١ : ٦٢ .
(٤) المصدر نفسه – ١ : ٦٤ .
(٥) الطبرى : جامع البيان – ١ :
(٦) المصدر نفسه – ١ : ٢٧
(٧) المصدر نفسه – ١ : ٣٧ .
(٨) المصدر نفسه – ١ : ١٧١ .

واختلفوا فى يوم الجمعة فأخذت اليهود السبت . وأخذت النصارى الأحد فهدانا الله له . واختلفوا فى إبراهيم فقالت اليهود : كان يهوديا . وقالت النصارى : كان نصرانيا . فبرأه الله من ذلك وجعله حنيفا مسلماً وما كان من المشركين الذين يدّعو نهمن أهل الشرك . واختلفوا فى عيسى فجعلته اليهود لفرية ، وجعلته النصارى ربا ، فهدانا الله للحق فيه . فهذا الذى قال جل ثناؤه : « فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه »[١].

ويوضح وجهة نظر منكرى البعث التى سجلتها الآية ٣٧ من سورة المؤمنون : « إن هى إلاحياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما نحن بمبعوثين » فيقول : ليس آخرة ولابعث . يكفرون بالبعث . يقولون : إنما هى حياتنا هذه ثم نموت ولا نحيا. يموت هؤلاء ويحيا هؤلاء ، يقولون : إنما الناس كالزرع : يحصد هذا وينبت هذا يقولون : يموت هؤلاء ويأتى آخرون[٢]

تقول الآية ٥٨ من سورة القصص : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين » . ويوضح ابن زيد كيف يكون البطر – بما هو حالة نفسية تؤدى إلى انحرافات سلوكية – عاملا فى انحلال المجتمعات فيقول : البطر أشر أهل الغفلة وأهل الباطل . والركوب لمعاصى الله[٣] . وقال : ذلك البطر فى النعمة . « فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا » يقول : فتلك دور القوم الذين أهلكناهم بكفرهم بربهم ومنازلهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا . يقول : خربت من بعدهم فلم يعمر منها إلا أقلها وأكثرها خراب . ولفظ الكلام وإن كان خارجاً على أن مساكنهم قد سكنت قليلا – فإن معناه : فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا منها . كما يقال : قضيت حقك إلا قليلا منه . وقوله : « وكنا نحن الوارثين » يقول : ولم يكن لما خربنا من مساكنهم منهم وارث ، وعادت كما كانت قبل سكناهم فيها لامالك لها إلا الله الذى له ميراث السموات والأرض[٤] .

---

(١) المصدرنفسه – ٢ : ١٩٧ . (٢) المصدرنفسه – ١٨ : ١٦ – ١٧ .

(٣) البطر : النشاط ، والأشر ، وقلة احتمال النعمة ، والطغيان بالنعمة ، وكراهية الشيء من غير أن يستحق الكراهة . وبطر الحق أن يتكبر عنه فلا يقبله . والأشر النشاط والمرح . « القاموس المحيط » .

(٤) الطبرى : جامع البيان – ٢٠ : ٦١ .

ولكن يوضح ابن زيد ماتحض عليه الآية ٢١ من سورة الذاريات :(وفى أنفسكم أفلا تبصرون) من نظر الإنسان فى نفسه وتأمله عجيب تركيبه قرأ قول الله تبارك : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » (الروم : ٢٠) ، ثم قال : وفينا آيات كثيرة : هذا السمع ، والبصر ، واللسان ، والقلب لايدرى أحد ماهو : أسود أو أحمر . وهذا الكلام الذى يتلجلج به ؟ وهذا القلب أى شيء هو ؟ إنما هو مضغة فى جوفه يجعل الله فيه العقل . أفيدرى أحد ماذاك العقل ، وما صفته ، وكيف هو [١] ؟

الآيات ٧ – ١٢ من سورة الواقعة : « وكنتم أزواجاً ثلاثة : فأصحاب الميمنة ماأصحاب الميمنة ! وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ! والسابقون السابقون ! أولئك المقربون ، فى جنات النعيم » تقسم الناس من حيث المصير الأخروى أقساماً ثلاثة : أصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، والسابقون . وفى تفسير ابن زيد لهذه الآيات يتخذ من الصراع بين الهوى والعلم – أى بين الاستسلام للرغبات الشخصية وبين الاعتصام بالعقل – مقياساً لفهم هذا التقسيم فيقول : وجدت الهوى ثلاثة أثلاث : فالمرء يجعل هواه علمه ، فيديل هواه على علمه ، ويقهر هواه علمه حتى إن العلم مع الهوى قبيح ذليل ، والعلم ذليل، والهوى غالب قاهر . فالذى قد جعل الهوى والعلم فى قلبه فهذا من أزواج النار . وإذا كان ممن يريد الله به خيراً ختم عمله بإدالة العلم ، فتوفاه حين توفاه وعلمه هو القاهر ، وهو العامل به ، وهواه الذليل القبيح ليس له فى ذلك نصيب ولا فعل والثالث الذى قبح الله هواه بعلمه فلا يطمع هواه أن يغلب العلم ، ولا أن يكون له معه نصف ولا نصيب . فهذا الثالث ، هو خيرهم كلهم . وهو الذى قال الله عزوجل فى سورة الواقعة : « وكنتم أزواجاً ثلاثة » . قال : فزوجان فى الجنة وزوج فى النار . قال : والسابق الذى يكون العلم غالباً للهوى . والآخر الذى ختم الله بإدالة العلم على الهوى . فهذان زوجان فى الجنة . والآخر هواه قاهر لعلمه ، فهذا زوج النار [٢]

وفى تفسير الآية ٢٢ من سورة إبراهيم يتخلل ابن زيد الآية بالتفسير – وهو

---

(١) المصدر نفسه – ٢٦ : ١٢٦ . (٢) الطبرى : جامع البيان : – ٢٧ : ٩٨ .

ما تفعله التفاسير المتأخرة — فيقول : قال خطيب السوء إبليس الصادق : أفرأيتم صادقا لم ينفعه صدقه ؟ « إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم . وما كان لى عليكم من سلطان » أقهركم به « إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » قال : أطعتمونى « فلا تلومونى ، ولوموا أنفسكم » حين أطعتمونى . « ما أنا بمصرخكم » ما أنا بناصركم ولا مغيثكم « وما أنتم بمصرخى » وما أنتم بناصرى ولا مغيثى لما بى . « إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم »[1]

وقد يرد ابن زيد تفسير المفسرين الآخرين — فحين قال بعضهم إن السَّرىَّ المذكور فى الآية ٢٤ من سورة مريم : « قد جعل ربك تحتك سريا » هو النهر الصغير [2] ، ذكر ابن زيد رأيه فقال : يعنى نفسه . قال : وأى شىء أسرى منه ؟ ثم نقد الرأى السابق قائلا : والذين يقولون : السرى هو النهر ليس كذلك النهر . لو كان النهر لكان إنما يكون إلى جنبها ، ولا يكون النهر تحتها[3] . وفى تفسير « سجّين » المذكورة فى الآيتين ٧ — ٨ من سورة المطففين : « إن كتاب الفجار لفى سجين . وما أدراك ماسجين » يعرض ابن زيد بآراء جمهرة المفسرين الذين يذهبون إلى أن سجينا الأرض السافلة أو السابعة ، مقرراً أن سجينا بالسماء الدنيا[4] .

غير أن ابن زيد قد يذهب فى الاعتماد على الرأى إلى حد الإغراب والبعد عن المعنى الأقرب إلى السياق . تصف الآية ١٧٥ من سورة البقرة الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا ؛ بأنهم « اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة » ، ثم تتعجب فى تهكم من قوة احتمالهم عذاب النار الذى ينتظرهم : « فما أصبرهم على النار » . غير أن ابن زيد لايجد هنا معنى التعجب ، بل هذا الاستفهام ، يقول : ما هذا الذى صبرهم على النار حتى جرأهم فعملوا بهذا ؟ ولكن من الحق أن مفسرين آخرين — عطاء ت ١١٤ هـ ، السدى ت ١٢٧هـ وأبا بكر بن عياش ت ١٩٣ هـ — يشتركون معه فى هذا القول[5] .

---

(١) المصدر نفسه — ١٣ : ١٣٥ . ويلحظ أنه يتبع قراءة أبى جعفر وأبى عمرو ويعقوب فى إثبات ياء « بما أشركتمونى » . راجع : الدانى : التيسير : ١٣٥ . ابن الجزرى : تقريب النشر : ٨٧ .

(٢) الطبرى : جامع البيان — ١٦ : ٥٣ — ٥٤ . (٣) المصدر نفسه — ١٦ : ٥٤ .

(٤) المصدر نفسه — ٣٠ : ٦٠ — ٦١ .

(٥) الطبرى : جامع البيان — ٢ : ٥٤ .

تأمر الآية ٢٦ من سورة الإسراء بإيتاء ذى القربى والمسكين وابن السبيل حقهم . ثم تقول الآية ٢٨ : « وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسوراً » . ويفسر ابن زيد ذلك قائلا : « وإما تعرضن عنهم » عن هؤلاء الذين أوصيناك بهم « ابتغاء رحمة من ربك ترجوها » إذا خشيت إن أعطيتهم أن يتقووا بها على معاصى الله عز وجل ، ويستعينوا بها عليها . فرأيت أن تمنعهم خيراً . فإذا سألوك « فقل لهم قولا ميسوراً » قولا جميلا : رزقك الله ، بارك الله فيك . ويعلق الطبرى (ت ٣١٠ هـ) على رأى ابن زيد هذا بأنه — مع خلافه أقوال أهل التأويل فى تأويل هذه الآية — بعيد المعنى مما يدل عليه ظاهرها . فمعلوم من سخط الله على من كان غير مأمون منه صرف ما أعطى من نفقة ليتقوى بها على طاعة الله فى معاصيه أخوف من رجاء رحمته له . وذلك أن رحمة الله إنما ترجى لأهل طاعته لا لأهل معاصيه . إلا أن يكون أراد توجيه ذلك إلى أن نبى الله عليه السلام أمر بمنعهم ما سألوه لينيبوا من معاصى الله ويتوبوا بمنعه إياهم ما سألوه . فيكون ذلك وجها يحتمله تأويل الآية وإن كان لقول أهل التأويل مخالفاً[1]

يجمع المفسرون على أن الغناء هو المراد بلهو الحديث فى الآية ٦ من سورة لقمان : « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً »[2] . بل إن عبد الله بن مسعود أقسم على ذلك ثلاثا بالذى لا إله إلا هو[3] . ولكن الضحاك (ت ١٠٥ هـ) وابن زيد يذهبان إلى أنه الشرك . ويوضح ابن زيد وجهة نظره قائلا : هؤلاء أهل الكفر . ألا ترى إلى قوله : « وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقراً » (لقمان : ٧) ؟ فليس هكذا أهل الإسلام قال : وناس يقولون : هى فيكم . وليس كذلك . قال : وهو الحديث الباطل الذى كانوا يلغون فيه[4]

وتفسير ابن زيد للآية ١٨ من سورة الزخرف : « أومن ينشأ فى الحلية وهو فى

(١) المصدر نفسه — ١٥ : ٥٥ .
(٢) المصدر نفسه — ٢١ : ٣٩ — ٤١ .
(٣) المصدر نفسه — ٢١ : ٣٩ .
(٤) الطبرى : جامع البيان — ٢١ : ٤١ .

الخصام غير مبين ، مثال بارز لإغرابه فى التفسير ، فهو يقول : هذه تماثيلهم التى يضربونها من فضة وذهب يعبدونها . هم الذين أنشئوها . ضربوها من تلك الحلية ثم عبدوها . والذى يذهب إليه المفسرون – ويختاره الطبرى – أن المقصود هنا الجوارى والنساء[١] .

من الواضح أن الآية ٢٢ من سورة ق : « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » – مثلها مثل الآيات السابقة عليها – إنما تخاطب الإنسان . غير أن ابن زيد يغرب فيذهب إلى أنها تخاطب النبى . قال : هذا رسول الله عليه السلام . قال: لقد كنت فى غفلة من هذا الأمر يامحمد . كنت مع القوم فى جاهليتهم فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد[٢] .

صحيح أن سجّر التنور بمعنى أحماه . والمسجور الموقد[٣] . ولكن يبعد جدًّا أن يستند إلى ذلك فى تفسير « البحر المسجور » (الطور : ١٦) – وهو مافعله ابن زيد – بأنه الموقد . إذ الأقرب أن يكون بمعنى المملوء كما قال مفسرون آخرون . ويستشهد ابن زيد على رأيه بالآية ٦ من سورة التكوير : « وإذا البحار سجرت » قائلا : أوقدت[٤] . وهو يعتمد فى الذهاب إلى أن البحار توقد يوم القيامة على مازعموا من أن ذلك هو التسجير فى كلام العرب[٥] .

يذهب ابن زيد إلى أن الغيب المذكور فى الآية ٢٤ من سورة التكوير : « وما هو على الغيب بضنين » هو القرآن . قال: لم يضن به على أحد من الناس. أداه وبلغه . بعث الله به الروح الأمين جبريل إلى رسول الله عليه السلام فأدى جبريل ما استودعه الله إلى محمد وأدى محمد ما استودعه الله وجبريل إلى العباد . ليس أحد منهم ضن ولا كتم ولا تخرص[٦] . وبالرغم من كل هذا الشرح لايبدو واضحًا لماذا يقصر ابن زيد الغيب على القرآن . هذا إذا لم نتساءل لماذا يفسر الغيب أصلا بالقرآن .

---

(١) المصدر نفسه – ٢٥ : ٣٥ .
(٢) المصدر نفسه – ٢٦ – ١٠٢ .
(٣) القاموس المحيط : مادة : سجر .
(٤) الطبرى : جامع البيان – ٢٧ : ١٢ .
(٥) المصدر نفسه – ٣٠ : ٤٣ .
(٦) الطبرى : جامع البيان – ٣٠ : ٥٢ .

غير أن ابن زيد قد يتجاوز الإغراب إلى الخطأ الواضح . سأله تلميذه ابن وهب عن قول الله عزوجل : « وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون » (البقرة : ٥٣) فقال : أما « الفرقان » الذى قال الله عز وجل : « يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » (الأنفال : ٤١) فذلك يوم بدر ، يوم فرق الله بين الحق والباطل ، والقضاء الذى فرق به بين الحق والباطل . قال — يستفيد بذلك فى التفسير المطلوب — : فكذلك أعطى الله موسى الفرقان ، فرق الله بينهم وسلمه وأنجاه ، فرق بينهم بالنصر . فكما جعل الله ذلك بين محمد والمشركين فكذلك جعله بين موسى وفرعون . ويعلق الطبرى بأن الأولى بتأويل هذه الآية هو ماروى عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) ، وأبى العالية الرياحى (ت ٩٠ هـ) ، ومجاهد (ت ١٠٣ هـ) من أن الفرقان الذى ذكر الله أنه آتاه موسى فى هذا الموضع هو الكتاب الذى فرق به بين الحق والباطل ، هو نعت للتوراة وصفة لها[١] .

وفى تفسير الآية ٥ من سورة الرحمن : « الشمس والقمر بحسبان » يقول ابن زيد — وهو خطأ واضح كذلك — : يحسب بهما الدهر والزمان . لولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدرك أحد كيف يحسب شيئاً ، لو كان الدهر ليلا كله كيف يحسب ، أو نهاراً كله كيف يحسب[٢] ؟

هكذا إذن كان ابن زيد يفسر القرآن برأيه معتمداً على تفكيره الذاتى واجتهاده الشخصى . وهكذا كان يصل به الأمر إلى حد الإغراب والبعد الشديد عن المعنى المقبول ، بل إلى حد الوقوع فى الخطأ نفسه . وبالرغم من ذلك كله كان ابن زيد فى بعض الأحيان يتوقف عن التفسير مصرحاً بجهله أو عجزه .

أمر الله زكريا — بعد أن بشره بغلام — ألا يكلم الناس ثلاث ليال سويا ، « فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً » (مريم : ١١) فكيف تم هذا الإيحاء ؟ يقول ابن زيد : ما أدرى كتاباً كتبه لهم أو إشارة أشارها . والله أعلم[٣] .

وفى تفسير الآيتين ٣٥ — ٣٦ من سورة الحاقة : « فليس له اليوم ههنا حميم

---

(١) المصدر نفسه — ١ : ٢٢٦ .

(٢) المصدر نفسه — ٢٧ : ٦٨ .

(٣) الطبرى : جامع البيان — ١٦ : ٤٢ .

ولإطعام إلا من غسلين » يقول ابن زيد : الغسلين والزقوم لايعلم أحد ماهو [١] . وكان قد ذكر فى موضع سابق أن الغسلين والزقوم شىء لايعرفه أهل الدنيا[٢].

وفى تفسير الآية ٣٥ من سورة الرحمن : « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » يفسر ابن زيد الشواظ باللهب ، وأما النحاس فالله أعلم بما أراد به [٣] :

كذلك لم يعرف ابن زيد المقصود بالطلح فى الآية ٢٩ من سورة الواقعة : « وطلح منضود » فقال : الله أعلم . ولكنه ، إبراء لذمته ، أضاف : إلا أن أهل اليمن يسمون الموز الطلح[٤].

كان من منهج ابن عباس فى التفسير أن يبحث فى الشعر القديم — أى فى الاستعمال اللغوى للشعراء القدامى — عن معنى التعبيرات النادرة التى ترد فى لغة القرآن والتى كانت تبدو أحياناً غير مفهومة حتى للمثقفين[٥] . وربما كان عبد الرحمن بن زيد قد أخذ عن ابن عباس المبدأ فى عمومه : إذ نجد عنده أمثلة غير قليلة للرجوع فى التفسير إلى المعنى اللغوى العام وإلى كلام العرب وإلى الشعر . ومن الممكن تصنيف هذه الأمثلة التى تشكل الخط الثانى من منهج ابن زيد فى التفسير كالآتى :

سورة البقرة :

« أو كصيب من السماء » (آية ١٩) : أو كغيث من السماء[٦]
وجدير بالذكر أن ابن عباس يفسر الصيب بالمطر[٧] .
— « السلوى » (آية ٥٧) : طير[٨] .

---

(١) المصدر نفسه — ٢٩ : ٤١ .
(٢) المصدر نفسه — ١٦ : ١٦٤ .
(٣) المصدر نفسه — ٢٧ : ٨١ .
(٤) المصدر نفسه — ٢٧ : ١٠٤ .
(٥) جولد تسيهر : مذاهب : ١١٤ .
(٦) الطبرى : جامع البيان — ١ : ١١٥ .
(٧) السيوطى : الإتقان : — ١ : ١١٨ .
(٨) الطبرى : جامع البيان — ١ : ٢٣٥.

وهى عند ابن عباس كذلك طائر شبيه بالسمانى [١] . وفى القاموس طائر واحدته سَلْوَاة .

— « الرجز » (آية ٥٩) : العذاب . وكل شىء فى القرآن رجز فهو عذاب [٢] .

ويلحظ أن الرجز العذاب بلغة هذيل [٣] . ولغة بلى [٤] . كما يذكر ابن عباس أن كل شىء فى كتاب الله من الرجز يعنى به العذاب [٥] . ومن معانى الرجز فى القاموس العذاب .

— « وفُومِها » (آية ٦١) : الفوم : الخبز [٦] .

وهو عند ابن عباس بمعنى الحنطة [٧] . ويزيد الواسطى أنه الحنطة بالعبرية [٨] ؛ وفى القاموس : الفوم : الثوم ، والحنطة ، والحمص ، والخبز ، وسائر الحبوب التى تخبز .

— «ورفعنا فوقكم الطور» (آية ٦٣) : الجبل بالسريانية الطور [٩] .

والطور عند ابن عباس ماأنبت من الجبال ، ومالم ينبت فليس بطور [١٠] .

فى حين ذكر مجاهد أن الطور الجبل بالسريانية [١١] . أما الضحاك فذكر أنه بالنبطية [١٢] .

— « الفارض » : (آية ٦٨) : الكبيرة [١٣] . وفى القاموس : فرضت البقرة : طعنت فى السن .

---

(١) السيوطى : الإتقان — ١ : ١١٦ .
(٢) الطبرى : جامع البيان — ١
(٣) السيوطى : الإتقان — ١ : ١٣٤ .
(٤) المصدر نفسه — ١ : ١٣٥ .
(٥) المصدر نفسه — ١ : ١٤٤ .
(٦) الطبرى : جامع البيان — ١ : ٢٤٦ .
(٧) السيوطى : الإتقان — ١ : ١١٤ .
(٨) المصدر نفسه — ١ : ١٣٩ .
(٩) الطبرى : جامع البيان : — ١ : ٢٥٧ .
(١٠) السيوطى : الإتقان — ١ : ١١٨ .
(١١) و (١٢) المصدر نفسه — ١ : ١٣٩ .
(١٣) الطبرى : جامع البيان — ١ : ٢٧١ .

– « عوان » (آية ٦٨) : العوان : بين ذلك ، ليست ببكر ولا كبيرة . وأنشد ابن زيد :

قعود لدى الأبواب طلاب حاجة عوان من الحاجات أو حاجة بكرا

قال أبو جعفر : والبيت للفرزدق[1] . وفى القاموس : العوان من البقر والخيل التى نتجت بعد بطنها البكر .

– « وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها » (الآية ٧٢) . قال : اختلفتم . وهو التنازع [2] . وفى القاموس : تدارءوا تدافعوا فى الخصومة . وادارأتم أصله : تدارأتم.

– « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » (آية ١٢٥) : يثوبون إليه من البلدان كلها ويأتونه[3]. ويقول ابن عباس : يثوبون إليه ثم يرجعون[4] . والمثابة – فى القاموس – مجتمع الناس بعد تفرقهم .

– « وإن تولوا فإنما هم فى شقاق » (آية ١٣٧) : الشقاق الفراق والمحاربة إذا شاق فقد حارب ، وإذا حارب فقد شاق . وهما واحد فى كلام العرب . وقرأ : « ومن يشاقق الرسول » (الأنفال : ١٣)[5] . والشقاق – فى القاموس – الخلاف والعداوة .

– « أتحاجوننا فى الله » (آية ١٣٩) : أتخاصموننا[6].

وهو نفس المعنى المذكور عن ابن عباس[7] . والتحاج – فى القاموس – التخاصم .

« فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً » (آية ١٨٢) : الجنف أن يحيف

---

(١) المصدر نفسه – ١ : ٢٧٢ . وانظر : ديوان الفرزدق – ١ :
(٢) الطبرى : جامع البيان – ١ : ٢٨٣ .
(٣) المصدر نفسه – ١ : ٤٢٠ .
(٤) السيوطى : الإتقان – ١ : ١١٤.
(٥) الطبرى : جامع البيان – ١ : ٤٤٤ .
(٦) المصدر نفسه – ١ : ٤٤٥ .
(٧) السيوطى : الإتقان – ١ : ١١٨ .

لبعضهم على بعض فى الوصية[١].وهو عند ابن عباس بمعنى الإثم[٢]. ولكنه فى القاموس : الميل والجور .

— « ادخلوا فى السلم كافة » (آية ٢٠٨) : السلم : الإسلام[٣] .

ويفسره ابن عباس بالطاعة[٤] . والإسلام من المعانى التى ذكرها القاموس . ويتفق ابن عباس وابن زيد فى أن « كافة » تعنى : جميعا[٥].

— « وقوموا لله قانتين » (آية ٢٣٨) : إذا قمتم فى الصلاة فاسكتوا لاتكلموا أحداً حتى تفرغوا منها . والقانت : المصلى الذى لايتكلم[٦] .

ومن معانى القنوت فى القاموس : السكوت ، والإمساك عن الكلام .

— « ولاتيمموا الخبيث منه تنفقون ؛ ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » (آية ٢٦٧) : الخبيث الحرام . لست آخذاً ذلك الحرام حتى تغمض على ما فيه من الإثم . قال : وفى كلام العرب : أما والله لقد أخذه ولقد أغمض على ما فيه وهو يعلم أنه حرام باطل[٧].

ومن الطريف أن صاحب القاموس المحيط أورد هذه الآية فى آخر مادة « الغامض » وفسرها قائلا : أى لا تنفق فى قرض ربك خبيثاً ، فإنك لو أردت شراءه لم تأخذه حتى تحط من ثمنه .

سورة آل عمران :

— « مثل ماينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته » (آية ١١٧) : صر : باردة أهلكت حرثهم . قال : والعرب تدعوها الضريب . تأتى الريح باردة فتصبح ضريباً قد أحرق الزرع . تقول : قد ضُرِب الليلة : أصابه ضريب تلك الصر التى أصابته[٨].

---

(١) الطبرى : جامع البيان : — ٢ : ٧٣ .   (٢) السيوطى : الإتقان — ١ : ١١٤ .

(٣) السيوطى : جامع البيان — ٢ : ١٨٨ .

(٤) السيوطى . الإتقان — ١ : ١١٨ — ١١٩.

(٥) الطبرى : جامع البيان : — ١٨٩ . السيوطى : الإتقان — ١ : ١١٥ ، ١١٩ .

(٦) الطبرى : جامع البيان — ٢ : ٣٥٤ .

(٧) الطبرى : جامع البيان — ٣ : ٥٦ — ٥٧ .

(٨) المصدرنفسه — ٤ : ٣٩ .

والصر – فى القاموس – شدة البرد ، والبرد . وريح صر وصرصر شديدة الصوت أوالبرد . والضريب الثلج والجليد والصقيع .

سورة الأنعام :

– « ومن الأنعام حمولة وفرشاً » (آية ١٤٢) : الحمولة : ما تركبون . والفرش : ماتأكلون وتحلبون : شاة لاتحمل تأكلون لحمها ، وتتخذون من أصوافها لحافاً وفرشا[١]

والحمولة – عند ابن عباس – الإبل ، والخيل ، والبغال ، والحمير ، وكل شيء يحمل عليه . أما الفرش فهو الغنم[٢] .

والحمولة – فى القاموس – ما احتمل عليه القوم من بعير وحمار ونحوه كانت عليه أثقال أو لم تكن . أما الفرش فصغار الإبل ، ومنه : « ومن الأنعام حمولة وفرشا » .

ويتفق القاموس مع ابن مسعود فى تخصيص الفرش بصغار الإبل[٣] . وأيّاً كان الأمر فمن الواضح اتفاقهم على معنى الحمولة ، وانفراد ابن زيد بتعميم معنى الفرش .

سورة يوسف :

– « قد شغفها حبّاً » (آية ٣٠) : إن الشغف (بالغين المعجمة) والشعف (بالعين المهملة) مختلفان . والشعف (بالمهملة) فى البغض . والشغف (بالمعجمة) فى الحب .

ويعلق الطبرى بأن هذا الذى قاله ابن زيد لامعنى له ، لأن الشعف (بالمهملة) فى كلام العرب بمعنى عموم الحب أشهر من أن يجهله ذو علم بكلامهم[٤] . ويقف القاموس مع الطبرى إذ يقول : شعفنى حبه – كمنع – ، وشعفت به

---

(١) المصدر نفسه – ٨ : ٤٧ .
(٢) السيوطى : الإتقان – ١ : ١١٥ .
(٣) الطبرى : جامع البيان – ٨ : ٤٧ .
(٤) الطبرى : جامع البيان – ٢ : ١١٩ .

وبجبه – كفرح – : أى غشى الحب القلب من فوقه . وقرىء بهما : « قد شعفها حبًّا . أما « شغفها » عند ابن عباس فتعنى : غلبها[١].

سورة الإسراء :

– « إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » (آية : ٣٠) : يقدر : يُقَلِّل . وكل شىء فى القرآن « يقدر » كذلك[٢].

والتضييق من معانى القَدْر (بسكون الدال) فى القاموس . وفعله كضرب ونصر .

– « إن العهد كان مسئولا » (آية ٣٤) : وإنما عنى بذلك أن العهد كان مطلوبًا . يقال فى الكلام : ليسألن فلان عهد فلان[٣].

سورة الكهف :

– « وإنا لجاعلون ماعليها صعيداً جرزاً » (آية ٨) : الجرز : الأرض التى ليس فيها شىء . . لانبات ولامنفعة . والصعيد المستوى[٤].

والصعيد – فى القاموس – التراب أووجه الأرض . والأرض الجرز التى لاتنبت ، أوأُكل نباتها ، أولم يصبها مطر .

سورة الفرقان :

– « ومن يفعل ذلك يلق أثاما » (آية ٦٨) : الأثام : الشر[٥] . والأثام – فى القاموس – العقوبة .

سورة الأحزاب :

– « وكان عند الله وجيهاً » (آية ٦٩) : الوجه فى كلام العرب : المحب المقبول[٦].

---

(١) السيوطى : الإتقان – ١ : ١١٥ . (٢) الطبرى : جامع البيان – ١٥ : ٥٧ .
(٣) المصدر نفسه – ١٥ : ٦١ .
(٤) المصدر نفسه – ١٥ : ١٣٠ .
(٥) المصدر نفسه – ١٩ : ٢٩٠ .
(٦) الطبرى : جامع البيان – ٢٢ :

سورة الأحقاف :

— « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف » (آية: ٢١) : الأحقاف الرمل الذى يكون كهيئة الجبل ، تدعوه العرب : الحِقْف . ولا يكون أحقافا إلا من الرمل[١] . والأحقاف الرمل بلغة ثعلب[٢]

والحقف — بالكسر — المعوج من الرمل — أحقاف — ، أو الرمل العظيم المستدير ، أو المستطيل المشرف ، أو هى رمال مستطيلة بناحية الشحر[٣] . هكذا جاء فى القاموس .

وهذا الاتفاق على معنى الأحقاف يسمح بالقول بأن « الأحقاف » المذكورة فى الآية منطقة فى بلاد العرب تميزت بكثرة هذا النوع من التكوينات الرملية بها .

سورة ق :

— « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » (آية ٧) : البهيج : الحسن المنظر[٤]. وبهيج : حسن عند ابن عباس كذلك[٥] .

والبهجة — فى القاموس — الحسن . وبَهُجَ — ككرم — بهاجة فهو بهيج .

سورة القمر :

— « وحملناه على ذات ألواح ودسر » (آية ١٣) : الدسر : المسامير[٦]. والدسر : المسامير بلغة هذيل[٧] .

ولكن الدسار — فى القاموس — والجمع — دسر — خيط من ليف تشد به ألواح السفينة .

---

(١) المصدر نفسه — ٢٦ : ١٦ .
(٢) السيوطى : الإتقان — ١ : ١٣٥ (القاموس المحيط) .
(٣) الشحر : ساحل البحر مابين عمان وعدن .
(٤) الطبرى : جامع البيان — ٢٦ : ٩٥ .
(٥) السيوطى : الإتقان — ١ : ١١٦ .
(٦) الطبرى : جامع البيان — ٢٧ : ٥٥ .
(٧) السيوطى : الإتقان — ١ : ١٣٤ .

سورة الرحمن :

— « والنخل ذات الأكمام » (آية ١١) : قيل له : هو الطلع ؟ قال : نعم وهو فى كم منه حتى ينفتق عنه[١].

والكم — فى القاموس — وعاء الطلع ، وغطاء النور .

— « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس » (آية ٣٥) : الشواظ : اللهب[٢] والشواظ — عند ابن عباس — لهب النار كذلك[٣] .

ومن معانى الشواظ — فى القاموس — اللهب لادخان فيه .

سورة الواقعة :

— « وطلح منضود » (آية ٢٩) : الله أعلم . إلا أن أهل اليمن يسمون الموز : الطلح[٤] .

ومن معانى الطلح — فى القاموس — الموز .

سورة المدثر :

— « فرت من قسورة » (آية ٥١) : هو الأسد[٥].

وعن ابن عباس أن الأسد يقال له بالحبشية : قسورة[٦] .

والقسورة — فى القاموس — تعنى : العزيز : والأسد .

سورة الإنسان :

— « نحن خلقناهم وشددنا أسرهم » (آية ٢٨) : الأسر : القوة[٧].

وبالرغم من أن القاموس يذكر للأسر معانى : الشدة : والعَصْب ، وشدة الخَلق والخُلق ، فإنه يقول : « وشددنا أسرهم » أى : مفاصلهم .

---

(١) الطبرى : جامع البيان — ٢٧ : ٧٠ .
(٢) الطبرى : جامع البيان — ٢٧ : ٨١ .
(٣) السيوطى : الإتقان — ١ : ١١٧ .
(٤) الطبرى : جامع البيان — ٢٧ : ١٠٤ .
(٥) المصدر نفسه — ٢٩ : ١٠٧ .
(٦) السيوطى : الإتقان — ١ : ١٣٩ .
(٧) الطبرى : جامع البيان — ٢٩ : ١٣٩ .

سورة عبس :

— « ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة » (آية ٤٠ — ٤١) : هذه وجوه أهل النار . قال : والقترة من الغبرة . قال : وهما واحد . قال : فأما فى الدنيا فإن القترة ما ارتفع فلحق بالسماء ورفعته الريح ، تسميه العرب : القترة . وما كان أسفل الأرض فهو الغبرة[١].

والقترة — فى القاموس — الغبرة .

سورة التكوير :

— « وإذا البحار سجرت » (آية ٦) : إنها (أى البحار) توقد يوم القيامة . زعموا ذلك التسجير فى كلام العرب[٢]. ويلحظ تشكك ابن زيد فى هذا المعنى وميله إلى التنصل من مسئوليته .

ولكن فى القاموس : سجر التنور : أحماه ، والنهر : ملأه .

سورة الغاشية :

— « ليس لهم طعام إلا من ضريع » (آية ٦) : الضريع : الشوك من النار . قال : وأما فى الدنيا فإن الضريع الشوك اليابس الذى ليس له ورق ، تدعوه العرب : الضريع . وهو فى الآخرة شوك من نار[٣].

والضريع عند ابن عباس : شجر من نار[٤].

والضريع ، سواء كان نباتاً عاماً أو نباتاً بعينه ، يتصف — فى القاموس — باليبس عادة .

سورة الفلق :

— « ومن شر غاسق إذا وقب » (آية ٣) : كانت العرب تقول : الغاسق سقوط الثريا . وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها وترتفع عند طلوعها[٥].

---

(١) المصدر نفسه — ٣٠ : ٤٠ . (٢) المصدر نفسه — ٣٠ : ٤٣ .
(٣) الطبرى : جامع البيان — ٣٠ : ١٠٣ .
(٤) السيوطى : الإتقان — ١ : ١١٨ .
(٥) الطبرى : جامع البيان — ٣٩ : ٢٢٧ .

ويذكر القاموس هذا المعنى . ويذكر قبله المعنى الأشهر وهو : الليل إذا دخل . فمن معانى الغاسق : الليل إذا غاب الشفق . والوَقْب : المجيء والإقبال ، ووقب الظلام : دخل . ومنه : « غاسق إذا وقب » .

أما بعد — فإن هذه النماذج من الجانب اللغوى فى منهج ابن زيد فى التفسير تكفى لتدل على معرفته بلغات القبائل العربية المختلفة ورجوعه إليها فى التفسير ، ومن الواضح جداً اتفاقه مع ابن عباس فى التفسيرات اللغوية مما يبعث على التساؤل عما إذا كان قد اطلع على أقوال ابن عباس فى التفسير ، مالم يكن ذلك الاتفاق راجعاً إلى وحدة المصدر . وإذا صرفنا النظر عن أن القاموس المحيط يذكر من بين المعانى التى يوردها الاستعمالات القرآنية للكلمات ، أى المعانى التى خلعها القرآن على الألفاظ العربية ، مما يدل على أنه اتخذ من التفاسير مصدراً ، وجدنا القاموس — من الناحية اللغوية البحتة — يقف عادة فى صف ابن زيد . على أن ذلك كله لم يمنع ابن زيد من الوقوع فى بعض الأخطاء مثل التفريق بين شغف وشعف . وأيًّا كان الأمر فإن فيما تقدم مايكفى للاطمئنان إلى أن معرفة ابن زيد باللغة كانت على المستوى الذى ينبغى تحققه لمن يتصدى لمهمة فهم النص المقدس .

لما كان للقرآن وجهة نظره الخاصة ، أى موقفه الخاص ، كانت له طريقته الخاصة فى التعبير سواء من الناحية الأسلوبية أو من ناحية الاستعمال اللغوى للألفاظ يضاف إلى هذا أن القرآن قد يرمز أو يجمل أو يعمم فى موضع ؛ ثم يصرح أو يفصل أو يخصص فى موضع آخر . لذلك كان القرآن نفسه مرجعاً لاغنى عنه لفهمه . وهو مايمكن أن يعد تفسيراً للقرآن . وقد فطن ابن زيد إلى هذا يمارسه فعلا .

تصف الآية ٩ من سورة البقرة المنافقين بأنهم « يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » . وقال ابن زيد : مايشعرون أنهم ضروا أنفسهم بما أسروا من الكفر والنفاق . ولكى يثبت أن الخداع والتضليل سلوك ثابت فيهم يظلون يصطنعونه حتى بعد البعث لعله ينفعهم هناك ، يقرأ الآية ١٨ من سورة المجادلة : « يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ، ويحسبون أنهم على شيء ، ألا إنهم هم الكاذبون »[1] .

(١) الطبرى : جامع البيان – ١ : ٩٤ .

وهؤلاء المنافقون « فى قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضاً » (البقرة : ١٠) . ويفسر ابن زيد هذا المرض بأنه الرجس استناداً إلى الآية ١٢٥ من سورة التوبة : « وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم » قال : شراً إلى شرهم ، وضلالة إلى ضلالتهم[1] . وهكذا يكون المقصود بذلك المرض القلبى آخر الأمر هو : الشر والضلالة .

ينادى الله بنى إسرائيل فى الآية ٤٠ من سورة البقرة : « يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم » . ويروى ابن زيد أن هذه النعمة نعمة عامة ، ولا نعمة أفضل من الإسلام ، والنعم بعد تبع لها . ويستشهد على ذلك بالآية ١٧ من سورة الحجرات : « يمنون عليك أن أسلموا . قل : لاتمنوا علىّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » . ويسوى ابن زيد بين هذا التذكير الموجه إلى بنى إسرائيل المعاصرين للنبى عن طريقه وبين التذكير الموجه إلى أسلافهم عن طريق نبيهم موسى فى الآية ٢٠ من سورة المائدة : « وإذ قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكاً ، وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين »[2] .

وأيًّا كان الأمر فإن الله ، بعد أن يدعو الإسرائيليين المعاصرين للنبى إلى تذكر نعمته ، يقول لهم فى الآية نفسها من سورة البقرة : « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم » . قال ابن زيد : أوفوا بأمرى أوف بالذى وعدتكم . ولكن ما هذا العهد أو الوعد ؟ يجده ابن زيد فى الآية ١١١ من سورة التوبة : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون . وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله » قال : هذا عهده الذى عهده لهم[3] .

تقول الآية ٤٥ من سورة البقرة عن الصلاة : « وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين » ويفسر ابن زيد الخشوع بأنه الخوف والخشية لله ، مستدلاً بالآية ٤٥ من سورة الشورى :

---

(١) المصدر نفسه - ١ : ٩٥ .
(٢) المصدر نفسه - ١ : ١٩٧ - ١٩٨ .
(٣) الطبرى : جامع البيان - ١ : ١٩٨ .

« وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى » . قال : قد أذلهم الخوف الذى نزل بهم وخشعوا له[١] .

وهؤلاء الخاشعون أنفسهم هم : « الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون » (البقرة : ٤٦) . وهنا لابد للمرء من أن يتساءل : كيف يتفق الظن — مجرد الظن — مع إيمانهم العظيم الذى يتجلى فى ذلك الخشوع ؟ ولكن ابن زيد يرى فى هذا الظن اليقين نفسه : لأنهم لم يعاينوا فكان ظنهم يقيناً وليس ظناً فى شك . ويستدل على ذلك بقول المؤمن ، الواثق بنفسه يوم الحساب ، الذى أوتى كتابه بيمينه ، فهو يقول : « هاؤم اقرءوا كتابيه . إنى ظننت أنى ملاق حسابيه » (الحاقة : ١٩ — ٢٠)[٢] .

لما طالب بنو إسرائيل موسى بأن يوفر لهم ألواناً متعددة من الطعام لأنهم لن يصبروا على طعام واحد قال لهم موسى : « اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم » (البقرة : ٦١) . ويرى ابن زيد أن المقصود هنا مصر من الأمصار ، أى بلد ما . ولكى يؤكد رأيه يشير إلى أن مصر — العلم — لاتُجرى — أى لاتصرف ؛ ولاتنون — فى الكلام . ومن الواضح أن كلمة « مصر » المذكورة فى الآية مصروفة . واقتنع الحاضرون بوجهة نظره ، غير أنهم سألوه : أى مصر ؟ وسرعان ماوجد ابن زيد الجواب فى الآية ٢١ من سورة المائدة فقال : الأرض المقدسة التى كتب الله لهم ، وقرأ قول الله جل ثناؤه : « ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم »[٣] .

تقول الآية ٨٧ من سورة البقرة : « وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » . ويرى ابن زيد أن روح القدس هو الإنجيل . قال : أيد الله عيسى بالإنجيل روحاً كما جعل القرآن روحاً . كلاهما روح ، كما قال الله : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » (الشورى : ٥٢)[٤] ثم يعود فيفسر « روح القدس » عن طريق تفسير « القدس » فيقول : الله القدس ، وأيد عيسى بروحه . قال : نعت الله القدس . واستشهد على ذلك بالآية ٢٣ من سورة الحشر :

---

(١) المصدر نفسه — ١ : ٢٠٦ .
(٢) المصدر نفسه — ١ : ٢٠٧ .
(٣) المصدر نفسه — ١ : ٢٤٨ .
(٤) الطبرى : جامع البيان — ١ : ٣٢٠ .

« هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس » قال : القدس والقدوس واحد[١] .

تقرر الآية ١٩٧ من سورة البقرة أن الحج أشهر معلومات « فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ، ولافسوق ، ولا جدال فى الحج » . والفسوق عند بعضهم المعاصى كلها[٢] ، وعند آخرين إتيان معاصى الله فى الحرم[٣] . ولكن ابن زيد يذهب إلى أن الفسوق هو الذبح للأنصاب استناداً إلى الآية ١٤٥ من سورة الأنعام التى تحل كل ألوان الطعام « إلا أن يكون ميتة ، أودماً مسفوحاً ، أولحم خنزير فإنه رجس ، أو فسقا أهل لغير الله به »[٤] .

تقول الآية ٤٣ من سورة النحل: « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون » . ويرى بعض المفسرين أن أهل الذكر هؤلاء هم أهل التوراة ، أو أهل الكتاب ، أو أهل الكتب الماضية ، أو من أسلم من أهل التوراة والإنجيل . ولكن ابن زيد يرى أن الذكر هو القرآن ، ويستشهد على ذلك بالآية ٩ من سورة الحجر: « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، وآية ٤١ من سورة فصلت « إن الذين كفروا بالذكر لماجاء هم وإنه لكتاب عزيز »[٥].

وينص ابن زيد على أن تفسير الآية ١٠٦ من سورة الإسراء : « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مُكث » هو التفسير الذى قال الله: « ورتل القرآن ترتيلا » (المزمل : ٤)[٦] .

وفى تفسيره للآية ٨ من سورة الكهف : « وإنا لجاعلون ماعليها صعيداً جرزاً » قال : الجرز : الأرض التى ليس فيها شىء . ألا ترى أنه يقول : « أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا » (السجدة : ٢٧) ؟ قال : والجرز لا شىء فيها ، ولا نبات ، ولا منفعة[٧] .

يذهب المفسرون إلى أن الرقيم المذكور فى الآية ٩ من سورة الكهف :

---

(١) المصدر نفسه – ١ : ٣٢١ .
(٢) المصدر نفسه – ٢ : ١٥٦ .
(٣) المصدر نفسه – ٢ : ١٥٧ .
(٤) المصدر نفسه – ٢ : ١٥٧ .
(٥) المصدر نفسه – ١٤ : ٧٥ .
(٦) المصدر نفسه – ١٥ : ١١٩ .
(٧) المصدر نفسه – ١٥ : ١٣٠ .

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً » قرية أو واد ، فى حين يذهب ابن زيد إلى أنه كتاب ، ولذلك الكتاب خبر ولكن الله لم يخبر عنه وعما فيه . وحجته فى ذلك الآيتان ٩ / ٨ من سورة المطففين : « وما أدرك ماسجين كتاب مرقوم » ، والآيات ١٩ — ٢١ من السورة نفسها : « وما أدراك ماعليون . كتاب مرقوم . يشهده المقربون »[١].

تصف الآية ٨ من سورة العاديات الإنسان قائلة : «وإنه لحب الخير لشديد» . ويفسر ابن زيد هذا الخير بأنه الدنيا . ويستشهد على ذلك بالآية ١٨٠ من سورة البقرة : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت — إن ترك خيراً — الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقًّا على المتقين » . ولكن تلميذه ابن وهب اعترض قائلا : « إن ترك خيراً » : المال ؟ قال ابن زيد : نعم . وأى شىء هو إلا المال ؟ ثم مضى يواصل تفسيره فقال : وعسى أن يكون حراما ولكن الناس يعدونه خيراً فسماه الله خيراً لأن الناس يسمونه خيراً فى الدنيا وعسى أن يكون خبيثاً . وساق حالة مشابهة فى الآية ١٧٤ من سورة آل عمران : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » ، أى : لم يمسسهم قتال . فسمى القتال فى سبيل الله سوءاً ، وليس هو عند الله بسوء ولكن يسمونه سوءاً[٢] .

وعندما كان ابن زيد يفسر الآية الأولى من سورة الفلق : « قل أعوذ برب الفلق » قيل له : فلق الصبح ؟ قال : نعم . وقرأ : « فالق الإصباح وجعل الليل سكنا » (الأنعام : ٩٦)[٣] .

على أن ابن زيد فى تفسيره القرآن برأيه معتمداً على فهمه الخاص ، مستنداً إلى الاستعمال اللغوى ، مسترشداً بالاستعمال القرآنى ، كان يستطيع — ولكن فى أحيان قليلة حقًّا — أن يتجاوز الفهم العادى السطحى المباشر للنص المقدس إلى محاولة أولية لإدراك تعبيره المجازى وتذوق جماله الأدبى .

فعندما تصف الآية ١٠ من سورة البقرة المنافقين بأنهم « فى قلوبهم مرض »

---

(١) الطبرى : جامع البيان — ١٥ : ١٣١ .

(٢) المصدر نفسه — ٣٠ : ١٨٠ — ١٨١ .

(٣) المصدر نفسه — ٣٠ : ٢٢٦ و« جاعل » — بالألف — هى قراءة أهل المدينة وغيرهم ماعدا الكوفيين . انظر : ١ ا : التيسير : ١٠٥ ، القرطبى : الجامع — ٧ : ٤٥ ، أبن الجزرى : تقريب النشر : ١١١ .

ينبه ابن زيد إلى أن هذا مرض فى الدين وليس مرضًا فى الأجساد ، وأنه الشك الذى دخلهم فى الإسلام[١] .

ويشترك ابن زيد مع مفسرين آخرين كثيرين فى القول بأن صبغة الله المذكورة فى الآية ١٣٨ من سورة البقرة : « صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة» تعبير مجازى عن : دين الله[٢] .

وعندما تقول الآية ١٤٣ من سورة البقرة : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » يدرك ابن زيد أن الانقلاب على العقبين كناية عن الرجوع إلى الكفر ممن دخلته شبهة فرجع عن الله[٣] .

وحينما تصور الآية الرابعة من سورة القارعة الناس يوم القيامة فى صورة الفراش من حيث الكثرة والانتشار والتحير : « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث » يقول ابن زيد : هذا شبه شبهه الله[٤] .

ويتوقف ابن زيد عادة وقفات أميل إلى القصر عند تلك الصور الفنية الخالدة التى تعرف عند الأقدمين باسم : أمثال القرآن . فمن ذلك

— « مثلهم كمثل الذى استوقد نارًا . فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » (البقرة : ١٧) .

قال ابن زيد : هذه صفة المنافقين . كانوا قد آمنوا حتى أضاء الإيمان فى قلوبهم كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا . ثم كفروا فذهب الله بنورهم : فانتزعه كما ذهب بضوء هذه النار ، فتركهم فى ظلمات لايبصرون[٥] .

— « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت . والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا . ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم . إن الله على كل شىء قدير » (البقرة : ١٩ — ٢٠) .

---

(١) المصدر نفسه — ١ : ٩٤ .
(٢) الطبرى : جامع البيان — ١ :
(٣) المصدر نفسه — ٢ : ١٠ .
(٤) المصدر نفسه — ٣٠ : ١٨٢ .
(٥) المصدر نفسه — ١ :

قال ابن زيد : هذا أيضاً مثل ضربه الله للمنافقين . كانوا قد استناروا بالإسلام كما استنار هذا بنور هذا البرق[١] .

— « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بمالا يسمع إلا دعاء ونداء » (البقرة : ١٧١) .

قال ابن زيد : الرجل الذى يصيح فى جوف الجبال فيجيبه فيها صوت يراجعه يقال له : الصدى . فمثل آلهة هؤلاء لهم كمثل الذى يجيبه بهذا الصوت لا ينفعه ، لايسمع إلا دعاء ونداء . قال : والعرب تسمى ذلك : الصدى[٢] .

— « أيود أحد كم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب ، تجرى من تحتها الأنهار ، له فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكبر ، وله ذرية ضعفاء ، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ؟ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » (البقرة : ٢٦٦) .

قرأ ابن زيد قول الله عز وجل : « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » (البقرة : ٢٦٤) . ثم ضرب ذلك مثلا فقال : « أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب » حتى بلغ : « فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت » . قال : جرت أنهارها وثمارها ، وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت . أيود أحدكم هذا ؟ فما يحمل أحدكم أن يخرج من صدقته ونفقته ، حتى إذا كان له عندى جنة ، وجرت أنهارها وثمارها ، وكانت لولده وولد ولده ، أصابها ريح إعصار فحرقها ؟[٣] .

— « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابيًا . ومما يوقدون عليه فى النار — ابتغاء حلية أو متاع — زبد مثله . كذلك يضرب الله الحق والباطل : فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . كذلك يضرب الله الأمثال » (الرعد : ١٧) .

قال ابن زيد : هذا مثل ضربه الله للحق والباطل . فقرأ : أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابيًا : هذا الزبد لاينفع . « أومتاع

(١) المصدر نفسه — ١ : ١٢٠ .
(٢) الطبرى : جامع البيان — ٢ :
(٣) المصدر نفسه — ٣ : ٥٢ .

زبد مثله » : هذا لاينفع أيضًا . قال : وبقى الماء فى الأرض فنفع الناس ، وبقى الحلى الذى صلح من هذا فانتفع الناس به . « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . كذلك يضرب الله الأمثال » . وقال : هذا مثل ضربه الله للحق والباطل[١]

— « الله نور السموات والأرض . مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية يكاد زيتها يضيء ولولم تمسسه نار . نورعلى نور . يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس . والله بكل شيء عليم » (النور : ٣٥) .

قال ابن زيد : « مثل نوره » : نور القرآن الذى أنزل على رسوله وعباده . فهذا مثل القرآن : « كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة » . فقرأ حتى بلغ « مباركة » . فهذا مثل القرآن : يستضاء به فى نوره ، ويعلمونه ، ويأخذون به : وهو كما هو لا ينقص . فهذا مثل ضربه الله لنوره[٢] .

— « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ، يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا وو جد الله عنده فوفاه حسابه . والله سريع الحساب » (النور : ٣٩) .

قال ابن زيد : هذا مثل ضربه الله للذين كفروا : « أعمالهم كسراب بقيعة » : قد رأى السراب ، ووثق بنفسه أنه ماء ، فلما جاءه لم يجده شيئًا . قال : وهؤلاء ظنوا أن أعمالهم صالحة وأنهم سيرجعون منها إلى خير ، فلم يرجعوا منها إلا كما رجع صاحب السراب . فهذا مثل ضربه الله جل تناؤه ، وتقدست أسماؤه[٣]

— « ضرب لكم مثلا من أنفسكم : هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فى ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ؟ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون » (الروم : ٢٨) .

قال ابن زيد : تجد أحداً يجعل عبده هكذا فى ماله ؟ فكيف تعمد أنت — وأنت تشهد أنهم عبيدى وخلقى — وتجعل لهم نصيبًا فى عبادتى ؟ كيف يكون

---

(١) المصدر نفسه – ١٣ : ٩٢ .
(٢) الطبرى : جامع البيان – ١٨ :
(٣) المصدر نفسه – ١٨ : ١١٥ .

هذا ؟ قال : وهذا مثل ضربه الله لهم . وقرأ : « كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون »[١] .

هكذا عالج ابن زيد آيات الأمثال هذه معالجة تكاد — فى بعض الأحيان — لا تتجاوز التفسير اللغوى العادى ، ولكنها تكفى لتشير إلى أنه قد تنبه إلى ما تتميز به هذه الآيات عن غيرها من اشتمالها على صور مركبة يكون حلها هو مهمة من يتصدى لتفسيرها .

وقديمًا توقف ابن عباس عند هذه الآيات محاولا تحليلها ، فقال فى الآية ١٧ من سورة البقرة : « مثلهم كمثل الذى استوقد نارًا » الآية : هذا مثل ضربه الله للمنافقين . كانوا يعتزون بالإسلام فيناكحهم المسلمون ، ويوارثونهم ويقاسمونهم الفىء . فلما ماتوا سلبهم الله العز كما سلب صاحب النار ضوءه : « وتركهم فى ظلمات » يقول : فى عذاب : « أو كصيب » (الآية ١٩) : هو المطر ضرب مثله فى القرآن . « فيه ظلمات » يقول : ابتلاء . « ورعد وبرق » : تخويف . « يكاد البرق يخطف أبصارهم » (الآية ٢٠) يقول : يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين . « كلما أضاء لهم مشوا فيه » يقول : كلما أصاب المنافقون فى الإسلام عزًّا اطمأنوا : فإن أصاب الإسلام نكبة « قاموا » فأبوا ليرجعوا إلى الكفر ، كقوله : « ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين » (الحج : ١١)[٢].

وفى الآية ٢٦٦ من سورة البقرة : « أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب » الآية قال ابن عباس إنها ضربت مثلا لعمل : لرجل غنى عمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل المعاصى حتى أغرق أعماله[٣] .

وقال ابن عباس أيضاً فى الآية ١٧ من سورة الرعد : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها » الآية : هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على

---

(١) المصدر نفسه — ٢١ : ٢٥ .

(٢) السيوطى : الإتقان — ٢ : ١٣٢ .

(٣) البخارى : صحيح — ٦ : ٦٧ — ٦٨ ، السيوطى : الإتقان — ٢ : ١٣٢ . والأرجح أن تكون : أغرق : أحرق .

قدر يقينها وشكّها . « فأما الزبد فيذهب جفاء » وهو الشك ، « وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » وهو اليقين . كما يجعل الحلى فى النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه فى النار ، كذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك[١] .

وأخرج عن قتادة (ت ١١٧ هـ) فى الآية نفسها قال : هذه ثلاثة أمثال ضربها الله فى مثل واحد . يقول : كما اضمحل هذا الزبد فصار جفاء لا ينتفع به ولا ترجى بركته كذلك يضمحل الباطل عن أهله . وكما مكث هذا الماء فى الأرض فأمرعت ، وربت بركته . وأخرجت نباتها ، وكذلك الذهب والفضة حين أدخل النار فأذهب خبثه ، كذلك يبقى الحق لأهله . وكما اضمحل خبث هذا الذهب والفضة حين أدخل فى النار كذلك يضمحل الباطل عن أهله[٢] .

وأيًّا كان الأمر فإن هذه المحاولات تمثل بداية الاهتمام بالجانب البيانى فى التفسير وهو ما عنى به المعتزلة فيما بعد حتى بلغ عند مفسرهم الزمخشرى (ت ٥٣٨ هـ) مبلغاً عظيماً من القوة والوضوح[٣].

التفسير بالرأى ، والرجوع إلى اللغة . وتجاوز التفسير اللفظى إلى التفسير المجازى — وهى من سمات منهج ابن زيد فى التفسير — هى فى نفس الوقت سمات رئيسية لمنهج المعتزلة فى التفسير . فهل فى ذلك ما يشير إلى وجود علاقة بين ابن زيد وبين الاعتزال ؟

كان ابن زيد على علم بأفكار المعتزلة[٤] : ولكنه لم يكن يقول بها ولاسيما ما يتصل منها بمسألة القدر[٥] . أما ذلك الاتفاق بينه وبينهم فى بعض اتجاهات التفسير فليس أمراً مقصوراً عليه ، ذلك بأنه قد برزت فى مدرسة الحديث القديمة محاولات تفسيرية مخالفة لمدارك أهل السنة القدامى[٦] . فكان هناك مفسرون قدماء يرفضون التفسير اللفظى لبعض الآيات رفضاً حاسما بالكلية ، أو على الأقل يعدونه ضعيفاً[٧] . ومن أبرز هؤلاء المفسرين مجاهد (ت ١٠٣ هـ) أوثق تلاميذ

(١ و ٢) السيوطى : الإتقان — ٢ : ١٣٢ .

(٣) راجع : جولد تسيهر : مذاهب التفسير :

(٤) الطبرى : جامع البيان — ٢٦ : ٨٥ .

(٥) المصدر نفسه ٢٢ : ١٢ و ٢٧ : ١٣٥ .

(٦) جولد تسيهر : مذاهب التفسير : ١٣٤ — ١٣٥ .

(٧) المصدر نفسه : ١٢٧ .

ابن عباس ، والذى يعترف الثقات القدماء بأن تفسيره للقرآن أصح وجوه التفسير ، مع أن النزعة إلى التفسير العقلى تظهر عنده فى وضوح[١] . وهكذا لم يكن المعتزلة هم الذين شقوا الطريق إلى التفسير المجازى ، بل لقد وجدوا بين ممثلى الحديث وعلمائه الرفيعى المقام رواداً وطلائع لهم فى نقاط متفرقة من المسائل[٢]
وفى ذلك مايفسر جمود ابن زيد عند التفسير الحرفى لبعض الآيات . فبدلا من أن يوضح مافى سجود الظلال لله الذى تذكره الآية ١٥ من سورة الرعد : « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرها ، وظلالهم بالغدو والآصال » من تعبير بليغ عن قدرة الله وسيطرته ليس على الكائنات فقط بل حتى على ظلالها ؛ يقول : ويسجد أيضاً ظلال كل من سجد لله طوعاً وكرهاً بالغدوات والعشايا ، وذلك أن ظل كل شخص فإنه يفىء بالعشى . كما قال جل ثناؤه : « أولم يروا إلى ماخلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون» (النحل : ٤٨) . قال : تلك الظلال تسجد لله[٣] .

ويبدو أن ابن زيد كان يستعين على فهم الآيات وشرحها بمعرفة أسباب نزولها ، وقد بقيت لنا نماذج لذلك ، منها أن اليهود كان إذا جاء الرجل يسألهم ماليس فيه حق ولا رشوة (كذا) ولاشىء أمروه بالحق . فقال الله لهم : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب . أفلا تعقلون » (البقرة : ٤٤) [٤] .

ويتفق ابن عباس مع ابن زيد فى أن هذه الآية نزلت فى يهود أهل المدينة ؛ لكنه يختلف معه فى مناسبة النزول[٥] .

وقال ابن زيد : لما نزلت هذه الآية : « وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشأ ويعذب من يشاء . والله على كل شىء قدير » (البقرة : ٢٨٤) اشتدت على المسلمين ، وشقت مشقة شديدة ، فقالوا : يا رسول الله : لو وقع فى نفوسنا شىء لم نعمل به وأخذنا الله به ؟ قال : فلعلكم تقولون كما

---

(١) المصدر نفسه : ١٢٩ – ١٣٠ .
(٢) المصدر نفسه : ١٣٣ .
(٣) الطبرى : جامع البيان – ١٣ : ٨٨ .
(٤) الطبرى : جامع البيان – ١ : ٢٠٤ .
(٥) السيوطى : لباب النقول : ١١ .

قال بنو إسرائيل : « سمعنا وعصينا » (البقرة : ٩٣) ؟ قالوا : بل سمعنا وأطعنا يا رسول الله . قال : فنزل القرآن يفرجها عنهم : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كل آمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله . لا نفرق بين أحد من رسله . وقالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » (البقرة : ٢٨٥ - ٢٨٦) . قال : فصيره إلى الأعمال وترك مايقع فى القلوب[1] .

وابن زيد فى هذا يتفق مع أبى هريرة وابن عباس[2] .

أتى نجرانيان إلى رسول الله (ص) فقالا له : هل علمت أن أحداً ولد من غير ذكر فيكون نزول عيسى كذلك ؟ قال ابن زيد : فأنزل الله عز وجل : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم : خلقه من تراب ثم قال له : كن ، فيكون » (آل عمران : ٥٩) . أكان لآدم أب أو أم ؟ كما خلقت هذا فى بطن هذه[3] .

وهناك عدة أخبار عن ابن عباس وغيره تربط بين نزول هذه الآية وبين رجال من نجران[4] .

قال ابن زيد : قالوا للنبى : إن كنت صادقاً فسير عنا هذه الجبال واجعلها حروثاً كهيئة أرض الشام ومصر والبلدان ، أو ابعث موتانا فأخبرهم فإنهم قد ماتوا على الذى نحن عليه . فقال الله تعالى : « ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض ، أوكلم به الموتى . بل لله الأمر جميعا » (الرعد : ٣١) . لم يصنع ذلك بقرآن قط ولا كتاب فيصنع ذلك بهذا القرآن[5] .

ويروى عن ابن عباس وعطية العوفى (ت ١١١هـ) مثل هذا فى سبب نزول تلك الآية[6] .

قال ابن زيد : انصرف رجل من عند رسول الله عليه السلام - يوم الأحزاب -

---

(١) الطبرى : جامع البيان - ٣ : ٩٧ .
(٢) السيوطى : لباب النقول : ٣٦ .
(٣) الطبرى : جامع البيان - ٣ : ٢٠٨ .
(٤) السيوطى : لباب النقول : ٣٨ - ٣٩ .
(٥) الطبرى : جامع البيان - ١٣ : ١٠٣ .
(٦) السيوطى : لباب النقول : ١٠٤ - ١٠٥ .

فوجد أخاه بين يديه شواء ورغيفاً ونبيذاً . فقال له : أنت ههنا فى الشواء والرغيف والنبيذ ، ورسول الله عليه السلام بين الرماح والسيف ؟ فقال : هلم إلى هذا ، فقد بلغ بك وبصاحبك . والذى يُحلف به لايستقبلها محمد أبداً . فقال : كذبت والذى يحلف به . قال — وكان أخاه من أبيه وأمه — : والله لأخبرن النبى عليه السلام أمرك . قال : وذهب إلى رسول الله عليه السلام ليخبره . قال : فوجده قد نزل عليه جبرائيل عليه السلام بخبره : « قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم : هلم إلينا . ولا يأتون البأس إلا قليلا » (الأحزاب : ١٨)[١]

وقد يلفت النظر أن السيوطى لم يتعرض لهذه الآية فى كتابه « لباب النقول » الذى لخصه من جوامع الحديث والأصول ، وحرره من تفاسير أهل النقول[٢] ، فجاء كتاباً حافلا موجزاً لم يؤلف مثله فى هذا النوع[٣] .

وقال ابن زيد : كان قوم مسخوطين فى أهل الجاهلية ، فلما بعث الله نبيه قالوا : لو أتينا محمداً عليه السلام فآمنا به واتبعناه ، فقال بعضهم لبعض : كيف يقبلكم الله ورسوله فى دينه ؟ فقالوا : ألا نبعث إلى رسول الله (ص) رجلا ؟ فلما بعثوا نزل القرآن : « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم : لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعا . إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون . أن تقول نفس : يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله ، وإن كنت لمن الساخرين . أو تقول : لو أن الله هدانى لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب : لو أن لى كرة فأكون من المحسنين » (الزمر : ٥٣ — ٥٨)[٤] .

ويروى عن ابن عباس أن أولى هذه الآيات — الآية رقم ٥٣ — قد نزلت فى مشركى مكة . كما يروى عنه — ولكن بسند فيه ضعف — أنها نزلت فى

---

(١) الطبرى : جامع البيان — ٢١ : ٨٩ .
(٢) السيوطى : لباب النقول : ٣ .
(٣) السيوطى : الإتقان — ١ : ٢٨ .
(٤) الطبرى : جامع البيان — ٢٤ : ١١ .

وحشى قاتل حمزة . أما ابن عمر فيروى عنه أنها نزلت فى المفتتن إذا ترك دينه بعد إسلامه ومعرفته[١]

وفى بيان سبب نزول الآيتين ٣٣ — ٣٤ من سورة النجم : « أفرأيت الذى تولى . وأعطى قليلا وأكدى » قال ابن زيد : هذا رجل أسلم ، فلقيه بعض من يعيره فقال : أتركت دين الأشياخ ، وضللتهم . وزعمت أنهم فى النار ؟ كان ينبغى لك أن تنصرهم . فكيف يفعل بآبائك ؟ فقال : إنى خشيت عذاب الله . فقال : أعطنى شيئاً وأنا أحمل كل عذاب كان عليك عنك . فأعطاه شيئاً ، فقال : زدنى . فتعاسرا حتى أعطاه شيئاً . وكتب له كتاباً وأشهد له . فذلك قول الله : « أفرأيت الذى تولى . وأعطى قليلا وأكدى »[٢] .

ويروى أن هاتين الآيتين والآيات من بعدهما المتعلقة بهما إنما نزلت فى رجل لم يستطع أن يشترك فى القتال مع النبى لأنه لم يجد ما يركبه ، فعرض عليه أحد القادرين أن يعطيه ما يركب فى مقابل أن يتحمل عنه ذنوبه أو يتنازل له عن حسناته[٣] .

ويقول ابن زيد إن الآيات ١١ — ٢٦ من سورة المدثر : « ذرنى ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهوداً . ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلا ، إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر » إنما نزلت فى الوليد ابن المغيرة[٤] .

ويروى القول نفسه — ولكن مفصلا — عن ابن عباس[٥] .

وأياً كان الأمر فمن الواضح ميل أقوال ابن زيد فى أسباب النزول كان ابن زيد يلزمه فى التفسير ويحرص بمقتضاه على ذكر سبب النزول كلما أمكن .

---

(١) السيوطى : لباب النقول : ١٤٨ .
(٢) الطبرى : جامع البيان — ٢٧ : ٤٢ .
(٣) السيوطى : لباب النقول : ١٦١ .
(٤) الطبرى : جامع البيان — ٢٩ : ٩٦ .
(٥) السيوطى : لباب النقول : ١٧٦ — ١٧٧ .

كما يبدو أن ابن زيد كان يعني بالتنبيه إلى النسخ الذى تعرضت له بعض الآيات . فهو لما تناول الآية ١٨٠ من سورة البقرة : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت – إن ترك خيراً – الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين » قال : فنسخ الله ذلك كله وفرض الفرائض[١].

وابن زيد يتفق فى ذلك مع ابن عباس ومجاهد وغيرهما[٢] .

وقال ابن زيد فى الآية ١٩٠ من سورة البقرة : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » : قد نسخ هذا . وقرأ قول الله : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » (التوبة : ٣٦) ، وهذه الناسخة . وقرأ : « براءة من الله ورسوله » حتى بلغ : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد . فإن تابوا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم . إن الله غفور رحيم » (التوبة : ١ – ٥)[٣] .

ولكن ابن عباس يقرر أنها محكمة أى غير منسوخة . ويشرح أبو جعفر النحاس كيف أن رأى ابن عباس هو أصح القولين من السنة والنظر[٤] .

– « الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (البقرة : ١٩٤) . قال ابن زيد : هذا كله قد نسخ . أمره أن يجاهد المشركين ، وقرأ : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » (التوبة : ٣٦) . وقرأ : « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » (البقرة : ١٢٣ ؛ العرب . فلما فرغ منهم قال الله جل ثناؤه : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (التوبة : ٢٩) . قال : وهم الروم . قال : فوجه إليهم رسول الله ﷺ[٥] .

---

(١) الطبرى : جامع البيان – ٢ : ٧٠ . (٢) النحاس : الناسخ والمنسوخ : ١٨ – ١٩ .
(٣) الطبرى : جامع البيان – ٢ : ١١٠ .
(٤) النحاس : الناسخ والمنسوخ : ٢٥ – ٢٦ .
(٥) الطبرى : جامع البيان ٢ : ١١٥ .

— « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج » (البقرة : ٢٤٠) .

قال ابن زيد : كان لأزواج الموتى — حين كانت الوصية — نفقة سنة ، فنسخ الله ذلك الذى كتب الزوجة من نفقة السنة بالميراث ، فجعل لها الربع أو الثمن . وفى قوله : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » (البقرة : ٢٣٤) . قال : هذه الناسخة[1] .

وأكثر العلماء على ذلك، منهم : عثمان بن عفان (ت ٣٥هـ) ، ابن عباس (ت ٦٨ هـ) ، عبد الله بن الزبير (ت ٧٣ هـ) ، قتادة (ت ١١٧ هـ)[2] .

— « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى . فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها . والله سميع عليم » (البقرة : ٢٥٦) .

قال ابن زيد : هذا منسوخ[3] .

ومن العلماء من قال : هى منسوخة ، مثل : سليمان بن موسى (ت ١١٩ هـ) وزيد بن أسلم (ت ١٣٦ هـ) . وقال بعض العلماء : ليست بمنسوخة . ولكن « لا إكراه فى الدين » نزلت فى أهل الكتاب لايكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية والذين يكرهون أهل الأوثان ، فهم الذين نزلت فيهم : « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم . ومأواهم جهنم وبئس المصير » (التوبة : ٧٣) .

فى حين قال ابن عباس إنها مخصوصة . وقوله — فى رأى أبى جعفر النحاس — هو أولى الأقوال[4] .

— « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » (البقرة : ٢٨٢) .

قال ابن زيد : نسخ ذاك قوله : « فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته » (البقرة : ٢٨٣) . قال : فلولا هذا الحرف لم يبح لأحد أن يدان

---

(١) المصدر نفسه — ٢ : ٣٦١ .
(٢) النحاس : الناسخ والمنسوخ : ٧٢ — ٧٣ .
(٣) الطبرى : جامع البيان — ٣ : ١١ .
(٤) النحاس : الناسخ والمنسوخ : ٧٩ — ٨٠ .

بدين إلا بكتاب وشهداء أو برهن . فلما جاءت هذه نسخت هذا كله ، صار إلى الأمانة[1] .

وافترق العلماء فى هذه الآية على ثلاثة أقوال . فقال قوم إن حكمها واجب. منهم : أبو موسى الأشعرى (ت ٤٤ هـ) . ابن عمر (ت ٧٤ هـ) . الضحاك (ت ١٠٥ هـ) . مجاهد (ت ١٠٣ هـ) . جابر بن زيد (ت ١٠٣ هـ) ؛ أبو قلابة (ت ١٠٤ هـ) ابن سيرين (ت ١١٠ هـ) . عطاء (ت ١١٤ هـ) وكان من أشدهم فى ذلك . وممن كان يذهب إلى هذا أيضاً محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ) . وقال قوم إنها على الندب والإرشاد لاعلى الحتم ، منهم : الشعبى (ت ١٠٤ هـ) . ويحكى أن هذا قول مالك (ت ١٧٩ هـ) . والشافعى (ت٢٠٤هـ) وأصحاب الرأى . وقال قوم إنها منسوخة ، منهم : أبو سعيدالخدرى (ت٧٤هـ)، الحسن البصرى (ت ١١٠ هـ) . والحكم . يضاف إليهم ابن زيد . غير أن الفقهاء الذين تدور عليهم الفتيا ، وأكثر الناس . على أن هذا ليس بواجب[2] .

— « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » (الأعراف : ١٩٩) .

ابن زيد فى قوله : « خذ العفو » قال : أمره فأعرض عنهم عشر سنين بمكة . قال : ثم أمره بالغلظة وأن يقعد لهم كل مرصد ، وأن يحصرهم . ثم قال : فإن تابوا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم » (التوبة : ٥) . وقرأ : « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » (التوبة : ٧٣) . وقال : وأمر المؤمنين بالغلظة عليهم فقال : « يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة » (التوبة ١٢٣) بعد ما كان أمرهم بالعفو . وقرأ قول الله : «قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله » (الجاثية : ١٤) . ثم لم يقبل منهم بعد ذلك إلا الإسلام أو القتل . فنسخت هذه الآية العفو[3] .

فى قوله : « خذ العفو » خمسة أقوال . فمن العلماء من قال : هى منسوخة

---

(١) الطبرى : جامع البيان – ٣ : ٧٧ – ٧٨ .

(٢) النحاس : الناسخ والمنسوخ : ٨٢ – ٨٤ .

(٣) الطبرى : جامع البيان – ٩ : ١٠٥ .

بالزكاة المفروضة (ابن عباس) . والقول الثانى أنها منسوخة بالأمر بالغلظة على الكفار (زيد بن أسلم) . والقول الثالث أن العفو الزكاة المفروضة (إبراهيم بن محمد ابن عرفة) . والقول الرابع أن العفو شيء من المال سوى الزكاة (القاسم ، وسالم) والقول الخامس أنه أمر بالاحتمال وترك الغلظة والفظاظة ، غير منسوخة (عبد الله وعروة ابنا الزبير) . وهذا القول الأخير هو أولى ماقيل فى الآية فى رأى أبى جعفر النحاس[١]

وفى الآية نفسها : « وأعرض عن الجاهلين » .

زعم ابن زيد أن هذا منسوخ بالأمر بالقتال . وقال غيره ليست بمنسوخة ، وإنما أمر باحتمال من ظلم[٢]

يتفق ابن زيد إذن مع غيره من المفسرين حول الآيات المنسوخة أحياناً ، ويختلف معهم أحياناً أخرى . غير أن المهم على أى حال هو أنه — كمفسر — كان على وعى بضرورة معرفة ما تعرضت له الآية من نسخ — إن كان — قبل الشروع فى فهمها .

هذا وقد كان ابن زيد يجد الحاجة فى بعض الأحيان إلى الرجوع إلى التاريخ لفهم سلوك أو عبادة أو نظام تعرض له إحدى الآيات .

فعندما يفسر الآية ٦٢ من سورة البقرة : « إن الذين آمنوا . والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون » يذكر أن الصابئين دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون : لاإله إلا الله ، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبى إلا قول : لاإله إلا الله . قال : ولم يؤمنوا برسول الله . فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبى ﷺ وأصحابه : هؤلاء الصابئون . يشبهونهم به[٣] .

ويذكر أن أهل الجاهلية كانوا قد وضعوا على كل من تلىّ الصفا والمروة صنماً يعظمونهما . وذلك عندما يفسر الآية ١٥٨ من سورة البقرة : « إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما . ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم »[٤] .

---

(١) النحاس : الناسخ والمنسوخ : ١٤٧ . (٢) المصدر نفسه : ١٤٨ .
(٣) الطبرى : جامع البيان — ١ : ٢٥٣ .
(٤) المصدر نفسه —٢ : ٢٨-٢٩ .

ويتعرض مرة أخرى لأصنام الجاهليين عندما يفسر الآيتين ١٩ — ٢٠ من سورة النجم : « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » فيقول : اللات بيت كان بنخلة[١] تعبده قريش . والعزى بيت بالطائف تعبده ثقيف . ومناة بيت كان بالمشلّل[٢] يعبده بنو كعب[٣]

وفي تفسير الآية ٤٩ من سورة النجم : « وأنه هو رب الشعرى » يذكر ابن زيد أن الشعرى كانت تعبد في الجاهلية ، وأنها النجم الوقاد الذي يتبع الجوزاء ، يقال له : المِرْزَم[٤] .

ويشير ابن زيد إلى الأمن المطلق الذي كان يسود البيت الحرام في الجاهلية حتى كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعرض له عندما يفسر الآية ١٢٥ من سورة البقرة : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا »[٥] . بل لقد بلغ من تقديس الجاهليين الحرم واحترامهم الأمن الذي يسبغه على من يحتمي به أن كان الرجل يأخذ لحاء شجرة من شجر الحرم فيتقلدها ثم يذهب حيث يشاء فيأمن بذلك . وتلك هي القلائد التي تتحدث عنها الآية الثانية من سورة المائدة : « يأيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله ، ولا الشهر الحرام ، ولا الهدى ، ولا القلائد ، ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانًا »[٦] .

وعن يهود شبه الجزيرة قبل الإسلام وبعده يذكر ابن زيد عند تفسير الآية ٨٩ من سورة البقرة : « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا » أنهم كانوا يتوقعون ظهور نبي في العرب ، فكانوا يستفتحون على كفار العرب ، يقولون : أما والله لو قد جاء النبي الذي بشر به موسى وعيسى — أحمد — لكان لنا عليكم . وكانوا يظنون أنه منهم . والعرب حولهم . وكانوا يستفتحون عليهم به ويستنصرون به . فلما ظهر النبي فعلا — ولكن من بين العرب لا اليهود — اتخذ اليهود موقفًا

---

(١) نخلة : واد من الحجاز بينه وبين مكة مسيرة ليلتين . ياقوت : م . البلدان — ٤ : ٧٧٠ .

(٢) المشلل — كمعظم — جبل يهبط منه إلى قديد — موضع قرب مكة — من ناحية البحر . ياقوت : م . البلدان ٤ : ٤٢ ، ٥٤٣ . والقاموس المحيط : مادة : الشلل .

(٣) الطبري : جامع البيان : — ٢٧ : ٣٥ .

(٤) المصدر نفسه — ٢٧ : ٤٥ — ٤٦ .

(٥) المصدر نفسه — ١ : ٤٢٠ — ٤٢١ .

(٦) الطبري : جامع البيان — ٦ : ٣٨ .

مختلفاً إذ رفضوا الاعتراف به : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » (الآية نفسها) واستمراراً لموقفهم هذا بعد الإسلام كانوا يرفضون الإجابة عندما يسألون عن النبى ﷺ وعن صفته فى كتاب الله عندهم[1] .

ويشير ابن زيد إلى كيفية صلاة أهل الكتاب عندما يفسر الآية ١١٠ من سورة الإسراء : ولا تجهر بصلاتك ، ولاتخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلا » فيقول إن أهل الكتاب كانوا يخافتون بصلاتهم ، ثم يجهر أحدهم بالحرف فيصيح به ويصيحون هم به وراءه . فنهى النبى أن يصيح كما يصيح هؤلاء وأن يخافت كما يخافت القوم . ثم كان السبيل الذى بين ذلك الذى سن له جبرائيل من الصلاة[2] .

وسجل ابن زيد موقف المشركين من النبى يوم الحديبية (٦ هـ) حين حالوا بينه وبين أن يدخل مكة حتى نحر هديه بذى طوى[3] ، وهادنهم وقال لهم : ماكان أحد يرد عن هذا البيت . وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فما يصده . ولكنهم قالوا : لايدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق . وذلك عند تفسير الآية ١١٤ من سورة البقرة : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها[4] .

« أما عند تفسير الآية ١٨ من سورة الفتح[5]: لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » فإنه يسجل موقفاً آخر من مواقف يوم الحديبية ولكن للمسلمين . فيروى أنهم كانوا أربع عشرة مائة بايعوا رسول الله وعمر آخذ بيده تحت الشجرة – وهى سمرُو – على ألا يفروا . ولم يتخلف عن البيعة سوى رجل من الأنصار اختبأ تحت إبط بعيره[6] .

ويذكر ابن زيد أن الطلاق كان ليس له أمد ، يطلق الرجل امرأته مائة ثم إن أراد أن يراجعها قبل أن تحل كان ذاك له . وطلق رجل امرأته حتى إذا

---

(١) المصدر نفسه – ١ : ٣٢٧ . (٢) المصدر نفسه – ١ : ٤٤٧ .

(٣) المصدر نفسه – ١٥ : ١٢٥ .

(٤) ذوطوى : موضع قرب مكة : القاموس المحيط : مادة : '

(٥) الطبرى : جامع البيان – ١ : ٣٩٧ .

(٦) الطبرى : جامع البيا' ٢٦ : ٥٥ .

كادت أن تحل ارتجعها ، ثم استأنف بها طلاقا بعد ذاك ليضارها بتركها . حتى إذا كان قبل انقضاء عدتها راجعها . وصنع ذلك مراراً . فلما علم الله ذلك منه جعل الطلاق ثلاثا : مرتين ، ثم بعد المرتين إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. وهو ما سجلته الآية ٢٢٩ من سورة البقرة : « الطلاق مرتان : فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان »[1] .

هذا الاهتمام التاريخي الذي دفع بابن زيد إلى الاعتماد على الأخبار الخاصة بحياة العرب في الجاهلية وأوائل الإسلام لفهم بعض الآيات هو الذي دفعه — فيما يبدو — من ناحية أخرى إلى محاولة تحديد تلك الألفاظ العامة التي تعرف باسم : مبهمات القرآن .

وقد اعتمد في هذه المحاولة على أقوال أهل الكتاب في بعض الحالات : مثل تحديد القرية المذكورة في الآية : ٥٨ من سورة البقرة : « وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم » بأنها أريحا القريبة من بيت المقدس[2] .

والطيور الأربعة التي أمر الله إبراهيم أن يحضرها ليظهر له عن طريقها كيف يحيي الموتى : « قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سعياً » (البقرة : ٢٦٠) فكانت : فيما يذكر ابن زيد ، طاوساً ، وحماماً ، وغراباً ، وديكا مخالفة أجناسها وألوانها[3] .

أما القرية « التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ، ويوم لا يسبتون لاتأتيهم » (الأعراف : ١٦٣) فهي قرية يقال لها : مقنا بين مدين وعينون[4] .

وفي حالات أخرى يعتمد ابن زيد في تحديد المبهمات على علمه بالدين . فحرمات الله التي تحض على تعظيمها الآية ٣٠ من سورة الحج : « ذلك ومن

---

(١) المصدر نفسه — ٢ : ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(٢) المصدر نفسه — ١ : ٢٣٧ .

(٣) المصدر نفسه — ٣ : ٣٥ .

(٤) المصدر نفسه — ٩ : ٦٢ . ومقنا : قرب أيلة (ياقوت م . البلدان — ٤ : ٦١٠) . ومدين : على بحر القلزم محاذية لتبوك (نفسه — ٤ : ٤٥١) . وعينون : قرية من قرى بيت المقدس (نفسه — ٣ : ٧٦٥) .

يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه » وهي : المَشْعَر الحرام ، والبيت الحرام ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام . هؤلاء الحرمات[١] .

كما أن شعائر الله التي تحض الآية ٣٢ من السورة نفسها على تعظيمها لأنها من تقوى القلوب : « ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » فهي : الجمار ، والصفا والمروة ، والمشعر الحرام ، والمزدلفة . قال : والشعائر تدخل في الحرم ، وهي شعائر وهي حرم[٢] .

غير أن ابن زيد يبدو وكأنه يتحدث بلسان التصوف حين يحاول تحديد الخيرات المذكورة في الآية ٦١ من سورة المؤمنون : « أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » بأنها : المخافة ، والوجل ، والإيمان ، والكف عن الشرك بالله[٣] .

وهكذا نفرغ من عرض المعالم الكبرى لمنهج ابن زيد في التفسير ، هذا المنهج الذي لايعتمد على النقل إلا في حالات قليلة ليعتمد بصفة أساسية على الرأي مستهدياً في ذلك بالاستعمال اللغوي ، والاستعمال القرآني ، والتحليل البياني ، ومعرفة أسباب النزول ، ومعرفة النسخ ، والرجوع إلى الوقائع التاريخية .

على أن ذلك ليس هو كل ما يكون منهج ابن زيد في التفسير فإن له إلى جانب ما مضى اتجاهات بعينها تتمثل في العناية بالمسائل الكلامية كالقدر ، والوعظ ، والقصص وبخاصة ما يعرف باسم الإسرائيليات .

وأيًّا كان الأمر فإننا إذ نفرغ من تفسير ابن زيد نكون في الواقع قد فرغنا من تفسير ابن وهب ، أو من الجزء الأكبر منه إذا شئنا الدقة . فقد سبق القول بأن ابن وهب جلس إلى ابن زيد وأخذ عنه تفسيره ليجعل منه صلب التفسير الذي قام هو بتأليفه من أقوال ابن زيد في الجانب الأكبر منه (٩٠٪) ومن أقوال مفسرين آخرين أشرنا إليهم فيما مضى[٤] .

واستكمالا لدراسة تفسير ابن وهب لا بد لنا على أي حال من النظر في تلك الروايات الأخرى التي ضمنها تفسيره والتي تمثل الجانب الأصغر (١٠٪) منه . وهي

---

(١) الطبري : جامع البيان : - ١٧ : ١١٢ .

(٢) المصدر نفسه - ١٧ : ١١٤ .

(٣) المصدر نفسه - ١٨ : ٢٦ - ٢٧ .

(٤) انظر ص ٣٠٣ - ٣٠٦ من هذا البحث .

تتكون من روايات عن النبى[١] ، وعن الصحابة : ابن مسعود (ت ٣٢ هـ)[٢] وعلى (ت ٤٠ هـ)[٣] ، عائشة (ت ٥٨هـ)[٤] ؛ ابن عباس (ت ٦٨ هـ)[٥] وابن عمر (ت ٧٤ هـ)[٦] . وتدخل هذه الروايات جميعها فى التفسير بالمأثور .

وفى التفسير بالرأى روى ابن وهب عن: عبد الله بن الزبير (ت ٧٣ هـ)[٦] وسعيد بن المسيب (ت ٩٤ هـ)[٧] ، الحسن البصرى (ت ١١٠ هـ)[٨] ، ومحمد بن كعب القرظى (ت ١١٧ هـ)[٩] ؛ يزيد بن أبى حبيب (ت ١٢٨)[١٠] وعمر مولى غفرة (ت ١٤٥ هـ)[١١] ؛ سفيان الثورى (ت ١٦١ هـ)[١٢] ، ومالك (ت ١٧٩ هـ)[١٣] .

وقد نجد تفسيراً غريباً لمحمد بن كعب القرظى[١٤] .

وفى الرجوع إلى الاستعمال اللغوى فى التفسير يروى ابن وهب روايات عن : النبى[١٥] ، عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ)[١٦] ؛ ابن عباس[١٧] وسعيد ابن المسيب[١٨] ، مجاهد (ت ١٠٣ هـ)[١٩] ؛ محمد بن كعب القرظى[٢٠] ،

(١) الطبرى : جامع البيان – ١١ : ٢٨ و١٢ : (٢) المصدر نفسه – ٢١ : ٣٩ .
(٣) المصدر نفسه – ٢٦ : ١١٦ ، ١١٧ .
(٤) المصدر نفسه – ٢٩ : ١٣ .
(٥) المصدر نفسه – ٢٦ : ١٢٥ .
(٦) المصدر نفسه – ٣٠ : ١١٠ .
(٧) المصدر نفسه – ١٥ : ٤٩ .
(٨) المصدر نفسه – ٣٠ : ٢٨ .
(٩) المصدر نفسه – ٢٧ : ٤٣ و٣٠ : ٢١١ ، ٦
(١٠) المصدر نفسه – ١٩ : ٢٤ .
(١١) المصدر نفسه – ١٩ : ٢٤ .
(١٢) المصدر نفسه – ١٢ : ١٧٥ .
(١٣) المصدر نفسه – ٣ : ٦٠ .
(١٤) المصدر نفسه – ٣ : ١٣٦ .
(١٥) المصدر نفسه – ٢٩ : ١٦ .
(١٦) المصدر نفسه – ١١ : ٣٤ – ٣٥ .
(١٧) المصدر نفسه – ١٧ : ١٤٣ .
(١٨) المصدر نفسه – ٢٩ : ١٧ .
(١٩) المصدر نفسه – ١٧ : ٢٥ و٣٠ : ١٢٧ .
(٢٠) المصدر نفسه – ١٧ : ١٢٠ .

ومسلم بن جندب (ت ١٣٠ هـ)[١] ، وعمر مولى غفرة[٢] .

أما فى الرجوع إلى الاستعمال القرآنى فهناك رواية عن القرظى[٣] .

هذا كله بالإضافة إلى روايات كثيرة فى : الفقه ، والقصص ، والإسرائيليات والكلاميات .

اشتمل المجتمع الإسلامى على تناقضات جنسية وسياسية وقبلية ودينية كانت تؤدى بالضرورة إلى الصراع بين الأطراف المتناقضة . وكان هذا الصراع ينعكس فى التفسير حيث يحاول تفسير بعض الآيات تفسيراً يخدم وجهة نظر معينة . وقد سجل ابن وهب روايات من هذا النوع تحاول إحداها أن تحمل صوت المحكومين بالتحذير إلى الحاكمين عندما تروى كيف أن عمر بن عبد العزيز — وهو بعد أمير على المدينة — أصبح ليلة بالأرق تفكراً فى الآية ٥٤ من سورة المائدة : « يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه . أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم » . فلما أصبح استدعى المفسر المدنى الشهير محمد بن كعب القرظى الذى قال له : أيها الأمير : إنما عنى الله بالذين آمنوا الولاة من قريش من يرتد عن الحق[٤] .

غير أن رواية أخرى بنفس الإسناد تفسر نفس الآية لصالح أهل اليمن ، كمظهر للتنافس بين عرب الجنوب وعرب الشمال ، إذ يقول المفسر نفسه للأمير السائل : يأتى الله بقوم وهم أهل اليمن . فيقول الأمير الورع مبدياً استعداده للتخلى عن نسبه الشمالى : ياليتنى منهم ! ويرد المفسر : آمين[٥] .

ويمكن أن يضاف إلى رصيد الصراع بين عرب الشمال وعرب الجنوب ماينسب إلى النبى من أنه وصف أهل اليمن بأنهم قوم تتضاءل أعمال الصحابة إلى جانب أعمالهم ، وبأنهم أرق أفئدة من قريش (من عرب الشمال) وألين قلوباً . وذلك فى تفسير الآية العاشرة من سورة الحديد : « لايستوى منكم من

---

(١) الذهبى : طبقات القراء : ٢ .
(٢) الطبرى : جامع البيان — ١٠ :
(٣) المصدر نفسه — ٢٤ : ٤٦ — ٤٧
(٤) الطبرى : جامع البيان : — ٦ :
(٥) المصدر نفسه — ٦ :

أنفق من قبل الفتح وقاتل . أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا . وكلا وعد الله الحسنى . والله بما تعملون خبير [١] .

ويذهب بعض المفسرين إلى أن أهل اليمن كذلك هم المعنيون بالآية ٣٨ من سورة محمد : « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لايكونوا أمثالكم » . غير أن ابن وهب يسجل فى تفسير هذه الآية القرينة من آية سورة المائدة رواية تحولها لصالح الشعب الفارسى عندما تروى أن النبى تلا هذه الآية فسأله الصحابة فى تطلع : يارسول الله : من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ثم لايكونوا أمثالنا ؟ فضرب النبى على فخذ سلمان الفارسى وقال: هذا وقومه . ولوكان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس[٢] .

ويعاد تصوير المنظر نفسه . وبنفس الهدف طبعاً — خدمة قضية الفرس — ، ولكن عند تفسير الآية الثالثة من سورة الجمعة : «وآخرين منهم لما يلحقوا بهم» المرتبطة بالآية السابقة عليها : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين» فتنسب الرواية إلى أبى هريرة أنه قال إنهم كانوا جلوساً عند النبى فنزلت عليه سورة الجمعة . فلما قرأ الآية الثالثة منها قال رجل : من هؤلاء يارسول الله ؟ فلم يراجعه النبى حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثاً . وكان سلمان الفارسى من الحاضرين . فوضع النبى يده على سلمان وقال: لوكان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء[٣].

غير أن رواية أخرى ، يسجلها ابن وهب كذلك فى تفسير هذه الآية من سورة الجمعة ، توسع الدائرة لتشمل كل العجم إلى جانب العرب فى حرص ظاهر على تقرير مبدأ المساواة بين العرب والعجم ، فتقول : هؤلاء كل من كان بعد النبى ﷺ إلى يوم القيامة . كل من دخل فى الإسلام من العرب والعجم[٤].

وتظهر هذه النزعة إلى التسوية بين العرب والعجم فى تفسير آية أسبق

---

(١) المصدر نفسه -٢٧ : ١٢٧ .

(٢) الطبرى : جامع البيان — ٢٦ : ٤٢ .

(٣) المصدر نفسه — ٢٨ : ٦٢ ، ٦٣ .

(٤) المصدرنفسه — ٢٨ : ٦٣ .

هى الآية ١٩ من سورة الأنعام : « وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » ينسب إلى مجاهد — ولكن بصورة غير مؤكدة — أنه قال : « العرب ، ومن بلغ » : العجم[1] .

ويجد التنافس القبلى — مثله مثل التنافس بين الأجناس والشعوب — مجالا للتعبير عن ذاته فى التفسير . فيروى أن عمر سأل ابن عباس — وهو يفسر الآية ٧٨ من سورة الحج : « وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج » — : من أمر بالجهاد . قال ابن عباس : قبيلتان من قريش : مخزوم وعبد شمس . فقال عمر : صدقت — . وهكذا تنتزع الرواية الشهادة لبنى أمية من أحد رءوس بنى العباس[2] .

وفى الصراع بين الأحزاب السياسية ينسب إلى على بن ابى طالب أنه فسر « الأخسرين أعمالا » فى الآية ١٠٣ من سورة الكهف : « قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا » بأنهم الخوارج . وذلك إجابة عن سؤال وجهه إليه واحد من زعمائهم — عبد الله بن الكواء — فى معنى هذه الآية : إذ قال له بصراحة تامة : أنت وأصحابك[3] .

وتجد الروايات فى التفسير ميدانا صالحًا للتعبير عن الصراع بين العلويين والعباسيين عن طريق إجراء جدل بين على وابن عباس حول تفسير الآية الأولى من سورة العاديات ١ . قال ابن عباس :

بينا أنا فى الحجر جالس أتانى رجل يسأل عن : « العاديات ضبحاً » فقلت له : الخيل حين تغير فى سبيل الله ثم تأوى إلى الليل فيصنعون طعامهم ، ويورون نارهم . فانفتل عنى فذهب إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه — وهو تحت سقاية زمزم — فسأله عن « العاديات ضبحًا » فقال : سألت عنها أحداً قبلى ؟ قال : نعم ، سألت عنها ابن عباس فقال : الخيل حين تغير فى سبيل الله . قال : اذهب فادعه لى . فلما وقفت على رأسه قال : تفتى الناس بما لاعلم لك به ؟ والله لكانت أول غزوة فى الإسلام لبدر ، وما كان معنا إلا فرسان : فرس للزبير وفرس للمقداد

(١) المصدر نفسه — ٧ : ١٠٤ .
(٢) الطبرى : جامع البيان — ١٧ :
(٣) المصدر نفسه — ١٦ : ٢٧ .

فكيف تكون العاديات ضبحاً ؟ إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى مزدلفة إلى منى . قال ابن عباس : فنزعت عن قولي ورجعت إلى الذى قال علىّ رضى الله عنه[١]

وهكذا انتصر العلويون فى شخص إمامهم على جد العباسيين الذى لم يجد غضاضة فى الاعتراف بالجهل إزاء علم علىّ الغزير .

وأخيراً يأتى الحديث عن تفسير ابن وهب إلى نهايته . وإذا كنا قد ذكرنا من قبل أن تفسير عطاء بن دينار الهذلى (ت ١٢٦ هـ) يمكن أن يعد — بما هو أول تفسير مدون — كامل — البداية الفعلية للمدرسة المصرية فى التفسير ، فإن تفسير ابن وهب يمثل نضج هذه المدرسة . فنحن نقف فيه على أرض ثابتة يغمرها ضوء ساطع إذ نجد بين أيدينا تفسيراً كاملا . معروف المصادر . واضح المنهج . وطبيعى أن تكون قيمة هذا التفسير الذاتية أهم عوامل قدرته على الاحتفاظ بالبقاء . ولذلك حرص يونس بن عبد الأعلى (ت ٢٦٤ هـ) تلميذ ابن وهب على أن يأخذه كاملا عن أستاذه . ولما زار الطبرى مصر سنة ٢٥٣ هـ — وكان يونس قد انتهت إليه رياسة العلم بمصر وعلو الإسناد فى الكتاب والسنة [٢] — أخذ هذا التفسير عن يونس مثلما أخذ عنه قراءة نافع وقراءة حمزة[٣]. وإذا كانت تراجم الطبرى لم تنص على أنه أخذ تفسير ابن وهب هذا عن يونس فإن تفسير الطبرى نفسه — جامع البيان — يغنى عن ذلك النص بذلك الإسناد الذى يتكرر فيه مئات المرات قائلا بلسان الطبرى : « حدثنى يونس بن عبد الأعلى قال : حدثنى ابن وهب قال : حدثنى عبد الرحمن بن زيد : . . . . . » مع تغييرات طفيفة لا تؤثر بحال فى تقرير حقيقة أن الطبرى أخذ عن يونس مباشرة روايات التفسير التى أخذها يونس مباشرة عن ابن وهب الذى أخذها بدوره مباشرة عن ابن زيد . وبالرغم من أنه يشار[٤] إلى تفسير عبد الرحمن بن زيد كأحد التفسيرات التى ضمنها الطبرى تفسيره الكبير دون أن يشار إلى تفسير ابن وهب فإن ذلك لا يعنى أن الطبرى جلس إلى يونس ليأخذ عنه تفسير ابن زيد وحده فالطبرى يروى

---

(١) المصدر نفسه — ٣٠ : ١٧٦ — ١٧٧ ، ١٧٩ .

(٢) الذهبى : طبقات القراء : ٦١ .

(٣) راجع ص ٢١٩ من هذا البحث .

(٤) ياقوت : م . الأدباء — ١٨ : ٦٤ .

لابن وهب عن تلاميذ مصريين غير يونس . مثل أحمد بن عبد الرحمن بن وهب (ابن أخي ابن وهب ؛ ت ٢٦٤ هـ) [١] ، وبحر بن نصر الخولاني (ت٢٦٧هـ)[٢] والربيع بن سليمان المرادي (ت ٢٧٠ هـ) [٣] هذا إلى أن تفسير ابن وهب – على ما بينا من قبل – لم يكن في جملته شيئاً آخر سوى تفسير ابن زيد ، بحيث كان على من يأخذ تفسير ابن وهب أن يأخذ تفسير ابن زيد . وقد تسفر المقارنة الدقيقة بين تفسير ابن وهب وتفسير الطبري عن أن الطبري قد تأثر إلى حد بعيد بمنهج ابن وهب في التأليف واقتدى به في تأليف تفسيره الكبير الذي ظل يمليه من ٢٨٣ إلى ٢٩٠ هـ [٤].

وقد ربط تفسير ابن وهب بين المدرسة المدنية التي ينتمي إليها والمدرسة المصرية التي يمثلها مهيئاً لمدرسة المدينة أن تظهر في ميدان التفسير بمصر . وبذلك لعب ابن وهب في التفسير نفس الدور الذي لعبه ورش في القراءة . وليس مصادفة على أي حال أنهما متعاصران : (ورش: ١١٠ – ١٩٧ هـ ؛ ابن وهب : ١٢٥ – ١٩٧ هـ) . وكذلك قد كان الأمر في الحديث والفقه اللذين انتمت مصر فيهما حينذاك إلى المدينة كذلك وفقاً لتلك الظاهرة العامة التي أشرنا إليها من قبل وفسرناها بسيادة المدينة روحياً وثقافياً حينذاك .

د – الإمام الشافعي (١٥٠ – ٢٠٤ هـ) :

كان الشافعي يرى في القرآن المصدر الأعلى للعلم الإسلامي ، فإن جميع ماتقوله الأمة شرح للسنة وجميع السنة شرح للقرآن [٥] . كما كان يرى أن جميع ماحكم به النبي فهو مما فهمه من القرآن [٦] . وبالتالي كان عليه هو كفقيه أن يتصل بالقرآن اتصالا وثيقاً . فكان في الأيام العادية يختم في كل ليلة ختمة ،

---

(١) الطبري : جامع البيان – ٢٠ : ٥٩ و ٢٢ : ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه – ٢ : ١٧١ و ١٦ : ١٨ .

(٣) المصدر نفسه – ٢ : ٢٨١ و ٢٤ : ٤٦ و ٢٧ : ٢٦ و ٣٠ : ٢٠٧ .

(٤) ياقوت : م . الأدباء – ١٨ : ٤٢ .

(٥،٦) السيوطي : الإتقان – ٢ : ١٢٦

فإذا كان شهر رمضان ختم فى اليوم مرتين : مرة بالليل ومرة بالنهار[١] . وكان إذا صلى العتمة وضع المصحف بين يديه فما يطبقه حتى الصبح[٢] . وهو فى خلال ذلك يتدبر ما يقرأ ويتفهمه حتى إذا كشف معنى آية أو آيتين كان ذلك عنده أثمن من الدنيا وما فيها[٣] . ويبدو أن الشافعى قد استطاع أن يحيط بمعانى القرآن فى زمن مبكر بحيث أصبح محل ثقة عالم مكة الكبير سفيان ابن عيينة (ت١٩٨هـ) الذى تزعم إحدى الروايات أنه كان إذا جاءه شيء من التفسير أو الفتيا التفت إلى الشافعى فقال : سلوا هذا الغلام[٤] . وكان الشافعى مايزال فى مرحلة الشباب — طبقاً لرواية أخرى — عندما كتب إليه الإمام الحافظ عبد الرحمن بن مهدى (ت ١٩٨ هـ) أن يضع له كتاباً فيه معانى القرآن ، ويجمع فنون الأخبار فيه ؛ وحجة الإجماع ، وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة . فوضع له كتاب الرسالة[٥] . وانتهى الأمر بالشافعى إلى اعتقاد أنه قد أحاط بالكتاب الكريم إحاطة شبه كاملة فما يغيب عنه منه سوى حرفين[٦] . ولما كان يعتقد إلى جانب ذلك أنه ليست تنزل بأحد فى الدين نازلة إلا فى كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها[٧] فقد قال مرة بمكة : سلونى عما شئتم أخبركم عنه من كتاب الله[٨] . ولما دخل الشافعى مصر سنة ١٩٨ هـ ظل على صلته الوثيقة بالقرآن فقلما كان يدخل عليه تلميذه الربيع بن سليمان (ت ٢٧٠ هـ) إلا والمصحف بين يديه يتتبع أحكام القرآن[٩] . والتزم أن يلقى دروساً يومية فى التفسير فى المسجد ، فكان إذا صلى الصبح يجلس فى حلقته فيجيئه أهل القرآن فإذا طلعت الشمس قاموا[١٠] . أما المقيمون بعيداً عن العاصمة فكانوا يكتبون إليه يسألونه عن معنى الآيات[١١] . ولعل تلميذه يونس بن عبد الأعلى قد عبر عن

---

(١) الخطيب : ٢ — : ٦٣ . (٢) الزركشى : البرهان — ١ : ٤٦٢ .
(٣) الشافعى : أحكام القرآن — ٢ : ١٨٠ . (٤) ابن خلكان : وفيات — ٣ : ٣٠٦ .
(٥) الخطيب : ت . بغداد — ٢ : ٦٥ . السيوطى : حسن — ١ : ١٢٢ .
(٦) الشافعى : أحكام —٢ : ١٩٠ — ١ ١ . الخطيب : ت . بغداد — ٢ : ٦٣ .
(٧ و ٨) السيوطى : الإتقان —٢ : ١٢٦ .
(٩) الشافعى : أحكام — ١ : ٢٠ .
(١٠) ياقوت : م . الأدباء — ١٧ : ٣٠٤ .
(١١) السبكى : ط . الشافعية - ١ : ٢٣١

الإعجاب العام بقوة تفسير أستاذه ودقته حين قال : كان الشافعى إذا أخذ فى التفسير كأنه شهد التنزيل[١]

حرص الشافعى على فهم القرآن ، بما هو النبع الأصيل للدين والمصدر الأول للتعاليم والأحكام التى توجه وتضبط وتقيم سلوك الفرد المسلم وعلاقاته ، أدى به إذن إلى ممارسة التفسير ممارسة فعلية . وبالرغم من أنه لم يفعل ذلك للتفسير فى ذاته ، وبالرغم من أنه لا يشغل مكاناً بين المفسرين المتخصصين فلا بد لنا من التوقف عنده ونحن نؤرخ لحركة التفسير فى مصر ذلك بأن الشافعى قد أبدى من التصميم على فهم القرآن ، وبذل من الجهد فى ذلك مالم يؤلف من غير المتخصصين فقهاء كانوا أو غير فقهاء بل إنه لم يكن ليدرس قراءة ابن قسطنطين المكية التى حملها معه إلى مصر وعلّمها فيها لولا أنها خطوة لا بد منها نحو فهم القرآن وعاينا الآن ، على أى حال ، أن نعرف كيف قام الشافعى الفقية بهذه المهمة الجليلة ، مهمة فهم الكتاب الكريم .

لما كانت السنة — فيما يرى الشافعى — تتضمن الشرح لكتاب الله فقد كان طبيعياً جداً أن تكون أقرب مرجع يبحث فيه عن معانى ذلك الكتاب فالسنة بينت فيما يتعلق بالآية ١١ من سورة النساء : « ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد » الآية ، أنه إنما أريد بها بعض الوالدين والأزواج دون بعض ، كما بينت أن الوصايا يقتصر بها على الثلث ولأهل الميراث الثلثان[٢] . وقالت الآية ١٠٣ من السورة نفسها : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » فبين رسول الله (ص) عن الله عز وجل تلك المواقيت ، وصلى الصلوات لوقتها[٣] . تقول الآية ٦ من سورة المائدة وهى تحدد فرائض الوضوء : « وامسحوا برءوسكم » . والسنة دلت على أن ليس على المرء مسح رأسه كله . وبذلك يكون معنى الآية أن من مسح شيئاً من رأسه أجزأه[٤] . وتقول الآية نفسها : « وإن

---

(١) الشافعى : أحكام – ١ : ٢٠ .

(٢) الشافعى : أحكام – ١ : ٢٦ .

(٣) المصدر نفسه – ١ : ٣٤ .

(٤) الشافعى : أحكام – ١ : ٤٤ .

كنتم مرضى ، أوعلى سفر ، أوجاء أحد منكم من الغائط . أو لامستم النساء فلم تجد واماء فتيمموا صعيداً طيباً » . ولما لم يكن الشافعى بعلم من السنة دليلا على أن لبعض المسافرين أن يتيمم دون بعض فكان ظاهر القرآن أن كل من سافر سفراً قريباً أو بعيداً يتيمم[١]. واحتمل قوله : « ومن الليل فتجهد به نافلة لك» (الإسراء: ٧٩) أن يتهجد بغير الذى فرض عليه مما تيسر منه . فكان الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين. فوجدنا سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم تدل) على أن لاواجب من الصلاة إلا الخمس[٢] . ويروى الشافعى فى تفسير الآية ٣ من سورة البروج : « وشاهد ومشهود » أن النبى قال : شاهد : يوم الجمعة ، ومشهود : يوم عرفة[٣] .

والصحابة هم المصدر التالى للشافعى فى البحث عن معانى القرآن . فهو يروى — مثلا — عن علىّ أن الصلاة الوسطى المذكورة فى الآية ٢٣٨ من سورة البقرة : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » هى صلاة الصبح . وهو يشير إلى اختلاف بعض الصحابة حول هذه المسألة مصرحاً بأنه يذهب إلى تفسير علىّ الذى هو تفسير ابن عباس فى نفس الوقت[٤] . ولما سأله تلميذه الربيع : مالغو اليمين ؟ — ربما بخصوص الآية ٢٢٥ من سورة البقرة أو الآية ٨٩ من سورة المائدة وهو الأرجح : « لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » — صرح بأنه يذهب إلى قول عائشة : لغواليمين : قول الإنسان لاوالله ، وبلى والله[٥] . وفى تفسير الآية ١٢٧ من سورة النساء : « ويستفتونك فى النساء ، قل الله يفتيكم فيهن » الآية ، ذكر يونس بن عبد الأعلى أن الشافعى قال: قول عائشة (رضى الله عنها) أثبت شىء فيه. وذكر فى قولها حديث الزهرى[٦] . ويروى الشافعى عن ابن عباس مالحظه من استعمال « الريح » فى القرآن فى مواطن العذاب فى حين تستعمل « الرياح »

---

(١) المصدر نفسه — ١ : ٤٨ .

(٢) المصدر نفسه — ١ : ٥٦

(٣) المصدر نفسه — ١ : ٩٢ .

(٤) المصدر نفسه — ١ : ٦٠ .

(٥) المصدر نفسه — ٢ : ١٠٩ .

(٦) المصدر نفسه — ٢ : ١٨٧ .

للتعبير عن الرحمة والخير . قال ابن عباس : فى كتاب الله عز وجل : « إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً » (القمر ١٩) ، و « أرسلنا عليهم الريح العقيم » (الذاريات ٤١) . وقال : « وأرسلنا الرياح لواقح » (الحجر : ٢٢) ، و : أرسلنا « الرياح مبشرات» . (الروم : ٤٦) [١] . كما يروى عنه خبراً طويلا يتضمن تفسير الآية ١٦٢ — ١٦٦ من سورة الأعراف [٢]

رأى من مصادر الشافعى فى فهم القرآن بعد هذا مصدر يتكون من مجموعة من أبرز تلاميذ ابن عباس نفسه . فهو يروى عن سعيد بن جبير — تلميذ ابن عباس ، وأحد الطرق إليه ، وكان ابن عباس يثنى عليه بأنه أوثق حجج الدين [٣] أنه قال فى تفسير السبع المثانى فى الآية ٨٧ من سورة الحجر : «ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم » : هى أم القرآن . وقرأها حتى ختمها ، ثم قال : « بسم الله الرحمن الرحيم » الآية السابعة [٤] . وذكر ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) [٥] وصاحب كشف الظنون (ت ١٠٦٧ هـ) [٦] أن الشافعى كان يعتمد على تفسير مجاهد التلميذ الأكبر لابن عباس فمن ذلك مايرويه عنه من أنه كان يقول : « الرعد » (البقرة : ١٩ . الرعد : ١٣) ملك و « البرق » (البقرة : ١٩ ، ٢٠ . الرعد : ١٢ . النور : ٤٣ . الروم : ٢٤) : أجنحة الملك يسقن السحاب . ثم يعلق الشافعى قائلا : ما أشبه ماقال مجاهد بظاهر القرآن [٧] . وفى تفسير الآية ٩٧ من سورة آل عمران : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين» يروى الشافعى عن مجاهد أنه قال فى قراءه : « ومن كفر » : هو فيما إن حج لم يره براً ، وإن جلس لم يره إثماً . كما يروى عنه فى تفسير الآية ١٤ من سورة

---

(١) الشافعى : أحكام — ١ : ١٠ .
(٢) المصدر نفسه — ٢ : ١٧٣ - ١٧٧ .
(٣) ابن سعد : الطبقات - ٦ : ١٧٨ . السيوطى : الإتقان - ٢ : ١٨٨ - جولد تسيهر : مذاهب : ٩٢ : ٩٣ .
(٤) الشافعى : أحكام — ١ :
(٥) السيوطى : الإتقان ٢ :
(٦) كشف — ١ : ٤٣٠ .
(٧) الشافعى : أحكام - ١ :

الحجرات : « قالت الأعراب : آمنا . قل : لم تؤمنوا . ولكن قولوا : أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » أنه قال فى قوله : « أسلمنا » : أسلمنا مخافة القتل والسبى [١] . ويروى عنه فى تفسير الآية الرابعة من سورة الشرح : « ورفعنا لك ذكرك » أنه قال : لا أذكر إلا ذكرت معى : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله [٢] . كما يروى عنه ماتدل عليه الآية ١٩ من سورة العلق : « كلا ، لاتطعه ، واسجد واقترب » من أن العبد أقرب مايكون من الله إذا كان ساجداً [٣] .

وهناك مثال لرواية الشافعى عن التلميذ الآخر العظيم لابن عباس : عكرمة . وذلك فى تفسير الآية ٩٧ من سورة آل عمران التى سبق ذكرها . فعكرمة يرى أن « من كفر » هم أهل الملل استناداً إلى أن اليهود رفضوا أن يحجوا عندما طلب النبى إليهم ذلك إقامة للدليل على أنهم مسلمون كما زعموا [٤] .

وعن عطاء بن أبى رباح ، العالم المكى وأحد تلاميذ مدرسة ابن عباس فى التفسير (ت ١١٥ هـ) [٥] ، يروى الشافعى فى تفسير الآية ٩٥ من سورة المائدة التى تحدد عقوبة من يقتل الصيد فى الحرم أنه سئل فى قول الله : « عفا الله عما سلف » فقال : عفا الله عما كان فى الجاهلية . فسئل : « ومن عاد فينتقم الله منه » ؟ فقال : ومن عاد فى الإسلام فينتقم الله منه . وعليه فى ذلك الكفارة [٦] . كما يروى عنه أنه فسر الخير المذكور فى الآية ٣٣ من سورة النور : « فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً » بأنه : المال وليس الصلاح [٧] .

وعن عمرو بن دينار ، عالم مكة وتلميذ ابن عباس (ت ١٢٦ هـ) [٨] ،

---

(١) المصدر نفسه – ١ : ٢٩٦ .
(٢) المصدر نفسه – ١ : ٥٨ .
(٣) الشافعى : أحكام – ١ : ٧٠ – ٧١ .
(٤) المصدر نفسه – ١ : ١١١ – ١١٢ .
(٥) السيوطى : الإتقان – ٢ : ١٨٩ . جولد تسيهر : مذاهب :
(٦) الشافعى : أحكام – ١ : ١٢٧ .
(٧) المصدر نفسه – ٢ : ١٦٧ .
(٨) ابن الجزرى : غاية – ١ : ٠٠

يروى الشافعي أنه قال : كل شيء في القرآن فيه : « أو » أو « له » : أية شاء[١]

المفسر مقاتل بن سليمان الأزدي (ت ١٥٠ هـ) — الذي يرجع أيضاً إلى ابن عباس في التفسير — يتميز — فيما يقول جولد تسيهر — « بأنه استمد علمه بالقرآن من اليهود والنصارى وجعله موافقا لما في كتبهم . وبذلك أصبح واحداً من هؤلاء المفسرين الذين سدوا ثغرات القرآن بما تعلموه من اتصالهم بهؤلاء اليهود والنصارى، وأتموا ما نقلوه عنهم من القصص — التي كثيراً ماردوها عن سوء فهم لها — بنتاج خيالهم الخاص ، وأرسلوا كل ذلك على أنه تفسير القرآن » . لذلك كله ، وبالرغم من أنه أدرك الكبار من التابعين. لم يكن لمقاتل مكانة عظيمة عند محققي المفسرين، واطرح الطبرى آراءه ظهريًّا ، وضعفوه ، بل إنهم فضلوا تفسيرالكلبي ، محمد بن السائب (ت ١٤٦ هـ) على تفسيره « لما في مقاتل من المذاهب الردية » [٢] . بالرغم من ذلك كله يروى أن الشافعي أشار إلى أن تفسير مقاتل هذا صالح [٣] . بل حكى عنه أنه قال إن الناس كلهم عيال على مقاتل في التفسير مثلما أنهم عيال على زهير بن أبي سلمى (ت ٦١٠ م) في الشعر وعلى أبي حنيفة (ت ١٥٠ هـ) في الكلام [٤] . ولكن يلفت النظر ، بل يوجب الحذر ، أن الشافعي إذ يصرح بأنه قرأ لمقاتل بن سليمان — في تفسيره طبعاً — [٥] يروى كذلك لمحدث آخر يحمل نفس الاسم ، ذلك هو : مقاتل بن حيان البلخي (ت قبل ١٥٠ هـ) الناسك العابد الثقة الذي هرب أيام أبي مسلم الخراساني (ت ١٣٧ هـ) إلى كابل ودعا خلقاً إلى الإسلام فأسلموا [٦] .

وهكذا يكون الشافعي قد اعتمد في فهم القرآن — بعد النبي والصحابة —

---

(١) الشافعي : أحكام — ١ : ١٢٨ .

(٢) ابن سعد : الطبقات — ج ٧ ق ٢ : ١٠٥ . ابن خلكان : وفيات (نهضة) — ٤ : ٣٤١ وما بعدها . الذهبي : ميزان— ٤ : ١٧٣ ومابعدها . ابن حجر : ت . التهذيب — ١٠ : ٢٧٩ ومابعدها. السيوطي : الإتقان — ٢ : ١٨٨ ، ١٨٩ . جولد تسيهر مذاهب : ٧٥ — ٧٦ ، ٧٨ ، ١٠٩ هامش ٢ ، ١٣٤ هامش ١ .

(٣) السيوطي : الإتقان — ٢ : ١٨٨ .

(٤) ابن خلكان : وفيات — ٤ : ٣٤١ .

(٥) الشافعي : أحكام — ٢ : ١٩١ .

(٦) المصدرنفسه — ١ : ٢٧٦ ، ٢٧٨ و ٢ : ١٤٨ . الذهبي: ميزان — ٤ : ١٧١ — ١٧٢. ابن حجر : ت . التهذيب — ١٠ : ٢٧٧ — ٢٧٩ .

على مدرسة ابن عباس المكية ، وهذا طبيعى تماماً فهو قد نشأ فى مكة وتتلمذ على أساتذتها [١] . وإذا كان الشافعى قد أحضر معه القراءة المكية إلى مصر ومثّلها بها ، فإنه حمل إليها كذلك المدرسة المكية فى التفسير ومثّلها بها .

وأيّاً كان الأمر فإن الشافعى ، فى كل هذا الذى تقدم من وسائله إلى فهم النص المقدس ، يعتمد على الروايات المنقولة التى تكوّن فى مجموعها ما يعرف باسم : التفسير بالمأثور . وهو فى ذلك يحرص عادة على ذكر سند مايروى . ولكن يحدث أن يهمل السند مكتفياً بنسبة مايروى إلى من يسميهم « أهل العلم بالقرآن » ليذكر أنهم قالوا [٢] ، أو أنه سمعهم يقولون [٣] أو أنهم لم يختلفوا فى .. [٤] وربما كان الشافعى يفرق بين « أهل العلم بالقرآن » هؤلاء وبين من يسميهم : « أهل التفسير » [٥] أو « أهل العلم بالتفسير » [٦] أو « المفسرين » [٧] . يرجع ذلك أنه يميل عادة إلى أن يخبر عن هؤلاء الأخيرين — وكأنما ليلقى عليهم ظلا من الشك — بقوله إنهم زعموا . وفى حالات أخرى يحذف الشافعى السند كذلك ، ويسوق الرواية مسبوقة بقوله : « يقال » [٨] أو « وقيل » [٩] ربما تعبيراً عن ضعف اطمئنانه إليها .

ومما له أهمية على أى حال أن الشافعى لاينسى نفسه أمام هيبة الرواية ، فكثيراً مايعلق على مايروى بما يدل على التدبر والمناقشة والمقارنة ، فيقول : وإلى هذا نذهب [١٠] ، أو : ولاأعلم الآية تحتمل معنى غير جملة ما قال [١١] ، أو :

(١) أبو الفدا : مختصر : ١٥ . ابن فرحون : الديباج : ٢٢٧ . أمين الخولى : المجددون فى الإسلام : ٧٥ .
(٢) الشافعى : أحكام – ١ : ٢٩ ، ٥٢ ، ٨٣ .
(٣) المصدر نفسه – ١ : ٢٨ ، ٩٦ – ٩٧ ، ١٢٠ و ٢ :
(٤) المصدر نفسه – ١ : ٣٦ .
(٥) المصدر نفسه – ١ : ٢٢٣ و ٢ : ٨٤ ، ٨٨ ، ١٥٦ .
(٦) المصدر نفسه – ١ : ٢٠٥ ، ٢٠٦ و ٢ : ١٠٦ – ١٠٧ .
(٧) المصدر نفسه – ٢ : ٨٢ ، ١٥٥ .
(٨) الشافعى : أحكام – ١ : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٨١ .
(٩) المصدر نفسه – ٢ : ١٧ ، ١٧٨ ، ١٨٨ .
(١٠) المصدر نفسه – ١ : ٦٠ .
(١١) المصدر نفسه – ٢ :

أما الذى نذهب إليه فما قالت عائشة [١] ، أو : ليس فيه إلا قول عائشة [٢] ، أو : ويشبه ماقال مجاهد ماقال النبى [٣] ، أو : ما أشبه ماقال مجاهد بظاهر القرآن [٤] ، أو : وهذا — إن شاء الله — كما قال مجاهد . وماقال عكرمة فيه أوضح وإن كان هذا واضحًا . [٥] أو : وكذلك قال مقاتل . وتقصى مقاتل فيه أكثر من تقصى ابن عباس [٦] . أو : والتنزيل يدل على ماقال مقاتل[٧]

أقام الشافعى زمنًا طويلا فى بطون العرب — أوفى هذيل بالذات — وكانت أفصح العرب — راحلا برحيلهم ونازلا بنزولهم ، فأخذ عنهم أشعارهم ولغاتهم [٨] واكتسب تفوقًا لغويًّا اعترف له به عدد من كبار رجال العصر . فالأصمعى (ت ٢١٦ هـ) — مع جلالة قدره فى معرفة كلام العرب واللغة العربية والشعر — قرأ عليه أشعار الهذليين وقال : صححت أشعار البدويين على شاب من قريش يقال له : محمد بن إدريس [٩] . وقرر أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) أشهر تلاميذ الأصمعى ، أن الشافعى كان ممن تؤخذ عنه اللغة [١٠] . وعندما جالسه ابن حنبل (ت ٢٤١ هـ) بمكة أخذ عنه التفتيق وكلام قريش[١١] . وشهد تلميذه البغدادى الحسن الزعفرانى (ت ٢٦٠) هـ) أنه مارآه لحن قط[١٢] وقرر المبرد ، زعيم نحاة البصرة (ت ٢٨٦ هـ) ، أن الشافعى كان من أشعر الناس وآدب الناس[١٣] . ولما دخل الشافعى مصر كان يقيم بها عالم اللغة والنحو والأخبار والأنساب عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨ هـ) صاحب السيرة النبوية . وعندما

---

(١) المصدر نفسه — ٢ : ١٠٩ .
(٢) المصدر نفسه — ٢ : ١٨٧ .
(٣) المصدر نفسه — ١ : ٧١ .
(٤) المصدر نفسه — ١ : ٩٩ .
(٥) المصدر نفسه — ١ : ١١٢ .
(٦ و ٧) المصدر نفسه — ١ : ٢٧٨ .
(٨) الخطيب : ت . بغداد — ٢ : ٦٣ . ابن فرحون : الديباج : ٢٢٨ .
(٩) ابن خلكان : وفيات : — ٣ : ٣٠٥ . ابن حجر : ت . التهذيب — ٩ : ٠ .
(١٠) النووى : ت . الأسماء — ١ : ٥٠ .
(١١) أبو الفداء : مختصر : ١٥ .
(١٢) ابن حجر : ت . التهذيب — ٩ : ٣٠ .
(١٣) ياقوت : م . الأدباء — ١٧ : ٣١٢ . ابن حجر : ت . التهذيب — ٩ : ٢٩ .

رأى ابنُ هشام الشافعيَّ بهرته شخصيته فقال : ماظننت أن الله خلق مثل الشافعي ثم كانا يجتمعان فيتناشدان الأشعار ، ويتذاكران أنساب الرجال والنساء . ولمس ابن هشام تمكن الشافعي من اللغة فاتخذ قوله فيها حجة . وجعل منه مرجعاً يرجع إليه إذا شك في شيء منها ، ونبه الناس إلى أن لسان الشافعي لغة ليكتبوه . كما اعترف بأنه في اجتماعاته الطويلة بالشافعي لم يسمع منه لحنة قط ولا كلمة غيرها أحسن منها [١] . ولحظ يونس بن عبد الأعلى (ت ٢٦٤ هـ) أنه كان إذا أخذ في العربية قيل هذه صناعته [٢].

وبالرغم من أن الشافعي يدرك صعوبة السيطرة على اللغة حتى مايحيط بها إلا نبي [٣] ، فهو يحض على تعلم اللغة والنظر فيها . فإن من يفعل ذلك يرق طبعه [٤] أي يكسب القدرة على التمييز بين المعاني الدقيقة . وهو يحفظ نصوصاً من كلام الأعراب بما هي نماذج اللغة الصافية ، ويحفظ الأخبار الأدبية كوسياة إلى حفظ المفردات الفصيحة والأساليب الجيدة [٥] هذا إلى ماكان يحفظ من الأشعار والأخبار وأيام العرب [٦] ؛ ومنذ الضحى حتى قرب انتصاف النهار كان الشافعي يلقي في الجامع بمصر دروساً يومية في العروض والنحو والعربية والشعر [٧] .

ولم يقتصر النشاط الأدبي للشافعي على حفظ كلام العرب البليغ وروايته، بل كان يملك القدرة على إنتاجه كذلك . فأثر عنه غير قليل من الأقوال الجامعة [٨] كما بقيت له أبيات متفرقة على حظ قليل من الجمال الفني ولكنها تشترك في أنها تعبير خاص جداً عما يمر به من مواقف وعن وجهة نظره إليها . فهو يقول

---

(١) ياقوت : م . الأدباء – ١٧ : ٣١٢ . النووي : ت الأسماء – ١ : ٤٩ – ٥٠ . ابن فرحون : الديباج : ٢٢٩ . ابن حجر : ت . التهذيب – ٩ : ٣٠ .

(٢) ابن حجر : ت . التهذيب – ٩ : ٣٠ – ٣١ . وفي الأصل : قال : هذه صناعته .

(٣) الشافعي : الرسالة : ٤٢ . السيوطي : الإتقان – ١ : ١٣٦ .

(٤) الخطيب : ت . بغداد – ٧ : ٢٧٦ . السبكي : ؟ . الشافعية – ١ : ٢٤١ .

(٥) ابن عبد ربه : العقد – ٣ : ٤٢٨ و٦ : ١٠٢ .

(٦) ابن فرحون : الديباج : ٢٢٨ .

(٧) ياقوت : م . الأدباء – ١٧ : ٣٠٤ .

(٨) ابن عبد ربه : العقد – ٣ : ٢٧ . الخطيب : ت . بغداد – ٧ : ٢٧٦ . الغزالي : إحياء – ٥ : ١٨٣ ، ١٨٩ و٦ : ٨٧ ، ٩٠ و١٥ : ٦٢ . الشعراني : طبقات – ١ : ٥٥ – ٥٧ . السبكي : ط . الشافعية – ١ : ٢٤١ .

الشعر حين يزمع الخروج إلى مصر[1] ، وحين يقطع عليه اللصوص الطريق ويجردونه حتى من ثيابه [2] ، وحين يدخل مصر فيجفوه أهلها ويتركونه وحيداً فى المسجد[3] وبالشعر كذلك يسجل عقيدته [4] ، وحبه آل محمد [5] . ورأيه فيما هو العلم [6] والوسيلة إلى تحصيله [7] . وقد يضمّن الشافعى شعره القرآن [8] ، ويتراسل به مع أصدقائه [9] . ويصوغ الحِكَم [10] . وعندما سئل عن حاله وهو فى مرض الموت استعمل الشعر فى إجابته [11] .

هذه الإحاطة باللغة . والبصر باستعمالها ، والخبرة بأساليبها هيأت للشافعى مرجعًا آخر فى فهم القرآن بالإضافة إلى الآثار المروية . فهو بتمكنه من اللغة وأدبها أصبح يملك القدرة على إدراك المقصود بألفاظ القرآن وتعبيراته . فهو عندما يريد أن يفسر كلمة « مثابة » المذكورة فى الآية ١٢٥ من سورة البقرة : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » يجد أن المثابة — فى كلام العرب — : الموضع يتوب الناس إليه ويثوبون. يعودون إليه بعد الذهاب عنه . ويجد أنه قد يقال : ثاب إليه : اجتمع إليه . فالمثابة تجمع الاجتماع . ويثوبون : يجتمعون إليه راجعين — بعد ذهابهم عنه — ومبتدئين . بل يجد فى الشعر ما يلقى مزيداً من الضوء ، فقد قال ورقة بن نوفل (ت ٥٩٢ م) يذكر البيت :

مثابا لأفناء القبائل كلها تخب إليه اليَعْمُلات النوابل

(الأفناء من الناس : الأخلاط . تاج العروس : مادة : فنى — اليعملة : الناقة النجيبة المعتملة المطبوعة . القاموس المحيط : مادة : العمل) .

---

(١) ياقوت : م . الأدباء — ١٧ : ٣١٩ .
(٢) المصدر نفسه — ١٧ : ٣٢٠ .
(٣) المصدر نفسه — ١٧ : ٣٠٩ — ٣١٠ .
(٤) ابن عساكر : ت . دمشق — ٢ : ٦٥ — . ابن تغرى بردى : النجوم — ٣ : ٢٩٩
(٥) ياقوت : م . الأدباء — ١٧ : ٣١٠ .
(٦) السبكى : ' . الشافعية — ١ : ١٥٧ .
(٧) الأبشيهى : المستطرف — ١ : ٢٧ .
(٨) الزركشى : البرهان — ١ : ٤٨٣ .
(٩) ابن خلكان : وفيات — ٣ : ٣٢٤ .
(١٠) المصدر نفسه — ٦ : ٢٤٩ .
(١١) الغزالى : إحياء — ١٥ : ٦٤ .

وقال خداش بن زهير النضرى (ت ٥٧٠ م) :

فما برحت بكر تثوب وتدعى ويلحق منهم أولون فآخر[١]

والبحث فى معنى كلمة : « شطر » المذكورة فى الآية ١٤٤ من سورة البقرة : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » والآية ١٥٠ من السورة نفسها : « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام . وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » يقدم نموذجاً جيداً لرجوع الشافعى إلى الاستعمال اللغوى فى فهم النص المقدس . فهو يذكر أن شطره ، وتلقاءه ، وجهته واحد فى كلام العرب . إذا قلت : أقصد شطر كذا ، معروف أنك تقول : أقصد قصد عين كذا ، يعنى : قصد نفس كذا . وكذلك : تلقاءه ، وجهته ، أى : أستقبل تلقاءه وجهته . وكلها بمعنى واحد وإن كانت بألفاظ مختلفة . وفى الشعر مايشهد بذلك . قال خفاف بن ندبة (ت ٥٩٥ م) :

ألا من مبلغ عمراً رسولاً وما تغنى الرسالة شطر عمرو

وقال ساعد بن جُؤية :

أقول لأم زنباع أقيمى صدور العيس شطر بنى تميم

وقال لقيط الأيادى :

وقد أظلكم من شطر ثغركم هول له ظلم تغشاكم قطعا

وقال الشاعر :

إن العسيب بها داء مخامرها فشطرها بصر العينين مسحور

قال الشافعى : يريد : تلقاءها بصر العينين ، ونحوها ، تلقاء جهتها وهذا كله — مع غيره من أشعارهم — يبين أن شطر الشىء : قصد عين الشىء إذا كان معايناً فبالصواب ، وإن كان مغيباً فبالاجتهاد والتوجه إليه . وذلك أكثر مايمكنه فيه[٢] .

وفى الآية ٢٣١ من سورة البقرة : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » يفسر الشافعى « بلغن أجلهن » بمعنى : إذا شارفن

---

(١) الشافعى : أحكام – ١ : ١١٩ .

(٢) المصدر نفسه ١ : ٦٨ – ٧٠ .

أو قاربن بلوغ أجلهن ، استناداً إلى أن العرب تقول للرجل ـ إذا قارب البلد يريده أوالأمر يريده ـ : قد بلغته . وتقوله إذا بلغه [١] .

ويذهب الشافعى إلى أن الجماع هو المقصود بالسر فى الآية ٢٣٥ من سورة البقرة : « ولكن لاتواعدوهن سرًّا إلا أن تقولوا قولا معروفًا » ، يدل على ذلك قول امرئ القيس (ت ٥٣٩ م) :

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى كبرت ، وأن لايحسن السر أمثالى

كذبت . لقد أصبى على المرء عرسه وأمنع عرس أن يُزَنّ بها الخالى

(أصبى عليه عرسه : أشوقها وأجذبها عنه إلىّ . يزن بها الخالى : يتهم بها من لازوج له) .

وقول جرير (ت ١١٠ هـ) يرثى امرأته

كانت إذا هجر الخليل فراشها خزن الحديث وعفت الأسرار

قال الشافعى : فإذا علم أن حديثها مخزون فخزن الحديث أن لايباح به سرًّا ولاعلانية . فإذا وصفها بهذا فلا معنى للعفاف غير الأسرار ، والأسرار : الجماع [٢]

وفى تفسير الآية ٢٣٨ من سورة البقرة : « حافظوا على الصلوات » يذهب الشافعى إلى أن المحافظة على الشيء تعجيله [٣]

وفى تفسير الآية ٢٥ من سورة النساء : « فانكحوهن بإذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن » يقول الشافعى : الأجر هو الصداق ، والصداق هو الأجر . وهى كلمة عربية تسمى بعدة أسماء [٤] .

وعندما يتعرض لمسألة الجنابة فى الآية ١٤٣ من سورة النساء : « يأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون ، ولا جنبًا إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا » يرجع إلى ماهو معروف من لسان العرب من أن الجنابة الجماع وإن لم يكن مع الجماع ماء دافق [٥] .

---

(١) المصدرنفسه – ١ : ٢٢٥ – ٢٢٦ . (٢) الشافعى – أحكام – ١ :
(٣) المصدرنفسه – ١ : ٥٩ .
(٤) المصدرنفسه – ١ : ١٩٧ .
(٥) المصدرنفسه – ١ : ٤٦ – ٤٧ .

و « الصعيد » الذى تدعو الآية نفسها إلى التيمم به — « فتيمموا صعيداً طيباً » لايقع اسمه إلا على تراب ذى غبار . أما البطحاء الغليظة والرقيقة ، والكثيب الغليظ فلا يقع عليه اسم صعيد[١] .

وهو يفسر الآية ٧٨ من سورة الإسراء هكذا : « أقم الصلاة لدلوك الشمس » ودلوك الشمس : زوالها « إلى غسق الليل » « العتمة » وقرآن الفجر » : الصبح « إن قرآن الفجر كان مشهوداً »[٢] . وفى موضع آخر يفسر دلوك الشمس من الآية نفسها بأنه ميلها[٣] .

وفى تفسير الآية ٣٦ من سورة الحج : « فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر » يقول : القانع هو السائل ، والمعتر هو الزائر والمار بلا وقت[٤]

ويقدم الشافعى بحثاً لطيفاً فى الاستعمال اللغوى لكلمة « أم » عندما يعرض للآية السادسة من سورة الأحزاب : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم » فيقول :

وقوله : « وأزواجه أمهاتهم » مثل ماوصفتُ من اتساع لسان العرب وأن الكلمة الواحدة تجمع معانى مختلفة . فقوله : « أمهاتهم » يعنى : فى معنى دون معنى . والعرب تقول للمرأة ترّب أمرهم : أمنا ، وأم العيال . وتقول كذلك للرجل يتولى أن يقوتهم : أم العيال ، بمعنى أنه وضع نفسه موضع الأم التى ترب أمر العيال . قال تأبط شراً (ت ٥٣٠ م) — وهو يذكر غزاة غزاها ، ورجل من أصحابه ولى قوتهم — :

وأم عيال قد شهدت تقوتهم … إذا أطعمتهم أحترت وأقلت
تخاف علينا العيل إن هى أكثرت … ونحن جياع . أى أول تألت
وما إن بها ضن بما فى وعائها … ولكنها من خشية الجوع أبقت

(الإحتار : التقتير فى الإنفاق . عال أمرُهم : اشتد وتفاقم . أى أول تألت : يعجب لسياستها وتدبيرها أمرهم) .

(١) المصدر نفسه – ١ : ٤٧ – ٤٨ .
(٢) الشافعى : أحكام – ١ : ٥٦ .
(٣) المصدر نفسه – ١ : ٥٩ .
(٤) المصدر نفسه – ٢ : ٨٦ .

قال الشافعي : قلت : الرجل يسمى !! . وقد تقول العرب للناقة ، والبقرة ، والشاة ، والأرض : هذه أم عيالنا ، على معنى : التي تقوت عيالنا . ثم قال : وفي هذا دلالة على أشباه له في القرآن جهلها من قصر علمه باللسان والفقه [١]

وذكر الفقيه المصري محمد بن عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢٦٨ هـ) أنه سمع أستاذه الشافعي يقول في قول الله عز وجل : « وأنتم سامدون » (النجم : ٦١) يقال : هو الغناء بالحميرية . وقال بعضهم : غضاب مبرطمون ؛ قال الشافعي — الذي لايقتنع بهذا التفسير — : من السمود . وكل مايحدث الرجل به فلها عنه ، ولم يستمع إليه فهو السمود [٢] .

ويذهب الشافعي إلى أن السعي في الآية ٩ من سورة الجمعة : « يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع » ينبغي أن يعني في هذا الموضع العمل لا السعي على الأقدام . ومثلما يدلل على ذلك ببعض مواضع الاستعمال القرآني للفعل : سعى ، يدلل عليه بشعر لزهير (ت ٦١٠ م) يقول فيه :

سعى بعدهم قوم لكى يدركوهم ... فلم يفعلوا ولم يلاموا ولم يألوا

ومايك من خير أتوه فإنما توارثه ... آبـــاء آبائهم قبـــل

وهل يحمل الخطى إلا وشيجه ... وتغرس ــ إلا في منابتها ــ النخل [٣]

(لم يألوا : لم يستطيعوا . الوشيج : شجر الرماح) .

ويروى الشافعي في تفسير الآية الثانية من سورة الإنسان : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه » أنه قيل — والله أعلم — : نطفة الرجل مختلطة بنطفة المرأة . ولكنه يخلع على هذا التفسير قوة عندما يعقب عليه قائلا : وما اختلط سمته العرب أمشاجاً [٤]

وقد يحدث — ولكن نادراً — ألا تسعف الشافعي خبرته اللغوية فلا يجد في كلام العرب كلمة مثل « دساها » المذكورة في الآية العاشرة من سورة

(١) المصدرنفسه — ١ : ١٦٧ — ١٧٠ .
(٢) الشافعي : أحكام — ٢ : ١٧٨ — ١٧٩ .
(٣) المصدرنفسه — ١ : ٩٣ — ٩٤ .
(٤) المصدرنفسه — ٢ : ١٨٨ — ١٨٩ .

الشمس: « وقد خاب من دساها » فيذهب إلى أنها لغة السودان وأنها تعنى أغواها[١].
وهذا لا يتفق مع رأى الشافعى الذى يرد بعد لحظة فى أن لغة القرآن عربية خالصة .

وأيًّا كان الأمر فإن الشافعى قد اتبع – مثله مثل ابن زيد – الطريقة اللغوية فى التفسير ، تلك الطريقة التى تعتمد على الرجوع إلى الاستعمال اللغوى للكلمات عند العرب القدماء الفصحاء نثرا وشعرا . ولما كان ابن عباس ، الأب الأول للتفسير [٢] . قد أشار على المفسرين بالرجوع إلى الشعر – بما هو ديوان العرب – فى فهم القرآن [٣] . فقد يكون لنا أن نرى فى اصطناع الشافعى هذه الطريقة كجزء من منهجه فى التفسير أثراً من آثار مدرسة ابن عباس المكية . على أن المسألة ، فيما يبدو ، تذهب إلى ما هو أبعد . ذلك بأن العلاقة بين القرآن واللغة العربية تشكل إحدى القضايا الأساسية فى منهج الشافعى الفكرى . وقد وقف الشافعى طويلا عند هذه القضية ، وناقشها ، ثم انتهى فيها إلى رأى واضح .

كان هناك قوم يتكلمون فى العلم فى حين أنهم لو أمسكوا عن بعض ما تكلموا فيه منه لكان ذلك – فى رأى الشافعى – أولى بهم ، وأقرب إلى السلامة لهم . قال أحد أدعياء العلم هؤلاء للشافعى إن فى القرآن عربيًّا وأعجميًّا . وزاد الأمر سوءاً أن من الناس من قبل هذا القول تقليداً للقائلين ، وتركاً للمسألة لهم عن حجتهم ، ومسألة غيرهم ممن خالفهم . وبالتقليد – هذه الظاهرة العقلية الضارة – أغفل من أغفل منهم .

والشافعى يرفض هذا الرأى رفضًا باتًّا . فهو يرى أن من جماع علم كتاب الله العلم بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب ، وأن القرآن يدل على أنه ليس فى كتاب الله شيء إلا بلسان العرب . ويحاول الشافعى أن يجد عذراً لأصحاب هذا الرأى فى أنهم قد يعنون به أن من القرآن خاصًّا يجهل بعضه بعض العرب ، فلسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا ، وأكثرها ألفاظًا ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبى . ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها حتى لا يكون

---

(١) المصدر نفسه – ٢ : ١٩١ .

(٢) جولدتسيهر : مذاهب : ٨٩ .

(٣) ابن سعد : الطبقات – ج ٢ ق ٢ : ١٢١ . ابن الجزرى : جولدتسيهر : مذاهب : ٨٩ – ٩٠ .

موجوداً فيها من يعرفه . وهكذا لسان العرب عند خاصتها وعامتها لايذهب منه شيء عليها ، ولايطلب عند غيرها : ولا يعلمه إلا من قبله عنها ، ولا يشركها فيه إلا من اتبعها فى تعلمه منها .

ويعلل الشافعى ظاهرة التبادل اللغوى التى قد نجد بمقتضاها من العجم من ينطق بالشيء من لسان العرب بأن اللغة العربية هى الأصل الذى أخذ عنه هؤلاء العجم تلك الكلمات القليلة . وإلا فالأمر محض اتفاق .

وبالقرآن نفسه يحتج الشافعى فى أن كتاب الله محض بلسان العرب لا يخلطه فيه غيره . قال الله تبارك وتعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » (إبراهيم : ٤) . والدلالة بينة فى كتاب الله ، فى غير موضع ، على أنه بعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم . قال الله عز ذكره : « وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين » (الشعراء : ١٩٢ – ١٥٩) . وقال : « وكذلك أنزلناه حكماً عربياً » (الرعد : ٣٧) . وقال : « وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها » (الشورى : ٧) . وقال تعالى : « حم . والكتاب المبين . إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » (الزخرف : ١ – ٣) .

قال الشافعى : فأقام حجته بأن كتابه عربى فى كل آية ذكرناها . ثم أكد ذلك بأن نفى عنه – جل وعز – كل لسان غير لسان العرب فى آيتين من كتابه فقال تبارك وتعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر . لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين » (النحل : ١٠٣) . وقال : « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا : لولا فصلت آياته . أأعجمى وعربى ؟ » (فصلت : ٤٤) .

ويختم الشافعى رأيه فى هذه القضية الهامة قائلا : وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيرهم لأنه لايعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب ، وكثرة وجوهه ، وجماع معانيه وتفرقها . ومن علمها انتفت عنه الشبه التى دخلت على من جهل لسانها [١] .

العلاقة بين القرآن واللغة العربية – فى رأى الشافعى – علاقة عضوية

---

(١) راجع : الشافعى : الرسالة : ٨ – ٩ .

إذن ولذلك اتخذ من اللغة مرجعاً أساسياً لفهم القرآن . ولكن لما كان القرآن ذروة هذه اللغة من جهة ؛ وله طريقته الخاصة فى التعبير من جهة أخرى ، فقد حاول الشافعى أن يفهم القرآن بعضه ببعض : أى يفسر القرآن بالقرآن .

يذهب الشافعى إلى أن إحصان المملوكات الذى تشير إليه الآية ٢٥ من سورة النساء : « فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » هو : الإسلام ، لأنه مانع . وكل مامنع أحصن . قال الله تعالى : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم » (الأنبياء : ٨٠) . وقال عز وجل « لايقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة » (الحشر : ١٤) : أى ممنوعة[١] .

وعندما يفسر الآية ٣٣ من سورة النور : « وليستعفف الذين لايجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله » يقول : معناه — والله أعلم — : ليصبروا حتى يغنيهم الله . وهو كقوله — عز وجل — فى مال اليتيم : « ومن كان غنياً فليستعفف » (النساء : ٦) : ليكف عن أكله بسلف أوغيره[٢] .

وقد أشرنا من قبل إلى أنه استدل على فهمه للسعى فى الآية التاسعة من سورة الجمعة بالاستعمال القرآنى نفسه الذى يفيد أن السعى هو العمل لا السعى على الأقدام . ونضيف الآن أن الآيات التى رجع إليها الشافعى هى : « إن سعيكم لشتى » . (الليل : ٤) ؛ « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن » (الإسراء ١٩) ، « وكان سعيكم مشكوراً » (الإنسان : ٢٢) . « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » (النجم : ٣٩) ، « وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها » (البقرة : ٢٠٥)[٣] .

انتبه الشافعى وهو ينظر فى القرآن إلى أن أسلوبه — مثله مثل سائر الأسلوب العربى — لايلتزم لوناً واحداً . فهو قد يخاطب عاما ظاهراً يراد به العام الظاهر ؛ فيقول : « خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل » (الأنعام : ١٠٣) ويقول : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » (هود : ٦) . فهذا عام لاخاص فيه . فكل شىء من سماء وأرض وذى روح وشجر وغير ذلك فالله تعالى

---

(١) الشافعى : أحكام — ١ : ٣٠٧ .
(٢) المصدر نفسه — ١ : ١٩٥ .
(٣) الشافعى : أحكام — ١ : ٩٣ .

خالقه . وكل دابة فعلى الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها[1] . ويسمى هذا الأسلوب كذلك : العام الباقي على عمومه [2] .

وقد يخاطب القرآن عاماً ظاهراً يراد به العام ويدخله الخاص ، فيستدل على هذا ببعض ماخوطب به فيه ، كقوله : « والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان : الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها » (النساء : ٧٥) ، وقوله : « حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما » (الكهف : ٧٧) . ففي هذه الآية دلالة على أنه لم يستطعما كل أهل القرى . وفيها وفي « القرية الظالم أهلها » خصوص ، لأن كل أهل القرية لم يكن ظالماً ؛ وقد كان فيهم المسلم ، ولكنهم كانوا فيها مكثورين وكانوا فيها أقل [3] . ويعرف هذا الأسلوب أيضاً بالعام المخصوص لأنه أريد عمومه وشموله من جهة تناول اللفظ لامن جهة الحكم . وذهب بعضهم إلى أنه مجاز . والصحيح أنه حقيقة وعليه أكثر الشافعية – وأمثلته في القرآن كثيرة جداً إذ مامن عام إلا وقد خص[4] .

ومن القرآن عام الظاهر وهو يجمع العام والخاص ، مثل : « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (الحجرات : ١٣) . ففي هذه الآية العموم والخصوص . فأما العام منها ففي قول الله تعالى : « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » فكل نفس خوطبت بهذا في زمان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وقبله وبعده ، مخلوقة من ذكر وأنثى ، وكلها شعوب وقبائل. والخاص منها في قول الله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » لأن التقوى إنما تكون على من عقلها ، وكان من أهلها من البالغين من بني آدم دون المخلوقين من الدواب سواهم ، دون المغلوبين على عقولهم منهم ، والأطفال الذين لم يبلغوا عقل التقوى منهم . فلا يجوز أن يوصف بالتقوى وخلافها إلا من عقلها وكان من أهلها ، أو خالفها فكان من غير أهلها[5] .

---

(١) الشافعي : الرسالة : ٩ – ١٠ . (٢) السيوطي : الإتقان – ٢ – ١٦ .
(٣) الشافعي : الرسالة : ٩ – ١٠ .
(٤) السيوطي : الإتقان – ٢ : ١٦ – ١٧ .
(٥) الشافعي : الرسالة : ١٠ – ١١ .

ومن القرآن ماهو عام الظاهر ويراد به كله الخاص : مثل قوله : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » (البقرة : ١٩٩) . فالمعروف أن الناس كلهم لم يحضروا عرفة فى زمان الرسول وأنه هو المخاطب بهذا ومن معه. ولكنَّ صحيحًا من كلام العرب أن يقال : « أفيضوا من حيث أفاض الناس » يعنى : بعض الناس . وكذلك قوله : « وقودها الناس والحجارة » (التحريم : ٦) . فدل كتاب الله على أنه إنما أراد : وقودها بعض الناس دون بعض ، لقول الله عز وجل : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » (الأنبياء : ١٠١) [١] . ويسمى هذا الأسلوب العام المراد به الخصوص لأنه لم يُرَدْ شموله لجميع الأفراد لامن جهة تناول اللفظ ولامن جهة الحكم . وهو مجاز قطعاً لنقل اللفظ عن موضوعه الأصلى . وقرينته عقلية ولاتنفك عنه [٢] .

وفى القرآن أسلوب يبين سياقه معناه . فهو ظاهر يعرف فى سياقه أنه يراد به غير ظاهره ، ويدل لفظه على باطنه دون ظاهره ، كقوله : « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعًا ، ويوم لايسبتون لاتأتيهم . كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » (الأعراف : ١٦٣) . فابتدأ — جل وعلا — ذكر الأمر بمسألتهم عن القرية الحاضرة البحر . فلما قال : « إذ يعدون فى السبت » الآية ، دل على أنه إنما أراد أهل القرية لأن القرية لاتكون عادية ولافاسقة بالعدوان فى السبت ولاغيره . وأنه إنما أراد بالعدوان أهل القرية الذين بلاهم بما كانوا يفسقون [٣] . وقال عز وجل : « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون » (الأنبياء : ١١ — ١٢) . وهذه الآية فى مثل معنى الآية قبلها . فذكر قصم القرية ، فلما ذكر أنها ظالمة بان للسامع أن الظالم إنما هو أهلها دون منازلها التى لاتظلم . ولما ذكر القوم المنشئين بعدها ، وذكر إحساسهم البأس عند القصم أحاط العلم بأنه إنما أحس البأس من معرف البأس من الآدميين [٤] .

---

(١) المصدر نفسه : ١١ .
(٢) السيوطى : الإتقان — ٢ : ١٦ — ١٧ .
(٣) الشافعى : الرسالة : ١١ — ١٢ .
(٤) الشافعى : الرسالة : ١٢ .

وكذلك قول إخوة يوسف لأبيهم : « وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها . وإنا لصادقون » (يوسف : ٨١ – ٨٢) . فهذه الآية فى مثل معنى الآيات قبلها لاتختلف عند أهل العلم باللسان أنهم يخاطبون أباهم بمسألة أهل القرية وأهل العير ، لأن القرية والعير لاينبئان عن صدقهم [١] . ومعروف فى علم البيان أن هذا مجاز مرسل علاقته المحلية .

إذ كان الشافعى قد نظر فى القرآن هذه النظرات البيانية بهدف كشف أساليبه فى التعبير توصلا إلى الاستنباط الصحيح لمافيه من أحكام ، فكان بذلك أول من وضع أصول الفقه [٢] ، فإن لنا أن نرى فى تلك النظرات البيانية ضرباً من تلك المحاولات المبكرة لفهم القرآن أو تفسيره فهماً أو تفسيراً بيانياً .

كل ذى عقل بلغته دعوة النبى محمد – كتابياً كان أو وثنيا أوحتى من الجن – أصبح ملتزماً بالإسلام بحيث يصبح مؤمناً إذا اتبعه وكافراً إذا ترك اتباعه [٣] . وإذا كان العقل هو الذى يوجب على الفرد كائناً من كان الالتزام بالإسلام ، فإن هذا العقل نفسه هو الذى بموجبه يلتزم المسلم بتكاليف الإسلام مثل الصوم والصلاة والتقوى[٤] . وبهذا العقل نفسه ينفذ الناس تعاليم الدين . فإذا كان الله – مثلا – قد نصب لهم المسجد الحرام وأمرهم أن يتوجهوا إليه ، فإنما توجههم إليه بالعلامات التى خلق لهم مثل النجوم والعقول التى ركبها فيهم المميزة بين الأشياء وأضدادها والتى استدلوا بها على معرفة هذه العلامات [٥] . فإذا غلب الفرد على عقله بعارض أو مرض ارتفع عنه الفرض [٦] .

العقل فى رأى الشافعى إذن أهم عناصر الإنسان ، بل لعله العنصر الذى به يصير الإنسان إنساناً . ولذلك يبدى الشافعى حرصاً شديداً على العقل ، ويحيطه فى مذهبه بالضمانات ضد ما يهدده بالضعف أو الزوال . فإذا كان للمضطر

(١) المصدر نفسه : ١٢ .
(٢) السيوطى : حسن – ١ : ١٢٢ . عبد الوهاب خلاف : علم أصول الفقه :
(٣) الشافعى : أحكام – ٢ : ٩٧ .
(٤) المصدر نفسه – ١ : ٢٤ – ٢٥ .
(٥) الشافعى : الرسالة : ، وأحكام – ١ :
(٦) الشافعى : أحكام – ١ : ٨٧ .

أن يأكل أو يشرب كل ماحرم من الميتة والدم ولحم الخنزير ، فإن هناك شيئاً واحداً لايحل له ، ذلك هو ما يغير العقل أو يذهب به فإن إذهاب العقل محرم [١] وكأن العقل عند الشافعى مقدم على الحياة نفسها . إذ لاقيمة للحياة بلا عقل بل هى لاتستحق أن تسمى حياة إلا بالعقل .

ولا يحرص الشافعى على العقل فقط بل إنه يحمل له احتراماً عميقاً يتجلى فى قوله لتلاميذه : إذا ذكرت لكم مالم تقبله عقولكم فلا تقبلوه ، فإن العقل مضطر إلى قبول الحق [٢] .

لذلك كله يلفت النظر — وإن كان لايثير الدهشة — أن يعتمد الشافعى فى استخراج أحكام الله من القرآن على العقل ، يشير إلى ذلك وهو يدعو الله — فى حديثه عن فضل من أدرك أحكام الله عز وجل فى كتابه نصاً واستدلالا — أن يرزقه « فهما » فى كتابه ثم فى سنة نبيه [٣] . ويصرح به كثيراً فى عبارات ثابتة تتردد فى حديثه ، مثل : وكان معقولا أن . . . [٤] ، ومعقول أن . . . . [٥] ، وإن معقولا أن . . . [٦] ، وإن كان معقولا أن لا . . . [٧] ، والعقل مضطر إلى أن يعلم أن . . . [٨] .

إن اهتمام الشافعى البالغ بالعقل يدفعنا إلى تذكر المعتزلة الذين يشكل العقل فى مذهبهم مبدأ أساسياً من حيث هو مصدر لمعارف الدينية ومعيار توزن به الحقيقة الدينية [٩] . وأياً كان الأمر فإن الشافعى قد اصطنع العقل — أى الفهم الخاص والاجتهاد الذاتى — فى التفسير العام مثلما اصطنعه فى تفسير آيات الأحكام . وهو فى ذلك قد يصرح بما يدل على اعتماده على الفهم المستقل . فيقول فى تفسير الآية ٤٦ من سورة هود : قال : «يانوح إنه ليس من أهلك .

---

(١) الشافعى : أحكام — ٢ : ٩١ ، ٩٤ .

(٢) أمين الخولى : المجددون فى الإسلام : ٨٤ .

(٣) الشافعى : الرسالة : ٤ .

(٤) الشافعى : أحكام — ١ : ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ١٣٧ ، ١٦٢ و ٢ : ٨٠ ، ٨١ .

(٥) المصدر نفسه — ١ : ٤٥ ، ١٦١ و ٢ : ٦ ، ٨٥ .

(٦) المصدر نفسه — ١ : ٥٨ .

(٧) المصدر نفسه — ١ : ٨٧ .

(٨) المصدر نفسه — ٢ : ٨٣ .

(٩) جولدتسيهر : ١٣٨ :

إنه عمل غير صالح . فلا تسألن ماليس لك به علم . إنى أعظك أن تكون من الجاهلين » :

والذى نذهب إليه فى معنى هذه الآية أن قول الله عزوجل : « إنه ليس من أهلك » يعنى : الذين أمرناك بحملهم معك . فإن قال قائل : وما دل على ما وصفت ؟ قيل : قال الله عز وجل : « وأهلك إلا من سبق عليه القول » (هود : ٤٠) فأعلمه أنه أمره بأن يحمل من أهله من لم يسبق عليه القول . أنه أهل معصية. ثم بين له فقال : « إنه عمل غير صالح » [١]

وفى تفسير الآية ١٠٦ من سورة النحل : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلامن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » يقول : فكان المعنى الذى عقلنا أن قول المكره كما لم يقل فى الحكم . وعقلنا أن الإكراه هو أن يُغلَب بغير فعل منه فإذا تلف ما حلف ليفعلن فيه شيئاً فقد غُلب بغير فعل منه . وهذا — فى أكثر من معنى — الإكراه [٢] .

وتفسير الآية ٣٣ من سورة النور : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً » نموذج جيد للتفسير العقلى عند الشافعى . فمجاهد يفسر الخير فى هذه الآية بأنه المال كأنه أخلاق المملوكين وأديانهم ماكانت . ويرى عطاء بن أبى رباح أنه المال كذلك منكراً أن يكون معناه : الصلاح [٣] . أما الشافعى فينظر إلى المسألة فى أناة وعمق فيقول : الخير كلمة يعرف ماأريد بها بالمخاطبة بها . قال الله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » (البينة : ٧) . فعقلنا أنهم خير البرية بالإيمان وعمل الصالحات لابالمال . وقال الله عز وجل : « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير » (الحج : ٣٦) . فعقلنا أن الخير المنفعة بالأجر لاأن فى البدن لهم مالا . وقال الله عز وجل : « إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً » (البقرة : ١٨٠). فعقلنا أنه إن ترك مالا ، لأن المال : المتروك ، ولقوله : « الوصية للوالدين والأقربين»

---

(١) الشافعى : أحكام – ١ : ٧٤ .
(٢) الشافعى : أحكام – ٢ : ١١٤ – ١١٥ .
(٣) المصدر نفسه – ٢ : ١٦٧ .

(الآية نفسها) . فلما قال الله عز وجل : « إن علمتم فيهم خيراً » (النور : ٣٣) كان أظهر معانيها بدلالة ما استدللنا به من الكتاب : قوة على اكتساب المال وأمانة . لأنه قد يكون قويًّا فيكسب فلا يؤدى إذا لم يكن ذا أمانة ، وأميناً فلا يكون قويًّا على الكسب فلا يؤدى . ولا يجوز عندى – والله أعلم – فى قوله تعالى : « إن علمتم فيهم خيراً » إلا هذا . وليس الظاهر أن القول : إن علمت فى عبدك مالا ، لمعنيين : أحدهما أن المال لايكون فيه . إنما يكون عنده لافيه . ولكن يكون فيه الاكتساب الذى يفيده المال . والثانى أن المال الذى فى يده لسيده ؛ فكيف يكاتبه بماله ؟ إنما يكاتبه بما يفيد العبد بعد الكتابه . لأنه حينئذ يمنع ماأفاد العبد لأداء الكتابة ولعل من ذهب إلى أن الخير : المال . أراد أنه أفاد بكسبه مالا للسيد ، فيستدل على أنه يفيد مالا يعتق به كما أفاد أولا [١] .

وفى تفسير الآية التاسعة من سورة الجمعة : « فاسعوا إلى ذكر الله » يقول الشافعى : ومعقول أن السعى فى هذا الموضع العمل لا السعى على الأقدام [٢] . غير أن الأكثر الأغلب أن يدلى الشافعى بتفسير الخاص دون الإشارة إلى العقل أو الفهم الخاص .

يروى تلميذه الربيع بن سليمان أنه سئل عن قول الله عز وجل : « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات . وبشر الصابرين » . (البقرة : ١٥٥) فقال : الخوف خوف العدو ، والجوع جوع شهر رمضان ، ونقص من الأموال : الزكوات والأنفس ، الأمراض ، والثمرات : الصدقات . وبشر الصابرين على أدائها [٣] .

وفى تفسير الآية الخامسة سورة النساء : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » يقول : إنهم النساء والصبيان . لا تملكهم ماأعطيتك من ذلك، وكن أنت الناظر لهم فيه[٤] ويقول إن « الأزلام » (المائدة : ٣ ، ٩٠) ليس لها معنى إلا : القداح[٥]

---

(١) المصدر نفسه : ٢ : ١٦٧ – ١٧٠ .
(٢) المصدر نفسه – ١ : ٩٣ .
(٣) الشافعى : أحكام – ١ : ٣٩
(٤) المصدر نفسه – ٢ : ١٨٤
(٥) المصدر نفسه – ٢ : ١٨٤

ويذكر أبو عبد الله ، ابن أخى ابن وهب ، (ت ٢٦٤ هـ) أنه سمع الشافعى يقول : الأمة ثلاثة وجوه : قوله تعالى : « إنا وجدنا آباءنا على أمة » (الزخرف : ٢٢) قال : على دين . وقوله تعالى : « وادّكر بعد أمة » (يوسف : ٤٥) قال: بعد زمان . وقوله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله » (النحل : ١٢٠) قال : معلماً[١] .

وسمع الشافعى عدد من تلاميذه يقول : نزه الله عز وجل نبيه ، ورفع قدره ، وعلمه وأدبه ، وقال : « وتوكل على الحى الذى لايموت » (الفرقان : ٥٨) . وذلك أن الناس فى أحوال شتى : متوكل على نفسه : أو على ماله ، أو على زرعه ، أو على سلطان ، أو على عطية الناس . وكل مستند إلى حى يموت ، أو على شىء يفنى يوشك أن ينقطع به . فنزه الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) وأمره أن « يتوكل على الحى الذى لا يموت[٢] » .

كما سُمع يقول فى قول الله عز وجل : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » (الروم : ٢٧) : معناه : هو أهون عليه فى العبرة عندكم . لما كان يقول للشىء : كن ، فيخرج مفصلا بعينيه ، وأذنيه ، وسمعه ، ومفاصله ، وما خلق الله فيه من العروق . فهذا — فى العبرة — أشد من أن يقول لشىء قد كان: عد إلى ماكنت . قال : فهو إنما هو أهون عليه فى العبرة عندكم ، ليس أن شيئاً يعظم على الله عز وجل[٣] .

يضاف إلى موقف الشافعى فى فهم القرآن أنه قد يتخلل تفسيره أو يختمه بعبارة : « والله أعلم » [٤] بما ينم عن الاحترام من التورط فى الجزم برأى نهائى . ومن الحق أن مفسرين كثيرين كانوا يفعلون ذلك وكأنهم يفسحون المجال لافتراض أنه لاينبغى الركون إلى وجه من الوجوه التى يحاولونها فى التفسير . وقد اعترف الناس فى وقت جد مبكر أن العلم القاطع ببعض أشياء من القرآن قد فقد من الجيل الذى جاء بعد عهد الرسول بوقت قصير ، وأن فى القرآن من الأصل

---

(١) المصدر نفسه — ١ : ٤٢ .

(٢) المصدر نفسه — ٢ : ١٨٠ .

(٣) المصدر نفسه — ١ : ٤١ .

(٤) راجع : الشافعى : أحكام — ١ : ٢٨ ، ٢٩ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٨ — ٥٩ .

مواضع يستعصى فهمها على العلم الإنسانى لأن الله قد استأثر بعلمها[١] .

ولما كان الشافعى لم يقبل التفسير المأثور على علاته : بل نظر فيه ونقده[٢]، لم يكن بد من إضافة هذا الموقف النقدى إلى موقفه العقلى العام فى فهم القرآن ؟

وهكذا نفرغ من عرض المعالم الكبرى لمنهج الشافعى فى فهم القرآن أو تفسيره فيما عدا ماهنالك من قصص وإسرائيليات ومناقشة لبعض المسائل الكلامية .

وأيًّا كان الأمر فإن الشافعى لم يكن مفسراً محترفاً يستهدف أن يؤلف تفسيراً كاملا للقرآن ، ولا كان محدثا يهمه أن يحفظ ويروى أكبر قدر ممكن من الروايات الخاصة بالتفسير . ولكنه كان قبل كل شيء وبعد كل شيء فقيها ؛ أى رجل قانون، يهمه بالدرجة الأولى أن يستنبط كل مايشتمل عليه القرآن من أحكام . وماكان له أن يصل إلى ذلك بغير أن ينظر فى القرآن فيدمن النظر ، ويتدبره فيحسن التدبر ، ويتأمله فيطيل التأمل . وتكوّن لدى الشافعى وهو يفعل ذلك منهج بعينه فى فهم القرآن والنفاذ إلى معانيه رأينا أنه يعتمد بصفة أساسية على حديث النبى ، وأقوال الصحابة — وبخاصة ابن عباس وتلاميذ مدرسته المكية — ؛ والاستعمال اللغوى نثراً وشعراً ، والاستعمال القرآنى . ثم الاجتهاد الشخصى . وفى كلمة يتكون هذا المنهج فى التفسير من شقين : مأثور نقلى ، واجتهادى عقلى . ولعلنا لانذهب بعيداً إذا قررنا أن الجانب العقلى هو ألمع الجانبين وآثرهما إلى الشافعى الذى يبدو واضحاً جداً أنه كان شديد الميل إلى النظر المستقل فى القرآن والفهم المتحرر له ، يدفعه إلى ذلك تمكنه من اللغة ، وعلمه بالدين ، وعقله القوى .

أما بعد ؛ فإن هذا المنهج الذى اصطنعه الشافعى وهو يحاول فهم القرآن صالح تماماً لفهم آياته سواء كانت آيات عامة أو خاصة بالأحكام . وفى نفس الوقت فإن هذا المنهج — مضافاً إليه مابذل الشافعى من جهد عظيم مخلص فى فهم كتاب الله وإفهامه الآخرين — يعطى ذلك الإمام الكبير الحق كل الحق فى أن يجد مكاناً رحباً بين المفسرين الذين شكلوا بجهودهم تاريخ حركة التفسير العام فى مصر .

---

(١) جولدتسيهر : مذاهب : ١٠٥ . (٢) انظر ص ٣٦٤ من هذا البحث .

هـ – عبد الله بن صالح (١٣٧ – ٢٢٣ هـ) :

لما كان فقيه مصر العظيم الليث بن سعد (ت ١٧٥ هـ) صاحب ضياع وثروة واسعة فقد كان يحتاج إلى من يكتب له . وكان ممن كتب له شاب دخل فى خدمته قبل أن يبلغ العشرين . يدعى عبد الله بن صالح الجهنى ، ظل يخرج معه إلى الأسفار وإلى الريف طوال عشرين عامًا حتى أصبح سكرتيراً خاصًا ، وصار يعرف بلقب « كاتب الليث » .

ويبدو أن الجو العلمى الحافل الذى كان يحيا فيه الليث جذب كاتب الحسابات الشاب وأغراه بالاشتغال بالعلم . فروى الحديث عن عدد من كبار العلماء به ومن أولهم سيده – ومع الزمن وجد عبد الله نفسه أحد رجال الحديث بمصر يجلس الناس إليه ، ويسمعون منه ، ويكتبون عنه .

وأبو صالح – وهذه كنيته – من أولئك المحدثين الذين تضاربت الأقوال فى مدى ثقتهم وتناقضت إلى حد بعيد . . فبعض النقاد يذمه ويكرهه ، ويضرب على حديثه ، ويصفه بأنه : متهم ؛ ليس بشىء ، كاذب ليس بثقة ، منكر الحديث جداً ، كان أول أمره متماسكًا ثم فسد بأخرة ، يروى عن الأثبات ما لا يشبه حديث الثقات ، عنده من المناكير الكثير من أقوام مشاهير أئمة. وبعضهم يثنى عليه ، ويوصى بالكتابة عمن يأمر به وترك ماسواه ، ويصفه بأنه ثقة حسن الحديث . ويحدث عنه شيخاه : الليث وابن وهب . ويستشهد به البخارى (ت ٢٥٦ هـ) فى صحيحه . ويروى له ابن ماجة (ت ٢٧٣ هـ) ، والترمذى (ت ٢٧٩ هـ) ، وجماعة من الأئمة . ويقف آخرون موقفًا وسطاً فيقررون أنه صدوق فى نفسه ، مستقيم الحديث ، إلا أنه يقع فى حديثه غلط . بل يحاول بعضهم أن يبرر مافى حديثه من فساد بقصة غريبة تزعم أن كان له جار سوء بينه وبينه عداوة ، فكان يضع الحديث على شيخ عبد الله بن صالح ، ويكتب فى قرطاس بخط يشبه خط عبد الله بن صالح ويطرحه فى داره فى وسط كتبه ، فيجده عبد الله فيحدث به يتوهم أنه خطه وسماعه . فمن ناحيته

وقع المناكير فى حديثه[١] .

بالرغم من أن هذه الأقوال فى مجموعها ليست فى صالح ابن صالح فإن الطبرى قد سجل فى تفسيره روايات نقلها عنه تكاد تشمل كل الآيات القرآنية بحيث يمكن أن تكون فى مجموعها تفسيراً شبه كامل . وتنتهى هذه الروايات إلى مصادر متعددة مثل : النبى[٢] ، كعب الأحبار (ت ٣٢ هـ)[٣] . عبد الله ابن سلام (ت ٤٠ هـ) [٤] ؛ على بن أبى طالب[٥] . عبد الله بن عباس[٦] ، عبد الله بن عمر[٧] ، معمر بن أبى حبيبة المدينى[٨] ، ابن شهاب الزهرى [٩] ، وبعض أهل الشام[١٠] . وهكذا تنتمى هذه الروايات إلى التفسير بالمأثور من حيث رجوعها إلى النبى والصحابة . كما يتضح فيها الرجوع إلى الاستعمال اللغوى ، ومحاولة الاهتمام بالجانب البيانى ، وبيان أسباب النزول والنسخ والمبهمات ، إلى جانب الاستعانة بالقصص والإسرائيليات والنصرانيات ، ومناقشة بعض المسائل الكلامية . فهل يعنى ذلك أننا هنا إزاء تفسير لعبد الله بن صالح ؟

إذا صح ذلك فيلفت النظر فى هذا التفسير أنه يعتمد على النقل اعتماداً كلياً ، بمعنى أن عبد الله بن صالح لايقوم فيه بأكثر من الرواية . ثم يلفت النظر فى هذه الرواية أنها ترجع فى الأعم الأغلب إلى مصدر واحد بعينه هو : ابن عباس . وحتى فى ذلك يلفت النظر للمرة الثالثة أن طريق ابن صالح إلى ابن عباس طريق

---

(١) راجع : ابن سعد : الطبقات – ج ٧ ق : ٢ : ٢٠٥ .النسائى : كتاب الضعفاء ١٨ ، الخطيب : ت . بغداد – ٩ : ٤٧٨ – ٤٨١ . السمعانى : الأنساب : ٤٦٩ ب . الذهبى : ميزان – ٢ : ٤٤٠ – ٤٤٥ . ابن حجر : ت . التهذيب – ٥ : ٢٥٦ – ٢٥٩. السيوطى: حسن – ١ : ١٤٥ .

(٢) الطبرى: جامع البيان – ١ : ٥٨ و ٥ : ٣٩ و ٨ : ١٣٨ – ١٣٩ و ٩ : ٨١ و ١٧ : ١١١ .

(٣) المصدر نفسه – ٣ : ٢٠٣ .

(٤) المصدر نفسه – ١ : ١٥٣ .

(٥) المصدر نفسه – ١٥ : ١٠٥ .

(٦) تنتشر رواياته فى خلال التفسير كله .

(٧) المصدر نفسه – ٢ : ١٢٧ .

(٨) المصدر نفسه – ٣٠ : ٩٢ – ٩٣ .

(٩) المصدر نفسه – ٢ : ٢٦٩ – ٢٧٠ و ٧ : ٦٩ .

(١٠) المصدر نفسه – ١٣ : ٩٩ .

واحد ثابت لا يكاد يتغير ، فهو يروى عادة : إن لم يكن دائماً ، عن معاوية ابن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس . فهل يعنى ذلك أن عبد الله ابن صالح كان يروى تفسيراً معينا لابن عباس ؟

روى على بن أبى طلحة الهاشمى ، من الطبقة الثالثة من تابعى أهل الشام (ت ١٤٣ هـ) ، — ليس به بأس . وإن كان له أشياء منكرات — التفسير عن ابن عباس[١] . ولا يعنى ذلك أن هذه الرواية كانت مباشرة ، فمن المعروف أن ابن أبى طلحة إنما أخذ تفسير ابن عباس عن واحد من ثلاثة من تلاميذه سعيد ابن جبير ، أو مجاهد ، أو عكرمة [٢] .

وعن ابن أبى طلحة روى هذا التفسير الذى يذكره صاحب كشف الظنون باسم : تفسير الوالبى مواطنه معاوية بن صالح الحضرمى (ت ١٥٨ هـ)[٣] المحدث الذى اختلفوا على مدى ثقته ، والإمام العالم الذى خرج من بلده حمص سنة ١٢٥ هـ إلى المغرب لينتهى به الأمر إلى أن يوليه عبد الرحمن الداخل (ت ١٧٢ هـ) قضاء الأندلس فى دولته التى أسسها هناك سنة ١٣٨ هـ . ولما حج معاوية حجته الوحيدة مر بمصر سنة ١٥٤ هـ ؛ فالتف حوله أهلها يسمعون منه ويكتبون عنه . وكان ممن كتب عنه حينذاك : الليث بن سعد ، عبد الله بن وهب ، وأسد ابن موسى المعروف بأسد السنّة (ت ٢١٢ هـ) . وقد يكون من الطريف أن نذكر أن أحد المصريين رفض أن يكتب عن القاضى الأندلسى الجليل لأنه رأى عنده ملاهى — آلات موسيقية فى أغلب الظن — مهداة إليه من صاحب الأندلس . وأياً كان الأمر فإن الذى يعنينا هو أن عبد الله بن صالح كان حينذاك فى صدر شبابه ، مثلما كان فى مستهل حياته العلمية — قد جلس إلى معاوية بن صالح وكتب عنه [٤] .

---

(١) ابن سعد : الطبقات — ج ٧ ق ٢ : ١٦٤ . الذهبى : ميزان — ٣ : ١٣٤ .

(٢) أبو جعفر النحاس : الناسخ والمنسوخ : ١٣ — ١٤ . الذهبى : ميزان — ٣ : ١٣٤ . السيوطى : الإتقان — ٢ : ١٨٨ .

(٣) ابن سعد : الطبقات — ج ٧ ق ٢ : ١٦٤ . حاجى خليفة : كشف — ١ : ٤٦٠

(٤) ابن سعد : الطبقات — ج ٧ ق ٢ : ١٦٤ ، ٢٠٧ . الخطيب : ت . بغداد — ٨ : ٤٤٣ . ٤٤٤ . الذهبى : ميزان — ٤ : ١٣٥ . ابن حجر : ت . التهذيب — ١٠ : ٢٠٩ — ٢١١ . ابن تغرى بردى : النجوم — ٢ : ٢٩ — ٣٠ .

يبدو أن عبد الله كان أكثر المصريين كتابة عن الزائر الأندلسى ، فقد قال المحدث عبد الرحمن بن إبراهيم : قدمت مصر بعد موت ابن وهب سنة ١٩٨ هـ فكتبت (كتب) معاوية بن صالح عن عبد الله بن صالح [١] . وقال حميد بن زنجويه المحدث الخراسانى (ت ٢٥١ هـ) لزميله المحدث العراقى الكبير على بن المدينى (ت ٢٣٤ هـ) : إنك تطلب الغرائب فأت عبد الله بن صالح فاكتب عنه كتاب معاوية بن صالح تستفيد (كذا) منه مائتى حديث [٢] . قد يكون لنا أن نلمح فى هذا أن عبـــد الله أصبح المرجع الوحيد فى الشرق لكتب معاوية ورواياته بعد عودة هذا الأخير إلى الأندلس حيث توفى بعد قليل (١٥٨ هـ) . غير أن أهم مافى الأمر هو أن عبد الله قد روى — بل كتب — ماعند معاوية عن على بن أبى طلحة من تفسير ابن عباس ليصبح بذلك واحداً ممن يملكون حق رواية تفسير ما عن الأب الأول للتفسير .

لعل الأوساط العلمية قد وجدت فى ذلك التفسير فعلا أجدر المجموعات المنسوبة إلى ابن عباس بالتصديق [٣] . فقد ورد عن ابن عباس فى التفسير مالا يحصى كثرة ، وفيه روايات وطرق مختلفة . والتفاسير الطوال التى أسندوها إليه غير مرضية ورواتها مجاهيل ، كتفسير جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ، فطريق الضحاك عن ابن عباس منقطعة لأن الضحاك لم يلقه ، وجويبر (ت ١٤٠ — ١٥٠ هـ) شديد الضعف متروك . وتفسير الكلبى (ت ١٤٦ هـ) عن أبى صالح عن ابن عباس ، فهذه أوهى طرق ابن عباس . فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدى الصغير فهى سلسلة الكذب . وتفسير ابن جريج (ت ١٤٩ هـ) الذى لم يقصد إلى الصحة وإنما روى ماذكر فى كل آية من الصحيح والسقيم [٤] . أما تفسير ابن أبى طلحة فكل ما وجه إليه من طعن هو أن ابن أبى طلحة لم يرو عن ابن عباس مباشرة . وقد رد أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ) على ذلك بأنه لايوجب طعناً لأن ابن أبى طلحة أخذ التفسير عن رجلين ثقتين (مجاهد وعكرمة) ،

---

(١) الخطيب : ت . بغداد — ٩ : ٤٨١ .
(٢) ابن حجر : ت . التهذيب — ١٠ : ٢١١ .
(٣) جولد تسيهر : مذاهب : ٩٨ .
(٤) السيوطى : الإتقان — ٢ : ١٨٨ — ١٨٩ .

وهو فى نفسه ثقة صدوق[١] . وقال ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ) : بعد أن عرفت الواسطة ــ وهو ثقة ــ فلا ضير فى ذلك[٢] . وهكذا تقرر أن طريق ابن أبى طلحة عن ابن عباس طريق جيد ، بل إنه من أصح الطرق عنه[٣].

قال أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) : بمصر كتاب التأويل عن معاوية بن صالح ، لو أن رجلا رحل إلى مصر فكتبه ، ثم انصرف به ما كانت رحلته عندى تذهب باطلا[٤] . ولعل البخارى (ت ٢٥٦ هـ) هو أول من أفاد من هذا التوجيه، فأخذ ذلك التفسير عن عبد الله بن صالح عندما زار مصر مابين ٢١٠ ــ ٢١٩ هـ ليعتمد عليه بعد ذلك كثيراً فى صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس[٥].

ولما كان أبوعبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) قد روى عن عبد الله[٦] وكان فى نفس الوقت قد دخل مصر سنة ٢١٣ هـ[٧] ، فليس من المستبعد أن يكون استفاد من هذا التفسير فى كتابه : غريب القرآن .

وعندما دخل أبو حاتم الرازى (ت ٢٧٧ هـ) مصر فى رحلته العلمية الكبرى حوالى سنة ٢١٥هـ روى هذا التفسير عن عبد الله مباشرة ليرويه عنه ابنه عبد الرحمن[٨].

ولما كان ابن ماجة (ت ٢٧٣ هـ) قد دخل مصر حوالى سنة ٢٤٢ هـ ، وروى لعبد الله بن صالح ، وروى عن أبى حاتم الرازى فى التفسير بخاصة ، كما روى عن المحدث المصرى يحيى بن عثمان بن صالح (ت ٢٨٢ هـ) الذى روى عن عبد الله . . . . لما كان كل ذلك كذلك فإن من القريب جداً أن يكون ابن ماجه قد أخذ من هذا التفسير فى الكتاب الذى ألفه هو فى التفسير[٩] .

(١) النحاس : الناسخ والمنسوخ : ١٣ ــ ١٤ .
(٢) السيوطى : الإتقان ــ ٢ : ١٨٨ .
(٣) المصدر نفسه ــ ١ : ١١٤ و ٢ : ١٨٨ . حاجى خليفة : كشف ــ ١ : ٤٢٩ .
(٤) النحاس : الناسخ والمنسوخ : ١٤ .
(٥) السيوطى : الإتقان ــ ١ : ١٤ و ٢ : ١٨٨ . حاجى خليفة : كشف ــ ١ : ٤٢٩ .
(٦) الخطيب : ت . بغداد ــ ٩ : ٤٧٨ .
(٧) انظر ص ٢٥١ من هذا البحث .
(٨) الذهبى : تذكرة ــ ٢ : ١٤٦ . السبكى : طبقات الشافعية ــ ١ : ٢٩٩ . السيوطى الإتقان ــ ١ : ١١٤ .
(٩) ابن خلكان : وفيات (نهضة) ــ ٣ : ٤٠٧ ــ ٤٠٨ . الذهبى : تذكرة ــ ٢ : ١٨٩ . ابن حجر : ت . التهذيب ــ ٥ : ٢٥٦ و ٩ : ٣١ و ١١ : ٢٥٧ . الداودى : طبقات : ٢٩٧ظ .

دخل الطبرى (ت ٣١٠ هـ) مصر سنة ٢٥٣ هـ يطلب العلم . وقد رأينا كيف أخذ عن علمائها القراءة[1] وتفسير ابن زيد[2] . ونضيف هنا أن ذلك لم يكن كل ماحمل الطبرى عن مصر ، فقد حرص على أن يأخذ عنها كذلك تفسير ابن صالح . وجامع البيان يزخر بالروايات التى أخذها الطبرى عن المحدثين — مصريين وغير مصريين — الذين رووا هذا التفسير عن ابن صالح نفسه ؛ مثل : المثنى بن إبراهيم[3] ، على بن داود القنطرى (ت ٢٧٢ هـ)[4] . ويحيى بن عثمان ابن صالح (ت ٢٨٢ هـ)[5] .

وعن عبد الله بن صالح روى هذا التفسير مباشرة المحدث المصرى بكر بن سهل الدمياطى (ت ٢٨٩ هـ)[6] .

الحافظ العلامة محمد بن إبراهيم بن المنذر (ت ٣١٨ هـ) صاحب التفسير واحد من الذين أخرجوا من تفسير ابن صالح كثيراً بوسائط بينهم وبينه[7] . ولما كان ابن المنذر قد دخل مصر حوالى سنة ٢٦٨ هـ وروى عن شيوخها[8] فالأرجح أنه أخذ من ذلك التفسير حينذاك ليضمه إلى تفسيره الخاص .

أشرنا منذ قليل إلى أن عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى (ت ٣٢٧ هـ) قد روى عن أبيه تفسير عبد الله بن صالح[9] . ونضيف هنا أن الجزأين المتبقيين من تفسير ابن أبى حاتم يشتملان على قدر غير قليل من هذا التفسير يرويه ابن أبى حاتم بالإسناد الآتى :

---

(١) انظر ص ٢٣٠ من هذا البحث .

(٢) انظر ص ٣٥٦ من هذا البحث .

(٣) تنتشر رواية الطبرى عنه عن عبد الله بن صالح فى خلال تفسير الطبرى كله .

(٤) راجع : الطبرى : جامع البيان — ٢ : ١١٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٧٦ ، ٢١٣ ، ٢١٨ و١٥ : ١٦٧ و١٨ : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ و٢٢ : ١٣ و٢٧ : ٦٥ ، ١٣٥ و ٣٠ : ١٠٣ ، ٢٢٦ . وذلك على سبيل المثال .

(٥) المصدر نفسه — ١ : ٧٨ ، ٢٤٦ — ٢٤٧ .

(٦) النحاس : الناسخ والمنسوخ : ٥ ، ١٢ — ١٣ ، ١٦ : ١٩ ، ٢٥ ، ٥٣ ، ٥٤ — ٥٤ ، ٥٦ .. . إلخ . ياقوت : أ . البلدان — ٢ : ٦٠٦ . الداودى : طبقات المفسرين : ٥١ ظ .

(٧) السيوطى : الإتقان — ٢ : ١٨٨ .

(٨) الذهبى : تذكرة — ٣ : ٥ . السبكى : طبقات الشافعية — ٢ : ١٢٦ . بروكلمان تاريخ الأدب العربى — ٣ : ٣٠٠ — ٣٠١ .

(٩) انظر الصفحة السابقة من هذا البحث .

ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أبو صالح كاتب الليث : حدثني معاوية ابن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : . . . [١]

وأيًّا كان الأمر فإنا نخرج من هذا كله بنتيجة واضحة تلك هي أن تفسير علي بن أبي طلحة قد كتب له الانتشار بل البقاء بعد أن عرف طريقه إلى مصر التي يرجع إليها الفضل فيما بقي لنا منه – وهو غير قليل – في ثلاثة من أهم المصادر : صحيح البخاري ، وتفسير الطبري ، وتفسير ابن أبي حاتم . يضاف إلى هذا طبعاً ماسجله العالم المصري أبو جعفر النحاس في كتابه الناسخ والمنسوخ .

• • •

علينا الآن كخطوة طبيعية أن نحاول أن نعرف كيف كان ذلك التفسير ؟

يتضح مما سبق أن صحيح البخاري هو أقدم مصدر في متناول اليد يمكن البحث فيه عن تفسير ابن أبي طلحة هذا الذي أخذه البخاري عن عبد الله ابن صالح بمصر . وطبيعي جداً أن نركز البحث في كتاب التفسير من ذلك الصحيح . وسرعان مانلحظ أن من منهج البخاري هناك أن يذكر قدراً قل أو كثر من معاني مفردات أو غريب السورة التي يروي الأحاديث المتعلقة بمعانيها . فيقول مثلا في تفسير سورة الطور :

وقال قتادة : مسطور : مكتوب .

وقال مجاهد : الطور . الجبل بالسريانية . رق منشور : صحيفة . والسقف المرفوع : سماء . المسجور : الموقد .

وقال الحسن : تسجر حتى يذهب ماؤها فلا يبقى فيها قطرة .

وقال مجاهد : ألتناهم : نقصنا .

وقال غيره : تمور : تدور . أحلامهم : العقول .

وقال ابن عباس : البر : اللطيف . كسفاً : قطعاً . المنون : الموت .

وقال غيره : يتنازعون : يتعاطون [٢]

---

(١) ابن أبي حاتم: تفسير – ١ : ١١ ظ، ١٢ و١٢ ظ ، ١ ، و١٣ ظ، ١٤ ظ، ١٨ ظ ٣٢ و، ٣٣ ظ . . . ٦٠ ظ ، ٦٨ و – ظ ، ٧٤ و، ٧٦ و . . . . ، ١١٠ ظ ، ١١٢ و ، ١١٤ و . . . . إلخ .

(٢) البخاري : صحيح – ٦ : ٢٤٧ .

ومن الواضح أن هذا التفسير تفسير لغوى بحت غاية فى الإيجاز . وهو هكذا عادة فى سائر السور . والبخارى يحذف السند فيما عدا اسم المفسر الأصيل صاحب التفسير . وحتى هذا قد يجهله فيقول : وقال غيره ، أو : ويقال . بل قد يورد البخارى التفسير بدون نسبته إلى أحد مطلقاً بما قد يوحى أنه تفسيره هو الخاص[١] والذى يعنينا هنا على أى حال هو أن البخارى كثيراً مايروى عن ابن عباس فى ذلك التفسير اللغوى الموجز السريع . ولكن يلفت النظر أن البخارى يروى عن ابن عباس فى مواضع كثيرة جداً من ذلك الكتاب – كتاب التفسير – ويذكر السند كاملا . وفى هذه الأسانيد الكاملة لا نجد أثراً لذلك الإسناد المنتظر : إسناد البخارى عن ابن صالح عن معاوية عن ابن أبى طلحة عن ابن عباس . ولما كان من المؤكد أن البخارى قد اعتمد على تفسير ابن أبى طلحة فى صحيحه كان لنا أن نتوقع أن مايرويه البخارى عن ابن عباس ، بدون إسناد ، من تفسير لغوى موجز ليس شيئاً آخر سوى ماأخذه عنه من عبد الله بن صالح . ويقوى هذا التوقع عند النظر فى تفسير الطبرى ، فهو يروى عن ابن صالح بذلك الإسناد قدراً ضخماً من ذلك التفسير اللغوى الموجز الذى ينتهى إلى ابن عباس[٢] . أما السيوطى فإنه يرتفع بهذا التوقع إلى مرتبة اليقين ويحل المشكلة تماماً .

لما كانت معرفة غريب القرآن ضرورية للمفسر فقد أفرد له السيوطى النوع السادس والثلاثين من كتابه العظيم : الإتقان[٣] . وبعد أن تحدث عن الكتب المؤلفة فى هذا الموضوع قال :

«وَأَوْلَى مايرجع إليه فى ذلك ماثبت عن ابن عباس وأصحابه الآخرين عنه ، فإنه ورد عنهم مايستوعب تفسير غريب القرآن بالأسانيد الثابتة الصحيحة . وها أنا (كذا) أسوق هنا ماورد من ذلك عن ابن عباس من طريق ابن أبى طلحة خاصة ، فإنها من أصح الطرق عنه ، وعليها اعتمد البخارى فى صحيحه ، مرتباً على السور .

---

(١) المصدر نفسه – ٦ : ٧٠ ، ٩٣ ، ٢٢٢ ، ١٤١ ، ١٤٨ وغيرها .

(٢) الطبرى : جامع البيان – ١ : ٧٨ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥٣ ، ٢٠٦ ، ٢١٧ ، ٢٤٦ / ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٣٢٢ ، ٤٢٠ و ٢ : ١١٣ و ٣ : ٦٤ وغير ذلك .

(٣) ١ : ١١٣ وما بعدها .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، (ح) ، وقال ابن جرير : حدثنا المثنى ، قالا : حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح : حدثني معاوية بن صالح عن علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى :

يؤمنون : قال : يصدقون — يعمهون : يتمادون — مطهرة : من القذر والأذى — الخاشعين : المصدقين بما أنزل الله — وفي ذلكم بلاء : نعمة — وفومها : الحنطة — إلا أماني : أحاديث — قلوبنا غلف : في غطاء — ماننسخ : نبدل — أو ننسها : نتركها فلا نبدلها — مثابة : يثوبون إليه ثم يرجعون — حنيفاً : حاجا — شطره : نحوه — فلا جناح : فلا حرج — خطوات الشيطان : عمله — أهل به لغير الله : ذبح للطواغيت — ابن السبيل : الضيف الذي ينزل بالمسلمين — إن ترك خيراً : مالا — جنفا : إثما — حدود الله : طاعة الله . . . إلخ .

وبعد حوالي خمس صفحات يسجل فيها السيوطي ماأثر عن ابن عباس من ذلك الطريق في تفسير غريب القرآن يقول: هذا لفظ ابن عباس أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيرهما مفرقاً فجمعته . وهو وإن لم يستوعب غريب القرآن فقد أتى على جملة صالحة منه[1] .

بمقارنة هذا الذي جمعه السيوطي ، نقلا عن الطبري وابن أبي حاتم ، إلى ماسجله البخاري نجدهما متفقين فيما عدا اختلافات طفيفة ترجع في الأغلب إلى أن البخاري كتب عن عبد الله بن صالح مباشرة في حين كتب الطبري وابن أبي حاتم عن آخرين رووا عن ابن صالح . يضاف إلى هذا أن البخاري لم يسجل كل ماكتب عن ابن صالح من تفسير ابن عباس . وأيًّا كان الأمر فإننا نستطيع أن نؤكد الآن أن مايرويه البخاري في كتاب التفسير من صحيحه لابن عباس من تفسير لغوي محذوف الإسناد يشكل جزءاً غير صغير مما كتب بمصر عن عبد الله بن صالح من تفسير ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والآن نحاول أن نتعرف على ملامح هذا التفسير مما سجل البخاري منه في صحيحه

بالرغم من أن البخاري رجع إلى هذا التفسير في بيان بعض مفردات ٥٥ سورة

(١) الإتقان : — ١ : ١١٨ .

فقط من سور القرآن البالغ عددها ١١٤ فإن فيما ذكر مايكفى لتكوين فكرة واضحة عن أهم خصائصه .

التفسير اللغوى البحت ، الحرفى الدقيق : هو السمة المميزة ، والطابع السائد فى تفسير ابن عباس بما قد يوحى بأن هذا كان جوهر منهجه فى التفسير ، أو كان أقصى ماسمح لنفسه أن يتناول به النص المقدس فى محاولة بيان ما أراد الله به وهذا يبدو طبيعيًّا تمامًا بالنسبة إلى مفسر يقف فى بداية طريق التفسير ، وهى مرحلة تميل بطبيعتها إلى البساطة البعيدة عن كل تكلف أو تعمق . وما ذكره البخارى عن ابن عباس فى تفسير سورة الأنعام خير نموذج لذلك . قال ابن عباس :

ثم لم تكن فتنتهم : معذرتهم — معروشات : مايعرش من الكرم وغير ذلك — حمولة : ما يحمل عليها — وللبسنا : لشبهنا — ينأون : يتباعدون — تُبْسَل : تُفْضَح — أُبْسِلوا : أفضحوا — باسطو أيديهم : البسط : الضرب — استكثرتم : أضللتم كثيراً — ذرأ من الحرث : جعلوا لله من ثمراتهم ومالهم نصيبًا وللشيطان والأوثان نصيبًا — أكنة : واحدها : كنان — أما اشتملت : يعنى : هل تشتمل إلا على ذكر أوأنثى ؟ فلم تحرمون بعضًا وتحللون بعضًا ؟ — مسفوحًا : مهراقًا— صدف : أعرض — أُبلسوا : أو يسوا — وأُبسلوا : أُسلموا — سرمداً : دائمًا — استهوته : أضلته — يمترون : يشكون — وقر : صمم . وأما : الوقر : الحمل— فإنه أساطير : واحدها : أسطورة و إسطارة ، وهى : الترهات—البأساء : من البأس ؛ ويكون من البؤس — جهرة : معاينة — الصور : جماعة صورة ، كقوله : سورة وسور— ملكوت : ملك ، مثل : رهبوت خير من رحموت . وتقول : تُرهب خير من أن تُرحم — جن : أظلم — تعالى : علا — وإن تعدل : تقسط ، لايقبل منها فى ذلك اليوم — يقال : على الله حسبانه ، أى : حسابه ، ويقال : حسباناً — مستقر : فى الصلب — ومستودع : فى الرحم — القنو : العذق ، والاثنان : قنوان ، والجماعة أيضاً : قنوان ، مثل : صنو وصنوان [١] .

وإلى جانب الأخطاء التى يشترك فى تحمل مسئوليتها الناسخ القديم والناشر الحديث ، مثل الفصل بين كلمة « أكنة » ومعناها ، وإضافة عبارة لامحل لها هى :

---

(١) البخارى : صحيح — ٦ : ١٠٨ — ١٠٩ .

مرامى ورجوماً للشياطين ، يلاحظ أن ترتيب الآيات غير ملتزم . كما يلاحظ أن التفسير المذكور لكلمة « لبسنا » (آية : ٩) لايستقيم مع معنى الآية . ولعل الألف الزائدة على : فضحوا فى تفسير « أبسلوا » (الآية : ٧٠) من تحريف النساخ .

يستطيع ابن عباس ، نتيجة لإدمان النظر فى القرآن وتتبع ألفاظه واستعمالاتها فيه ، أن يلحظ أن كلمات بأعيانها تتخذ فى الاستعمال القرآنى معنى واحداً تؤديه فى كل المواطن . فيقول — مثلا — كل « سلطان » فى القرآن فهو حجة[١] . وهذا يذكرنا بقوله فى موضع آخر ، ولكن بالإسناد نفسه ، : كل « عسى » فى القرآن فهى واجبة[٢] .

ورغبة فى توضيح أكثر يتجاوز ابن عباس أحياناً التفسير الحرفى إلى شىء من التحليل اللغوى . فيقول فى تفسير سورة الشعراء :

الرِّيع (آية ١٢٨) : الأيفاع من الأرض ، وجمعه : ريَعَة وأرياع ، واحد : الرِّيَعَة :

فرهين (آية ١٤٩) : مرحين . فارهين : بمعناه . ويقال : فارهين : حاذقين .

تعثوا (آية ١٨٣) : هو أشد الفساد . عاث يعيث عيثا .

الجبلة (آية ١٨٤) : الخلق . جُبل : خُلِق . ومنه : جُبُلا ، وجِبِيلا ، وجُبْلا يعنى : الخلق . قال له ابن عباس[٣] .

وقد يتجاوز ابن عباس شرح الكلمة إلى شرح الآية كلها . فيقول فى تفسير : « أسمع بهم وأبصر » (مريم : ٣٨) : الله يقول . وهم اليوم لايسمعون ولايبصرون . « فى ضلال مبين » . يعنى قوله : « أسمع بهم وأبصر » : الكفار يومئذ أسمع شىء وأبصره[٤] . وفى تفسير قوله : « بالتى هى أحسن » (فصلت : ٣٤) يقول :

(١) البخارى : صحيح — ٦ : ١٥٥ .
(٢) الطبرى : جامع البيان — ١٠ : ٦٦ .
(٣) البخارى : صحيح — ٦ : ٢٠٢ .
(٤) المصدر نفسه — ٦ : ١٧٢ — ١٧٣ .

الصبر عند الغضب ، والعفو عند الإساءة . فإذا فعلوه عصمهم الله ، وخضع لهم عدوهم كأنه ولى حميم [1] ».

ويتوقف ابن عباس عند أمثال القرآن ليشرح مجازها . فيقول فى تفسير : « كباسط كفيه » (الرعد : ١٤) : مثل المشرك الذى عبد مع الله إلهاً غيره كمثل العطشان الذى ينظر إلى خياله فى الماء من بعيد وهو يريد أن يتناوله ولا يقدر [2] .

وفى تفسير قوله : « بقبس » (طه : ١٠) مايشير إلى أن ابن عباس كان يعتمد فى تفسيره هذا على شيء من القصص . فهو يقول : ضلوا الطريق ، وكانوا شاتين ، فقال : إن لم أجد عليها من يهدى الطريق آتكم بنار توقدون [3] .

فى اعتقادنا أن التحقيق العلمى لما أورده البخارى والطبرى وابن أبى حاتم والسيوطى من ذلك التفسير اللغوى المأثور عن ابن عباس يمكن أن يضع بين أيدينا آخر الأمر النص الصحيح لما كتب عبد الله بن صالح عن معاوية من تفسير ابن أبى طلحة عن ابن عباس الذى هو أجدر المجموعات المنسوبة فى التفسير إلى ابن عباس بالتصديق .

غير أننا نتساءل : هل إذا تحقق هذا نكون قد حصلنا على النص الكامل لما كتب ابن صالح عن معاوية ؟

يذكر الطبرى وابن أبى حاتم ، كل منهما بسنده ، روايات أخرى كثيرة تنسب إلى ابن عباس تفسيرات تتعلق بالفقه ، وأسباب النزول ، والنسخ ، والقصص والإسرائيليات ، والنصرانيات ، والكلاميات . فهل هذه الروايات مما كتب عبد الله ابن صالح عن معاوية مثلها مثل تلك التفسيرات اللغوية التى فرغنا من أمرها ؟ أو — بتعبير آخر — هل روى عبد الله عن معاوية تفسيراً كاملا لابن عباس ؟

أطلق ابن حنبل على هذا التفسير — فى رواية أبى جعفر النحاس [4] — اسم « كتاب التأويل » . ولكنه فى رواية ابن حجر [5] مجرد « صحيفة فى تفسير »

(١) المصدر نفسه — ٦ : ٢٢٩ .
(٢) المصدر نفسه — ٦ : ١٤٧ — ١٤٨ .
(٣) البخارى : صحيح — ٦ : ١٧٦ .
(٤) الناسخ والمنسوخ : ١٤ .
(٥) السيوطى : الإتقان — ٢ :

يشير إليها بعد ذلك بقوله : « وهذه النسخة » . ويتحدث أبو يعلى الخليلي القزويني (ت ٤٤٦ هـ) في كتابه « الإرشاد في علماء البلاد » عن « تفسير معاوية ابن صالح قاضي الأندلس »[١] . ويشير الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) إلى هذا التفسير قائلا إن معاوية بن صالح روى عن ابن أبي طلحة عن ابن عباس « تفسيراً كبيراً ممتعاً »[٢] . ويذكر الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) ابن أبي طلحة على أنه من المفسرين من التابعين الذين تلقوا غالب أقوالهم من الصحابة . ولذلك يجمع تفسيره بين أقوال الصحابة والتابعين[٣] . أما حاجي خليفة (ت ١٠٦٧ هـ) فيذكر أن طريقة علي بن أبي طلحة الهاشمي هي أحسن الطرق عن ابن عباس الذي ورد عنه في التفسير مالا يحصى كثرة ؛ ولذلك اعتمد عليها البخاري في صحيحه[٤] . كما يذكر الزركشي في تفسير ابن أبي طلحة هذا – وهو يسميه أيضاً : تفسير الوالبي[٥] – يجمع بين أقوال الصحابة والتابعين[٦] .

وأيا كان الأمر فنحن نميل إلى الذهاب إلى أن هذا التفسير ليس سوى ذلك التفسير اللغوي البسيط الموجز الذي قدمنا نماذج منه مما أخذ البخاري عنه ، والذي جمعه السيوطي في الإتقان من تفسير الطبري وتفسير ابن أبي حاتم الرازي ، فهذا اللون من التفسير يتفق وطبيعة المرحلة البدائية التي يمثلها ابن عباس من جهة ، مثلما يتفق مع ماعرف عن ابن عباس من الاعتماد على اللغة في فهم القرآن من جهة أخرى . وألا يستكثر ابن حنبل تجشم مشاق الرحلة من بغداد إلى مصر لمجرد الحصول على هذا التفسير دليل على أنه تفسير صغير لايستحق أن يبذل في سبيله كل هذا العناء لولا نفاسته . وبالرغم من أن السيوطي جمع منه تفسير حوالي ستمائة كلمة فإنه يصرح بعدم استيعابه كل غريب القرآن ، ويحرص على أن يكمله بطائفة من المفردات يرويها الضحاك بن مزاحم(ت١٠٥هـ) عن ابن عباس[٧] .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) ميزان الاعتدال – ٣ : ١٣٤ .
(٣) البرهان – ٢ : ١٥٨ ، ١٥٩ .
(٤) كشف الظنون – ١ : ٤٢٩ .
(٥) المصدر نفسه – ١ : ٤٦٠ .
(٦) المصدر نفسه – ١ : ٤٣٠ .
(٧) الإتقان – ١ : ١١٨ – ١١٩ .

ونقص هذا التفسير عامل ترجيح فى صحة نسبته إلى ابن عباس فقد رأينا الطعون الموجهة إلى كثير من التفاسير الطوال المنسوبة إليه[١] . وميل المتأخرين إلى نسبة التفاسير إلى ابن عباس مسألة عالجها جولد تسيهر [٢] . ولذلك نميل إلى التردد فى قبول مانسب إليه من قصص وإسرائيليات ونصرانيات وكلاميات وما أشبهها .

وجدير بنا فى هذا المقام أن نظل على وعى دائم بما سمع ابن عبد الحكم من أستاذه الشافعى من أنه « لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث »[٣]

وأخيراً فإن من المفارقات الغريبة أن يكون عبد الله بن صالح المحدث غير الدقيق صاحب أصدق تفسير لابن عباس ؛ وإذا كان هناك من سبقه إلى نقل شيء من هذا التفسير إلى مصر وتمثيل المدرسة المكية بها فإن ابن صالح قد فعل ذلك بدرجة من القوة لم يسبق إليها .

و – عبد الغنى بن سعيد الثقفى (ت ٢٢٩ هـ) :

فى سنة ٢٢٩ هـ توفى – فيما ذكر المؤرخ المصرى ابن يونس فى تاريخه – مفسر مصرى صاحب تفسير ، يدعى عبد الغنى بن سعيد الثقفى . وقد ذكر ابن حبان (ت ٣٥٤ هـ) هذا المفسر فى الثقات بالرغم من أن ابن يونس – وهو به أعلم – قد ضعّفه[٤] . وعندما تحدث الخليلى (ت ٤٤٦ هـ) فى كتابه الإرشاد عن التفاسير الطوال التى أسندوها إلى ابن عباس مقرراً أنها غير مرضية ورواتها مجاهيل ، ذكر أن أطولها مايرويه المفسر المصرى بكر بن سهل الدمياطى (ت ٢٨٩ هـ) عن عبد الغنى بن سعيد عن موسى بن محمد عن ابن جريج . ثم وصف هذا التفسير بأنه « فيه نظر »[٥] .

وهناك واعظ يدعى موسى بن محمد بن عطاء الدمياطى البلقاوى [٦] المقدسى

---

(١) انظر ص ٣٨٦ – ٣٨٧ من هذا البحث .

(٢و٣) السيوطى : الإتقان – : ١٨٩ . والخبر نفسه مذكور فى : طبقات الشافعية– ١ : ٢٢٥ مع تحريف مائة إلى ستمائة .

(٤) الداودى : طبقات : ١٣٨ .

(٥) السيوطى : الإتقان – ٢ : ١٨٨ .

(٦) البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى ، قصبتّها عمان . وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة ، وبجودة حنطتّها يضرب المثل . ياقوت : م . البلدان – ١ : ٧٢٨ .

وقد كذبه رجال الحديث ، ووصفوه بأنه أحد التلفى ، ليس بثقة متروك ، لا تحل الرواية عنه . كان يضع الحديث ، وكان يسرقه[١] .

وبالرغم من أن حديث هذا المحدث الوضاح كان معروفاً فى مصر ، بل بالرغم من أن بكر بن سهل قد روى عنه[٢] ، فإننا نرجح أن موسى الذى ذكره الخليلى موسى آخر هو : موسى بن عبد الرحمن الثقفى الصنعانى ، الذى يعرف بأبى محمد المفسر . والذى حكم عليه ابن عدى (ت٣٦٧ هـ) بأنه منكر الحديث ، بل الذى قال عنه ابن حبان من قبل فى أصرح عبارة إنه « دجال ، وضع على ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس كتاباً فى التفسير »[٣] .

والذى يميل بنا إلى هذا الترجيح أن أخبار موسى البلقاوى ليس فيها إشارة إلى التفسير بالرغم من كثرتها نسبياً . هذا من جهة . ومن جهة أخرى فقد ذكر ابن حبان أن عبد الغنى بن سعيد يروى عن موسى الصنعانى[٤] . ولكن ابن سعيد شيخ بكر بن سهل[٥] . كما أن موسى البلقاوى – طبقاً للخليلى – شيخ ابن سعيد . فى حين أن من الثابت أن البلقاوى شيخ بكر بن سهل[٦] . فيترتب على هذا أن يكون ابن سعيد والبلقاوى من درجة واحدة بحيث يمتنع زمنياً أن يكون ثانيهما شيخاً للأول . ومن جهة ثالثة فإنه لم يذكر أن موسى بن محمد البلقاوى روى عن ابن جريج .

وهكذا يكون التفسير الذى يرويه عبد الغنى بن سعيد تفسيراً باطلا غير جدير بالاعتبار لأنه تفسير موضوع ومنسوب زوراً وبهتاناً إلى ابن عباس . والأمر لا يختلف إذا افترضنا أنه إنما رواه عن موسى بن محمد البلقاوى الذى تجعلنا أحكام النقاد عليه نرفض قبول أى شىء عنه .

---

(١) الذهبى : ميزان – ٤ : ٢١٩ .
(٢) المصدر نفسه – ٤ : ٢١٩ .
(٣) المصدر نفسه – ٤ : ٢١١ .
(٤) الداودى : طبقات : ١٣٨ .
(٥) السيوطى : الإتقان – ٢ : ١٨٨ . الداودى : طبقات : ١٣٨ .
(٦) الذهبى : ميزان – ٤ : ٢١٩ .

ز – أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) :

ثم يمضى زمن طويل قبل أن يقابلنا مفسر مصرى آخر ، لعله آخر المفسرين العظام فى الفترة التى ندرسها ، ذلك هو : أبو جعفر النحاس . أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادى ، والذى تتلمذ على كبار الأساتذة المصريين فأخذ التفسير عن بكر بن سهل الدمياطى (ت ٢٨٩ هـ) ، والحديث عن النسائى الذى عاش فى مصر منذ عام ٢٦٤ هـ تقريبًا حتى ٣٠٢ هـ . وقراءة ورش عن أبى بكر بن سيف (ت ٣٠٧ هـ) ، والفقه عن رئيس الأحناف المصريين أبى جعفر الطحاوى (ت ٣٢١ هـ) . هذا . وحرص أبو جعفر على أن يسافر إلى بغداد – عاصمة الدنيا حينذاك علمًا وأدبًا وفنًّا – حيث تتلمذ فى اللغة والنحو والقراءات على كبار الأساتذة من مثل : الزجاج (ت ٣١١ هـ) . الأخفش الأصغر (ت ٣١٥ هـ) ، نفطويه (ت ٣٢٣ هـ) ، أبى بكر الداجونى (ت ٣٢٤ هـ) [١] ، ابن الأنبارى (ت ٣٢٨ هـ) ، وابن شنبوذ (ت ٣٢٨ هـ) .

كان التتلمذ على أساتذة العصر هؤلاء إجازة كافية ليجلس أبو جعفر فى مصر مجلس الأستاذ يحاضر ويؤلف فى العلوم التى أخذها عنهم . ومابقى لنا من مؤلفاته التى يقال إنها تجاوزت الخمسين ، أو من أسمائها ، يدل على تمكنه من علوم اللغة والنحو والقرآن . فهو قد شرح المعلقات السبع ، والمفضليات ، وعشرة دواوين ، وأبيات كتاب سيبويه . وألف فى النحو أكثر من كتاب . كما ألف فى الأدب وتاريخه ، وفى تفسير القرآن وعلومه .

ومن الحق أننا نجد أنفسنا فى أبى جعفر النحاس إزاء شخصية علمية متعددة الجوانب ، شديدة الخصوبة ، غزيرة الإنتاج . وأبو جعفر فى هذا ليس سوى ثمرة لما بلغته الحياة العلمية المصرية فى عصره من نمو وتقدم وتطور استطاعت معه أن تنتج مثل هذه الشخصية الباهرة[٢] .

---

(١) قد يكون لقيه بالرملة موطنه أيضاً. فنى ص٤ من كتابه «معانى القرآن» ما يشير إلى أنه سمع بها.

(٢) فى ترجمة أبى جعفر النحاس انظر : السمعانى : الأنساب : ١ . أ – ب ابن الأنبارى : نزهة : ٣٦٣ – ٣٦٤ . القفطى : إنباه – ١ : ١٠١ – ١٠٤ . ابن خلكان : وفيات (ط . النهضة) – ١ : ٨٢ – ٨٣ . ياقوت : م . الأدباء – ٤ : ٢٢٤ – ٢٢٨ . السيوطى : حسن – ١ : ٢٢٨ ، السيوطى : حسن – ١ : ٢٢٨ ، وبغية : ١٥٧ . الداود : طبقات : ٢٩ – ٣٠ . بروكلمان : ت . الأدب العربى – ٢ : ٢٧٥ – ٢٧٦ .

من حسن الحظ أن قد سلمت لنا مؤلفات أبي جعفر الخاصة بالقرآن وهي :
كتاب الجنس الداني في حروف المعاني ويعرف باسم : معاني القرآن
كتاب إعراب القرآن ، كتاب القطع والائتناف ويعرف كذلك باسم : الوقف والابتداء ، وكتاب الناسخ والمنسوخ . وهي كلها مخطوطة — فيما عدا الأخير — وموجودة في دار الكتب المصرية . وذكر بروكلمان[١] أنه قد تقرر طبع الكتاب الأول في حيدر آباد .

كتاب معاني القرآن في التفسير كما يدل عليه اسمه . ولايوجد منه بدار الكتب المصرية سوى الجزء الأول الذي يشتمل على تفسير القرآن من سورة الحمد . أي الفاتحة ، حتى سورة مريم . ويقع في ٢٣٢ ورقة مقاس ٢١ × ١٧ سم . وخطه نسخي قديم ممكن القراءة يرجع إلى القرن الخامس[٢] . أما النسخة المصورة بالفوتوستات فهي عسيرة القراءة .

وفي خطبة الكتاب يرسم أبو النحاس منهجه فيه أو — في الأصح — في التفسير فيقول :

فقصدت في هذا الكتاب تفسير المعاني ، والغريب ، وأحكام القرآن ، والناسخ والمنسوخ عن المتقدمين من الأئمة . وأذكر من قول الجلة من العلماء باللغة وأهل النظر ماحضرني . وأبين تصريف الكلمة واشتقاقها إن علمت ذلك . وآتي من القراءات بما يُحتاج إلى تفسير معناه . وما احتاج إليه المعنى من الإعراب . وما احتج به العلماء في مسايل سأل عنها الملحون . وأبين (مافيه) حذف لاختصار ، أو إطالة لإفهام ، وما كان فيه تقديم وتأخير . وأشرح ذلك حتى يتبينه المتعلم وينتفع به كما ينتفع العالم بتوفيق الله وتسديده[٣] .

وتفسير سورة الفاتحة نموذج جيد—وإن لم يكن كاملا—للتطبيق للعمل لهذا المنهج .
يبدأ أبو جعفر بشرح البسملة بما هي آية مستقلة ، فيذكر أن أكثر البصريين قالو : المعنى أول ما أفتتح به : بسم الله ، وأول كلامي : بسم الله . ثم ينتقل إلى

---

(١) تاريخ الأدب العربي — ٢ : ٢٧٦ .
(٢) فؤاد سيد : فهرس مخطوطات دار الكتب : القسم الثالث :
(٣) أبوجعفر النحاس : معاني القرآن : ظهر الغلاف .

تفسير تحليلي يذكر فيه عن سيبويه أن معنى الباء الإلصاق ، وعن الفراء أن موضعها النصب ، والمعنى : بدأت باسم الله ، وأبدأ باسم الله .

ثم يعالج أبو جعفر كلمة « اسم » من زاوية صرفية ، فيذكر أن فى اشتقاقها قولين : أحدهما أنه من السمو — وهو العلو والارتفاع — فقيل : اسم ، لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به . وقيل : هو من : وسمت ، فقيل : اسم ، لأنه لصاحبه بمنزلة السمة أى يعرف به . ويدلى أبو جعفر برأيه فى هذين القولين فيحكم بأن القول الثانى خطأ لأن الساقط منه — من اللفظ : اسم — لامه — أى الحرف الثالث ، وهو هنا : الواو — فصح أنه من: سمايسمو . وأحمد بن يحيى — ثعلب (ت٢٩١هـ) — يقول — بما يؤكد رأى أبى جعفر من جهة ، ويضيف جديداً من جهة أخرى — إنه يقال : سِمٌ ، وَسُمٌ . ويقال اسم : بكسر الألف ، ويقال بضمها . فمن ضم الألف أخذه من: سموت أسمو ، ومن كسره أخذه من : سميت أسْمِى .

وفى تفسير لفظ الجلالة ينقل أبو جعفر عن الكسائى (ت ١٨٩ هـ) والفراء (ت ٢٠٧هـ) أن معنى : « بسم الله » : باسم الإله، وتركوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى فى الثانية فصارتا لاما مشددة كما قال جل وعز : «لكنا هو الله ربى» (الكهف :٣٨) ومعناه : لكن أنا . كذلك قرأها الحسن . ولسيبويه (ت ١٧٧ هـ) فى أصل لفظ الجلالة قولان يذكرهما أبو جعفر بعد ذلك : أحدهما أن الأصل : إلاه ، ثم جيء بالألف واللام عوضا عن الهمزة . وكذلك (الناس) عنده الأصل فيه : إناس والقول الآخر — وهو أيضاً قول أصحابه — أن الأصل : لاه ، ثم دخلت عليه الألف واللام . وأنشدوا :

لاه ابن عمك لا أُفضلت فى حسب . . . عنى ، ولا أنت ديانى فتخزونى [1]

ولما كان تكرار صفة الرحمة فى قوله عز وجل : «الرحمن الرحيم» مما يسأل عنه — ربما من الملحدين المشار إليهم فى المقدمة — فإن أبا جعفر يقف وقفة غير قصيرة ليعرض أقوال العلماء فى هذه المسألة ويناقشها ويعقب عليها . فيذكر أنه روى عن ابن عباس أنه قال : الرحمن الرحيم : اسمان رقيقان ، أحدهما أرق من الآخر . فالرحمن الرقيق ، والرقيق[2] العاطف على خلقة بالرزق . وقال محمد بن

---

(١) أبو جعفر النحاس : معانى القرآن : ١ ظ . (١) لعلها : الرحيم .

كعب القرظي : الرحمن بخلقه . الرحيم بعباده فيما ابتدأهم به من كرامته وحجته رق ل عطاء الخراساني (ت ١٣٥ ﻫ) : كان الرحمن ، فلما اختزل الرحمن من أسمائه صار الرحمن الرحيم . وقال العرزمي — أبو عبد الرحمن الكوفي (ت ١٥٥ﻫ)— الرحمن بجميع الخلق ، الرحيم بالمؤمنين . وقال أبو عبيدة (ت ٢١٠ ﻫ) : هما من الرحمة كقولهم : ندمان ونديم . وقال قطرب (ت ٢٠٦ ﻫ) : يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد .

ويجد أبو جعفر فى القول الأخير ضالته فيهتف : وهذا قول حسن . وفى التوكيد أعظم الفائدة . وهو كثير فى كلام العرب يستغنى عن الاستشهاد . والفائدة فى ذلك ماقاله محمد بن يزيد — المبرد (ت ٢٨٥ ﻫ) — : إنه تفضل بعد تفضل ، وإنعام بعد إنعام ، وتقوية لمطامع الراغبين ، ووعد لايخيب آماله[1] .

وقول العرزمي — يضيف أبو جعفر معلقاً وموضحاً الأقوال التى يميل إليها — أيضاً حسن ؛ لأن فَعْلان فيه معنى المبالغة . فكأنه — والله أعلم — الرحمن بجميع خلقه . ولهذا لم يقع إلا لله تعالى ، لأن معناه : الذى وسعت رحمته كل شيء . ولهذا قدمت قبل « الرحيم » ، وصار الرحيم أولى من الراحم ، لأن الرحيم ألزم فى المدح لأنه يدل على أن الرحمة لازمة له غير مفارقة ، والراحم يقع لمن رحم مرة واحدة .

ثم يورد أبو جعفر رأى أحمد بن يحيى — ثعلب — فى أن الرحيم عربى ، والرحمن عبرانى ، فلهذا جمع بينهما . ودون إبداء الأسباب يقرر أبو جعفر أن هذا القول مرغوب عنه[2] . فى حين يصف بالحسن ماروى مطرف[3] عن قتادة (ت ١١٧ﻫ) فى قوله : « بسم الله الرحمن الرحيم » قال : مدح نفسه[4] ويستدل على ذلك بقول أبى العباس — المبرد —: النعت قد يقع للمدح ،كما تقول : قال جرير الشاعر[5] .

---

(١) لم يذكر أبو جعفر أن هذا التعليق كله لأستاذه أبى إسحاق الزجاج (ت ٣١١ ﻫ) صاحب كتاب معانى القرآن المعروف بالزاهر وكتاب : الإبانة والتفهيم عن معانى بسم الله الرحمن الرحيم . انظر : القرطبى : الجامع — ١ : ٩١ ، وبروكلمان : ت . الأدب العربى — ٢ : ١٧٢ .

(٢) هذا قول الزجاج كذلك . انظر : الجامع — ١ : ٩١ .

(٣) التصويب عن : الجامع — ١ : ٩١ .

(٤) هذا أيضاً الزجاج . انظر : الجامع — ١ : ٩١ .

(٥) أبو جعفر النحاس : معانى القرآن . ١ ظ — ٢ و .

وفى تفسير الآية التالية : « الحمد لله رب العالمين » يفرق أبو جعفر بين الحمد والشكر لغويًّا . فالحمد أعم لأنه يقع على الثناء ، وعلى التمجيد ، وعلى الشكر والجزاء . والشكر مخصوص ، إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفًا . فصار الحمد أثبت فى الآية لأنه يزيد على الشكر .

ثم يأتى سؤال : « الحمد لله » خبر ، وسبيل الخبر أن يفيد ، فما الفائدة فى هذا ؟ ويتوقف أبو جعفر من جديد ليورد الأقوال ، وأولها قول سيبويه :

إذا قال الرجل الحمد لله ، بالرفع ، ففيه من المعنى مثل ما فى قوله : حمدت[1] الله حمدا . إلا أن الذى يرفع « الحمد » يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله تعالى . والذى ينصب « الحمد » يخبر أن الحمد منه وحده لله تعالى .

ويعجب ابن كيسان (ت ٢٢٩ هـ) برأى سيبويه هذا . ويصفه بأنه « كلام حسن جداً » . ويعلله نحويًّا بأن قولك : « الحمد لله » مخرجه فى الإعراب مخرج قولك : المال لزيد . ومعناه أنك أخبرت به . وأنت تعتمد أن تكون حامداً لامخبراً بشىء . ففى إخبار المخبر بهذا إقرار منه بأن الله تعالى مستوجبه على خلقه ، فهو أحد من يحمده إذا أقر بأن الحمد لله . فقد آل المعنى المرفوع إلى مثل معنى المنصوب ، وزاد عليها[2] بأن جعل الحمد الذى يكون عن فعاه وفعل غيره لله تعالى .

وقال غير سيبويه : إنما يتكلم بهذا تعرضاً لعفو الله تعالى ومغفرته ، وتعظيما له وتمجيداً . فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال . وفى الحديث : من شغل بذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ماأعطى السائلين . وقيل : إن مدحه نفسه — جل وعز — وثناءه عليه ليعلّم ذلك عباده . فالمعنى على هذا : قولوا : الحمد لله . وإنما عيب مدح الآدمى نفسه لأنه ناقص ، فإن قال : أنا جواد ، فثم بخل . وإن قال : أنا شجاع ، فثم جبن . والله تعالى بائن من ذلك . وأيضًا فإن الآدمى إنما يمدح نفسه ليجتلب منفعة أويدفع مضرة ، والله تعالى غنى عن هذا[3] .

وفى تفسير باقى الآية — « رب العالمين » — يعتمد أبو جعفر على شرح أهل

---

(١) التصويب عن : الجامع - ١ : ١١٨ .
(٢) لعلها : عليه .
(٣) أبو جعفر النحاس : معانى القرآن : ٢ و + ظ .

اللغة : الرب بأنه المالك مستشهدين بقول الشاعر الجاهلي الحارث بن حلزة (ت ٥٦٠ م) :

وهو الرب ، والشهيد على يـــو م الحيارين ، والبلاء بـــلاء[1]

ويضيف أبو جعفر أن أصل هذه الكلمة أنه يقال : ربّه يَرُبّه رَبّا ، فهو رابٌ وربٌ ، إذا قام بصلاحه . ويقال على التكثير : ربّاه وربّبه وربّته .

ثم يروى أبو جعفر تفسير ابن عباس : « العالمين » بالجن والإنس . فى حين يفسرها أبو العالية — الرياحى (ت ٩٠هـ) — تفسيراً عليه مسحة من القصص فيقول : الجن عالم ، والإنس عالم . وسوى ذلك للأرض أربع زوايا فى كل زاوية ألف وخمسمائة عالم خلقهم الله لعبادته . أما أبو عبيدة فيفسرها بالمخلوقين ، وينشد للعجاج (ت ٩٧ هـ) :

فخندف هامة هذا العالم

ومن هذه الأقوال جميعاً يختار أبو جعفر القول الأول — تفسير ابن عباس — فهو أجل هذه الأقوال وأعرفها فى اللغة ، لأن هذا الجمع إنما هو جمع مايعقل خاصة . وعالم مشتق من العلامة . وقال الخليل (ت ١٧٥ هـ) : العَلَم والعلامة والمَعْلَم ما دل على الشيء . فالعالم دال على أن له خالقاً ومدبرا[2] .

وينتقل أبو جعفر مباشرة إلى الآية الرابعة فيبدؤها بمناقشة فى القراءة . فهو يقرأ : « ملك » ، ولكن أبا حاتم السجستانى (ت ٢٥٠ هـ) اختار : « مالك » «لأنه» أجمع من « ملك » ، لأنك تقول إن الله مالك الناس ، ومالك الطير ، ومالك الريح ، ومالك كل شيء من الأشياء ونوع من الأنواع . ولا يقال : الله ملك الطير ، ولا ملك الريح ، ونحو ذلك . وإنما يحسن : « ملك الناس » وحدهم . ثم يذكر أبو جعفر أن جلة أهل اللغة — منهم أبو عبيد (ت ٢٢٤هـ) وأبو العباس محمد بن يزيد (المبرد) — خالفوا أبا حاتم فى ذلك محتجين بقوله تعالى : « لمن الملك اليوم » (غافر : ١٦) . والملك مصدر المَلِك ، ومصدر المالك مِلك بالكسر . ويصف أبو جعفر هذا الاحتجاج بأنه حسن ، مضيفاً أن حجة أبى حاتم لا تلزم لأنه

---

(١) أبو جعفر النحاس : معانى القرآن : ٢ و + ظ .

(٢) المصدر نفسه : ٢ظ .

إنما لم يُسْتَعْمَل : ملك الطير والرياح لأنه ليس فيه معنى مدح [١] .

وفى تفسير « يوم الدين » يروى أبو جعفر عن النبى أنه قال : « يوم الدين هو يوم الحساب » . فى حين يفسر مجاهد الدين بالجزاء . والمعنيان واحد لأن يوم القيامة يوم الحساب ويوم الجزاء . ومن معانى الدين فى غير هذه الآية يذكر أبو جعفر : الطاعة . والدين أيضاً : العادة كما قال :

. أهذا دينه أبداً ودينى . [٢]

والمعانى – يقول أبو جعفر – متقاربة ، لأنه إذا أطاع فقد أدان . والعادة تجرى فى مجرى الدين ، وفلان فى دين فلان أى فى سلطانه وطاعته .

ويفترض أبو جعفر أن يسأل سائل : لم خصت القيامة بهذا ؟ وعندئذ يكون الجواب أن يوم القيامة يوم يضطر فيه الخلائق إلى أن يعرفوا أن الأمر كله لله تعالى . وقيل : خصه لأن فى الدنيا ملوكاً وجبارين . ويوم القيامة يرجع الأمر كله إلى الله تعالى [٣] .

وفى تفسير : « إياك نعبد » (آية : ٥) يلحظ أبو جعفر أن المفعول قدم . فلم يقل : نعبدك ، لأن هذا أوكد . ويستشهد بقول سيبويه : كأنهم يقدمون الذى بيانه أهم إليهم ، وهم ببيانه أعنى . وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم . ثم يعتمد أبو جعفر على اللغة فى بيان أن العبادة : الطاعة مع تذلل وخضوع . يقال : طريق معبد إذا كان قد ذلل بالوطء ، وبعير معبد إذا طلى بالقطران أى امتهن كما يمتهن العبيد . قال طرفة :

إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد

ويقال : عبد من كذا أى أنف منه . كما قال :

. ولعبد أن تهجى تميم بدارم . [٤]

ثم قال تعالى : « وإياك نستعين » فأعاد إياك – يقول أبو جعفر – توكيداً ، ولم يقل : ونستعين . ويقال : المال بين زيد وبين عمرو ، فتعاد بين توكيداً .

---

(١) المصدر نفسه : ٢ ظ – ٣ و .
(٢) الشعر للشاعر الجاهل المثقب العبدى . انظر : القرطبى : الجامع – ١ : ١٢٦ .
(٣) أبو جعفر النحاس : معانى القرآن : ٣ و .
(٤) المصدر نفسه والصفحة .

ويعلل أبو جعفر قوله : « إياك » وليس : إياه ، بأن المعنى : قل يا محمد : إياك نعبد . يضاف إلى ذلك تعليل آخر مستمد من أساليب التعبير العربى ، ذلك بأن العرب ترجع من الغيبة إلى الخطاب كما قال الأعشى (ت ٨٧ هـ) :

عنده الحزم والتقى وأَسْىُ الصـ دع وحمل لمضلع الأثقال

ثم قال : — ورجع من الغيبة إلى الخطاب — :

ووفاء إذا أجرتَ ، وماغُـ رَّتْ حبال وصلتها بحبال

وقال الله تعالى : «وسقاهم ربهم شراباً طهوراً » (الإنسان : ٢١) . ثم قال : « إن هذا كان لكم جزاء » (الإنسان : ٢٢) . وعكس هذا أن العرب ترجع من الخطاب إلى الغيبة كما قال تعالى : « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم » (يونس : ٢٢). كما ينبه أبو جعفر إلى أن فى هذا الجزء من الآية حذفاً ، فالمعنى : وإياك نستعين على ذلك[1].

وفى تفسير الآية السادسة : « اهدنا الصراط المستقيم » يرى أبو جعفر أن « اهدنا » بمعنى : ثبتنا ، لأنهم على الهدى . وذلك كما تقول للقائم : قم حتى أعود إليك . أى : اثبت قائماً . ثم يعقد أبو جعفر بحثاً لغوياً صغيراً فى أصل الفعل : هدى ، واستعمالاته المختلفة ، فيقول :

ومعنى « اهدنا » : أرشدنا . وأصل هدى : أرشد . ومنه : « واهدنا إلى سواء الصراط » (ص : ٢٢) . ويكون : هدى بمعنى : بيّن كما قال تعالى : وأما ثمود فهد يناهم » (فصلت : ١٧) . ويكون : هدى بمعنى : ألهم ، كما قال تعالى : « الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » (طه : ٥٠) ،أى : ألهمه مصلحته . وقيل : إتيان الأنثى . ويكون هدى بمعنى : دعا ، كما قال : « ولكل قوم هاد » (الرعد : ٧) ، أى : نبى يدعوهم . وأصل هذا كله : أرشد . والمعنى : إلى الصراط المستقيم .

أما « الصراط المستقيم » فيروى أبو جعفر عن النبى أنه كتاب الله ، وبالتفسير نفسه يفسره عبد الله بن مسعود . وفى تفسير آخر أنه الإسلام . ويبدو أن أبا جعفر يسوى بين التفسيرين لأن الصراط فى اللغة : الطريق الواضح . وكتاب الله بمنزلة

---

(١) أبو جعفر النحاس : معانى القرآن : ٣ و — ظ .

الطريق الواضح ، وكذلك الإسلام . وقال جرير (ت ١١٠ هـ) :

أميرُ المؤمنين على صراط إذا اعوج المَوارد مستقيم

أميرَ المؤمنين : جمعت دينا وحلما فاضلا لذوى الحلوم[١]

وفى تفسير الآية السابعة : « صراط الذين أنعمت عليهم » يروى أبو جعفر فى هؤلاء المنعم عليهم ثلاثة أقوال : النبيون . الأنبياء والمؤمنون . أو جميع الناس .

وينقل أبو جعفر عن عمر أنه قرأ : «صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين » .

وفى تفسير « المغضوب عليهم » و « الضالين» : يروى أبو جعفر عن النبى أن اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون ، وأن النبى تبسم وجهه فرحاً عندما قال أحد الصحابة عند ذلك : فإنى حنيف مسلم . ويروى أبوجعفر التفسير نفسه عن النبى ولكن بطريقة أخرى ثم يقول : فعلى هذا يكون عاماً يراد به الخاص، وذلك كثير فى كلام العرب مستغن عن الشواهد لشهرته[٢] .

من الواضح أن تفسير أبى جعفر لهذه الصورة ــ ويمكن اعتباره نموذجاً لطريقته فى التفسير ــ تفسير لغوى بالدرجة الأولى يعنى فيه المفسر بتحديد المعنى الأول للكلمة وأصلها اللغوى ، واشتقاقاتها ، واستعمالاتها اللغوية والأدبية مما يلقى الضوء على مداولها فى الاستعمال القرآنى . يتمثل ذلك فى تفسير الكلمات : اسم ، الله ، رب ، الدين ، نعبد ، اهدنا ، الصراط .

ونعرض مزيداً من الأمثلة من تفسير سورة البقرة .

ــ « ذلك الكتاب » (آية : ٢) :

وقيل : كتاب لما جمع فيه : يقال : كتبت الشىء أى : جمعته . والكَتْب الخرز . وكتبت البغلة منه أيضاً . والكتيبة : الفرقة المجتمع بعضها إلى بعض[٣] .

«لا ريب فيه » :

قال قتادة : لا شك فيه . وكذا هو عند أهل اللغة . قال أبو العباس ــ المبرد ــ : يقال : رابنى الشىء إذا تبينت فيه الريبة ، وأرابنى إذا لم أتبينها منه . وقال

---

(١) المصدر نفسه : ٣ ظ . (٢) أبوجعفر النحاس : معانى القرآن : ٣ ظ ــ ٤ و .

(٣) المصدر نفسه : ٥ و .

غيره : أراب فى نفسه ، وراب غيرَه . كما قال :

وقد رابنى قولها : يا هَنَـاهُ ويحك الحق وشرًّا بشر

ومنه : دع ما يَريبك إلى مالا يَريبك . ومنه : ريب المنون أى : حوادث الدهر وما يستراب به(١).

« للمتقين » :

أى الذين يتقون ما نهوا عنه. والتقوى أصلها من التوقى وهو التستّر من أن يصيبه ما يهلك به(٢).

« ويقيمون الصلاة » (آية : ٣) :

وقيل: الصلاة مشتقة من الصَّلَوَيْن. وهما عرقان فى الردف ينحنيان فى الصلاة . وقيل : الصلاة الدعاء . وقيل: صلاة لأن الدعاء فيها، وذلك معروف . وقال الأعشى (ت ٧ هـ) :

تقول بنتى .وقد قربت مرتحلا: يارب :جنب أبى الأوصاب والوجعا

عليك مثل الذى صليت ، فاغتمضى نوماً ، فإن لجنب المرء مضطجعا

والصلاة من الله تعالى الرحمة ، ومن الملائكة الدعاء ، ومن الناس تكون الدعاء والصلاة المعروفة(٣).

« وأولئك هم المفلحون » (آية : ٥) :

وأصل الفلاح فى اللغة البقاء . وقيل للمؤمن : مفلح لبقائه فى الجنة . وقال عبيد (بن الأبرص — ت السادس الميلادى) :

أفلح بما شئت فقد يدرك بالضعـ ـف ، وقد يخدع الأديب(٤)

أى : ابق بما شئت من كيس وحمق . ثم اتسع ذلك حتى قيل لكل من (نال شيئا) من الخير : مفلح(٥).

« وهو ألد الخصام . » (آية : ٢٠٤) :

قال مجاهد : أى ظالم لا يستقيم . وقال قتادة : شديد جدل بالباطل .

(١ ، ٢) المصدر نفسه : ٥ و .

(٣) أبو جعفر النحاس : معانى القرآن : ٥ ظ

(٤) نفس المصدر والصفحة وفى الجامع — ١ : ١٥٨ : الأريب بالراء ، وهو أنسب .

(٥) أبو جعفر النحاس : معانى القرآن : ٥ ظ .

والألد فى اللغة : الشديد الخصومة . مشتق من اللديدين وهما صفحتا العنق فى أى : فى أى جانب أخذ من الخصومة غلب . كما قال الشاعر :

إن تحت الأحجار حزما وجوداً وخصيما ألد ذا مغـــــلاق[1]

ويروى : معلاق . ويقال : هو من لديدى الوادى أى : جانبيه . فصاحب هذه الصفة يأخذ فى جانب ويدع الاستقامة واللدود فى أحد الشقين[2] .

« يسألونك عن الخمر والميسر » (آية : ٢١٩) :

وتأويل الخمر فى اللغة أنه ما ستر على العقل . يقال لكل ما ستر الإنسان من شجر وغيره : خمر . وما ستره من شجر خاصة الضرأ مقصور[3] . ودخل فى خمار الناس أى فى الكثير الذى يستتر فيه . وخمار المرأة قناعها لأنه يغطى . والخُمرة التى يسجد عليها لأنها تستر الوجه عن الأرض . وكل مسكر خمر لأنه يخالط العقل ويغطيه . وفلان مخمور من كل مسكر[4] .

« لم يتسنه » (آية ٢٥٩) :

قال عكرمة وقتادة : لم يتغير . وقال مجاهد : لم ينتن .

قال بعض أهل اللغة : لم يتَسَنَّ ، من قولهم : أَسَنَ الماء إذا أنتن . وقال أبو عمرو الشيبانى (ت ٢٠٦) : لم يتغير . من قوله : « من حمأ مسنون » (الحجر : ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٣) ، ثم أبدل من إحدى النونين ياء كما قيل : تقصيّت ، وتظنيّت ، وقصيّت أظفارى .

قال أبو جعفر : والقولان خطأ . لو كان من قولهم : أسن الماء إذا أنتن لكان : يتأسن .

قال أبو إسحاق — الزجاج : وليس من مسنون . لأن مسنونا : مصبوب على سنة الأرض .

---

(١) فى الجامع — ٣ : ١٦ : إن تحت التراب عزماً وحزماً — العلق : الحضور والهبة اللازمتان رجل معلاق وذو معلاق : خصم ، يتعلق بالحجج . ولاوجود فى القاموس المحيط لمغلاق بالغين المعجمة .

(٢) أبوجعفر النحاس : معانى القرآن : ١٣ و .

(٣) ضرأ — كجميع — : خفى . والضراء : الاستخفاء والشجر الملتف فى الوادى . القاموس المحيط .

(٤) أبوجعفر النحاس : معانى القرآن : ١٦ و .

قال أبو جعفر : والصحيح أنه من السنة ، أى : لم تغيره السنون[١] .

وعندما يختلف المفسرون يدخل أبو جعفر فى مناقشات لغوية يحتكم فيها إلى اللغة فى تحديد المعنى السليم .

فمن القراء من قال فى الآية ٦٩ من سورة البقرة : « إنها بقرة صفراء فاقع لونها » إن الوقف بعد « صفراء » ، لأن صفراء عنده بمعنى سوداء . قال الحسن - البصرى - : صفراء : سوداء . وقال أبو عبيدة : صفراء : سوداء كما قال : « جمالات صفر » (المرسلات : ٣٣)[٢] .

قال أبو جعفر : فعلى هذا القول لا يكون « فاقع » تابعاً لصفراء . قرئ عن قتادة قال : الفارض الكبيرة . والفاقع : الصافى . تسر الناظرين : تعجب الناظرين . قال أبو جعفر : فالتقدير على هذا : لونها فاقع ، أى : لونها صاف خالص . ولا يكون إتباعاً . وقد حكى الكسائى : فقع يفقَع ويفقُع . وأنشد :

فهى صفر أولادها كالزبيب[٣]

أى سود . قال أبو جعفر :

وهذا القول خلاف المعروف من كلام العرب ، وخلافه الظاهر والمتعارف . لأن العرب تقول : أصفر فاقع . ولا يقال : أسود فاقع . وإنما يقال : أسود حالك ، وحُلْكُوك ، ودُجوجىّ ، وغربيب . وأبيض لبقَ ، ولبِق ، ويقق ، وناصع ، وأحمر قانئ وأخضر ناضر .

وقرئ على أحمد بن محمد بن الحجاج عن يحيى بن سليمان قال : سمعت عبد الله بن إدريس قال : سمعت أبى وغيره ذكر عن الأسود بن يزيد قال : العرب تسمى الأحمر أسود .

قال أبو جعفر : وهذا لاحجة فيه ، لأن الحمرة والخضرة متقاربان للسواد .

---

(١) أبو جعفر النحاس : معانى القرآن : ٢٨ و .

(٢) « جمالات » هى قراءة الجميع ماعدا : حمزة والكسائى وخلف وحفص الذين قرءوها بغير ألف بعد اللام . الدانى : التيسير : ٢١٨ . ابن الجزرى : تقريب النشر : ١٨٥ .

(٣) جاء كاملا فى الجامع للقرطبى - ١ : ٣٨٣ هكذا :

تلك خيل منه وتلك ركابى هن صفر أولادها كالزبيب

وجمالة وجمالات (مثلثين) : جمع جمل . القاموس المحيط .

قال الله عز وجل : « مدهامتان » (الرحمن : ٦٤). أى : خضراوان شديدتا الخضرة، فكأنهما سوداوان . فإذا قيل: أصفر فاقع زال معنى السواد منه . وقد قال سعيد بن جبير : كانت صفراء كلها . وعنه : كانت صفراء القرن والظلف[١].

وفى تفسير الآية ٢٦٥ من سورة البقرة : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم » اختلف العلماء فى معنى : « تثبيتاً من أنفسهم » . فقال الحسن ومجاهد : أى يتثبتون أين يجعلون أموالهم . يعنى : إذا أرادوا الزكاة ؛ وحكى محمد بن جرير ـ الطبرى ـ أن قتادة قال : « وتثبيتاً » أى : احتسابا . ورده عليه لأنه لا يعرف تثبيت[٢] إذا احتسبت .

قال أبو جعفر : ووجدنا عن قتادة قد صح غير ما قال . كما حدثنا أحمد بن محمد بن نافع : ثنا سلمة : ثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن قتادة : « وتثبيتاً من أنفسهم » قال : ثقة من أنفسهم .

قال أبو جعفر : فأما القول الأول فغلط فى اللغة ، لأنه إنما يقال : تثبتَ تثبتاً . كما يقال : تكرم تكرما ، وتكلم تكلما . وربما أشكل مثل هذا على الضعيف فى العربية وتوهم أنه مثل : « وتبتل إليه تبتيلا » (المزمل : ٨) ، مثل قول الشاعر :

فصرنا إلى الحسنى ، ورق كلامنا ورضت . فذلت صعبة أى إذلال

وقال الآخر :

وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بأن تَتَبّعَهُ اتباعاً

ولم يقل: تتبعاً . فهذا ليس مثل الآية لأن الفعل إذا ظهر حمل المصدر على المعنى . وقوله جل وعز : « وتثبيتاً » لم يظهر فيه الفعل . وأحسن ما قيل فيه قول الشعبى والسدى ، وهو مذهب قتادة . كما قرئ على إبراهيم بن موسى الجوزى عن الشعبى : « وتثبيتاً من أنفسهم » قال : تصديقاً وتيقناً .

قال أبو جعفر : يقال : ثبّت فلاناً تثبيتاً إذا قويت عزمه . وحقيقة المعنى أن أنفسهم تثبتهم على إخلاص الصدقة لله جل وعز[٣].

---

(١) أبو جعفر النحاس : القطع والائتناف : ٢٤ – ٢٥ (٢) لعله : تثبت .
(٣) أبو جعفر النحاس : القطع والائتناف : ٤٢

إلى جانب هذا الخط الأساسى فى منهج أبى جعفر فى التفسير – بل كجزء منه – يعتمد أبو جعفر على النحو والصرف فى توضيح معانى الكتاب الكريم. مر من ذلك فى سورة الفاتحة بيان معنى الباء من « بسم » وبيان اشتقاق كلمة « اسم » ، وصلة معنى « الحمد لله » بإعرابها .

وفى تفسير الآية ١٩٩ من سورة البقرة : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » يحدد أبو جعفر المعنى على أساس تحديد معنى الحرف « ثم » ، فيقول :

وإنما الإفاضة من عرفات قبل المجىء إلى المشعر الحرام . معنى هذا جوابان : أحدهما أن ثم بمعنى الواو . والجواب الثانى – وهو المختار – أن ثم على بابها ، والمعنى : ثم أمركم بالإفاضة من عرفات من حيث أفاض الناس[١] .

ويذكر أن « أَمْ » فى الآية ٢١٤ من السورة نفسها : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة » للخروج من حديث إلى حديث[٢].

وفى تفسير الآية ٢٤٣ من السورة نفسها : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف » يقول :

والقياس فى جمع ألف : آلُف . جُمع كأفلُس . إلا أنهم يشبهون فَعْلا بفعَل فيما كان فى أوله ألف أو واو . نحو : وقت وأوقات . وكذلك نحو : يوم وأيام. وقد قيل : آلاف[٣] .

وفى تفسير آية الكرسى (٢٥٥) من السورة نفسها يعالج اشتقاق كلمة «القيوم» فيقول :

وقرأ عمر بن الخطاب رحمة الله عليه : القيّام . وقرأ علقمة : القيّم .

قال ابن كيسان : القيوم فيعول من القيام وليس بفعّول ، لأنه ليس فى الكلام فعّول من ذوات الواو . ولوكان ذلك لقيل: قوّوم . والقيّام فيعال أصله: القيوام. وأصل القيوم : القيووم . وأصل القيم – فى قول البصريين – القَيْوِم . وقال الكوفيون: الأصل : القَوِيم . قال ابن كيسان : ولو كان كذا فى الأصل لم يجز فيه التغيير كما لا يجوز فى طويل وسويق[٤] .

---

(١) أبو جعفر النحاس : معانى القرآن : ١٢ و . (٢) المصدر نفسه :
(٣) المصدر نفسه : ٢٤ ظ .
(٤) أبو جعفر النحاس : معانى القرآن : ٢٦ و .

وقد يكون من الطريف أن نرى أبا جعفر منهمكاً في بيان اشتقاق كلمتي التوراة والإنجيل غير العربيتين وهو يفسر الآية الثالثة - الرابعة من سورة آل عمران :

« وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان » فيقول :

قال البصريون : توراة أصلها : فَوْعَلَة مثل : حوقلة . ومصدر فَوْعَلْتُ : فَوْعَل . والأصل عندهم : وَوْرَيَة ، فقلبت الواو الأولى تاء كما قلبت في « تَوْلَج » ، وهو فوعل من : ولجت . وفي قولهم : تالله . وقلبت الياء الأخيرة ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها .

وقال الكوفيون : توراة تصلح أن تكون تَفْعَلَة . وتَفْعِلَة قلبت إلى تَفْعَلَة . ولا يجوز عند البصريين في توفية توفاة . ولا يكاد يوجد في الكلام تَفْعَلَة إلا شاذ .

وإنجيل من : نجلت الشيء إذا أخرجته . فإنجيل خرج به دارس من الحق . ومنه قيل لولد الرجل نجله . كما قال :

إلى معشر لم يورث اللؤمَ جدُّهم أصاغرهم . وكل فحل له نجل

قال ابن كيسان : إنجيل إفعيل من النجل . ويقال : نجله أبوه أي جاء به . ويقال : نجلت الكلأ بالمنجل . وعين نجلاء : واسعة . وكذا : طعنة نجلاء . وجمع الإنجيل ، أناجيل . وجمع التوراة : توار[1] .

وعلى أي حال فإنه طبيعي جداً أن يعتمد أبو جعفر النحاس على النحو في فهم القرآن ، فإن النحو هو تخصصه الأكبر . له فيه كتاب التفاحة ، وكتاب الكافي ، وكتاب المقنع - أو المبتهج - في اختلافات البصريين والكوفيين[2] . ثم إن له كتاب إعراب القرآن وهو الكتاب الذي يقوم أصلا على إعراب القرآن نحوياً ، أي بيان وظائف الألفاظ فيه وعلاقتها بعضها ببعض . وإن لم يخل بالضرورة من القراءات ، وما يحتاج إليه من المعاني ، والجموع واللغات على ما جاء في المقدمة[3] .

---

(١) أبو جعفر النحاس : إعراب القرآن : ٣٤ ظ

(٢) ياقوت : م . الأدباء - ٤ : ٢٢٨ . ابن خلكان : وفيات : - ١ : ٨٢ - ٨٣ . السيوطي بغية : ١٥٧ .

(٣) إعراب القرآن : ٢ .

على أن أبا جعفر لم يتوقف فى تفهمه الكتاب الكريم عند حدود المعنى المباشر القريب الذى تعطيه الألفاظ والآيات ، وإنما حاول أن يحس ما ينبض به التعبير القرآنى من وجدان أدنى .

فهو يستحسن أن يكون تكرار التعبير عن الرحمة فى الآيتين الأولى والثالثة من سورة الحمد توكيداً لهذه الصفة بالنسبة إلى الله توكيداً يقوى مطامع الراغبين ، ويحقق أمل الآملين[1].

كما أن جملة « الحمد لله » (الفاتحة : ٢) الخبرية تتضمن الإقرار بوجوب حمد الله لا على من يقولها وحده ولكن على الخلق جميعاً[2].

ويتوقف أبو جعفر عند قوة التوكيد الناتجة عن تقديم المفعول فى « إياك نعبد » وتكرار إياك مع « نستعين » فى الآية الخامسة من السورة نفسها[3].

بل إنه ينص على أن فى قوله : (وإياك نستعين) حذفاً ، لأن المعنى : وإياك نستعين على ذلك[4].

قال تعالى : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم . فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين . ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، واستغفروا الله . إن الله غفور رحيم » (البقرة : ١٩٨ — ١٩٩) .

ذكرنا من قبل[5] أن أبا جعفر يختار أن تكون « ثم » هنا على بابها ، أى تكون للعطف الذى يفيد الترتيب مع التراخى . ونضيف هنا أن أبا جعفر يمضى قائلا :

وفى هذا معنى التوكيد ، لأنهم أمروا بالذكر عند المشعر الحرام إذا أفاضوا من عرفات ، ثم وكدت عليهم الإفاضة من حيث أفاض الناس لا من حيث كانت قريش تفيض .

---

(١) أبو جعفر النحاس : معانى القرآن : ١ ظ — ٢ و .

(٢) المصدر نفسه : ٢ و + ظ .

(٣) المصدر نفسه : ٣ و .

(٤) المصدر نفسه : ٣ ظ .

(٥) ص ٤١١ من هذا البحث .

ويستشهد أبو جعفر على ذلك بالقرآن نفسه ، فيقول : وقال الله تعالى : « ثم آتينا موسى الكتاب » (الأنعام : ١٥٤) .

كما يستشهد بالتعبير العربي الجاري ، فيقول : ويقال : فلان كريم ثم إنه يتفقدنا . وفلان يقاتل الناس ثم إنه ردىء فى نفسه . أى : ثم أزيدك فى خبره[1] .

وفى تفسير الآية ٢١٣ من السورة نفسها : « وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » يقول أبو جعفر فى قوله : « ليحكم بين الناس » :

وهو مجاز ، مثل : «هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق» (الجاثية : ٢٩)[2] .

ولاشك فى أن أبا جعفر يعنى بالمجاز هنا مجاز الإسناد أو المجاز العقلى الذى يسند فيه الفعل أو شبهه إلى غير ما هو له أصالة لملابسته له[3] .

ويتوقف أبو جعفر عند الآية ٢٥٧ من السورة نفسها : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » فيروى عن الضحاك قوله : الظلمات : الكفر ، والنور : الإيمان . ومثّل الكفر بالظلمات والإيمان بالنور .

ولايقنع أبو جعفر بهذا القول البسيط فيثير تساؤلا – لعله من تساؤلات الملحدين – يقول : ما معنى « يخرجونهم من النور إلى الظلمات » ولم يكونوا فى نور قط ؟

والجواب – عند أبى جعفر – أنه يقال : رأيت فلانا فى خارج الدار وإن لم يكن خرج منها . وأخرجته من الدار : جعلته فى خارجها . وكذا : أخرجه من النور : جعله خارجاً منه وإن لم يكن كان فيه .

ثم يذكر أبو جعفر بصيغة التمريض أنه قيل : هذا تمثيل، لما صرفوا عنه كانوا بمنزلة من أخرج منه . كما يقال : لم أخرجتنى من صلتك ؟

وقيل : لما ولدوا على الفطرة – وهى أخذ الميثاق وما فطروا عليه من معرفة الله جل وعز – ثم كفروا كانوا قد أخرجوا من النور .

---

(١) أبو جعفر النحاس : معانى القرآن : ١٢ و . (٢) أبو جعفر النحاس : إعراب القرآن : ٢٤ .
(٣) السيوطى : الإتقان – ٢ : ٣٦ .

ثم يذكر أبو جعفر أن الأخفش قال : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » : يحكم بأنهم كذلك . تقول : قد أخرجكم الله من هذا الأمر ولم تكونوا فيه قط .

ولايعجب هذا التفسير أبا إسحاق – الزجاج – الذى يقول : ليس هذا بشىء . إنما هو يزيدهم بإيمانهم هدى . وهو وليهم فى نجاحهم وهدايتهم ، وفى نصرهم على عدوهم ، ويتولى ثوابهم[١] .

وفى الآية التالية (٢٥٨) من السورة نفسها : « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه » يحس أبو جعفر أن فى الكلام معنى التعجب ، أى : اعجبوا له[٢] . وهذا ماعرفه البلاغيون المتأخرون باسم خروج الاستفهام عن غرضه الحقيقى .

إلى جانب هذه الخطوط الرئيسية التى تعطى تفسير أبى جعفر طابعه الخاص إلى حد كبير نستطيع أن نتميز خطوطاً أخرى تجىء فى الدرجة الثانية وتشترك بين تفسير أبى جعفر وغيره من التفاسير .

يستعين أبو جعفر على تحديد المعنى بالقراءات . وهى أكثر من أن تحصر إذ لا تكاد صفحة من تفسيره تخلو منها[٣] . ففى تفسير الآية ٢٨٠ من سورة البقرة : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة » يورد ما ذهب إليه إبراهيم من أنها نزلت فى الربا ، وما ذهب إليه الربيع بن خُثَيم – الكوفى ، ت قبل ٩٠ هـ – من أنها لكل معسر يُنظر . وقول ابن خُثَيم ، عند أبى جعفر ، حسن لأن القراءة بالرفع بمعنى : وإن وقع ذو عسرة من الناس أجمعين ، فإن كان فيمن تطالبون أو تبايعون ذو عسرة ولو كان فى الربا خاصة لكان النصب الوجه . بمعنى : وإن كان الذى عليه الربا ذا عسرة . على أن المعتمد قد روى عن حجاج الوراق قال : فى مصحف عثمان : « وإن كان ذا عسرة » . والمعنى : فعليكم النظرة ، أى التأخير ، إلى أن يوسر[٤] .

وفى تفسير الآية ٢٨٥ من السورة نفسها : « لا نفرق بين أحد من رسله » يقول أبو جعفر :

---

(١) أبو جعفر النحاس : معانى القرآن : ٢٧ ظ . (٢) المصدر نفسه : ٢٧ ظ .

(٣) راجع ، على سبيل المثال ، : معانى القرآن : ١ ظ ، ٢ ظ ، ٣ظ – ٤ و ، ١٢ و ، ١٣و ، ١٤ ظ ، ١٧ظ ، ١٩ ظ ، ٢١ و ، ٢٦ و ، ٢٧ ظ ، ٣٢ ظ ، ٣٣ و ، ٣٣ ظ .

(٤) المصدر نفسه : ٣١ و .

روى عن ابن مسعود ، وابن عباس ، ويحيى بن يعمر أنهم قرءوا : « لايفرق » بمعنى : كل لايفرق أى لا يفرق الرسول والمؤمنون بين أحد من رسله . ومن قرأ بالنون فالمعنى عنده : قالوا : لانفرق بين أحد من رسله ، أى : لانؤمن ببعض ونكفر ببعض . ويدل على النون : « ربنا »[1]

ويعنى أبو جعفر أيضاً بذكر أسباب النزول[2] .

كما يعنى ببيان الآيات المنسوخة[3] . ونحن نعلم أن له كتاباً كاملا فى ناسخ القرآن ومنسوخه .

ويتوقف أبو جعفر أحياناً عند المسائل الفقهية[4] .

كما يحاول أن يحدد ما يعرف باسم مبهمات القرآن[5] .

وهو لا يرى بأساً فى أن يوضح تفسيره بشىء من القصص والإسرائيليات[6] .

وأخيراً يبقى علينا أن نقول إن أبا جعفر ينفذ منهجه هذا فى التفسير الذى فرغنا من رسم خطوطه فى إطار المنهج النقلى والالتزام الكامل به . أى أن تفسيره يدخل برمته فى دائرة التفسير الأثرى . ووجهة نظره فى ذلك واضحة . فالتفسير المأثور عن النبى يبلغ عنده من الحجية درجة توازى درجة حجية القرآن نفسه ، فقد أجمع الجميع على أن القرآن إذا نزل بلفظ مجمل ففسره رسول الله ﷺ وبينه كان بمنزلة القرآن المتلو[7] .

أما التفسير المأثور عن الصحابة – وأبو جعفر يروى عنهم لمثل : ابن مسعود . على ، ابن عباس – فإن أهل العلم على أنه إذا قال رجل من الصحابة شيئاً لم يسمع خلافه إلا إلى صحابى مثله ، ولاسيما وهم حاضرو التنزيل ، والحاضر يعلم لمشاهدته الكلام مالا يعلمه الغايب[8] . أما المفسرون الأولون – ويبدو أن أباجعفر يقصد بهم من نقل عنهم ممن مارس التفسير وعرف به من التابعين ، مثل : يحيى بن يعمر

---

(١) المصدر نفسه / ٣٣ ظ .

(٢) المصدر نفسه : ١٣ و ، ١٣ ظ ، ١٥ ظ ، ٢٩ ظ .

(٣) معانى القرآن : ٥ ظ ، ١٥ ظ ، ١٧ و ، ٢٤ و على سبيل المثال .

(٤) المصدر نفسه : ١٦ و ، ٣١ ظ .

(٥) المصدر نفسه : ٢٧ ظ . ، ٢٨ ظ .

(٦) المصدر نفسه : ٢ ظ ، ١١ ظ ، ٢٧ ظ – ٢٨ و .

(٧) أبوجعفر النحاس : الناسخ والمنسوخ : ٦ .

(٨) أبوجعفر النحاس : القطع والائتناف :

(ت ٨٩ هـ) ، سعيد بن جبير (ت ٩٤ هـ)،سعيد بن المسيب (ت ٩٤هـ)، مجاهد (ت ١٠٣ هـ)، الشعبي (ت ١٠٤ هـ)، عكرمة (ت ١٠٥ هـ)الضحاك ابن مزاجم (ت ١٠٥ هـ) الحسن البصري (ت ١١٠هـ) ،عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤ هـ)، قتادة (ت ١١٧ هـ) ، ومحمد بن كعب القرظي(ت ١١٧هـ)، هؤلاء المفسرون لايطلق لأحد أن يخرج عن جملتهم فيما قالوه وإن كان قوله محتملا ، لأن ذلك محظور في كتاب الله عز وجل ؛ ومن يفعل ذلك يكن قوله شاذاً[1]. وفي الجملة فإن الجهل بقول أهل التفسير ، والاجتراء على كتاب الله تعالى ، وحمله على المعقول من غير علم بأقاويل المتقدمين يؤدي إلى الغلط العظيم[2].

وفي تفسير أبي جعفر تنتشر الرواية عن النبي والصحابة والتابعين بما يغني عن النص على مواضعها . ولكن يجب أن ننتبه إلى أن هؤلاء ليسوا كل مصادر أبي جعفر في التفسير ، فهو كثيراً ما يأخذ عن علماء اللغة والنحو والقراءات — وكانت لهم جهود قيمة في دراسة القرآن — من مثل: الخليل بن أحمد (ت١٧٥هـ)، سيبويه (ت ١٧٧ هـ) ، الكسائي (ت ١٨٩ هـ) ، الفراء (ت ٢٠٧ هـ)، أبي عبيدة (ت ٢١٠ هـ)، أبي زيد الأنصاري (ت ٢١٤ هـ) ، أبي عبيد (ت ٢٢٤ هـ)، المبرد (ت ٢٨٥ هـ)، ثعلب (ت ٢٩١ هـ)، ابن كيسان (ت ٢٩٩ هـ)، وأبي إسحاق الزجاج (ت ٣١١ هـ)[3].

غير أننا نلحظ أن أبا جعفر لا يذكر سند رواياته كاملا إلا في أحيان قليلة، فهو يميل عادة إلى الاستغناء عنه مكتفياً بالنص على صاحب القول وحده . وفي أحيان أخرى لا يذكر أكثر من : قال بعض المفسرين ، أو : قال أهل التفسير ، أو : أكثر أهل التفسير على أن المعنى . . . ، أو : وقال غيره ، أو : وقيل[4].

وفي كتابه « القطع والائتناف » يتبع أبو جعفر طريقة طريفة لاختصار الأسانيد بما يريحه من تكرارها من جهة ويبرئ ذمته إلى القارئ من جهة أخرى . فيذكر في أول الكتاب السلاسل الكاملة لكل الأسانيد التي سيروي عنها في كتابه

---

(١) أبوجعفر النحاس : إعراب القرآن : ٣٣٠ والقطع والائتناف :

(٢) أبوجعفر النحاس : الناسخ والمنسوخ : ١٠٩ .

(٣ و ٤) لا داعي للنص على مواضع ذلك لكثرتها .

والتي سيجتزئ منها بالصاحب الأول للنص ، فيقول تحت عنوان : باب ذكر الأسانيد لما في هذا الكتاب :

كل ما قلنا فيه : قال نافع ، فإنا كتبناه عن أبي جعفر أحمد بن عبد الله بن محمد بن هلال المقرئ ، يرويه عن إسماعيل بن عبد الله المقرئ وأشعب بن سهل عن أحمد بن محمد عن سقلاب عن نافع بن أبي نعيم .

وكل ما قلنا فيه : قال يعقوب ، فهو عن هارون بن عبد العزيز عن أبي القاسم العباس بن الفضل المقرئ عن أحمد بن يزيد المقرئ عن زيد ابن أخي يعقوب الحضرمي عن يعقوب .

وما قلنا فيه : قال أبو حاتم، فهو عن عبد الله بن الفرج – يعرف بابن أبي روح – عن أبي حاتم « . . .

. . . . . . وإن ذكرنا غيرهم بينا ذلك في السور إن شاء الله[1].

يبدو أبو جعفر في التزامه الشديد بالمنهج النقلي سلفيًّا متعنتاً ، ولاسيما إذا قورن إلى الشافعي الذي رأيناه يحمل أعمق الاحترام للعقل ، أي التفكير المستقل ، بل إلى عبد الرحمن بن زيد الذي أبدى قدراً غير قليل من النزوع إلى الاعتماد على الفهم الذاتي في معالجة النص المقدس.

غير أن أبا جعفر يخرج عن تزمته إذا تعلق الأمر باللغة والنحو ، فيناقش كبار الرجال في صوت حاد . ويصدر عليهم أشد الأحكام . فيصف أقوال الفراء (ت ٢٠٧ هـ) بأنها غلط قبيح [٢] ، أو من أقبح الغلط [٣] . وقد يشتد إنكاره فيصيح :وهذا عظيم من القول[٤] . ويصف كلام أبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) بأنه غلط بيّن[٥] . ويقول مرة : وهذا مردود من كلام أبي عبيد[٦]. وفي أحد المواضع يصف رأى أبي حاتم السجستاني (ت ٢٥٠ هـ) بأنه غلط بين كذلك[٧].

---

(١) راجع : ص ٢٩ .
(٢) أبوجعفر النحاس : إعراب القرآن : ١٩ ، ٣٢٣ .
(٣) المصدر نفسه : ١٤٣ .
(٤) المصدر نفسه : ٣٣٤ .
(٥) المصدر نفسه : ١٠ .
(٦) المصدر نفسه : ٢١ .
(٧) المصدر نفسه : ٣١٩ .

وفى كتاب معانى القرآن تقابلنا عبارات كهذه :
والقول الثانى خطأ[١] ، وهذا القول مرغوب عنه[٢] ، والقولان خطأ[٣].
غير أن أبا جعفر يعرف فى الوقت نفسه كيف يقول :
وهذا حسن[٤] — وهو قول حسن[٥] — القول الأول حسن إلا أن فيه شيئاً[٦] — وفى الآية قول آخر حسن[٧] — وهذا القول أحسنها وأجمعها[٨] — إلخ .

ولكى يكتمل الحديث عن أبى جعفر مفسراً لابد من الإشارة إلى أنه تعرض للتفسير فى مؤلفاته الأخرى عن القرآن . وقد استمعنا إليه ينص صراحة فى مقدمة كتابه « إعراب القرآن » على أنه سيذكر — فيما يذكر فيه من إعراب ، وقراءات وخلافات نحوية ، ولغات — ما يحتاج إليه من المعانى ، وما أجازه بعضهم ومنعه بعضهم . وزيادات فى المعانى وشرحاً لها[٩] . وهذا مثال من إعرابه سورة طه :

— « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » : (آية : ٢) :

بعض النحويين يقول : هذه لام النفى . وبعضهم يقول : لام الجحود . قال أبو جعفر : وسمعت أبا الحسن بن كيسان يقول فى مثلها : إنها لام الخفض . والمعنى : ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى[١٠] . والشقاء يمد ويقصر ، وهو من ذوات الواو .

— « إلا تذكرة لمن يخشى » : (آية ٣) :

---

(١) أبوجعفر النحاس : معانى القرآن : ١ ظ .
(٢) المصدر نفسه : ٢ و .
(٣) المصدر نفسه ٢٨ : و .
(٤) أبوجعفر النحاس : إعراب القرآن : ٢٨ .
(٥) المصدر نفسه : ٤١ أو معانى القرآن : ٢ و .
(٦) أبوجعفر النحاس : إعراب القرآن : ١٤٢ .
(٧) أبوجعفر النحاس : معانى القرآن : ١٢ و .
(٨) المصدر نفسه : ٢٥ و .
(٩) أبوجعفر النحاس : إعراب القرآن : ٢ .
(١٠) الأرجح أنها : لتشقى . يقوى ذلك ما بعدها .

قال أبو إسحاق : هو بدل من يخشى . أى : ما أنزلناه إلا تذكرة .

قال أبو جعفر : وهذا وجه بعيد . والقريب أنه منصوب على المصدر ، أو مفعول من أجله .

— « تنزيلا » : (آية ٤) :

مصدر .

« ممن خلق الأرض والسموات العلى » : (آية : ٤) :

ولا يجوز عند الخليل وسيبويه أن يأتى مثل هذا إلا بالألف واللام ؛ وهو قول الكوفيين وقال محال (؟): سقطت له ثنيتان (١) علييان لاسفليان ؛ لأنه إنما يراد به المعرفة . فإن أردت النكرة وتفضيل شىء على شىء حيث عنّ قلت : سقطت له ثنية أعلى من كذا .

— « الرحمن على العرش استوى » : (آية : ٥) :

ويجوز النصب على المدح . قال أبو إسحاق : ويجوز الخفض على البدل من : مَنْ . وقال سعيد بن مسعدة : الرفع بمعنى : هو الرحمن .

قال أبو جعفر : ويجوز الرفع بالابتداء ، وعلى البدل من المضمر الذى فى « خلق [٢] » .

قال أبو جعفر فى مقدمة إعراب القرآن : وقصدنا فى هذا الكتاب الإعراب وما شاكل [٣] . وبالرغم من أنه يبدو فى المثال الذى عرضناه — مثله مثل سائر الكتاب — أن الإعراب هو المهمة الأساسية . فإنه واضح كذلك أن هناك علاقة متبادلة بين الإعراب والتفسير . فالإعراب يعين على الفهم فى نفس الوقت الذى يعتمد فيه على الفهم .

لما كان المسلم فى حاجة إلى أن يقرأ القرآن كان بالتالى فى حاجة إلى أن يعرف متى يقف وقفاً تاما ، ومتى يقف وقفاً كافياً أو صالحاً ، وما يحسن الابتداء به ، وما يجتنب من ذلك [٤] . وقد اتخذ أبو جعفر من هذه المسائل موضوعاً لكتابه

---

(١) الثنية : من الأضراس : الأربع التى فى مقدم الفم ، ثنتان من فوق ، وثنتان من أسفل . القاموس المحيط .

(٢) أبو جعفر النحاس : إعراب القرآن : ١٣٩ .

(٣) انظر ص : ١٤ .

(٤) أبو جعفر النحاس : القطع والائتناف :

« القطع والائتناف » . وفى باب « ما يحتاج إليه من حقق النظر فى التمام » من هذا الكتاب ينص أبو جعفر على أن من شروط من يقوم بالتمام ، أو صاحب علم التمام ، أن يكون عالما بالتفسير إلى جانب علمه بأمور أخرى مثل : النحو ، القراءة ، اللغة ، والقصص[١] .

قال أبو جعفر : فقد صار فى معرفة الوقف والائتناف التفريق بين المعانى . فينبغى لقارئ القرآن إذا قرأ أن يتفهم ما يقرؤه ، ويشغل قلبه به . ويتفقد القطع والائتناف ، ويحرص على أن يفهم المستمعين فى الصلاة وغيرها . وأن يكون وقفه عند كلام مستغن أو شبيه به ، وأن يكون ابتداؤه حسناً . . قال أبو جعفر : فيحتاج القارئ أن ينظر أين يقطع وكيف يأتنف . فإن من الوقف ما هو واضح مفهوم معناه ، ومنه مشكل لا يدرى إلا بسماع وعلم بالتأويل[٢] .

وهذه أمثلة من ذلك الكتاب :

— « النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » (البقرة : ٢٤) : « التى وقودها الناس والحجارة » وقف حسن . ويكون « أعدت » مستأنفاً .

قال أبو جعفر : وقد غلط أبو حاتم فى هذا لأنه لم يجز الوقف على « والحجارة » وزعم أن « أعدت » داخل فى الصلة ، وشبهه بالذى فى آل عمران : « واتقوا النار التى أعدت للكافرين » (آية : ١٣١) . وهذا غلط بيّن ، لأن التى فى آل عمران لم يجئها صلة قبل « أعدت » ، وليس كذا الذى فى هذه السورة .

« أعدت للكافرين » : قطع تام[٣] .

— وقال الأخفش : إن شئت وقفت : « مثلا ما بعوضة » (البقرة : ٢٦) . وقال أبو حاتم : والتمام : « فما فوقها » .

قال أبو جعفر : هذا أصح الأقوال . وأما أن تقف على « مثلا » فخطأ ، لأن « ما » إن كانت زائدة للتوكيد فالابتداء بها ، وإن كانت بمعنى الذى ورفعت

---

(١) المصدر نفسه : ٧ ، ٨ .
(٢) المصدر نفسه : ٨ – ٩ .
(٣) المصدر نفسه : ١٨ .

« بعوضة » فهى بدل من : مثل . وكذا إن كانت نكرة . ومَثَل ومِثْل ، واحد . والمعنى — والله أعلم : إن الله لايخشى أن يبين شبها . ومَثَل ومِثْل، مثل : شَبَه وشبه ، كما قال :

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا وما مواعيده إلا الأباطيـــل

والقطع على « ما » لعمرى حسن ، كما قال :

لشيء ما يُسود من يسود[1]

— « والذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته » (البقرة : ١٢١) :

ليس بقطع كاف ، ولا يجوز الوقف عليه ، لأنه يصير المعنى أن الذين أوتوا الكتاب يتلونه حق تلاوته . وهذا انقلاب . وإنما المعنى — والله أعلم — : الذين آتيناهم الكتاب — وهذه حالهم — أولئك يؤمنون به . فهذا الوقف . والتمام « هم الخاسرون »[2].

(الآية كاملة : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته أولئك يؤمنون به . ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ») .

— « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا » (آل عمران : ١٣٧) :

ليس بتام لأنه متعلق بما بعده ، يدلك على ذلك التفسير . قال مجاهد : سنن : فى المؤمنين والكافرين . وقال غيره : سنن : أمثال .

والسنن فى العربية جمع : سنة ، وهو المثال الذى يقتدى به ، والأمر الذى يؤتم به كما قال لبيد :

من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قــوم سنة وإمامهــا

ويقال : سن فلان سنة حسنة وسنة قبيحة[3].

— قال يعقوب — الحضرمى (ت ٢٠٥ هـ)— :

قوله جل وعز : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه » (النساء : ٦٦) ، قال : فهو الوقف الكافى . وزعم أنه يرفع « إلا قليل منهم ؛ » على لغة من قال : أكلونى البراغيث . قال: ومنهم من يقول :

---

(١) أبوجعفر النحاس : القطع والائتناف : ١٨ .
(٢) المصدرنفسه ؟ : ٣٠ .
(٣) المصدرنفسه : ٥٤ .

المعنى : ما فعله إلا قليل منهم . قال : « وما فعلوه » بمعنى : ما فعله . قال : ومنهم من يقول : هو مثل قول الشاعر :

في ليلة ما ترى بها أحـداً　　يحـكي علينا إلا كواكبها

قال أبو جعفر : هذا كله تخليط ، لا يجوز الوقف على « ما فعلوه » ، كما لا يجوز الوقف على قوله جل وعز : « فلبث فيهم ألف سنة » (العنكبوت : ١٤). وتشبيه إياه بقولهم : أكلوني البراغيث ، خطأ ، لأن هذه لغة شاذة قليلة لا يحمل عليها كلام الله جل وعز . قال سيبويه : واعلم أن من العرب من يقول : ضربوني قومك ، وضرباني أخواك . شبهوا هذا بالتاء التي يظهرونها في : قالت فلانة . كأنهم أرادوا أن يجعلوا للجميع علامة كما جعلوا للمؤنث . قال : وهي قليلة .

قال أبو جعفر : وقوله : « ما فعلوه » بمعنى : ما فعله ، كلام غير محصل ، ولا يجوز مثله . وأما البيت الذي أنشده فقد أنشده سيبويه ، وهو لعدي بن زيد (ت ٥٩٧ م) ، وليس مثل الآية ، لأن الاختيار في « إلا كواكبها » النصب لولا أنه في الشعر على البدل من أحد . والاختيار في الآية الرفع عند رؤساء النحويين . قال سيبويه : حدثني يونس عن أبي عمرو قال : الوجه : ما جاءني القوم إلا عبد الله .

قال أبو جعفر : وقد قرأ ابن عامر وعيسى : « ما فعلوه إلا قليلا منهم » ، فتركا الوجه والذي عليه أكثر المصاحف .

والقول : إن الوقف الكافي « ما فعلوه إلا قليل منهم » ، وليس بتام[1].

تكفي هذه الأمثلة لتبين مدى اعتماد أبي جعفر على التفسير في تحديد مواضع الوقف والابتداء عند قراءة القرآن . وهذا طبيعي تماماً في أمر كهذا يتوقف على الفهم بصفة أساسية .

مثلما احتاج أبو جعفر إلى التفسير — أي الفهم — في الكتابين أو الدراستين السابقتين احتاج إليه في كتابه الآخر الهام : الناسخ والمنسوخ . وتقدم دراسته للآية الثانية من سورة المائدة : « يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ، ولا الشهر الحرام ولا الهدى ، ولا القلائد ، ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا » .

---

(١) أبو جعفر النحاس : القطع والائتناف : ٦٢ .

وإذا حللتم فاصطادوا . ولايجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا .وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان . واتقوا الله . إن الله شديد العقاب » مثالا واضحاً لاعتماده على التفسير فى هذا الجانب من الدراسات القرآنية .

قال أبو جعفر :

قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ، ولا الشهر الحرام، ولا الهدى ، ولا القلائد . ولا آمين البيت الحرام » .

ذهب جماعة من العلماء إلى أن هذه الأحكام الخمسة منسوخة . وذهب بعضهم إلى أن فيها منسوخاً . وذهب بعضهم إلى أنها محكمة .

فمن ذهب إلى أنها منسوخة قتادة ، وروى ذلك عن ابن عباس . حدثناه أحمد بن محمد بن نافع قال : حدثنا سلمة قال : حدثنا عبد الرزاق : قال : أنبأنا معمر عن قتادة فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ، ولا الشهر الحرام ، ولا الهدى، ولا القلائد ، ولا آمين البيت الحرام » قال : منسوخ ؛كان الرجل فى الجاهلية إذا خرج يريد الحج تقلد من السَّمُر فلا يعرض له أحد . وإذا تقلد قلادة شعر لم يعرض له أحد . وكان المشرك يومئذ لايصد عن البيت الحرام . فأمر الله أن لا يقاتل المشركون فى الشهر الحرام ولا عند البيت . ثم نسخها قوله تعالى : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» (التوبة : ٥).

قال أبو جعفر : وحدثنا بكر بن سهل قال : حدثنا أبو صالح عن معاوية ابن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : وقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ، ولا الشهر الحرام ، ولا الهدى ، ولا القلائد ، ولا آمين البيت الحرام » : فكان المؤمنون والمشركون يحجون إلى البيت جميعاً ، فنهى أن يمنع أحد من الحج إلى البيت من مؤمن وكافر . ثم أنزل الله بعد هذا : « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » (التوبة : ٢٨) . وقال جل ذكره : « إنما يعمر مساجد الله » (التوبة : ١٨). فنفى المشركون من المسجد الحرام .

وبهذا الإسناد : « لا تحلوا شعائر الله » : كان المشركون يعظمون أمر الحج ، ويهدون الهدايا إلى البيت ، ويعظمون حرمته ، فأراد المسلمون أن يغيروا ذلك ،

فأنزل الله عز وجل : « يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » .

فهذا على تأويل النسخ فى الأحكام الخمسة بإباحة قتال المشركين على كل حال ومنعهم من المسجد الحرام .

فأما مجاهد فقال : لم ينسخ منها إلا القلائد . كان الرجل يتقلد بشىء من لحا الحرم فلا يقرب . فنسخ ذلك .

قال أبو جعفر : وهذا على مذهب أبى ميسرة أنها محكمة .

وأما عطاء فقال : « لا تحلوا شعائر الله » أى : لا تتعرضوا لما يسخطه ، وابتغوا طاعته ، واجتنبوا معاصيه . فهذا لانسخ فيه .

وهو قول حسن ، لأن واحدة الشعائر شعيرة (كذا) ، من : شعرت به أى : علمت به . فيكون المعنى : لا تحلوا معالم الله وهى أمره ونهيه ، وما أعلمه الناس فلا تخالفوه .

وقد روى عن ابن عباس : الهدى : مالم يقلد وقد عزم صاحبه على أن يهديه . والقلائد : ما قلد .

فأما الربيع بن أنس فتأول معنى : « ولا القلائد » : أنه لايحل لهم أن يأخذوا من شجر الحرم فيتقلدوه . وهذا قول شاذ بعيد . وقول أهل التأويل : إنهم نهوا أن يحلوا ما قلد فيأخذوه ويغصبوه . فمن قال : هذا منسوخ ، فحجته بينة ، أن المشرك حلال الدم وإن تقلد من شجر الحرم . وهذا بيّن جيد .

وفى هذه الآية مما ذكر أنه منسوخ قوله عز وجل : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » .

قال عبد الرحمن بن زيد : هذا كله منسوخ . نسخه الجهاد .

قال أبو جعفر : ذهب ابن زيد إلى أنه لما جاز قتالهم لأنهم كفار جاز أن يعتدى عليهم ويبدءوا بالقتال .

وأما غيره من أهل التأويل فذهب إلى أنها ليست بمنسوخة . فممن قال ذلك: مجاهد . واحتج بقول النبى ﷺ : لعن الله من قتل بذحل فى الجاهلية . فأهل التأويل وأكثرهم متفقون على أن المعنى : ولا يحملنكم إبغاض قوم لأن صدوكم عن المسجد الحرام يوم الحديبية على أن تعتدوا . لأن سورة المائدة نزلت بعد يوم

الحديبية ، فالبين على هذا أن نقرأ : « أن صدوكم » بفتح الهمزة لأنه شيء قد تقدم[١] .

أما بعد — فإن هذه الكتب الأربعة لأبي جعفر النحاس — معاني القرآن ، إعراب القرآن ، القطع والائتناف ، الناسخ والمنسوخ — متداخلة متكاملة ، يخدم بعضها بعضا ، وتخدم جميعها القرآن آخر الأمر بما تعين على فهمه وتساعد على الإفادة منه . وقد لا يكون بعيداً أن نفترض أن أبا جعفر ألف هذه الكتب الأربعة — ويبدو أنها كل ما ألف في القرآن[٢] — وفقاً لخطة مدروسة ، وتحقيقاً لهدف مقصود هو تكوين مكتبة مصرية متكاملة في الدراسات القرآنية . وأيًّا كان الأمر فإن هذه الكتب بعامة ، وكتاب معاني القرآن منها بخاصة ، تهيئ لأبي جعفر أن أن يتبوأ في تاريخ التفسير بمصر ، في الفترة التي ندرسها ، الذروة التي بلغها المفسر المصري من حيث النضج العلمي واكتمال الشخصية ووضوحها .

وما مر من طريقة أبي جعفر في تفهم القرآن وممارسة تفسيره يشهد في وضوح بأنه لا يربط نفسه إلى مدرسة بعينها ، فهو يروى عن النبي ، وعن الصحابة ، وعن التابعين من كل الأمصار ، والعلماء من جميع المدارس . على أن هذا الاتجاه نفسه ليس آخر الأمر سوى اتجاه مدرسة بغداد ، تلك المدرسة التي جمعت أقوال كل المدارس السابقة ، وقارنت بينها ، واختارت منها ، والتي أطلقنا عليها فيما يتعلق بالقراءات في الباب السابق اسم : مدرسة كل القراءات . ونستطيع أن نطلق عليها هنا اسم : مدرسة كل التفاسير .

على أن أبا جعفر يلتزم في تفسيره بمبدأين رئيسيين بارزين : أولهما : النقل . وقد بينا فيما مضى[٣] كيف أن التفسير المقبول عنده هو التفسير المأثور دون غيره . وثانيهما : الاتفاق مع اللغة السليمة شعرها ونثرها . وفي النماذج التي قدمنا من تفسيره ما يوضح هذا . وينبغي هنا أن نضيف أن أبا جعفر في استعانته بالشعر على تفهم الأسلوب القرآني يشترط ألا يحمل كتاب الله على ما يرد في هذا الشعر

(١) أبوجعفر النحاس : الناسخ والمنسوخ : ١١٥ — ١١٦ .
(٢) له كذلك كتاب « اللامات » . انظر : ابن الجزرى :
(٣) انظر ص ٤١٦ من هذا البحث .

من شذوذ[١] أو ضرورة[٢] . كما أنه فى محاولاته توضيح بعض أسرار البيان القرآنى ينص على أن الواجب أن يحمل تفسير كتاب الله جل وعز على الظاهر من المعانى إلا أن يقع دليل على غير ذلك[٣] .

وأخيراً فإننا لانملك إلا التعبير عن الإعجاب العميق والاحترام الحقيقى لهذا العالم المصرى الجليل الذى استطاع أن يبلغ ذلك المستوى الكبير من التمكن من علوم اللغة والنحو والقراءات ليستخدمها بكفاءة بارزة وقدرة أصيلة فى فهم القرآن وتفسيره .

ولسنا نشك فى أن نشر كتب أبى جعفر الثلاثة المخطوطة (المعانى[٤] ، والإعراب ، والقطع) ، وإعادة نشركتابه المطبوع (الناسخ والمنسوخ) ضرورة علمية بالنسبة إلى تاريخ حركة الدراسات القرآنية بمصر ، وواجب ثقافى بالنسبة إلى حياتنا الفكرية العامة ، وواجب قومى بالنسبة إلى هذا العالم المصرى العربى العظيم .

ح – أبو بكر الأدفوى (٣٠٤ – ٣٨٨ هـ) :

بالرغم من أن أبا بكر الأدفوى ، محمد بن على بن أحمد، توفى بعد انتهاء الفترة التى ندرسها بثلاثين عاما فإنه قد أمضى فى منطقة بحثنا ، التى تبدأ بالفتح العربى سنة ٢٠ هـ وتنتهى بدخول الفاطميين سنة ٣٥٨ هـ ، أكثر من نصف قرن ، أو أربعة وخمسين عاما على وجه التحديد . هذا إلى أنه التلميذ المباشر والأكبر لأبى جعفر النحاس ، فقد صحبه ، وأخذ عنه وأكثر ، وروى كل تصانيفه ، وأصبح نحويًّا ومفسراً مثله .

ولم يكن أبو جعفر الأستاذ الوحيد فى حياة تلميذه أبى بكر فقد أخذ عن غيره من أهل العلم والقرآن والحديث والعربية ، ولا شك فى أن ذكرى

---

(١) أبو جعفر النحاس : إعراب القرآن : ١٤٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٢٣ – ٣٢٤ .

(٣) المصدر نفسه : ٣١٨ .

(٤) ذكر بروكلمان : تاريخ الأدب العربى – ٢ : ٢٧٦ أنه قد تقرر طبع هذا التفسير فى حيدر آباد .

أبي بكر كانت ماتزال حية قوية فى دوائر الفسطاط العلمية عندما زارها عام ٣٩٧هـ[١]، أى بعد وفاته بتسع سنوات فقط ، العالم الأندلسى الدقيق أبو عمرو الدانى (ت ٤٤٤هـ) الذى وصف أبا بكر بالانفراد بالإمامة فى قراءة نافع ، وسعة العلم ، وبراعة الفهم ، اللهجة ، وحسن الاطلاع ، والتمكن من علم العربية ، والبصر بالمعانى . فى حين وصفه غيره بأنه كان من أهل الدين والصلاح . والأدب والعلم .

وانتهى الأمر بهذا العالم الصعيدى الذى نزح عن مسقط رأسه أدفو ليقيم بمصر ، أى الفسطاط ، إلى أن أصبح سيد أهل عصره ، فى مصره وغير مصره . وقرأ عليه الأجلاء ، واعتاد على مجلسه الرؤساء والفضلاء . وبالرغم من ذلك كله لم يتكسب أبو بكر بعلمه فقد كان خشاباً يتجر فى الخشب . ولما مات دفن بالقرافة حيث ظل قبره معروفاً يزار حتى القرن التاسع الهجرى .

برع أبو بكر فى علوم القرآن . ويبدو أنه قد سجل كل ما حصله من هذه العلوم ، تفسيراً كانت أو قراءة أو غيرهما فى كتاب ظل يعمل فيه اثنتى عشرة سنة وسماه : « الاستغناء فى عاوم القرآن » . مما يوحى بأنه أراد له أن يكون دائرة قرآنية تغنى عن كل ما عداها فيما يتعلق بالقرآن . يرجح ذلك ضخامة هذا الكتاب ، فقد بلغ مائة وعشرين مجلداً أو مائة فقط فى الأقل .

ووصف القفطى (ت ٦٤٦ هـ) كتاب الاستغناء هذا بأنه أكبر كتاب صنف فى التفسير ، جمع فيه من العلوم مالم يجتمع بغيره . وذكر أن القاضى الفاضل (ت ٥٩٦ هـ) وقف نسخة منه على مدرسته بالقاهرة المعزية حيث رآه القفطى مذكوراً فى فهرست مكتبتها . وذكر الذهبى (ت ٧٤٨ هـ) أن هذا الكتاب موجود بالقاهرة . ولعل هذا الكتاب هو نفس كتاب التفسير الذى ذكر ياقوت أنه فى خمسة مجلدات كبار . ومن المؤسف أن هذا الكتاب قد ضاع . وربما قد أهمله الناس بسبب ضخامته .

وإذا عرفنا أن أبا بكر الأدفوى فى تلمذته على أبى جعفر النحاس قد حمل عنه كتبه ، وروى عنه كتابه معانى القرآن — وإن كان فاته عليه من سورة الحشر — كان لنا أن نتوقع أنه سجل فى كتابه هذا الكبير كل ما روى عن أستاذه من كتبه

---

(١) ابن الجزرى : غاية — ١ : ٥٠٣ .

التى ألفها فى الدراسات القرآنية[١].

وهكذا نفرغ من أولئك الرجال المصريين الذين صحبناهم فى رحلتهم الطويلة عبر الزمن، ورأينا إليهم وهم يحملون على عواتقهم ذلك العبء النبيل : عبء تفهم الكتاب الكريم . واستيعاب ما ورد فيه ، ونقله إلى الآخرين ، والإضافة — كلما أمكن — إليه .

ويبقى علينا أن ننظر فيمن قدم إلى مصر من هذا الطراز من الرجال ، فأخذ عن علمائها . أو أخذوا هم عنه .

٣ — المفسرون الوافدون

أ — من الأندلس :

فيما بين ٢٠٨ — ٢١٦ هـ دخل مصر عالم أندلسى يدعى عبد الملك بن حبيب ابن سليمان السلمى (ت ٢٣٨ هـ) ، كان جماعاً للعلم ، كثير الكتب ، طويل اللسان ، فقيه البدن ، نحوياً ، عروضياً ، شاعراً ، نسابة ، خبرياً ، صواما ، قواما ، كان أكثر من يختلف إليه الملوك وأبناؤهم ، وأهل الأدب . وكان لا يلى إلا معالى الأمور .

لما رحل عبد الملك سنة ٢٠٨ هـ قال بعضهم إنه لأفقه ممن يريد أن يأخذ عنه العلم ، فقد كان ينظر إليه لا على أنه عالم الأندلس فحسب بل عالم الدنيا . وأيًّا كان الأمر فقد أخذ عبد الملك بمصر فى رحلته تلك عن نفر من كبار العلماء المصريين مثل : أسد بن موسى المعروف بأسد السنَّة (ت ٢١٢ هـ) ، عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢١٤ هـ) ، أصبغ بن الفرج (ت ٢٢٥ هـ) .

وقد ألف عبد الملك فى الدراسات القرآنية : إعراب القرآن ، كتاب القارئ ، والناسخ والمنسوخ ، رغائب القرآن ، و— وهو ما يعنينا هنا بصفة خاصة — تفسير القرآن . وكان تفسيراً كبيراً يبلغ ستين كتاباً . ولعله روى فيه عن المصريين[٢] .

---

(١) ياقوت : م . البلدان — ١ : ١٦٨ — ١٦٩ . القفطى : إنباه : — ٣ : ١٨٦ — ١٨٨ . الذهبى : طبقات القراء — ١ : ١١١ . ابن الجزرى : : غاية — ٢ : ١٩٨ — ١٩٩ . السيوطى : بغية : ٨١ .

(٢) ابن فرحون : الديباج : ١٥٥ — ١٥٦ .

وفى حوالى ٢٣١هـ دخل مصر عالم أندلسى آخر جليل هو بقىّ بن مخلد (ت ٢٧٦ هـ) الذى كان ورعاً فاضلا زاهداً ، صواما ، صادقاً ، كثير التهجد ، مجاب الدعوة ، قليل المثل ، بحراً فى العلم ، من الحفاظ المحدثين . وأئمة الدين ، والزهاد المصلحين ، مجتهداً لا يقلد أحداً بل يفتى بالأثر .

كان بقىّ ذا رحلة واسعة فى طلب العلم . رحل مرتين : أقام فى إحداهما نحو العشرين عاما ، وفى الثانية نحو الأربعة عشر عاما . فكان يطوف فى الأمصار على أهل الحديث . فإذا أتى وقت الحج أتى إلى مكة فحج . هذا كان فعله كل عام فى رحلتيه جميعاً . ثم رجع إلى وطنه حيث اشتغل بالتصنيف . وكان أهم ما أنتج كتاب ضخم فى الحديث ، وكتاب آخر ضخم كذلك فى التفسير . ويوصف كتاب التفسير بأنه لم يؤلف فى الإسلام مثله ولا تصنيف محمد بن جرير الطبرى ولا غيره . ولما كان بقىّ من رجال الحديث أصلا ، وكان كل همه فى رحلته أن يسمع من الأئمة وأعلام السنة فمن الطبيعى أن يكون تفسيره أثرياً . ولقد قاومه أهل الرأى بالأندلس عندما عاد إليها ، وسلطوا العامة عليه ، لولا أن بسط أمير الأندلس حمايته عليه وكفل له أن يمارس رواية الحديث . ولا شك فى أنه روى فى تفسيره عن المصريين الذين استمع منهم إلى : يحى بن عبد الله بن بكير (ت ٢٣١ هـ) وأبى الطاهر بن السرج (ت ٢٥٠ هـ)(١).

وممن دخل مصر من الأندلسيين المشتغلين بالتفسير كان يحى بن إسحاق الليثى القرطبى (ت ٣٠٣ هـ)الذى كان متصرفاً فى العربية واللغة والتفسير . ألف الكتب المبسوطة فى اختلاف أصحاب مالك . ورحل فسمع بمصر من محمد بن أصبغ بن الفرج (ت ٢٧٥ هـ)(٢).

ب – من العراق :

كان أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) ذا اهتمام واضح بالدراسات القرآنية ، فقد ألف : غريب القرآن ، معانى القرآن ، المجاز فى القرآن ، كتاب

---

(١) ابن عساكر : ت . دمشق – ٣ : ٢٧٧ – ٢٧٩ . ياقوت : م . الأدباء – ٧ : ٧٥ – ٨١ . الداودى: طبقات المفسرين: ٥١ ظ . بروكلمان : ت . الأدب العربى – ٣ : ٢٠١ - ٢٠٢.
(٢) ابن فرحون : الديباج : ٣٥٣ .

القراءات ، كتاب عدد آى القرآن ، كتاب الناسخ والمنسوخ ، وكتاب فضائل القرآن[١] .

وفى كتابه « معانى القرآن » جمع أبو عبيد ما فى كتب من سبقه من المفسرين مثل : الكسائى (ت ١٨٩ هـ) ، قطرب (ت٢٠٦ هـ) ، الفراء (ت ٢٠٧ هـ) ، أبى عبيدة (ت ٢١٠ هـ) ، والأخفش (الأوسط فى الأرجح . صاحب كتابى : معانى القرآن ، وغريب القرآن ، ت ٢٢١ هـ[٢]) ، وجاء بالآثار والأسانيد ، وتفاسير الصحابة والتابعين والفقهاء[٣] . فهو بذلك تفسير نقل أثرى . ولما كان أبو عبيد قد كتب بمصر فى رحلته إليها سنة ٢١٣ هـ[٤] فمن الطبيعى أن يكون قد حمل عن أهلها شيئاً من التفسير .

كان أبو بكر عبد الله بن أبى داود السجستانى (ت ٣١٦ هـ) ، صاحب كتاب المصاحف ، من أكابر الحفاظ ببغداد . وقد رحل به أبوه — صاحب السنن ، ت ٢٧٥ هـ — من سجستان ، وطاف به شرقاً وغرباً . فدخلا مصر حوالى ٢٤٨ هـ حيث استمع عبد الله إلى : أحمد بن صالح ، عيسى بن حماد زغبة ، محمد بن سلمة المرادى (ت جميعاً ٢٤٨ هـ) ، أبى طاهر بن السرح ، وأبى البيبع الرشدينى (ت ٢٥٣ هـ) المصريين . ولما كان عبد الله قد ألف كتاباً فى التفسير فإنا لانستبعد أنه روى فيه عن المصريين[٥] .

لما دخل ابن جرير الطبرى مصر سنة ٢٥٣ هـ فى رحلته التى قام بها طلباً للعلم لم يأخذ عن علمائها القراءة فقط[٦] ، وإنما أخذ التفسير كذلك . وتفسيره العظيم — جامع البيان — الذى ظل يمليه من سنة ٢٨٣ هـ حتى سنة ٢٩٠ هـ[٧] يشتمل

---

(١) ابن النديم : الفهرست : ٧١ . الخطيب : ت . بغداد — ١٢ : ٤٠٤ — ٤٠٥ . القفطى : إنباه — ٣ : ١٣ ، ٢٢ . الداودى : طبقات المفسرين : ٢٠٠ ، ٢٠٠ ظ .

(٢) بروكلمان : ت . الأدب العرب — ٢ : ١٥٢ .

(٣) الداودى : طبقات المفسرين ٢٠ جـ ١٢٠ ظ .

(٤) ابن حجر : ت . التهذيب — ٨ : ٣١٥ . الداودى : طبقات المفسرين : ٢٠٠ .

(٥) الخطيب : ت . بغداد — ٩ : ٤٦٤ — ٤٦٥ . ابن خلكان : وفيات (ط . النهضة)— ٢ : ١٣٩ .

(٦) انظر ص ٢٣٠ من هذا البحث .

(٧) ياقوت : م . الأدباء — ١٨ : ٤٢ .

على قدر هائل من الروايات المصرية التي حملها في رحلته تلك وضمنها تفسيره إلى جانب الروايات الأخرى . وفى دراستنا تفسير ابن زيد رأينا كيف أن الطبرى حصل عليه فى مصر من يونس بن عبد الأعلى الذى رواه بدوره عن عبد الله بن وهب . وبالرغم من أن معظم ما فى تفسير الطبرى من روايات مصرية قد أخذه عن أستاذه يونس الذى تتلمذ عليه فى القراءات أيضاً فإنه لم يكن المصدر الوحيد لما حصل عليه من روايات مصرية ، ذلك بأنه قد روى أيضاً عن :

محمد بن حميد الرازى (ت ٢٤٨ هـ)[١] ، زكريا بن يحيى بن أبان (ت ٢٥٤ هـ)[٢] ، عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢٥٧)[٣] ، أحمد بن عبد الرحمن بن وهب (ت ٢٦٤ هـ)[٤] ، بحر بن نصر الخولانى (ت ٢٦٧ هـ)[٥] ، محمد بن عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢٦٨ هـ) [٦] ، الربيع ابن سليمان المرادى (ت ٢٧٠ هـ)[٧] ، على بن داود (ت ٢٧٢ هـ)[٨] ، أبى الرداد المصرى عبد الله بن عبد السلام (ت ٢٨٠ هـ)[٩] ، يحيى بن عثمان بن

---

(١) الطبرى : جامع البيان – ٢ : ٢٢ و ٤ : ١٣ و ٦ : ١٢٥ و ١٥ : ١٦٥ و ١٧ : ١٠٥ و ٢١ : ١٦ ، ٤٨ ، ٥٥ و ٢٧ : ١٢ و ٣٠ : ٩ ، ٢٦ .

(٢) المصدر نفسه – ٢ : ٢٣٥ و ١٢ : ٥٣ و ١٥ : ٢٨ .

(٣) المصدر نفسه – ١ : ٢٤٧ و ٢ : ٢٣٣ و ٣٠ : ٢٩ .

(٤) المصدر نفسه – ٢ : ٧٨ ، ١٣٦ و ٣ : ١٦٠ و ٤ : ١٤٤ و ٥ : ٦٩ ، ١٥٧ و ٨ : ٦٢ و ١٦ : ١٦٥ و ٢٠ : ٩٥ و ٢٢ : ٢٧ ، ٢٨ و ٢٦ : ٢١ و ٢٨ : ٦٣ .

(٥) المصدر نفسه – ٢ : ١٧١ و ٥ : ١٩٧ و ١١ : ٢٢ و ١٦ : ١٨ – ١٩ .

(٦) المصدر نفسه – ١ : ١٩١ و ٢ : ٣٣ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٨٢ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٤٣٩ و ٣ : ١١٢ ، ١٢٠ ، و ٤ : ١٣ ، ١٨٨ و ٥ : ٥٧ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ١٤٨ و ٦ : ٨٥ و ٨ : ١٣٠ و ١٠ : ٤٩ و ١٥ ، ٤٩ ، ٩٥ ، ٩٨ و ١٦ : ٨٦ و ١٦٤ و ١٧ : ١١٨ ، ١٢١ و ١٨ : ٧٨ و ٢١ : ٩٥ و ٢٣ : ٩٩ و ٢٥ : ٣٩ و ٢٦ : ١٣ ، ٢١ و ٢٨ : ٥٢ و ٢٩ : ٢٦ ، ١٠٠ و ٣٠ : ٢٠٩ .

(٧) المصدر نفسه – ٢ : ١٢٧ ، ٢٨١ ، ٣٥٣ و ٥ : ١٩٧ و ٦ : ١٦٤ و ٨ : ٧٣ و ١٥ : ١٥٥ و ٢٤ : ١٧ و ٢٧ : ٢٦ و ٣٠ : ٢٠٧ .

(٨) المصدر نفسه – ٢ : ١١٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٧٦ ، ٢١٣ ، ٢١٨ و ١٠ : ١١٩ و ١٥ : ١٠٥ ، ١٦٧ و ١٨ : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ و ٢٢ : ١٣ و ٢٧ : ٦٥ ، ٧٩ ، ١٣٥ و ٣٠ : ١٠٣ ، ٢٢٦ .

(٩) الطبرى : جامع البيان – ٣ : ٩٥ .

صالح (ت ٢٨٢ هـ)[١] ؛ أحمد بن عبد الرحيم البرقى[٢] ، أحمد بن نعمة المصرى[٣] . وسعد بن عبد الله بن عبد الحكم[٤] (من أهل القرن الثالث جميعاً) . وأبى السائب[٥] ، وأبى كريب[٦] . وبشر[٧] (من أهل القرن الثالث كذلك) .

وفى النصف من ربيع الأول سنة ٣٢٠ هـ مات بمصر أبو على محمد بن يونس الواسطى الذى كان قد ولى قضاء الرملة[٨] وقدم إلى مصر فى تاريخ لانعلمه . والذى يعنينا منه أنه كان من أهل العلم باللغة وتفسير القرآن . ولكن مما له أهميته أنه كان ظاهريًّا يرى بالقدر[٩] .

أبو جعفر الكاتب ، أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، هو ابن الكاتب والمؤلف الكبير الشهير ابن قتيبة الدينورى (ت ٢٧٦ هـ) . وقد سمع كل كتب أبيه ، كان أبوه يحفظه إياها فى اللوح ، فحفظها كما : يحفظ القرآن بالنقطة والشكلة . قدم أبو جعفر مصر فى جمادى الآخرة ٣٢١ هـ واليا على قضائها ، ولكنه لم يلبث حتّى مات بها بعد حوالى سنة فى ربيع الأول ٣٢٢ هـ . وفى خلال ذلك الزمن القصير حدّث بكتب أبيه كلها حفظاً إذ لم يكن معه كتاب . ومن هذه الكتب – التى بلغت حوالى واحد وعشرين كتاباً – يعنينا ما يتعلق بالقرآن ، وهى : غريب القرآن ، مشكل القرآن ، معانى القرآن ، إعراب القراءات ، وجلس إلى أبى جعفر وسمع منه خلق كثير عظيم من كبار أهل العلم بمصر ، منهم : أحمد بن ولاد

---

(١) المصدر نفسه – ١ : ٦٧ ، ٧٨ ، ٢٤٦ و ١١، ٧ ٣ و ١٨ ، ٢٠ و ٢٣ : ١١٤ .

(٢) المصدر نفسه – ١ : ٤٨ و ٢ : ١٠٠ و ١٢ : ٧٩ و ١٤ : ١٢٥ و ١٥ : ١٦٦ ، ١٦٧ و ١٦ : ٣٠ ، ١٦٥ و ١٧ : ١١٨ و ٢٠ : ١١ و ٢٦ : ٣٦ و ١٧ : ١٢٧ ، ١٣٠ و ٢٨ : ٨٧ و ٣٠ : ١٣٦ .

(٣) المصدر نفسه – ٢ : ٥٦ .

(٤) المصدر نفسه – ١ : ٢٢٨ و ٨ : ١٠٢ و ١٥ : ١٦٦ و ١٨ : ٩٦ و ٢٠ : ١٦ و ٢٢ : ٢٨ و ٢٤ : ٦٠ ، ٧٣ و ٢٦ : ٣٢ ، ٦٧ و ٣٠ : ١٦ ، ٢٥ ، ٩٩ .

(٥) المصدر نفسه – ٢١ : ٦٧ .

(٦) المصدر نفسه – ١٦ : ٧ ، ٨٦ .

(٧) المصدر نفسه – ٢١ : ٦٧ .

(٨) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين ، وكانت رباطاً للمسلمين ، بينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر ميلا . ياقوت : م . البلدان – ٢ : ٨١٧ – ٨١٨ .

(٩) السيوطى بغية : ١٠٩ :

(ت ٣٣٢ هـ)، أبو عاصم المظفر بن أحمد (ت ٣٣٣هـ)، وأبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ). وكان مجلسه محشوًّا بعيون الناس وأعيان النبهاء[1]. وإن لنا أن نتوقع أن المصريين قد أفادوا من هذه الكتب التي رواها .

قبل سنة ٣٣٠ هـ دخل مصر فقيه بصرى من كبار فقهاء المالكيين ، راوية وللحديث عالم بعلله ، قد تقلد أعمالا للقضاء ، وذلك هو بكر بن العلاء القشيرى . وله كتب جليلة يعنينا منها ما يتصل بالقرآن مثل : كتاب من غلط فى التفسير والحديث ، مسألة بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب ما فى القرآن من دلائل النبوة . ولما كان قد حدث عن القشيرى من لا يعد كثرة من المصريين والأندلسيين والقرويين فربما كان له شيء من الأثر فى حركة التفسير بمصر لاسيما وأنه ظل مقيماً بمصر حتى توفى سنة ٣٤٤ هـ ودفن بالمقطم[2].

وفى سنة ٣٤٠ هـ دخل مصر فقيه مالكى بصرى آخر هو أبو طاهر الذهلى محمد ابن أحمد بن عبد الله الذى ولى قضاء بغداد وواسط ودمشق . ثم ولى قضاء مصر. ويوصف الذهلى بأنه كان كثير الحديث والأخبار ، واسع المذاكرة ، ثقة ، ثبتا ، كثير السماع ، فاضلا ، من أهل القرآن والعلم والأدب ، متفننا فى علوم . وقد حدث بمصر فأكثر ، وكتب عنه عامة أهلها . وظل يحدث بمصر ويلى قضاءها حتى توفى بها سنة ٣٦٧ هـ . والذى يعنينا منه أنه اختصر تفسير البلخى الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٥ هـ) وتفسير الجيانى[3] ؟

جـ – من المشرق :

كجزء من رحلته الكبيرة فى أرجاء العالم الإسلامى فى طلب الحديث والرواية قدم مصر حوالى سنة ٢٤٢ هـ الإمام الحافظ ابن ماجة ، محمد بن يزيد القزوينى (٢٠٩ – ٢٧٣ هـ) صاحب كتاب السنن أحد الصحاح الستة ، وسمع ابن ماجة من كبار العلماء المصريين مثل . محمد بن رمح (ت ٢٤٢ هـ)، حرملة بن يحيى

---

(١) الخطيب : ت . بغداد – ٤ : ٢٢٩ . القفطى : إنباه الرواة – ٤٥ – ٤٦ . ابن خلكان : وفيات (ط . النهضة) – ٢ : ٢٤٦ – ٢٤٧ . ابن فرحون : الديباج : ٣٥ . ابن حجر : رفع الإصر : ٧٢ وما بعدها .

(٢) ابن فرحون : الديباج : ١٠٠ .

(٣) المصدر نفسه : ٣١٤ – ٣١٦ .

(ت ٢٤٣ ﻫ) ، أبي الطاهر بن السرح (ت ٢٥٠ ﻫ)، يونس بن عبد الأعلى (ت ٢٦٤ ﻫ) ،ويحيى بن عثمان بن صالح (ت ٢٨٢ ﻫ). ولعله قد أفاد من هؤلاء المحدثين الكبار فى كتاب التفسير الذى وضعه وجمع فيه أقوال الصحابة والتابعين [١].

غير أن هذه لم تكن الفرصة الوحيدة التى يحتمل أن يكون ابن ماجة اتصل عن طريقها بالمدرسة المصرية فى التفسير . فهو قد حدث عن أبى زرعة الرازى (ت ٢٦٤ﻫ)[٢] الذى رأينا فيما مضى أنه حمل عن المصريين تفسير عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير [٣]. وهناك نص صريح على أن ابن ماجة روى عن أبى حاتم الرازى (ت ٢٧٧ ﻫ)فى التفسير [٤]. وقد رأينا فيما مضى كذلك[٥] أن أبا حاتم قد حمل عن عبد الله بن صالح كاتب الليث (ت ٢٢٣ ﻫ)تفسير على بن أبى طلحة عن ابن عباس . هذا إلى أنه – أبا حاتم – قد حدث عن عدد من المحدثين المصريين الذين عنوا بالروايات الخاصة بالتفسير مثل : سعيد بن أبى مريم (ت ٢٢٤ ﻫ)، يونس بن عبد الأعلى ، والربيع بن سليمان المرادى (ت ٢٧٠ ﻫ)[٦].

كان عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى (٢٤٠ – ٣٢٧ ﻫ) فى ا لخامسةعشرة، لم يحتلم بعد ، عندما ارتحل به أبوه فى طلب العلم . وقد دخل العالم الكبير وابنه مصر حيث أقاما سبعة أشهر يجلسان إلى علمائها ، ويدونان ما يسمعان منهم فى نشاط وحماس يصورهما قول الابن : كنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مرقة . نهارنا ندور على الشيوخ ، وبالليل ننسخ ونقابل . فأتينا يوماً ، أنا ورفيق لى ، شيخاً فقالوا : هو عليل . فرأيت سمكة أعجبتنا فاشتريناها . فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس بعض الشيوخ ، فمضينا . فلم تزل السمكة ثلاثة أيام ، وكاد أن

---

(١) ابن خلكان : وفيات (ط . النهضة) – ٣ : ٤٠٧ – ٤٠٨ . الذهبى : تذكرة – ٢ : ١٨٩ . ابن حجر : ت . التهذيب – ٩ : ٥٣٠ – ٥٣١ . الداودى : طبقات المفسرين: ٢٩٧ و ظ . بروكلمان : ت . الأدب العربى – ٣ : ١٩٨ .

(٢) الذهبى : تذكرة – ٢ : ١٢٤ .

(٣) انظر ٢٢٣ – ٢٢٤ من هذا البحث .

(٤) ابن حجر : ت . التهذيب – ٩ : ١

(٥) انظر ص ٣١٥ من هذا البحث .

(٦) ابن حجر : ت . التهذيب – ٩ : ٣١ – ٣٢ .

ينفى . فأكلناه نيًّا لم نتفرغ نشويه . ثم قال : لا يستطاع العلم براحة الجسد . وبعد سبع سنين (٢٦٢ هـ) – وكان الصبى قد أصبح شابًّا – رحل ابن أبى حاتم بنفسه إلى الشام ومصر مرة ثانية[1].

وأيًّا كان الأمر فلعل ابن أبى حاتم كان أكثر المفسرين الوافدين إفادة من المدرسة المصرية . فقد أشرنا فيما مضى[2] إلى أنه روى عن أبيه تفسير على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، وهو التفسير الذى رواه أبو حاتم عن عبد الله بن صالح بمصر . ونضيف هنا أن هذا التفسير يتكرر فى الجزأين الباقيين من تفسير ابن أبى حاتم بكثرة تغنى عن الإشارة إلى مواضعه . وهو مروى بالسند الآتى :

ابن أبى حاتم : حدثنا أبى : حدثنا أبو صالح كاتب الليث : حدثنى معاوية ابن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس: . . .

وفى الحديث عن تفسير سعيد بن جبير الذى نقله التابعى المصرى عطاء بن دينار (ت ١٢٦ هـ) شرحنا كيف روى ابن أبى حاتم هذا التفسير عن أستاذه وابن خالة والده الإمام أبى زرعة الرازى ، وكيف سجله فى تفسيره هو الخاص[3].

درسنا فيما سبق تفسير المفسر المدنى عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت١٨٢هـ) الذى سمعه منه ، ورواه عنه العالم المصرى عبد الله بن وهب (ت ١٩٧ هـ)[4]. ونضيف هنا أن تفسير ابن أبى حاتم يكشف حقيقة هامة تتعلق بتفسير ابن زيد هذا . تلك هى أن ابن وهب لم يكن العالم المصرى الوحيد الذى أخذ هذا التفسير عن ابن زيد . فقد سمعه منه ، وأخذه عنه كذلك الفقيه المصرى أصبغ بن الفرج (ولد بعد ١٥٠ هـ – ت ٢٢٥ هـ) ، ورّاق ابن وهب أى كاتبه، وأخص الناس به ، وتلميذه فى الفقه ، وأجل أصحابه . كان من أعلم خلق الله برأى مالك ، يعرفها مسيئلة مسيئلة ، متى قالها مالك ومن خالفه فيها . وعبر ابن وهب عن تقديره الكبير إياه بقوله له : لولا أن تكون بدعة لسورناك يا أصبغ كما تسور الملوك فرسانها[5].

---

(١) الذهبى : تذكرة – ٣ : ٤٦ – ٤٧ . السبكى: طبقات الشافعية – ٢ : ٢٣٧ – ٢٣٨.

(٢) انظر ص ٣٨٧ من هذا البحث . (٣) انظر ص ٢٨٦ من هذا البحث .

(٤) انظر ص ٣٠٧ من هذا البحث .

(٥) ابن خلكان : وفيات (ط . النهضة) – ١ : ٢١٧ . الذهبى : تذكرة – ٢ : ٤٣ . ابن فرحون : الديباج : ٩٧ . ابن حجر : ت . التهذيب – ١ : ٣٦١ – ٣٦٢ .

هذا التلميذ المخلص للمدرسة المدنية من الغريب أن تخلو أخباره – وهى غير قليلة نسبياً – من الإشارة إلى جلوسه إلى عبد الرحمن بن زيد مثلما تخلو قائمة تلاميذ ابن زيد منه. وقد يجعلنا هذا نظن أنه إنما أخذ التفسير عن ابن وهب لا ابن زيد، لولا أن من المعروف أنه رحل إلى المدينة ليسمع من مالك فدخلها يوم مات (١٤ ربيع الأول ١٧٩ هـ)[١]. أى قبل وفاة ابن زيد بثلاثة أعوام. وكان أصبغ حينذاك فى حوالى التاسعة والعشرين من عمره. هذا إلى أن السند الذى يروى به ابن أبى حاتم تفسير ابن زيد عن طريق أصبغ ينص صراحة على سماع الأخير من ابن زيد كالآتى:

ابن أبى حاتم: أخبرنا أبو يزيد القراطيسى – فيما كتب إلى –: حدثنا أصبغ ابن الفرج: سمعت عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (وأحياناً: عن أبيه) فى قوله: . . . .[٢].

سمع أصبغ التفسير إذن من ابن زيد – فى المدينة طبعاً –، فلما عاد إلى مصر كان يتحدث به. فكان فيمن سمعه منه بها المحدث المصرى أبو يزيد القراطيسى الذى يبدو أن ثمة صلة صداقة أو زمالة كانت بينه وبين ابن أبى حاتم، فكان القراطيسى يكتب إليه بما يرويه عنه، وكان التفسير مما كتب إليه. ويعرف هذا النوع من الرواية بالمكاتبة. وابن أبى حاتم يستعمل حقه فى وصف هذه الرواية بقوله: أخبرنا. ولكنه يلتزم الدقة حين يقيد ذلك بقوله: فيما كتب إلى، حتى لا يتوهم السماع فيكون غير صادق فى روايته[٣].

فى الحديث عن تفسير عبد الله بن صالح ذكرنا أن الحافظ العلامة محمد بن إبراهيم بن المنذر (ت ٣١٨ هـ) واحد من الذين أخرجوا من هذا التفسير كثيراً بوسائط بينهم وبين ابن صالح. ورجحنا أنه قد فعل ذلك عندما دخل مصر حوالى سنة ٢٦٨ هـ وروى عن شيوخها[٤].

---

(١) ابن فرحون: الديباج: ٩٧. ابن حجر: ت. التهذيب – ١٠: ٨.

(٢) انظر: ابن أبى حاتم: تفسير – ١: ٣٢ ظ، ٦٦ و، ١٧٨ ظ، ١٩٠ و + ٧: ٤، ١٢ على سبيل المثال.

(٣) ابن كثير: اختصار علوم الحديث: ١٤٤. وتعليق أحمد محمد شاكر: ١٤٤ – ١٤٥.

(٤) انظر ص ٣٨٩ من هذا البحث.

ونضيف هنا أن هذا الفقيه النيسابورى الأصل ، نزيل مكة وفقيهها ، وأحد أعلام هذه الأمة وأحبارها ، كان إماما مجتهداً ، حافظاً ورعاً ، غاية فى معرفة الاختلاف والدليل ، لا يقلد أحداً ، بلغ درجة الاجتهاد المطلق ، وألف التصانيف المفيدة السائرة التى احتاج إليها الموافق والمخالف والتى يعنينا منها كتاب التفسير [١].

ذكر صاحب كشف الظنون تفسير ابن المنذر هذا [٢]. ويؤخذ من بروكلمان [٣] أنه ما تزال هناك قطعة منه مخطوطة تحتوى على تفسير الآيات ٢١ من سورة البقرة حتى الآية ٩٤ من سورة النساء ؛ ولما كان ابن المنذر قد أخذ بمصر عن تلميذى الشافعى الكبيرين : محمد بن عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢٦٨ هـ) والربيع بن سليمان المرادى (ت ٢٧٠ هـ) [٤] فمن المحتمل أنه روى عنهما فى تفسيره ذاك بخاصة فى آيات الأحكام .

أما بعد —

فإنه بمقارنة هؤلاء المفسرين إلى زملائهم القراء الذين وفدوا إلى مصر فى الفترة نفسها يبدو فرق كبير . ففى حين كان للقراء نشاط ضخم فى الانتقال إلى مصر يحملون القراءات إلى أهلها ويأخذونها عن مشايخها ، نجد المشتغلين بالتفسير قليلين جداً لا يكادون يتجاوزون ثلاثة عشر رجلا جاءوا كلهم لحمل التفسير من مصر . ويلفت النظر أن نصف هذا العدد تقريباً جاء من العراق ؛ فى حين تتقاسم الأندلس وبلاد المشرق النصف الثانى . وبالرغم من ذلك فإن فى هذا العدد القليل ما يكفى لنرى كيف أسهمت مصر إسهاماً إيجابياً فى الحركة العامة للتفسير فى العالم الإسلامى. ولا أدل على ذلك من أن هؤلاء الرجال الذين دخلوا مصر ، وحملوا التفسير عن علمائها ، كانوا هم أنفسهم من الأعلام المشاهير الذين استطاعوا أن يلعبوا دوراً بارزاً فى تاريخ التفسير من مثل : بقى بن مخلد، بن جرير الطبرى . وابن أبى حاتم الرازى .

---

(١) الذهبى : تذكرة — ٣ : ٤ — ٥ . السبكى : طبقات الشافعية — ٢ : ١٢٦ .

(٢) ١ : ٤٤٠ .

(٣) تاريخ الأدب العربى — ٣ : ٣٠٠ — ٣٠١ .

(٤) الذهبى : تذكرة — ٣ : ٥ . السبكى : طبقات الشافعية — ٢ : ١٢٦ .

٤ ــ مفسرو الأقاليم

بالرغم من أن المحدث المصرى بكر بن سهل الدمياطى (١٩٦ — ٢٨٩ هـ) سمع الحديث بدمشق وبيروت ومصر من كبار الرجال ، ورواه عنه رجال كبار كذلك فإنه ضعيف. تكلم الناس فيه وضعفوه من أجل الحديث الذى يحدث به . والذى يعنينا منه على أى حال هو أنه كان له تفسير ، ولما زار القدس جمعوا له ألف دينار حتى رواه لهم[١]. فكيف كان هذا التفسير ؟

فى حديثنا عن التفسير الذى يرويه المفسر المصرى عبد الغنى بن سعيد الثقفى (ت ٢٢٩ هـ) عن ابن جريج بينا كيف أنه تفسير باطل غير جدير بالاعتبار لأنه تفسير موضوع ومنسوب زوراً وبهتاناً إلى ابن عباس[٢]. وقد روى بكر بن سهل هذا التفسير عن شيخه ابن سعيد .

غير أن أبا جعفر النحاس يورد فى كتابه « الناسخ والمنسوخ » الكثير من روايات تفسير عن بن أبى طلحة الذى حدث به عبد الله بن صالح فى مصر . وأبو جعفر يأخذ هذه الروايات مباشرة عن بكر بن سهل الذى سمعها بدوره مباشرة عن عبد الله بن صالح أحد شيوخه[٣]. وذلك يعنى أن بكر بن سهل قد روى هذا التفسير عن شيخه ابن صالح مثلما يعنى طبعاً أن أبا جعفر النحاس قد رواه عن شيخه بكر بن سهل .

وهذا يدعونا إلى أن نتسائل :

أى التفسيرين هو المقصود عندما يقال إن بكر بن سهل له تفسير ؛ وإنه روى هذا التفسير فى القدس فى مقابل ألف دينار ؟ تفسير ابن جريج أم تفسير عبد الله بن صالح ؟

---

(١) ابن عساكر : ت . تاريخ دمشق — ٣ : ٢٨٥ : ٢٨٦ . ياقوت : م . البلدان — ٢ : ٦٠٦ . الصاودى : طبقات المفسرين : ٥١ ظ . ابن العماد : شذرات — ٢ : ٢٠١ .

(٢) انظر ص ٣٩٧ من هذا البحث .

(٣) انظر — على سبيل المثال — ص : ٥ ، ١٢ — ١٣ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٧٣ ، ٨٨ ، ، ١٠٤ — ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٥ ، ١٢٦ — ١٢٧ ، ١ ١٥٢ ، ١٥٣ — ١٥٤ ، ١٥٦ .

الذى يبدو أن الأول هو المقصود على ما يفهم من عبارة الخليلى (ت ٤٤٦ هـ) عندما يقول فى كتابه «الإرشاد» : إن أطول ما يروى عن ابن جريج من تفسير هو ما يرويه بكر بن سهل عن عبد الغنى بن سعيد عن موسى بن محمد عن ابن جريج[1]. ويذكر صاحب كشف الظنون[2] تفسير بكر بن سهل باسم تفسير الدمياطى الذى رواه ابن سهل بسنده عن ابن عباس .

وأيًّا كان الأمر فلعل بكر بن سهل هو المثال الوحيد للتفسير فى الأقاليم إذ يبدو أنه كان يقيم بدمياط التى مات بها .

أما أبو بكر الأدفوى (ت ٣٨٨ هـ) فينبغى أن يضاف إلى رصيد العاصمة — الفسطاط — التى هجر مسقط رأسه أدفو نازحا إليها[3].

وتعود قلة — أو فى الأصح ندرة — المفسرين فى الأقاليم فتلفت النظر . ولم يكن القراء بهذه القلة ، مما قد يعلل بأن التفسير عمل أشق وأدق بحيث لا يمكن أن يجمع تفسيراً أو يرويه أو يؤلفه إلا عالم بالقرآن واللغة والحديث والفقه . وهؤلاء عادة كانوا يفضلون الإقامة فى العاصمة بما هى المركز الأول والأكبر والأهم للدراسة ، وملتقى العلماء القادمين من كل مكان .

وأخيراً — فهكذا قامت مصر بدورها فى فهم النص المقدس طوال عصر الولاة . ولا شك فى أنه كان دوراً إيجابيًّا فعالا مثمراً . ولو لم تقدم مصر فى هذا المجال سوى أنها حفظت تفسير كل من : ابن عباس . وابن جبير ، وابن زيد لكان ذلك حسبها . فكيف وقد استطاعت أن تنتج رجالا من أصحاب التفاسير مثل : أبى جعفر النحاس ، وأبى بكر الأدفوى ؟ هذا إلى جانب ذلك القدر الضخم من الروايات الخاصة بالتفسير التى حفظها وتناقلها المصريون ليستفيد بها المفسرون من مثل الطبرى فى تفاسيرهم .

ثم يبقى أن نلحظ أن استعراض المفسرين الذين تتابع ظهورهم فى مصر فى الفترة المحددة للبحث يكشف ظاهرة لافتة تلك هى استمرار تفسير ابن عباس

---

(١) السيوطى : الإتقان — ٢ : ١٨٨

(٢) ١ : ٤٤٧

(٣) انظر ص ٤٢٧ من هذا البحث .

وامتداد تأثيره فى حركة التفسير فى مصر طوال تلك الفترة . فبعد أن جاء ابن عباس إلى مصر ظهر فيها تلميذاه المباشران : مجاهد ، وعكرمة . ويبدو أن حنش بن عبد الله الصنعانى روى الكثير من التفسير عن ابن عباس . وسعيد بن جبير الذى نقل عطاء بن دينار تفسيره إلى مصر ونشره منها تلميذ مباشر لابن عباس ومن جيد الطرق عنه . وروى عبد الله بن وهب عن ابن عباس فى تفسيره الكبير الذى أخذ الجزء الأكبر منه عن ابن زيد . بل إننا لم نستبعد تأثر ابن زيد نفسه بابن عباس . وقد رأينا كيف اعتمد الشافعى فى فهم القرآن على مدرسة ابن عباس المكية التى حملها معه إلى مصر ومثلها بها . أما عبد الله بن صالح فقد استطاع أن يكون مصدراً لأوثق ما يسند إلى ابن عباس فى التفسير . وحتى التفسير المزيف الذى رواه عبدالغنى ابن سعيد الثقفى ثم بكر بن سهل الدمياطى منسوب إلى ابن عباس . ويميل أبو جعفر النحاس إلى الأخذ برأى ابن عباس فى التفسير قائلا : وأصح ما قيل فيه ، أو : وأحسن ما قيل فيه ما رواه . . عن ابن عباس . ولما كان أبو بكر الأدفوى تلميذاً مباشراً لأبى جعفر النحاس . وحمل عنه كتبه ، كان لنا أن نتوقع أنه تأثر بابن عباس كذلك .

وهكذا قد يكون لنا أن نقرر أنه إذا كانت مصر قد مالت إلى مدرسة المدينة فى القراءة فتتلمذت عليها ثم تبنتها ونشرتها ، فإنها فى التفسير تميل إلى المدرسة المكية التى وضع أسسها ورفع عمادها ابن عباس ، باستثناء ابن وهب الذى مثل — ربما للمرة الوحيدة — المدرسة المدنية .

وأياً كان الأمر فإن الذى لا شك فيه هو أن مصر ما إن عرفت الإسلام وآمنت به حتى أخذت مكانها فى الطريق الجديد الذى يقودها فيه ، وأسهمت بكل جد وقوة وإخلاص ونجاح فى إقامة المرحلة التاريخية الجديدة التى لم تدخلها مصر فحسب ، وإنما العالم القديم كله .

والحمد لله أولا وآخراً .





المصادر والمراجع



مصادر البحث ومراجعه

أولا : المصادر والمراجع العربية :

١ – العهد القديم .
٢ – إنجيل متى .
٣ – القرآن الكريم .
٤ – الأعشى (ت ٧ هـ) :
الديوان (القاهرة – ١٩٥٠)
٥ – الفرزدق (ت ١١٠ هـ) :
الديوان (القاهرة – ١٩٣٦)
٦ – مالك (ت ١٧٩ هـ) :
الموطأ (القاهرة – ١٩٥١)
٧ – الشافعي (ت ٢٠٤) :
(أ) الرسالة (القاهرة – ١٣٢١ هـ)
(ب) أحكام القرآن (القاهرة – ١٩٥١)
جمع الإمام البيهقي (صاحب السنن الكبرى ، ت ٤٥٨ هـ)
٨ – الواقدي : (ت ٢٠٧ هـ) :
(أ) كتاب المغازي (كلكته – ١٨٥٥)
(ب) كتاب فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان (القاهرة – ١٨٩١)
٩ – ابن هشام (ت ٢١٨ هـ) :
السيرة النبوية (القاهرة – ١٩٥٥)
١٠ – أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) :
فضائل القرآن (مصور بدار الكتب المصرية)
١١ – ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ) :
كتاب الطبقات الكبير (ليدن – ١٩٠٥ – ١٩٢١)
١٢ – ابن سلام (ت ٢٣١ هـ) :
طبقات فحول الشعراء (القاهرة – ١٩٥٢)
١٣ – ابن حنبل (ت ٢٤١ هـ) :
المسند (القاهرة – ١٩٤٦)
١٤ – البخاري (ت ٢٥٦ هـ) :
(أ) الصحيح (القاهرة – ١٣٤٨ هـ)
(ب) كتاب الضعفاء الصغير (الهند – ١٣٢٥ هـ)

١٥ – ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ) :
فتوح مصر (ليدن – ١٩٢٠)
١٦ – مسلم (ت ٢٦١ هـ) :
الصحيح (شرح النووى ، ت ٦٧٦ هـ) (القاهرة – ١٩٢٩)
١٧ – ابن قتيبة (ت ٢٧٠) :
(ا) المعارف (جوتنجن – ١٨٥٠)
(ب) عيون الأخبار (القاهرة – ١٩٢٥)
١٨ – أبو داود (ت ٢٧٥ هـ) :
(ا) السنن (شرح محمود محمد خطاب السبكى) (القاهرة – ١٣٥١ هـ)
(ب) كتاب المراسيل المنهل العذب المورود (القاهرة – ١٣١٠ هـ)
١٩ – الترمذى (ت ٢٧٩ هـ) :
الجامع الصحيح (شرح الإمام أبى بكر بن العربى المالكى ، ت ٥٤٣ هـ) (القاهرة – ١٩٣١)
٢٠ – البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ) :
فتوح البلدان (القاهرة – ١٩٥٦)
٢١ – الدارى (ت ٢٨٠ هـ) :
رد الإمام الدارى عثمان بن سعيد على بشر المريسى العنيد (القاهرة – ١٣٥٨ هـ)
٢٢ – الدينورى ، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ) :
الأخبار الطوال (القاهرة – ١٩٥٩)
٢٣ – ابن واضح اليعقوبى (ت ٢٨٤ هـ) :
التاريخ (النجف – ١٣٥٨ هـ)
٢٤ – المبرد (ت ٢٨٦ هـ) :
الكامل (القاهرة – ١٩٥٥)
٢٥ – المروزى ، محمد بن نصر (ت ٢٩٤ هـ) :
كتاب الوتر (لاهور – ١٣٢٠ هـ)
كتاب قيام الليل ، قيام رمضان ، كتاب الوتر – اختصرها العلامة أحمد بن على المقريزى ت ٨٤٥ هـ)
٢٦ – النسائى (ت ٣٠٣ هـ) :
(ا) السنن (القاهرة – ١٣١٢ هـ)
(ب) كتاب الضعفاء والمتروكين (الهند – ١٣٢٥ هـ)

٢٧ – الطبرى (ت ٣١٠ هـ) :
(ا) جامع البيان (القاهرة – ١٣٢٣ هـ)
(ب) تاريخ الأمم والملوك (ليدن – ١٨٩٧)

٢٨ – السجستانى ، ابن أبى داود (ت ٣١٦ هـ) :
كتاب المصاحف (القاهرة – ١٩٣٦)

٢٩ – ابن أبى حاتم الرازى (ت ٣٢٧ هـ) :
(ا) التفسير (مخطوط بدار الكتب المصرية)
(ب) الجرح والتعديل (حيدر آباد – ١٩٥٢)

٣٠ – ابن عبدربه (ت ٣٢٨ هـ) :
العقد الفريد (القاهرة – ١٩٤٠)

٣١ – أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ) :
(ا) معانى القرآن (مخطوط بدار الكتب المصرية)
(ب) إعراب القرآن (مصور » » »)
(ج) القطع والائتناف (مصور » » »)
(د) الناسخ والمنسوخ (القاهرة ١٩٢٣)

٣٢ – المسعودى (ت ٣٤٦ هـ) :
مروج الذهب (القاهرة – ١٣٤٦ هـ ، ١٩٥٨ م)

٣٣ – الكندى (ت ٣٥٠ هـ) :
الولاة والقضاة (بيروت – ١٩٠٨)

٣٤ – أبو الفرج الأصبهانى (ت ٣٥٦ هـ) :
الأغانى (القاهرة – ١٩٢٣)

٣٥ – أبو على القالى (ت ٣٥٦ هـ) :
الأمالى (القاهرة – ١٩٢٦)

٣٦ – الآجرى (ت ٣٦٠ هـ) :
أخلاق حملة القرآن (مخطوط بدار الكتب المصرية)

٣٧ – ابن خالويه (ت ٣٧٠ هـ) :
مختصر فى شواذ القرآن من
كتاب البديع (القاهرة – ١٩٣٤ نشر : برجشتراسر)

٣٨ – ابن النديم (ت ٣٨٣ هـ) :
الفهرست (ليبسك – ١٨٧٢)

٣٩ – المقدسى (ت ٣٧٨ هـ) :
أحسن التقاسيم فى معرفة
الأقاليم (القاهرة – ١٨٧٧)

٤٠ – ابن زولاق (ت ٣٨٧ هـ) :
أخبار سيبويه المصرى (القاهرة – ١٩٣٣)

٤١ – ابن جنى (ت ٣٩٢ هـ) :
الكتاب المحتسب فى تبيين
وجوه شواذ القراءات والإيضاح
عنها (مخطوط بدار الكتب المصرية)

٤٢ – ساويرس الأشمونينى (ت أواخر الرابع الهجرى) :
سير الآباء البطاركة (باريس – ١٩١١)

٤٣ – الحاكم النيسابورى (ت ٤٠٥ هـ) :
المستدرك على الصحيحين (الهند – ١٣٣٤ هـ)

٤٤ – أبو نعيم الأصبهانى (ت ٤٣٠ هـ) :
حلية الأولياء وطبقات
الأصفياء (القاهرة – ١٩٣٢)

٤٥ – أبو عمرو الدانى (ت ٤٤٤ هـ) :
(ا) التيسير فى القراءات
السبع (استانبول–١٩٣٠ نشر : پرتزل)
(ب) المحكم فى نقط
المصاحف (دمشق – ١٩٦٠ تحقيق : د.عزة حسن)
(ج) المقنع فى رسم
مصاحف الأمصار (استانبول – ١٩٣٢ نشر : پرتزل)

٤٦ – البيهقى (ت ٤٥٨) :
السنن الكبرى (حيدر آباد – ١٣٤٤ هـ)

٤٧ – الخطيب البغدادى (ت ٤٦٣ هـ) :
تاريخ بغداد (القاهرة – ١٩٣١)

٤٨ – القشيرى أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن (ت ٤٦٥ هـ) :
الرسالة القشيرية (القاهرة – ١٣٤٦ هـ)

٤٩ – الواحدى (ت ٤٦٨) :
أسباب النزول (القاهرة – ١٩٥٩)

٥٠ – الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) :
إحياء علوم الدين (القاهرة – ١٣٥٦ هـ)

٥١ – البغوى (ت ٥١٠ هـ) :
معالم التنزيل (على ذيل تفسير ابن كثير)
(القاهرة – ١٣٤٣ هـ)

٥٢ – الزمخشرى (ت ٥٢٨ هـ) :
(ا) الكشاف (القاهرة – ١٢٨١ هـ)
(ب) أساس البلاغة (القاهرة – ١٩٢٣)

٥٣ – السمعانى (ت ٥٦٢ هـ) :
الأنساب (ليدن – ١٩١٢)

٥٤ – ابن عساكر (ت ٥٧١ هـ) :
تهذيب تاريخ دمشق (الشام – ١٣٢٩ هـ)
٥٥ – ابن الأنبارى (ت ٥٧٧ هـ) :
نزهة الألبا فى طبقات الأدبا (القاهرة – ١٢٩٤ هـ)
٥٦ – الحازمى (ت ٥٨٤ هـ) :
كتاب الناسخ والمنسوخ فى حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
(مخطوط بدار الكتب المصرية)
٥٧ – الكرمانى ، محمد بن أبى نصر (السادس الهجرى) :
شواذ القراءة (مصور بدار الكتب المصرية)
٥٨ – الفخر الرازى (ت ٦٠٦ هـ) :
مفاتيح الغيب (القاهرة – ١٣٠٨ هـ)
٥٩ – ياقوت (ت ٦٢٦ هـ) :
(ا) معجم الأدباء (القاهرة – ١٩٣٦)
(ب) معجم البلدان (ليبسك – ١٨٦٦)
٦٠ – ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) :
(ا) الكامل فى التاريخ (ليدن – ١٨٦٦)
(ب) أسد الغابة فى معرفة الصحابة (القاهرة ١٢٨٥ هـ)
٦١ – السخاوى (ت ٦٤٣ هـ) :
جمال القراء وكمال الإقراء (مخطوط بدار الكتب المصرية)
٦٢ – ابن الصلاح (ت ٦٤٣ هـ)
مقدمة (الهند – ١٣٥٧ هـ)
٦٣ – القفطى (ت ٦٤٦ هـ) :
إنباه الرواة على أنباه النحاة (القاهرة – ١٩٥٠)
٦٤ – المنذرى (ت ٦٥٦ هـ) :
الترغيب والترهيب من الحديث الشريف (القاهرة – ١٩٥٤)
٦٥ – القرطبى (ت ٦٧١ هـ) :
الجامع لأحكام القرآن (القاهرة – ١٩٣٣)
٦٦ – النووى ، محيى الدين بن شرف (ت ٦٧٦ هـ) :
(ا) التبيان فى آداب حملة القرآن (القاهرة – ١٣٢٢ هـ)
(ب) تهذيب الأسماء (القاهرة – ١٩٢٩)
٦٧ – ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) :
وفيات الأعيان (القاهرة – الميمنية ١٣١٠ ، النهضة ١٩٤٨)
٦٨ – ابن سعيد الأندلسى (ت ٦٨٥ هـ) : (أكمل تأليفه) :

المُغْرِب فى حُلَى المغرب :
كتاب الاغتباط فى حُلى مدينة الفسطاط (القاهرة — ١٩٥٣)
٦٩ — ابن منظور (ت ٧١١ هـ):
لسان العرب (القاهرة — المطبعة الأميرية)
٧٠ — الملك أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ):
المختصر فى أخبار البشر (لاهاى— ١٧٩٤ والقاهرة—١٣٢٥ هـ)
٧١ — الذهبى (ت ٧٤٨):
(ا) تذكرة الحفاظ (حيدر آباد — ١٣٣٣ هـ)
(ب) طبقات القراء (مصور بدار الكتب المصرية)
(حـ) ميزان الاعتدال فى
نقد الرجال (القاهرة — ١٩٦٣)
٧٢ — أبو حيان الأندلسى (ت ٧٥٤ هـ):
البحر المحيط (القاهرة — ١٣٢٨ هـ)
٧٣ — ابن شاكر الكتبى (ت ٧٦٤ هـ):
فوات الوفيات (القاهرة — ١٩٥١)
٧٤ — ابن بطوطة (ت ٧٧٠ هـ):
رحلة (باريس — ١٨٥٣)
٧٥ — تاج الدين السبكى (ت ٧٧١ هـ):
طبقات الشافعية الكبرى (القاهرة — ١٣٢٤ هـ)
٧٦ — ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ):
(ا) التفسير (القاهرة — ١٣٤٣ هـ)
(ب) البداية والنهاية (القاهرة — ١٣٤٨ هـ)
(حـ) فضائل القرآن (القاهرة — ١٣٤٧ هـ)
(د) اختصار علوم الحديث
أو : الباعث الحثيث إلى
معرفة علوم الحديث (القاهرة — ١٩٣٧)
٧٧ — ابن أبى الوفا القرشى (ت ٧٧٥ هـ):
الجواهر المضية فى طبقات الحنفية (الهند — ١٣٣٢ هـ)
٧٨ — الزركشى (ت ٧٩٤ هـ):
البرهان فى علوم القرآن (القاهرة — ١٩٥٧)
٧٩ — ابن فرحون (ت ٧٩٩ هـ):
الديباج المذهب فى معرفة
أعيان علماء المذهب (القاهرة — ١٣٣٩ هـ)
٨٠ — ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ):

(ا) مقدمة (القاهرة – ١٣٢١ هـ)
(ب) التاريخ (القاهرة – ١٣٢١ هـ)
٨١ – ابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ):
الانتصار لواسطة عقد الأمصار (القاهرة – ١٨٩٣)
٨٢ – الفيروزابادى (ت ٨١٧ هـ):
القاموس المحيط (القاهرة – ١٩١٣)
٨٣ – القلقشندى (ت ٨٢١ هـ):
صبح الأعشى (القاهرة – ١٩١٣)
٨٤ – ابن الجزرى (ت ٨٣٣ هـ):
(ا) غاية النهاية فى طبقات القراء (القاهرة – ١٩٣٢ نشر: برجشتراسر)
(ب) النشر فى القراءات العشر (دمشق – ١٣٤٥ هـ)
(حـ) تقريب النشر (القاهرة – ١٩٦١)
٨٥ – المقريزى (ت ٨٤٥ هـ):
الخطط (القاهرة – ١٢٧٠ هـ)
٨٦ – الأبشيهى (ت بعد ٨٥٠ هـ):
المستطرف (القاهرة – ١٢٩٢ هـ)
٨٧ – ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ):
(ا) تهذيب التهذيب (حيدرآباد – ١٣٢٥ هـ)
(ب) الإصابة فى تمييز الصحابة (القاهرة – ١٣٢٨ هـ)
(حـ) فتح البارى بشرح صحيح البخارى (القاهرة – ١٣٤٨ هـ)
(د) رفع الإصر عن قضاة مصر (القاهرة – ١٩٥٧)
٨٨ – ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ):
النجوم الزاهرة (القاهرة – ١٩٢٩)
٨٩ – السيوطى (ت ٩١١ هـ):
(ا) الإتقان فى علوم القرآن (القاهرة – ١٣٥٤ هـ)
(ب) بغية الوعاة (القاهرة – ١٣٢٦ هـ)
(حـ) اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة (القاهرة – ١٣١٧ هـ)
(د) لباب النقول فى أسباب النزول (القاهرة – ١٣٨٢ هـ)
(هـ) حسن المحاضرة (القاهرة – ١٣٢٧ هـ)
٩٠ – القسطلانى (ت ٩٢٣ هـ):

إرشاد السارى إلى شرح
صحيح البخارى (القاهرة – ١٢٩٣ هـ)
٩١ – الداودى المالكى ، محمد بن على بن أحمد (ت ٩٤٥ هـ):
طبقات المفسرين (مخطوط بدار الكتب المصرية)
٩٢ – الشعرانى ، عبد الوهاب (ت ٩٧٣ هـ):
الطبقات الكبرى المسماة : لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار
(القاهرة – ١٢٨٦ هـ)
٩٣ – المقرى التلمسانى ، أحمد بن محمد (ت ١٠١٤ هـ):
نفح الطيب (القاهرة – ١٩٤٩)
٩٤ – حاجى خليفة (ت ١٠٦٧ هـ) :
كشف الظنون عن أسامى
الكتب والفنون (أستانبول – ١٩٤١)
٩٥ – ابن العماد الحنبلى (ت ١٠٨٩ هـ):
شذرات الذهب فى أخبار
من ذهب (القاهرة – ١٣٥٠ هـ)
٩٦ – الزبيدى ، محمد مرتضى (ت ١٣٠٥ هـ):
تاج العروس من جواهر
القاموس (القاهرة – ١٣٠٧ هـ)
٩٧ – على مبارك (ت١٨٩٢):
الخطط التوفيقية (القاهرة – المطبعة الأميرية)
٩٨ – الشيخ عبده محمد المتولى (ت ١٣١٣ هـ):
فتح المعطى وغنية المقرى فى
شرح مقدمة ورش المصرى (القاهرة – ١٣٠٩هـ)
٩٩ – جورجى زيدان (ت ١٩١٤ :
(ا) تاريخ آداب اللغة
العربية (القاهرة – ١٩٥٧)
(ب) تاريخ التمدن الإسلامى (القاهرة – ١٩٥٨)
١٠٠ – متز ، آدم : (١٩١٧):
الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى
(القاهرة – ١٩٤٧)
١٠١ – ڤلهوزن ، يوليوس (ت ١٩١٨) :
(ا) تاريخ الدولة العربية (القاهرة – ١٩٥٨)
(ب) الخوارج والشيعة (القاهرة – ١٩٥٨)
١٠٢ – جولد تسيهر ، أجنتس (ت ١٩٢١):
(ا) مذاهب التفسير
الإسلامى (القاهرة – ١٩٥٥)

(ب) العقيدة والشريعة فى الإسلام (القاهرة – ١٩٥٩)

١٠٣ – ترتون ، أ . س .
أهل الذمة فى الإسلام (القاهرة – ١٩٤٩)

١٠٤ – مصطفى صادق الرافعى (ت ١٩٣٧):
تاريخ آداب العرب (القاهرة – ١٩٤٠)

١٠٥ – محمود أحمد (ت ١٩٤٢):
جامع عمرو بن العاص (القاهرة – ١٩٣٨)

١٠٦ – محمد رمزى (ت ١٩٤٥):
القاموس الجغرافى للبلاد المصرية (القاهرة – ١٩٥٣ – ١٩٦٣)

١٠٧ – نيكلسون ، رينولد (ت ١٩٤٥):
فى التصوف الإسلامى وتاريخه (القاهرة – ١٩٥٦)

١٠٨ – أحمد أمين (ت ١٩٥٤):
فجر الإسلام (القاهرة – ١٩٥٥)

١٠٩ – محمد حسين هيكل (ت ١٩٥٦):
حياة محمد (القاهرة – ١٩٣٦)

١١٠ – بروكلمان ، كارل (ت ١٩٥٦):
(ا) تاريخ الشعوب الإسلامية (بيروت – ١٩٤٨)
(ب) تاريخ الأدب العربى (القاهرة – ١٩٥٩)

١١١ – عبد الوهاب خلاف (ت ١٩٥٦):
علم أصول الفقه (القاهرة – ١٩٤٢)

١١٢ – أمين الخولى (ت ١٩٦٦):
(ا) مادة: قرآن الكريم
دائرة معارف الشعب (القاهرة – ١٩٥٩)
(ب) مالك بن أنس (القاهرة – ١٩٥٧)
(حـ) المجددون فى الإسلام (القاهرة – ١٩٦٥)

١١٣ – حسن عبد الوهاب (ت ١٩٦٧):
تاريخ المساجد الأثرية (القاهرة – ١٩٤٦)

١١٤ – محمد فؤاد عبد الباقى : (ت ١٩٦٨):
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (القاهرة – ١٣٧٨ هـ)

١١٥ – طه حسين :
الفتنة الكبرى : عثمان (القاهرة –١٩٥٩)

١١٦ – فيليب حتى :
تاريخ العرب (مطول) (بيروت – ١٩٥٨)
١١٧ – آرثر ، جفرى :
المقدمة العربية لكتاب
المصاحف (القاهرة – ١٩٣٦)
١١٨ – جروهمان ، أدولف :
محاضرات عن الأوراق
البردية العربية (القاهرة – ١٩٣٠)
١١٩ – ولفنسون ، إسرائيل :
تاريخ اللغات السامية (القاهرة – ١٩٢٩)
١٢١ – محمد حسين الذهبي :
التفسير والمفسرون (القاهرة – ١٩٦١)
١٢٢ – فؤاد سيد (ت ١٩٦٨) :
فهرس مخطوطات دار الكتب (القاهرة – ١٩٦١)
١٢٣ – سهيلة الجبورى :
الخط العربى (بغداد – ١٩٦٢)
١٢٤ – دائرة المعارف الإسلامية :
الترجمة العربية (القاهرة)

ثانياً : المراجع الأفرنجية :

1 — The Koran, Rodwell's translation, London, 1

2 — Muir : Life of Mohammad, 1861.

3 — Lane-Poole, Stanley : A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1925.

4 — Moritz, B. : Arabic Palaeography, Cairo, 1905.

5 — Jeffery, Arthur :

a — Materials for the History of the Text of the Qur'ān, Leiden, 1

b — The Qur'ān as Scripture, New York, 1952.

6 — Blachère, Régis : Le Coran, Paris, 1947.

7 — The Moslem World, Vol. III, July, 1913, No 3. London.

8 — Encyclopaedia Islamica.

9 — Encyclopaedia Britannica.



الفهرس

الباب الثالث

تاريخ القراءة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

مصادر البحث ومراجعه

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٥٣٩٧٪١٩٧٠
مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٠

الفهرس

الصفحة

الباب الثالث

تاريخ القراءة

الصفحة

الصفحة

مصادر البحث ومراجعه